

مصد شرارة

من الإيمان إلى حرية الفكر

(٢٠٠٩)

بقلم بلقيس شرارة



مصدر من سيطرة الرأسمالية
لتنقيف الجماهير

من قبل
حكايات اشتراكية

إلى شقيقتي حياة شرارة

التي لولا قيامها بجمع أعمال محمد شرارة، خلال عامي 1979-1981، لكان من الصعب عليّ، أن أكتب هذا الكتاب. فقد نُهبت و أُنْت النار على ما تبقى من كتب و صحف المكتبة الوطنية في بغداد و مكتبة جامعة بغداد، في حرب عام 2003

أود أن أقدم الشكر إلى الذين كان لهم اليد في ردم الفجوات التي كنت أعاني منها عندما بدأت في كتابة هذا الكتاب. و أخص بالذكر كلاً من:

المعمار و الكاتب رفعة الجادرجي الذي كان لي عوناً و سنداً في جميع مراحل كتابة هذا الكتاب، من خلال الأحاديث التي أجريتها معه و التي تتعلق بموقف و نظرة محمد شرارة من الوجود.

و الشاعرة لميعة عباس عمارة، و السيدة فريدة الخليلي، و السيدة سكنة شرارة، و الكاتب وضاح شرارة، و الخطاط و الكاتب محمد الصكار، و الأستاذ حبيب صادق، و الكاتب كريم مروة، و الكاتب د. أحمد غلبي و الكاتب إحسان شرارة، و السيد حارث ناظم الزهاوي، و السيد خالص محيي الدين، و السيد إبراهيم نعيم بزي، و السيد أحمد شرارة، و الكاتب السيد هاني فحص. و الشاعر سعدي يوسف، و الكاتبة د.عزة شرارة بيضون، و الشاعر و الكاتب د. صلاح نيازي، و الشاعر كاظم السماوي، و الكاتب و المؤرخ رشيد الخيون، و الدكتور فاروق رضاعة، و السيدة بشرى برتو و السيدة ثمينة ناجي يوسف و السيدة لمعان البكري و السيدة بتول القشطيني و شقيقتي السيدة مريم شرارة، التي زودتني بالرسائل التي بعثها لها الوالد في عقديّ الستينيات و السبعينيات.

كما أود أن أقدم الشكر إلى السيد نصير الجادرجي و ابنه كامل الجادرجي، فلولا التسهيلات التي قدمها لي خلال إقامتي في بغداد، لما تسنت لي الفرصة في الحصول على المعلومات اللازمة في كتابة هذا الكتاب.

و أخيراً أتقدم بالشكر إلى الأستاذ الجليل عبد الحميد الرشودي الذي قام في تصحيح الأخطاء النحوية في الكتاب.

| | |
|-----|--|
| 11 | المقدمة |
| 15 | الفصل الأول - نشأته - بنت جبيل 1906-1920 |
| 31 | الفصل الثاني - دراسته - النجف 1920-1936 |
| 77 | الفصل الثالث - خلع العمامة 1936-1939 الانتقال إلى التدريس في المدارس الثانوية |
| 117 | الفصل الرابع - إعلان الحرب العالمية الثانية 1939-1941 |
| 139 | الفصل الخامس - الحلة 1942-1944 موقفه من عاشورا |
| 161 | الفصل السادس - الإقامة في بغداد - الرستمية 1944-1946 |
| 175 | الفصل السابع - الندوة الشعرية 1946-1949 |
| 227 | الفصل الثامن - من مديرية الأموال المستوردة إلى السجن 1950-1954 |
| 267 | الفصل التاسع - الهجرة القسرية 1954-1958 |
| 285 | الفصل العاشر - ثورة 14 تموز 1958-1963 السجن/ السفر إلى الصين |

327 الفصل الحادي عشر - انقلاب 1963
عودته إلى لبنان

367 الفصل الثاني عشر - انقلاب 1968
عودته إلى بغداد / وفاة شقيقته

387 الفصل الثالث عشر - وفاة زوجته 1970 - 1976

411 الفصل الرابع عشر - السنوات الأخيرة في بغداد 1976 - 1979

447 المراجع

لقد أقدمتُ على كتابة هذا الكتاب بعد أن وجدت، أن ما قدمه محمد شرارة من إسهام معرفي للأجيال في العراق و لبنان خلال نصف قرن من إنتاجه الأدبي، أصبح طي النسيان.¹

لكني شعرت إن للذاكرة دوراً مهماً « و كل شيء يكاد يغيب إلا الذاكرة، تلك الشمس الأخرى التي يدور حولها فلك التاريخ.»²

لذا أقدمت على كتابة سيرته لتعرف الأجيال الجديدة ما قدمه محمد شرارة و ما كان له من رؤية، انه امتداد هذا الإنسان في الزمن بعد الموت، و توثيق للمجتمع الذي عاصره خلال نصف قرن من مسيرته.

و بالنظر لأهمية الأحداث بالنسبة إلى تاريخ العراق و علاقتي الشخصية بها، حاولت في كتابة هذه السيرة تقصي الموضوعية و الالتزام بها، و هو مسعى لا يمكن تحقيقه بصيغة مطلقة، و ذلك لسببين. أولاً: تعقد ترابط الأحداث و عدم الإلمام بمعرفتها معرفة كاملة، ثانياً: إن الذات عندما تعالجها لا يمكن لها أن تتجرد تجرداً مطلقاً من الموقف الذاتي من الأحداث.

فتح محمد شرارة عينيه على منتدى والده الأدبي، و تشرب بحب الأدب و الشعر منذ طفولته، و أصبح جزءاً مهماً في حياته. إذ كان هنالك تراث شعري في جنوب لبنان و بالأخص في "جبل عامل"، حيث كانت دار والده ملتقى للشعراء و الأدباء و السياسيين، انتقلت هذه الناحية إليه، حيث انقلبت داره في بغداد في منتصف الأربعينيات من القرن الماضي إلى ملتقى للأدباء و الشعراء و السياسيين، و أنتجت تلك الندوات مولوداً جديداً، و هو تحديث الشعر، و أطلق عليه "الشعر الحر"، دامت حتى نهاية الأربعينيات.³

1 - أو كما كتب محمد شرارة عن الذاكرة: « تنفتح الذاكرة بنسيم المعرفة كما تنفتح زهرة الصباح، و تذبل و تتلاشى برياح خريف العمر، فتنثار كزهرة ذابلة في عاصفة النسيان.»، و هذا ما يحل بذاكرة الإنسان من الناحية الوجودية.

2 - " مدارات - الطريق إلى بنت جبيل " أدونيس، جريدة الحياة 20/10/2006

3 - أنظر فصل "الندوة الشعرية" 1946-1949

كما كان له في النجف دور رئيس في تأسيس "الجمعية العاملة- النجفية"، و هم مجموعة الشباب اللبنانيين و العراقيين الذين كانوا طلاباً في مدارس النجف الدينية، في منتصف العشرينيات من القرن الماضي، و التي استمرت لعدة سنوات. كونت تلك الاجتماعات بذرة الثورة على أساليب التدريس البالية في المدارس الدينية. و وقف موقفاً حازماً و تحدى المدرسة الدينية في النجف، و دخل في معركة ضد المحافظين فيها، من خلال الخطابة في المناسبات على المنابر، و الكتابة على صفحات جريدة "الراعي" و "الهاتف" و "الاعتدال"، لكنه وجد في النهاية أن لا سبيل إلى إصلاح المدرسة الدينية من خلال الذين كانوا مهيمنين على توجيهها، فترك المدرسة الدينية و خلع العمامة بعد أن حصل على شهادة الاجتهاد، و بذلك ودع حقبة مهمة في حياته و انتقل إلى حقبة جديدة. و أصبح مدرساً في المدارس الثانوية. كما كان المدير المسؤول لجريدة الهاتف في تلك الفترة.

أصبح ماركسياً في بداية الأربعينيات، حيث اتجه نحو التحليل المادي للتاريخ في كتاباته، و بدأت كتاباته تأخذ طابعاً مختلفاً، فلم يعد الوصف و المقارنة و المقابلة كافية، و إنما اتجه إلى التحليل الدقيق و نظرة المتفحص في دراسة المواضيع التي تناولها.

كان يستعمل نصوصاً غيبية في كتاباته و رسائله فترة الثلاثينيات و الأربعينيات من القرن الماضي حيث ما زالت العقيدة الدينية مرجعاً في ارتكازه المنطقي، لكنه انتقل إلى العالم العلماني الحقيقي، و تخلص من استعمال الكلمات الغيبية في كتاباته و رسائله منذ بداية الخمسينيات.

« شهدت مسيرته الأدبية الطويلة تغيرات و تبدلات في أسلوبه و مواقفه الفكرية.»⁴ و كتب محمد شرارة في مواضيع مختلفة، و عالج قضايا عديدة بجرأة و شجاعة، و وقف نصيراً في الدفاع عن حقوق المرأة طيلة حياته، كما قام بحملة قوية ضد أسلوب التعليم في المدارس بصورة عامة، و تدريس الأدب العربي بصورة خاصة. فكتب مقالات هاجم فيها المشرفين على التربية و التعليم آنذاك، فوجد نفسه كرة

⁴ - "المتنبي بين البطولة و الاغتراب" محمد شرارة، المؤسسة العربية لدراسات و النشر - بيروت،

تتلاعب بها الأيدي، فنقل من مدرسة إلى مدرسة، و من محافظة إلى أخرى، حتى استقر به المقام في بغداد.

كان ضد الإذعان، و تحدى السلطة الحاكمة مرات عديدة، فقد كان التحدي يجري في دمه. و عرضته هذه المواقف إلى الحكم عليه بالسجن مراراً، و أسقطت الجنسية عنه، مما أدى به إلى العيش بعيداً عن عائلته لأكثر من عقد و نصف. كما ذاق شظف العيش في محاربتة في رزقه، فقد فصل من الوظيفة، و فتشت داره مرات عديدة، و صودر بعض ما كتبه خلال التفتيش، أو حرق البعض منه، من قبل زوجته خوفاً عليه، من أن يصبح مستمسكاً ضده أثناء محاكمته!

كان عقلياً في تفكيره، متمرداً، متسائلاً دائماً، مؤمناً بالعلاقة الاجتماعية بين المثقف و المجتمع و بين العلم و التقدم. و اثق من أن تيار الاشتراكية سينتصر في النهاية، و لم يكن يرى غير الواقعية في الأدب و الشعر و الفن. كان على استعداد لتحمل تبعات هذا الموقف و مسؤوليته. ساهم في تطوير وعي تلامذته من خلال الأدب، الذي له رسالة عليه أن يوصلها لأجيال المستقبل الذين كان يعتبرهم العمود الفقري في المجتمع.

و لمحمد شرارة أسلوب بارع في الكتابة، فقد مارس كتابة الشعر و النثر منذ مستهل حياته الأدبية. فكتب المقالة و القصيدة و القصة السردية و الترجمة. و تميزت معظم كتاباته في أسلوبها الشعري الغنائي، حيث ينقل القارئ إلى أجوائه الشائقة، بغض النظر عن الموضوع، و لا تخلو مقالاته من النقد اللاذع، و التحليل الدقيق العميق، و كتب عنه خضر الصالحي:

« وفي طاقته المبدعة ينفذ إلى أعماق المجتمع. الذي يعج بالمتناقضات، و يصور معاشته الفعلية للأحداث. و من تصويره المجازي و اللغوي البارع نلمس في لغته الشعرية المدهشة روعة البيان، و جودة المعنى، و اشراقه الديباجة. لقد توطدت مفاهيمه الشعرية في الأجيال المتعاقبة، و انتشرت أفكاره، و تعمقت جذورها في النفوس، و واصلت حقيقتها في السلوك الحياتي المستمر، و التي تؤشر إلى رؤية مستقبلية تتجلى فيها عظمة رويته و أصالته.»⁵

⁵ - "المتنبى بين البطولة و الاغتراب" تقييم: خضر عباس الصالحي، مجلة العدل، العدد 17، 1982/4/24

كانت كتابة هذا الكتاب سبباً في التعرف على نواح كثيرة كنت أجهلها في والدي، و ينطبق عليه ما كتبه أخوه عبد اللطيف شرارة في هذا الموضوع:

« فقد يخيل للواحد منا أنه يعرف شخصاً ما، لكثرة ما رآه، أو سمعه، أو تحدث إليه، أو قرأ كتاباته أو أطلع عليها، لكنه يجد نفسه انه لم يكن يعرف ذلك الشخص معرفة تامة أو دقيقة، حين يقع بين يديه مثلاً كتاب أو رسالة أو أثر كان على جهل به، في حياة ذلك الشخص، و حتى خلال معرفته به.»⁶

بالرغم من كل ما صادفه محمد شرارة من إحباطات سياسية و اجتماعية، و العوز المعيشي و الوحدة النفسية و معاناته قسوة السلطة، فقد جابهها بعاطفة و عقل رافقه في شتى و أحلك الظروف التي مرت عليه. لذا كان جريئاً و صريحاً، فلم يصبه الوهن و لم يتردد في مجابهة عنف السلطة سواء منها عنف الدولة أو جهل و تخلف المدرسة الدينية.

لكنه حافظ على حسه الشعاري، حيث عالج المآسي الاجتماعية المليئة بالتناقضات، و الاحباطات السياسية بلغة شعرية مذهشة، و ما كان يقود هذا الأدب الشعري، الجياش بالعاطفة و التحليل المنطقي، هو الإرادة التي منح فيها السلطة إلى العقل.

بلقيس شرارة

2009/1/14

ملاحظة:

- 1- استعضت عن اسمي بحرفي (ب.ش)، و ذلك لتوضيح بعض المعلومات في الهوامش.
- 2 - لبعض الهوامش أهمية كبيرة في توضيح بعض النقاط في الكتاب، و لم اجعلها ضمن النص و ذلك لكي لا ينقطع سياقها. و لكي لا يحصل التباس لكثرة الهوامش في الكتاب، فقد وضعت "المقابلات" و "الأحاديث" التي قمت بها، و المكالمات التلفونية" التي أجريتها مع الأشخاص الذين لم استطع أن أقابلهم شخصياً، في بداية الهامش، أما "المراجع" التي اعتمدت عليها من الكتب و المقالات في الصحف، فوضعتها في نهاية الهامش.

⁶ - "الشيخ أحمد رضا"، بقلم: عبد اللطيف شرارة، وجوه ثقافية من الجنوب، دار ابن خلدون - بيروت 1981، ص - 25

كانت جميع المناطق التي تحت سيطرة الحكم العثماني رازحة تحت التخلف و الإهمال التام، من حيث الوضع الاقتصادي و الاجتماعي و السياسي و الثقافي. و كانت السلطة المطلقة في الأستانة تقوم في تعيين حكام لإدارة تلك المناطق، و كل ما يهم السلطنة هو الحصول على الضرائب و تجنيد شباب تلك المناطق في الجيش، ليكونوا وقوداً في الحروب الدائمة التي ارتكزت عليها الإمبراطورية العثمانية. كانت النساء تخفي أولادها عندما يحين طلبهم لخدمة الجيش. لم يكن وضع لبنان أو سورية الكبرى يختلف عن غيرها من المناطق. و قد فرض الإقطاع و رجال الزعامات السياسية سلطتهم على جنوب لبنان في العهدين المملوكي و العثماني.

كانت الجالية الشيعية في لبنان مهمة أكثر من الجاليات الأخرى، و أكثر ما كانت تخافه السلطنة في الأستانة هو نشر آرائهم الدينية عن طريق رجال الدين. فكانت الطائفة الشيعية تحت رقابة دائمة.

كما كانت البطالة متفشية بين سكان جبل عامل، فاتجه بعضهم إلى الهجرة إلى أفريقيا و الولايات المتحدة أو البرازيل، و لم يكن لأهالي بنت جبيل ملجأ للرزق إلا التجارة بين سورية و فلسطين، إذ كانت بنت جبيل الممر الذي يربط بينهما.

* * *

في مثل هذا الجو القاسي نشأ "علي شرارة" و والد "محمد شرارة"، و لم يكن في بنت جبيل إلا "مدرسة بنت جبيل" التي أسسها الشيخ "موسى شرارة" عندما عاد من العراق في القرن التاسع عشر. و لما كانت الرقابة شديدة من قبل السلطة العثمانية، فقد كان علي شرارة مع غيره من رجال الدين في جبل عامل شديدي التكتّم.

« لذا طوى هؤلاء آراءهم في صدورهم و استتفوا عن البوح بها إلا للقريب الأقرب، لقد طمس الشيخ علياً تحرزه من الإدلاء برأيه و احتياطه الشديد.»⁷

⁷ - "موسى الزين شرارة، الشاعر النائر"، إحسان شرارة، رسالة دبلوم في الأدب العربي من INALCO من باريس، 2002، ص- 122

كان الشيخ علي شرارة ذا سحنة سمراء، تطل من خلال نظارته عينان ضيقتان، يعتمر عمامة صغيرة بيضاء، و تطوق ذقنه لحية صغيرة، يرتدي سروالاً أبيضاً، تحت جبة سكرية اللون، لا تكشف إلا عن حذائه. أنيق المظهر، نحيفاً، ضامر الجسد، طويل القامة.

تزوج في عام 1905 "زينب" ابنة الشيخ موسى شرارة، التي عرف والدها: « بجزارة علمه و طلاقة لسانه و مقدرته الخطابية بالوعظ و الإرشاد ... و إنضم إليه عدد وافر من المشتغلين في طلب العلم و أصبحت بنت جبيل في عصره دار العلم في جبل عامل و محط رحال الأدباء و منتجع أهل الفضل.»⁸ كما كتب عنه تلميذه محسن الأمين:

كان موسى شرارة « عالماً فاضلاً، محققاً، مدققاً، فقيهاً، أصولياً، شاعراً، أديباً واعظاً، خطيباً، فصيحاً، حسن الأخلاق، عالي الهمة، كثير الحفظ، جميل الصفات، جامعاً لأنواع الكمالات.»⁹

و هو الذي أسس "مدرسة بنت جبيل" و أفلت بعده و تفرّق طلابها، فلم يكن هنالك من يقوم في إدامة المقام التعليمي في القرية، فقد توفي عن عمر يناهز 36 سنة في عام 1886.

* * *

و تميزت ابنته "زينب" بشخصية قوية بين نساء الضيعة، بالرغم من انها نشأت في جو تقليدي محافظ. كانت ذات وجه ضامر و سحنة سمراء، ممشوقة القد، طويلة القامة، يغطي شعرها الأسود الجعد، مندبل أبيض، تنتهي حافته بزخارف حيكت بالصنارة. مرتدية الملابس الطويلة التي تغطي معظم بدنها، ملابس غامقة اللون بأزهار ملونة صغيرة كالمنمنمات.

كانت حازمة، جدية المظهر، لكنها لينة العريكة، متواضعة، تجلس على مقعد مرتفع قليلاً عن الأرض، متكئة بظهرها إلى مسند سميكة، في صدر الغرفة المفروشة بالحصير الناعم و السجاد، المحاط بالفرش و المساند. رافعة رأسها، عندما تتقاطر

⁸ - "موسى الزين شرارة، الشاعر الناثر"، إحسان شرارة، رسالة دبلوم في الأدب العربي من جامعة

INALCO، باريس، ص- 55

⁹ - "أعيان الشيعة"، محسن الأمين، الجزء التاسع و الأربعون، "محمد شرارة : الأديب و الإنسان" د. مصطفى بزي، هيئة إتمام المنطقة الحدودية- لبنان 1994، ص- 19

نساء و فتيات الضيعة على زيارتها صباحاً و عصرأ، منحنيات بأجسادهن، مطأطئات رؤوسهن، يغمرن أناملها بالثلثات، و يحلفن باسم والدها "الشيخ موسى شرارة"، متممات و متمنيات لها العمر الطويل، قبل أن يجلسن في أماكنهن. تزم شفيتها ثم ترخيها عن ابتسامة الرضا التي تطوف على قسما و وجهها. فيشعر الجميع بهالة من الوقار تجاهها.

أضقت تلك الهالة، التي ورثتها عن والدها، بين أبناء و بنات الضيعة نوعاً من الاحترام الشبيه بالتقديس. كانت هي المشرعة، التي تحكم بين نساء الضيعة. حيث حصلت على هذه المعرفة عن طريق التوجيه و الملاحظة القوية و الحدس و ليس عن طريق الدراسة. فقد تعلمت القراءة و حفظت القرآن و كتب الأدعية منذ الصغر، لكنها لم تتعلم الكتابة.

« كانت الأسئلة التي توجه لها من قبل النسوة اللواتي كن يقاسين من ظلم أزواجهن، فتساعدهن و تطيب خواطرهن و تنصحهن بالكلمة الحلوة في التعامل اللطيف مع أزواجهن. كما كانت تُعتبر المرشدة لنساء الضيعة فيما يتعلق بالأسئلة التشريعية عن الطهارة و النجاسة. و كانت تنظم الشعر الشعبي في المناسبات المهمة، كالأعراس و المآتم، و التظاهرات ضد الاستعمار الفرنسي بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى.»¹⁰

كان أكثر ما يخافه أهالي جبل عامل هو اخذ رجالهم للخدمة العسكرية في الجيش، و كان معظم الرجال يحاولون التهرب، لأنهم يعرفون جيداً أنهم ربما لا يعودون إلى بلدهم و تنتهي حياتهم في أرض المعركة. و قد وقفت "زينب" موقفاً شجاعاً، عندما جاء "الجندرمة" يطلبون زوجها إلى الالتحاق في الجيش، في بداية نشوب الحرب العالمية الأولى،¹¹ فأخبرتهم انه غير موجود و لا تعرف

10 - مقابلة مع سكنة شرارة، ابنة الشيخ علي شرارة و شقيقة محمد شرارة، بتاريخ 2007/12/14

11 - و ذكر حسين مروة : « حين كان الجندرمة الأتراك يغشون الضيعة ليأتوا بالمطلوبين للخدمة العسكرية. يوماً كان أهل الضيعة يتواضعون على مصطلح معين ينذر بوصول الجندرمة. ما إن وصلوا حتى يصيح الأطفال (عباية عباية) إلى أن يصل الصوت إلى المطلوبين فيهربون. أنكر أن الجندرمة كانوا يغشون الضيعة أيضاً "لتحصيل ضريبة الأرض". "التحصيل دار" و يجيئونها نقداً. كانوا ينزلون في البيوت يقيمون أكلين شاربين حتى يوتى لهم بالضريبة. و إن عجز الفلاح عن تأمينها حطموا أوانيها و أوعية المئونة و خابية الزيت في بيته. كان قديم الجندرمة كارثة تحل بالضيعة. فالنقود ذلك الحين عريضة قليلة إلا ما كان يرد من المهجر.»

مكانه.¹² لكنها كانت تعرف قسوتهم، و لم تستغرب عندما جمعوا أثاث الدار، في كومة كبيرة و أشعلوا النار فيها، ظلت واقفة تحرق بألسنة النار تلتهم أثاث منزلها، و مكتبة عائلتها، و لم يغادر "الجندرمة" الدار، حتى تأكدوا إن النار أتت على كل شيء تقريباً. و ما إن ابتعدوا حتى هرع أهل الضيعة إلى إطفاء النار و إنقاذ ما يمكن إنقاذه مما تبقى من الأثاث،¹³ و لكن نجا زوجها من أتون الحرب الطاحنة التي دامت أربع سنوات. الحرب التي تخللها معارك ضارية لدرجة الإبادة، حيث كان القصف الشديد المتواصل يقلب النهار إلى ليل، و السماء مخنوقة بغمام القتل و الدمار، و الأجساد و الرؤوس تتدحرج في اندفاع إلى الأرض التي تحتضن دماءهم، و بين أزيز الرصاص و الأشلاء المتطايرة، كان على الجيوش ألا تتراجع، مهما أعطت من ضحايا، و كانت حرباً اقتاتت على الجثث و أطفأت ظمأها بالأكفان البيضاء، و ذابت في أوارها أجيال من الشباب.

تعرضت ضيعة "بنت جبيل" إلى مجاعة، شملت حتى عائلة الشيخ علي شرارة، فلم يشمل العقاب حرق أثاث البيت، بل شمل حتى حرق المؤمن، أو مصادرتها. و قد وصف محمد شرارة شعوره بالجوع، و الجو الذي هيمن على الضيعة في تلك الفترة التي خلت من الرجال، و لم يبق إلا النساء و الأطفال و كبار السن:

« كان (الجوع) أول إحساس أيقظني، أو أيقظ و جودي و أشعرتني أن لي كياناً قائماً

"حسين مروة - ولدت شيخاً و أموت طفلاً" سيرة ذاتية في حديث أجراه معه عباس بيضون 1985، نشر في دار الفارابي بيروت 1990، ص 27-28

¹² - مقابلة مع مريم شرارة، ابنة محمد شرارة بتاريخ 2008/7/16

« هرب الشيخ علي شرارة إلى الضيعة التي كانت تقطنها شقيقته فاطمة و اختفى عندها، و عندما سأل الجندرمة ابنه جواد الذي كان طفلاً لا يتجاوز ثلاثة أعوام، أجابهم بصورة عفوية في النجف».

¹³ - مقابلة مع سكتة شرارة بتاريخ 2007/12/14

« بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية و تكبدها الخسارة في الحرب العالمية الأولى، قسم الشرق الأوسط إلى محميات بريطانية و فرنسية، و كان لبنان و سوريا من نصيب فرنسا. و لم ينج جنوب لبنان من المعاملة القاسية التي تعرض لها أبناؤه من قبل الفرنسيين، لأنهم كانوا ضد الاستعمار الفرنسي، فاضطر أن يهاجر علي شرارة مع عائلته إلى فلسطين عندما هاجمهم الفرنسيون، و أحرقوا مكتبته، و لم يبق منها إلا مخطوط و احد نصفه محروق - يظهر أنه كان ثميناً جداً - حيث كان مهر أخته "سكتة".

كان الفرنسيون يجمعون المؤمن من الحبوب، ثم يضيفون فوقها الزيت و يحرقونها مع أثاث البيوت. و كانت النساء تجمع أثاث الدار من الفرش و السجاد و أدوات المطبخ و ترميها في البئر قبل مجيء الفرنسيين، لكي يستطيعوا بعد أن يغادر الفرنسيون القرى الجنوبية، أن يخرجوها من البئر. و يقال مرة من المرات، ان امرأة رمت خطأ طفلها الذي كانت تحمله مع فرش الدار في البئر.»

بذاته، و له حاجاته و له و مطالبه الخاصة و إن اشترك معه فيها جميع الناس. لم أكن أعرف في تلك اللحظة عدد أيامي، و كنت أجهل عمري، و لكنني لم أتجاوز دور الطفولة الأولى.

« السنة كانت سنة حرب، و كان الشباب كله غائبا عن القرى، و كل شيء يكاد يكون مشلولاً في غيابه. فالزراعة تتحرك في أضيق الحدود، و التجارة أشبه الأشياء بالأخبار المضطربة، و ساحة الحرب لا تشبع من المطالبة بالشباب و الموارد الشحيحة و وسائل النقل من الخيل و البغال و الحمير و أشباهها من الوسائل الشائعة.

« تحت تينة، و هي الشجرة الثانية بعد الكرمة المغروسة في الدار، كان الإحساس الذي فتح عيني، أول مرة، على الحياة، و على ما فيها من غرائب. كنت أبكي، و كانت أُمِّي تنظر نظرات لا أعرف مغزاها، و لا تشير إليه. و لكنها لم تكن تأنيبا أو توبيخا، و ربما كانت عطفاً أو حناناً أو حيرة. و لم أعرف ما تم بعد ذلك، و لا كيف عولج البكاء، أو عولجت الحاجة إلى الرغبة. و كل ما بقي من الذكرى أن ذلك الإحساس هو الذي أشعرنني بالوجود، و انه كان النقطة الأولى في سلسلة النقاط التي تكون الخط الجديد في الرؤية.

و لو مرّ ديكارت بهذا الإحساس، أو التفت إليه في لحظة المرور لانطلق منه إلى فلسفته المعروفة، لأنه أسبق من التفكير و من التأمل العقلي في الكون و الحياة.»
ثم يصف كيف ضرب الجوع الضيعة، و هيمن على الكثير من الناس و أدى إلى زيادة الشحاذين:

« في الضوء الجديد بدأت أطل على حياة الناس، و حياة الفقراء بصورة خاصة، ففي ذات يوم كنت واقفا على أحد السطوح المشرف على البيوت، و لم تكن أكثر من غرف في دار واحدة، و كان على بوابة الدار الكبيرة مجموعة من الشحاذين، فانسلت من بينهم فتاة شابة، و دخلت الدار، و وقفت على باب إحدى الغرف و سألت أهلها ما يسألها الشحاذ عادة. و لما عادت سألتها الذين ظلوا ينتظرونها قبل أن تصل إليهم بالعيون، فأخرجت كسرة صغيرة من الخبز لا تتجاوز حجم الدرهم و وضعتها بين إصبعين من أصابعها، و لوحت لهم بها.¹⁴

¹⁴ - و قد روت لي والدتي عن المجاعة التي عمت جنوب لبنان أثناء الحرب العالمية الأولى: و ذلك عندما ذهب والدتها ذات يوم لجلب الطحين من غرفة المون لعمل الخبز، ففوجئت عندما فتحت الصندوق

« كانت الكسرة، على صغرها، شيئاً عظيماً، و كان التلويح بها يعني ان "العطاء" ممكن، و انهم قد يحصلون على كسر مماثلة، و عندئذ دخل الفوج كله، و توزع على غرف الدار الكبيرة، و لم أعرف كيف عاد، و كيف انتهى الطواف بين السائلين و السائلات. هذا الأسلوب، و هو إرسال احد أفراد المجموعة، كان شائعاً فلا يقف السائلون كلهم على الأبواب، بل يرسلون واحداً، فإذا عاد بقليل من الخبز دخل الباقيون و الباقيات. و قد عرفت فيما بعد إن ذلك السيل من النساء و الأطفال و كبار السن لم يكن، أو لم يكن أكثره، من الشحاذين. و لذلك لم تكذب تنتهي الحرب حتى اختفى، و لم يبق منه سوى النوارس.»¹⁵

و بان العوز في كل مرفق من مرافق الحياة، حتى اضطرت والدته في التقدير في شراء الملابس، إذ كانت لا تملك إلا ثوباً واحداً من شدة العوز الذي مرت فيه العائلة، و اضطرت إلى ارتداء ملابس الصلاة عندما كانت تغسله، و تنتظر لينشف فترتيه ثانية.¹⁶

و لا غرابة أن يتجه محمد شرارة في كتاباته عندما شب، إلى الدفاع عن الفقراء و المستضعفين في المجتمع.

* * *

عُين الشيخ علي شرارة معلماً في عام 1920، و كان المعلم الوحيد لجميع الصفوف في مدرسة بنت جبيل الحكومية، حيث مارس التعليم لمدة عشرين عاماً. كان المعلم الأول لجيل تلك الفترة. تخرج عدد كبير من التلاميذ على يده، و أصبحوا معروفين في حقول الدراسة التي تخصصوا بها. كان ضد التعصب و الجمود، و انتقد رجال الدين المتعصبين في قصيدة، و "هذه الأبيات تشهد بروحه المتحررة و نظرتة الإصلاحية":

حَنَكُ بجانب كورها مسدولُ
كفُّ أرقُّ أديمها التقبيل

ما العلم تكوير العمامة لا و لا
ما العلم حملُ عصاً منقشةً و لا

الكبير الذي يخزن فيه الطحين، بطفلين بداخله، يغطي وجههما الطحين. كانا يأكلان الطحين بنهم ليشبع الجوع الذي يعانين منه، فقد دفعهما الجوع إلى أن يتوغلا خفية عن الأنظار داخل الصندوق. و عندما نادى على زوجها الشيخ كريم الزين، قال لها: دعيهما يأكلان! (ب.ش)

¹⁵ - مقطع من الصفحة الأولى التي كتبها محمد شرارة، كبداية لكتابة مذكراته، التي لم ترَ النور!! (ب.ش)

¹⁶ - مقابلة مع مريم شرارة، بتاريخ 2008/7/16

العلم أن تسمو بقومك للعلی و بهم إلى النهج القويم تمیل¹⁷

و كتب إحسان شرارة عنه: هو « جيل الرواد الذين انتقلت بنت جبيل بهم و معهم إلى رحاب العلم و الإنفتاح الفكري و التفاعل مع الحركات السياسية و الثقافية التي يمورُ بها الوطن، و تطاول المنطقة بأسرها. »¹⁸

« فجالس الأدب و الأدباء و ندواتهم التي كانوا يعقدونها في بيوتهم و منتزهاتهم و في أماكن و مجالات كثيرة كانت مناسبات دائمة للمساجلات و المطارحات الأدبية ... كانت جلساتهم و حلقاتهم حول ندوات راقية تنتقل مواضيعها من الأدب و السياسة و الدين و الفقه و الفلسفة و الاجتماع، و لم تكن هذه (العكاظ) العاملية المزدهرة لقاء موسمياً بتاريخ محدد، و إنما نمطاً معاشاً تطاول كل جبل عامل. »¹⁹

أي ان هنالك تراثاً طويلاً يمتد بالزمن لنظم الشعر و إقامة الندوات الأدبية بين عائلات كثيرة موهوبة في جنوب لبنان.²⁰

لذا ليس بالغريب أن تصبح دار علي شرارة: « نادياً أدبياً، شدَّ إليه الفئة المميزة من جيلها... جمع و استقطب شلة متورة متحررة وطنية واضحة الأفكار، تنشد العلم للشباب و البنات و ترفض التبعية و النفوذ الأجنبي و التسلط و الاستغلال. »²¹

17- (الكورة: العمامة المكورة... كارَ العمامة على رأسه أي لفها، و الحنك: يعني بها القسم من العمامة الذي يُسدل تعبيراً عن حزن)

"موسى الزين شرارة، الشاعر الناثر" إحسان شرارة، رسالة دبلوم في الأدب العربي من INALCO باريس، 2002، ص - 123

18- المصدر نفسه، ص- 122

19- "حسن الأمين"، بقلم: إحسان شرارة، دار المنهل اللبناني - بيروت 2006، ص 128- 129

20- حديث مع رفعة الجادرجي بتاريخ 2008/2/3، عندما سألته لماذا هنالك هذا النوع من التراث في نظم الشعر في جبل عامل؟

« يتعين علينا قبل أن نبدأ التوضيح بين مسألة تباين التراث لدى الشعوب، أن نبين إن كل مجتمع يتعامل و ينظم شبكة من الكلجريات cultures. و تتضمن الشبكة بمختلف أنواعها المتمثلة في الموسيقى و الشعر و الرقص و الاحتفالات الفصلية و الاحتفالات الدينية و غيرها. و تظهر في غالب المجتمعات لفترة ما إحدى الكلجريات و تهيمن على طابع الشبكة. و لم تزل كلجربة الشعر في العالم العربي هي الغالبة على كلجريات الفنون الأخرى. و كانت كلجربة الشعر في جبل عامل - و لا تزال - مهيمنة على شبكة الكلجريات التي تربط العلاقات العائلية و الاجتماعية. فغالب الأفراد في جبل عامل يجيدون حفظ الشعر و طرق إلقائه، في تجمعاتهم في فترات السمر أو في الندوات الشعرية. »

20- مقابلة مع سكنة شرارة، بتاريخ 2007 /12/14

21- "موسى الزين شرارة، الشاعر الناثر" إحسان شرارة، رسالة دبلوم في الأدب العربي من INALCO

من باريس، 2002، ص - 122

و انقلبت الاجتماعات الأدبية التي كانت تلقى بها القصائد، إلى اجتماعات سياسية أثناء الاحتلال الفرنسي، و استقطبت تلك الاجتماعات أناساً من مناطق بعيدة، مثل "غزة"، في أيام سوق الخميس. و لذلك نفي الشيخ "علي" إلى "الرفيد" و طرد من الوظيفة، كما لم ينج من "النقل التأديبي و الإبعاد التعسفي و النفي الظالم". فقد نقل مرات عديدة من مدرسة بنت جبيل، من قبل السلطة الحاكمة التي ظهرت مع الانتداب الفرنسي، إلى مدارس في "جويا" و قضاء "صور" و ثم إلى مدرسة "يارون" بسبب قصيدة حث فيها على العلم و حمل الزعماء مسؤولية تردي الوضع التعليمي في المنطقة. و صدر بحقه قرار يُدعى "قلع بند" بالقانون التركي القديم، قضى بنقله إلى قرية في البقاع عام 1935، ثم نقل إلى مدرسة في "الزرارية"، و أُقيل بعدها في العام نفسه.

كان و ضع العائلة المالي ضعيفاً، و ليس هنالك الوفرة لكي تتمكن من التخطيط إلى المستقبل. إذ كانت دائماً تردد زوجته، من ان "رزق بكرة لبكرة"، و لا تفكر العائلة بما سيجد عليها في اليوم التالي! و لكن كان تموين البيت يأتي من المزارع الصغيرة التي يملكونها، فليس هنالك حاجة إلى شراء شيء، حيث كان تموين (100) مدّ من القمح سنوياً، يكفي إلى عمل الخبز و البرغل. كان الزيتون يعصر في الدار و تحفف الفاكهة من الخوخ و التين لفصل الشتاء. فكان هنالك نوع من الاكتفاء الذاتي في بيوت القرى بصورة عامة. إضافة إلى التبادل التجاري بين أهل بنت جبيل و بين أهالي فلسطين، إذ كان الفلسطينيون يجلبون الخضار و يتبادلون القمح و البرغل مع أهالي بنت جبيل.²²

كانت الدار التي يسكنها الشيخ علي شرارة بسيطة، متواضعة، مؤلفة من عدد من القناطر، فكان أخوه و أولاده و بناته يعيشون في القناطر المجاورة، أي في الدار نفسها، و كانت علاقات الأخوة و الصداقة هي الغالبة على علاقات الدم و القرابة. كما كانت العائلة تجتمع حول المائدة في تناول الطعام، و كان "علي شرارة" يترأس مائدة الطعام، و لا يبدأ بتناول الطعام قبل أن يجتمع جميع أعضاء العائلة، و إن تأخر أحدهم لسبب ما، كان ينادي عليه، أو ينتظره، و لا يسمح بالبدء بالأكل قبل حضوره.²³

²² - مقابلة مع سكنة شرارة، بتاريخ 2007/12/14

²³ - مقابلة مع سكنة شرارة بتاريخ 2007/12/14

كان على شرارة شيخ الضيعة، و المحكم بين أهاليها، يستشار في قضايا الضيعة الخاصة و العامة، من الزواج و الطلاق و السفر.

كما « كان في أيام العطل مرجعاً شرعياً، و قاضياً يقصده الناس لحل خلافاتهم، يحضونه الثقة و التقدير و الاحترام، يصلحهم عند الإمكان، و يحكم بينهم عند الاختلاف، فيخضعون و ينفذون.»²⁴

كانت السبحة المرافقة له لا تفارقه، يكورها بين أصابع يديه، ثم يفتحها فتتدلى حبات الكهرب الصفراء من بين يديه كأساور النساء الذهبية، يعدها خرزة، خرزة، تمتزج أصوات الخرز بتمتمته قبل أن ينطق بالحكم! فللسبحة قوة خارقة عندما تقرر مصائر الناس، و مظهر من مظاهر قوى الغيب، مشوبة بحكمة غامضة، عندما لا يقدمون على القيام بعمل قبل استشارتها! فالجميع أنظارهم مشدودة إلى الأصابع التي تعد خرزها، لأن انتقال الخرز بين أصابعه هو في الواقع انتقاء رؤية المستقبل لذلك العمل أو المشروع. و بذلك تصبح السبحة رمز القوة الخارقة البديلة عن إرادة الإنسان! فإن كانت نتيجة الخيرة إيجابية، عندئذ يباركهم و يشجعهم على الإقدام بتطبيق المشروع الذي ينون إنجازه. و إن كانت سلبية فيؤجل العمل و يتوقف الإقدام على أي مشروع حتى "خيرة" ثانية تكون نتيجتها إيجابية! كانت قوة السبحة الغامضة، مهيمنة حتى عليه! لا يتحرك أو يقدم على سفر قبل استشارتها، فهي رمز الإحباط و النقاؤل، و هكذا كان يعيش هو و أهل الضيعة، بظل سبحته التي لا تفارقه!!

و كتب محمد شرارة عن السبحة في هذا المفهوم عن قصيدة للشاعر علي الشرقي:
« و "السبحة" رمز أكليروسي يشير إلى نوع من الامتياز القائم على أساس ديني تشترك في تكوينه جميع التصورات و الأفكار التراثية فنية كانت أو غيرها، ثم تنتهي إلى بناء أيديولوجي له حجارته الخاصة و ما يشترك مع الحجارة من و سائل في إقامة الهيكل الكبير.»²⁵

إنها نوع من ممارسة السحر في عالم مقدس. و قد ظهرت هذه الممارسة مع ظهور الإنسان القديم و قبل ظهور الأديان، سواء أكانت متعددة الآلهة أو الموحدة منها.

²⁴ - موسى الزين شرارة، الشاعر الثائر، إحسان شرارة، رسالة دبلوم في الأدب العربي من INALCO

من باريس، 2002، ص - 125

²⁵ - "الشرقي و الإيماءة اللاذعة" محمد شرارة، مجلة العرفان - نيسان 1978

حيث اعتقد ان مختلف الأشياء الجامدة و المتحركة لها روح، و تتفاعل مع تلك الروح القائمة في الأشياء، و التي يمكن لها التأثير على مستقبل الفرد. و هنالك قوى الأرواح العديدة التي تسكن في مختلف الظواهر الطبيعية و الاجتماعية، و تتمثل في عد خرز السبحة، أو قراءة الفنجان أو الودع أو غيرها.

لكن رغم اعتقاد "علي شرارة" بقوة السبحة و سحرها، إلا انه هيمن جو فكري منفتح في داره، بعيد عن التحجر و الانغلاق، فلم يكن مترمناً في موقفه بل كان واسع الأفق في نظرته للأمور.

* * *

ولد ابنه محمد في عام 1906، و تربى و ترعرع في هذا المناخ الأدبي الذي هيمن على الدار منذ طفولته.

و « عمل و الده على تلقينه علوم العربية، و كان يجبره على حفظ عُرر من قصائد الشعر العربي، و هو لماً يبلغ العاشرة من عمره أو يكاد، و يعاقبه عقاباً صارماً إذا أخطأ.»²⁶

لم يكن الكهرباء قد زار ضيعة بنت جبيل، فكان الصبي يقرأ على ضوء القنديل، رغم إن المطالعة بضوء خافت مضرة للنظر. و قد نشأت طقوس يومية في تنظيف تلك القناديل و إنارة الدار. كان محمد يراقب والدته عندما تجلب القناديل لغرفتها قبل أن يتلاشى نور النهار القصير في فصل الشتاء و يسدل الليل ستاره المعتم. تُصف القناديل بألوانها المختلفة المزخرفة أمامها، و تبدأ طقوس تنظيفها من السخام الأسود الذي غطى زجاجها في الليلة الماضية. ثم توزع القناديل بعد إضاءتها في غرف الدار، فتطرد عتمة الليل و ما يشوبه من غموض و خوف، و تشيع في أرجاء الغرف الطمأنينة في النفوس.

كان بطبيعة الحال أن يتجه "محمد" نحو الكتابة و نظم الشعر في سن مبكرة، و سحرته اللغة العربية، و راحت معرفته تنمو و تزداد مع اتساع الأفاق أمامه في الكتب و الحياة على السواء. لم تكن طفولته مرفهة أو مترفة، فلم يكن عنده مجال للعبت و اللعب كما يفعل الأطفال عادة، بل لم يشعر حتى بمرحلة الطفولة!

²⁶ - مقدمة كتاب "المتنبى بين البطولة و الاعتراب"، تحقيق د. حياة شرارة، المؤسسة العربية للدراسات و

و إنما « اتسمت طفولته بشيء من القسوة في بعض الأحيان، كانت تربية الأطفال و تشتتتهم تتسم بالحزم و الشدة. كان يكلفه و الده ببعض الأعمال التي تتطلب تنقله من بلد لآخر ... و كان الطفل ينجز ما كلف به، و يتجشم الأخطار، و يبدي ضرورياً من الإقدام و الثقة بالنفس و لم يعرف الشكوى أو التردد، إذا وكلت إليه مهمة، فتحمل المصاعب و ركوب الأخطار و طاعة الأب المطلقة، أمور لا تقبل الجدل أو النقاش آنئذ.»²⁷

كما كان خيلاً ماهراً، ينتقل بين القرى رغم صغر سنه، و قد تأخر ذات يوم في العودة لضييعته عندما كلفه والده في إيصال بعض الرسائل، و ساد الظلام و لم يعد يسمع إلا عواء الذئاب و الضباع، حاول أن يسرع بالفرس، و لكنها أجفلت و توقفت عن السير عندما ظهر عن بعد ذئب متجه نحوهما. كانت عينا الذئب تشعان إشعاعاً مخيفاً، اخترقت أعماق الفرس فتسمرت و تجمدت في مكانها، و لم يكن أمام الصبي إلا أن يتخذ قراراً حاسماً خلال بضعة لحظات، فالموت ينتظره و ينتظر فرسه. اقترب الذئب المكشّر عن أنيابه ببطء من الفرس و الخيال، و ازداد بريق عينيه إشعاعاً، يهم أن ينقض على فريسته. لم يكن عند الصبي ما يدافع عن نفسه إلا علبة كبريت، أضاء الصبي بعض عيدان الكبريت، فولى الذئب الجائع و نجا الصبي و الفرس من أنيابه. علمته هذه الحادثة، ضبط النفس في مجابهة المشاكل و الاعتماد في حلها بهدوء بعيد عن الارتباك أو الخوف.

كان يخرج أحياناً مع أطفال الضيعة، يتسلقون التلال المحيطة بالضيعة، يتأملون السماء المحيطة بها، يحاولون أن يصلوها، فكتب عن خيبة الأمل عندما وصلوا الجبل:

« كنا، و نحن صغار، نظن أو نعتقد أن الذي يقدر أن يرتقي إلى قمة الجبل، يستطيع أن يلمس السماء، لأنها كانت تتراءى لنا فوقها قريبة. و كنا نتمنى أن نكون من ساكني الجبل أو قمته حتى نبقى على صلة بالسماء. و قد غامرنا مرة، بعد ما ألفنا كوكبة من الأطفال، و صعدنا في الجبل حتى و صلنا إلى القمة، و إذا السماء على القمة بعيدة بعيدة، كما كانت فوق السهل، ف شعرنا بشيء من الخيبة أو الفشل.»²⁸

²⁷ - المصدر نفسه، ص- 10

²⁸ - "الإبداع و الإحساس بالخيبة" محمد شرارة، مجلة العرفان - بيروت، أيلول 1965.

و لأنه كان الولد البكر فلم يوقفه الحظ في أن يتمتع حتى بالصبا، فقد كان في سن المراهقة عندما نظم أول قصيدة بحبيته و ابنة خاله "مريم"، و كانت "مشاغله العاطفية الذاتية" في تلك الفترة مهيمنة على تفكيره. كانت ابنة خاله تعيش في الدار المجاورة لدارهم، فكان اللقاء بها يومياً. لذا فإن والده لم يكن يتوقع له مستقبلاً ناجحاً، لأن العقلية التقليدية لا تعي أن الصبي يتعين عليه أن يمرّ بدور المراهقة. و لأن والده الشيخ علي شرارة كان يجهل أهمية عاطفة الحب في سن المراهقة، من أنه يلعب دوراً مهماً في حياة الصبي، أو له أهمية عاطفية في كيان الإنسان. و لكن رغم تلك الفكرة التي كوّنّها عن ابنه البكر، فقد منحه الفرصة بالرحيل للدراسة. أما بالنسبة للصبي فقد نما تمرد داخلي في أعماقه من جراء الكبت و المعاناة من الضغوط العائلية و الاجتماعية، و كان السفر لوناً من ألوان النفي، إذ كان عليه أن يخلف والده و يصبح شيخاً، فشدّ الرحال مجبوراً إلى مدينة النجف.²⁹

لذا كتب عنه حسين مروة:

« إن "مشاغله العاطفية الذاتية" تلك نفسها، كان لها دور هنا.. فهي لأنها كانت تواجهه، قبل الرحيل إلى النجف، بشيء من القمع و لأنه هو كان يواجه ذلك "الشيء" من القمع بالعناد و التصلب، بدأت تتكون في شخصيته احتمالات المواقف المستقلة، و مواقف التحدي حيال الواقع، أي حيال أي واقع يجد فيه سلطة فرض الموقف عليه من الخارج، أي من خارج ذاته، خارج اختياره.»³⁰

29 - عندما بُعث محمد شرارة إلى الدراسة في النجف، كان والده هو المسؤول عن تكاليف دراسته و لم يطلب أية مساعدة مالية من عائلته، فلم يمرّ بمعاناة حسين مروة، التي كتب عنها:

« فقد حضرت جلسات "اليد" مع وجوه العائلة و كنت في صمتي أراقب ما يجري و ألاحظ حركاتهم و تعابير وجوههم. و من ذلك خرجت بأن أغلبية هؤلاء يدفعون حياء من السيد. كنت ألاحظ التنمر و التردد و محاولة النكوص في وجوههم. فرحتي بالسفر غطت على الألم الذي أحسست به في أعماقي. و الذي كان مزيجاً من شعور بالذلة، و شعور بقسر الناس على ما لا صلة له بهمومهم و شواغلهم. أحسست كأنني بت من تلك اللحظة عالة عليهم. ذلك الشعور لبث طي نفسي ساكناً لا يتحرك... لذا استخفي هذا الشعور في باطني و لم يعاود الظهور إلا بعد وصولي إلى النجف و احتكاكي بالحياة اليومية فيها.»

"حسين مروة - ولدت شيخاً و أموت طفلاً" سيرة ذاتية في حديث أجراه معه عباس بيضون، دار الفارابي - بيروت، الطبعة الأولى 1990 ص- 29

30 - محمد شرارة: كاتباً و إنساناً، حسين مروة، وجوه ثقافية من الجنوب، دار ابن خلدون، 1981، ص-

و بهذه المجابهة الضمنية بين الأب و الابن، دفعت محمد شرارة إلى أن يكون دائماً في مجابهة مع السلطة الفوقية و التقليدية مهما كانت.

و كتب في مقال بعنوان "دموع و دموع" عن حبه لمريم:

« كل شيء يمكن إخفاؤه إلى أمد طويل إلا الحب فإنه نمام فاضح، و علم الناس بالأمر و أبوا - كما هي عادتهم - أن يفهموا هذا النداء العنيف و هذه الهواتف الداوية إلا من ناحية الجسد! أما الجانب الروحي فلم يتحدث عنه أحد، و لم يدركه أحد، لذلك أخذوا يعدون على الحبيبين الأنفاس و النظرات و الخطرات كأنهما مجرمان لا حبيبان، و شاعت الظروف أن تضع حداً للألسن قبل أن يستقل، إذ شاع أنه سينقل من بلاده إلى بلاد أخرى بعيدة نائية لأنه عزم أن يشق له طريقاً جديداً في الحياة.»³¹

* * *

ترك الصبي ربوع لبنان و لمّا يبلغ الرابعة عشرة من العمر، متوجهاً لدراسة العلوم الدينية و اللغة العربية في مدينة النجف عام 1920. كان الجنوب أو "جبل عامل" كما يطلق عليه، مهملاً، لم يحظْ بالاهتمام الذي حظي به جبل لبنان، خلال الحكم العثماني، فكان الناس يبعثون أبناءهم لدراسة النصوص الدينية في مدينة النجف، ليتبوعوا عند عودتهم المراكز القضائية الشرعية في بلادهم.

كانت علاقة والدته علاقة خاصة به، تحبه حباً شديداً، كما كان حانياً عليها و على أخوته، و حاول مساعدتها في رفع بعض الأعباء عنها. لذا كان يحز الألم بنفسه، على صغر سنه، عندما يرى والدته متعبة و مرهقة من كثرة الواجبات الملقاة على عاتقها، في إدارة شؤون البيت و تربية الأطفال. و عندما حان موعد سفره، و دعت والدته الحزينة على فراق ابنها البكر، الذي سيغيب عنها سنوات طويلة، و لا تدرى متى ستكتحل عيناها برؤيته ثانية، بقصيدة شعبية من نظمها:

| | |
|-----------------------------|---|
| راحوا على النجف الله معاهم | (أي ذهبوا إلى النجف برعاية الله) |
| أطوا الدرب و عيني ترعاهم | (أي عبروا الدرب و عيني ترعاهم) |
| كيف بدّها تكون العيشة بلاهم | (أي كيف يمكن أن تكون العيشة من دونهم) |
| يلي جبرتو ليش تلوมนา | (أي يا من جبرتم على الفراق، لماذا تلوมนา) |

³¹ - "دموع و دموع" محمد شرارة، مجلة الهاتف - النجف، أيار 1938.

كانت والدته تغنيها طيلة النهار، بعدما سافر ابنها إلى النجف، تعيدها مرات عديدة، كما كانت تغني دائماً: "النجف يا وطناً".³²

أما "محمد"، فلن ينسى آخر ليلة قضاها في دار والده عندما امتلأت بالزوار من الأقارب و الأصدقاء لتوديعه، وظلت تلك الليلة في ذاكرته لا تفارقه لسنين طويلة، و وصف في مقال، الساعات الأخيرة قبل الصعود إلى السيارة، التي أبعدته عن حبيبته و ضيعته "بنت جبيل":

« توارى الليل وراء الأبد، و طواه العدم في جوفه، و لفه لسان اللانهاية و أقبلت الشمس في موكب جديد و أقبل الناس معها يستقبلون اليوم الجديد، و يودعون الراحل الجديد. و بعد أن اجتازوا البلد وقفوا تحت طائفة من الأشجار يلقون على المسافرين نظرات و كلمات كما هي العادة في مثل هذا الموقف، و كان بين المودعات "حبيبته". و لما جاء دورها تغير اللحن فلا نظرات و لا كلمات. و لكنه شيء آخر أتعرف ما هو؟ انه دموع! دموع فقط، و منديل حريري ابيض و ثب من يدها إلى يده. ... و فتحت عندئذ أبواب السيارة فدخل و ما كاد يجلس على المقعد حتى تراجعت خطوة إلى الوراء، ثم اندفعت إلى الأمام و سارت كأنها الجن في الأرض و مضت تقطع البلاد و تجتاز الدروب، و "محمد"³³ لا يعرف أين هي و لا أين صارت و لا الأميال التي قطعتها. مضت و مضت و "محمد" لا يعرف شيئاً و قطعت في هذا السير بلاداً لم ير منها شيئاً، و إذا اتفق لسيارته أن صدتها حفرة أو مانع يهز وجوده فلا يلفته و لا يرده من غيبوبته إلا شيء واحد كان يتساءل عنه..»³⁴، لقد شعر في هذا الرحيل كـ "منديل تمزقه الدموع!"

ظل ذلك الصبي المقهور قابلاً في أعماقه، يطل بين الآونة و الأخرى من بين السطور في المقالات التي كتبها، أو متمثلاً في القصائد التي نظمها، و كأنها تعبير عن انفجار الذات المقموعة، الذات التي لم يتحقق حلمها الذي كانت تصبو إليه، و ظل التمرد الداخلي يتنامى في أعماقه و يتساءل:

32 - مقابلة مع سكتة شرارة، ابنة الشيخ علي شرارة، 2007/12/14

33 - استعمل في مقال "دموع و دموع" اسم "عزيز" (ب.ش)

34 - "دموع و دموع" محمد شرارة، مجلة الهاتف - النجف، أيار 1938

و إلى متى تبقى قصائدنا مناديلَ الوداع؟³⁵ وظلت تلك العاطفة المتقدة قابضة في أعماقه، و أصبحت الحبيبة خيالية في فكره، يصبو إليها دائماً كلما فكر في المرأة.

* * *

35 - قصيدة "الرحيل" محمد شرارة، من غير تاريخ.

الفصل الثاني

1936 - 1920

دراسته - النجف

و كما ولد لبنان من أشلاء الإمبراطورية العثمانية، فقد ولد العراق من أشلائها أيضاً، لكن الفرق بينهما ان سوريا الكبرى جزأها الفرنسيون إلى جزعين، فولد بذلك لبنان، أما العراق فقد ولد من جمع ثلاثة أجزاء، لثلاث ولايات، الموصل و بغداد و البصرة. لذا ليس بالغريب على العراق أن يكون تاريخه الحديث سلسلة من الانتفاضات و الثورات إن كان ذلك في جنوبه أو شماله.

فقد احتل الجيش البريطاني مدينة البصرة في عام 1914، و تقدموا في احتلال الجنوب، و لم يكن عندهم أية خطة مسبقة. و كما أعطى الفرنسيون للطائفة المارونية الأحقية في الهيمنة على لبنان، فقد هيمن على العراق العسكريون الذين قدموا مع الملك فيصل الأول، و بقايا المسؤولين من السلطة العثمانية الذين كان معظمهم من الطائفة السنية.

كان عدد نفوس العراق عندما احتل من قبل الجيش البريطاني ثلاثة ملايين نسمة. نصفهم من الطائفة الشيعية، أما النصف الآخر ف 20 في المائة من الطائفة السنية العرب، و 8 في المائة من الأقليات اليهودية و المسيحية، و ما تبقى يؤلف الأثنية الكردية و الأقليات الأخرى.

كانت جميع الطوائف و الاثنيات غير راضية أو مقتنعة بالاحتلال البريطاني للعراق، كما لم يكونوا راضين تحت حكم السلطة العثمانية، لما لاقوه من جور و اضطهاد و قمع، فلم يكن يهم السلطة العثمانية من تلك الولايات التابعة لها، إلا جمع الضرائب و التجنيد الإجباري للشباب، كما كانت عليه الحالة في لبنان أثناء الحكم العثماني.

وجد البريطانيون و الحكام الذين نصبوهم، من الملك و حاشيته لحكم العراق، ان العراق مزيج من الاثنيات و الطوائف و القبائل و العشائر. أدى هذا المزيج بدوره إلى التأكيد على الهوية العراقية، و أصبحت سياسة "العراق أولاً" هي المفضلة في حكم العراق. لكن بالرغم من التأكيد على الهوية العراقية، فلم يطبق ذلك على أرض الواقع، و إنما اعتمدت السلطة منذ الأيام الأولى على مجموعة صغيرة من

العسكر الذين درسوا و تدربوا في اسطنبول و على الشريفين الذين قدموا مع الملك فيصل الأول. و اعتمدت على المحسوبة بدل إنشاء المؤسسات التي تعتمد على الكفاءة و النزاهة.

« و أكثر ما يمكن رصد هذه التحولات، و العضلات و التناقضات التي اقترنت بها، في قصة "المجتمع" العراقي ذي الأغلبية الشيعية. فكما يثبت التاريخ العراقي، يشكّل الشيعة الشريحة الكبرى من سكان العراق، بيد أنهم لا يمثلون مجتمعاً سياسياً واحداً. مع ذلك، يصعب فهم النشاطات السياسية لكثير من الشيعة خارج سياق دولة تهيمن عليها، كما كان العراق في أول عهده، زمرات ضيقة منقاة من الأقلية العربية السنية في العراق. و هذا ما أدى إلى وضع استراتيجيات المقاومة التي شكلت عنصراً بارزاً من عناصر "السياسة الشيعية" المضطربة في العشرينيات و الثلاثينيات. و تلك هي المرحلة التي ارتبطت فيها سلطة مجتهد النجف و كربلاء و الكاظمية بالمصالح الريفية و القبلية الهامة في جنوب العراق و شكلت وسائل لتعبئة أعداد كبيرة من الشيعة من سكان المدن و الريف للعمل معاً.»³⁶

أدى هذا الوضع إلى ثورات متتالية، فلا تخمد ثورة أو انتفاضة في جنوبه حتى تبدأ واحدة في شماله، و شعر الجميع بالغبن، خاصة الأكراد الذين وعدوا بنوع من الاستقلال و الحكم الذاتي. و كتب الشاعر العراقي "معروف الرصافي" عن هذا "المولود الجديد" و يقصد به الدولة العراقية، إن:

« هذه الحديقة العراقية رأيتها مملوءة بالأشواك التي بينها شيء يسير من الأزهار. ذلك لأن هذه الحديقة كانت في بدء الأمر من غرس يد الانكليز في أيام الاحتلال. و لما كان الفساد متفشياً في العراق أيضاً بالوراثة من الدولة البائدة و كانت المصلحة الاحتلالية تقتضي غرس هذه الحديقة على أي وجه كان، غرسها قادة الجيش المحتل و لم يراعوا في غرسها إلا مصلحتهم، فانفقوا أزهاراً هي بالنسبة إلى مصلحة البلاد لم تكن إلا أشواكاً. فهذه الأشواك التي نراها اليوم في الحديقة العراقية كانت في بدء غرسها أزهاراً انكليزية. ثم جاءت الثورة العراقية فألغوا

³⁶ - "صفحات من تاريخ العراق المعاصر" تشارلز تريب، ترجمة: زينة جابر إدريس، الدار العربية للعلوم، 2006، بيروت - لبنان. ص- 33

بعدها حكومة عراقية ووسعوا هذه الحديقة ذات الأزهار الانكليزية فانقلبت أزهارها الانكليزية أشواكاً عراقية.»³⁷

ثارت النجف في عام 1918 بعد أن انتهت الحرب العالمية الأولى، على الاحتلال البريطاني المباشر، و قتل ضابط بريطاني، أدى بدوره إلى تطويق النجف و حصارها أربعين يوماً، و حكم بالإعدام على أثنى عشر شخصاً، و أدى إلى فتاوى من قبل بعض رجال الدين ضد الاحتلال.³⁸ و كانت المعارضة تتوق إلى الاستقلال و التخلص من الاحتلال، مما أدى إلى التذمر و اندلاع ثورة العشرين في شهر حزيران عام 1920، و شملت المعارضة الدينية و السياسية.

لقد بدأت الثورة العراقية لعام 1920 كاحتجاج عام ضد الحكم البريطاني و لكنها انتهت بثورة لمنطقة الفرات الأوسط. إذ « كانت الثورة بالنسبة إلى العراقيين حرباً وطنية من أجل الاستقلال. رفعت شعار الوحدة العربية إلى جانب استقلال العراق... كانت بمعاركها البطولية باعثاً قوياً لنشر الوعي الوطني، أغنت ممارسات الناس الحياتية و تجاربهم النضالية، و غذت العمل السياسي ضد الأجنبي و مصالحه غير المشروعة... كانت الثورة بداية لمعارك و طنية قادمة... إن ثورة العشرين، عبرت عن ضمير الشعب العراقي، و أصبحت تراثاً عظيماً خالداً يعترف به تاريخ العراق و الأمة العربية. لذلك كله يمكن القول إن ثورة 1920 - إذا كانت قد قمعت عسكرياً فإنها نجحت سياسياً، " إنها نقطة تحول في تاريخ العراق الحديث بأسره."»³⁹

لم يكن الصبي محمد شرارة شاهداً على روح الثورة التي انبثقت بين الناس و انتشرت بسرعة كما تنتشر النار بالهشيم، إذ وصل النجف بعد إخمادها. و لكنه أحس بما خلفته من غبن و تعسف و قسوة في إخمادها بين الناس. و خلفت في

³⁷ - "الرسالة العراقية في السياسة و الدين و الاجتماع"، معروف الرصافي، منشورات الجمل - ألمانيا 2007. ص- 59

³⁸ - مقابلة أجرتها حياة شرارة مع السيد هاشم الأمين عن حصار النجف بتاريخ 1991/1/29: « و فتحت الناس أبوابها، في مساعدة الناس، و وصل الحال أن شربت الناس مياه الآبار المرة المالحة. و كان الوقت شتاء، فأمطرت السماء، و أخذت الناس تملأ الماء من المطر. و أفتى العلماء بالجهاد. و لم تحدث مجاعة، إذ كان الأثرياء يوزعون الشعير و التبن للحيوانات و كان الناس يخلعون الأبواب إذا اضطروا و يطبخوا عليها.»

³⁹ - "العراق: شهادة سياسية 1908-1930" حسين جميل، دار اللام، لندن 1987، ص57-58

أعماق الصبي المتوقد الذهن، أثراً عميقاً من التمرد و الثورة على الغبن، و تحدي الظلم.

توج فيصل الأول ملكاً على العراق بعد عام من القضاء على ثورة العشرين،⁴⁰ على أن يكون الحكم في العراق ملكياً دستورياً ديمقراطياً نيابياً. جابه الملك فيصل أمامه مهمة شاقة، إذ كان عليه إعادة بناء بلد متخلف بعد القرون المظلمة التي مرت عليه خلال العهد العثماني، و نقله إلى بلد يواكب الحداثة المعاصرة. لأن العراق طيلة هذه الفترة لم يحكم نفسه، و كان عليه أن يتدرب على الحكم بنفسه، كما لم يكن عند الذين اشتركوا في السلطة، الخبرة الكافية في الممارسة السياسية ليتمكنوا من إقامة دولة حينما سنحت لهم الفرصة.⁴¹

و في 1922 عندما و افق مجلس الوزراء على بنود المعاهدة أصر على أن يوافق عليها المجلس التأسيسي بعد تشكيله، و نظمت لقاءات احتجاجية في المدن الشيعية الجنوبية، و وقعت اضطرابات في منطقة الفرات الأوسط، أدت مشاعر القلق، إلى

40 - « ولد فيصل بمدينة الطائف مصيف الحجاز 1883-1933، رفع علم الثورة 1916، و تولى قيادة الجيش الشمالي و استولى على العقبة 1917، و حارب إلى جانب القوات البريطانية. دخل دمشق في 1918، و نودي به ملكاً على سورية في 1920، و لم يبق إلا بضعة أشهر من نفس السنة. و احتفل بتتصيبه ملكاً على العراق في 1921/8/23. و كتب عنه أحمد حسن الزيات: " دخل فيصل العراق دخول الإمام الحسين، لا مال أمامه و لا جند خلفه، و لكن الحسين جرى على سياسة عليّ فهلك، و جرى فيصل على سياسة معاوية فملك ... كان ملكاً من طراز خاص. و لعله أقرب إلى خلفاء الصدر الأول منه إلى ملوك اليوم. كان ناصع الظرف، جم التواضع، رحب الأناة، طاهر الموادة، زاهداً في أبهة الملك، عازفاً عن مظاهر السلطان، فلا يخدج بتحية، و لا يمشي في حرس، و لا يتشدد في حجاب.»

"أعلام السياسة في العراق الحديث"، مير بصري، دار رياض الريس للكتب و النشر - لندن، 1987،

ص- 19

41 - « لقد ورث العراق تقاليد الحكم العسكري مع دولته الحديثة التي قامت على أساس تنصيب ملك من أصل غير عراقي على عرش العراق. و في هذه الناحية، يجد البعض ملمح ضعف في الإحساس الوطني، و يجد آخرون فيها مصدر فخر و دليلاً جدياً على درجة التقبل التي يتحلى بها العراقي تجاه الآخرين ... كانت رموز المؤسسة العسكرية أول من استمزع في تعيين الملك الجديد، و تولى قاداتها مراكز أساسية في السلطة الوطنية الجديدة بثياهم العسكرية أو المدنية. لقد توقف بعض من درسوا المصادر التاريخية المتعلقة بالفترة الملكية عند موضوع العلاقة بين الجيش و نظام الحكم الملكي، مكررين التأكيد على ظاهرة سيطرة العسكريين على المناصب الحساسة في السلطة. فقد شغل العسكريون 61 بالمائة من المناصب الوزارية الرئيسية للفترة بين 1921-1958... الذي قاد إلى تعزيز المؤسسة العسكرية في أجهزة الدولة.»

"ثقافة العنف في العراق" سلام عبود، منشورات الجمل 2002، ص 143-144

بروز تنظيم سياسي جديد، فتم تشكيل حزبين سياسيين هما الحزب الوطني و حزب النهضة، اللذين اشترك فيهما شخصيات شيعية علمانية بارزة، من أمثال جعفر أبو التمن، لكنه استقال من مجلس الوزراء احتجاجاً على المعاهدة. كما شجع الملك فيصل المعارضة على مناهضة المعاهدة مما أدى إلى استقالة الوزارة التي كان يرأسها النقيب، عبد الرحمن الكيلاني.⁴²

« و لكن امتازت فترة العشرينيات بحركة صحفية ناشطة و لاذعة أحياناً، فضلاً عن ازدهار الحركة الشعرية التي تأثرت بسياسة تلك المرحلة. فعمد شعراء أمثال أحمد الصافي ألنجفي و معروف الرصافي و محمد مهدي الجواهري إلى التغني بطابع للعراق غلبت عليه الرومانسية... في ظل هذا الجدل الجديد، انخرطت كل من الأوساط الصحفية و الأدبية على نحو معمق في القضايا السياسية العراقية... إلى حد ما بذل الأدباء مجهوداً واعياً لبناء هوية علمانية تقلص التباينات المذهبية بين السنة و الشيعة »⁴³

و أكد على ذلك محمد شرارة:

42- « ولد عبد الرحمن النقيب 1872- 1927، أصبح أول رئيس وزراء في العراق، في 27/10/1920، و قامت الوزارة بتنصيب الملك فيصل الأول ملكاً على العراق في 23/8/1921، و استقالت الوزارة وفق الأصول الدستورية، و أعاد النقيب تأليفها في 10/9/1921. وقع المعاهدة العراقية البريطانية الأولى في 10/10/1922، و استقال من الحكم في 17/11/1922.

« كان ارستقراطي النزعة، واسع الثقافة الأدبية، لطيف المحادثة. شغف بالرياضة البدنية في شبابه و عني بغرس البساتين و المطالعة و الفروسية و تذوق الشعر و الموسيقى البغدادية، و تألق اللباس و الطعام. عاش عيشة المترفين في عصره. يعقد مجلسه كل يوم فيؤمه رجال الحسب و النسب و الأدب و الفكاهة و الظرف ... و من اللطائف التي تذكر عن النقيب انه كان، بعد تأليفه الحكومة الوطنية سنة 1920، يردد كلمة الديمقراطية و يسأل جلساءه و وزراءه هل يؤمنون بها و يرغبون فيها أداة للحكم. و كانت هذه الكلمة قد شاعت على الألسن بعد الحرب العظمى و الاحتلال البريطاني، و تاق المفكرون و الشباب الوطني إلى تأليف حكومة عربية ديمقراطية مقيدة بالقانون. و قد زار النقيب ذات يوم أحد شيوخ العشائر المسنين، فسأله السيد عبد الرحمن إن كان يحب الديمقراطية و يريد لها، فقال الشيخ: يا محفوظ، قالوا لنا ازرعوا الطماطة فزرعناها، و قالوا ازرعوا البانجان و الفاصوليا فزرعناها. فإذا أردتمونا أن نزرع الديمقراطية فاجلبوا لنا بذورها و نحن نصدع في الأمر! »

" أعلام السياسة في العراق الحديث"، مير بصري، رياض الرئيس للكتب و النشر - لندن، 1987، ص 58-59، 64

43 - "صفحات من تاريخ العراق المعاصر" شارلز تريب، ترجمة: زينة جابر إدريس، الدار العربية للعلوم، 2006، بيروت - لبنان. ص 108-109

« و الحقيقة إن الحركة الأدبية في العراق من ثورة العشرين لم تفصل عن الحركة الوطنية، بل كانت في الطليعة، و قصائد الشيخ محمد رضا الشيبلي و الشيخ حبيب العبيدي و أخيه باقر و معروف الرصافي و خير الهنداوي و محمد باقر و الشيخ علي الشرقي و السيد حسين كمال الدين و أخيه تشكل الرعيل الأول للشعر الوطني، و لكنه كان في حدود الثورة على الاستعمار، و لم يبرز دور الجماهير كثيراً في قصائد هؤلاء الشعراء، ما عدا البعض. و كان الشرقي و الجواهري في طليعة الذين سلطوا الأضواء على دور الجماهير في الحركة الوطنية.»⁴⁴

* * *

في مثل هذه الخلفية القلقة غير المستقرة سياسياً، لكنها غنية في النقد الأدبي للوضع الاجتماعي و السياسي آنذاك:

« بدأ "محمد" يتردد على حلقات الدراسة في النجف، التي كانت تتعقد في الجامع الهندي⁴⁵ و يتلقى العلوم⁴⁶ على أيدي رجالها كالثائبي و الجزائري و كاشف الغطاء. لم يقتصر على حفظ النصوص و استذكارها، بل كان يقارن و يحلل ما يقرأه حتى يتوصل إلى نتيجة يخرج منها برأيه الخاص في تلك القضايا. فأصبح

44 - حديث مع محمد شرارة أجراه زهير ماجد بعنوان: "محاولة لتاريخ جديد في الشعر العراقي - حكايات من "الصالون" الأدبي الذي ولد فيه الشعر العربي الحديث"، بيروت المساء، الجمعة 21 حزيران 1974

45 - « ضمت النجف في جامعاتها نحو أربعين مدرسة آنذاك، و هي بمثابة أقسام داخلية كما نصلح عليه في الجامعات الحديثة. و كانت الدروس و المحاضرات تلقى عادة في الجوامع و المساجد مثل "جامع الهندي" و "مسجد الترك" و "جامع الطوسي" و "مسجد الخضراء" إضافة إلى الصحن الشريف. و كانت المدارس تلك تحوي عرفاً لسكنى الطلبة الوافدين. و تضم كل مدرسة بين عشرين إلى أربعين غرفة. و من أشهر تلك المدارس "مدرسة اليزدي" و "مدرسة الأخوند" و "مدرسة الشيرازي" و "مدرسة الخليلي" و "مدرسة كاشف الغطاء" و "مدرسة الجواهري" و غيرها.»

"الجواهري - جدل الشعر و الحياة"، د. عبد الحسين شعبان، دار الكونز الأدبية - بيروت، الطبعة الأولى 1997، ص- 85

46 - حديث مع رفعة الجادرجي بتاريخ 2008/5/4

« إن استعمال كلمة "العلوم" الدينية غير صحيح، و الأصح استعمال النصوص الدينية. لأن العلم هو تلك المعرفة التي تبدأ بفرضية تعرّض إلى الفحص، فإذا وجدت الفرضية عملية و ناجحة تعتمد عندئذ بكونها معرفة. و لكن هذا لا يعني من أنها تصبح ثابتة و لا يجوز تعريضها مرة أخرى إلى المسألة أو النقض، بل العكس هو الصحيح، فالعلم في تطور دائم، و ينتقل من مرحلة معرفية إلى أخرى، و ذلك بابتكار فرضية جديدة و معرفة جديدة، بخلاف الدين، حيث الفرضية الدينية للمعرفة تقدس و تصبح غير قابلة إلى المسألة و النقض و التغيير.»

قوي الحجة في مناقشاته يورد الدليل تلو الدليل لدعم آرائه، ساعده على ذلك سرعة البديهة التي تحلى بها والقابلية في الخطابة وإحاطته بالعلوم اللغوية والفقهية.⁴⁷ وكتب أخاقاني عن تكوين شخصيته و انفتاحه الفكري و قوة شخصيته:

« و اندفع و هو الشاب المؤدب بروحه للانطلاق في أجواء الفكر، و يعمل للحق و الحقيقة بقدر فهمه لهما، فراح ينوع معلوماته في وقت كان الخروج على تلك التقاليد الدراسية أمر يدعو لا إلى النقد فحسب، بل إلى الحقد و الشتم من معاصر لا تقوى على مثل هذا التصرف، كما لا تستطيع أن توجد القابليات التي و جدت عنده و عند إخوانه من الشباب اليقظ من أمثال حسين مروة و أحمد مغنية و محمد حسن السوري من ذوي النبوغ و القابليات.

و ... كان المترجم له شاباً من أوضح الناس صباحة، و أرقهم مزاجاً، و أعنفهم في الجدل، و أقواهم في المناظرة، و قد وهب جانب التصوير في الخطابة و الكتابة و الشعر مما جعله يبرز على كثير من أصحابه.⁴⁸ كما أكد على هذه الناحية أيضاً إبراهيم الوائلي:

« كان مزوداً بثقافة رصينة، فإذا ناقش أو جادل كان يناقش عن فهم و دراية و كان لامعاً بين زملائه من الطلاب. كان يعجبنا برشاقته و أناقته و عمامته البيضاء الناصعة و مشيته المتهادية الرقيقة و لباسه الترف الناعم، و قد حافظ على رشاقته و أناقته و مشيته. و قد قضى شبابه في النجف، يتكلم بلهجته اللبنانية الجميلة، و كثيراً ما كان يتكى على الفصحى بمحاوراته. ... و كانت ابتسامته لا تفارقه و يهش في وجوه الناس و الابتسامة لا تفارق حديثه إلا إذا غضب، و سمع ما لا يرضيه. كان يحب التجديد، و يحب التطور، لا يؤمن بالرجعية بكل أشكالها و أبعادها. و قد قويت صلتي به بعد زمن قصير من معرفتي به، و ذلك في ندوة جريدة الهاتف، فقد كنا نلتقي، و لاسيما في أوقات المساء، و كانت تدور في هذه الندوة الأحاديث الأدبية و قضايا الشعر. و كان من كبار كتّاب الهاتف، و كانت مقالاته تشد القارئ بفكرتها و لغتها و بيانها الجذاب.

و أذكر أنني كنت أقول للخليلي دائماً هذا التصور: إن مقالات محمد شرارة تفوق كثيراً ما يكتبه الآخرون و كان يشاركني هو الرأي. و كان شعره لا يقل عن نثره

47 - مقدمة كتاب "المنتبني بين البطولة و الاغتراب" بقلم: حياة شرارة، ص- 13

48 - " علي أخاقاني"، شعراء الغري، الجزء الحادي عشر. ص 111 - 112

تأثيراً في النفوس، و ربما كانت قصائده التي ينشرها في الهاتف أشد تأثيراً في نفوس القراء، لما فيها من عذوبة و جمال و تصوير و انسياب، و لكنه كان قليل النظم بالقياس إلى نثره.⁴⁹

و شاعت الظروف أن تساعده على الحصول على الجنسية العراقية بعد فترة من إقامته في البلد، إذ اعتبر كل عربي كان مقيماً في العراق في تلك الفترة عراقياً، لأن الملك فيصل الأول كان من الحجاز.⁵⁰ و أصبحت حياته تبشر بإطلالة مستقبل جديد مشرق.

لكنه رغم حصوله على الجنسية العراقية، إلا انه لم ينس الشاب حنينه إلى الوطن، و بعده عن الأحباب، و روحه الظمأى للجمال، المشمزة من القبح. فقد عاش في مدينة النجف، بمناخها القاسي، المحاط بالصحراء، فنقلب الرياح سماء النجف إلى غيمة من الأتربة، تغطي أزقتها الملتوية التي لا ينفذ إليها الضوء، بسبب جدران الدور العالية، الترابية اللون. و وصف المدينة في مقال بعنوان "القديم و الجديد":

« و إذا توغلت في المدينة و اجتزت هذه الساحة "الجديدة" تجد نفسك في مكان غريب عن المكان الذي كنت فيه قبل ساعة، تجد الشوارع الضيقة و الجدران المتداعية و الأزقة التي لا تعرف النظافة مهما حاول الكناسون أن يجعلوها نظيفة. هذه البيوت و هذه الجدران و هذه الشوارع و الأزقة رمز المدينة القديمة بل هي المدينة ذاتها.»⁵¹

و لم تكن الحياة الاجتماعية أقل قسوة من قسوة الطبيعة، فكان الفصل تاماً بين الجنسين، و كانت نساء النجف تماثيل متحركة من اللون الأسود. إذ كان العالم

49 - مقابلة أجرتها حياة شرارة مع الأستاذ إبراهيم الوائلي بتاريخ 1980/6/9

- إبراهيم الوائلي: ولد عام 1914، درس في المدارس الدينية في النجف و تخرج فيها. كان على صلة بمحمد شرارة، من خلال الندوات الشعرية التي كانت تقام في المجالس الأدبية. حصل على الليسانس من دار العلوم في القاهرة 1949، و على الماجستير 1956، كتب عدة كتب منها: "الشعر السياسي العراقي في القرن التاسع عشر" 1961، و "لغة الشعر العراقي" 1968. توفي عام 1988. (ب.ش)

50 - و صدر القانون الذي نصت عليه المادة 3 من قانون الجنسية العراقية رقم 42 لسنة 1924:

« كل من كان يوم 6 آب 1924، من الجنسية العثمانية و ساكناً في العراق عادة، تزول الجنسية العثمانية عنه، و يعدّ حائزاً على الجنسية العراقية في التاريخ المذكور. »

"الجواهري - جدل الشعر و الحياة"، د. عبد الحسين شعبان، دار الكنوز الأدبية - بيروت، الطبعة الأولى

1997

51 - "القديم و الجديد" محمد شرارة، جريدة الهاتف - النجف، 1936/5/22

النسائي معزولاً عزلاً تاماً عن عالم الرجال، و معظم الدور مصممة على هذا الأساس. جناح خاص للرجال و آخر للنساء. لذا يستمر هذا الحرمان بمرافقة الفرد الذي يؤدي به إلى نوع من الازدواجية في السلوك، مهما وصل إلى مراحل عالية من الثقافة. و كتب د. حسين شعبان عن ذلك المجتمع: « إن مجتمعاً مزدوجاً له مسرح علني و آخر سري، تحكمه قوانين الحجاب و منع الاختلاط، لأبد و انه يحمل هوية مزدوجة و متناقضة.»⁵²

و « لم تكن عزلة المرأة مقتصرة على الحجاب فقط، بل انها تعيش في عزلة تامة عن الرجال، حتى داخل بيتها. إذ تقيم النساء في أماكن خاصة من البيت و لا يمكنها الالتقاء بالرجال، و في هذه الأماكن لا يفتح أي منفذ مطل على الطريق. و تجاه ذلك لم يبق للمرأة من سبيل للترويج عن نفسها سوى الزيارات الجماعية التي تقام بصورة دورية، و عندما يأذن الزوج بذلك فقط. و قد يخرج أحياناً من الدار في غير هذه المناسبات و ذلك للذهاب إلى الحمامات العامة، و لكن في هذه الحالة، عليهن بالتستر من أعلى الرأس حتى أخص القدم، حتى ليتعذر على أزواجهن أنفسهن تمييزهن إذا لاقوهن في الطريق.»⁵³

كانت الفجوة الاجتماعية كبيرة بالنسبة إليه، فلم يكن معتاداً على مثل هذا الفصل بين الجنسين في جنوب لبنان، رغم تخلف المنطقة، بل كانت الفتيات و الصبايا منهن يخرجن يوم سوق الخميس، الذي يغير حياة القرية. فيطغى سوق الخميس حتى على أفراح العيد التي اختزلت في العالم الإسلامي إلى مرتين في العام.

كان سوق الخميس جزءاً ملازماً لحياة الضيعة، فيغير نمط الحياة، و يبعث حركة غير طبيعية، و تبتعد القرية عن الرتابة المعتادة و يخرجها من الركود الذي تعيشه و تجمد رتابة الأيام، فتهيمن الحركة، و يدب الناس كالنحل من كل حدب و صوب متجهين نحو سوق الخميس. فالسوق حدث مهم في حياة الضيعة، ينتظره الجميع بفارغ الصبر! حشد من النسوة و الفتيات بأجمل و أحسن ملابسهن، يلتقي بحشد

52 - " الجواهري - جدل الشعر و الحياة"، د. عبد الحسين شعبان، دار الكنوز الأدبية - بيروت، الطبعة الأولى 1997، ص- 113

53 - "ملاحم سياسية و حضارية في تاريخ العراق الحديث و المعاصر"، د. طارق نافع الحمداني، الدار العربية للموسوعات، الطبعة الأولى 1989، ص- 64

الرجال و الشباب في زحام السوق، فتفتت الثغور عن ابتسامة و تتعانق النظرات عن بعد، بين مناداة الباعة على بضائعهم، الذين يحاولون جذب الزبائن لهم! و تؤدي تلك اللقاءات أحياناً إلى الزواج.

كما كان يوم الخميس هو اليوم الذي يأكل فيه الناس اللحم، حيث يستغل أهالي الضيعة هذه المناسبة لعمل الكبة من اللحم الطازج. فكانت النسوة ينشغلن بعمل الكبة النية، يجلسن على طراحة/ فرشاة صغيرة، أمام البلاطة الحجرية. ماسكات بين أيديهن "مدقة" خشبية ترتفع و تنخفض بدق اللحم بصوت موسيقي إيقاعي، فيسمع رجع صدى الدق في البيوت المجاورة، تتوقفن لتنظيف الشروش/الأنسجة البيضاء، ليعدن ثانية للدق بالانتظام نفسه، فتتحول قطعة اللحم بين أيديهن إلى زبدة طرية و ردية اللون، تتساب بين أناملهن الرشيقة حيناً و تتلوى حيناً أثناء عجنها، حتى تأخذ شكلها النهائي في طبق الكبة. كانت عملية الطبخ معقدة، تستغرق وقتاً طويلاً، فلم يكن هنالك آلات لفرم اللحم أو طحن الخضار أو عصر الفاكهة، و كانت العملية تستغرق معظم النهار، فما ان ينتهين من عملية طبخ الغداء حتى يبدأن في التحضير لوجبة العشاء، و هكذا تدور عجلة الزمن في دوامة من الطبخ و التحضير المتواصل من و جبة إلى أخرى في جو القرية.

و أول ما شعر به محمد في النجف فقداه تلك الطقوس، و خاصة طقوس المائدة، و جبات الطعام اليومية التي كان معتاداً عليها، حيث يتناول جميع أفراد العائلة ذكورها و إناثها، صغارها و كبارها، الطعام سوياً، حول طاولة لا ترتفع أكثر من قدم عن الأرض، جالسين على المساند أو الكراسي الصغيرة المصنوعة من القش، أو تحت عريش العنب المتدلي من أغصانها في الصيف، يتحدثون في مختلف المواضيع التي تتخللها النكات و الضحكات. فسجل ذلك الحنين، و التعطش إلى جمال الطبيعة، و إلى الأحبة، في قصائد عاطفية عديدة، اتسمت بالطابع الغنائي.

كانت النفحة الشعرية غالبية في كتاباته في تلك الفترة، حتى في النثر، فعندما و قف يتأمل نهر الفرات، لم يصف فقط الطبيعة الخلابة التي ينحدر النهر خلالها، و إنما ربط الطبيعة بتاريخ النهر، و ما عانى من حملات و فتوحات، و كان أول مقال نشر له، بعنوان "الأمواج الناطقة"، فوصف النهر :

« هناك على الأوراد و الرياحين مرّ نهر الفرات متلويّاً كالأفاعي بين شجيرات النخيل يهدر تارة و يئن أخرى ... كأنه قائد تكتنفه الجيوش عن يمينه و شماله،

تارة يتصور عدوه لقمة سائغة فيهدر هدير الظافر و تارة يرى خصمه أصلب قناة و أقوى شكيمة فيئن أنين الثكلى شأن كل ضعيف حينما تصدمه القوى الهائلة ... رجعت بي إلى العصور الماضية حيث يتجلى الشرق بعظمته مشرقاً بأبنائه لذوي العيون البصيرة التي لم يحجبها برقع الجهل و لم تسترها عصابة التعصب الذميم، هناك تتراءى فخامة الكلدان بعلومها و فنونها، و شجاعة الآشوريين يوم ثلث العروش و هدمت الصروح، و شمائل العرب تلك التي يباهي بها الزمان و يسجل فضائلها التاريخ على الواحة بماء الذهب. ... و بهذه النواحي على شواطئك الجميلة تلالأت أشعة الفكر و نبتت أزاهر العرفان فهب لها عبير منعش تصاعد في فضاء الكون حتى تخلل أريجها جوار أوروبا»⁵⁴

كما نشر مقالاً رد فيه على "فتى الجبل"⁵⁵ بعنوان: "نقد لا تحامل"، حيث اعترض على أسلوب النقد الذي اتبعه فتى الجبل و اعتبره تحاملاً و حكماً قاسياً و جارحاً، بعيداً عن الموضوعية التي على الناقد أن يتحلى بها. و برزت الثقة في النفس على صغر سنه في هذا الرد، و سعة معلوماته، و تتبعه إلى شعراء تلك الفترة في العالم العربي.

و نشرت له أول قصيدة في العام نفسه بعنوان "يا ليل"، حيث ظهر اهتمامه بقضايا البلاد و الذي بدأ يتبلور فيما بعد، و هو ما زال في بداية العشرين من عمره. و أحسنّ الشاب بعبء هموم المجتمع و مشاكله. و القصيدة صراع الذات بين الليل و عتمته الذي يرمز إلى التخلف و الجهل، و بين النور المتمثل في انبلاج الفجر و الضياء، حيث يتلاشى الظلام، محاولاً التشبث حتى بشعاع النجوم الخافت ليعطيه نوعاً من الطمأنينة النفسية.

| | |
|-------------------|------------------|
| يا ليل طلّت و طال | علي فيك همومي |
| فمن ينبه قومي | و يستثير العزائم |
| هيهات ينجح شعب | يرى التكاثر حزما |

54 - "الأمواج الناطقة" محمد شرارة، مجلة العرفان ص 896-898، الجزء الثامن، المجلد الخامس عشر، لبنان 1928، و هو أول مقال نشر له.

55 - فتى الجبل: الشاعر عبد الرؤوف الأمين، صدر له ديوان "صقور قريش" و "العواصف الثائرة"،

توفي 1970

بدأ محمد شرارة دراسته في مدارس النجف الدينية في المرحلة الأولى: و هي مرحلة المقدمات. التي كانت تعتمد على الكتب التي يقرأها الطالب و يفسر له الأستاذ المادة مثل علم النحو و البلاغة و المنطق و الفقه في مراحل الأولى، و ألفية ابن مالك و المغني لأبن هشام.

ثم انتقل إلى المرحلة الثانية: السطوح - و هي دراسة أصول الفقه. و تدرس أصول الفقه في الرسائل للشيخ الأنصاري و كفاية الأصول للإمام الآخوند و هناك حواش و تقريرات على هذين الكتابين يطالعها الطالب بمفرده، كما يدرس الفقه في اللمعة للشهيد الثاني أعاملي و كتاب المكاسب.

أما المرحلة الثالثة فهي البحث الخارجي: فهي دراسة جامعية يستغني فيها الطالب عن الكتب المقررة، و يحضرها طائفة من الطلاب الذين أنهوا المقدمات و السطوح، لتلقى المحاضرة من قبل أستاذ كبير، أما في مسجد من المساجد أو في مدرسة أو في الصحن.

« و يرقى فيها المجتهد الكبير المرجع المنبر " و قد يكون هناك أكثر من واحد" و يطرح قضية من قضايا الفقه و يعالجها معالجات استنباطية اجتهادية. يذكر الدليل و الشواهد و المرجحات التي يراها في استنباط الحكم و يناقشه الطلبة مناقشة جادة و حرة و سمي القسم الثالث بالخارج لأن الدراسة فيه تدور خارج الكتب.

و لم يكن الطلبة يتقيدون في وقت معين. بل كانت المحاضرات تلقى حسب وقت الشيخ، في الصباح أو بعد الظهر، أو بعد صلاة المغرب، كما هي الحال عندما كان يلقي الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء محاضراته على الطلبة، الذين كان يبلغ عددهم بين عشرة إلى خمسين طالباً أحياناً. كان البحث يدور حول مسائل فقهية و أصولية و تجري فيه مناقشات كثيرة بين الطلبة و الأستاذ، و قد تكون هذه المناقشات حامية في بعض الأحيان.⁵⁷»

⁵⁶ - قصيدة " يا ليل"، نشرت في مجلة العرفان، لبنان 1928

⁵⁷ - مقابلة أجرتها حياة شرارة مع إبراهيم الوائلي بتاريخ 1980/6/9، "حسين مروة، ولدت شيخاً و أموت طفلاً"، عباس بيضون، دار الفارابي - بيروت 1985، ص- 35

كانت مدينة النجف تعاني من التخلف والركود الفكري و تئن من الوطأة الدينية المتزمتة، التي كانت تعتبر إنشاء جريدة أو مجلة "مباغي فكرية" و المدارس الحديثة "كفراً و زندقة و انتهاكاً للقوانين السماوية"، و تعليم البنات و بقاء كوراء الكوليرا!
فكتب محمد شرارة:

« و هناك رجعية دينية تجد كل شيء حراماً حتى في إنشاء الجريدة و المجلة و قراءة ما فيها - و لو كان دفاعاً عن الدين - أما المدرسة الحديثة فإنها كفر و زندقة. و الدخول بها انتهاك لكل ما عرفته قوانين السماء. و قد تهون المدرسة - على ما فيها من كفر - إذا كانت للأولاد. و لكن المصيبة الكبرى، و البلاء الذي يشبه الوباء أن تكون للبنات! البنات تتعلم! هذا شيء منكر! هذه نار يجب إطفائها بكل ما في العالم من مطافئ، هذه محنة تهون دونها كل محنة.»⁵⁸

و لكن نبتت في و جه هذه الرجعية المتزمتة المتجذرة في الأرض براعم جديدة كانت كهبات النسيم العذب في أجواء المدينة. و تحولت إلى ثورة من الغليان في صدور الشباب من الجيل الجديد، المتعطش إلى المعرفة، و وجدوا أنفسهم في الطليعة، و ألقى على عاتقهم الدور القيادي المهم، فأحدثوا هزة عنيفة في القيم و المفاهيم الراكدة في الثلاثينيات. هذه الحركة الفكرية كانت إحدى محاور حركة تقدمية مساعلة إلى الرجعية التقليدية بصورة عامة في العراق. و المجتمع - كما يعتقد محمد شرارة - « بحاجة دائمة إلى الهز، أو إلى النقد، الذي يهز الأوضاع » الجامدة التي كان يعاني منها الجيل الجديد في النجف.

و كتب محمد شرارة عن الشباب النائر من أمثالهم، الذين كانوا يهتدون بمصابيح مضيئة تنير لهم الطريق من أمثال الشاعر أحمد الصافي النجفي:

- مقابلة مع السيد هاني فحص بتاريخ 2008/4/7، بيروت - لبنان، عندما سألته إن كان هنالك عدد سنوات محددة و مكان محدد للدراسة، فأجاب:

« لا يوجد عمر معين أو محدد في الدراسة. الحرية في كل شيء. فالطالب يختار العمر الذي يبدأ فيه، و يختار المدرسة و الأستاذ و رفيقه في الغرفة، كما يختار المدة التي يبقى فيها للدراسة في النجف. و ليس هنالك عدد سنوات محددة و إنما تعتمد على اجتهاد و شطارة الطالب. و للنجف طابع آخر، فمن الممكن أن يقضي عمره في النجف أو يتحول إلى واعظ و لا يكمل تحصيله، و بعضهم يقضون حياتهم فيها. أما عن مكان الدراسة، فليس هنالك مكان معين للدراسة، وربما تكون في دار الأستاذ أو في الجامع أو في المدرسة أو في بيت الطالب أو مقبرة معينة - أي قبر لعالم ديني مميّز. »

⁵⁸ - "الجواهري - شاعر الكفاح العربي" محمد شرارة، جريدة الحضارة - بغداد 26 كانون الأول

1959

« في العقد الثالث من القرن الحالي عاد الصافي من إيران، و معه ترجمة جديدة لرباعيات الخيام. و قد أشيع يومئذ بأنها أدق ترجمة عرفتها اللغة العربية، و أقربها مطابقة للأصل الفارسي. بل قيل ما مضمونه: " لو عاد الخيام و قرأ ترجمة الصافي لأعتقد بأنه نظم الرباعيات بالفارسية أو العربية!" و معرفة النجفي بالفارسية لم تكن قليلة. و في ضوء هذه المعرفة نوقشت الإشاعة مناقشة شفهوية. و كان الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء من الذين اشتركوا بالمناقشة. و هو من البارعين بلغة الخيام.

« هذه المناقشة ألفت في النجف خاصة ضوءاً جديداً على عودة الصافي، و أحيط الشاعر على أثرها بعدد من الشباب الذين كانوا يومئذ يطمحون أن يدخلوا شيئاً من التغيير على أسلوب الحياة العلمية في النجف، و قوبل طموح الشباب، على تواضعه، بمجابهة عنيفة. و لكن الشباب ثبت و وقف في وجه التيار. و كان الصافي أحد دعائمه، و لم يكتف بالمساندة، بل كان في الطليعة.

« و لكن النجف، على عظمتها الرائعة في مكافحة الاستعمار، كانت مغلقة - إلى حد ليس بالقليل يوم ذاك - في وجه الأفكار الجديدة. ... و إن كانت تقرأ الجديد و تناقش مضمونه مناقشة جادة... فلم تكن بعيدة عن التفاعل العلمي الجديد الذي خلفته الحرب العالمية الأولى. و كانت مصنعاً لسبك الرجال ... و لما عاد الصافي من هجرته كانت البراعم الأولى تفتح عيونها، تحاول، كما قلنا، أن يكون لها صوت قائد في الحياة. و كانت حفلات الأعراس و المآتم هي المنابر التي يعلوها الشباب في إذاعة الوعي الجديد».⁵⁹

لذا ليس بالغريب على محمد شرارة أن يخوض المعركة، في تلك الفترة، مع بعض الشباب المتحمسين و الذين كانوا ثائرين على:

«... النظم المتوارثة في التعليم، من حيث طرائق التعليم، و المناهج، و سنوات الدراسة و غيرها، و ذلك بهدف إرساء قواعد سليمة و صحيحة و جريئة، تنسف كل القديم، و تضع منهجاً لأسلوب متجدد من حيث كل الأمور المطروحة آنذاك ... اندفع، يطرح وجهات نظره، و يناقش و ينتقد، و وجد له مؤيدين و مناصرين

59 - "شيء من الشعر و الحياة - في رحيل الصافي النجفي" محمد شرارة، مجلة العرفان 1977

عديدين، انسجموا مع أفكاره، و انسجم هو معهم أيضاً، و أخذوا يعملون سوية في سبيل هدفهم.⁶⁰

إن المقال الذي كتبه حسين مروة عن محمد شرارة، هو المقال الذي يكشف لنا المعاناة من التزمت الذي كان سائداً في المدارس الدينية آنذاك، و يعطينا صورة واضحة عن الثورة من قبل هؤلاء الشباب، على أساليب و طرق التدريس الجامدة. و لم يكن حسين مروة شاهداً بل كان مشاركاً أيضاً في تلك الثورة، فكتب:

« و انطلقنا مبدأ من يحدد بلوغ الطالب في النجف درجة الاجتهاد و كيف يحدد؟ لا جواب هنا، لأن التحديد و مقاييس التحديد لا تخضع لنظام و لا قاعدة، كما انه ليس هناك من "طقوس" "مراسيم" ... غير إن هذا الفراغ الفوضوي قد فسح المجال لأمر ذي أهمية بالغة، هو رقابة "الجماعة" أو شهادة "الجماعة" ... فقد كان هذا الأمر، حتى عهدنا بالنجف، هو المصدر الأوحد لكل المقاييس و القواعد و الحدود، لأن رقابة "الجماعة" كما عرفناها، كانت رقابة صارمة، و حاسمة ... فان عين "الجماعة" أي الرؤية المكونة لدى الوسط الدراسي بجملته، أساتذة و طلبة، كانت المرجع الذي لا يقبل الجدل في تمييز العالم الحق بين ادعاء العلم.

« و كان محمد شرارة في طليعة مجموعتنا المتمردة على ذلك التزمت الصارم، و هي المجموعة التي تكونت - عفواً - أواخر العشرينيات، داخل الوسط الدراسي ألنجفي من بضعة لبنانيين و عراقيين، أطلقنا عليها آنذاك أسم "جمعية الشبيبة العاملة - النجفية"⁶¹. كان محمد شرارة في هذه المجموعة أبرزنا إقداما على خرق جدار التزمت ذلك، و أبرزنا تطلعاً إلى التخطي العملي لذلك الأفق الثقافي الضيق، و لتلك الرؤية الشحيحة القاصرة البائسة لمعنى العلم و المعرفة.

⁶⁰ - محمد شرارة إنساناً و أديباً بقلم: د. مصطفى بزي، إصدار: هيئة إنماء المنطقة الحدودية، 1993، ص-25

⁶¹ - تأسست "جمعية الشبيبة العاملة - النجفية" في عام 1925، « و هي جمعية أدبية فكرية... تهدف إلى مناهضة الأسلوب القديم في الأدب، و ترفض كل ما يعيق تطور هذا الأدب و يمنعه من مواكبة حركته التجديدية و التطورية... » من أبرز أعضائها: « الشيخ محسن شرارة، الشيخ محمد حسين الزين، الشيخ علي الزين، السيد هاشم الأمين، محمد شرارة، حسين مروة، و كان فيها من النجفيين الشعراء الثلاثة: د. عبد الرزاق محيي الدين، صالح الجعفري "أل كاشف الغطاء" محمد صالح بحر العلوم، و آخرون.» "الشيخ علي الزين، د. ناهض قديح، الطبعة الأولى، 2008، ص-80، و " محمد شرارة، كاتباً و إنساناً، د.حسين مروة، ووجه ثقافية من الجنوب، دار ابن خلدون، 1981. ص-12

« و كان محمد شرارة يرى انه لا بدّ من إصلاح نظم الدراسة، في "جامعات النجف"⁶² و تغيير المناهج نحو الأفضل، و قد توصل إلى نتيجة أساسية مفادها، أنه ما دام القِيمون على المدارس هم أنفسهم، فلا يمكن أن يحدث أي إصلاح أو تطوير، و لذلك فانه وصل إلى حد اليأس.

إن طريقة التعليم في المدارس الدينية هي الاطلاع على النصوص و تقديم توضيح أو تأويل جديد لها. و عندما أطلع محمد شرارة على تطور العلوم في الغرب، و وجد أن المعرفة هي ليست فقط في تأويل النصوص و تبريرها، و إنما أهم من ذلك، هو ابتكار موقف جديد في تحليل و تفسير الظواهر.⁶³ و أكد على ذلك أالخاقاني حيث كتب:

« في ذلك الوقت الذي يطغى فيه بركان الجهل عند معظم أبناء الروحانيين النجفيين كان هو و فريق معه من شباب النجف الحر ... يلهبون الأندية النجفية، و يوقظون الحماس فيها بقصائد ملئت حساً و طنبياً و ينبهون الغفل من الناس إلى ما يحدث في الكون من عواصف تقدمية و أفكار علمية، و كان الصخب يعلو من الفريق الآخر الذي عدم التوجه و الرأي فلم يهدأ إزاء مطاردتهم و التناول عليهم، و من ذلك الحين تكونت في المترجم له آراء قاسية، و غلا صدره لما يشاهده من أخطار الجهل و الفوضوية في هذا النفر، و استمر يقاوم على أساس أن يصل مع أصدقائه إلى ساحل النظام يضمن فيه استقرار روحه و ضمان عيشه ضمن مرضاة الضمير و الحق.»⁶⁴

و قد حاول محمد شرارة خرق الأجواء الضيقة التي كان يعيش فيها الطالبة، لأن مدينة النجف كانت من أكثر المدن العراقية - بعد العاصمة بغداد - انفتاحاً على

62 - الجامعات النجفية: كلمة الجامعة هي ترجمة إلى university، و هو مصطلح أوروبي. و الجامعات هي منظمات تأسست في بحث مختلف العلوم، و ذلك باستقلال عن السلطة، سواء أكانت سلطة الدولة أو السلطة الدينية. و قد تأسست الجامعات في أوروبا في القرن الثالث عشر، حيث جاءت بنظام و منهج موحد للتدريس، و نظام للحصول على الشهادة. أما في النجف فكانت مدارس دينية، لا ترتبط بنظام معين، و كل أستاذ يدرّس حسب اجتهاده في النصوص الدينية. و قد تأسست في النجف كلية الفقه في عقد الستينيات من القرن الماضي. (ب.ش)

63 - "محمد شرارة: كاتباً و إنساناً"، د. حسين مروة، وجوه ثقافية من الجنوب، دار ابن خلدون، 1981.

الثقافات الأخرى و سوقاً للننتاج العربي كله، رغم الانغلاق الفكري من قبل المدرسة الدينية:

« و يرجع الدكتور مصطفى جمال الدين ظاهرة الفكر المنفتح في المجتمع المغلق» إلى عاملين، أولهما: القراءات المتنوعة، فالنجف حسب تعبيره "مدينة قارئ" تتصل - رغم انغلاقها - بالعالم الخارجي عن طريق الكتب و الصحف و المحلات، التي ترددها بانتظام، من مختلف البلدان... كما صدرت في النجف نفسها صحف و مجلات ليست على الشكل المتحفظ، الذي يعيشه مجتمعها كمجلة "النجف" و "الفجر الصادق" و "الراعي" و "الهاتف" و "الاعتدال" و "الغري" و "الرابطة" و غيرها... أما العامل الثاني في الانفتاح الفكري في النجف، "ثقافة الوافدين" أي التفاعل و الاختلاط و الحوار، بين طلبة المدارس الدينية من شتى الأقطار الإسلامية.⁶⁵ و المقالات التي كتبها محمد شرارة في تلك الفترة تؤكد على ذلك المنحى المتطور المنفتح، فكان إحداها عن جمال الدين الأفغاني، الذي قارع الاستعمار البريطاني في الهند، و دعا المسلمين و الهندوس إلى الوحدة لمواجهةهم، و قد جمع جمال الدين الأفغاني بين الزعامة الفكرية و السياسية لتوحيد صف المسلمين، و بين الإصلاح الديني و الفكري لتجديد الحياة الثقافية، حيث كان يؤكد على التربية و التعليم كعامل أساسي لرقى الأمة. كما أكد على التجربة الأوربية التي و جدت طريقاً للتوفيق بين الدين و الحضارة. و قد هوجم جمال الدين الأفغاني بعنف لمطالبته بالإصلاح الديني و اتهم بالزندقة، و قضى آخر أيام حياته شبه سجين في الأستانة.⁶⁶ لقد دافع محمد شرارة عنه و عن موقفه عندما رمته فئة مانتت ضمائرهما بالزندقة و الإلحاد، و بما إن الأفغاني من دعاة التجديد، فقد بدأ المقال عمّاً هي الفكرة الجديدة، و لم ترفض في البداية من قبل عامة الجماهير. فكتب:

⁶⁵ - "الجواهري - جدل الشعر و الحياة"، د. عبد الحسين شعبان، دار الكنوز الأدبية - بيروت، الطبعة

الأولى 1997، ص 117-118

⁶⁶ - « يروى أن السيد جمال الدين الأفغاني كان في مجلس من مجالس عبد الحميد، و كان بيده سبحة، و كان يلعب بحباتها و هو بين يدي السلطان. فلما خرج قال له رئيس التشريفات - « تلعب أمام السلطان بحبات السبحة؟! أفلا تخاف؟» و لما أجابه السيد: "إن السلطان يلعب بأرواح الملايين من البشر و لا يخاف و أنت تستكثر عليّ اللعب بحبات سبحتي أمامه" أخذه الدوار، و راح يلتفت فيما حوله - و ليس حوله سوى الجدران - و هو يخشى الحجارة، أن تكون لها أذان!»

مقطع من مقال بعنوان "الرصافي و الإبداع الفني" محمد شرارة، مجلة العرفان - لبنان، أيلول 1969

« للزمان قوة فوق قوى القوي، ليس بإمكان أي فرد من الأفراد أن يعاندها مهما بلغ من القوة و الطيش و إلا ذهب ضحية السحق، و فريسة التطور... كم فكرة ضجت في وجهها الجماهير، و عجت عند ظهورها الجماعات، حتى كان العالم يعد و قوعها ضرباً من المستحيلات، و لكن لم يكن العجيب و الضجيج سوى مقدمات تمهيدية و توطئة لوقوع تلك الفكرة و قيامها على أساس ثابت لا تقدر على هدمه الأيام ما دام بناؤه صحيحاً و خالياً من الخلل ... و من البعيد أن يقف التهديد و الوعيد سداً مانعاً عن ظهور الأفكار الحرة، فلا الدماء و إن جرت، و لا الحريق و إن كان جحيماً، و لا القسوة و إن بلغت ما بلغت من الشدة تستطيع أن تقوم بعمل على فنائها و موتها فكيف بالكلام الفارغ، و السفسطة الساقطة عن حد المنطق.»

ثم انتقل إلى الدفاع عن و جهة نظر الأفغاني:

« نظر هذا الرجل الحكيم إلى الجامعة الإسلامية و ما هي عليه من التقهقر نظرة الفيلسوف الخبير، و تملل السليم ... و صاح صيحته الرهيبة... لكن جمال الدين برغم إخلاصه الذي يتجلى في كل كلمة لفظها، و برغم الجمرات المشتعلة في ثنايا روحه غيرة على الإسلام، و حرقة على أبنائه، لم يسلم من أسن المنافقين و دعاة السوء الذين لا يباليون بموت العالم و فناء الإنسانية في سبيل مآربهم و شهواتهم، و لذلك تراهم يرتكبون أفظع الجرائم بلا مبرر عقلي أو شرعي ... و أحس جمال الدين الذي يهدد الإسلام و ما يجنيه أبنائه أو فقل من يحمله فأخذ القنوط من نفسه مأخذه، إلى حد أصبح يعتقد فيه إن الإسلام لا يرجى إصلاحه كما هو صريح كلامه في الكلمة التالية.»⁶⁷

« و فسدت أخلاق المسلمين إلى حدّ لا أمل بأن يصلحوا إلا بأن ينشؤوا خلقاً جديداً مستأنفاً فحبذا لو لم يبق منهم إلا كل من هو دون الثانية عشرة من العمر، فعند ذلك يتكون تربية جديدة تسير بهم في طريق السلامة.»⁶⁸

و يؤكد في مقال ثانٍ عن موقفه في الدفاع عن العلم ضد الجهل و الشعوذة، عندما اقترح في إنشاء "مدرسة جامعة" في "جبل عامل" في جنوب لبنان، تحفظ الناشئة من

67 - "عامل و المدارس (1)" محمد شرارة، مجلة العرفان الجزء الرابع، المجلد 18، تشرين الثاني 1929 لبنان.

68 - حاضر العالم الإسلامي، تعليق المجاهد الكبير الأمير شكيب ارسلان. هامش (محمد شرارة)

الجهل، فأيدها البعض من الشعراء و المثقفين، و وقف ضدها بعض رجال الدين، فكتب:

« بدعوى أن الدين يمنع من تعلم العلوم التي يسمونها (عصرية) و إن هذه العلوم مصادمة للدين الإسلامي ... و إن صدور مثل هذا الرأي من بعض أفراد دينيين - يؤيد مقالة اللورد كرومر بأن الدين الإسلامي دين جامد.»⁶⁹

دلت مقالاته على صغر سنه في تلك الفترة عن نضج، و سعة أفق، فقد نشرت جميع هذه المقالات في عام 1929. ففي مقال "حياة الأمم بحياة هدايتها"، يرى أن تقدم الأمم بمفكرها و علمائها في نواحي الحياة المختلفة، و يجد أن رقي الأمة في رقي مفكرها و علمائها، إن كانوا قادة فكر في التربية و الأخلاق و الوطنية و الاقتصاد و يشبه:

« العلم شعلة مضيئة يتلأأ شعاعها في سماء الحياة و هو المحرر لعقول الأمة ... و رقي الأمة تابع لرقى هدايتها و مفكرها فعلى مقدار ما يكون فيها من النوابع و قادة الفكر يكون تقدمها و بذلك المقياس تقاس مداركها و عقليتها و من المحال أن تتقدم الأمة من غير أن يوجد هداة و مفكرون ينتشرون بين أفرادها و يبثون التعاليم العالية على اختلاف طبقاتهم و استعدادهم، و نرى بالوجدان ضعف الأمم و تأخرها عن غيرها و لو فتشنا عن الأسباب التي دعت إلى تفهقها عن الغير لوجدناها ترجع إلى أصل واحد و هو عدم و جود قادة في ميادين العلم و العمل.»⁷⁰

و لم يقتصر هذا الموقف و هذه النظرة المنفتحة على التطور و مواكبة العالم في النهضة و الإصلاح و التقدم فيما ما كتبه من مقالات في تلك الفترة، و إنما شملت تلك الثورة العارمة في نفسه، المتمثلة في القوائد التي نظمها، متأماً من الجهل المهيمن على الأمة العربية، منتقدا التلكؤ في الإصلاح، لانتشالها من التخلف و الجهل اللذين يحيطان بها، و تكشف قصيدة "الأمانى الضائعة" هذا الاتجاه:

نسمة الإصلاح هبت حرة
في نواحيك و ما مرت عليك
ثم يقول:

و ثب العالم للمجد سوى
أمتي طابت بها رقدتها

69 - "عامل و المدارس (2)" محمد شرارة، مجلة العرفان الجزء 5، المجلد 18، كانون الأول 1929، لبنان.

70 - "حياة الأمم بحياة هدايتها"، محمد شرارة، مجلة العرفان، المجلد 18، تشرين الأول 1929 لبنان.

تحت أستار الدجى نجمتها
نسمة الريح علت صفرتها

بدرها الزاهي توارى و اختفت
و وجوه كلما مرت بها

* * *

شفق الصبح اعترأها النعس

دخل الليل و نام العسس⁷¹

و عيون كلما لاح لتها ...

كيف نرجو يقظة منها إذا

كما كتب مقالاً بعنوان "حياتنا و اتجاهها" بحث فيه أسباب تخلف الأمة، إن لم تبين على أسس صحيحة، فستبقى متخلفة عن الركب:

« أمة تعبر إلى ما وراء الأفق بقوة الفكر، و منار العقل لتحقيق أحلامها، و لا يقف في طريقها سياج ما، لهي أمة يتجلى العزم بأظهر تجلياته، و ما العزم إلا مظهر من مظاهر الحياة، و سر من أسرارها الكامنة و راء الأشباح و الهياكل ... و أمة و اقفة في مكانها ترى البرغشة ليثاً... تبحث عما تتمسك به من الأوتاد التي أكل أحشاءها السوس، لهي أمة لو كان للجبن و الضعف مثال في الوجود الخارجي، لكانت مثله الأعلى، و ما الجبن و الضعف إلا موطن من مواطن الموت و مظهر من مظاهر الفناء.»⁷²

و قد كتب حسين مروة عن شخصية محمد شرارة في تلك الفترة :

« فقد جاءت بعد ذلك، ظروف و عوامل نضجت بها مكونات علاقة جديدة بينه و بين الواقع الدراسي و الاجتماعي الذي يعايشه في ظل نظام الجامعة النجفية ... ذلك إن انطلاقه الأول من قيد هذا النظام و تحرره من آثار هذا القيد، قد حقق له طموحه الاستقلالي في الاختيار، إذ اختار نهجه الثقافي فعلاً، و لم يبق للصراع بين الواقع و طموحه سلطان عليه يتحكم بمسار العلاقة بينه و بين هذا الواقع ... لقد أصبح الحكم الآن، في أمر هذه العلاقة، مبنياً على حصيلة غنية من ألوان المعرفة و الثقافة، المركبة المتنوعة و المتوازنة، و أصبحت العلاقة بينه و بين محيطه الدراسي و الاجتماعي متحررة من أثر الضغوط الداخلية - الذاتية لأن تنظيم عقلانياً حل محل تلك الضغوط ... و هو - أي هذا التنظيم العقلاني - ينتسب، بمجمل مكوناته الأولى، و بطابعه العام، إلى الفكر الليبرالي، ... لكن هذا التنظيم العقلاني للعلاقة بين "محمد" و واقع المحيط نفسه، لم يكن يعني استدراجه إلى

71 - "الأمني الضائعة" محمد شرارة، مجلة العرفان، لبنان، حزيران 1931

72 - "حياتنا و اتجاهها" محمد شرارة، مجلة العرفان - لبنان 1931

المصالحة مع هذا الواقع ... فالمصالحة بمفهومها الذي يتضمن قبول الواقع، أصبحت عنده بمنزلة الردة و الانحراف و خيانة الواقع ذاته ... أما التنظيم العقلاني المقصود هنا فهو الذي يعني، آنذاك، أن رؤية الواقع أصبحت مضادة بفكر ما، و لم تبق ذاتية مزاجية انفعالية ... أي إن أعراض الجمود و التزمت و القصور أصبحت مرئية في هذا الواقع على نحو يضع مسيرة الرفض و المجابهة على خط أقرب إلى السداد في محاولة الهدم و التغيير.⁷³

* * *

عاد محمد شرارة إلى لبنان في عام 1930 بعد غياب عقد عن بلده، و وجد أن تلك الوردة التي نظم فيها قصائده، لم تتج من "قم الأشواك" كما كان يتمنى، و وجد حبيبة أحلامه قد تركته و تزوجت من شاب غني و هاجرت إلى الولايات المتحدة. كانت أول صدمة عنيفة في حياته عندما دخل الدار بعد غياب طويل، و سأل عنها، و شعر بخيبة أمل، و ألم دفين في أعماقه عندما عرف انها لم تنتظره. و كتب مقالاً بعنوان "لغة الكأس"، كشف فيه عن مرارة دفينه في أعماقه، حيث تشتت الأحلام التي بناها و تصدع مستقبله:

« أحب في صباه فتاة كالندى الطاهر، و هام بها إلى حد العبادة أو إلى حد كان يرى الله من خلال وجودها، و يرى أشعة الحياة تتبعث من نظراتها، و يرى جوده الأدبي من وراء الأشعة التي ألقته على حياته كلها. و خطبها من أهلها لما عزّ عليه الصبر، و أقفرت الدنيا بوجهه لبعدها عنه. فما كان من أهلها إلا أن وقفوا في وجهه، و صدموه في عزة نفسه. فغضب و ثار ثورة دونها ثورة البركان في أول أمره، و لعن الحياة كما يلعن إبليس... و لكن هذه اليقظة الفكرية، و الرجوع إلى تحليل الحوادث، و قياس الحياة بمقاييسها التي تقيسها بها الناس، كل ذلك كان من العوامل الفعالة في هدوئه و راحته و اطمئنانه إلى حد ما، و تحويل عاطفة الحب في نفسه إلى عاطفة روحية رقيقة تصغر معها تلك العاطفة المقرونة بحب "الامتلاك".⁷⁴»

⁷³ - "محمد شرارة كاتباً و إنساناً"، د. حسين مروة، وجوه من الجنوب، دار بن خلدون، 1982، ص

14- 15

⁷⁴ - "لغة الكأس" من صور الحياة، محمد شرارة، مجلة الهاتف - النجف، 1939/2/17.

لكنه لم يضر الحقد في أعماقه و إنما المرارة من موقف أهلها منه، و يذكر ذلك في سياق مقال كتبه بعد عقود عن القربى: « و الحقيقة إن علاقة - القربى - لا تجعل الأقارب أصفى من غيرهم... أي إن الانتماء النسبي لا يمحو الأحقاد، و يعمل على تصفية النفوس، و لكن تبقى للخيط أهمية و إن تضاءلت إلى مستوى الصفر في بعض الأحيان.»⁷⁵

لكن قصة الحب «عاشت في حياته طويلاً، و اعتملت داخل نسيجه العاطفي اعتماد الجرح العميق الصامت، بحيث كان لها الدور الأهم في تكوين مزاجه الشعري الرومانسي الذي رافق مسيرته الأدبية حتى النهاية».⁷⁶

و ظل هذا الموضوع يتردد في مقالاته، ففي "دموع و دموع"، وصف خيبة أمله عندما عاد إلى بلاده، و لم يجد حبيبته:

« ثم عاد إلى بلاده، و في دماغه الثقافة العالية، و في قلبه العواطف الملتهبة. و لكن أين (هي) لتري ذلك كله، ترى السعادة التي ادخرها لها؟ هل هي في بيتها؟ لا ... إذن أين هي؟ في بيت آخر! في بيت أعدته لها الأيام، و عرف كل شيء...»⁷⁷

و لكنه ظل متميزاً في موقفه، فلم يهاجم حبيبته أو يصفها بنعوت نابية كما هي الحال في موقف بعض الشعراء، و إنما اتخذت صورة المرأة في مخيلته صورة مثالية أقرب منها إلى التقديس، بعيدة عن الواقع، و وضعها في "الررفرف العالي" القريب من الكمال، حيث تمثلت فيها صفات الجمال و المحبة و الأمومة و التفاني و الإخلاص.

هكذا تجلت قصة الحب حتى في قصائده، و كانت قصيدته "بلادي عاملة"، التي نظمها في نهاية العشرينيات، مرآة إلى المعاناة و البعد عن الوطن و الحبيبة، قصيدة تفيض بالحنان و الحب و لوعة الفراق، و مطلعها:

نفحات روضك أم رياح صباك
هزت فؤاد الصب أم ذكراك!!
أم تلك ألحان الحمام حركت
لهواك حتى عصابة النسك!

75 - "الأهل و الحنين" المتنبي بين البطولة و الاغتراب، محمد شرارة، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت - 1981، ص- 68

76 - محمد شرارة: كاتباً و أسناناً، دحسين مروة، وجوه ثقافية من الجنوب، دار ابن خلدون. 1981،

ص- 14

77 - "دموع و دموع" محمد شرارة، مجلة الهاتف - النجف، أيار 1938

ثم يقول:

أخشى عليها من فم الأشواك
أنفاسها عطرية كشذاك
يوم الرحيل تركتها بحماك⁷⁸

يا ربوة الوادي: و لي بك وردة
وبروضك الفيّاح لي ريحانة
جسمي و إن سكن العراق فمهجتي

لم تطفئ السنين حبه لحبيبتة، و لكن اتسم ذلك الحب مع مرور الزمن بنوع من الحب الأفلاطوني تجاه الحب بصورة عامة و المرأة بصورة خاصة، و كان ضد نظرة أولئك الذين يؤمنون إن المرأة "وعاء للتناسل". لكن ظلت النظرة الرومانسية مهيمنة فيما يكتبه عن المرأة، و في الدفاع عنها، رغم مرور الزمن و تطوره الفكري و انتقاله إلى مرحلة النظرة الواقعية في الكتابة.

* * *

خطب له والده في العام نفسه ابنة الشيخ كريم الزين الذي كان أحد تلامذة الشيخ موسى شرارة، فوافق والدها على زواجها، لأن جده موسى شرارة و لأنه طالب في النجف. إذ كانت تعتبر مدرسة النجف، المنهل الذي ينهل من علومها الدينية كبار رجال الشيعة في جنوب لبنان. مدينة عشتت "العلوم" الدينية فيها لعشرات القرون، و حفظت لنفسها سجلاً تاريخياً باهراً في هذا المضمار.

كانت أحلامه و آماله أوسع من ذلك، و لكنها تناثرت و تبددت، بعد الصدمة الموجعة التي جابهها في شبابه، و خيبته في الزواج من حبيبة أحلامه. لم يبق أمامه إلا الموافقة على اقتراح والده و والدته فيما يخص الزواج. و ربما موافقته على الزواج من فتاة لم يعشقها، كانت نوعاً من الشعور باليأس، و لم يطالب في قضاء فترة لمعرفة خطيبته، بالرغم من انه كان ثائراً على تقاليد المجتمع، و لكنه خضع لمشيئة والديه، و إلى التقاليد الاجتماعية في اختيار رفيقة حياته!!

أما بالنسبة إلى الفتاة، فيكون قرار الزواج منوطاً بالأب الذي يقرر مصيرها، و على والدة العروس إقناع ابنتها بالزواج، بالترغيب و الترهيب من أن تصبح عانساً. لذا لم يكن أمام الفتاة خيار آخر غير الزواج! و ليس هنالك إلا هدف واحد أمام الأنثى منذ و لادتها و نشأتها، في أن تصبح زوجة مثالية في خدمة و تلبية طلبات زوجها! إذ لم يكن أمام الفتيات آنذاك من مستقبل، إلا أن يتعلمن الخياطة و

78 - "بلادي عاملة" محمد شرارة، مجلة العرفان بتاريخ تشرين الأول 1928

التطريز و إدارة شؤون المنزل و الطبخ، فتصبح بذلك ربة بيت جيدة، جاهزة لتلبية مطالب الزوج في المجتمع الذكوري.

كانت "زهرة" خطيبته راضية بنصيبها، فالزواج، هو مستقبل الفتاة المحظوظة الذي يبعدها عن جو العزوبة التعيس الذي تخافه الفتيات، و التي مصيرهن خدمة الآخرين من أفراد العائلة، فنظل تابعة بلا كيان ذاتي مستقل. و إن كانت ذات حظ كبير فسيكون زواج من رجل غني، مستقيم الأخلاق، يوفر لها السعادة في حياتها الزوجية. لم تكن "زهرة" سعيدة أو حزينة لأن زوجها لم يكن باستطاعته أن يوفر لها ما تحلم به الفتيات من رغد العيش بظل زوج ثري، يبعدها عن متاعب الحياة، و إنما كانت راضية قنوعة بنصيبها!! خاصة و أنها كانت ورعة، متدينة، تقوم بفروض الصلاة و الصوم، تصلي و لا تتقرب من الله إلا متشحة بالبياض من رأسها إلى أخصم قدميها. متمسكة بعرف و عادات المجتمع التقليدي المحافظ الذي نشأت و تشربت به.

عقد قرانها في دار والدها الشيخ عبد الكريم الزين، و تزوجت من شخص غريب عنها و عن ضيعتها، لم تلتق به في حياتها، إلا بعد أن تم عقد قرانها. و لكنها كانت مسرورة لأنها تزوجت من رجل سيصبح رجل دين، و له مستقبل في هذا المضمار. و عندما حان وقت الزفاف و الفراق، ذرفت الدموع و لاحت مناديل الوداع، و العروس محجوبة عن أعين الرجال، محمولة داخل هودج، حيث رافقها في ذلك اليوم الدافئ المشرق بأشعة الشمس الضاحكة، عدد من الخيالة من عائلتها. كان من بينهم شقيقها الشاعر الشيخ علي الزين. و لم يكن هنالك طرق للسيارات بين الضيعتين آنذاك. فقطعوا الطريق صباحاً، من ضيعة "جبشيت" على ظهور الخيل، حيث تتخلله التلال و الهضاب، و كان في انتظارها خيالة على مشارف الضيعة عندما وصلت مع الحشد الذي رافقها، و اصطفوا لاستقبالها من بداية طريق "صف الهوى" حتى دار الشيخ علي شرارة، والد العريس. كان الحشد الذي اصطف من الناس و الأقارب على جانبي الطريق، يتغنون بأوصاف العروس و العريس. و استقبلت العروس بالزغاريد/الهلهيل و الغناء عندما وصلت الدار، و شاركت "أم محمد" الوقور، و الدة العريس، في تلك الزغاريد، موجهة زلغوظتها إلى العروس:

وطبتكِ ظهري حتى تقطعي النهري
وبريدكِ سعيدة و بريدكِ كنة الدهري

بريدك سعيدة و ريت الماخذك يسعد

و بيتك أريب/قريب و بيت اللي يبغضك يبعد⁷⁹

كانت هذه القصيدة العامية من نظمها في ساعة العرس، و هي المرة الأولى و الأخيرة التي شاركت فيها "أم محمد" بالزلغطة/الهلهيل، و الغناء في عرس ابنها، فقد كان ابنها البكر محمد عزيزاً عليها، و له منزلة خاصة عندها، تكن له المحبة و الاحترام، و لم تشارك بالزلغطة في أعراس أولادها الآخرين.⁸⁰

و استمر الرقص و الدبك و الغناء بين شباب الضيعة و شاباتها في ساحة الدار التي كانت تحتها البئر الكبيرة التي تجهز العائلة بالماء، و كان هنالك هاجس الخوف من أن تندك البئر و تهبط من شدة الرقص و الدبك عليها و الذي استمر لساعات طويلة، كما استمر الرقص اليومي و الغناء لمدة أربعين يوماً. فقد كان حدثاً مهماً ظلت الضيعة تتحدث عنه لمدة طويلة.

و بعد أن انتهت أفراح العرس التي أقيمت بهذه المناسبة، تركت العروس بصحبة زوجها ربوع لبنان، جباله المطرزة بشجر الصنوبر، و وديانه المحلاة بأشجار الزيتون و التين و الموز و البرتقال، و سماءه الصافية في الصيف و الموشاة بالغيوم في الشتاء. تركت زرقة بحره المتغير بحركة دائمة مستمرة باستمرار الحياة و عنفوانها، إلى مدينة قاحلة، خالية من تمتة الأنهار و تنهد الأشجار، مدينة يخيم عليها أشباح الموتى و أنين المفجوعين بفقدان أحبائهم، و تتلبد سماؤها بغيوم الألم و

⁷⁹ - مقابلة أجرتها مريم شرارة في نيسان 2005 مع فريدة شرارة، والدة إحسان شرارة، مواليد 1912، كانت من المشاركات في عرس محمد شرارة. (ب.ش)

⁸⁰ - مقابلة: مع سكتة شرارة، بتاريخ 2007/12/14

« كما نظمت والدته قصيدة عامية عندما أكمل دراسته و استلم ابنها "محمد" شهادة الاجتهاد: شبابنا زلغطت و بناتنا غنت

رايتنا البيض من رأس الجبل طلّت

ريت اللي شافت شبابنا و ما صلت - على محمد

تقبر صباها و قبل الشمس ما طلّت

و أصبحت هذه القصيدة تتردد على السن الجميع و تعاد في المناسبات، و يذكر الجميع من إن "أم محمد"، هي أول من غنتها. إذ كان نظم الشعر العامي متداول في أجواء "بنت جبيل"، و كانت "أم محمد" من اللواتي ينظمن الشعر العامي بالسليقة إذا انه جزء من حياتها اليومية. و هذا المنحى في نظم القصائد كان شائع في جنوب لبنان، و لذلك تجد النساء و الرجال ينظمونه، حتى أولئك الذين لا يعرفون القراءة و الكتابة.»

الحنن، مدينة تنتهي بها رحلة الحياة و تموت الآمال.⁸¹ حيث قبعت بين جدران دارها، لا تخرج من الدار إلا لزيارة الجامع "الحضرة" أو بعض النساء من المعارف و الأصدقاء، متلعة بعباءة، تحجب وجهها ببرقع أسود، « حجاب يقيد الجسد مباشرة و الفكر بصورة غير مباشرة، فيمنعه من الخوض في الأفاق المفتوحة أمامه، و يستكن إلى الخضوع و إرادة الرجل و إطاعته في هذا المجتمع التقليدي.»⁸²

* * *

عاد محمد شرارة إلى مدينة النجف، و بدأ صفحة جديدة من حياته، كانت زوجته "زهرة" جميلة الوجه مثل اسمها، ذات عينيْن واسعتين، عسليتي اللون، و أنف صغير دقيق، و شفّتين و رديتين رقيقين، و بشرة بيضاء، مملوءة التديين و الردفين، ليست بنحيفة القد و لكنها ليست ببدينة. هادئة صامتة، تقية ورعة، مسالمة، لا تذكر أحداً بسوء، فالنميمة بالنسبة لها شر من شرور الشيطان! تصلي و تصوم قبل أن يبدأ شهر رمضان بأسبوع و لا تقطر قبل أن تتأكد من ظهور الهلال!

كان مبتهجاً و مسروراً بحياته الجديدة مع زوجته، و أحس بالاستقرار الذي كان يفقده و يتوق إليه. و انتقل من العيش مع الطلبة إلى بيت مستقل، حيث وفرت له زوجته جميع ظروف الراحة التي كان بحاجة إليها. كان مسروراً لدرجة، وصف حياته في الرسائل التي بعثها لأخيه حسين شرارة آنذاك "بعش الجنة".⁸³

81 - و قد قال الشاعر أحمد الصافي عن مدينته النجف: "و واردات بلدي جنائز/ و صادرات بلدي عمائم".

82 - رواية "وميض برق بعيد"، د. حياة شرارة، لا زالت مخطوطة.

83 - مقابلة مع مريم شرارة بتاريخ 2008/7/16، لندن - انكلترا

و ليس بالشيء الغريب، في أن يشبه محمد شرارة زواجه "بعش الجنة" بعد ما مرّ به من شطف العيش في مدارس النجف:

« إذ كان الطلبة يعيشون في غرف صغيرة مستقلة عن بعضها البعض، و كانت الأعمال موزعة بينهم، من الطبخ و الغسل و تنظيف ساحة المدرسة. و لم يكن في مدينة النجف إسالة ماء في تلك الفترة، فكانوا يشتركون الماء من (السقا) و يقتصدون في استعمال الصابون الذي كان يغسل به الجسم و الرأس فقط. لذا كانوا ينظفون الصحون و القدور "بالطين انخلاء" أو بالرماد المتبقي من الطبخ، لأن الطبخ كان على الحطب. ثم تمسح الصحون بقطعة من القماش لتنظيف ما تبقى من الرماد العالق بها.»

سكن مع زوجته في دار في "حي العمارة" القديم. كانت بيوت النجف قديمة بقدّم تاريخها، تتدلى من سقوفها الخشبية قناديل تضاء بالنفط، فلم يكن الكهرباء قد زار بيوت النجف آنذاك⁸⁴، كما تتدلى أحياناً من تلك السقوف حية ترافق أهل البيت في معيشتهم. كانت "حياة الدار" صديقة يهابها جميع أفراد البيت و لا يحاول أحد أذيتها أو التعرض لها، تسرح من غرفة إلى غرفة، تتلوى بحرية كاملة، تتسحب بسرعة إن شعرت بخطر يدهمها. و كان معظم أهل النجف يعتبرون أن قتل حية الدار غير وارد في أعرافهم، لأنها تجلب النحس عليهم إن تخلصوا منها. و لم تكن العروس تعتقد بأن حية الدار صديقة لها، كفتاة قادمة من المناطق الجبلية في جنوب لبنان، حيث تكثر الأفاعي السامة، و لا يمكن لها أن تفقه معنى صداقة "حياة الدار"! فلم تكن تأمن أي حية في الدار، ترافقها في معيشتها اليومي، فكانت تحاول دائماً التخلص منها بقتلها. و استغرب جيران الحي عندما علموا أنها قتلت "حياة الدار"!! طالبين منها ألا تحاول قتلها ثانية. لكن رغم الاختلاف في العقائد و الخرافات و السحر، فقد تأقلمت العروس في هذا الجو، بالرغم من البون الشاسع بين البلدين!!

* * *

كان لشخصية والدته "زينب" أثر كبير في موقفه من المرأة. كان محمد شرارة يرى منذ نشأته أن المرأة المتمثلة بوالدته تعامل من قبل والده باحترام. كما يحترمها و يجلها جميع أهالي ضيعة بنت جبيل. كان معجباً و فخوراً بقوة شخصيتها. و عندما عاش في النجف، لمس الإجحاف السائد بحق المرأة في المجتمع الذكوري، و كان يعتبر المرأة مظلومة و بحاجة إلى نصير، و شعر بما تكابده من ألم و عذاب أثناء الولادة، و ذلك عندما و لدت لهما أول طفلة، فكتب كيف تستقبل الأنثى: "ميلاد الأنثى يتردد بين الرفض المطلق، و القبول الجزئي". و خصص مقالاً عن هذا الموضوع، و وصف فيه شعوره:

« عواطف مشحونة بالخوف و القلق على إنسان آخر، يعاني أفرع أشكال الصراع بين الحياة و الموت. و لكن شيئاً من ذلك لا يخطر ببال الذين ينتظرون "البشارة" فالمهم أن يقبل القادم الجديد، بل المهم أكثر ألا يكون القادم "أنثى". أما التي تكابد العذاب فلها شأن ثانوي إن لم يكن من أهون الشؤون أهمية... و من حق الذي

⁸⁴ - وصل الكهرباء إلى مدينة النجف في عام 1928، و كان مقتصرأ على الجامع و صحنه فقط. (ب ش)

يتحمل هذه المتاعب أن ينتظر هدية على هديته، و أن تكون الهدية الجديدة مناسبة للجهد المبذول و العناء. ... لقد قوبلت البشارة بوجه أسود كما تخبرنا الآية العظيمة "و إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل و وجهه مسوداً و هو كظيم. يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب.. ألا ساء ما يحكمون"، القرآن الكريم.⁸⁵

سميت الطفلة "مريم"، فمريم كانت حبه الأول، التي أبعدها عنه عرف المجتمع و تقاليده. و لمريم دور مهم في التاريخ، فهي الأمومة الدافئة التي ألهمت الشعراء و الفنانين في العالم، و كتبت عنها روائع الشعر، و أصبحت موضوعاً مهماً للرسامين و النحاتين، الذين رسموا صوراً لها و نحتوا أروع التماثيل، التي أنتجت عبر القرون.

أبدى جميع الأقارب و الأصدقاء في النجف، نوعاً من التحفظ و عدم الارتياح لمجيء أنثى، فالجميع يفضلون الذكر، و خاصة الطفل الأول البكر! فحفظ أسم و سلالة العائلة شيء مهم، لا يمكن أن تحفظه و لادة البنت! و لكن فرح محمد شرارة بقدم طفلته، كان يرفعها من سريرها يقبلها و يناغيها عندما يعود إلى الدار. و لم يفرق في حياته بين ولد و بنت و كتب مقالاً بعنوان: "سهيل أم خلاف أيضاً":

« أطلت مريم على الوجود كما تطل النبتة الصغيرة، و كانت أول بيت من بيوت القصيدة و أول لحن من الحان الحياة العائلية، فاستقبلت من الناس كما تستقبل سائر البنات في هذا المجتمع: و جوهاً عابسة، و نظرات باهتة، و كلمات متقطعة، و تهان مبطنة بالرثاء و غير ذلك من المعاني الماشية على هذا الوزن و هذه القافية! كأن الطفلة جريمة من الجرائم تضاف إلى سيئات الوجود فلا تكاد تظهر حتى تستقبل بمثل هذا الاستقبال الشنيع! »⁸⁶

و لكن عانت زوجته "زهرة" من تلك المشكلة معاناة استمرت لسنوات عديدة. لا تسمع إلا الألفاظ النابية التي كانت تنتهي إلى سمعها من بعض النسوة اللواتي يتكلمن كلاماً مبطناً. كان هذا النوع من الحديث يؤلمها و لم تكن قادرة على إجابتهن. إذ كانت تفقد الجرأة في الرد عليهن، و تسكت النقد و التجريح اللذين

⁸⁵ - "الأبناء و البنات" محمد شرارة، من مخطوطة كتاب "تأملات في الأدب و الحياة". نشر المقال في مجلة العرفان- لبنان، عام 1975.

⁸⁶ - "سهيل أو خلاف أيضاً" محمد شرارة، مجلة الهاتف، العدد 83، 1936

تعرضت لهما، و أصبح الصمت سلاحاً آخرَ تلتجئُ إليه في مثل هذه الحالات. كما كان الجمال معياراً آخرَ لأولئك النسوة، فلم تكن مريم بالطفلة الجميلة في نظرهم، بل طفلة ذات سحنة سمراء، يغطي الشعر الأسود فروة رأسها و جبينها. كانت كلماتهن كوخز الدبابيس في أذنيها، تتجاهلها بابتسامة حزينة عندما تتردد على مسمعها الكلمات نفسها، و النقد الساخر من قبل النسوة اللواتي كانت تلتقي بهن من المعارف و الأصدقاء، مرددات الكورس نفسه الذي عجزت عن إسكاته "عيني منين جايبة هل البنية السمرة، المو حلوة مثلج؟".

و كتب محمد شرارة :

« و مهما حاول الآباء و الأمهات أن يقتنعوا بأنهم مسرورون و إن البنت بنتهم لا بنت غيرهم و إنها تعنيهم خاصة و لا تعني أحداً آخر فلا ينجحون. و ربما كثرت الغمزات و البسمات إزاء تلك المحاولة، و هي غمزات تحمل من المعاني المختلفة ما يعلمه كل إنسان عرف فضول الناس!!»⁸⁷.

لم تتطور أحاديث أولئك النسوة إلى أكثر من نقد كلامي، و تساؤل يشوبه الاستعراب من ولادة طفلة لا تشبهها؟ و لكن غرزت في أعماقها ألماً دفيناً، و كأنه عقاب لها من الله. خاصة و إن زوجة أخيها التي كانت تقطن النجف في تلك الفترة، ولدت ذكراً، و كانت تشعر بالزهو و التفوق عليها. و استمرت الحملة الكلامية عليها من غير توقف. فكتب محمد شرارة عن أولئك النسوة :

« لقد تطورت الأرياء و المظاهر، كما تطورت المدن و القرى، و استخدمت أدوات الحضارة الأوروبية في الوقت الذي لم تبرح العقلية خيام الشعر أو مضارب القبيلة في البادية. و ما استقبال البنت بالتهجم، عندما تولد، سوى خضوع تلقائي في ملكوتها الذي يبدو و كأنه قانون أزلي مفروض على الحياة.»⁸⁸

و عندما ولدت البنت الثانية لم تحدث أية ردود فعل قاسية بالنسبة لزوجته:

« لم تكذب تمضي السننات الأوليان على مريم حتى اهتز البيت بنبرة جديدة و لحن جديد، و إذ هذه النبرة نبرة بلقيس و هذا اللحن لحنها، و لم تصادف بلقيس من

⁸⁷ - سهيل أو خلاف أيضاً" محمد شرارة، مجلة الهانف، العدد 83، 1936

⁸⁸ - "الأبناء و البنات" محمد شرارة، من مخطوطة "تأملات في الأدب و الحياة"، نشر المقال في مجلة العرفان، لبنان 1975

فضول الناس و لغوهم كما صادفت مريم مع إنها أحق بهذا الفضول لأنها الثانية.. و راحت بـقيس تجتاز الحياة بقوة لا تعرفها أختها»⁸⁹
كان اللون الوردى طاعياً على لون بشرته و جهها المستدير الصافي منذ الأشهر الأولى، شعر أسود سابل غطى فروة رأسها، و طوقت عينها السوداويين أهداب طويلة، و غطت الحمره شفيتها المكتنزتين. فتغيرت الآيه بين عشية و ضحاها، من النقد اللاذع الذي تعرضت له زوجته "زهرة" عندما ولدت طفلتها الأولى، إلى الطلب منها في إخفاء وجه طفلتها الثانية بمنديل عندما تخرج لزيارة إحداهن، خوفاً من أعين الحساد!

و لكن شعرت "زهرة" لأول مرة في أعماقها بالزهو و الرضا بولادة بنت ثانية، كانت بنتاً جميلة في نظر أولئك النسوة! و الجمال يلجم الأفواه! كانت تضمها و تحملها بذراعها بقمط أبيض مطرز بخيوط وردية، متلعة بعباءة سوداء و غطاء أسود شفاف للوجه "بوشيه"، مارة في أزقة مدينة النجف الملتوية، تحذرنا النسوة اللواتي تلتقي بهن، مرددات: "بسم الله الرحمن الرحيم ما تخافين من عيون الحساد؟"⁹⁰ ضمي هل الطفلة جوى عباتج/ تحت عبائك".

89 - سهيل أو خلاف أيضاً" محمد شرارة، مجلة الهاتف، العدد 83، 1936

90 - حديث مع رفعة الجادرجي بتاريخ 2008/2/4. عندما وجهت له السؤال التالي: لماذا يخاف الناس البسطاء من "عين الحساد؟".

« إن التمام و التعاويذ و الإجراءات المتعلقة بالسلوكيات السحرية، كالحركات اليدوية و استخدام العظام و الودع و غيرها، تبني جميعها على فرضية واحدة أساسها أن الإنسان يمتلك روحاً بالإضافة إلى البدن مستقلة عنه. و إن جميع الموجودات الجامدة تمتلك أرواحاً كما هي عند الإنسان. إذن يمكن إلى من له قدرات إرادية أن يؤثر على الأرواح في الجمادات أو الكيانات الحية. فإرادة العين الحقودة و الحسودة، بصفتها روحاً و لها إرادة، تقدم و تؤذي المحظوظين، لذا يتعين تجنبها. إن الخوف من "عين الحساد"، هو خوف الذات من ممارسة السحر ضد الذات نفسها.

« و لأن "العين" تمثل إرادة روح الآخر الذي من الممكن أن تؤثر على سلوكيات الفرد الآخر، فقد ابتكرت كلجيرية culture، قوى "العين" كأداة تمثل إرادة الروح الكامنة في الصورة، فجاءت إحدى صيغها بشكل "سبع عيون". فوضعت في الأبواب، و مداخل الدور، لتصد الأرواح الشريرة، فتسخر هنا روح هذا الشكل، و الكامنة في الشكل، لحماية الدار من أرواح شريرة و تجمد قوى إرادة الروح الشريرة التي تصدر من العين الشريرة.

« لقد منح رقم "سبعة" صفة أو مقاماً مقدساً، منذ القدم في تاريخ حضارة الإنسان، و لهذا نجد رقم "سبعة" يتكرر في طقوس و كلجريات كثيرة، و منها الأسبوع، سبعة أيام. و أسطورة سبع طبقات الأرض التي ترد في كثير من الأساطير السومرية، و الإبراهيميات.

كانت معظم النسوة آنذاك يعتقدن بقوة "عين الحسود" التي تنفث الشر إن لم يتصدّين لها، فيعلقن التعاويذ على صدور أطفالهن، أو يضعنها تحت الوسائد. كان محمد شرارة لا يؤمن بمثل هذه الخرافات، فلم يسمح لزوجته بتعليق التعاويذ أو وضعها تحت الوسائد، فنشأ أولاده وبناته بعيدين عن أجواء السحر و التعاويذ و التمايم التي كانت سائدة آنذاك في المجتمع.

و عندما ولدت زوجته بنتا ثالثة، كتب:

« و إذا "بحياة" تطل على الوجود، و كأن الطفلة المسكينة أحست بأنها " ثالثة الأثافي" كما كانوا يقولون، فجاءت وادعة هادئة تنام الليل كله و لا تززع أحدا بصياحها كما كانت تفعل بلقيس ... أما أنا فكنت أشفق على هذه الأزهار الصغيرة أن يمسهما النسيم و كلما ازداد لغو الناس ازداد حرصي عليها و حبي لها و كرهني لتلك الجماعة الضالة التي تنظر للبنت تلك النظرة.»

و أصبح أسم أولى بناته الأمومة المتجلية "بمريم" العذراء و الثانية "بلقيس" ملكة سبأ التي تفخر بها أساطير العرب، و الثالثة "حياة" التي من خلال تدفقها و عطائها يستمر الكون.⁹¹

تحدى "محمد" المجتمع الذي أطلق عليه "أبو البنات"، و على زوجته "أم البنات". و انقلب الشغب إلى كلام جدي، يستنتج منه، أن عليه أن يتزوج من امرأة ثانية تلد له صبياً. كانت في أعماقها تطلب النجدة من الله و تبتهل إليه في صلاتها لينقذها من براثن أولئك النسوة و ينعم عليها بصبي ذكر، و يعدها عن مشاركة زوجها بشبح امرأة ثانية. كانت أولئك النسوة يعشن في بحر من الجهل و الأمية المسيطر على أجوائهن، و وظيفتهن الوحيدة إنجاب الأطفال، و الإبداع في إنجاب الذكور من

« لقد ظهر السحر مع الإنسان العاقل، و هي الحركة الأولى التي ابتكرها العقل في التعامل مع الظواهر و هموم الوجود. و تطور هذا الموقف و أخذ صيغة الأديان و التعامل مع تعدد الآلهة. و من ثم اختزل هذا التعدد باليهين: إله الخير و إله الشر. و لذا يعتبر السحر الخطوة الأولى المعرفية قبل أن ينتقل العقل و يتجاوز مفهوم الأرواح، و من هنا أخذ ينظر إلى مقومات البيئة باعتبارها كيانات جامدة، تتمتع كل منها بخصائص تتفرد بها. و بهذا المفهوم انتقل العقل من السحر إلى العلم.»

⁹¹ - و كتب في نفس المقال بعنوان "سهيل أو خلاف أيضا":

« إن الخلاف الذي كتب عنه أخي "حسين مروة في عدد سابق من الهاتف، و الثالث الذي اكتمل في بيت أخي هو الثالث الذي اكتمل في بيتي، إلا أن الفرق بين ثالثه و ثالثي، أن ثالثه مؤلف من نزار و حسان و أحمد، و ثالثي مؤلف من مريم و بلقيس و حياة، فكان ثالثه ينتظر "الفتاة الصغيرة"، و كان ثالثي ينتظر "الفتى الصغير".»

الأطفال، فيشعرن بالزهو و الفخر أمام الأخريات من أقرانهن. و كتب محمد شرارة عن أولئك النسوة:

« كان المفروض في المرأة ذاتها أن تنتفض، أو ترد الإهانة، أو ترفض التهم التي تمس كيانها كله إن لم تتمرد عليها و تحولها إلى غبار هارب تحت وطأة المواكب الثورية الزاحفة إلى الهامة العليا. و لكن الانتفاضة أو الرد أو الرفض أو التمرد بحاجة إلى شخصية تهز فيها هذه المفاهيم، تتطلق إلى تحقيق الوجود الجديد ... و المرأة ليست محرومة من ذلك فقط، بل مطوقة بألوف الأسوار التي تحول بين المواهب و الوصول إلى مرحلة التفتح، و لذلك ذابت الشموع في نفسها قبل التكوين حتى انقلبت هي نفسها على ذاتها و انضمت إلى الفكر الجاهلي الذي شوه وجودها من جميع القيم و خلاها دمية في المتاحف، و بات رأيها بنفسها لا يقل سوءاً عن رأي أبي العلاء، أو اللورد بايرون، أو شوبنهاور و أمثالهم من الشعراء و الفلاسفة. كل يوم إن لم يكن في كل ساعة تسمع كثيراً من النساء يتساءلن عن الحبالى و عما جاءهن من الأولاد، فإذا كان البنات وراء الأبناء غابت الشمس من الوجوه الحلوة الناعمة.. و انطفأت الإشرقة التي تملأ الحياة سروراً و انشراحاً، و حل محلها أثر يشبه أثر الكارثة».⁹²

لكن ظل محمد شرارة بعيداً عن المشاحنات النسائية، لا يصغي لها و لا يعيرها أية أهمية، فعالمه يختلف عن تلك العوالم التي تحيط بأسرته. و لكن تحملت زوجته المعاناة من نظرة النسوة القاسية بحق إنسانية المرأة، شعورها العاطفي و وجدانها، و إحساسها بهويتها، حيث تنقلب تلك الهوية إلى أداة لإنجاب الأطفال و خاصة الذكر منهم.⁹³

92 - "الأبناء و البنات" محمد شرارة، من مخطوطة كتاب "تأملات في الأدب و الحياة". نشر المقال في مجلة العرفان - لبنان، عام 1975.

93 - و إذا ما قارنا موقف الشاعر بدر شاكر السياب من ولادة ابنته في عام 1956، بعد مرور حقبة زمنية لأكثر من عقدين، بموقف محمد شرارة من ولادة بناته، نجد كم كان محمد شرارة متقدماً بتفكيره على عصره، بنظرته السامية للمرأة و موقفه من ولادة البنت. فهو لا يفرق بين ولادة ذكر أو أنثى مع العلم انه لم يتسن له الدراسة في معاهد علمانية، و إنما درس في وسط ديني ذكوري. أما بدر، فموقفه لا يختلف عن موقف أي إنسان عادي، يفضل الذكر على الأنثى، و لاسيما المولود الأول، لذا عندما ولدت زوجته بنتاً لم يهتم بها بل تجاهلها، و عندما ولدت له ولداً بعد عام من ولادة ابنته، طار فرحاً و نظم قصيدة به. و بدر ليس بخريج كلية اعتيادي و إنما هو أحد قادة تطور الفكر العراقي، و له دور مهم في تطوير الشعر الحديث في العالم العربي. (ب.ش)

كان محمد شرارة ينشر مقالاته قبل تأسيس جريدة "الهاتف" في جريدة "الراعي"⁹⁴ لصاحبها جعفر الخليلي، وكتب مقالاً بعنوان: "هل تتحط اللغة العربية عن غيرها في المنطق" و هو رد على الجدل الذي كان دائراً في تلك الفترة في مجلة "الرسالة" المصرية، التي اعتبرت "إن الجدل في اللغة العربية ظاهرة من ظاهرات اللغة العربية و ميزة من ميزاتها" و لكن اعتبر محمد شرارة هذا النوع من التفسير خاطئاً:

« لم تكن اللغات إلا وسيلة من وسائل التعبير عن الفكرة الحائرة في الذهن و العاطفة الحامية في القلب و ما أشبه ذلك. و أي لغة كانت أدق في التعبير عن خواطر النفس و نزعات الفكر كانت أحق بالحياة و أولى بالبقاء من غيرها. ... ربما يقال إن الدقة في التعبير عن الفكرة و العلاقة لا تستند إلى اللغة، بل تستند إلى عبقرية الشاعر و نبوغ المفكر. و يقال ذلك و يستشهد لهذا القول بما شاع عن اللغة الايطالية و انحطاطها عن مستوى اللغات الحية، حتى ظهر دانتي الشاعر الشهير، فأخذ بيدها و جرها عن هذا المستوى إلى أفق تتشرف منه على الفن و تخلع عليه من أثوابها ما يزيد رونقا و جمالا. و لكن هذا القول قليل الحظ من المنطق ... إن

« و قد شعر أنه تخلّد به شخصياً و جسدياً ... رأى بدر في ابنه عراقاً خصباً و جبوراً مزدهرة، و أحس أنه هو نفسه في قاع بويب يذوب فرحاً و يسيل ماؤه لمنح الحياة للنخيل مثل بعل. و قد وضع مشاعره هذه كلها في قصيدة نادرة عنوانها "مرحى غيلان" و يقول فيها:

"بابا... بابا..."

ينساب صوتك في الظلام إلي كالمطر الغضير،
ينساب من خلل النعاس و أنت ترقد في السرير.

ثم يقول:

فكأن أودية العراق

فتحت نوافذ من رؤاك على سهادي: كل وادٍ

وهبته عشتار الأزهري و الثمار. كأن روحي

في تربة الظلماء حبة حنطة و صدك ماء.

أعلنت بعثي يا سماء

هذا خلودي في الحياة تكن معناه الدماء.»

" بدر شاكر السياب - حياته و شعره" عيسى بلّاطة، المؤسسة العربية لدراسات و النشر، الطبعة السادسة 2007، ص- 134، - "مرحى غيلان"، ديوان "أنشودة المطر"، بدر شاكر السياب - الأعمال الشعرية

الكاملة" المجلد الأول، دار العودة، بيروت - 2000، ص- 324

⁹⁴ - "تأسست "الراعي" في 13 تموز 1934 و غطّلت في 19 نيسان 1935، الموسم العدد 55- 56،

2005

اللغة الإيطالية لو لم تكن مستعدة بطبيعتها لأن تخلع على الفن ألوان الجمال لما استطاع دانتى و لا غيره أن ينظم بها الكوميديا الإلهية، غاية ما هناك إن عبقرية دانتى كشفت ناحية من نواحي لغة كانت مجهولة لغيره، هو انه خلق في اللغة روحا كانت بعيدة عنها. هذا غاية ما تستطيع أن تعمله العبقرية و يوحد النبوغ. و من هنا كان الجمال في الفن هو الذي يدور مدار عبقرية الشاعر و اللغة أدواته في ذلك يستعين بها كما يستعين المصور بالألوان»⁹⁵

يؤكد لنا هذا من أن قاعدة اللغة هي قاعدة شعبية و يأتي منبعها و قوتها من هناك، فهي في تجدد دائم بسبب ذلك. و لذا فان اللغات الحية هي اللغات التي تستوعب و تشمل صياغة الكلمات الجديدة.

تأسست جريدة "الهاتف" في أيار عام 1935 لصاحبها "جعفر الخليلي"⁹⁶ الذي كان صديقاً لمحمد شرارة، الذي أصبح مديرها المسؤول، كما كان يكتب في تلك الفترة في مجلة "الحضارة" أيضاً.

و كثيراً ما كان يحل كرئيس تحرير بالإضافة إلى الإدارة، عندما يسافر الخليلي إلى لبنان أو إلى سوريا. كان حريصاً على استمرار صدورها كأنها جريدته، و ذلك واضح من الرسالة التي كتبها إلى الخليلي، عندما مرت الجريدة بأزمة مالية.

⁹⁵ - "هل تتحط اللغة العربية عن غيرها في المنطق؟" محمد شرارة، جريدة الراعي - النجف، 1934/8/10

⁹⁶ - مقابلة مع فريدة جعفر الخليلي بتاريخ 2008/1/6، عمان - الأردن.

« ولد جعفر الخليلي في عام 1904 في مدينة النجف، و توفي و دفن في 2/2/1985 في دبي، عن عمر يناهز 81 عاماً. انتقل إلى بغداد عام 1948. و كانت جريدته "الهاتف" تهتم بالأدب و القصة، لكنها أصبحت جريدة سياسية بعد عام 1948.

« جعفر الخليلي أديب و صحفي و شاعر، و هو من رواد القصة العراقية. كان كريم النفس، داره مفتوحة، أحبه الجميع، و قد زاره مرة حاخام الجالية اليهودية في داره، فاستغرب بعض المسلمين من تلك الزيارة، فقال لهم: " هذا رجل شاعر و أديب، و أنا أجل الشعراء و الأدباء و الكتاب بغض النظر عن دينهم"، و قد كتب كتاباً بعنوان "في قرى الجن" على شكل قصة، تكلم فيها عن العادات البالية في المجتمع. « و أول ما قام به صدام حسين عندما أصبح رئيس الجمهورية في عام 1979، هو تهجير التبعية. و لما كانت جنسية آل الخليلي تبعية فقد شملهم القرار، و قد تركت العائلة العراق قبل ذلك بأشهر، و ظل الخادم في الدار. و قد استولوا على الدار، و سكنت فيه ابنة أخت صدام حسين. و سرق كل شيء و أحرقت المكتبة، و ظل الحرق مستمر لفترة طويلة لأن معظم الكتب كانت من المخطوطات المذهبية، و قد خسر الخليلي سبعة مجلدات من مؤلفاته التي لم تطبع، في ذلك الحريق. له مؤلفات منها تاريخ العتبات المقدسة و هكذا عرفتهم بعدة أجزاء.»

« الجريدة ضعيفة بموادها الأدبية كما هي ضعيفة بمواردها المالية، و كنا نعتقد أن ينهال عليها الأدب بذهابكم إلى سوريا و إذا بها لا يأتيها في هذه المدة الطويلة سوى مقال واحد، و هو مقال الأستاذ اسكندر و مع ذلك تلومني، و تقول انك كنت تشرف على كل شيء فيها ... أما أنا فكأني بعيد عنها... لا أدري ما أعمل أكثر من عملي هذا، فان أغلب أعدادها - مند ساهمت في هذا العمل - يحتوي على مقالاتين لي أحدهما رمزي و الآخر صريح و إصلاح أكثر المقالات إنشاء و إملاء دعك عن كتابة الرسائل، و دعك عن التصحيح لها و للكتب التي باشرت فيها و ماذا أستطيع أن أعمل أكثر من هذا يا أخي، خصوصاً في هذا الجو الملتهب الذي لا يدع لقوي قوة فكيف بالضعفاء أمثالي "من الناحية البدنية" و خصوصاً من هذه النتائج التي تخرج بها الجريدة و المطبعة على رأس كل شهر ...»⁹⁷.

كما تعرض مرة، خلال غياب جعفر الخليلي إلى تحقيق من قبل الحكومة حول ما كتبه الجريدة عن استياء الناس من "تهديم أحواض الماء في النجف"، رغم ان موقف الجريدة كان مع التهديم، و كتب برده إلى الخليلي يبحث هذه النقطة بالذات:

« ليس كل ما يوجب استياء يكون حقاً، و بتعبير آخر إن استياء الجماعات من شيء لا يدل على أن ذلك الشيء باطل لا يصح أن يكون، و قد استاء الناس قبل الآن من الحكومة لمنعها التطبير و ضرب السلاسل و ما أشبه ذلك من البدع التي نادى بتحريمها العلماء و نادى به "الهاتف" أيضاً فهل هذا الاستياء يوجب أن تتراجع الحكومة عما عملت؟؟ و هل يعد هذا العمل مخالفاً بالأمن؟ مع ان الحكومة تعلم بأن منع هذه الأشياء يوجب الاستياء من جمهرة العامة.»⁹⁸

⁹⁷ - مقطع من الرسالة التي بعثها محمد شرارة إلى جعفر الخليلي، صاحب الجريدة و رئيس تحريرها بتاريخ 1934/8/7، حيث كان يعيش وحده في النجف، لأن عائلته سافرت إلى لبنان، و كان المدير المسؤول لجريدة الهاتف.

⁹⁸ - مقابلة مع فريدة جعفر الخليلي بتاريخ 2008/1/6، عمان - الأردن.

« منعت حكومة ياسين الهاشمي التطبير و ضرب السلاسل في عام 1935، و قد تحدى بعضهم الحكومة و كانوا يدخلون إلى داخل الصحن و يضربون أنفسهم بـ "المكوار" (عصا من الخشب مع رأس من القير، كانت تستعمل كآلة حماية في المعارك المحلية في أحياء المدينة)، و قد قتل مفوض شرطة في مدينة النجف لأنه حاول منع الناس من التطبير، و قد كتب جعفر الخليلي مقالاً في جريدة "الهاتف" : "من إن الحسين لو كان طيباً، فلن يقبل التطبير!" و حاولوا قتله على ذلك المقال عندما كان عائداً إلى داره في المساء. إذ كان شخص في انتظاره، حاول ضربه "بالمكوار" و لكن نجا جعفر الخليلي بالصدفة من الموت.

ثم يستمر:

« و أنا أعترف لك به لأني مبدئياً أوافق على هدم الأحواض و غيرها مما يؤدي إلى الإخلال بالصحة، وثق يا حضرة الأخ بأني أحب أن تقوم هذه الأشياء من أي طريق كان، من طريق العواصف و من طريق الحكومة. و لو فرضنا إن الصواعق انقضت على هذه الحياض و هدمتها لشكرنا على ذلك فضلاً عما قامت به الحكومة.»⁹⁹

* * *

تفانم استياء الطائفة الشيعية من دولة ذات هيمنة سنية، خلال السنوات اللاحقة، و قد استقال و زيران شيعيان في أواخر عام 1933 حين قررت الحكومة التي كان يرأسها رشيد عالي الكيلاني تحويل المبالغ المخصصة لبناء سدّ الغراف إلى الجيش. و مما زاد في الاستياء أكثر هو عرض قانون الدفاع الوطني لمناقشته في البرلمان، و صدر على أثر إقراره في شباط عام 1934، قانون التجنيد الإلزامي و الزيادة السريعة لحجم القوات المسلحة، الذي كان ضدها كل من الأكراد و الشيعة. و بعد حل البرلمان و إعادة الانتخابات، تخلص رئيس الوزراء علي جودت الأيوبي من بعض مشايخ الفرات الأوسط. و لكن أدت هذه التغييرات إلى اندلاع الاضطرابات في المنطقة في بداية كانون الثاني عام 1935، مما أدى إلى اجتماع مع المجتهد الديني آية الله محمد كاشف الغطاء، و تمت مناقشة المظالم و التركيز على شكاوى معينة مرتبطة بحقوق الأرض و الري لقبائل معينة. و قد قبلت الحكومة بها و ذكر بعضها في ميثاق الشعب الذي عرض على الحكومة في آذار عام 1935، و عبّر عن هموم شريحة واسعة من الشعب العراقي، حيث دعت إلى انتخابات حرة و إلى حرية الصحافة و خفض الضرائب، و طالبوا في إقالة علي جودت الأيوبي رئيس الوزراء. و عندما أصبح جميل المدفعي رئيس الوزراء،

« كانت ظاهرة التطبير و جلد النفس منتشرة بين المطبريين، و ذلك باستعمال السلاسل في الضرب على الكتفين و الظهر، و منهم من كان يستعمل "المكوار" ذا راسين مدبيين، لكي تكسر الجمجمة عند الضرب، فيقضي نحبه، و بعضهم كان يصاب بالجنون! كان معظم الأطباء في مدينة النجف في تلك الفترة من اللبنانيين، و كانوا يستغربون من كثرة الاحتفال بموت الحسين، حيث يجلب المطبرون لعلاجهم في مستشفى النجف. و كانوا يقولون لهم: "لِمَ لا تحتفلون بولادة الحسين و طهوره أو زواجه؟ لماذا تحتفلون فقط بموت الحسين كل عام؟"».

⁹⁹ - رسالة بعثها محمد شرارة إلى جعفر الخليلي في عام 1935

واجه تمرداً واسعاً في الديوانية، و اخمد التمرد. و اندلعت الثورة ثانية عندما اعتقلت السلطة بعض أتباع عالم الدين كاشف الغطاء، و أرسل بكر صدقي لقمع التمرد، و أعلن الأحكام العرفية في الديوانية و استعمل القوة الجوية العراقية في القضاء على سلطة القبائل التي أصبحت تشكل تهديداً للسلطة المركزية. لم تكن المطالب الشيوعية تصدر من الأرياف و الطبقة الدينية فقط و إنما شملت المثقفين العلمانيين من الشيعة، و لكن مال رجال الطائفة الدينية على الضغط على الحكومة للحصول على تمثيل يتناسب و طائفتهم، أما العلمانيون منهم فاعتقدوا ان الحصول على مطالبهم لا يتم إلا من خلال تطبيق المبادئ الديمقراطية، و هذا سيسمح لهم بالتخلص من الهيمنة الطائفية للطبقة الدينية.¹⁰⁰

* * *

أما محمد شرارة فكانت آراؤه في تلك الفترة، تغطي صفحات جريدة "الهاتف" بصراحتها و ثورتها على المفاهيم البالية التي لا تمت إلى الحياة الجامدة بصلة مثاراً للجدل و النقاش، و وصل أحياناً إلى المهارات و التهديد من قبل المدرسة الدينية. و عاش محمد شرارة في جو خانق، عندما كانت مدرسة النجف من القوة و المحافظة في أوجها، و على الذين يختلفون من الطلبة مع "القيادة الدينية" أن يختاروا بين الرحيل أو القبول بآرائها، و ذلك واضح في المقال الذي كتبه عن علي الشرقي، و كأنه يتكلم عن معاناته أيضاً:

« و المدارس التي كان لها دور الساهر على التراث تمنح نفسها الحق المطلق في القيادة و لا يحق لأحد أن يتحرك إلا بإذنها. و ربما كانت ثقة النجف بنفسها و اعتدادها بقيمتها أكثر من البقية. و لذلك كان على الذين لا يرون رأيها أن يختاروا بين البقاء فيها إذا قبلوا ما تفهم أو الرحيل عنها إذا رفضوه. و كان الشرقي في طليعة الذين رفضوا الأوامر، و ندوا عن السرب، و قبلوا المواجهة، و استعدوا للرد على النار القادمة من مختلف الجهات.»¹⁰¹

100 - " صفحات من تاريخ العراق المعاصر " ، تشارلز تريب، ترجمة: زينة جابر إدريس، الدار العربية للعلوم، بيروت - لبنان 2006، ص 129- 132

101 - " الشرقي و الإمامة اللاذعة" بقلم محمد شرارة، مجلة العرفان، العدد الثاني، مجلد 66، لبنان،

1978. ص 146-185

و نداءً محمد شرارة بدوره عن السرب، عندما اتخذ طريق المواجهة، و لكن باعت جهوده بالفشل مع "المدرسة الدينية"، فقرر أن يفتش عن عمل آخر، و يبتعد عن الجو الفكري المترمته المهيمن في مدينة النجف.

و يضيف حسين مروة: « لم يستمر محمد شرارة في مسيرته كشيخ معمم، فقد خرج من الوسط الدراسي الذي ضمنه، إنما هنالك ملاحظة مهمة و هي ان أحداً لم يقل انه خرج فاشلاً في تحصيل العلم، أو هارباً من الفشل في التحصيل، بل العكس هو الذي كان يتردد في هذا الوسط ... أي ان الأسف لخروجه كان هو السائد، لأن عين "الجماعة" كانت تعرفه جيداً، بما هو صاحب صوت و رأي و موقف، في كل لقاء تطرح فيه مسائل هذا العلم أو ذلك، من علوم المنهج التقليدي ... بل الأمر يتجاوز ذلك إلى التميز الواضح لصوته و رأيه و موقفه حين يحتدم النقاش ... انه التميز الذي اكتسبه محمد من سعة الأفق الثقافي الذي كان يشق طريقه إليه في مدى عهده الطويل بالوسط الدراسي النجفي، دون أن يخضع لذلك القيد التقليدي المترمته الذي لم يكن لطالب العلم الديني أن يتطلع بفكره و لا يبصره إلى كتاب أو صحيفة أو معرفة أو ثقافة خارج الأفق الدراسي الديني نفسه، و هو الأفق المرسومة حدوده بضيق شديد، و بنظر إلى العلم و الثقافة شحيح الرؤية، إلى درجة انعدام الرؤية.»¹⁰²

تحرر محمد شرارة من القيود التي كانت تقيدته أثناء دراسته الدينية، فلم تقتصر هذه الدائرة، « على اطلاعه على كتب الأدب العربي القديم و المعاصر، و لا على المجلات العربية الصادرة يومئذٍ في مصر و لبنان و سوريا و العراق ... بل أقدم بجرأة و جسارة على فتح هذه الدائرة من طرفين: لكي يضيف إليها - أولاً - قراءات جديدة في كتب العلوم الإنسانية كافة، لمختلف الباحثين العرب و الأجانب، لمختلف التيارات الفكرية و الأيديولوجية. ... و لكي يضيف إليها - ثانياً - معرفة إحدى اللغات الأجنبية الغربية، و كانت الانكليزية هي التي تتوفر وسائل البدء بدراستها في النجف ذاتها آنئذٍ.»¹⁰³

¹⁰² - "محمد شرارة، كاتباً و إنساناً"، د.حسين مروة، وجوه ثقافية من الجنوب، دار ابن خلدون 1981،

و يدل على معرفته بلغة أخرى في تلك الفترة، من مقال كتبه بعد أن ترك النجف بعامين بعنوان "ما وراء الظواهر"، يتحدث فيه عن تعلم لغة أجنبية، حيث نتعرف من خلاله على تأصل الرجعية المهيمنة على المدرسة الدينية، عندما عُرف عنه أنه يدرس اللغة الانكليزية بجانب دروسه الأخرى:

« لقد كنا حفنة من الطلاب الذين يشعرون بما يتطلبه العصر الحديث من معرفة، و كان يعز علينا أن تخلو مدرستنا من بعض فروع المعرفة. لذلك ذهبنا نطلب شيئاً منها خارج المدرسة على أساتذة خصوصيين و كان من جملة الدروس التي طلبناها خارج المدرسة اللغة الانكليزية و قد عرف قسم من الناس بهذه الدروس و بينهم العدو و الحسود و الصديق ... ذهب للنادي العلمية يذيع ان فلانا و فلانا يدرسون اللغة الانكليزية، و لا شك أن الدراسة في هذه الناحية إن لم تكن محرمة، فستعوقهم عن التفكير في دروس التشريع الإسلامي من أصول و فقه و ما يتبعها.»¹⁰⁴

لذا كان حذراً جداً، فبعد الانتهاء من الدرس كان يلف قاموس الأكسفورد بقماش أو جريدة، لكي يتجنب الطلبة أو رجال الدين ان صادف و التقى بأحدهم، فلا يشهرون به أو يعتبرونه كافراً.¹⁰⁵

كما مرّ حسين مروة بصدمة مشابهة لتلك التي مرّ بها محمد شرارة، فيقول في حديث مع عباس بيضون:

« حين دخلت إلى مزاد الكتب الأسبوعي (سوق تباع فيها الكتب بالمزاد). و لا ادري ما الذي دعاني إلى شراء ديوان شعر للسيد إبراهيم الطبطبائي. كان أول ديوان شعر أقرأه و أتعرف فيه على الشعر. لم يكن الكتاب بذاته ذا خطر. لكن اقتنائي له و وجوده عندي ألقى عليّ "شبهة" قراءة الشعر. فقد زارني بعض رفقتي من الطلبة و رأوا الكتاب و ارتفعت أصواتهم باللوم و الاعتراض و النهي و الإيعاز بالكف عن قراءة الشعر لئلا يلهي عن الدين و الدرس ... كان الاحتجاج بالدرس عبارة دارجة على الألسنة تستند إلى قول مغيب عن ظهر قلب مفاده أنه ينبغي أن تعطي العلم كلكّ لكي يعطيك بعضه فكيف إذا أعطيته بعضك.»¹⁰⁶

104 - "ما وراء الظواهر" محمد شرارة، مجلة الحضارة - العراق، 1938/5/1

105 - مقابلة مع مريم شرارة بتاريخ 2008/7/16، لندن - انكلترا

106 - "حسين مروة - ولدت شيخاً و أموت طفلاً"، سيرة ذاتية في حديث أجراه معه عباس بيضون 1985، نشر في دار الفارابي بيروت 1990، ص 32 - 33

و كتب محمد شرارة في تلك الفترة مقالاً بعنوان "الشعر و دلالاته على نفسية الشعراء و معتقداتهم..أصبح هذا؟" يثبت لنا في هذا المقال، إيمانه بالاستنتاج العلمي و الرجوع إليه، إن كان هنالك شك في التأكد من موضوع غامض لم يكشف التاريخ عنه بكل خفاياه." و يمكن أن يكون بمثابة الضوء الهادي إلى ما خفي علينا من عقيدة الشخص أو نفسيته". و يدلنا هذا المقال على شغفه في التتبع و الاطلاع على آخر نظريات علم النفس. و يستخلص من المقال ان الوضع الاجتماعي هو المسؤول عن أمثال الشاعر "دعبل" الذي جعله يهجو، و ليس لأنه رجل سيء، و بدأ المقال:

« يحاول علماء النفس أن يكتشفوا أسرار القلوب و خلجات الضمائر عن طريق دراسة الآثار الفنية و قد أنكر عليه البعض هذه المحاولة و عدها من التطفل و الفضول... و لا شك إن الاستنتاج العلمي إنما يصح الركون إليه عند الحاجة. و الحاجة تمس فيما أغفل التاريخ تلك النقطة التي اقرها الاستنتاج أو تضاربت الروايات و اختلفت الأخبار فيها. أما في الوقت الذي يلي التاريخ دعوة الداعي و يسمع صوت المنادي و يكون قوله الفصل، فلسنا بحاجة لأن نستند إلى الاستنتاج، و الاستناد إلى الاستنتاج في هذه المرحلة لا يؤبه له كثيراً إذا ناوأه التاريخ و وقف

و للتأكيد على هذا الجمود الذي يهيمن على عقلية المؤسسة الدينية في النجف، كتب السيد هاني فحص الذي التحق بالحوزة بعد أربعة عقود على التحاق محمد شرارة ، في كتابه بعنوان: "ماضٍ لا يمضي":
« فهنا اللبنانيين طريقة حياتهم ... و إصرارهم على الأناقة و المبالغة في نظافة منازلهم. و لهم أن يلعبوا كرة الطاولة و الطائرة في حريم مدرستهم... و يعترض من يعترض فيرد المشرف على المدرسة بأنه لا داعي لتكبير هؤلاء الشباب حتى وراء الجدران.. حتى كان لهم أن رقصوا الدبكة اللبنانية في المدرسة، ما عرضهم للمضايقة في أوساط الطلبة و العلماء و الأسواق، و هددوا بقطع روايتهم الضئيلة إن عادوا.. و قد يهون الأمر لولا ان القلوب ممثلة قبيحاً منهم، بسبب لبسهم لساعات اليد و انتعالهم أحذية حديثة و هجرهم (المدرّاس) مبكراً، و ارتداء البنطلون تحت جبته، أو قميصاً ملوناً أو ذا ياقة حديثة. و تمادى البعض فاقتنى الراديو و آلة التسجيل... و ينتهي واحد أو أكثر من العاملين إلى واحد من حالين، حال يحبه فيه كثيرون من أهل العلم و يحرصون عليه أو يشفقون و ينصحونه بالإقلال من المكاشفة بمكنوناته حفظاً لموقعه و سمعته، و حال يتهمه فيها آخرون بالانحراف و يدعون إلى ترتيب المقضى لدى أهل النفوذ، و أحياناً يسعون في قطع راتبه الضئيل من المرجع، و يدعون إلى تجنبه، و قد تبرع البعض منهم بمراسلة أهله لإبلاغهم أن ولدهم ليس بصحة عقلية حسنة.. و يتسع صدر المرجع الذي تصل الشكوى إليه و يحتاط للأمر، و لكن وجوها تتجه في وجه صاحبنا الذي يحرم من كثير من المنافع المادية و المعنوية.»

"ماضٍ لا يمضي" السيد هاني فحص، دار المدى للثقافة و النشر - دمشق 2008، ص- 90

منه موقف المحارب ... أما الوقت الذي يتذبذب فيه التاريخ أو يتعامى عن الحقيقة أو يغفلها بالكلية فلنا أن نتركه و نسير على ضوء الاستنتاج العلمي.»
و من هذه البداية ينتقل إلى بحث شعراء أمثال "دعبل":

« إن مجرد الهجاء من شخص لشخص لا يدل على إن الهاجي ذو طبيعة نافرة و خلق شاذ و علينا في هذه النقطة أن نستعرض شتى الصور التي أوحى للشاعر ما أوحى حتى يصح الاستنتاج و نخرج منه بتعليل معقول. ... و لو رجعنا إلى علم النفس لحل المشكلة و دلنا عليها و قربها بتقريب معقول. و هذا العلم يقول لنا إن العقيدة الكامنة في نفس الإنسان لو مسها أحد بسوء لهزت من يعتقدونها هزة تخرجه من الهدوء إلى الثورة، و ربما أدت إلى الانتقام أحيانا.»¹⁰⁷

و كتب مقالاً آخر بعنوان "في الشعر"، أجاب فيه عن سؤال أحد القراء إلى جريدة "الراعي" التي كانت تصدر في النجف حول: "هل الشعر صفة مستهجنة أم لا؟ و كيف تفسر الآية القرآنية: الشعراء يتبعهم الغاؤون، أم تر أنهم في كل واد يهيمون و أنهم يقولون ما لا يفعلون" و اقتطف بداية المقال، و تعريفه للشعر:

« الشعر بذاته جزء من اللغة التي تعبر عن الخواطر النفسية و تصور للقارئ صورة عن الواقع بحيث يكاد يحسه و يلمسه، و هو بهذا الاعتبار كالنثر لا فرق بينهما. فإذا صح أن يتوجه السؤال المذكور إلى النثر فيقال هل النثر صفة مستهجنة؟ صح أن يتوجه إلى الشعر ... و لكن النثر سلم من الوقوع في هذا المأزق لأنه لم يتعرض لبعض النواحي التي تعرض لها الشعر من هجاء و تشبيب و غزل فاسق و مدح باطل و ما أشبه ذلك. لذلك حاد عن الضربة و بقي الشعر وحده يتلقى الضربات العنيفة، و أول ضربة نزلت عليه هي هذه التي وجهها إليه القرآن الكريم، و بعض الأحاديث النبوية الشريفة. و كانت الضربات قوية جدا تكاد تقضي عليه و تخمد أنفاسه لو لم يفهم العلماء و الأدباء ما ترمي إليه الآيات الكريمة و ما تحوم حوله للشعر هذه النظرة لم يكن مصب نظرها للشعر بما انه شعر و بما أنه جزء من اللغة التي يعبر بها الإنسان عن خواطره و أفكاره و لو كانت الآيات و الأحاديث تنظر للشعر هذه النظرة، بما انه شعر و بما أنه جزء من

107 - "الشعر و دلالاته على نفسية الشعراء و معتقداتهم، أصحح هذا؟" محمد شرارة، جريدة الراعي -

اللغة لأعرض عنه النبي صلى الله عليه وآله، و أعرض عنه الأئمة و العلماء الروحيون و أعرضوا بالآخرة عن كل ما يقوله. بينما نرى المسألة تكاد تكون معكوسة إذا ذهبنا نستشهد التاريخ و نستخبر الحوادث.»

و ينتقل إلى الأمثلة عن شعراء النبي، من أمثال حسان بن ثابت و عبد الله بن رواحة و كعب بن زهير، و غيرهم. "و إن الشعراء يتبعهم الغاؤون" إنها قضية خاصة و رد خاص، تعني قسماً خاصاً أيضاً من الشعراء و هم عبد الله بن الزبيري و هبيرة بن أبي وهب المخزومي و منافع ابن عب مناف و أبو عزة الحمحي من شعراء قريش و أمية بن أبي الصلت من ثقيف. هؤلاء الذين كانوا يقولون (نحن نقول مثل محمد و كانوا يهجونه)»¹⁰⁸.

* * *

سافر في صيف عام 1935 إلى لبنان، بعد أن بعث عليه والده الشيخ علي شرارة ليتقلد منصباً دينياً. و كان والده قد زار قرية "الطيرة" مرات عديدة، و وجد أهلها أناساً بسطاء، بعيدين عن خلق المشاكل، و ليس هنالك زعيم يترأس القرية، و وجد أن من المناسب لابنه "محمد" أن يصبح فيها "عالم دين" بعد حصوله على شهادة الاجتهاد، و بذلك يكون قد آمن مستقبل ابنه. و لكن عندما شاهد محمد شرارة الفقر و العوز الذي يعيش فيه أهالي القرية، رفض أن يشارك القرية في إنتاجهم الزراعي، و اقتطاع جزء من إيرادهم و تقديمه له بدل صرفه على أطفالهم، و رفض أن يكون عالة عليهم، فهذا يتعارض مع المفاهيم التي يؤمن بها.¹⁰⁹

108 - "في الشعر" محمد شرارة، جريدة الراعي - النجف، 1935/2/1.

109 - مقابلة مع أحمد شرارة ابن عم محمد شرارة، بتاريخ 2008/3/4، بيروت - لبنان

« كان أهالي "الطيرة" أناساً بسطاء و فقراء، لأنهم لا يملكون أراضي زراعية خصبة و إنما كانت أراضي القرية صخرية و معظمها أحرش. فعندما ذهب محمد شرارة مع والده و قضى يومين في القرية و أطلع على الفقر و العوز الذي كان يعاني منه أهالي القرية، بعد أن اجتمع بالناس و تحدث إليهم و سألهم عن أوضاعهم و شاهد معاناتهم و صعوبة معيشتهم، أبلغ والده بعد عودتهما إلى بنت جبيل، أنه يرفض في أن يكون "عالم دين" في هذه القرية.

« لقد رفض محمد شرارة مشاركة أهالي القرية في إنتاجهم الزراعي. لأن المتعارف عليه عند الطائفة الشيعية، أن يقدم الخمس إلى العالم الديني عادة. و قال لوالده: لقد شعرت بالرغم من بساطة الضيافة التي قدموها لنا، في إقامتنا معهم يومين، كانت على حساب عائلاتهم. فقد اقتطعوا من أفواه أولادهم. و إن الطعام الذي قدم لنا كان أولى أن يطعموا به أطفالهم. لقد جلبتني إلى بلد فقير، و أنا أرفض أن يعطوني جهدهم، و لا أستطيع أن أعيش مع عائلتي من جهد غيري. قال له والده: و لكنك بالمقابل تسدي لهم المشورة و تقدم لهم النصيحة. أجابه: إنني أرفض ذلك، و لا يسمح لي ضميري في أن اقتطع لقمة العيش

قرر عندئذ بعد زيارته قرية "الطيرة" العودة إلى العراق. و زاد موقفه صلابة بعد رفض العرض الذي قدمه له و والده،¹¹⁰ و غضب و الده من هذا الموقف، و لكن كانت تجول في ذهنه أفكار جديدة، أخذت حيزاً كبيراً من تفكيره، بل هيمنت عليه أثناء عودته إلى العراق. و هو اتخاذ القرار الذي أدى إلى تغيير مسيرة حياته، و الإقدام على خطوة جديدة، تؤهله على الاعتماد على نفسه في كسب رزقه، بدل الاعتماد على إنتاج الآخرين. و كان من حسن حظه ان وزارة المعارف كانت بحاجة إلى مدرسين لتدريس اللغة العربية و الأدب العربي في المدارس الثانوية.¹¹¹ و وقف في ذلك اليوم الحاسم أمام المرآة فنزع العمامة و الجبة، و رفع موسى الحلاقة و بدأ بحلق لحيته التي غطت ذقنه منذ أن ترك لبنان عام 1920، و لبس القميص و البنطلون و السترة بدل الجبة و العباءة، و اعتمر السدارة¹¹² بدل العمامة، و تخلى

من أفواه المعوزين. فاستاء والده علي شرارة من هذا الموقف. و أدى هذا الموقف إلى اختلاف كبير بينهما. كان هذا الموقف من قبله موقف جديد، و طراز جديد من الناس، حيث يرفض أن يعيش من جهد الآخرين. لقد كانت البداية و الخميرة إلى الثورة».

¹¹⁰ - و أشار محمد جواد مغنية إلى مكانة رجل الدين في جبل عامل في تلك الفترة: « أما مكانة عالم الدين فانحطت إلى أسفل الدرجات: فهذا " يموت جوعاً و لا يشعر به إنسان، و ذلك تتهم السفهاء على كرامته فلا يجد ناصرأ و لا معيناً، و آخر يتحزب كالعوام للبك و النائب ليأكل الرغيف"... »
"دولة حزب الله : لبنان مجتمعاً إسلامياً" وضّاح شرارة، دار النهار، الطبعة الثانية، بيروت- لبنان 1997، ص- 26

¹¹¹ - مكاملة تلفونية مع الشاعر كاظم السماوي بتاريخ 2008/5/8، ستوكهولم - السويد.
« كان وزير المعارف آنذاك محمد رضا الشبيبي، الذي فضل تعيين خريجي النجف في تدريس اللغة و الأدب العربي، على الأساتذة المصريين الذين كانوا يشغلون المناصب، إذ كانت رواتبهم أعلى بكثير من الرواتب التي يتقاضاها العراقيون. فقدم كل من محمد شرارة و حسين مروة و صدر الدين شرف الدين، و قبلوا جميعهم في سلك التعليم.»

¹¹² - "السدارة" و هي من السدار: العصابة أو وقاية الشعر. عندما توج فيصل الأول ملكاً على العراق، أراد أن يوحد لباس الرأس في العراق، و يعادهم عن لبس الطربوش التركي و "الكوفية/ العقال" و القينة، التي كان سائدا ارتداؤها في العراق. فاختر لباساً للرأس مشابهاً لما كان يلبس في الهند. فكلفت إحدى الشركات الإيطالية في تصميمها و صنعها. صنعت من قماش الصوف الجيد، باللون الأسود أو البني. و اصطلح عليها في العراق باسم "السدارة".

و حينما تولى ياسين الهاشمي رئاسة الوزارة، كلّف الخياطين العراقيين بإنتاج شيء مشابه لها، فأطلق عليها "السدارة الوطنية"، و هي أقل ارتفاعاً من السدارة التي صنعت في إيطاليا. و كان الوحيد من بين الوزراء الذين لبسوا "السدارة الوطنية". و نظم عبود الكرخي قصيدة بعنوان: "ياحلو يابو السدارة /متممك" سؤيله جارة" و هي من نظم عبود الكرخي و غناء محمد القبنجي،(رشيد الخيون، رفعة الجادرجي، عبد الحميد الرشودي).

عن لقب الشيخ و شهادة الاجتهاد التي حصل عليها بعد دراسة دامت ستة عشر عاماً، و أصبح مدرس الأدب العربي في ثانوية الناصرية؟ كانت نقلة مهمة في تاريخ حياته و حياة عائلته. و وجد نفسه في منعطف الطريق، فالإقدام على مثل هذه الخطوة يحتاج إلى جرأة و تخطيط، و ربما كانت تساوره هذه الفكرة منذ أمد طويل، بعد أن وجد أنه لا يمكن أن يتعايش مع المرجعية الدينية. و قليل هم أولئك الذين يقدمون على مثل هذه الخطوة التي تتطلب جرأة و شجاعة، في مجابهة القيادة الدينية المحاطة بهالة من التقديس، من غير أن يكون هناك سابقة للاستدلال بها. فكانت خطوة جريئة تتطلب تفكيراً جديداً في الانتقال إلى موقع جديد في الفكر نحو المجتمع و المعرفة، و هو الفكر العلماني. فلم يعد مقيداً بالنصوص الدينية التي تملئها عليه المرجعية كونه شيخاً، و أصبح حراً في التعبير عن موقفه الذي كثيراً ما كان يتناقض مع الموقف الديني. إذ انتقل من دعم النص بنص آخر، و هو النص الديني كما جاء في الآيات القرآنية و الحديث بدعمه بنص التبرير، إلى حالة جديدة و هي تعريض النص مهما كان، إلى النقد و التفتيد و المساءلة و استبداله بمفاهيم جديدة. و شاركه في هذه الخطوة عدد قليل من رفاق الدرب الذين يؤمنون بنفس النهج الفكري.¹¹³

و كتب مقال بعد أن خلع العمامة و خرج من المدرسة الدينية، بعد الهجوم الذي شن عليه من قبل المحافظين في المدرسة، بعنوان "القلم الوديع":

¹¹³ - مقابلة مع أحمد شرارة بتاريخ 2008/3/4، بيروت- لبنان

« لقد خلع العمامة كل من محمد شرارة و حسين مروة عام 1936، و أصبحا مدرسين في المدارس الثانوية. أما صدر الدين شرف الدين، فقد التحق في سلك التعليم في عام 1936، بعد أن خلع العمامة، ثم استقال و أسس جريدة "الساعة" في بغداد 1944. و خلع هاشم محسن الأمين العمامة و عاد إلى لبنان، و أصبح عضواً في الحزب الشيوعي اللبناني، و اختلف هو و رثيف خوري مع الحزب، و كانا مؤيدين إلى "تينو" في موقفه من الاتحاد السوفيتي، و طردا من الحزب الشيوعي اللبناني. و لم يخلع العمامة الشيخ محمد حسين مغنية، الذي أصبح أعلى قاضٍ في البلاد، و هو رئيس المحكمة العليا، لكنه لقب بالشيخ الأحمر لميوله اليسارية.»

- و يلاحظ محمد جواد مغنية أن « ثلثة من خيرة الشباب العامل في قضا في طلب العلم و الدين سنوات طوالاً، و بعد أن اجتمعت لهم الشروط تحولوا عنه مغتربين حين وجدوا فرصة للتحرك و الانطلاق». و يرى العالم في هذه الظاهرة " آيات بينات على عدم الثقة بمصير العلم و رجال الدين.»

"دولة حزب الله : لبنان مجتمعاً إسلامياً" وضّاح شرارة، دار النهار، الطبعة الثانية، بيروت- لبنان 1997،

« أطل على الحياة بروح طاهرة و قلب بريء و نفس حنونة شاعرة، فكان هلالها المضيء و لسانها العذب و صوتها الرقيق و لحنها الجميل، و أطلت الحياة عليه بروح شريرة، و قلب جهنمي، و نفس طاغية عاتية، فهبت في وجهه عاصفة و وقفت في طريقه غباراً يعمي العيون و يسد الآذان و يذر على الفكر رشاشاً من ذراته تتحول على طول الزمن إلى غطاء كثيف كقطع الليل المظلم يحول بينه و بين النور! ... ذهب إلى مدرسة أكبر من هذه المدرسة و عالم أوسع من هذا العالم و أفق أسمى من هذا الأفق، و جو أوسع من جوها، تحت سماء أسمى من سمائها... خرج هذه المرة من المدرسة و قد صمم في نفسه على أن لا يعود إليها!»¹¹⁴

و لم يثر محمد شرارة على المدرسة الدينية هذه الثورة، و "يكسر نافذة إلا لغاية وحدة" لكي "يجعلها أكثر اتساعاً و أكثر وحدة مع الأفق".¹¹⁵ علمه هذا الموقف أن يتحدى السلطة و يقول الحقيقة دائماً، بغض النظر عن قوة السلطة.

¹¹⁴ - من صور الحياة، "القلم الوديع" محمد شرارة، مجلة الهاتف 1936/4/10

¹¹⁵ - "مدارات" أدونيس، جريدة الحياة 2008/4/10

الانتقال إلى التدريس في المدارس الثانوية

لم يكن السفر بالنسبة لمحمد و عائلته خالياً من الطقوس التي أصبحت جزءاً لا يتجزأ من زيارته لبنان. فكان هنالك نوعان من الدموع، دموع اللقاء و دموع الوداع. تذرف دموع الفرح باللقاء، عندما يجتمع شمل الأحبة و الأهل، و حالما تتشرف بين القبل و الشم و الضم، و تتلاشى بضحكات الغبطة التي تخيم على أجواء العائلة.

أما الوداع فكان قاسياً و شمل حتى صغار العائلة. حيث يجتمع الجميع حول المائدة في تناول وجبة الطعام الأخيرة قبل السفر، و كأنه العشاء الأخير! فالمائدة مليئة بأطباق الطعام الشهية المنوعة، إذ كانت والدته تطبخ كل ما تشتهيهِ العائلة من المأكّل لكي لا تبقى حسرة في أنفُس المسافرين. ترفع الأطباق و يجلب الشاي، بين أحاديث الكبار التي يغلب عليها طابع الجدية، فيهيمن الجو الجدي حتى على الصغار.

يُسمع هدير السيارة من بعيد، فيتراكم الأطفال نحو الصوت، يساعدون في سحب الحقائق الثقيلة، و ينهمك السائق في وضع الحقائق فوق سطح السيارة، ينظمها بجانب بعضها بدقة و اعتناء، يربطها بحبل متين محكم. ثم يضع المؤن من الزيتون و الزيت و التين و البرغل في صندوق السيارة، و كأن بلاد الرافدين صحراء قاحلة في مخيلتي زوجته، التي لا يمكن لها أن تترك بلدها لبنان إلا و تجلب معها كل ما يذكرها برائحتة.

يتغير المشهد من الضحك و المرح إلى الحزن. تنهمر قبالات الوداع في كل مرة، و كأنه وداع أبدي، و تنهال الدموع و تمتزج بالخدود، و لا يُسمع إلا الشهقات المكبوتة، و العيون الدامعة.

و هكذا يتكرر المشهد و يعاد في كل رحلة عند العودة إلى العراق، فليس هنالك أصعب من فراق الأحباء، فراق الأم و الأخت و الأخ، فراق أصدقاء الطفولة، حيث كانت العائلة تعيش لحظات الوداع في كل رحلة. فيقف الجميع قرب باب الدار على

شكل نصف دائرة، عندما يبدأ هدير مُحرك السيارة، و ترتفع الأيدي ملوحة بالوداع، تتساقط الدموع بسرعة المطر من عيني زوجته و والدته و شقيقته، و يعيش الجميع لحظات الم الوداع و مرارته. تتبعد السيارة متجهة نحو دمشق، و تعود الدقائق و الساعات تتجسم و تعيد نفسها في مخيلة المسافرين، حتى تصل السيارة دمشق. يترك محمد شرارة عائلته في الفندق، و يذهب لشراء طعام السفرة الطويلة التي تقطعها الباصات، عبر الصحراء الخالية من الشجر و البشر.

و كتب محمد شرارة مقالاً عن الصحراء، التي كان على العائلة أن تقطعها في كل سفرة بين لبنان و العراق، بعنوان "بين الشام و بغداد في الصحراء" و هذا مطلعُه:

« و ما إن أُرِف الوقت، و دنت الساعة حتى تهبأ الركب للرحيل، و تهبأت القافلة للحركة، و نفخ البوق فأخذ كل إنسان مقعده في سيارته حتى تكامل الركب. و ما هي إلا لحظة حتى تحركت القافلة و راحت تجتاز الشوارع و تقطع الدروب، و أخذت دمشق تغيب عنا و تختفي وراء الأشجار كما تختفي وجوه الصبايا المشرقة وراء الشعور المهذلة المبعثرة. و ابتعدنا و ابتعدت حتى غابت وراء الأفق و غبنا في جوف الصحراء، و لكن خيالها الرائع بقي يلوح لنا كما تلوح النجوم في السماء... و توغلت القافلة في هذه الصحراء الواسعة و إذا نحن نقوم و نقعد و نهبط و نصعد.»

و لكي يُبعد عنه رتابة الطريق الممل الشاق، و الحنين إلى لبنان، فكّر في الصحراء و ما أنتجته الجزيرة العربية:

« و قلت لنفسي ... إن الذكريات لا تستيقظ إلا في جو يشبه الجو الذي ولدت فيه، و الأحلام لا تتداعى إلا في الليالي المملوءة بنشوة الروح! و أين نحن من هذا؟ و نحن في الصحراء! نعم نحن في الصحراء ... و لكن أليس في هذه الصحراء ما يلهب الروح، و يحرك القلب؟... أفهانت الصحراء إلى هذا الحد و هي مدرسة "قيس و ليلى" و "جميل و بثينة" و "عروة و عفراء" و غيرهم و غيرهم من ذوي القلوب التي لا تعرف الهدوء حتى بعد الموت! ... ألم توحى لشوقي هذه القطعة الخالدة في قيس:

سجا الليل حتى هاجني الشعر و الهوى و ما البيد إلا الليل و الشعر و الحب
ملأت سماء البيد عشقاً و أرضها و حملت و حدي ذلك العشق يا رب
عفا الله عن ليلى لقد نوت بالذي تحمل من ليلى و من نارها القلب

و أي بقعة من البقاع استطاعت أن توحى لشاعر ما أوحته هذه الأرض؟ و هل الأزاهير اليانعة، و الأشجار الباسقة في لبنان و دمر أعذب من هذه الأناشيد التي أوحتها الصحراء للقلوب الهائمة الحائرة المعذبة! و على هذا اللحن أخذت تتردد هذه النجوى في النفس حتى ألهتني عن متاعب الطريق و خضضة السيارة.¹¹⁶ رغم ان التفكير في الصحراء ألهاه عن مشقة السفر، إلا إن الرحلة كانت شاقة طويلة تمتد عبر الصحراء، بشمسها اللاهبة في النهار، تفتحها برودة الليل فتخفف من قسوة النهار. لكنها كانت في الوقت نفسه تجمع المسافرين، الذين يصبحون عائلة واحدة، يقدمون الطعام و الشراب لبعضهم البعض، و تستمر العلاقة مع بعضهم و تتحول أحياناً إلى صداقة.

كان محمد شرارة ذات مرة عائداً من لبنان بصحبة عائلته، عندما لمح¹¹⁷ هو و السائق من بعيد نقطة سوداء في سراب الصحراء الشاسعة المقفرة، و ما إن ظهرت البقعة حتى اختفت في السراب ثانية، و الباص يلتهم الأرض الجافة، مخلفاً وراءه غمامة من الرمال الثائرة الصاخبة، لكن رغم اختفائها و ظهورها ظل الباص متوجهاً بكل سرعته نحو تلك النقطة السوداء، و كلما اقترب، كلما اتسعت البقعة السوداء، و بدأت تكبر و تنتسح حتى بانث عن سيارة سوداء غارقة في الرمال. كان جالساً في داخلها جعفر أبو التمن و عائلته بانتظار من ينقذهم من حرارة الشمس اللاسعة في وسط الصحراء. و ما كان من محمد شرارة إلا أن نزل من الباص، و أفسح له و لعائلته الأماكن التي كان يجلس فيها أطفاله. توطدت علاقة محمد شرارة بجعفر أبو التمن منذ تلك الحادثة. إذ كان من الشخصيات الوطنية القيادية في العراق، و من جماعة الأهالي، و الوزراء الإصلاحيين، و أصبح يزوره في داره كلما قدم إلى بغداد.¹¹⁸

¹¹⁶ - "بين الشام و بغداد في الصحراء" محمد شرارة، مجلة الحضارة - النجف، 1937/11/15

¹¹⁷ - كان محمد شرارة يحجر دائماً لعائلته المقاعد الأمامية في الباص، و قد ذكر ذلك في بعض رسائله.

(ب.ش)

¹¹⁸ - حضر محمد شرارة مأتم جعفر أبو التمن عند ما توفي في عام 1945، و كتب مقالاً في تأبينه بعنوان: "ذخيرة إنسانية.. تتوارى". و اعتبر وفاته خسارة للعراق، إذ كان من الشخصيات المستقيمة و المخلصة للبلاد.

« هكذا الموت يفجع الأسرة و يفجع العشيرة، و يفجع الأمة ... و لم تكن الفجعة بالزعيم الراحل جعفر أبو التمن فجعة أسرة و إن كانت فجعة الأسرة أقوى من أن تخففها الدموع، أو تطفئها العبرات! و ليست

لم يتغير منيو menu/قائمة الطعام، بالنسبة للعائلة إن كانت في لبنان أو العراق، لذا لا يمكن للعائلة أن تعود إلى العراق من دون أن يرافق العفش "تتكات" الزيت و الزيتون و أكياس البرغل. و هذه مواد رئيسة في المطبخ اللبناني التي لا يمكن لزوجته أن تعيش من غيرها. و لم تضاف على و صفات الطبخ التي تدربت عليها من قبل والدتها إلا بعض المآكل القليلة، التي تعلمت طبخها في مدينة النجف، و لذا كانت المآكل اللبنانية تحتل المقام الأول في طعام العائلة اليومي. و لم تتعرف العائلة على المطبخ العراقي المتشعب بأنواع مآكله حسب مناطق القطر! بل لم يكن موضوع الطعام ذا أهمية عند زوجها، و لم يطلب يوماً أكلة معينة اشتهاها، و إنما كان يأكل ما يوضع أمامه من مآكل على المائدة! فلم يكن من ذواقة الطعام، لكنه كان يفضل المآكل اللبنانية على العراقية! و ظل الحنين لما تطهوه والدته مهيمناً على الشهية و الذائقة، فالطفولة لها أثر كبير على الذائقة و نكهة الطعام الذي يأكله الفرد، تنمو معه، و من الصعب الانتقال إلى نوع جديد من الطعام.

ظلت زوجته متمسكة بالتقاليد اللبنانية في أسلوب إكرام ضيوفها. فقد زارتها ذات يوم زوجة قاضي الناصرية مع مجموعة من نساء الحي بعد عودة العائلة من لبنان. و اعتادت على تقديم الشاي مع الحلوى اللبنانية و اللبنة و الزيتون و المربي، أي "العصرونية اللبنانية"¹¹⁹. أعجبن بالحلوى اللبنانية، و انهال المديح من قبلهن عندما ذقن "المعمول" الذي يذوب في الفم حالما تطبق الشفتان عليه، و البقلاوة المنوعة المحشوة بالفستق و الصنوبر، و لكن تغيرت الحال عندما وضعت زوجة القاضي حبة زيتون أخضر في فمها، فزمت شفتاها و دمعت عيناها، ظلت قابضة على الزيتون بين فكيفها، متلكئة هنيهة، ثم بصقت الزيتون بسرعة، قائلة بنوع من

الفجيعة فجيعة عشيرة أو أمة، و إنما هي فجيعة الإنسانية بأسرها ... لقد تحدثت الصحف العربية عن جعفر أبو التمن، و عن جعفر الثائر، و عن جعفر المجاهد، تحدثت عن جعفر الصامد في وجه الاستعمار صمود الإيمان في وجه الجيروت المسلح، و هي أحاديث حلوة عذبة من حقها أن تداع، و من حق الناس أن يعرفوها، و من حق التاريخ أن يفتح لها صدره. و لكن هنالك شيئاً آخر وراء هذه الفضائل و قد تكون مصدرها كله، لم تتحدث عنها الصحف و لا أذاعت شيئاً منه هو حري بالإذاعة، و جدير بالمعرفة. و ذلك الشيء هو "إنسانية" جعفر الزعيم، و هو شيء ثمين، و قد يكون أثنى الأشياء كلها. »

"ذخيرة إنسانية.. تتوارى" محمد شرارة، مجلة الحضارة - بغداد، كانون الأول 1945
¹¹⁹ - العصرونية: هي وجبة من الأطعمة الخفيفة، التي كانت تقدم مع الشاي عصراً في لبنان في تلك الفترة. و هي أقرب إلى وجبة الشاي/ high tea، في بريطانيا. (ب.ش)

الاستغراب: "عيني هذا شنو شلون تاكلون، مو مرّ مثل العلكم!"¹²⁰ فلم يعتدن على طعام يميل مذاقه إلى المرارة. كما لم يكن الزيتون كطعام معروف في جنوب العراق آنذاك. و ازداد استغراب الحاضرات من الضيوف عندما لفّت زوجته الزيتون أمامهن بالخبز و وزعت على أطفالها "عروسة زيتون"! ذاع خبر الزيتون في الحي، تنقله النسوة كخبر من الأخبار الغربية الشائقة "عيني، بيت اللبناني يأكلون أكل مرّ مثل العلكم!". ظل لقب بيت اللبناني ملاصقاً لعائلة شرارة، يلاحقها طيلة حياتها في العراق، رغم التنقل و تغير الدور و المدن!

* * *

أطل على العراق أول انقلاب عسكري في العام الذي عُين فيه محمد شرارة مدرساً للغة و الأدب العربي في ثانوية الناصرية 1936. حيث عين بكر صدقي نائب رئيس أركان الجيش، بعد أن غادر طه الهاشمي العراق، في زيارة إلى تركيا. فانتهاز فرصة غيابه¹²¹ و قام في الانقلاب، و اشترك الجيش في تغيير الحكومة. كانت هي المبادرة الأولى من نوعها في تاريخ العراق الحديث. و قد اتفق بكر صدقي مع حكمت سليمان الذي أصبح رئيس الوزراء، و عدد من الوزراء الليبراليين الإصلاحيين، في تأليف الوزارة.¹²²

120 - كيف باستطاعتكم أكل طعام مرّ المذاق، بطعم (العلكم)؟ و العلكم: هو نوع من الثمار التي تنمو على الشجرة.

121 - « ولد بكر صدقي في بغداد 1890 - 1937، و تخرج ملازماً ثانياً من استانبول و خدم في الجيش التركي بصفة ضابط ركن الاستخبارات في المقر العام في استانبول. انتسب إلى الجيش السوري بعد الهدنة في 1919، و انضم إلى الجيش العراقي برتبة رئيس في 1921، و اشترك في معظم الحركات التأديبية كضابط ركن أو آمر رتل، و رفع إلى رتبة عقيد فزعيم فلاء في عام 1933. نجح بكر صدقي في القضاء على ثورة الأشوريين عندما كان قائد الجيش في شمال العراق في عام 1933، و حصل على ترقية و على استعراض عسكري احتفالاً بالنصر، و عندما اندلعت الاضطرابات في منطقة الفرات الأوسط عام 1935، أرسل بكر صدقي لقمع الثورة، و أعلن الأحكام العرفية في الديوانية، و استعمل القوة الجوية لضرب المتمردين، و قضى بذلك على الثورة.»

" أعلام السياسة في العراق الحديث"، مير بصري، رياض الريس للكتب و النشر - لندن، 1987، و صفحات من تاريخ العراق المعاصر، تشارلز تريب، ترجمة زينا جابر إدريس، الدار العربية للعلوم، 2006

122 - الوزراء الاصطلاحيون هم: جعفر أبو الثمن، كامل الجادرجي، صالح جبر و يوسف عزّ الدين إبراهيم. (ب. ش)

و لكن أدى الانقلاب إلى مقتل و زير الدفاع جعفر العسكري، عندما حاول بكر صدقي أن يسلمه رسالة من الملك. و قد أستاء عدد كبير من الضباط من مقتل العسكري.

ضمت الوزارة بالإضافة إلى "جماعة الأهالي" عدداً من الوزراء الشيعة. استبشر الناس في البداية بالتخلص من الحكم السابق، و كتبت جريدة "الهاتف" مقالاً في تأييد و مدح الانقلاب، و الحكومة الجديدة، و لم يكن محمد شرارة راضياً عن ذلك، و كان و اضحاً في الرسالة التي بعثها لصاحب الجريدة جعفر الخليلي:

« قرأت ما كتبتة "الهاتف" عن الوزارة الجديدة و قد أفرطت كثيراً في الثناء، و كان على "الهاتف" أن تتريث قليلاً لترى النتائج حتى لا ترمى بما رميت به بقية الصحف من التدجيل و النفاق ... و لا يخفى عليكم إن "الهاتف" كانت تنثي كثيراً - و لو تحت الضغط - على الحكومة السابقة، فكان عليها أن تشير إلى هذا المعنى على الأقل في نفس الكلمة التي كتبتها عن الوزارة الجديدة.»¹²³

و لكن سرعان ما بدأت الخلافات تظهر للعيان بين العسكريين و المدنيين الليبراليين، و لم تمض ستة أشهر على الانقلاب، حتى هاجم بكر صدقي الإصلاحيين علناً، و اتهمهم بانتمائهم إلى الشيوعيين و بأنهم يدعون إلى تقويض ثوابت المجتمع العراقي. فقد دعت "جمعية الإصلاح الشعبي" التي ضمت هيئتها أربعة وزراء، إلى تطبيق أوسع للمبادئ الديمقراطية و تشريع إلى جمعيات أصحاب المهن، و تحديد حد أدنى للأجور و أقصى لساعات العمل.

كما مثل عام 1936 منعطفاً جديداً في تعليم المرأة العراقية، إذ كان تعليم المرأة عند المرحلة الابتدائية، ثم امتد الزمن إلى المرحلة الثانوية ثم الجامعية.

« إذ فتحت كلية الطب و كلية الحقوق أبوابها لقبول الفتيات فيها، حيث قبلت الأولى ثمانين طالبات و قبلت الثانية طالبة واحدة، و منذ ذلك الحين، فتحت أبواب الكليات للفتاة العراقية و أخذت الكليات تتبارى في هذا المضمار. و ارتبط قبول المجتمع العراقي لمسألة تعليم الفتاة بحركة خلع الحجاب، تلك الحركة التي لم تقل ضراوة و عنفاً عن سابقتها، و ذلك لوقوف كثير من القوى المحافظة في هذا الطريق. و قد قاد هذا الأمر إلى "معركة العراقية مع الحجاب" كما أسمته صبيحة الشيخ داود،

¹²³ - رسالة إلى جعفر الخليلي، صاحب جريدة الهاتف، بتاريخ 8/11/1936، التي كان محمد شرارة مديرها المسؤول و محررها أحياناً، أثناء سفر صاحبها جعفر الخليلي إلى سورية و لبنان.

أولى رائدات النهضة النسوية في العراق، و من المساهمات في إرساء قواعدها و أصولها.»¹²⁴

و في عام 1937 استقال الوزراء الإصلاحيون،¹²⁵ بعد أن أرسل بكر صدقي و حكمت سليمان الجيش لقمع الثورة في مهدها من قبل شيوخ القبائل في الفرات الأوسط، و لم ينته العام حتى اغتيل بكر صدقي من قبل بعض الضباط المتآمرين عليه، عندما توقف في الموصل في طريقه إلى تركيا. و استمر الجيش في العصيان و رفض الامتثال إلى أوامر الحكومة. و ظهر دور الضباط السبعة¹²⁶ الذين تأمروا على اغتيال بكر صدقي، و تسببوا في سقوط وزارة حكمت سليمان. « لقد غدا الجيش منذ حكومة حكمت سليمان عنصراً أساسياً في الحياة السياسية، لا يكفي فقط

124- "ملاحح سياسية و حضارية في تاريخ العراق الحديث و المعاصر"، د. طارق نافع الحمداني، الدار العربية للموسوعات، الطبعة الأولى 1989، ص-82، 84
- و كتب سامي شوكت تأييداً للسفور:

« إنكم تريدون أن تبقى المرأة على حالها، منترعين بالدين و العادات، و لكنكم في الوقت الذي تفعلون هذا مع المرأة باسم الدين و العادات، تجيزون لأنفسكم (ما تشتهون) دون أن تخشوا ذلك ديناً أو عرفاً.»
"ثقافة العنف في العراق" سلام عبود، منشورات الجمل - ألمانيا 2002، ص- 87
- لكن نادت مجلة "الصحيفة" التي أصدرها حسين الرّحال في كانون الأول 1924، « بهدم القديم الضار لبناء النافع الجديد»، و اضطلعت بمهمة رئيسية لها: الدعوة لتحرير المرأة... و كانت دعوة مجلة "الصحيفة" لا أن تمزق المرأة حجابها فقط، بل كانت دعوة أوسع: هي تحرير المرأة و مساواتها بالرجل في كل مجال، لتتغل مركزها في المجتمع عاملاً فاعلاً فيه، و أن هذا التحرر هو ركن من أركان تحرر المجتمع... و (الحجاب) لا يستند إلى أساس من الدين، و لا علاقة بينه و بين العفة. و هو في كل الأحوال يشل المرأة و يضرُ بالمجتمع.»

"العراق: شهادة سياسية 1908-1930"، حسين جميل، دار اللام، لندن 1987، ص- 33
125- « لما استقال الأستاذ كامل الجادرجي، و الزعيم الوطني جعفر أبو التمن و غيرها من وزارة الانقلاب العسكري، حاول البعض أن يشوه الاستقالة، و يلقى عليها ألواناً غريبة عن روحها و جوهرها. و كان الخوف يومئذ من الروح العسكرية كبيراً. فما كان من الأستاذ باقر الشبيبي إلا أن وقف في وجه العاصفة، رداً على مشوهي الاستقالة بما مضمونه: "إن استقالة الوزراء قائمة على أمور لها خطورتها في الحياة و في الدولة، و لا يصح أبداً تشويه الأساس الذي قامت عليه". و فتح بهذه الوقفة الجريئة أبواب الشجاعة التي كانت مغلقة في الآخرين.»

"باقر الشبيبي، خسارة وطنية .. كبرى"، محمد شرارة، جريدة "الحضارة"، 1960/6/25
126- "الضباط السبعة" هم: حسين فوزي، أمين العمري، صلاح الدين الصبّاغ، محمود سلمان، كامل شبيب، عزيز يا ملكي، و فهمي سعيد.

في قمع التمردات و المحافظة على السلطة و إدارتها في الخفاء، بل أخذ يظهر علناً بمظهر المراهن و المرجح لعملية صعود و نزول الكتل السياسية.¹²⁷

* * *

و لم يكن الوضع السياسي في لبنان أفضل مما كان عليه الوضع في العراق، فقد القي القبض في عام 1936، من قبل الفرنسيين على والده الشيخ علي شرارة، لأن داره كانت ملتقى الشعراء و الكتاب، و من مختلف الناس الذين كان بعضهم من تلامذته. حيث انقلبت الاجتماعات الأدبية إلى اجتماعات سياسية مناهضة للاستعمار الفرنسي، و نفي على أثر ذلك الشيخ "علي شرارة" إلى قرية "الرفيد" و طرد من الوظيفة. أما ابنه عبد اللطيف شرارة¹²⁸ الذي كان شاباً صغيراً، و انخرط مع والده في النضال السياسي، فقد نفي إلى قرية بعيدة في عكار "الفنيدق".

كانت المكتبات هي الضحية الأولى، عندما هاجم الفرنسيون في عام 1936 البيوت، و يظهر ان الخوف من "الكلمة" يقض مضاجع المستعمرين و الديكتاتوريات، "إنها حادة كالكسكين" - كما يقول الشاعر البريطاني "بن أوكري" - فأول ما كان يقوم به الفرنسيون عندما يأتون إلى تلك البيوت هو حرق المكتبات، و ان لم تحرق فتنبش و تمزق الأوراق أو تنتثر، و بذلك خسر عبد اللطيف بعض ما كتبه و أهم ما كتبه في تلك الفترة، كتاب بعنوان "في قرى الجن".

كان عبد اللطيف شرارة ينصب في الصيف "عرزالاً"¹²⁹ في الكرم/ المزرعة التابعة لوالده، حيث كان يلتقي في "عرزاله" يومياً بمجموعة من الشباب، يتلون آخر ما نظموه من الشعر و ما كتبه، و كان عبد اللطيف على صغر سنه نابغة و مرجعاً في الأدب و الشعر، فهاجم الفرنسيون "العرزال"، و فتشوه و دمروا كتبه، و رموا بعضها في الطرقات، و قد تعرضت مكتبته مرتين للتدمير و الحرق.¹³⁰

¹²⁷ - "ثقافة العنف في العراق" سلام عبود، منشورات الجمل - ألمانيا 2002، ص- 146

¹²⁸ - ولد عبد اللطيف شرارة عام 1919 في ضيعة بنت جبيل. تخرج في دار المعلمين، و درّس في عدد من مدارس لبنان الرسمية. بدأ نشاطه الأدبي كشاعر، ثم ترك الشعر، و اخذ يعتني بالدراسات و المباحث الاجتماعية. صدر له أكثر من خمسين كتاباً بين تأليف و ترجمة. توفي في عام 1992. (ب.ش)

¹²⁹ - العرزال: يصنع على شكل خيمة من أغصان الأشجار، تنصب في مزارع القرى في الصيف في لبنان. (ب.ش)

¹³⁰ - مقابلة مع سكنة شرارة، شقيقة عبد اللطيف شرارة، في 2007/12/14

حاول محمد شرارة أن يخلص شقيقه عبد اللطيف، بعد أن أطلق سراحه من قبل الحكومة اللبنانية، وذلك بجلبه إلى العراق، و إكمال تعليمه العالي في بغداد. و لكن لم تتجح محاولاته، و كان قلقاً على مستقبله بعد أن باعت تلك المحاولات بالفشل. و قد توقف عبد اللطيف عن الكتابة باسمه، لفترة قصيرة، و كان يوقع قصائده و مقالاته باسم "رامز".¹³¹

كما القي القبض على بعض الزعماء اللبنانيين و من بينهم أنطون سعادة¹³² رئيس الحزب القومي السوري، و أحمد عارف الزين¹³³ صاحب مجلة العرفان، حيث وقف في جموع المتظاهرين مندداً بالاستعمار و عملائه في تموز 1936، و حكم عليه عشرة أشهر. و كتب محمد شرارة مقالاً بعنوان "سجون الأحرار"، و ذلك عندما

¹³¹ -رسالة بعثها محمد شرارة إلى جعفر الخليلي بحث فيها موضوع شقيقه عبد اللطيف شرارة بتاريخ 1937/11/23:

« قبل أيام جاني كتاب من الأخ عبد اللطيف يشكو لي به من حياته في لبنان و يقول في جملة ما يقول إن لبنان مقبرة النوايح، و يرجو أن يتخلص منه. ... و هو يحب أن يأتي إلى العراق لعله يتهيأ له الدخول في دار المعلمين العليا ... و أحببت أن أعرض القضية عليك لأرى رأيك فيها لأنني لا أستطيع أن أبت بشيء قبل أن أعرف رأيك في هذه الناحية. ... و عبد اللطيف يحمل شهادة من دار المعلمين في بيروت و لكن معلوماته أرقى من شهادته بكثير فهو يتقن اللغة الفرنسية اتقاناً جيداً و يستطيع أن يكتب بها، كما يكتب بالعربية و يتقن الانكليزية أيضاً و معلوماته في بقية الفروع لا يستهان بها. و أعتقد انه إذا جاء إلى العراق يخلق في جو عال، أما إذا بقي في لبنان فانه يموت و أنا حريص على إنقاذه.»

¹³² - أنطون سعادة: ولد عام 1904 - 1949، في قضاء الشوير، سافر مع والده الدكتور خليل سعادة عام 1919، إلى الولايات المتحدة، ثم البرازيل، بعدما انتشرت المجاعة في سوريا و ذلك بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى. أصدر مع والده جريدة و مجلة في البرازيل، عاد إلى لبنان 1930، أسس الحزب السوري القومي الاجتماعي. سجن في عام 1935، أعيد اعتقاله 1936 و 1937. كتب كتاب "شرح المبادئ"، و كانت الدعوة إلى وحدة الأراضي السورية، و ضد انفصال لبنان عن سورية. أسس "جريدة النهضة"، ثم أسس جريدة "الجيل الجديد". اعدم عام 1949.

¹³³ - الشيخ عارف أحمد الزين: ولد عام 1883 - 1960، أسس مجلة العرفان في شباط 1909، "أخذت على عاتقها البحث في العلم و الأدب و الأخلاق و الاجتماع". رفض الخضوع للضغوط العثمانية حيث القي عليه القبض في عام 1912 و عام 1915 و سيق إلى ديوان الحرب العرفي في عالية بأمر القائد جمال باشا و سجن فترة طويلة. و قد ذكر الشيخ عارف هذه الأحداث فقال:

« هذه حالنا على عهد العثمانيين حيث سجننا سنة 1912 شهراً و نصف شهر، ثم أخذنا مع من أخذ سنة 1915 بعد أن روع أهل بيتنا في المرة الأولى و الثانية إذ أحاط الدرك بدارنا و أخذنا محظوظين اخذ عزيز مقتدر، و عطلت جريدتنا و مجلتنا، و هكذا كان حالنا على عهد الفرنسيين فقد منينا بالتعتيل و حرق العرفان و شدة مراقبتها و التشريد و السجن إلى ما لنهاية.»

"الشيخ عارف أحمد الزين مؤسساً"، حسان الحلاق، جريدة النهار 2008/6/10

زار لبنان في العام نفسه. كان محمد شرارة مع الوحدة السورية، لأنه يؤمن بالقومية العربية، كباقي العربيين في لبنان، و لكنه بدأ المقال كعادته بالتغني بطبيعة لبنان و جماله، بجباله و منحدراته و سهوله. كان حبه إلى لبنان طاغيا عليه، لدرجة جعله يفكر في "لو كان الخلود ميسوراً لما أحببته إلا في لبنان أما غيره فلا خير فيه"، ثم يربط جمال الطبيعة بواقع لبنان المرّ:

« كان المترقب من لبنان أن يتلقى دروس الوطنية من جيرانه - فيهب كما هبوا - للدفاع عن كيانه و إذا به يتلقى دروس الاضطهاد من أعدائه، فينكل بأبنائه البررة و يضطهد شبابه اللواتب و يسوق الزعماء إلى السجون!.. كان المترقب من لبنان أن يرفع أكاليل الغار لأنطوان سعادة و ينثر باقات الزهر على الشيخ أحمد عارف الزين، و إذا السلاسل تشد يدي انطون بدلا من الأكاليل و إذا السجون تضم الزين بدلا عن الأزهار!!... و يا ليتك تعرف (جناية) انطون سعادة و (جريمة) أحمد عارف الزين... إنها الشعور الوطني! إنها الوحدة مع سورية! على هذا الشعور يساق الأحرار إلى السجون في لبنان، و على هذا الشعور تشد الأعناق بالسلاسل و الأغلال! »¹³⁴

لقد آمن محمد شرارة بالمثل العليا و الأهداف السامية، و كان التخلص من رقبة الاستعمار إحدى تلك المثل، إن كان الاستعمار فرنسياً في لبنان أو بريطانياً في العراق. و خاض المعارك في صفحات الجرائد بالمقالات التي كتبها. و دافع عن حرية الفكر، لأنه آمن بالإنسان كإنسان، و عبر عن ذلك في المقال الذي كتبه بعنوان "حرية النفس و الثقة بها":

« إن الرجل الحر لا يعرف الخضوع لشهوة من الشهوات إذا وقفت في طريق المصالح العامة، و يدوس على كل شيء من مصالحه الذاتية إذا كان في ذلك إنشاء لبناء جديد يقود الإنسانية إلى الخير و يرفعها إلى المستوى الذي تشعر فيه بالوجود الكريم ... هذا هو معنى الحرية الذي يريده الفيلسوف بقوله أنا حر، أنا سيد نفسي.»¹³⁵

إن سمو هذه الفكرة التي آمن بها منذ أن أدرك الوجود " أنا حر أنا سيد نفسي"، و التي كافح من أجلها في جميع مجالات الحياة، و راح يعيش في "رفرها العالي"، بل

¹³⁴ - من ذكريات لبنان "سجون الأحرار"، محمد شرارة، جريدة الهاتف، 1936/9/4

¹³⁵ - "حرية النفس و الثقة بها" محمد شرارة، جريدة الهاتف - النجف، 1936/6/19.

لم تتلاش ثقتَه في يوم من الأيام من الوثوق في هذه الفكرة، ظلت الأساس المتين الذي بنى عليه موقفه. و هذا من غير وجود مجتمع مدني يؤيده و يدعم تفكيره الحر، إذ كان المجتمع العراقي، مجتمعاً أهلياً لا زال مقيداً بتقاليدِه القبلية و الدينية! لكن محمد شرارة كان متفائلاً رغم العقبات التي مرّت عليه، فقد كان شاباً، ما زال في بداية الطريق.

* * *

ترك محمد شرارة عائلته في لبنان، و عاد إلى مدينة الناصرية لأن زوجته كانت حاملاً، و فضل أن تكون ولادتها بين أهلها و أقاربها. و أقام معظم السنة وحده في المدينة، و شعر بالغربة و الوحدة في الناصرية، و "فقد العش" الذي كان يأوي إليه في مدينة النجف بين الأصدقاء الذين كان يجمعهم الانسجام الفكري، و شعر بالحنين لتلك الأيام بالرغم من المعارك الفكرية التي خاضها و تعرض لها في "المدرسة الدينية"، و وجد نفسه في جو بعيد عن الفكر و المعرفة، اللتين يتوق إليهما، و اللتين كانتا الغذاء النفسي و المعرفي في تلك الجلسات و اللقاءات بين الأصدقاء. و واضح ذلك الحنين من الرسائل التي كتبها إلى صديقه جعفر الخليلي في تلك الفترة:

« آه يا أخي ... آه من الدهر .. آه من الدنيا التي ألجأتني إلى الخروج من ذلك العش الذي تغرد به طيور الجنة و طارت بي إلى هذه الأرض التي لا أسمع فيها إلا فحيح الفساد و زفير الشهوات!!!

آلا ليت الشاعر الذي كان يقول بالأمس:

مررت على المروءة و هي تبكي
فقلت على م تنتحب الفتاة؟؟!
فقال كيف لا أبكي و أهلي
جميعاً دون خلق الله ماتوا!!!»

و لم يستطيع محمد شرارة أن ينحدر بكلامه إلى مستوى عامة الناس، و هو المثالي بنظرته إلى الأمور، فالحياة ليست كلها أدباً و شعراً، حتى بالنسبة للمتعلمين منهم، و شعر بتفاهة الأحاديث التي كانت تدور في جو المدرسة، و التي لم يستطع أن يشارك في « ما يدور بين هذه الناشئة الخارجة من المدرسة الحديثة من أحاديث و منكرات. »¹³⁶

136 - رسالة كتبها إلى جعفر الخليلي، في بداية السنة الدراسية، عام 1936

و وصف الجو السائد في المدرسة برسالة أخرى، أكد فيها على عدم وجود أي انسجام بينه وبين مدرسي المدرسة ذوي النظرة السطحية للحياة، مفضلين قضاء الوقت في أمور تافهة، بعيدين عن الثقافة و المطالعة في توسيع مداركهم، إذ كان همهم الوحيد أن يعيشوا حياة توفر لهم أسباب الراحة اليومية، فكتب عنهم بمرارة، أقرب منها إلى خيبة الأمل:

« فأنا أحيا ... حياة جافة جامدة لا أثر فيها للعاطفة المشبوبة أو الخيال الجامح أو الروح الملتهبة. حياة أقل ما يقال عنها انها "ميكانكية" بكل ما في لفظ الميكانيك من "معنى جاف". و لو كان لي مورد ضئيل من الرزق أحفظ به كرامتي و عزة نفسي، و أحفظ به عائلتي من الفاقة لضربت هذه "الوظيفة" ضربة فيها كثير من الحقد و النقمة و الاهانة و السخرية لا لأنها "جنت" عليّ بل لأنها قربتني من أناس أنا أبعد ما أكون عنهم روحاً و تفكيراً و عاطفة و خيالاً. قربتني من أناس لا يرون العلم إلا بقصاصة و رق ... و التجدد بالستره و البنطلون. ...»¹³⁷

و هنا تتجدد ثانية ثورة محمد شرارة، و يتجدد تحديه للواقع الذي يعيشه، حيث كانت آماله و طموحاته أبعد بكثير من الجو "التافه" الذي وجد نفسه فيه، لكن ثورته هذه المرة ليست على جمود المدرسة الدينية و إنما على جمود الذين يقع على أكتافهم تربية أجيال المستقبل، و هذا جمود لا يقل خطورة عن جمود المدرسة الدينية. و انتقد الطريقة العقيمة في تدريس الأدب العربي، و بدل أن تستميل الطلبة و تغذي تفكيرهم، فان المناهج الأدبية المقررة رسمياً تشجع على "انعدام الخيال و ضعف التصور". و لكن لم يستطع أن ينطو أية خطوة هذه المرة، فكانت يديه مغلولتين، بسبب المسؤولية التي وقعت على عاتقه في إعالة عائلته.

لم يكن مرتاحاً من أسلوب تدريس اللغة العربية و الأدب العربي، و كان يهاجم طرق التدريس كلما سنحت له الفرصة، و ذلك واضح عندما شارك في النشاطات الثقافية التي كانت تقوم بها ثانوية الناصرية، و أكد على هذه النقطة حتى في المباراة الخطابية للطلبة. فألقى خطاباً، أكد فيه على أهمية اللغة العربية التي لا تقل عن العلوم الأخرى، و التي يجب الاهتمام بها، و انتقد الشباب من أصحاب الشهادات، المغرورين بما تعلموه. و إن الاعتماد على الشهادة فقط، تصبغ مصدر

137 - رسالة إلى جعفر الخليلي 1937/5/17

نقص عندما يدعي صاحبها المعرفة. و قصد بها أيضا بعض أساتذة الثانوية الذين تكلم عنهم في رسالته السابقة إلى الخليلي.

« ... و بعض آخر من شبابنا المتعلم لا يكتفي بهذا الحد، بل يسخر من كل ما ينتمي إلى العرب و العروبة، و لو فتشت عنه و عن معرفته و قلبته ظهرا لبطن لرأيت كل رأسماله العلمي و الأدبي ورقة صغيرة يعبر عنها (بالشهادة)، و ما و راءها لا يتجاوز الغرور!»¹³⁸

و اعتبر في مقال "الأدب العربي بين الصحراء و الرياض":
« الأدب انه الحياة ذاتها... ذلك لأن هذه النواض التي ترتعش في صميم الحياة لم يستطع فن من الفنون أن ينقلها من جيل إلى جيل كما نقلها الأدب، فالأدب إذن هو الشعلة التي لا تنطفئ و لا تتأثر من غبار الدهور و مرور الأزمنة و تبقى مضيئة حتى لو انطفأت الحياة نفسها في الأحياء، و الذي أريد أن أقوله من وراء هذا البيان كله إن الحياة إذا انطفأت في الأجسام فلا تنطفئ إلا مظاهرها الميكانيكية.»
كما رد في مقال على الكاتب المصري "إبراهيم عبد القادر المازني" الذي يرى إن البحث في الأدب العربي يجب أن يبدأ في العصر الحاضر:

« حيث سهولة المعنى و الرقة و الديباجة.. أما العصر الجاهلي فهو صحراوي، و أدب له خصائصه تنفر منه العقول الناشئة و في نفورها منه نفور من الأدب عامة»
و لكن أختلف محمد شرارة مع المازني في هذا الرأي، و اعتبر:

« ان التاريخ الأدبي حلقة من سلسلة الحياة العامة أو هو المرآة التي تتعكس فيها حياة الأفراد و الجماعات و مما لا شك فيه تمرّ في أدوار مختلفة، و كل دور من هذه الأدوار يسلم ثمر جهوده إلى الدور الذي بعده حتى إذا انتهى التسليم إلى الدور الأخير لم يكن ذلك تسليم دور لدور فقط بل كان ذلك جهود أدوار، و ثمرة أجيال اجتمعت كلها و سكبت ما فيها من ثقافة و حضارة في هذا الدور الأخير، و من هذا تتضح لنا المسافة البعيدة بين الدور الأول الذي تمر به الأمة و بين الدور الأخير و بعد هذا تتضح لنا ان العقلية التي تحيط بما في الدور الأخير من حياة الأمة يجب أن تكون أقوى استعداداً، و أقوى تحملاً و أوسع مدى من العقلية التي تحاول أن تحيط بالدور الأول، لأن الدور الأخير - كما قلنا - لم يكن إلا خلاصة جهود و

138 - " الثقافة العربية و نصيبها من رسالة التعليم الحديث" محمد شرارة، مجلة الهاتف - النجف، 1938.

تقافات مرّت في عصور مختلفة ثم تجمعت كلها في هذا الدور، و لذلك كان الأدب ينشأ في الأجيال المتأخرة أن يكن أقوى مادة، و أبعد تصوراً، و أوسع خيالاً من الآداب التي تقدمته.¹³⁹

* * *

تطورت مسيرته الأدبية في تلك الفترة، بالرغم من ان المدرسة كانت تستنزف معظم وقته و قواه، لكنه استمر في الكتابة. كانت كتاباته في هذه المرحلة تتمثل في المقالات التي كان ينشرها في مجلة "الهاتف" و تخلص من النزعة الإنشائية و البلاغية:

« فأصبحت العناصر الفنية - الجمالية جزءاً عضويّاً في عملية الكتابة الأدبية كعملية تكاملية... تحمل علامة تطور في موضوع المعالجة.¹⁴⁰ »
و قد شملت المواضيع التي بدأ يتناولها، قضايا المجتمع في إطارها الوطني و القومي و الكوني، كما شملت هوماً فكرية أوسع دائرة، مما كان يدور فيها قبل هذه المرحلة. و قد جمع محمد شرارة بين:

« صيغة المقالة الفنية أحياناً و البحث الاجتماعي أحياناً أخرى، و هناك خصوصية بارزة تتميز بها كتاباته... أعني تلك الإطلاقات الشاعرية، خلال كل كتابة يكتبها، مهما يكن موضوعها، و هي إطلاقات تجيء في موكب من الصور الفنية و تجيء في معرض التصوير الفني.¹⁴¹ »

و تنوعت المواضيع التي كتب عنها في تلك الفترة، و اختلف بعضها حتى في أسلوب كتابتها عن المقالات السابقة. بل تميزت بأسلوب سردي و صفي، أقرب منه إلى القصة القصيرة. و هذا الأسلوب و اضح في المقالات التي كتب معظمها بين 1936 - 1938، فترة يشوبها نوع من الحزن، و القلق البعيد عن الاستقرار، كأنها انعكاس لحياته التي يحياها بين الرتابة و العناء. فاتجه إلى وصف الطبيعة و حياة الناس من البسطاء في القرى المجاورة للناصرية. و يشعر القارئ من خلال قراءة هذه المقالات ان هنالك شيئاً يحس به، شيئاً ليس بمتناوله، شيئاً ليس باستطاعته

¹³⁹ - "الأدب العربي بين الصحراء و الرياض" محمد شرارة، جريدة الهاتف - النجف، 1939/7/21

¹⁴⁰ - "محمد شرارة كاتباً و إنساناً" حسين مروة، وجوه ثقافية من الجنوب، دار أبين خلدون - بيروت،

1981، ص - 17

¹⁴¹ - المصدر نفسه، ص - 17

الوصول إليه! انه العام الذي بدل فيه حياته كلياً، و واجه أجواء جديدة عليه، و أصبح هنالك قطع في حياته، و انتقل إلى مرحلة جديدة تختلف تماماً عن مرحلة النجف. و نجد فحوى كتاباته التي تزرخ بالعاطفة الإنسانية، و إحساسه بكل ما في الطبيعة من ظلال، أخرجها بصورة مخضبة بألوان خصبة متوهجة. و اتضح هذا النهج في المقالات التي كتبها تحت عنوان "من صور الحياة"، و منها "صديق" و "عدة النجاح" و "عاشق حائر" و "ساعة رهيبة" و "غريب" و "في مطلع الفجر" و "البلبل الصريع".

ففي مقال "ساعة رهيبة" كتب عن غرق سفينة مع ركابها أثناء عاصفة هبت على نهر الفرات، و نقل للقارئ صورة حية عن ضعف الناس أمام غضب الطبيعة و جبروتها، و اختصرت حياة شرارة في مقدمتها فحوى المقال:

« النهر يثور أحياناً و يبتلع حياة الناس في "ساعة رهيبة" و تمتزج حركة الناس و حركة الطبيعة في إيقاع متجانس تارة، متباين تارة أخرى. فالرد على الطبيعة الهائجة التي شرعت تختطف أجساد الموجودين على السفينة يتخذ شكلاً غريباً في البداية إذ تتعالى مع هدير الموج أصوات الزغاريد و الهلاهيل فكأن الناس يردون على تحدي الطبيعة بتحدٍ مماثل، و لكن الجزع و الخوف باديان على الوجوه، و سرعان ما يتعالى النواح مع ارتطام السفينة و تحطمها.»¹⁴²

و قد شاهد محمد شرارة عن كثب ما حل بالسفينة و ركابها من أثر غضب الطبيعة، فكتب:

« أقبلت العاصفة على النهر تدغدغه و تلتئم جبينه، و ما إن مسته حتى هاج هياج المجنون، و طغى طغيان الجبابرة، و صاح في وجهها صيحة الأسد الجريح، و أصبح الكون كله عناصر متضاربة، و قوى متناحرة ذاب الضعيف ذوباناً و صمد فيه القوي للقوى. و كنت أرى أوراق الأشجار تحت هذه الغضبة الكونية تتطاير كما تتطاير أشلاء الجنود في الحروب المجنونة، و حافتي النهر تتساقط أمام قوة الأمواج كما تتساقط حجار الحصون أمام المدافع. و طفق الموت يبحث عن ضحاياه في هذه الساعة و يدون ما يرى و يسمع فوضى الوجود و اشتباك العناصر.»¹⁴³

¹⁴² - مقدمة "المتنبي بين البطولة و الاغتراب"، حياة شرارة، المؤسسة العربية للدراسات و النشر - بيروت

1981

¹⁴³ - "ساعة رهيبة" محمد شرارة، جريدة الهاتف - النجف، 1936

أما في مقال "غريب" الذي هو انعكاس إلى ما كان يحس و يشعر به من الغربية، حيث راح الغريب يفتش عن شيء مقدس لم يجده، فترك قريبته و أهله و راح يبحث عن هذا الشيء فلم يجده، و طاف الأرض كلها و لم يجده، فكتب:

« راح يبحث عن الإنسانية! و لقد طاف الأرض عليها فلم يجدها، فهل يجدها في السماء و هل يجد في السماء من يهيم بها هيامه بها، أم سيرى نفسه غريباً في السماء كما انه غريب في الأرض؟»¹⁴⁴

كما وصف في "المساء الكئيب" بدقة عودة الرعاة و الفلاحين الذين تبدو على وجوههم آثار الجهد و الإعياء، حيث خرجوا مع الفجر من بيوتهم إلى البر يرعون الأغنام و يفلحون الأرض: « على أبدانهم الثياب الممزقة، و على وجوههم آثار التعب، و في عيونهم نظرات ما و راءها من رضا و قناعة، أو سخط و انتقام». و لكي تصبح الصورة كاملة، انتقل من كآبة وجوه الناس، و ربطها في كآبة الطبيعة في فصل الخريف فأصبحت الصورة كاملة:

« و قد ظهر هذا الحزن على النخلات الواقفة على شاطئ النهر، و أرخت ذوائبها الخضراء... الشمس تجري لمستقر لها و قد نسج المساء لها أكفان الموت، و خلع عليها لونا هو أقرب ما يكون إلى لون العليل في ساعة الاحتضار، ثم توارت و راء الأفق و لفظت أنفاسها الأخيرة و غابت تلك الشعلة التي تثير الكون حتى كأنها لم تكن...»¹⁴⁵

أما مقال "البلبل الصريع" فهو تعبير عن القيود التي تكبل الإنسان، إن كانت قيوداً اجتماعية، عائلية، اقتصادية، فكرية، إنها القيود المتمثلة بقفص البلبل الذي فقد فضائه الواسع و حددت قضبانه الحركة! و "البلبل الصريع" تورية عن الحرية و السجن، فالحرية لا يمكن أن تعوض بثمن. انه "الصبي الطليق" الذي ظل كامناً في أعماق الرجل الناضج، الصبي الذي كانت آماله و طموحاته لا تحدها الحدود. كان كالبلبل الذي ينطلق من شجرة إلى أخرى في فضائه الواسع، منشداً أغانيه، و فجأة فقد حريته، فأصبح مكبلاً في الأغلال التي حددت سلوكه و تفكيره! فيصفه:

« كان يخفق بأجنحته المذهبة في جو لازوردي مضمخ بالعطور و روائح الأزهار، و يطير في فضاء و اسع لا حد له و لا نهاية، يغرد إذا طاب له التغريد فتغرد

144 - "غريب" محمد شرارة، جريدة الهاتف - النجف، 1936/7/11

145 - "المساء الكئيب" محمد شرارة، جريدة الهاتف - النجف، 1936

الأرض و السماء لتغريده، و تتحول الأرواح إلى أنشودة هائمة، و القلوب إلى نغمة عذبة إذا مرّ عليها نشيده، و حامت حولها ألعانه! و يسكت فتغمر الكون موجة السكون الرهيب و تستولي عليه الكآبة الخرساء! ... و شاء القدر أن يجدد حياته، فانقل به من ذلك الجو الواسع إلى ... إلى قفص ضيق. و افتقد الفضاء بلبله الشادي و بحث عنه في نواحيه فما وجده ... لقد اختفى البلبل، و ذاب لحنه، و فنى نشيده، هذا كل ما عرفته البلابل ... و لكن البلبل حي لم يميت بيد انه انتقل من كون إلى كون، و من دنيا إلى دنيا أخرى انتقل من الفضاء الرحب إلى القفص. و البلابل بحثت عنه في كل مكان إلا في هذا المكان!»¹⁴⁶

* * *

كانت بداية سنة 1937 كما سماها "السنة المسمومة" لكثرة المشاكل التي جابهها، فبناته لا يخرجن من مرض حتى يقعن بآخر، كما مرضت و الدتهم معهم. و أخبار لبنان لم تكن جيدة بعد نفي والده و سجن شقيقه عبد اللطيف، لذا قرر أن يأخذ العائلة إلى لبنان لقضاء الشتاء و الصيف هناك، و ليتخلص من "المصائب المرضية"، حيث و لدت في لبنان زوجته "زهرة" في نهاية 1937 صبياً، و استبشر آل شرارة و آل الزين بصورة خاصة بمجيئه، إذ ثبتت بذلك ابنتهم مركزها! و لكن خلقت لهم مشكلة جديدة في إيجاد اسم يليق بالذكر الذي و لد بعد ثلاث بنات!

ظل الطفل لفترة بلا اسم، و قد شارك جميع أعضاء العائلة في اختيار الاسم كما شاركوا في السابق، في اختيار أسماء بناته، و عندما توصلت الأكثرية إلى تسميته "إبراهيم"، بعد أن عقدت عدة جلسات و استعملت القواميس العربية في إيجاد الاسم الذي يليق بالمولود الجديد! كتب محمد شرارة عن ذلك الاختلاف:

« و ذهبت العائلة بصغارها و كبارها إلى لبنان. و لم تمض مدة قليلة على هذه الرحلة حتى لاح في الجو نجم جديد و اهتز البيت بصوت جديد يختلف عن الأصوات السابقة كما يختلف ضوءه عن أضوائها.. أما هذا الضوء فكان سهيل (سهيل) المولود الجديد. هذا المولود الذي أوقف "ثرثرة الناس" طبعاً أو حولها إلى ناحية أخرى على الأصح لأنه صبي لا بنت! و على كل فقد ابتسم الأهل و ابتسم

146 - " البلبل الصريع" محمد شرارة، مجلة الحضارة - العراق، شباط 1938.

الأصدقاء و الأحباب، و ابتسما نحن أيضا للمولود الجديد ... و أردت أن يكون اسمه "سهيلا" ... و حصل الخلاف بيني و بين مجموعة كبيرة من الأهل و الأصدقاء، فأبي يريد أن يكون اسمه "إبراهيم" و هكذا جده الآخر و.خاله يريد أن يكون "صلاح" و خاله الثاني يريد أن يكون "عدنان"، و أخي الأستاذ الخليلي يريد أن يكون "هانفا" ... و هكذا تكاثرت الآراء و لكن لمن الغلبة، إذا عرفت إن الولد الجديد احتفظ باسم "إبراهيم" تعرف لمن صارت الغلبة و هذا الخلاف الذي اشتبك حول إبراهيم لم يقتصر عليه. ... فقد كانت مريم "مي" قبل اسمها الحالي، و بلقيس "المياء" و الذين استطاعوا أن يحولوا سهيلا إلى إبراهيم هذا اليوم هم الذين حولوا اسم لمياء إلى "بلقيس" و مي إلى "مريم".¹⁴⁷

كما حل تسمية "أبو إبراهيم و أم إبراهيم"، بدل التسمية القديمة، "أبو البنات و أم البنات". إذ تظل تقاليد المجتمع طاغية و مهيمنة حتى على المتعلمين و المثقفين و المفكرين، مهما كانت العائلة متقدمة في تفكيرها، فليس لهم القدرة على الخروج عن العرف القائم في المجتمع، فقد كان معظم أفراد عائلة والد محمد شرارة، شعراء أدباء متتوري التفكير نسبياً! و لكن عُرف المجتمع قابض بقوة على ما يؤمنون به. فولادة الذكر ستؤكد على استمرار اسم العائلة التي يفخرون بها. و بذلك تغيرت هوية اسم زوجته بولادة الذكر و فقدت اسمها "زهرة" الذي أطلق عليها عندما ولدت، و ارتبط اسمها باسم ابنها الذكر فأصبحت "أم إبراهيم"، فهويتها و كيانتها مرتبطان بهويته، و غطى غبار النسيان اسمها العذري و طوي حتى اسم عائلتها، و لم يعد هناك ما يذكرها بشيء قبل زواجها! فالهوية تضمحل و تموت لتظهر الهوية المرادفة لهوية ابنها، حيث تفتخر النسوة بتلك الكنية و بتلاشي هويتهن! أما بالنسبة لمحمد شرارة، فالموضوع مختلف تماماً، فقدَ اسمه بين عائلته و أصدقائه، و ارتبط باسم ابنه الذكر "أبو إبراهيم"، و لكن ظل اسمه مشعاً في صفحات الجرائد و المجلات، يتردد في الأندية الأدبية و المدارس التي يدرس بها.

147 - "سهيل أو خلاف أيضا (2)" بقلم: محمد شرارة، مجلة الهاتف، 1937
 - اختيرت هذه الأسماء من قبل جديّ العائلتين "عائلة الزين و شرارة"، لأنها أسماء واردة في النصوص القرآنية، بينما أراد محمد شرارة أن يسمي أولاده بأسماء تعبر عن رؤية حديثة. (ب.ش)

أما عندما ولدت زوجته صبياً ثانياً بعد عامين، فلم يكن للحدث ذات الأهمية، و لم يطل التفتيش له عن اسم أكثر من بضع ساعات، إذ كان المهم بالنسبة لعائلتها أن تثبت موقعها عندما ولدت أول ذكر بعد ثلاث بنات!!

* * *

كان محمد شرارة رغم عدم انسجامه مع المدرسين و عقم المناهج الدراسية، لكنه كان يرتاح إلى الطلبة، فيقول عنه عبد المحسن القصاب، تتقلب الثورة الغاضبة الجبارة:

« داخل الصف بين التلاميذ، إلى رقة و حنان و دعة تذوب في ظلها شراسة أقوى الطلاب شكيمة و تتحني أمامها أعناق تلاميذه و هم يتلقون دروسه بلذة و شراهة.»¹⁴⁸

رغم انه انتقل إلى الناصرية و ابتعد عن جو النجف و خلع العمامة، لكن موضوع المدرسة الدينية و الإصلاح الديني، ظل إلى فترة طويلة يكتب عنه، و يرد على المقالات التي هاجمت جريدة "الهاتف" و التي تتعلق بهذا الموضوع. و نشر معظم تلك المقالات في جريدة "الهاتف" و مجلة "الحضارة". كما شارك في كتابة المقالات التي تتعلق بالإصلاح الديني كل من مجلتي "العرفان" اللبنانية، و مجلة "العلم". و يظهر ان أمه كان ضعيفا في الإصلاح الديني، الذي أدى بدوره إلى جدل حاد. و وصل أحيانا إلى حد المهاترات، فاتهموا رئيس تحرير الجريدة جعفر الخليلي، بأنه رجل "مأجور"، و اعتبروا «الهاتف» و أقوال الكتاب المتحذلقين بأن المدرسة ليست بحاجة إلى الإصلاح، إلا أفكاً و زورا و دساً للسم في الدسم، يريدون من ورائه القضاء على المدرسة و من وراء القضاء على المدرسة القضاء على الدين.»

فكتب محمد شرارة مقالاً راداً عليهم بعنوان "الموقف يحتاج إلى قيادة حازمة .. فأين هي؟":

« إن المدرسة الدينية التي دكت كيائها الفوضى و التأخر، و ضععت تماسكها و أخذت تنهار انهياراً هائلاً و تتدهور تدهوراً غريباً، فيعملون على إصلاح البقية الباقية، و يردون إلى المدرسة أبناءها البررة أولئك الذين ألبسهم الحياة القاهرة و ظروفها القاسية إلى مغادرة مدرستهم! ... إن المدرسة أصبحت بحاجة لأن تقام لها

148 - " محمد شرارة"، عبد المحسن القصاب، جريدة الهاتف 1938، عدد 135

"حفلات التأبين" و تنظم بها "قصائد الرثاء" أكثر مما هي بحاجة إلى الإصلاح... و لا ينقذ الموقف إلا قيادة حازمة مخلصه فأين هي؟ أما أنا فلا أراها و لا أجدها.»¹⁴⁹

كما كتب مقالاً عندما علم بوفاة رجل الدين "محمد حسين النائيني"، و يظهر انه كان من بقايا رجال الدين المنفتحين على العصر، بعدما أصاب المدرسة من ركود. و من المجددين في علم الأصول، الذي ما زالت آراؤه و نظرياته تتداولها الأوساط الدينية. و اعتبر موت النائيني ضربة إلى "البقية الصالحة" في المدرسة عندما خسرت المدرسة الدينية زعيمها.

ظل متألماً بعمق، بعد مرور عامين على تركه النجف، و التحاقه بسلك التعليم، و كان يحز في نفسه تدهور المدرسة الدينية، لأن الفئة التي كانت تشرف عليها ليست بكفاء لها. إذ كان يهاجم كل من يحاول انتقادها، و تخلق الأكاذيب بحقه لتدمير حياته، و تمنى أن تساعده الظروف في يوم من الأيام:

« لتدوين شيء من هذه المذكرات، ليطلع القارئ على ألوان من الحياة التي مرّ بها و عانى منها "أحرار هذه الهيئة من الشباب". و يظهر - أن لا أمل في إصلاح هذه الفئة من رجال الدين، أو إصلاح المدرسة الدينية.»

و أكد على ذلك في مقال آخر بعنوان "الشعاع الروحي في أفق المدرسة الروحية! أين هو؟ و ما هو مداه؟":

« و إذا وقفت تحاسبهم... لوحوالك بالنار المحرقة، و غاروا على عقائدك و دينك ثم لا يرجعون عنها إلا و هي أشلاء مبعثرة تسيل دماؤها الطاهرة على أسنة من أقوال الافك و أحاديث الزور و البهتان، ثم لا تلبث أن تسمع عن نفسك أشياء لا تعرف أنت منها شيئاً واحداً، فتعجب كيف توصلت هذه الفئة إلى شيء هو من خصائص قلبك و سرائر روحك و أنت لا تعلم منه شيئاً، و هذه حالة يعرفها كل من اتصل بهذه الفئة و عاشها مدة من الزمن!»¹⁵⁰

149 - حول الإصلاح الديني: "الموقف يحتاج إلى قيادة حازمة .. فأين هي؟"، محمد شرارة، جريدة الهاتف

عدد 62، 1936

150 - "الشعاع الروحي في أفق المدرسة الروحية! أين هو؟ و ما هو مداه؟"، محمد شرارة، مجلة

الحضارة، 1938/4/1

و كتب مقالاً رد فيه على " الشيخ علي الطنطاوي" بعنوان: "في الدين و التاريخ"، حيث كتب الطنطاوي:

« إن المدرسة الحديثة أخطأت كل الخطأ في هذا الاعتبار، لأن الدين الإسلامي لا يمكن أن يدرسه غير المسلم و هكذا تاريخ الإسلام لا يقل عن الدين الإسلامي.»

« إن الوصول إلى هذه النتيجة يوجب علينا أن نحكم بأن تدريس المادة يتوقف على العقيدة بها لا على معرفتها، فهل نستطيع أن نحكم هذا الحكم؟ و هل يساعدنا المنطق إذا ذهبنا هذا المذهب؟ ... لأن العقيدة فيها جزء من المعرفة، أما المسائل الأخرى التي لا تربط فيها العقيدة بالمعرفة فلا أظن ان المنطق يساعدنا على هذا الرأي فيها. و ذلك لأن تدريس المادة يتوقف على معرفتها أكثر مما يتوقف على الاعتقاد بها، و على ذلك لا أرى بأساً في أن يدرس الدين من يعرف الدين، و يدرس التاريخ من يعرف التاريخ، بقطع النظر عن الطائفة التي ينتمي إليها المدرس.»¹⁵¹

و لم يترك الكتابة عن تفوق المدارس الدينية و انغلاق أفق رجال الدين الذين كانوا يشرفون عليها، و مهاجمتهم لمن يوجه النقد لهم، إذ ظل الجرح معتمل في أعماقه، فقد كتب مقال عن موقف "الرصافي" بعد ثلاثة عقود، بعنوان "الرصافي و المتاجرون بالدين" :

« إن غيظه من هذه الفئة و حنقه عليها لم يكن بدافع الحقد أو الغرض الشخصي، بل لأنها عون على التأخر، و سند للرجعية و حائط يستند إليه جميع المقامرين بحياة الشعوب. و من هنا كانت حملاته عليها متتابعة:

و أقبح جهل في بني الشرق أنهم يسمون أهل الجهل بالعلماء
و أكبر مظلوم هو العلم عندهم فقد يدعيه أجهل الجهلاء

و يكفي أن يضع هؤلاء "عمامة" على رؤوسهم حتى يحق لهم أن يتكلموا في أخطر القضايا الاقتصادية و الاجتماعية و يصدروا بشأنها الفتاوى. و هم لا يعرفون كلمة واحدة في "الاقتصاد" أو "الاجتماع" و ما يرافق ذلك من تيارات. و هم مشغوفون

151 - في الجو المدرسي "في الدين و التاريخ"، محمد شرارة، مجلة الحضارة، عدد 7، تاريخ

بإصدار الفتاوى في هذه الأيام خاصة، بقضاياهم اجهل الناس بها، و أبعدهم عن الإلمام بحرف واحد منها.»¹⁵²

ثم عاد إلى الكتابة عنهم في مقال آخر كتبه عن الشاعر علي الشرقي بعنوان: "علي الشرقي و الإمامة اللاذعة" بوصف المدارس الدينية:

«... و المدارس (الدينية) التي كان لها دور الساهر على التراث تمنح نفسها الحق المطلق في القيادة و لا يحق لأحد أن يتحرك إلا بإذنها. و ربما كانت ثقة النجف بنفسها و اعتدادها بقيمتها أكثر من البقية. و لذلك كان على الذين لا يرون رأيها أن يختاروا بين البقاء فيها إذا قبلوا ما تفهم أو الرحيل عنها إذا رفضوه. و كان الشرقي في طبيعة الذين رفضوا الأوامر، و ندوا عن السرب، و قبلوا المواجهة، و استعدوا للرد على النار القادمة من مختلف الجهات ... في وجه هذه السلطة المطلقة كان الشرقي من حملة الأعلام، و كان يرد على النار بنار أقوى:

أيها البلبل المعلق في السجن سلام أصخت أم لن تصيخا
في رمال التاريخ آثار أقدام رفاق تخطت التاريخا.»¹⁵³

* * *

تفرغ محمد شرارة للتدريس و الكتابة بعد أن سافرت عائلته، و يدل على ذلك نتاجه الشعري و الأدبي اللذان حليا جريدة "الهاتف" و مجلة "الحضارة".¹⁵⁴ و في الوقت نفسه كتب دراسة مستفيضة عن الشاعر التونسي "أبو القاسم الشابي". تضمنت ثلاثة مقالات، تناول فيها شعره من نواح عديدة. فكان المقال الأول بعنوان "القلب المحطم"، عن موطن الحب و الهوى، فيصف حياة الشاعر التي كانت « قلباً ذائباً و عاطفة ملتاعة ثم ذاب في الأبد كما ذاب قلبه الجائع في الحب! »¹⁵⁵

152 - " الرصافي و المتاجرون بالدين" محمد شرارة، العرفان، نيسان 1961

153 - "الشرقي و الإمامة اللاذعة" محمد شرارة، مجلة العرفان - نيسان 1978

154 - صدرت مجلة الحضارة في تشرين الأول عام 1937، و كانت تصدر مرتين في الشهر في البداية، و أصبح على عاتقه أن يكتب لصحيفتين بدل صحيفة واحدة، إذ كان محمد حسن الصوري من زملائه و أصدقائه المقربين. و يظهر أنها لم تستمر أكثر من عشرة أشهر، و ذلك واضح من خلال القصائد المقالات التي نشرها في تلك المجلة. (ب.ش)

155 - "القلب المحطم"، محمد شرارة، مجلة الحضارة، 1937/12/1

و وجد انه ليس هنالك أية مراجع عن الشاعر لكي يستطيع أن يكون صورة كاملة عنه، و ليس بين يديه إلا ديوانه، و اتخذ من قصيدة "الجنة الضائعة"، مرجعاً باستطاعته من خلالها أن يرافقه في طفولته و شبابه:

« ذهب الشاعر يستعرض ماضيه الباسم و إذا هو.. يلقاها في ذلك الوادي الذي كانت ترف على جوانبه أحلام الطفولة. يلقاها في هذه الذكريات و في هذه الذكريات فقط!! و يحاول أن يطلبها فيما و راء ذلك فلا يستطيع و تحول الحوائل بينه و بينها.. في هذه اللحظة يتبدل الموقف و تتحول الحياة إلى حياة أخرى. و بعد أن كان الشاعر يعيش بأعصاب من المرح، و كانت الحياة جنة من جنان النعيم، أصبحت عبئاً ثقیلاً لا يطاق!!»¹⁵⁶

كما كان محمد شرارة معجباً بغنائية الشاعر الشاب، فأبو القاسم الشابي رومانسي الاتجاه، أطلع على الأدب الرومانسي من خلال ترجمة غوته و لامرتين و أوسيان و غيرهم إلى العربية، كما أطلع على أدب المهجريين. و المقال عن طفولة الشاعر و حبيبته التي لم يعرف عن حياتهما شيء، إلا عن لوعة الشاعر و حبه، و عندما تقرأ بعض مقاطع من هذه المقالة يحس القارئ بتعاطف الناقد مع الشاعر، عندما يقول:

و ارحميني، فقد تهدمت في كون من اليأس و الظلام مشيد
أنقذيني من الأمس، فلقد أمسيت لا أستطيع حمل وجودي

« أي شيء بقي من الحياة في هذا الهيكل الذي لا يستطيع حمل وجوده؟ و أي شيء بقي من هذا الوجود الواقف بين اليأس و الظلام؟؟ و أي ريشة هذه التي استطاعت أن تخط هذه الصورة! و أي ألوان هذه الألوان؟... القلب الذائب تحول إلى دم ثم تحول إلى أفاظ تشف عما و راءها كما يشف الزجاج عما خلفه؟؟»¹⁵⁷

ثم يعود في المقال الثالث إلى تحليل "النفس المطمئنة" عند الشاعر، حيث يعكس الرغبة في الحياة عندما يجابه الموت:

« إنها طمأنينة الجندي الذي أضنته الحرب فالتجأ إلى خيمة من الخيام يستريح قليلاً ثم يعود إلى الحرب من جديد!!... و يتجلى هذا المعنى في قصيدته "تشيد الجبار":

156 - ولد الشاعر أبو القاسم الشابي 1909 - 1934، و توفي و لم يناهز من العمر الخامسة و العشرين.

157 - "الروح الثائرة"، محمد شرارة، مجلة الحضارة، 1937/12/15

سأعيش رغم الداء والأعداء
أرنو إلى الشمس المضيئة، هازئاً
وسأظل أمشي رغم ذلك، عازفاً
إني أنا الناي الذي لا تنتهي

« و هو مطمئن إلى ان ذلك لا يؤثر عليه شيئاً بل سيبقى كالنسر فوق القمة أو كالقيثارة المترنمة مع الأبد! نعم هو الناي الذي لا تنتهي نغماته، و هو الخضم الذي لا تزيده كثرة الأنواء إلا سطوة على سطوته، و حياة على حياته. ... و لعل هذه الظاهرة ترجع إلى إيمانه بالحياة، فهو يؤمن بالحياة إيماناً صادقاً قوياً.»¹⁵⁸

* * *

خلال فترة الثلاثينيات تغذت القومية العربية و نشط العروبيون من أمثال ساطع الحصري و سامي شوكت، و بدأ التركيز على نوع من الشوفينية المجسمة في الحركات القومية في أوروبا أمثال ألمانيا و إيطاليا. و بدأ العزف على هذه الأوتار: « كان سامي شوكت قومياً عربياً متطرفاً في قوميته، ركز على الشباب و على الفتوة و التدريب العسكري متأثراً بما رآه في روما و برلين، و كان يقول "صناعة الموت" أي التضحية في سبيل الوطن و يؤمن كذلك بالوحدة العربية.»¹⁵⁹

و ما زاد من التطرف هو القضية الفلسطينية التي أذكت الكره تجاه الجالية اليهودية في العراق. كانت تقطن في مدينة الناصرية جالية يهودية، عندما أعلنت الحرب العالمية الثانية، و انحاز عدد كبير من الشعب العراقي إلى ألمانيا النازية، لا حباً بسياسة هتلر و إنما بغضاً و كرهاً للسياسة البريطانية في العراق. و قد عانت

¹⁵⁸ - "النفس المطمئنة"، مجلة الحضارة، 1938/1/1

¹⁵⁹ - "صراع المنابر الفكرية في العراق 1946-1947"، فاروق صالح العمر، الدار الجامعية للطباعة و

النشر و الترجمة، فرع البصرة 2002، ص- 14

« وردت المفردة عنواناً لخطاب ألقاه (سامي شوكت) أمام طلبة الثانوية ببغداد (1933)، و هو مدير المعارف العام. و بالتألف مع الفكرة أسس شوكة «كتائب الشباب» من ذوي القمصان السود. و كانت خطاباته في الحث على الموت تنشر عن طريق مجلة «المعلم الجديد» (نشرتها تحت عنوان أهدافنا، في 1939). و بطبيعة الحال من يؤمن بصناعة الموت، و تشكيل الشباب على العنف ليس له شريك بالوطن بل بالحياة! تخيلوا أن تكون وزارة التربية و التعليم أرضية لثقافة صناعة الموت، و مجلة "المعلم الجديد" صحيفتها! ».

"صناعة الموت"، رشيد الخيون، جريدة الشرق الأوسط، تشرين الثاني، 2007

الجالية اليهودية من تبعاتها، و شعرت ان ليس هنالك من يحميها بما في ذلك السلطة.

كان الأطفال يلهون في رمي اليهود بالحجارة أحياناً، و ذات يوم كنا بصحبة "شنيئة" التي كانت تساعد والدتي في البيت، عندما شاهدنا عدداً من الصبية يرمون الحجارة على شاب حُصر في زاوية من الشارع، رافعاً يديه متوسلاً بهم، محاولاً تفادي الحجارة بيديه و بحركة جسمه، فينحني تارة و يقفز تارة أخرى بعيداً عن الحجارة التي كانت تتساقط عليه من كل حدب و صوب، يصاحبها سيل من الشتائم و الألفاظ البذيئة. و لدهشتنا شاركت "شنيئة" الأولاد في تشجيعهم على الشتم و إلحاق الأذى بالشاب، و التفتت إلينا قائلة: "يهودي يستاهل!" و عندما وصلنا الدار، و شينا بها، و أخبرنا والدنا بما جرى، فأندبها على تصرفها، قائلاً لها: كان الأخرى بها أن تردعهم بدل تشجيعهم على رمي الحجارة على شاب أعزل، جريمته الوحيدة أنه و لد من أبويين يهوديين، كما طلب منها ألا تترج نفسها بمثل هذه الأمور.

كان هذا موقفه، بالرغم من قلقه على مصير فلسطين في تلك الفترة الحرجة، فقد بدأت هجرة مكثفة من قبل المنظمات اليهودية، خلال ثلاثينيات القرن الماضي، و شعر محمد شرارة بتكاثف الغيوم التي أحاطت فلسطين، في تسريع الهجرة إليها. في الوقت نفسه بدأت الحركة النازية و الفاشية تنتشر في العراق، و قد تبنى المفاهيم النازية عدد من المتعلمين، و البعض من أبناء الطبقة الوسطى، الذين كانوا ضد الاستعمار البريطاني بالدرجة الأولى، كعاطفة بعيدة عن المعرفة العقلانية، و كان باعقادهم، إن النازية ستحرر العرب من نير الاستعمار. كما كانوا يجهلون من ان النازية صنفت شعوب العالم، عندما أصبح العرق الآري سيد الأعراق، و كان نصيب العرب في أسفل السلم التراتبي، و لم يكن أقل مرتبة منهم إلا زنوج القارة الأفريقية.

و ظل محمد شرارة منتبهاً ما يحدث من تهويد فلسطين و الهجرة المتزايدة من قبل يهود أوروبا، بعد التظاهرات و المجابهة التي خاضها الشعب الفلسطيني لمدة خمسة أشهر من المذابح الدموية، و القوات البريطانية تمنع قتلاً و تدميراً و إبادة:

« و ظن العرب و الإسلام إن بريطانيا سترجع الحق السليب إلى نصابه و تبقي الوطن إلى أصحابه و إذا بالعالم يفاجأ بإصرار وزارة المستعمرات الانكليزية على

و كتب محمد شرارة مقالاً بعنوان: "ماذا في الجو الفلسطيني - فجر عابس...":
 « خفتت الصيحة التي تجاوبت بدويها الدنيا خوفاً على فلسطين العربية المجاهدة و كادت تتلاشى من دنيا العرب و الإسلام لأن العرب و المسلمين ظنوا - و بعض الظن أثم - أن "الضمير الانكليزي" استيقظ و عاد إليه و عيه و إن "القوة" عرفت حدها فوقفت عنده و الاتفاق بين "الحق و القوة" أو شك أن يتم، فخفت الصوت حرصاً على الاتفاق الموهوم و سكنت الأقلام خوفاً من "المغامرة" في هذه البقية التي وصل إليها "الاتفاق" و إذا "القوة" تعود و تعلن على لسان وزير المستعمرات إنها ماضية في اكتساح الحق و لا يقف في طريقها شيء و أوعزت إلى الجنود أن تتأهب للهجوم و إلى "الوطن المقدس" أن يتهباً للتدمير! ».¹⁶¹

هكذا كان الجو مكهرب فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية، و ليس بغريب التعدي على يهودي في الشارع أو رميه بالحجارة، فقد كانت تلك الأعمال نذيراً لما سيحدث في المستقبل للجالية اليهودية في بغداد! و لكن ظل محمد شرارة متمسكاً بموقفه - رغم خوفه على ضياع فلسطين - لا يرتضي التعدي أو التجني على أحد، و ظل يؤكد على الناحية الإنسانية في تربية و تنشئة بناته و أولاده منذ نعومة أظفارهم.

* * *

و انسجم بعد فترة في أجواء الناصرية، خاصة بعد أن عُين صديقه "حسين مروة" في المدرسة نفسها. و سكنت عائلته قريبهم. لكنه لم يكن مرتاحاً من معاملة مدير المدرسة لحسين مروة! حيث أعطاه حصصاً أقل من حصص المدرسين الآخرين، كما حسبت له المحاضرة الواحدة أقل سعراً مما تحسب إلى المدرسين الآخرين. و شعر محمد شرارة بالغبن الذي لحق صديقه، قياساً إلى ما كان يتمتع به بعض المدرسين العراقيين من امتيازات بسبب أسم العائلة و ليس عن الكفاءة. كما شعر انه كان السبب في جلبه إلى الناصرية بدل أن يذهب إلى مدن أخرى. و لذلك انتقل حسين مروة إلى الديوانية بعد أن أمضى السنة الدراسية، و لكنه لم يرتح في الديوانية أيضاً، و كانت شكواه دائمة عن كثرة غبارها! و أصبح يحن في رسائله

160 - مضمون ما أذاعته لجنة الدفاع في بغداد في بيانها، عام 1936.

161 - "ماذا في الجو الفلسطيني- فجر عابس..."، محمد شرارة، مجلة الهاتف، العدد 355، بتاريخ

إلى ما فقدته في مدينة الناصرية، و هو التمشي مع صديقه محمد شرارة، و هذا بعض ما كتبه:

« جاعني كتاب من الأخ مروة يشكو فيه من الديوانية و غبارها، كما يشكو من الناصرية أول مجيئه، و كنت كتبت له بأني و إن كنت أحس بوحشة لفراقه إلا اني مسرور من ناحية أخرى بزيادة محاضراته و هذه الناحية هي التي كان يشكو منها في الناصرية و يتألم لها كثيراً، و كنت أشعر بأن لوجودي في الناصرية يداً في مجيئه لها و تفضيلها على غيرها، ... و كنت أظن إن هذا النقل سيسره لأنه جاء بالفرض الذي كان يتطلبه، و إذا هو يشكو مرّ الشكوى و يقول من جملة ما يقول " ... إن الحياة كلها هنا لا تعادل مشية معكم إلى محطة القطار" و يشكو أيضاً من كثرة العمل و هو نفس ما كنت أشكو منه أنا في السنة الماضية.»¹⁶²

كانت معظم مدن العراق، أقرب منها إلى القرى من المدن. فمدينة الناصرية التي افتقدتها "حسين مروة" عندما انتقل إلى مدينة الديوانية، هي كأيّة مدينة في العراق آنذاك مهملة، تفتقر إلى الخدمات الصحية و الاجتماعية. إن تحركت الريح انقلبت إلى عاصفة رملية تكسو المدينة بغبارها، و إن أمطرت، انقلبت شوارعها إلى واحات من الماء الأسن. و المدينة لا يتخللها أكثر من شارع أو شارعين مبطين، تطل عليهما بعض دور الموظفين و المدارس و الدوائر الحكومية، و نادي الموظفين. لذا لا غرابة في أن يحنّ حسين مروة إلى التمشي مع صديقه إلى محطة القطار، لأنه من الشوارع المبلطة، التي تفتقد إليها مدينة الديوانية! كما كانت محطة القطار من المعالم المهمة في المدينة، لأنها تستقطب يومياً عدداً كبيراً من المسافرين إلى الأنحاء الأخرى من القطر.

و كتب محمد شرارة مقالاً عن تجربته عندما استقل القطار من مدينة الناصرية إلى مدينة الديوانية لزيارة حسين مروة، بعنوان "ليلة في القطار"، وصف ما أصابه من الفوضى المتشوية في المواصلات بين المدن العراقية. إذ كان القطار من الوسائل المهمة في النقل آنذاك بين الألوية/ المحافظات، فلم تكن السيارات الخاصة متوفرة إلا عند عدد قليل. و قد وصف بدقة ما يجري في المجتمع، عندما تحل الفوضى، و

162 - رسالة بعثها إلى جعفر الخليفي في 1938/5/5

استطاع أن يعطي صورة اقرب منها إلى ريشة فنان بألوانها و أحداثها الصارخة الصاخبة، حيث أشرك القارئ معه في سفره و الصعوبات التي عانى منها.

« لقد غصت الحافلات كلها بالراكبين، و امتلأت الدرجات الثلاث بالمسافرين، و بقي المنتظرون ينتظرون و لا يعرفون أين يذهبون! لقد قرأنا و سمعنا عن هول المحشر و عن ساعته و عن غلو الإنسان في الأنانية إلى حد ينسى معه حتى ولده و أقرب أقربائه و أخلص أصدقائه في تلك الساعة. و إذا قلنا ان هذه الساعة كانت صورة مصغرة عن ساعة المحشر لا نكون ذهبنا بعيداً، إذا كان في هذا القول شيء من المبالغة فهو شيء بسيط لا يؤبه له. وقف القطار و ابتدأ معه التزاحم بالمناكب و التدافع بالأيدي و الأرجل بل بكل ما في الأجسام من القوة، و كانت أمنية كل فرد من هذه الجماعة أن يصل إلى الحافلة قبل رفيقه و غابت من الوجوه تلك البشاشة التي كانت تطفو عليها قبل دقائق معدودات، و غابت تلك النظرات الحنون التي كانت تغلت من عيون الشباب و تهبط على وجوه الأوانس و السيدات و غاصت تلك النواذر التي كانت تتلاعب على الشفاه، و لم يعد يسمع السامع سوى الصياح الصارخ المشوش! هذا يصيح يا أحمد، و ذلك يصيح يا محمد، و هذه و تلك تصيحان كما يصيح هذا و ذلك، بينما الناس في هذا الهرج، و هذا التدافع، إذ بدت الأضواء الخضراء و الحمراء يؤشر للقطار بدنو الوقت الذي يتحرك به. و ما كادت تلوح هذه الأضواء حتى صاح صيحته الأولى و بعد ثوان قليلة صاح صيحته الثانية ثم تحرك على أثرها حركة خفيفة ... ثم تحرك حركة ارتجت لها الأرض من تحته و سار. ... لا أعرف كيف استطعنا نحن أن نصل إلى الحافلة، و لا أعرف كيف استطعنا أن نخترق هذه الأمواج و نصعد درج الحافلة، و ليس من السهل أبداً أن يخترق الإنسان هذه الجموع و يجتازها بسلام، لكننا اجتزناها. ... و لكن أين نقعد؟ المقاعد كلها مملوءة بل أرض الحافلة مملوءة! بل الرفوف التي أعدت للأمتعة لا إلى الناس مملوءة بالناس أيضاً! و يكفيك أن تعرف إن الحافلة كانت معدودة إلى 64 شخصاً، كان فيها ما يزيد على مئتين، و لم نجد بداً من البقاء وقوفاً. ... و بين أور و الديوانية أربع ساعات في هذا القطار الذي يسمى بالأكسبرس!»¹⁶³

163 - "ليلة في القطار" محمد شرارة، جريدة الهاتف - النجف، 1936

و لم يفته تجربة الفيضانات التي كانت تدمر كل شيء في طريقها، و قد مرّ محمد شرارة لأول مرة بهذه التجربة عندما كان في الناصرية، و كان أول فيضان شاهداً عليه و ما عانت المدينة منه، و كتب مقالاً بعنوان "جنون الفرات":¹⁶⁴

« و استمرت الشمس في طلوعها و حرارتها الملتهية، و استمرت الثلوج في الذوبان و الانحدار، و إذا المجاري التي كانت تشكو من الفقر أصبحت تشكو من الغنى! و إذا الجداول التي كانت تشكو من الجوع أصبحت تشكو من التخمّة! و إذا السواقي التي كانت تشكو من الضعف أصبحت تشكو من الحيوية الطاغية ... لأن قانون الطبيعة لا يعرف الاستثناء، و لا يعرف الأنانية، و يرى اللذة في هذه الإفاضة حتى لو رفضها الجائع الفقير و الضعيف. إن شريعة الطبيعة تريد أن تعطي و لا تنتظر منك أن تقبل! ... و ها هي السدود تتكسر و لم يبق منها سوى أشلاء مبعثرة كأشلاء الجنود المذبوحة في المعارك الحامية؛ و ها هو الطاغي ينحدر في طغيانه فيجتاح في طريقه البيوت و الأكواخ، و يدمر المزارع و الأشجار، و يخرب معامل الأجر، و يفيض على الطرق فيقطع خطوط المواصلات ما بين البلاد و يلتف حول المدينة كما يلتف السوار حول المعصم و يهددها بالموت كل ساعة. و لكن المدينة بقيت تتحدى الطاغي في سور من تراب و رمل إقامته حولها لمثل هذه الساعة الرهيبة في تأريخها!»¹⁶⁵

164- لقد تعرض محمد شرارة و عائلته إلى الفيضان مرات عديدة، كان أولها في مدينة الناصرية عندما غرقت أطراف المدينة فقط، ثم في الرستمية في شرق جنوبي بغداد، و أخيراً في حي الزوية في جنوب بغداد. و ليس هذا بالشيء الغريب في العراق.

فهناك ظروف مشابهة جمعت بين وضع الملك فيصل الأول من جهة و محمد شرارة من جهة أخرى، فكلاهما غير عراقي و اخذ الجنسية العراقية، و كلاهما لا يملك بيتاً و كلاهما عاني من الفيضان. (ب.ش) فقد خصصت دار المشيرية مقراً مؤقتاً لسكن الملك فيصل الأول، ثم انتقل في آب 1921 إلى دار ابن شعشوع في منطقة الوزيرية. و أصبحت دار المشيرية البلاط الملكي. في نيسان 1922 تسربت مياه فيضان نهر دجلة إلى الدار، و انتقل مؤقتاً مقر البلاط الملكي إلى محل سكن الملك في دار ابن شعشوع. في حزيران 1923 انتقل البلاط إلى مقره الجديد في الوزيرية، و في نيسان 1926 اكتسحت مياه دجلة البلاط، و نقل مسكن الملك و مقر البلاط إلى دار مناحيم دانيال الواقعة على ضفة نهر دجلة اليسرى في السنك. و بعد انحسار مياه الفيضان عاد البلاط الملكي إلى مقره السابق في الوزيرية، أما سكن الملك فاستمر في دار مناحيم دانيال بعد أن أصبحت دار ابن شعشوع غير صالحة للسكن. و توفي الملك فيصل الأول في أيلول 1933، دون أن تتم المباشرة ببناء البلاط الملكي الجديد.

"متى تأسس البلاط الملكي العراقي؟" جريدة المدى، الثقافة الشعبية، 2008/7/6

165 - "جنون الفرات"، محمد شرارة، مجلة الهاتف - النجف، 1938/7/1

رغم إن ذلك العام، في الناصرية كان عام فيضانات و تدمير للمزروعات و الموارد الحيوية في المدينة، لكنه احتفل بيوم تتويج الملك غازي، فقد استبشر العراقيون عندما أصبح ملكاً بعد والده في عام 1933،¹⁶⁶ في بدء مرحلة جديدة، بعد تخلصهم من الانتداب البريطاني، الذي ربط العراق بمعاهدة غير متكافئة من قبل البلدين. كانت ميول الملك غازي ميولاً تؤيد النهضة العربية و تحررها من القيود التي كبلت بها بعد الحرب العالمية الأولى.

« و شأنه شأن كثير من العراقيين، فقد كان ساخطاً على الهيمنة البريطانية، فقربته هذه المشاعر من حزب الإخاء في البداية، لكنه لم يتمتع بحساسية أبيه تجاه القوى العاملة في المجتمع العراقي، و لا بفضنته في جذبهم داخل المحسوبة الملكية.»¹⁶⁷ و قد هللت معظم الصحف العراقية و تفاعلت بالمرحلة الجديدة التي أطلت على العراق، و خصصت مجلة "الهاتف" عدداً خاصاً بهذه المناسبة، و شمل هذا التفاؤل حتى محمد شرارة. و أصبحت الاحتفالات بتتويجه تقام سنوياً، و كتب محمد شرارة بهذه المناسبة السنوية مقالاً بعنوان "عيد العروبة"، و ذلك قبل وفاة الملك غازي بعام:

166 - « و حسب وصف أكثر من باحث لشخصية الملك الجديد، كان غازي: شاباً قليل التجربة، امتلك بالكاد أهلية الحكم، ضئيل الفهم لمشكلات شعبه، لم يملأ مكان أبيه، بل سار على عكسه بعد إعطاء الأهمية للتوازنات السياسية. و هذا ما قاد هبوطاً مفاجئاً في نفوذ القصر. إلا إن شعوره الوطني و روابطه مع الضباط الشباب و المعارضة الجديدة، وفرت عنصراً في مركز الهيكل السياسي ساعد بدوره على تعزيز دخول الجيش في ميدان السياسة.»

"العراق المعاصر"، د. عبد الوهاب حميد رشيد، دار المدى للثقافة و النشر، دمشق 2002، ص - 87 - كما كتب عنه مير بصري: «عندما أصبح غازي ملكاً على عرش العراق في 1933، كان في الحادية و العشرين من عمره، يميل إلى التهور و الإسراف كاقتناء الطائرات و سيارات السباق و محطة إرسال لاسلكية و ساحات لعب و دور سينما خاصة. ... و التف حوله نفر من الشباب الطائش فزينوا له البذخ و اللهو. و قد طلب من صفوت باشا استيراد كمية كبيرة من السيارات و العطور و الساعات الثمينة لإهدائها إلى رفاقه، فلما امتنع صفوت باشا و قال له إن الخزينة الخاصة لا تتحمل هذه المصاريف الجسيمة، أبدى له الغيظ و حمله على الاستقالة و اعتزال منصبه في البلاط الملكي.»

"أعلام السياسة في العراق الحديث"، مير بصري، رياض الرئيس للكتب و النشر - لندن، 1987، ص -

31

167 - "صفحات من تاريخ العراق المعاصر" تشارلز تريب، ترجمة: زينة جابلا إدريس، الدار العربية للعلوم، بيروت - لبنان، 2006، ص - 128

« ... يوم التتويج في حياة الأمة كاليوم الضاحك الضاحي في فصول الشتاء من الطبيعة العابسة، ففي هذا اليوم تحس حرارة الحياة قوية في كل شيء ... و ذلك يوم تنسى الأمة فيه كل ما في حياتها الماضية من هم و أسى و شجون و أحزان، حتى تكاد تكون الوجوه كلها وجهاً واحداً في البهجة و السرور... لأنه اليوم الذي وضعت فيه بيدها "تاجاً" لأمانيتها و "قبة" لمجدها، فاحتفالها به احتفال بيوم اليقظة.»¹⁶⁸

لم يكن الملك غازي سياسياً بأي مفهوم، و إن ميوله ربطته بجيله من النخبة العربية في العراق. و شعر بالامتعاض من استمرار النفوذ البريطاني، مما دفعه إلى انتقاد السياسية البريطانية بشكل متزايد، و قد اقترن اسمه بأول إعلان خطير و هو المطالبة بالكويت و ضمها إلى العراق. و عبّر عن رأيه عبر الإذاعة التي أنشأها في القصر، في عام 1937. و أعلن استنكاره استعمار فرنسا لسوريا و الصهيونية في فلسطين.

و قد مرّ العراق بفترة عصيبة، مضطربة في تلك الفترة، و كانت القضية الفلسطينية من القضايا الساخنة، و شارك في مؤتمر الطاولة المستديرة في لندن نوري السعيد، كرئيس وزراء، و حاول التوصل إلى اتفاق بين الطرفين الفلسطيني و البريطاني لم ينجح، و لكن ساعده على الفوز برضى الضباط السبعة¹⁶⁹ في القوات المسلحة. و حاول نوري السعيد حل البرلمان و إجراء انتخابات عامة، و زعم ان مؤامرة تحاك لاغتيال الملك غازي. و بذلك نجح في إعلان الأحكام العرفية، و اثبت التهمة على حكمت سليمان و رفاقه و حكم عليهم بالموت، و تم تخفيف الحكم إلى السجن، و قد حاك هذه المؤامرة نوري السعيد ليؤكد للضباط السبعة ان نظام سليمان-صدقي قد ولى إلى غير رجعة.

168 - "عيد العروبة"، محمد شرارة، مجلة الهاتف، 1938/9/18

169 - "الضباط السبعة" هم: حسين فوزي، أمين العمري، صلاح الدين الصبّاغ، محمود سلمان، كامل شبيب، عزيز يا ملكي، و فهمي سعيد.

و أتى مصرع الملك غازي المفاجئ في حادث سيارة¹⁷⁰، ليقوي قبضة نوري السعيد على السلطة. و عين شقيق الملكة عالية، عبد الإله وصياً¹⁷¹ على العراق، لأن فيصل أبين الملك غازي ما زال طفلاً لم يتجاوز الرابعة من عمره. عندما انتشر خبر وفاته، خرجت مدينة الناصرية بأسرها، كبارها و صغارها، رجالها و نساؤها إلى الشوارع و الأزقة، و خلت البيوت من الناس. بحر من حشود الناس بحت حناجرهم من الهتافات، حشود يلطمون وجوههم و صدورهم. التقت

170 - « أعلن عن مقتل غازي بدعوى سواقة سيارته بسرعة عالية تحت تأثير الكحول و اصطدامها بعمود، ليلة 4- 1938/4/5، و كان هذا الادعاء محل شك العراقيين لقناعتهم إن موت غازي جاء لصالح نوري و الانكليز ... و ذكر ناجي شوكت وزير الداخلية في وزارة نوري " بأن موت الملك غازي جاء نتيجة لعبة قذرة كان وراءها نوري السعيد". »

"العراق المعاصر"، د. عبد الوهاب حميد رشيد، دار المدى للثقافة و النشر، دمشق 2002، ص- 94 « و يقول محمود صبحي الدفترى الذي كان وزير العدلية آنذاك: " انه لا يعتقد بحدوث جريمة أدت إلى وفاة الملك الشاب. فقد خرج من قصره سكران و ساق سيارته في منحدر بسرعة جنونية فارتطمت بعمود الكهرباء و قضى نحبه من فور. »

" أعلام السياسة في العراق الحديث"، مير بصري، رياض الريس للكتب و النشر - لندن، 1987، ص-

25

أما الدكتور عصمت السعيد، فوصفت تفاصيل الحادث، حيث كان الملك غازي يقضي سهرته بالحارثية و كانت الملكة عالية و ابنها فيصل يشاهدان فلما في قاعة عرض القصر:

« ... و بعد دقائق معدودة دوى صوت المحرك من جديد و انطلقت السيارة الملكية بعنف إلى الطريق العام المرتفع فبهرته بقوة و انحرفت لتتجه إلى طريق الحارثية ... لم يمر على صعودها إلا بضع ثوان و إذا بالسيارة ترتطم عند وصولها إلى حافة الطريق بعمود النور فتخلعه بعنف و تتحدر بركابها من أعلى الطريق لتستقر بعد ذلك في أسفل الحقل المقابل لقصر الزهور ... قطعت الصدمة الأسلاك الكهربائية المرتبطة بالعمود المخلوع فانطفأت أنوار الحارثية، كما توقفت آلة عرض الأفلام في القصر. و أظلم قسم من أضواء الحديقة. و على أثر ذلك عم الهرج بين الحاضرين فخرج الحراس و الخدم للاطلاع و وجدوا السيارة المحطمة في أسفل الحقل و تبين إن العمود الثقيل عند سقوطه وقع على السيارة، فكسر ذراع عبد الله الجالس في المقعد الخلفي، و هو خادم أسود أمين كان يرافق الملك دوماً في جولاته. كما أصاب مؤخرة العمود رأس الملك غازي ... فكانت الضربة قاضية. »

"نوري السعيد"، عصمت السعيد، الناشر: مبرة عصام السعيد - لندن 1999، ص - 43

171 - « كتب السفير البريطاني م. بيترسون عن عبد الإله قبل ثلاثة أشهر من توليه الوصاية: إنني أشك أن يكون لديه أية قدرة على الإطلاق، حتى لو أوجد أي مشاغل أكثر جدية من سباق الخيل و المطاردة غير المشروعة للغزلان بالسيارات، و ليست أخلاقه الشخصية فوق الشكوك و خصوصاً فيما يتعلق برفقته لجاكي "فارس" من الدليم. بينما يحتفظ بزوجه المصرية الجذابة مسجونة خلف الجدران كأية محظية من الحريم. »

" العراق المعاصر"، عبد الوهاب حميد رشيد، دار المدى للثقافة و النشر، دمشق 2002، ص- 95

أمواج الناس النائحين على فقدان ملكهم الذي ارتبطت آمالهم به، بحشد آخر، حاملين اللافتات السوداء التي كتب عليها باللون الأبيض، معلنة وفاة الملك "غازي". و امتزجت الهتافات بصراخ النساء و ولوتهن، و الخبط على صدورهن بإيقاع رتيب رهيب.

أعلن الحداد في اليوم التالي على وفاة الملك، و لبس الناس اللون الأسود، و شعرت الجماهير انها خسرت بموته ملكاً يمثل ما كانوا يصبون إليه من آمال في استقلال العراق من ربة الاستعمار البريطاني. خيم اللون الأسود على المدينة، و لم ينج من الحداد حتى أطفال الروضة، و انتسحت المدارس و الدوائر الرسمية بالأعلام السود تترفرف على أبوابها، و جدرانها، و تحولت ملابس الناس حتى في المدارس إلى اللون الأسود، و انقلبت ساحاتها إلى سرب من الغربان المهاجرة، و علت مآذن الجوامع بالنواح على الملك المفدى!

كان محمد شرارة متألماً على رحيل الملك غازي، و لم يكن مقتنعاً من ان موته حادث اصطدام بعمود كهرباء، كما أعلن رسمياً، و إنما رتب من قبل الحكومة التي كان يرأسها نوري السعيد بالاتفاق مع الانكليز للتخلص منه. و سرت نظرية المؤامرة في التخلص من الملك غازي بين الشعب العراقي و انتشرت بين الناس كما تنتشر النار في الهشيم. فنظرية المؤامرة راسخة في عقول الناس، و خاصة عندما تفنر الحكومة إلى ثقة الشعب، و شملت حتى محمد شرارة!! و أقيمت بهذه المناسبة في الناصرية حفلات تأبين، و كتب إلى جعفر الخليلي: "الحفلات هنا ممتازة و كان للخطب التي ألقاها الأستاذ مروة و كاتب هذه الأسطر، استحسان بعيد و قد نالت إعجاب الجميع." كما طلب من جعفر الخليلي، الموافقة على إصدار عدد خاص بمناسبة مرور أربعين يوماً على وفاة الملك غازي.¹⁷²

172 - رسالة من محمد شرارة إلى جعفر الخليلي بتاريخ 1939/4/8

« عذمت إدارة المدرسة مع هيئة التدريس، أن تصدر عدداً خاصاً من "الهاتف" على حسابها، الخاص بعد أربعين المغفور له صاحب الجلالة الملك غازي، يضم زبده ما قيل فيه من شعر و نثر في العراق و سوريا و مصر و المظنون انه سيحوي 150 صورة، و الخلاصة إن هذا العدد سيكون تحفة نادرة في بابه، و سيبلغ ما يزيد على 150 صحيفة، أما ورقه فسيكون من النوع الممتاز.. و اخترنا "الهاتف" لهذه الغاية لأن في ذلك دعاية لها و ليس فيه خسارة عليها و كل ما يمكن أن نتكلفه في هذه الناحية هو أن يعيننا بإعارة أسمها فقط. و هذا العدد سيكون ككتاب خاص لا علاقة له بسلسلة أعداد "الهاتف"!!»

لقد توقف محمد شرارة عن نظم الشعر لمدة ستة أعوام، و هل كان السبب في ذلك هو الزواج و الاستقرار، و الانهماك بالأمر العائلية؟ أم انه نظم قصائد في تلك الفترة، و ضاعت مع ما ضاع و احترق من أعماله خلال حياة التنقل الطويلة، و مداهمة الأمن و الشرطة لداره و مكتبته. إذ كانت آخر قصيدة نظمها في عام 1932، بعنوان "تحية" التي تليت في ساحة الاحتفال النجفي، احتفاء بالشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء، بعد رجوعه من المؤتمر الإسلامي المنعقد في فلسطين، فيخاطبه و يسأله عن مصير فلسطين بعد وعد بلفور¹⁷³، و بداية قلقه مما ستعرض إليه فلسطين و أهلها:

ماذا رأيت و ما سمعت بموطن الميعاد هل عادت إليه حياته

حدّث عن الوطن المقدس إنه وطن النبوة و الهدى عرصاته

ماذا جنت أوعاد بلفور و هل كانت سوى خزي له دعواته

في ذمة الدهر الخؤون و أهله عصر تطالب بالحقوق طغاته¹⁷⁴

و لم تكن هنالك رؤية من ان لليهود حقاً في و طن لهم، بل كانت رؤية محمد شرارة حول ما يحاك خلف الكواليس، بتأثير من الحركة الصهيونية التي أخذت تتسج خيوطها، و التي حصلت على وعد بلفور، الذي وعدهم بأرض الميعاد! و بالطبع فان "بلفور" في رأيه، قطب من أقطاب الاستعمار البريطاني، الذي طالب بحقوق اليهود، و كيف بالطغاة يطالبون بحقوق الآخرين!! عندما تثن الشعوب المستعمرة من قبلهم تحت سياطهم؟. لم يهضم محمد شرارة هذا النوع من التناقض

¹⁷³ - كتاب وزارة الخارجية البريطانية بتاريخ 1917/11/2:

« عزيزي اللورد روتشيلد

يسرني جداً أن أبلغكم بالنيابة عن حكومة جلالتهم، التصريح التالي، الذي ينطوي على العطف على أماني اليهود و الصهيونية، و قد عرض على الوزارة و أقرته:

إن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، و ستبذل غاية جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية، على أن يفهم جلياً أنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن ينفق من الحقوق المدنية و الدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن في فلسطين، و لا الحقوق أو الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى» و سأكون ممتناً إذا ما أحطتم الاتحاد الصهيوني علماً بهذا التصريح.

المخلص: آرثر بلفور».

¹⁷⁴ - "تحية"، محمد شرارة، مجلة العرفان، أيار 1932، كانت هذه القصيدة أول قصيدة عن فلسطين، تلتها قصائد و مقالات عديدة، لأن القضية الفلسطينية أفضت مضجعه، طيلة حياته. (ب.ش)

الكامن في المطالبة في أرض محتلة، يزرع شعبها تحت نير الاستعمار البريطاني، وهذا المستعمر نفسه يطالب في وطن إلى اليهود!!
 لكنه عاد إلى نظم الشعر في عام 1938، وكانت أول قصيدة نظمها في الشاعرة "مي زيادة"¹⁷⁵ حيث كان من المعجبين بقوة شخصيتها و بشعرها، و اعتبرها فريدة بين نساء عصرها. فعندما كانت المرأة العربية، قابعة في الدار، لا ترى من الحياة إلا تربية أطفالها، و خدمة زوجها، كانت "مي زيادة" أول امرأة عربية تدير ندوة أسبوعية في كل يوم ثلاثاء، فيجتمع الكتاب و المفكرون و الشعراء في دارها في القاهرة، و هو شبيه بالصالونات الأدبية التي أقيمت من قِبَل بعض النساء الفرنسيات الشهيرات، في القرنين الثامن و التاسع عشر. و لكن ألقوا بها عنوة في مستشفى العصفورية بدعوى أنها مصابة بلوثة عقلية، غير أن الصحافة سعت بجهد إلى عرض قضيتها أمام الرأي العام، حتى تكلت مساعيهم بالنجاح و استعادت الشاعرة حريتها.

نظم فيها قصيدة بعنوان "شاعرة الخمائل"، لأنه تألم من المعاملة التي حظيت بها، و كانت القصيدة قبل و فاتها بثلاثة أعوام، و هذه بعض أبياتها:

| | |
|--------------------------|---------------------------------------|
| لو أملك الأرض لحولتها | إلى رياض غضة زاهرة |
| لو أملك الكون لحولته | - بما حوى - أنشودة طاهرة |
| حتى تتالي منه أحلى المنى | و تشدينا النغمة الساحرة |
| لكنما روعي... و قيثارتي | ضاعت و ظلت نغمتي حائرة ¹⁷⁶ |

كانت النظرة المهيمنة على كتاباته هي النظرة الرومانسية، التي لم تتغير في مخيلته عن المرأة، فقد تأثر في الأدب الرومانسي الفرنسي و الانكليزي، و لم يكن في تلك الفترة، مطالعا على الكتب التي تبحث في علم الأنثروبولوجية/علم الإنسان، و علم الاجتماع، و عن النقلة الكبرى التي حدثت في حياة الإنسان، عندما انتقل من مرحلة الصيد إلى مرحلة الزراعة، حيث كانت المرأة في مجتمع الصيد مستقلة عن الرجل، فهي التي تقوم بإدارة هموم العائلة و تنظيماتها. و كانت المرأة مسؤولة عن العائلة، و تجهيز الطعام و تربية الأطفال و إدارة المنزل. أما الرجل فكان يقضي و قته في الصيد.

176 - "شاعرة الخمائل" مجلة العرفان، كانون الثاني 1938

« و لكن جاء الزواج مع الثورة الزراعية. و أصبح من المهم معرفة الأب. و لم تعد المرأة مشاعة، تختار الرجل القوي الذي يعزز النسل. و لم يحدث تغيير رئيس في وضع المرأة، حتى اختراع المحراث، حيث أصبحت الحيوانات تسحبه، و سيطر بذلك الرجل سيطرة تامة على الزراعة و تربية الحيوانات، و هُمش دور المرأة. إن عصر الزراعة هو العصر الذي استعبدت به المرأة، و أصبح الرجل هو المهمين في إدارة شؤون الحياة، و اعتزلت دورها الذي كانت تتمتع به في عصر الصيد، و سنت الشرائع لتنظيم المجتمع، و حدد وضعها في المجتمع من قبل الرجل. و أصبحت المرأة إنسانة مظلومة، من خلال المعتقدات و الآراء عبر التاريخ، و حيكّت الأساطير و القصص المختلفة حولها و ضدها.»¹⁷⁷

ظل محمد شرارة نصير المرأة دائماً، و كتب مقالاً بعنوان "رسالة المرأة"، دافع فيه عنها، و عن الأساطير التي حيكّت ضدها:

« و لا تقف دماؤها لحظة واحدة عن السيلان، فواحد يراه أداة من أدوات إبليس، و واحد يراه سلاحاً من أسلحة الشيطان، و واحد يسمع في صوته فحيح الأفاعي، و واحد يرى دموعها دموع التماسيح!... إن بعض الجامعات الدينية في بعض القرون تعقد اجتماعاً للبحث ترى فيما إذا كان لهذا الكائن المدعو "بالمرأة" روح أم لا.. و بهذه النظرات السخيفة كانت تقذف عقول الأفراد و الجماعات، و ظلت المرأة تتنقرون و قرونا تحت و طأة هذه المعتقدات المظلمة.»

و لم ينصفها في رأيه إلا الشعراء و الفنانون و الرسامون، عندما تغيرت المفاهيم تغيراً رئيساً، و أصبح للفرد قيمة و شملت بذلك المرأة. و كتب:

« و إذا قال الفرد دي مؤسي Alfred De Musset "المرأة أجمل طائر على وجه الأرض" أو قال هركرف Hargrave "النجوم نشيد السماء، و المرأة نشيد العالم" ... فلا يعني ذلك سوى هذه النشوة الخالدة و الشعاع الخاطف الذي يسكبه هذا "المخلوق" في أقداح الروح و ينشره هذا "الكائن" في سماء النفس. ... إن أول من غير مجرى التاريخ في النظر إلى المرأة و حولها من مخلوق تافه و ضيع إلى

¹⁷⁷ – A History of Cooks & Cooking, Michael Symons, Prospect Books, printed in Great Britain at the Cromwell press.p. 222 , 2001

مخلوق سام رفيع و قلب المعتقدات الرعناء بحقها إلى صفحات مشرقة منيرة هو الشاعر و الفنان على العموم.¹⁷⁸

و بكلمة أخرى هو عصر النهضة و عصر التنوير، و ما تلاه من تطور في حقول المعرفة، الذي أدى بدوره إلى مطالبة المرأة بحقوقها.

* * *

و بدأ العام بهذه القصيدة، و كان عاماً زاخراً بالنظم، و كأن ربة الشعر عادت و ألهمته الشعر ثانية، فنظم قصيدة بعنوان "روح معذبة" من أرق ما كتب في تلك الفترة:

ذاب الرحيق العذب في شفّتيك و الوردة الحمراء في خديك
ظمئ الجمال و مذكرأك تحركت شفّتهاه و ارتمتا على نهديك
حتى إذا مصّ السلافة و انتشى منها هوى لثما على قدميك
و يختمها:

لو كان دهرك في يدي لحمته و وضعت كالعبد تحت يديك¹⁷⁹
أما قصيدة "الذكرى"، فينكم فيها على ذكرى الحبيبة التي لن ينساها، و ستظل تحوم حوله، فيتساءل:

ما أنت في الدنيا؟! أنت بشاشة القلب الطروب؟!!

أم ومضة تخفي سناها ظلمة الروح الكئيب؟!!

أم أنت عاصفة تهز القلب هزا بالهبوب؟!¹⁸⁰

و يختم القصيدة، متوسلاً بها ألا تغيب: "فخذي فضاء القلب مأواك الرحيب و لا تغيبين". ظل الجرح عميقاً، رغم السنوات التي مرّت عليه و على الحبيبة، حيث يتوسل بالذكرى أن ترافقه، و لا تتركه بل تسكن في فضاء قلبه.

أما قصيدة "يا قلب"، فقد كتبت مجلة الحضارة هذه المقدمة لها:

(نقرأ في هذه القصيدة "قصيدة قلب" زاهر بعناصر الحياة، طافح بالأحاسيس القوية، و تنتشق في أبياتها نفحة ندية من نفحات الحب العنيف الصادق، نرفها إلى قراء

178 - في الأدب و الاجتماع "رسالة المرأة"، محمد شرارة، جريدة الهاتف، العدد 175، 14/7/1939

179 - "روح معذبة"، محمد شرارة، مجلة العرفان، آذار، 1938

180 - "الذكرى"، محمد شرارة، مجلة العرفان، تموز 1938

"الحضارة" عروساً من عرائس الشعر الوجداني الصافي المعطر... و قد اقتطفت
بعض أبياتها:

صورُ الحياة تنمُّ عن نياتها
مجنونةً رعاءً في خطواتها
في الأفق وحدك تنقي غاراتها
سخرت من الدنيا و من ظلماتها
مستهزئاً فيها، و في صرخاتها

اسما و ما مرّ الهدى بحياتها
مُغرٍ و أخفت خلفه شهواتها
ثم انتشى و رماك في عرصاتها

أوضاعها و نفرت من عاداتها
جو الصراحة فاضحاً نياتها

ذنيك عابسةً و في لحظاتها
ومشت على ضوء النجوم غمامةً
طار الرفاق و خلفوك أمامها
فخلقت من دمك المذوب شمعة
و وقفت في دنيا العواصف ضاحكاً
ثم يستمر فيقول:

و عصابة عمياء تعتق الهدى
نسجت من الأديان ثوباً ناعماً
و تحرك القدر اللئيم عشية
ثم يقول:

فجزعت من أخلاقها و ارتعت من
و حملت في يدك اليراع و طرت في

بعد هذه الثورة العارمة، التي هي إشارة إلى معاناته في المدرسة الدينية في النجف،
التي لم يبق شيئاً ينهي بها القصيدة إلا هذا البيت:

مما تضيم به الكرام فهاتها"181

"إن كان عندك يا زمان بقية

* * *

لكنه عاد و تذكر بغداد و أماسيها العذبة، فقد كان لمحمد شرارة مدينتان عزيزتان
عليه، هما دمشق و بغداد، و ينهي العام في قصيدة "أماسي بغداد":

و لهي الروي، شجيرة الأبيات
روحاً محطمة من الصبوات

بغداد! في الشفق الكئيب قصيدة
إني لألمح في شحوب سمائها

* * *

قلبي سوى الزفرات و الآهات
سجناً صغيراً حالك الجنبات

بغداد ما حملت لك الأيام من
ضاققت به الآفاق حتى أصبحت

181 - "يا قلب" مجلة الحضارة، آب 1938

ثم يقول:

رحماك هل أجد السلو و هل أرى في أفك الضاحي شعاع حياتي؟!¹⁸²
و ظل الحنين واضحاً في كتاباته عن بغداد، حتى في رسائله التي بعثها بعد أربعة عقود تقريباً، إلى أحد أصدقائه عندما فارق بغداد و سافر إلى لبنان، فالحنين إلى بغداد لم يفارقه رغم جميع الظروف الصعبة التي مرّ بها في بغداد، فكتب:
« و أنا الوفي دائماً... و قد عرفتني بغداد في جميع المحن صائناً لها، عاكفاً على هواها، حافظاً لجميع مواقفها التاريخية الرائعة في قلبي و في أوراقي، و في قصائدي التي أخطها على الورق.»

* * *

182 - "أماسي بغداد"، محمد شرارة، مجلة العرفان، كانون الأول 1938

إعلان الحرب العالمية الثانية

كانت الحرب العالمية الثانية قد اندلعت عندما نقل محمد شرارة في بداية العام الدراسي إلى مدينة كربلاء، ورافق العائلة من لبنان هذه المرة شقيقه مرتضى، الذي جاء لإكمال دراسته في العراق. إذ كانت تكاليف الدراسة في لبنان باهظة، خاصة دراسة التعليم العالي.

كانت الدار في مدينة كربلاء تطل على شارع رئيس يؤدي إلى مرقد الحسين و العباس. شارع يفور بالحياة و الحركة المتصلة، من الباعة الجوالين الذين ينادون على بضائعهم، حيث تتجمع النسوة حولهم، و ترتفع الأصوات بين النسوة و الباعة في جدل متواصل حول تخفيض أسعار تلك السلع، بينما يلعب الأطفال لعبتيّ "الختّية و التوكي"¹⁸³، و يعلو الغبار الذي يتناثر عندما تمر سيارة تقطعه بسرعة، فيتوقفون عن اللعب لحظات ليعودوا ثانية إلى مواصلته، و كأن الشارع ملك خاص بهم، لا يتوقفون عن اللعب إلا بمرور سيارة أخرى.

كانت زوجته مرتاحة، إذ جاورت ضريحيّ الحسين و العباس، و تغيرت بالنسبة لها رتابة الحياة التي كانت تحيياها في مدينة الناصرية التي كانت مقصورة على زيارة الجيران، و نساء بعض أصدقاء و معارف زوجها، فأصبح باستطاعتها زيارة المرقدين يوم الخميس بصحبة النسوة من الجيران، سيراً على الأقدام.

* * *

و بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية، تصاعد النقد ضد حكومة نوري السعيد، فاستقال من منصبه، و طلب من رشيد عالي الكيلاني تأليف الحكومة، و تشكيل

183- "الختّية": لعبة شائعة في العراق بين الأطفال، و هو اختباء أحد الأطفال في إحدى زوايا الدار، و على اللاعبين الآخرين أن يجده. و الشطارة في هذه اللعبة أن ينفقي المختبئ محلاً يصعب على الأطفال الآخرين إيجاداه. و إن وجد، ينتقل حق الاختباء إلى لاعب آخر. (ب.ش.)
 "التوكي": يقدم الأطفال اللاعبون على تخطيط نمط هندسي بالتباشير أو الحجر، على شكل مستطيل، يقسم إلى مربعات في داخله. فيقدم اللاعب مع قطعة من الخشب أو الحجر، فيدفعها و يوجهها من مربع إلى المربع لاحق، و هو متحرك على قدم واحدة، حتى يخرجها من النمط الهندسي. (ب.ش.)

حلف وطني ضم إليه نوري السعيد كوزير للخارجية، و ذلك لكبح قوة العسكريين. لكن الانتصارات الألمانية، فضلاً عن دخول إيطاليا في الحرب و سقوط فرنسا، أدت إلى الانقسام في الآراء داخل الحكومة، فالوصي و نوري السعيد تبني سياسة شديدة التأييد لبريطانيا، و الوزراء الآخرون مع مفتي فلسطين اعتقدوا أن قوى المحور ستحرز النصر. و كان رشيد عالي الكيلاني يحاول أن يوازن بين الكتلتين، لذا دعا إلى سياسية عدم الانحياز. و قد واجه الكيلاني عدة أزمات فقد طلب منه قطع العلاقات مع إيطاليا، و لكن الحكومة رفضت ذلك. كما نشأ نزاع حول مطالب بريطانيا في نقل قوات عبر العراق، و قد وافقت على ذلك الحكومة بعد نقاش طويل. و قد أصبح معروفاً أن البريطانيين راحوا يعلنون أن على رشيد عالي التخلي عن رئاسة الوزارة، و وجد رشيد عالي أن بقاءه في منصبه أصبح مسألة مبدأ. كما تسبب هذا الموقف في نقمة شديدة في العراق إزاء التدخل البريطاني السافر في شؤون العراق.

صدرت التعليمات في تلك الفترة، من قبل وزارة المعارف إلى جميع مدارس العراق، بارتداء ملابس الفتوة، تقليداً إلى الفتوة التي هيمنت على ألمانيا النازية. و شملت جميع المدارس في العراق بما في ذلك المدارس الابتدائية.¹⁸⁴ فأصبح اللون الخاكي هو اللون الغالب في العراق بعد اللون الأسود! و أصبح من الصعب التفريق بين العسكريين و المدنيين، فقد اتخذ رشيد عالي الكيلاني عسكرة المجتمع العراقي بصغاره و كباره. و لم تتج حتى شاربا هتلر من التقليد، فكانت شوارب

¹⁸⁴ - « و قد شجعت الفاشية في خلق مثل هذه الحركة في البلاد العربية، غير أنها وجدت في العراق أخصب مرتع لها، و على هذا الأساس ألفت فرق الفتوة. ... التي أدعى الدكتور (سامي شوكت) أنه اكتشفها منذ سنة 1931 و قد أعجب الدكتور بالفاشية منذ ظهورها، سواء في إيطاليا أو في ألمانيا، و أخذ يكتب المقالات الطوال في الصحف المحلية بأسماء مستعارة، مجدداً فيها الفاشية و حكمها الدكتاتوري و توجيهها للشباب ... أما تدريب الفتوة فهو لا يقتصر على التدريب العسكري فحسب، بل يرمي أيضاً إلى القضاء على حرية التفكير لدى الشباب، و جعلها أدوات صماء في الزعيم الأوحده، لكي يسخرهم كيفما يشاء من دون أن يكون لهم رأي في الغاية التي يحاربون من أجلها. و على هذا الأساس أنغيت "الكشافة" و حل محلها نظام الفتوة.»

'بعث الفاشية في العراق، الفاشية و تربية النشء"، صوت الأهالي 1946/1/18، "الأهالي" افتتاحيات جريدة الأهالي 1944 - 1954، منشورات الجمل 2003، ص 184 - 186

- و لم يتصدى لانتشار الفاشية في العراق بصيغة جدية و منطقية غير جريدة "الأهالي"، عندما كتب كامل الجادري، رئيس الحزب الوطني الديمقراطي، سلسلة من المقالات، كان أولها "مولي العراق" صدر بتاريخ 1946/1/15، و لحقتها سبعة مقالات، آخرها بتاريخ 1946/1/23 (ب.ش)

الرجال صغيرة مقصودة من الجانبين تحت الأنف، تيمناً بشاربي هتلر، و شمل ذلك حتى محمد شرارة، الذي لم يغير قصة شاربه طيلة حياته، بل ظل محافظاً عليها.

وأصبح يرتدي الطاقم الخاكي أيضاً، بأزراره الذهبية، يلتف حول خصره نطاق جلدي بني اللون، يطوقه و يضيف أناقة و هيبة على جسمه الرشيق. شملت الفتوة حتى أطفال المدارس، و أصبح الزي الموحد في جميع مدارس العراق.

* * *

كان العراق يشكو في تلك الفترة من نقص في المدرسات، و خاصة مدرسات المدارس الثانوية للبنات، كانت المدرسات اللبنايات يملأن تلك الثغرة. كان من بين أولئك المدرسات إحدى قريبات زوجته، فقررت زيارتها في نهاية العام الدراسي بصحبة مجموعة من المدرسات اللبنايات. فرحت زوجته "أم إبراهيم" لتلك الزيارة، و أحدثت انقلاباً في الدار خاصة و الحي عامة. فتغير نمط الحياة الاعتيادية، و أصبحت الحركة دائمة في الدار، و انهمكت في الإشراف على تنظيمه. الحمالون ينقلون التخوت و الفرش و الوسائد و الأغطية الكلل/الناموسيات، إلى السطح. و ملئت التتاك/المشربيات بالماء، و أضيفت الإضاءة الكهربائية إلى جميع مرافق الدار، من الطارمات/ الشرفات إلى السطوح. و جعل السطح الرئيس خاصاً بهن. و نقلت فرش العائلة إلى السطح الآخر العالي الذي كان خاصاً بشقيقه مرتضى. و كتب محمد شرارة عن تلك الزيارة:

« بدت الدار في زينتها و وشيها، و خلعت عليها الأشعة الملونة أنواعاً من الزخرف و البهجة ... و قد استأثرت هذه الليلة من بين الليالي بهذه الزينة، و هذا الزخرف، لأن الدار كانت تنتظر ضيوفاً أعزاء ...»

وصلت المدرسات من بغداد لزيارة العائلة في مدينة كربلاء المحافطة، الغارقة بتقاليدها القديمة بقدم الإسلام، مرتديات آخر تقليعات الموضة الباريسية، الغربية عن أهالي كربلاء و البعيدة عنهن بعد السماء عن الأرض. مرتديات الملابس القصيرة، التي كشفت عن سيقانهن المتناسقة الجمال، و قبعات كبيرة من القش و القماش الملون تحلي رؤوسهن. طغى الجمال على بعضهن، برشاقة أجسامهن، و بياض بشرتهن الحليبية اللون، و زرقة عيونهن الواسعة، الصافية بصفاء زرقة البحر في يوم صيفي هادئ، و شعرهن الطويل المتدلي على أكتافهن من تحت

القبعات. كن جميعهن خريجات الجامعة الأمريكية في بيروت، كما كن خليطاً من الطوائف الدينية التي تمثل لبنان، من دروز و مسلمين و مسيحيين.

و عندما و صلن: « أقبلت الدار عليهن ببشاشة حلوة، و ابتسامة رقيقة و أقبل الناس على الدار يسلمون على زوارها» و تبرعت بعض النسوة في الحي بعباءتهن الجيدة التي يحتفظن بها للمناسبات. و لكن قبل أن ترافقهن زوجته "أم إبراهيم" إلى مرقد الحسين و العباس، ألفت عليهن درساً في كيفية لبس العباءة، بعد أن انتهين من تناول طعام العشاء.

جلسنا نحن الأطفال في باحة الدار المضاءة بالمصاييح بصحبة الوالد و شقيقه مرتضى، نشاهد الفصل الأول من المسرحية عندما ارتدت الوالدة العباءة أمامهن على رأسها، و سارت في وسط الحوش/ ساحة الدار، ذهاباً و إياباً، ترشدهن إلى كيفية مسكها كي لا تسقط عن الرأس، و هن يحدقن في كل حركة من حركاتها. بدأ عرض الفصل الثاني عندما لبست كل منهن العباءة و غطيت الوجوه بـ "البوشي"¹⁸⁵ في ساحة الدار التي انقلبت إلى سرب من الغربان، يتميزحن بمرح بين الذهاب و الإياب في الحوش، حتى عثرت إحداهن و سقطت مع العباءة على الأرض، فتعالت الضحكات و القهقهات و النكات، و كأنهن يتمرن على المشي كما يتمرن الطفل في سنته الأولى، متجنباً السقوط على الأرض. و أعيد المشهد ثانية، فخيمت أجواء البهجة و العبث عندما عثرت ثانية بذيل العباءة، و رفستها بقدمها، فانزلقت العباءة الثقيلة من الحرير عن رأسها على الأرض، و تعالت الضحكات و القهقهات ثانية. و لم تجد الوالدة مخرجاً لدل المشكلة إلا الدبابيس التي جلبتها من خزانتها و ثبتت عباة كل و احدة منهن بها. و بعد أن تأكدت من صحة الأداء، كما يتأكد مخرج المسرحية من ممثليه، توجهت بصحبتهن إلى مرقد الحسين و العباس و الحسين من دون إحداث فضيحة لها! و انطوت الليلة، و انطوت معها ليالٍ آخر، و سافرن إلى لبنان. و لكن ظلت زيارة المعلمات اللبنايات حديث الحي لمدة طويلة من الزمن، يمتدحن جمالهن و يتعنين بأناقتهن، فقد أحدثت تلك الزيارة انقلاباً بين نسوة الحي في كربلاء، و شاهدن أول مرة نساء لا يتلفعن بالعباءة السوداء التي تلتهم أجسادهن.

185 - البوشي : مصطلح عراقي، و هو غطاء للوجه، من القماش الخفيف الشفاف، أسود اللون.

لقد تقبلت نسوة المجتمع التقليدي هذه الزيارة لأنها تمثل حالة طارئة لا تمس تنظيم المجتمع. لأنها زيارة اتسمت بالغرابة و الافتتان بملابس الزائرات و سلوكهن، فهي لا تؤلف خطراً على تقاليد نسوة المجتمع التقليدي. لقد حصل الوعي بهذا الخطر فقط عندما أخذت المرأة العراقية في المدن تطالب بحقوقها و تتحرر و تترك العبادة في الخمسينيات و الستينيات من القرن الماضي.

* * *

لم يتلأأ محمد شرارة في الكتابة عن المشاكل الاجتماعية العميقة التي تكمن في أعماق المجتمع العراقي التقليدي، و التي ما زال يعاني منها. فتطرق إلى موضوع الزواج و نتائجها الوخيمة على الفتاة إن كانت غير عذراء، و وصف العروس و العريس و أجواء الفرح التي طغت عليهما، في مقال بعنوان: " و هذا زواج! «الطبول ما تزال تدق دقاتها الصارخة، و الدفوف لا تزال مستعبدة للأصابع النفارة، و الموسيقى لا تزال تتعالى في الفضاء بأنغام متشابهة، و الجماهير لا تزال تقطع الشوارع رائحة غادية في حركات أشبه بحركات القروود تسميها رقصاً!»¹⁸⁶ ثم جاء الاختلاف الذي حدث بين العروسين و أهليهما، و انقلب العرس إلى مأساة. « بهذه السرعة الهائلة تتقلب أغاني المغنين و المغنيات إلى نياح النوائح ... هذه الأيدي التي كانت تهز الدفوف قد حلت محلها الأيدي التي تهز الخناجر، و تلك السواعد التي تشد الأوتار قد انقلبت إلى سواعد تلعب بالسيوف! و تلك الأصوات التي كانت تحمل الزغرودة و الهلهلة تتحول إلى أصوات تحمل العويل، و لا يصبح البيت النشوان وحده مهدداً بالخراب، بل تصبح بيوت و بيوت مهددة بهذا التهديد المرعب! إن الخناجر تلمع و الموت يلمع في حدودها! و إن السيوف تلوح في الهواء و الدم النائر الحانق يلوح في ذباها.»¹⁸⁷

186- اعتبر محمد شرارة، رقص أولئك الشباب الذين يتصدرون سيارة العروسين رقصاً بدائياً، بعيداً عن الذائقة، و لم يستسغه في يوم من الأيام. كما انه لم يستسغ الموسيقى العراقية الشعبية التي اعتبرها بكاء و نواحاً متواصلات، ذات رتابة مملّة. (ب.ش)

187- " و هذا زواج"، محمد شرارة، جريدة الهاتف - النجف 1940/11/22 - و كتبت نازك الملائكة قصيدة بعنوان: "غسلًا للعار" في نهاية عام 1949، ديوان نازك الملائكة، "قرارة الموجة"، المجلد الثاني، دار العودة - بيروت، الطبعة الأولى 1997، ص- 351 « أماء! و حشرجة و دموع و سواد، و انبجس الدم و اختلج الجسم المطعون

و قد قتلت تلك الفتاة لا لشيء و إنما لظن العريس بعدم عفتها، حيث تنبى على عفة المرأة هوية القبيلة و العائلة، و لكي تصبح العائلة شريفة مرة أخرى في العرف المحلي. لقد كان و ما زال الثأر من رموز العفة في هذا المجتمع، المعتمد على التقاليد القبلية الذكورية المتخلفة، و لم يستطع التخلص منها، إذ ما زالت أعراف العشائر الذكورية مهيمنة على الحياة الاجتماعية فيه، و ما زالت المرأة تبايع و تشتري!

كما كان يتأثر أحياناً بما يقرؤه أو يترجمه، فيكتب مقالاً عن فحوى ما ترجمه أو قرأه، و كانت نظرته دائماً إلى المزيد من المعرفة و الغور في خفايا الحياة من خلال المثابرة على التتبع، و اعتبر أن وضع أي نوع من القيود على الفكر، يكبل الإنسان و يبعده عن الحقيقة. كانت معلوماته موسوعية في الأدب العربي، و وجد ان الأدب العربي القديم لا يشبع ما يتطلع إليه، و لا يسد عطشه إلى المعرفة، و ساعده معرفة اللغة الانكليزية على الاطلاع على الأدب العالمي. فوجد ظلالاً و ألواناً مختلفة في الآداب العالمية، فيؤخذ بسمو الخيال و عمق معاني الموضوع و جمال أسلوبه. كما كان يختلف مع بعض أقرانه من الأدباء الذين كانوا يؤمنون بأن الأدب العربي القديم اكتشف و توصل إلى كل شيء، فرد عليهم في مقال بعنوان: "الأدب و الحياة":

« الحياة لم يبق فيها شيء غامض لم يكتشفه الأدب القديم، و كل ما يقوله الأدباء و الأدبيات في هذه الأيام لا يتعدى التكرار و الضرب على الأوتار القديمة. ... و لهذا الرأي أنصار كثيرون من المدرسة القديمة التي تعتقد بأن الأول استأثر بكل شيء و لم يدع للمتأخر سوى حثالة الكأس! و هذه المدرسة ترجع في مصادرها إلى ستار التقديس الذي ألقته على التاريخ و على رجاله، فكان من الطبيعي أن نترقب منها هذه النظرة ما دامت تعتقد بأن الحياة فرغت من الأسرار، و إن عقول القدماء قد وصلت إلى أعماق ما فيها، و أدق ما يختلج في صدرها ... إن الحياة -

و الشَّعْرُ المَتموجُ عَشَّشَ فِيهِ الطين
"أمّاه" و لم يسمَّعها إلا الجلاد
و غداً سيَجِيءُ الفجرُ و تصبُحُ الأورادُ
و العشرونُ تنادى و الأملُ المفقونُ
فتجيبُ المرجّةُ و الأزهارُ
رحلتُ عنا ... غسلًا للعارُ».

على اختلاف نواحيها - شبيهة بحياة الإنسان تبدأ سهلة بسيطة ثم تأخذ بالتعقيد كلما اندفعت إلى الأمام و تزداد خفاء كلما ازدادت تعقيدا و سوف لا يجوع "الأدب" إذا كانت وراءه العبقريات الثاقبة ما دامت الحياة تسير في خطها الأبدي.¹⁸⁸

كان ضد أي نوع من التوقع و الجمود، يؤمن بالتطور و الابتكار، و ضد أي نوع من التحنيط و التقديس. و ما زالت الحياة في حالة تجدد دائم، فان العلم في حالة اكتشاف مستمر و الأدب في حالة ابتكار و تجديد. لذا كان يناقش و يقارع كل من يؤمن بالجمود أو يعتقد ان القدماء وصلوا إلى أعماق الحقائق.¹⁸⁹

* * *

لم تكن إقامته في مدينة كربلاء مريحة، و لم ينسجم مع أساتذتها أو أهلها، و يتضح ذلك من خلال الرسائل التي بعثها لصديقه جعفر الخليلي، و القصائد التي نظمها. و أحس في فراغ عميق، و هذا مقطع من إحدى قصائده بعنوان: "فراغ!"

ما فيك من قلب، و لا ناي، و لا عود تهز أوتاره هذي الأغاريد
و كل ما فيك صحراء، و أودية تفور في قاعها أرواحك السود
و لم يدع فيك لؤم الناس و ارفة تشدو على دوحها الحاني الأناشيد
و إن دلت هذه القصيدة على شيء فإنها ترفع اللثام عن معاناة نفسية عميقة، و مرارة و ألم من التجربة القاسية التي مرّ بها الشاعر، فاصدم برياء الناس، و لؤم بعضهم، و بانث عليه الخيبة و هو الشخص المستقيم في سلوكه و أخلاقه، الذي يؤكد دائما على العلاقات الصادقة الصافية بين الناس، فلم يجد في هيكل الماضي إلا "هذا ذائب حسداً/ و ذا جبان صغير النفس رعديد".

188 - "الأدب و الحياة" محمد شرارة، جريدة الهاتف، العدد 232، 1940/9/6

189 - حديث مع رفعة الجادرجي بتاريخ 2008/3/2، عن أهمية الابتكار في حياة الإنسان؟

« يتعين على الإنسان أن يبتكر قواعد جديدة، و يتجاوز تلك القائمة، بسبب الملل من التكرار، و من غير هذا الابتكار و التجاوز لتوقفت حضارة الإنسان. سيعني الابتكار اكتشاف قواعد تعبير جديدة لمواضيع جديدة أو قديمة. و هكذا تتطور حضارة الإنسان. و المجتمع الذي يبتكر هو الذي يقود الحضارة بعامتها، و صيغ مقوماتها. و الإنسان الذي يبتكر قاعدة جديدة هو الذي يتجاوز القاعدة القديمة. إن وظيفة القاعدة في الأدب و الفن، هو وضع أداة إمكانية الحوار، و من غير قواعد يرتبك الحوار و يتوقف و نعم الفوضى. مع ذلك يدخل الفرد المبتكر، كإرادة حرة و يبتكر الجديد الذي يؤلف في الوهلة الأولى حالة استثنائية، و بتكراره تتألف القاعدة الجديدة

أما التقديس، في مختلف صيغه و لأي شيء كان، فهو نقل الشيء أو الفكرة من واقع حالتها في العقل و المجتمع إلى موقع في منأى عن المسائلة و النقد، أي خارج قدرات العقل.»

و ينهي القصيدة:

هذي حياتي في الدنيا و من عجب
كما نظم بعد فترة قصيرة قصيدة بعنوان "أين أنت؟! و يتكرر فيها شعوره
بالمرارة، كما في القصيدة السابقة. أحس بالضيق، و أراد الهرب من تلك الأجواء
الخانقة التي أحاطت به في مدينة كربلاء. و تساءل لماذا لا يهدأ الدهر عن
محاربته، فكيفما يسير في هذه الدنيا لا يجد إلا العوسج، و هو القلب الخافق بين
أمواج الغمام حيث "تتناغى فوق أوتاري أناشيد الحمام/ نغمات حلوة فضية
كالابتسام"، و يبدأ كما ينهي القصيدة بهذين البيتين:

طوت الأيام أحلامي و قلبي و شبابي
و طغت في ليلي الهادئ أشباح العذاب
لكنه يريد أن يبتعد عن هذه الدنيا، الغريبة عليه:

فانشري أجنحة السلوى و حومي في فضائي
و اسكني في أفقي الحالك أمواج الضياء
أو خذيني بين نهديك و طيري للسماء
فلقد ضاقت بي الدنيا و ضاقت بغنائي
و تلاشت من حوالي أراهير الروابي¹⁹¹

أما القصيدة الأخيرة التي نظمها عندما كان في كربلاء فهي بعنوان "وردتي؟! و
كانها تكملة للقصيدتين السابقتين، و هذا مقطع منها:

وردتي- و الأرض لم ينبت على
زهرة في صدرها العطر و في
كلما مصت شذاها نحلة
و إذا ما و دعته سكبت
وجهها إلا نبات الحنظل-
ثغرها العذب رحيق العسل
زودت أوراقها بالقبل
في روايبها أغاني البلبل¹⁹²

و يظهر إن المشاكل التي تعرض لها أثناء عمله في مدينة كربلاء انعكست على ما
كتبه من القصائد التي نظمها في تلك الفترة، و التي تتخللها الشكوى من الدهر و

190 - قصيدة "فراع"، جريدة الهاتف - النجف 1940/7/5

191 - قصيدة "أين أنت؟! محمد شرارة، جريدة الهاتف - النجف 1940/11/29

192 - (وردتي؟!، محمد شرارة، جريدة الهاتف - النجف، 1940/12/13

تعسفه، و هو الرجل المرهف الحس، حيث وجد نفسه في هذه الدنيا، كالغريب في صحراء شاسعة خالية إلا من الشوك و العوسج.

لكنه بجانب سأمه مما كان يحيط به من المشاكل الخاصة اليومية التي جابهته في مدينة كربلاء، لم تُعَقِّه عن الاستمرار في الكتابة فيما يتعلق بالمواضيع الاجتماعية و السياسية. و من الغرابة أنه ترك نظم الشعر بعد تلك الفترة، و لم ينشر له إلا قصيدة رثاء بوفاة السيد محسن الأمين، عام 1946، و هي القصيدة الوحيدة التي كتبها في منتصف الأربعينيات، رغم ان ندوة الشعر الأسبوعية بدأ انعقادها في داره في تلك الفترة. فقد جفت ينباع الشعر، و لم يعد إلى نظمه إلا بعد أن حكم عليه بالسجن عام في 1953.

يظهر ان ربة الشعر¹⁹³ لم تتجاوب معه إلا في فترة الأزمات التي كان يمرّ بها، إن كانت تلك الأزمات تتعلق بحبيته التي تركته و تزوجت غيره، أو البعد عن عائلته و وطنه، أو فراق الأحباء الذي فُرض عليه في السجن، أو فقدان فلسطين، فيلجأ عندئذ إلى ربة الشعر، يبث شكواه، فتندفق عواطفه نهراً جامحاً، جارفاً أمامه كل شيء.

و كتب د. مصطفى بزي عنه: « لم يكن الشعر في مسيرته أكثر من صديق يسند قلبه إليه في لحظات النزف الشديد الألم ... من هنا كان محمد في الشعر غنائياً محضاً، فلم يكن يطلب أن يحقق له الشعر، سوى أن يكون قادراً في حالات التوتر القصوى، أن يتسلل إلى صوته الداخلي، يحاوره و يكشفه بنزعة رومانسية خفية، إلى أن يهدأ التوتر.»¹⁹⁴

لذا نجد أن القصائد التي نظمها في "لحظات الانتصار و الفرح الغامر" كانت قليلة جداً. و كتب رسالة إلى صديق عبّر فيها عن العاطفة الجياشة المتدفقة عندما ينظم الشعر:

« في كثير من الأحيان تبدأ العاطفة قطرة تشبه قطرة الطل، ثم تتحول إلى "تيار" متصاعد سريع يصعب اصطياده أو إلقاء القبض عليه، أو حبسه في كلمة عارية.

193 - قدرات الابتكار، كما يقول رفعة الجادرجي.

194 - "محمد شرارة الأديب و الإنسان" د.مصطفى بزي، إصدار: هيئة إماء المنطقة الحدودية، لبنان، 1995 ص-139، أنظر أيضاً حسين مروة "محمد شرارة كاتباً و إنساناً".

لقد أدرك الشعر قبل غيره هذه الدنيا الكبيرة، و أدرك أن الكلمة العادية أصغر من أن تتسع لمثل هذه العوالم فحاول أن يرفعها و يحولها إلى قوة تشبه قوة الذرة التي تبدو في أقصى درجات الخفاء، و لكن لها على صغرها قدرة الزلزلة. و ليس من الضروري أن تكون القوة قوة تدميرية و إنما لأنها في كثير من الأحيان تكون قوة جمالية. و في ضوء هذا الرؤية كانت كلمة الشاعر الفرنسي المشهور جان كوكتو: " الشعر ضروري.. أه لييتي أعرف لماذا.. «.¹⁹⁵

* * *

حاول محمد شرارة في تلك الفترة، أن يترك مهنة التعليم، ليتخلص من الجو الاجتماعي في مدينة كربلاء و ينتقل إلى أي و وظيفة - مهما كانت - عليها تخلصه من الضيق النفسي الذي كان يعاني منه. و قد كتب رسالة إلى جعفر الخليفي في هذا الشأن بحث فيها موضوع نقله من سلك التعليم:

« و الوظيفة الجديدة لا تزيد في معنوياتها عن المدرسة الابتدائية، و لكن فيها تخلص لي من كربلاء، و من التعليم، و من هذه الوحدة المؤلمة التي أعانيها في هذا البلد ... لكن هذه الحياة التي أحيها تهّد صبر الجبارة، و تضيق صدور الأنبياء.»

و - على ما يظهر - أن و زير المعارف لم يكن مقتنعاً في أن يترك محمد شرارة التعليم، فوصفه في الرسالة نفسها:

« و أنا شخصياً أصبحت يائساً من التفاهم معه ... ما دام هذا الوزير على رأس المعارف ... أرى من العبث التحدث معه، و التنازل له في قضية من القضايا، و الرجل - على ما ظهر من سلسلة أعماله - اقرب إلى الإنسان الابتدائي منه إلى الرجل المتقف المفكر الذي يجعل المنطق فوق العاطفة.»¹⁹⁶

و قد كتب محمد شرارة في تلك الفترة، دراسة مستفيضة عن الشاعر "علي الشرقي" عندما كان في كربلاء، و تناول شعره من نواح عديدة. فقد كان الشرقي ثائراً على

195 - استعنت ببعض رسائل محمد شرارة التي استطعت الحصول عليها، لأن معظمها إما احترق في الحروب التي حدثت في لبنان، أو ضاعت أو أهملت و لم يحتفظ بها من قبل أصحابها. و الرسائل التي حصلت عليها تلقي ضوءاً آخر عن المستوى الرفيع في أدب الرسائل. و هذه مسودة رسالة كتبها محمد شرارة في السبعينيات لصديق في لبنان. (ب.ش)

196 - رسالة إلى جعفر الخليفي بتاريخ 1940/11/9

القيم و التقاليد الجامدة التي تعوق التطور و على رجال الدين المترمتمين في النجف، و من أوائل الدعاة إلى النهضة بالبلاد و المعارضين إلى الحكم الفردي، و كان من المتحمسين للثورة على الأوضاع القائمة. لذا فإن أول مقال كتبه كان عن "شخصية الشاعر"، حيث توصل من خلال رباعياته و شعره، إلى معاناة الشاعر النفسية من تلك الأوضاع، و اعتبر شعره:

« صوتاً من أصوات العقيدة و نداء من نداءات الفكر ... أقوى على الدهر من حوادث الدهر، و أشد على الأيام من مصائب الأيام.»

فكتب عن نشأة الشاعر في مدينة النجف، و ما أحاطها من قيود، فقال:

« و يعرف ما يلاقه أحرار الفكر فيها من بعض المتلبسين بثياب رجال الدين و زبانيتهم ... في هذا الجو الذي يسيطر عليه هذا البعض المتغلب و يستحوذ على مقدراته العقلية، و الفكرية ... نشأ الشرقي أيضاً في بيت من هذه البيوت الدينية فهو أشبه شيء - على هذا - بالبلبل المسجون ... بالقوة وحدها هدم السجن الذي بني عليه، و حطم القفص الذي وضع فيه و خرج إلى الفضاء يغرّد و يصيح ... و هناك على جبل مرتفع، و على أشجار باسقة و قف يقول لقومه "في النجف مدارس كعم الأخرس تفتح و تسد لا عن صوت" بعث هذا النداء بصوت عذب قوي يجلجل كالرعد و ما إن تسامع القوم حتى صاحوا صيحاتهم المختلفة. ... و لقد كنت تسمع كل لون في تلك الأصوات أما الزئير و السجع و الألحان فقد كانت من نصيب الشرقي و حده.

| | |
|-------------------------|-------------------------|
| من قصب السكر هذا اليراع | يرشخ للذوق بلحو الطباغ |
| فلا غبار في نسيمي و لا | تعقب خمري للندامى صداغ |
| لو قلت إنني لكم شعلة | بلا دخان ما بقولي خداغ |
| معذرة يا طير أرجو إذا | أضر بالخفّاش هذا الشعاع |

« و هكذا ترى الشاعر يصور و يصور بالرغم من أنه يعيش في محيط يكاد يكون كل جزء منه حجراً يرميه و يرشقه، و لا تسمعه في موقف من المواقف إن اشتكى أو تألم أو تملل.. بل لم تزده هذه الحجارة الطائشة إلا قوة على قوته، و جبروتا على جبروته حتى تولد عنده أمل في تغيير المحيط و تبديل الأوضاع. و لكن أي أمل هذا الأمل؟ لا باس أن تسمعه من فمه يحدثك فيه بنفسه إذ يقول:

أصحيح ما قيل إن القوافي كشموع قد انتلقت بظهر

و هي مثل الدخان يعلو بصيصاً
 كثير الشوك في الطريق و قد زاد
 من سراج قد أوقدوه لقبر
 اشتباكاً و التف جذراً بجذر
 سنياً و بعد أنثر بذري
 ليت لي ألف سكة تحرث الأرض

« في هذه الأبيات و في كثير غيرها من أمثاله تستطيع أن تلقي ضوءاً على شخصية الشاعر و تتعرف مدى الآفاق التي ترتفع إليها و تحلق بها. »¹⁹⁷

و من جملة ما تناول في البحث و الكتابة عن الشرقي هو "الوحي الشعري"، و عرف ما هو الوحي الشعري و ما تعنيه الكلمة:

« و كلمة "الوحي" تبدو في بعض الأحيان من أشد الكلمات غموضاً، و أكثرها تعقيداً و ذلك بالنظر لما يحيط بها من المعاني و لم تستأثر اللغة العربية وحدها بهذا الغموض فإن اللغة الإنكليزية أيضاً شاركتها به إذا وقفت عند حد هذه الكلمة Revelation التي تعني "الوحي" و يختلط معناها هذا في كثير من الأحيان بمعنى "الإلهام" أو "الرؤيا" أو "التجلي" و قد شاعت هذه الكلمة على كثير من الأقلام الأدبية... فإننا لا نستطيع أن نحدد هذه الكلمة تحديداً دقيقاً إلى حد تستأثر بذلك المعنى "الوحيد" بحيث لا يشاركها فيه معنى آخر، و لكن هذا العجز لا يمنعنا في الحالة التي نقيدها معها بالشعر أن نجعلها قريبة - و لو قرابة نسبية - من معنى "التداعي" في الأفكار Association of Idea فإذا وقف الشاعر أمام صورة من الصور همست في نفسه بمعنى من المعاني، و هذا المعنى يجر وراءه ما اختزن في النفس من صور و أخيلة... مما لا شك فيه ان المبدأ الذي تقوم عليه نظرية "الوحي الشعري" يقوم وراء قوة الإحساس Sensation و قوة الملاحظة Observation و إذا امتلأت النفس بهاتين القوتين تولدت فيها المعاني الجديدة، و الصور الجديدة، و هذه المعاني تأخذ بالنمو و التكامل حتى تصل إلى حد لا تستطيع معه ألبث في النفس، فتقفز عندئذ هذه المعاني و الصور الجديدة إلى مرحلة بالابتكار. »¹⁹⁸

ثم كتب مقالاً آخر عن التجديد في رباعيات الشرقي، و عن ثورته على الجمود بكل أنواعه، و المقال بعنوان: "الشرقي في رباعياته - شاعر مجدد"، حيث بدأ الشاعر

¹⁹⁷ - "الشرقي في رباعياته - شخصية الشاعر"، محمد شرارة، جريدة الهاتف - النجف، 1939/4/28
¹⁹⁸ - "الشرقي في رباعياته - الوحي الشعري (1)" محمد شرارة، جريدة الهاتف - النجف، 26 تموز 1940، و المقال الثاني عن الوحي الشعري، نشر في جريدة الهاتف في 1940/8/2

كتابة الشعر في بداية القرن العشرين،¹⁹⁹ و عاصر التخلف الذي كان يعاني منه العراق و الانتقال من الحكم العثماني الغارق في التقاليد البالية، البعيد عن مفاهيم التطور، إلى الاستعمار البريطاني و تأسيس الحكم الوطني، فهزّ بذلك قيم ذلك المجتمع، و كتب:

« كان التطور الاجتماعي بعد الفترة المظلمة شعاعاً يشبه الوميض لا تكاد تراه العين حتى يختفي وراء الغيوم المظلمة التي خلفتها القرون الماضية في الآفاق الروحية و العقلية. أما العيون المتطلعة الثاقبة النفاذة فلم تكن بحاجة إلى أكثر من هذا الوميض ... و لقد كان شاعرنا عيناً صافية من تلك العيون النفاذة التي أدركت ما في الوميض من قوة النور، و كان من المحتم عليه أن يترك القافلة العمياء التي بنت أرواحها عناصر القرون المظلمة و أن يسير في الدرب الجديد ... و كان من الطبيعي - و هو الشاعر - أن يصبح في وجه هذه البهلوانيات هذه الصيحة التي تشبه زئير الأسد الجائع:

أرى الأدب العالي تداعت صروحه
ألا مصلح يسعى لها بالمقالع؟

« و كان من الطبيعي أن تكون هذه الصيحة في وجه الأدب المتداعي صيحة في وجه الحياة نفسها ما دام مرآة الحياة. و كان من الطبيعي أن تقف الحياة الجامدة المتمرمة في وجه هذه الصيحة الجريئة الجائعة إلى الهدم موقف الصامد في حصونه للدفاع عن حياته!

« و كان الشرقي يدرك ان هذه الأسلحة التي يخشى بريقها بعض العيون أقل من أن تصمد له إذا نزل إلى الميدان، و لذلك وقف في وجه خصومه في الآراء الأدبية، و ابتدأت المعركة!

« و هذه المعركة التي يقف شاعرنا في أحد جانبيها لا تختص بمكان أو زمان أو أمة بل هي رواية الحياة الأزلية التي كان من أبطالها سقراط و روسو، و فولتير و لوتر، و أبو العلاء المعري، و أخيراً شوقي و العقاد و الراجعي و طه حسين، و من أشبه هؤلاء و كل و احد منهم له فصل خاص في هذه الرواية ... إنها قوة الحياة نفسها بما فيها من هدم و بناء و لذلك تراه في أكثر الأحيان عنيفاً إلى حد الجبروت

¹⁹⁹ - ولد الشاعر علي الشرقي عام 1890 في مدينة الناصرية، درس في المدارس الدينية في النجف. و أصبح عضو محكمة التمييز في بغداد و عضو مجلس الأعيان، توفي عام 1964. (ب.ش)

يحمل في يد معولاً ثقيلًا، و في يد منجلًا حاداً و ينزل بمعوله و منجله إلى خطوط النار في ميادين الكفاح.²⁰⁰

* * *

أصبح يائساً من التخلص من التعليم و الانتقال إلى وظيفة إدارية ثابتة، نقيه من التنقل الدائم، و لكن لم تطل إقامته في مدينة كربلاء، فقد نقل في نهاية العام الدراسي إلى مدينة أربيل، إذ كان نقله نوعاً من العقاب له، بسبب آرائه الصريحة في الجرائد و المجالات التي لا تتوافق مع نظرة المسؤولين عن التعليم، التي أدت إلى التخلص منه و إبعاده إلى مدينة أربيل في شمال العراق. و اعتبر نقله نوعاً من النفي.

أصبحت العائلة معتادة على التنقل، حيث يقف الباص أمام الدار، و يبدأ الحمالون في وضع العفش على سطحه. و الدار مليئة بجيران الحي يأتون لتوديعها، قبل التوجه إلى الباص، حيث يقف الرجال مع الوالد في مدخل الدار، و النسوة في باحة الدار.

فيوضع عفش الدار و أثاثه فوق سطح الباص، و يثبت بحبال متينة، كي لا ينزلق و يهوي إلى الأرض. تجلس العائلة في المقاعد الأمامية، و توضع الوسائد و الأغطية في المقاعد الخلفية، و أحياناً إن لم يتسع الباص للعفش، فتوضع بين الأطفال! أصبح المشهد الحزين يتكرر دائماً، عندما تنتقل العائلة من مدينة إلى أخرى، فتتقاطر النسوة من الجيران، و تذرف الدموع عندما يتحرك الباص، و ترتفع الأيدي بالتلويح، متممات "رافقتكم السلامة!" و تغيب الوجوه التي عاشروها بضعة أعوام، و التي أصبحت جزءاً مكماً للعائلة، لتلتقي بوجوه جديدة، غريبة عنها!

كانت عملية النقل شاقة متعبة، و الرحلة لا تخلو من متاعب، خاصة و عورة الطرق التي كان معظمها بلا تبليط، تتلوى الطرق أمامهم، و هم جالسون في مقاعدهم تهتز باهتزاز عجلات الباص، فترتفع تارة و تتخفض تارة أخرى، بارتفاع و انخفاض الحفر، و عدد المطبات التي تتخلل تلك الطرق. و إن اجتاز الباص سيارة أو باص آخر، مخلفاً وراءه غيمة من الغبار الكثيف، تغطي أعضاء العائلة، فتقلب إلى

200 - "الشرقي في ربايعاته - شاعر مجدد" محمد شرارة، جريدة الهاتف 1940/8/30 و قد عاد محمد شرارة إلى الكتابة عن الشرقي و كتب مقال بعنوان "الشرقي و الإمامة اللاذعة" في عام 1978، قبل وفاته بعام. (ب.ش)

أشباح ترابية متحركة من البشر، و تتعفر رموش الأعين و الوجوه و الملابس و الأحذية بطبقة كثيفة من الغبار الناعم كمسحوق الطحين. و حالما يصلون المدينة، يبدعون بنفض الملابس و الأحذية المعفرة بالتراب، لتبدأ العائلة ثانية حياة جديدة في مدينة أخرى و حي آخر!!

فحمد شرارة يلاحق الوظيفة دائماً، فهو في ترحال متواصل، كبدي يلاحق الماء و العشب في واحات الصحراء. و لذا أصبح التنقل و السفر جزءاً من طبيعة عائلته، لا يجدون أية غرابة فيه!

* * *

كانت مدينة أربيل تختلف بمناظرها و جوها عن المدن الجنوبية في العراق، فعندما وصلها و شاهد الجبال المغطاة في الثلوج و المناظر الجميلة، ذكرته بصديقه جعفر الخلي، و كتب له رسالة طافحة بالشوق و الحنين :

« ... إلى هذه الساعة حتى فرغ رأسي من "هموم" النقل، و ما جر وراءه من متاعب و قلق روحي و ارتباك فكري ... و في هذه الساعة - و هي ساعة من ساعات الأعياد، طغت ذكراك الحنون العذبة على نفسي حتى ملأت جوانبها، و فاضت على ما حولها كما تفيض الكأس عند امتلائها.

« أجل!! في هذه اللحظة التي انطلقت بها النفس من قيودها، راحت على تلك الجبال التي تنتصب أمام العين بتلوجها البيضاء النقية، كنت تجول معي و ترف بأجنحتك الخافقة الوديدة، إنني لا أشك بأنك تذكرنا كما نذكرك، و تحن إلينا كما نحن إليك، و هذه هي الحياة شوق و حنين و ذكريات!!!».

ثم انتقل إلى الحديث عن نفسه، فقد تخلص من أجواء كربلاء، فقد كان ثائراً على ما مرّ به من الإجحاف في حقه، فكتب:

« و لكن مالي و للناس و آرائهم في بلد أقل ما فيه من المحاسن أنه خلصني من البلد المشنوم الذي حقت عليه كلمة الشاعر الهاشمي.. ليكن (منفي) أو ليكن (سجنا)، و لأكن فيه (غريب الوجه و اليد و اللسان) فان فيه حسنة و احدة تعادل كل شيء ..!!»²⁰¹ فقد خلصته من تلك المدينة، مدينة كربلاء، و ابتعد عن أجوائها التي لم ينسجم معها.

201 - رسالة إلى جعفر الخلي بتاريخ 1941/1/8

كانت الحرب العالمية الثانية في أوجها، تقف ملايين الناس في أوروبا و آسيا و شمال أفريقيا، عندما تسلم عمله في التدريس في ثانوية أربيل. كان مسروراً في البداية، و لو كان عليه أن يبذل جهداً أكبر في التعليم، مما عليه سابقاً مع التلاميذ في جنوب العراق، حيث تعتبر اللغة العربية بالنسبة لسكانها، لغة ثانية بعد اللغة الكردية.

« أما طلاب المدرسة فهم على جانب كبير من وداعة النفس و طيب السريرة، و ليس عندهم فتن و لا أحزاب، و قد التفوا حولي التفافاً غريباً من أول يوم، و أعجبوا إعجاباً كبيراً بتدريسي و حرصي على فائدتهم، و المدير من أعذب الناس روحاً و أرقهم عاطفة... و له عناية خاصة بي، و إذا غاب أو حدث له حادث يوكلني رسمياً بإدارة المدرسة.»²⁰²

كانت المدرسة تقع في القلعة بعيدة عن الحي الجديد الذي تقع فيه الدار، و كان الوصول إليها عملية ليست بالسهلة عليه و على أطفاله، و خاصة في فصل الشتاء، حيث تتساقط الأمطار في الشمال بكثرة بالقياس إلى المناطق الأخرى في العراق. كان الخوف يعتري الأطفال، عندما يسيرون في الطرقات الموحلة غير المبلطة، التي تمتلئ ببديدان طويلة بنية اللون، تزحف ببطء على الأرض الطينية مخلفة أثارها المتعرجة، تتلوى بين أقدامهم، محاولين تفاديها، و لكن كان الفشل حليفهم في معظم الأحيان، عندما يسمعون أزيزها تحت أقدامهم.

كان محمد شرارة يهتم بما يحدث في العالم، يتتبع أخبار الحرب يوماً منصتاً إلى الراديو، الذي تلتصق أذناه به لئلا يفوته خبر مهم. فلم يكن يؤمن بالفاشية أو النازية لأنها إيديولوجية بعيدة عن تفكيره الإنساني كل البعد، و لكنه كان يشعر بفرح عميق، عندما يخسر الحلفاء موقعاً من المواقع المهمة، فقد جعل كرهه للاستعمار البريطاني، أن يتحالف حتى مع الشيطان - كما كان يقول.

حصل في تلك الفترة، في الأول من نيسان انقلاب 1941، و كان الانقلاب موجهاً هذه المرة ضد الوصي و ليس استبدال رئيس حكومة بأخرى. و قد هرب عبد الإله، الوصي على العرش، و وافق البرلمان على الوصي الجديد شريف شرف. و بدأ ضباط الجيش يفكرون بإصلاح الوضع حسب مفاهيمهم للوضع الاجتماعي و

السياسي، و قد برز من بين العقداء الأربعة صلاح الدين الصباغ و قد لخص فلسفته: "لا اعتقد البريطانية و لا بالنازية الألمانية أو البلشفية الروسية. أنا عربي مسلم، لا أريد أي بديل من المطامع و الفلسفات."²⁰³

كان البريطانيون قلقين من عودة رشيد عالي الكيلاني إلى السلطة، و من الطابع القومي القوي الذي طغى على حكومته. و امتنعت بريطانيا عن الاعتراف بالحكومة الجديدة. أدى هذا الوضع إلى قلق الأقليات، خاصة الجالية اليهودية التي استهدفت في السابق من قبل القوميين العرب المعادين للحركة الصهيونية. و التي عانت من الفرهود/²⁰⁴السلب و النهب و تدمير المتاجر اليهودية بعد سقوط حكومة رشيد عالي الكيلاني.

كما كان الأكراد قلقين من تنامي موجة القومية العربية التي لا تعترف بحقوق الأعراق الأخرى. و شعر محمد شرارة بالأجواء العدائية تجاه العرب، و وجد نفسه في وضع حرج، لأنه المدرس الذي يدرس اللغة و الأدب العربي في المدرسة، و كتب عن التعصب الذي لمس:

« ... و لقد ساءني أنا بالخصوص ما بدأت ألمسه من هذه الروحية العنصرية السائدة في المدرسة، و التي تجر معها أمثالها من مساوئ ... إن (الأكراد) يرون أنفسهم مستعمرين للعرب، و بهذه الوساطة تراهم ناقمين ثائرين على كل ما ينسب للعرب من لغة و أدب و أخلاق و مآثر، و بعضهم يلعن الساعة التي فرض عليهم فيها أن يتعلموا لغة العرب و أدب العرب و تاريخ العرب، لا يخفف من هذه النقمة ما تعاملهم به من لطف و مجاملة و لباقة ... و أنا أحاول جهدي آلاً أصطدم بهذه المشاكل، و أن أوجه الأبحاث توجيهاً فنياً خالصاً من التورط في مسائل لا تضّر غيري.»²⁰⁵

و هذا ليس بالشيء الغريب، أن لمس التعصب عند فئة من الشعب الكردي، فقد تكونت منظمات كردية قومية في عام 1939: « على غرار هيوه "الأمل" من قبل

203 - "العراق المعاصر" عبد الوهاب حميد رشيد، دار المدى للثقافة و النشر، دمشق 2002، ص - 98

204 - حدث "الفرهود" بعد أن سقطت حكومة رشيد عالي الكيلاني، في يوم 2-3 حزيران عام 1941.

205 - رسالة بعثها إلى جعفر الخليبي بتاريخ 14/3/1941

جيل أكثر شباباً من المهنيين أو القرويين الأكراد المتخوفين من النزعة العروبية التي طغت آنذاك على الجدالات السياسية في العراق.²⁰⁶ كان محمد شرارة ضد أي نوع من التعصب، فقد انتقد في رسائل سابقة العرب و الفرس عندما كان يعيش في كربلاء، و عندما انتقد الأكراد في هذه الرسالة، فإنه أحتج على التعصب كفكر، و لم يكن مرتاحاً من هذه الظاهرة التي لمسها بين تلامذة المدرسة و هم الذين يمثلون الجيل الناشئ، رغم انه مدح وداعتهم و طيب خلقهم. كما لم يكن مرتاحاً من القذارة و الإهمال اللذين يهيمنان على المدن الشمالية في العراق، و وجدها لا تقل إهمالاً عن المدن في المناطق الجنوبية، و لم يجد إلا مدينة "الموصل" التي كانت بمستوى بغداد عندما زارها. و كتب:

« إن هذه القرية التي تدعى "شقلوة" قرية حقيرة جداً، و قذرة أكثر من القذارة نفسها، و ليست هي وحدها على هذا الشكل بل هذه حالة الشمال كله تقريباً - إذا استثنينا الموصل - لا فرق بين الألوية و الأقضية و النواحي و القرى في روحية الحياة، إلا بمقدار ما في بعضها من كثرة الموظفين الذين أوجدوا روحاً جديدة في العمران و الحياة.»²⁰⁷

و النظافة عامل مهم في حياة الإنسان، و لذا كان لا يحتمل القذارة إن كانت داخل البيوت أو خارجها، أو في شوارع المدينة. لذا كتب في إحدى رسائله يذكر عن تساقط الأمطار في لبنان: «المطر غزير جداً هنا، و لكن حذائك لا يتلوث حتى في القرى. و منذ عشرة أيام و المطر متصل في الليل و النهار، و الطرق ورغم ذلك - نظيفة جداً، و لا حاجة لأن تصبغ حذائك بعد رحلة في هذا الحمام الشتوي.»²⁰⁸

كانت جريدة "الهاتف" تمر بأزمة مالية في تلك الفترة، و أضطر صاحبها جعفر الخليلي أن «يلجأ مرة إلى بيع بعض كتبه القيمة لشراء ورق لجريدته في أثناء الحرب، و هو مع ذلك يؤمن بأن "المرء كثير بإخوانه"».²⁰⁹

206 - "صفحات من تاريخ العراق المعاصر" تشارلز تريب، ترجمة: زينة جابر إدريس، الدار العربية للعلوم، 2006 بيروت - لبنان، ص162-163

207 - رسالة بعثها إلى جعفر الخليلي بتاريخ 1941/4/24

208 - رسالة بعثها إلى صديقه علي العامري عندما كان في لبنان. بين عام 1974-1976

209 - مقابلة مع فريدة جعفر الخليلي في عمان بتاريخ 2008/1/8

و قد عرض عليه محمد شرارة، عندما علم إن جريدة "الهاتف" تمر بضائقة مالية، ما أدخره من رواتبه خلال هذه الفترة بعد أن دفع جميع الديون التي كانت متراكمة عليه. و طلب منه أن يقبل المبلغ، ليسد الثغرة التي كانت تعاني منها الجريدة. فقد كانت جريدة الهاتف عزيزة عليه كأحد أولاده، لا يريد لها أن تتعرض إلى التوقف. كما كانت جريدة من الجرائد القليلة المستقلة في العراق، لا تأخذ معونة من أية جهة معينة. و لأنها كانت جريدة مستقلة، فكانت تعاني دائماً من المشاكل المالية، حيث لا تسد اشتراكات المشتركين بها إلا جزءاً من مصاريفها. و كتب له:

« ... أسمع- يا أبا هاتف - إن ديوني التي ألفتها عليّ الأيام الماضية قد تلاشت أو كادت،... و بيدي كمية من المال تستطيع أن تسدّ ثغرة، و لست بحاجة لها الآن. و ثق أيضاً بأنني سأستعيدها منك متى خف الضغط عليك و ساعدت الأحوال ... و أستطيع أن أرسل لك في نهاية كل شهر مبلغاً تستعين به - يا أبا هاتف - ليبيّننا تفرج الأزمة.»²¹⁰

في نهاية العام الدراسي أي الثاني من شهر حزيران، ولدت زوجته ولداً ثالثاً، سمي "جهاداً"، و اختار هذه التسمية لأنه ولد أثناء الحرب العالمية. و كتب رسالة لجعفر الخليلي:

« وضعت "أم إبراهيم" و لداً قبل يومين، و قد كان و وضعها سهلاً للغاية، و صحتها جيدة و كذلك صحة الطفل فطمئنوا "أم هاتف"، و قد اخترت له أسم "جهاد"، و أمه اختارت "سمير" و مرتضى اختار "عدنان" فما رأيك أنت؟»²¹¹

و يظهر ان هنالك دائماً اختلافاً على تسمية أسماء أولاده و بناته، فلم تمر ولادة بنت أو ولد من غير تدخل من قبل أقربائه أو أصدقائه في خصوص هذا الموضوع!

و لكن تردت صحة زوجته بعد الولادة بفترة قصيرة، لمعاناتها من مرض "الذنتري" الذي أصيبت به، و شعرت بضعف و نحول، و لم يكن باستطاعتها الاعتناء بالمولود الجديد. كانت شاحبة الوجه، محمية عن ألوان الطعام. و هي المرة الأولى التي لم ترضع فيها طفلاً من حليبها. كما لم تعد قادرة حتى على

210 - رسالة بعثها إلى جعفر الخليلي بتاريخ 1941/5/2
211 - رسالة بعثها إلى جعفر الخليلي بتاريخ 1941/6/4

إدارة البيت، فقرر أن يأخذها إلى لبنان برفقة الأطفال الصغار من العائلة الذين لم يبلغوا سن الدراسة.

حان موعد السفر بعد انتهاء السنة الدراسية، وقفنا - مريم و أنا - وقفة حزن على فراقهم، كنا نتمنى أن نرافقهم في السفر، و لكن المدرسة كانت العائق في هذا الفراق! قبلتنا الوالدة بسرعة على وجنتينا، و اغرورقت عيناها بالدموع، و لكنها لم تستطع معانقتنا أو ضمنا إلى صدرها، فقد احتل شقيقنا الرضيع، حضنها، و حرمانا من تلك اللحظات، المتمثلة في حنان الأمومة!!

وضع السائق آخر حقيبة على سطح التاكسي، و جلس في مقعده و كبس على "البوق" و وقفنا على عتبة الدار، نتطلع إلى أحب الوجوه لنا، نلوح بأيدينا، و غابت السيارة أمام أعيننا و لكن ظلت في مخيلتنا دموع و الدتنا تنساب من عينيها. كان الفراق صعباً علينا، و نحن لا نزال أطفالاً صغاراً بعمر البراعم.

* * *

قضى محمد شرارة الصيف في لبنان و لم يكن يتوقع في يوم من الأيام انه سيلتقي في يوم ما بحبيبته التي أصبحت حلاًماً قابلاً في مخيلته. الحبيبة التي نظم فيها القصائد و ظهرت بين السطور في العديد من المقالات التي كتبها، خلال السنين التي مضت على فراقهما. و علم أنها جاءت إلى لبنان لزيارة أهلها. لم يجرؤ في البداية التفكير في زيارتها، لكن ألحت عليه زوجته و شجعتة على الذهاب.²¹² تراءى أمام ناظريه و هو في طريقه متجها نحو دارها، ساعة الواحد قبل عشرين عاماً، عندما ترك ضيعته بنت جبيل، حيث كانت من بين المودعات، الصامتات، تذرف الدموع فقط، " و منديل حريري ابيض وثب من يدها إلى يده".²¹³ فقد باعدت بينهما الحياة، و نأت بهما. و انطمس خيط الحب الذي كان يربطهما في دوامة من تقاليد المجتمع. و لكن ظل النداء العنيف، نداء العاطفة المقموعة قابلاً في أعماقه. و بقيت «العاطفة... شامخة تتحدى جميع الهزائم، و تقف في و جوه الذين يتجاهلون أسرار النفس، و لا يعرفون مساراتها التي تتحرك فيها».²¹⁴ فقد كان حباً صادقاً،

212 - مقابلة مع مريم شرارة ابنة محمد شرارة، بتاريخ 2008/7/16

213 - أنظر هامش 33: "دموع و دموع" محمد شرارة، جريدة الهاتف - النجف، أيار 1938

214 - "قمرية على ربا غرناطة" مخطوطة: "تأملات في الأدب و الحياة"، محمد شرارة، مجلة العرفان -

لبنان، 1972/7/15

بريئاً، طاهراً، بعيداً عن ملذات الجسد. لكنه ظل عشقاً مكبوتاً، مخذولاً، حفر له مكاناً سرياً في أعماقه و ظل قابلاً هناك.

و كان اللقاء بعد هذا الغياب الطويل. أطلت بلون بشرتها الداوي، و بريق عينيها الواسعتين اللتين تحكيان فصلاً من رواية حياتها في المهجر.²¹⁵ خيم الصمت و هيمن عليه الارتباك، لم يصدق أن أمامه حبيبة أحلامه التي أجبرت على تركه من قبل أهلها منذ عقدين!! و من شدة الانفعال الذي هيمن عليه، و حرارة العاطفة العميقة، التي ما زال يكتنحها لها، لم يستطع في البداية أن يسيطر على الحالة النفسية التي هيمنت عليه. و دب ارتعاش في جسده، و خذلان في ساقيه، لم تعودا قادرتين على حمله! و شعر ان اللحن، لم يتغير بعد هذا اللقاء!

ترك محمد شرارة لبنان عائداً إلى العراق في بداية السنة الدراسية، بعد أن نقل من مدينة أربيل إلى مدينة الحلة، حيث أمضى ثلاثة أعوام.

215 - مقابلة مع سكنة شرارة بتاريخ 2007/12/14

« كانت "مريم" صبية جريئة، ذات شخصية قوية، تقود المظاهرات ضد الاحتلال الفرنسي. و قد أحبها محمد شرارة و أحبته، لكنها لم تستطع أن تقف أمام أهلها عندما خطبها رجل غني و ذهبت معه إلى الولايات المتحدة. تزوجت رجلاً مسناً، ثرياً، و لكن كانت حياتها صحراء قاحلة، خالية من العاطفة و الحب و الانسجام. عاشت في الولايات المتحدة مع ابنها بعد وفاة زوجها، و انتهت حياتها في دار للعجزة، بعد زواج ابنها من فتاة أمريكية.»

1944 - 1942

مدينة الحلة/ موقفه من عاشورا

عاد محمد شرارة برفقة شقيقته خديجة، بعد أن ظلت زوجته مع أطفالها في لبنان. كانت خديجة مشوقة القوام، نحيفة القد، سمراء اللون، ضامرة الوجه، تتوسطه عينيان واسعتان سوداوان، و شعر أسود جعد يغطي عنقها النحيف الطويل. أنيقة المظهر، ترتدي آخر تقاليع الموضة. ذات شخصية قوية، تغلب عليها روح الفكاهة، حاضرة النكتة، لها موهبة و مقدرة عالية في الوصف الدقيق اللاذع الذي تضيفه على المجتمع النسائي، في تحويل المأساة إلى ملهاة. و كأن أفكارها حديقة تعج بألوان متنوعة، مدهشة ببريقها.

لم تمض إلا فترة قصيرة على إقامتها في مدينة الحلة، حتى تعرفت على معظم جيران الحي، و كتب محمد شرارة إلى جعفر الخليلى بهذا المضمون:

« خديجة مشتاقة لكم كثيراً، و هي الآن مأنوسة كثيراً بالسيدة أم صديقة قريبكم الفاضلة، و لقد طافت بها على أكثر معارفها.»²¹⁶

كما عقدت صداقات حميمة مع معلمات المدرستين الابتدائية و الثانوية، و تعرفت على الجالية اللبنانية الصغيرة التي كانت تقطن مدينة الحلة، و التي كان معظمها من الأطباء و المدرسين. شغلت الزيارات معظم وقتها، و غالباً ما احتلت الصباح و المساء، و نادراً ما كانت تقضي و قتا في البيت.

خلقت خديجة جواً من المرح و السعادة في دار شقيقها محمد، و كان هناك انسجام تام بينهما، و استحوذت عليه أحاديثها المتنوعة و سرت كالموسيقى العذبة، مصغياً لأسلوبها الساحر و مقدرتها الهائلة في و صفها الدقيق للنسوة اللواتي التقت بهن أثناء تلك الزيارات. إذ كانت تضي بكل عبارة أو جملة تفاصيل أقرب منها إلى لقطات فوتوغرافية مأخوذة عن قرب بنفاصيلها الدقيقة، خالقة صوراً حية عن أولئك النسوة بأسلوبها المرح الذي يفيض بالمزاح و التجريح و السخرية و النقد اللاذع أحياناً. و كثيراً ما كانت تجمعهما السخرية و النقد اللاذع للأوضاع الاجتماعية.

²¹⁶ - رسالة بعثها محمد شرارة إلى جعفر الخليلى بتاريخ 1942/1/19

و السخرية بالنسبة لمحمد شرارة هي نوع من تعرية المجتمع: « نوع من الرفض ينسل إلى المعاني، فيمسح عن وجوها الزينة المصطنعة، و يظهرها بكل ما فيها من بشاعة و قبح. و من هنا كان خطرها. و كانت قدرتها على هدم ما يستحق الهدم أحياناً... و وضعها أمام الأعين بكل ما فيها من عري، و بكل ما في العرى من عاهات تثير القرف و التقرز حيناً، كما تثير الضحك أحياناً.»²¹⁷

كانت خديجة صريحة، لبقة، سريعة البديهة، أحبها أهل الحلة لمرحها و خفة دمها. و جعلت الحياة أغنية متواصلة من الفرح و البهجة في الدار. و لو سنحت لها الظروف أن تتعلم لأصبحت ناقدة اجتماعية مهمة، أو مخرجة لمسرح الملهاة في مدينة الحلة!²¹⁸

* * *

انسجمت خديجة بأجواء الحلة، و لكنها اندهشت و استغربت من أن العراقيين يقضون أكثر من نصف السنة من حياتهم تحت الأرض في شبة ظلمة لا يتخللها إلا ضياء النافذة الخافت في النهار، و يلتحفون السماء المنمنمة بالنجوم في الليل. و كثيراً ما كانت تتندر عن هذا النمط من المعيشة، خاصة بعد زيارتها. سراديب النجف!

217 - "الجاحظ و أسلوب السخرية"، نظرات في تراثنا القومي"، محمد شرارة، المؤسسة العربية للدراسة و النشر، 1982، ص- 98

218 - مقابلة مع سكنة شرارة بتاريخ 2007/12/14

« أما تحصيلها العلمي، فلم تتعلم في المدارس، و إنما تعلمت القراءة و الكتابة، و حفظت القرآن، و تعلمت الخياطة التي كانت من المهن المهمة لبنات القرية، و لكن لم تمارسها. كان لها ولع شديد بالمطالعة و القراءة في البداية، و لكن مسؤولية إدارة المنزل، أعاققتها عن التتبع و القراءة. إذ كانت ذات ذوق رفيع، سريعة البديهة، و النكتة، عالية النفس.

« كانت علاقة محمد شرارة بشقيقته خديجة، كعلاقته مع كل بنت، إذ كان يعتبر الفتاة غير المتعلمة مضطهدة، لا مستقبل لها إلا في البيت أو الزواج. لأن الاهتمام كان منصباً على تعليم الذكور في العائلة. أما الأنثى فلم يكن لها نصيب من التعليم إلا أن تتعلم مهنة من المهن، خاصة مهنة الخياطة... و مفهوم محمد شرارة للإنسانية، هو ألا يحرم الإنسان من حقوقه و خاصة حق التعليم. و عليه يجب أن تتحرر البنت من جميع القيود، و أن تتساوى مع الولد من حيث التعليم و الحرية الشخصية. و كان يعتبر شقيقته خديجة مظلومة، لأنها لم تتح لها الفرصة للتعلم بل حرمت منه.»

إذ كانت معظم دور الحلة غير محاطة بحدائق، بل يتوسطها الحوش/ ساحة الدار، التي تشرف عليها غرف الدار، و فيها أحياناً حديقة صغيرة تحتوي على أشجار الحمضيات، تسمى "البقجة". لم يكن في الدار التي استأجرها محمد شرارة حديقة، لذا لم يكن من الممكن الاستغناء عن السرداب أو السطح، فهما ضرورة من ضرورات الحياة اليومية، حيث يتحول السرداب في الصيف ليحل محل غرف الاستقبال و الطعام و النوم. و يتغير شكل الغرف، فيرفع السجاد و البسط التي تكسو أرضها و يظهر الكاشي/البلاط الأبيض و الأسود المصمم على أشكال هندسية مختلفة. و تنقل الأسرة إلى السطح، فنفرغ الغرف و تصبح عارية من الأثاث. كان أثاث الدار يقسم بين السرداب و السطح، و يحصل السرداب على الحصة الكبيرة، أما السطح فلا يحصل إلا على أسرة النوم.

لذا كان الناس يقضون نهارهم في الصيف في السرداب، فينزل نور الشمس المنعكس من خلال نوافذه الصغيرة. يلتحفون الأرض المفروشة بالحصير بعد تناول الغداء، متكئين على الوسائد المسندة لأحد الجدران، بينما المروحة تدور بصوتها الرتيب، محركة الهواء الراكد الثقيل و يتحول إلى هواء بارد رطب، فترتخي الأعصاب و تغمض العيون في نوم هادئ.

و كما ان العراقي لا يمكنه العيش من غير سرداب في النهار، فلا يمكنه العيش من غير سطح في الليل. إذ كان للسطح دور مهم في حياة العراقيين آنذاك، لأن درجة الحرارة ترتفع في شهر آب إلى خمسين درجة مئوية و تجعل السطح ضرورة من ضرورات الحياة، و بمرور الزمن تكونت طقوس خاصة بالسطح خلال العصور التي خلت.

لذا كان السطح يحظى باعتراف أكثر من السرداب. فيكنس و يرش مساء بالماء، يتبخر الماء الممتزج برائحة الغبار الذي يغطي الطابوق/الآجر الأصفر، فتفوح رائحة منعشة، لا يحس بنكهتها إلا من عاش تلك التجربة صيفاً بعد صيف في أجواء العراق. و تصبح تلك الرائحة جزءاً من طقوس السطح! تليها عملية فرش الأسرة الحديدية، و نصب "الناموسية" البيضاء على كل سرير بإتقان، انقاء من البعوض الذي ينشط بعد غروب الشمس، فيحوم لينهش و يمتص دماء النائمين، إن ظفر بأحدهم. كان البعوض يحوم حول الأجساد كما يحوم النحل حول الأزهار لاستنشاق رحيقه، فتخيم الناموسيات على السطوح كأسراب النورس عندما تحط على الأرض.

كما كان ماء التُّكَّة²¹⁹/ المشربية، البارد ملازماً لطقوس السطح. تغطي فتحة المشربية بقطعة من الدانتيل الأبيض الذي تتسجه النسوة بالصنارة خصيصاً لها ضد الحشرات. كان ماء المشربية البارد عند الفجر له مذاقه الخاص، المشبع بفخار المشربية، ذا نكهة لذيذة متميزة عن ماء البراد/الثلاجة!

وللسطح وظائف عديدة غير النوم. فقد كان ملتقى النسوة، إذ كانت تنتقل اللقاءات من الغرف في فصل الشتاء إلى السطوح في الصيف. و كان منيو /menu قائمة الطعام السطح محدداً في الرقي "البطيخ الأحمر" و حبه المملح و المحمص و الشاي مع لفات من الخبز بالجبن و النعناع. كانت النسوة تتشطن في نقل أخبار الحي و الشائعات في المدينة، كما كانت أخبار الزواج تفوق أخبار الولادة و الموت، فمن تزوج ثانية على زوجته خبر مهم عند أولئك النسوة، و يتساءلن عن جمال الزوجة الثانية بفضول و مكر و خبث أحياناً.

كانت بعض النسوة يقمن بدعوة عشاء، فتمد الأسلاك الكهربائية و توضع لمبة لإضاءة السطح أو فانوس في معظم الأحيان، الذي يصبح مرتعاً لتجمع البعوض و الحشرات. و لم تكن تلك طقوساً جديدة و إنما امتدت إلى قرون خلت، و لعب السطح دوراً مهماً حتى في القرن التاسع عشر في بغداد، حيث كانت تقام حفلات العشاء فيه من قبل قناصل الدول الأجنبية، و كان كل من القنصل الروسي و الفرنسي و البريطاني يجلبون معهم خدمهم. يقف كل واحد منهم خلف كرسي القنصل يناوله أطباق الطعام.

و السطح يفضح الأسرار، فتتجسم الأصوات و تتضخم في ليالي الصيف! و تنتقل من سطح إلى آخر يحملها الهواء الذي مرّ على تلك السطوح، أصوات و تمتمات بعيدة مبهمة، آهات و حشرات لا يمكن حل لغرها في ظلام الليل، ضحكات الفتيات و قفز الأطفال على التخوت، و تأنيب الأمهات، و توسلات امرأة تستجير و تصرخ من تلقي ضربات زوجها ترافقها الشتائم و الكلمات البذيئة، ثم يعم الهدوء و الصمت، و يلتحف الجميع رداء النوم.

تأقلمت شقيقته خديجة بهذا الجو، و كانت تعود بعد انتهاء الدعوة، محملة بالأخبار، فتقص عليه تفاصيل السهرة في اليوم التالي، و ما دار فيها من أحاديث و نكات، و

²¹⁹ - التُّكَّة: هي مشربية مصنوعة من الفخار، يتبرخ الماء من مساماتها فيبرد الماء فيها.

كأنها صحيفة من صحف التابلويد.²²⁰ فتعري بحديثها ذلك المجتمع المغلق، رافعة القناع عن تلك المحرمات التي يستتر تحتها، بشكل يثير الضحك أحياناً أو القرف أحياناً أخرى.

كما شاركت في دعوة النسوة إلى السطح مساءً، و كان محمد شرارة يترك الدار في تلك المناسبة، ليقضيها عند أحد أصدقائه، لأن المجتمع في مدينة الحلة لا يقل محافظة عن المدن الأخرى في العراق، فهناك فصل تام بين الجنسين، و ليس هنالك اختلاط بين النساء و الرجال إلا بين قشرة صغيرة جداً في العاصمة بغداد.

* * *

كانت المدن العراقية مهملة من ناحية الخدمات، فلم يكن هنالك طرق مبلطة تربط بعضها البعض. و لم يكن في مدينة الحلة إلا شارعان مُبلطان، محاذيان إلى النهر، زرعت بعض الحدائق المحاذية للنهر، و شارع رئيس يقطع مركز المدينة، حيث توجد مكاتب المحامين و عيادات الأطباء و المدارس و مكاتب لبيع القوطاسية و الكتب المدرسية، إذ كانت هنالك فجوة بين العاصمة بغداد و بين الألوية/ المحافظات، من حيث التقدم العمراني أو الخدمات العامة. و هذا واضح في رسالة وصف فيها محمد شرارة الحفلة التي أقيمت للوصي على عرش العراق في عام 1942، و انتقد التنظيم الهزيل من قبل رئيس بلدية الحلة:

« لا شيء هنا يتحدث به الناس سوى زيارة الوصي، و قد أقامت له البلدية حفلة في الجنائن المعلقة²²¹، حضرها كبار القوم و أقيمت بها قصائد و كلمات... أما تنظيم الحفلة فكان في منتهى السخف، و قد باع رئيس البلدية بلادة و غباوة في هذا التنظيم السخيف ليس بعدهما زيادة لمستزيد... لقد كانت الكراسي من خشب عتيق، و ليس في صدر المجلس سوى نصف طقم عارٍ من الكنبايا/القنفات، و كان بعض موزعي المياه يمشون حفاة، و الخلاصة إن هذه الحفلة لو أقامتها "ناحية" حقيرة لاستقبال مدير ناحية أو وداعه، لكانت أروع بكثير من هذه الحفلة التي يقيمها "لواء/

220 - Tabliod / التابلويد: هي الصحف التي تتقصى أخبار الناس الشخصية، في أوروبا و الولايات

المتحدة. (ب.ش)

221 - الجنائن المعلقة: احد الحدائق المسماة بهذا الاسم في مدينة الحلة. (ب.ش)

محافظة" للوصي على العرش. ... و مع ذلك يقولون (أنفق عليها 300 دينار!!!)»²²²

* * *

قضى محمد شرارة الصيف في لبنان مع عائلته، و عندما عاد إلى بغداد، رافقت العائلة هذه المرة شقيقته "سكنة"، لكي تكمل دراستها في العراق، كما رافق العائلة منذ سنوات، شقيقه "مرتضى" لإكمال دراسته.

كانت الحرب العالمية الثانية مستعرة على أشدها في الأعوام التي عاش فيها محمد شرارة في مدينة الحلة، و هي الحقبة 1942-1944، لكن ساد في تلك الفترة، نوع من الانفتاح، عندما أصبح الاتحاد السوفيتي حليفاً مع بريطانيا و الولايات المتحدة ضد دول المحور ألمانيا و إيطاليا. أثر ذلك الانفتاح حتى على الأقطار التي كانت تحت الغطاء الامبريالي البريطاني و منها العراق. فتحت السفارة السوفيتية في بغداد. و أصبحت الكتب اليسارية متداولة بين الطبقة المثقفة من الناس.

كما أدت الحرب العالمية الثانية إلى هزات اجتماعية تمخضت عنها « تبدلات عنيفة هزت البنيان الفكري و الاجتماعي للأنظمة القائمة و أسفرت عن اندلاع نضال لا هوادة فيه من أجل الاستقلال و الحرية.»²²³

أصبحت الحلة من أحب المدن إلى محمد شرارة، و انسجم مع أهلها، كما شارك في النشاطات الثقافية و الاجتماعية، و تعرف خلال إقامته على عدد من المدرسين في ثانوية الحلة، و ربطته علاقة فكرية مع بعضهم. كان من بينهم الأستاذ "جاسم الرجب"²²⁴، الذي أصبح صديقاً حميماً له. إذ كان جاسم ماركسي التفكير و الثقافة، يتقن اللغة الإنكليزية، رغم أنه كان يدرس اللغة العربية. و كان محمد شرارة يرى ما يتعرض له الفلاحون و العمال من فقر مدقع و استغلال و قمع من قبل رجال الإقطاع، و أصبح متهيناً فكرياً في إيجاد صلة بالفكر الماركسي، خاصة عندما قرأ

222 - رسالة بعثها إلى جعفر الخليلي بتاريخ 1942/5/27

223 - مقدمة "المنتبي بين البطولة و الاغتراب"، محمد شرارة، المؤسسة العربية للدراسات و النشر،

1981، ص- 22

224 - "جاسم الرجب"، مدرس اللغة العربية، ناقد و كاتب، من الاعظمية. و هو شقيق قاسم الرجب، صاحب مكتبة المثني، أهم و أشهر مكتبة متخصصة في الكتب العربية في بغداد، و التي تضاهي مكتبة "مكنزي" في الكتب الانكليزية آنذاك. (ب.ش)

بعض الكتب الماركسية في بداية الأربعينيات، و وجد في الفكر الماركسي ضالته،
و كان منعطفاً حاسماً في حياته، و كتب عنه حسين مروة:

« كانت البداية التي مضت به إلى طريق التقصي و البحث لتحديد موقعه الفكري،
إلى أن بلغت به ذلك المنعطف الحاسم، حين وقع على آثار الفكر الماركسي،
فانجذب إليه انجذاباً أسراً و رأى، بعد في هذا الفكر ضالته فالتزم به خياراً لا محيد
عنه، الأمر الذي دفعه إيثاره بكل جهده و نشاطه على جانب عظيم من الإخلاص و
الوفاء حتى التضحية.»²²⁵

أنغمر محمد شرارة في تلك الفترة بمطالعة الكتب الأجنبية و الأدب اليساري، و
ترجم للكاتب و الشاعر رابندرانات طاغور عدداً من القصص القصيرة، و المقالات
التي دافع بها عن و وضع المرأة في الهند. كان طاغور بالنسبة لمحمد شرارة كاتباً
من أكبر كتاب و شعراء الهند، كما كان ثائراً على قيم المجتمع و نفاقه، لاسيما في
معاملة الأراامل من النساء، اللواتي يمنعن من حقهن في ممارسة الحياة الطبيعية، و
يعزلن عن المجتمع، المؤمن بالتقاليد البالية المعمول بها منذ قرون عديدة.²²⁶

كما ترجم قصصاً لموباسان Guy de Maupassant و مكسيم غوركي، و أعجب بكتابات
و مسرحيات الكاتب الإيرلندي برنارد شو، و كان يردد مقولته الشهيرة عندما سئل
عن توزيع اقتصاد العالم: "العالم بين رأسي و لحيتي، غزارة في الإنتاج و سوء في
التوزيع." كما قرأ كتب ون ود ريد، و أج جي و يلز، و بعض كتاب الجمعية
الغابية.

و لم يكن غريباً على محمد شرارة في هذا الجو الفكري الذي عاشه، في أن يفكر
مع رفيقه جاسم الرجب، في أن يبحث في المدرسة التي يدرّسان بها، موضوع رفع
مستوى طلبة ثانوية الحلة، و فتح آفاق جديدة أمامهم بتوسيع مداركهم الفكرية، و
ضرورة التحرر من التقاليد البالية التي تطوق المجتمع، و يعاني منها. لذا كان من
الطبيعي بالنسبة لكليهما أن يقدموا على بحث الطقوس و الشعائر الدينية التي كانت
تقام كل عام في مدينة الحلة. و هي شعائر دينية تتعلق بملحمة ذكرى مقتل الحسين.
و كانا يعرفان جيداً، ان الإقدام على مثل هذه الخطوة يتطلب الجرأة، و إن بحث

225 - "محمد شرارة أديباً و إنساناً"، د. مصطفى بزي، 1994، ص- 11

226 - قام محمد شرارة في تلك الفترة بترجمة القصص التالية لرابندرانات طاغور: "الخوف" و "اللعب
بالنار" و "الحصان" و "قوس النصر" و "التلاشي" و "و هو الأزلي الدائم!!".

مثل هذا الموضوع سيثير لهما المشاكل، إذ ما زال هذا الموضوع يعتبر من المحرمات التي لا يمكن مسها، رغم منع الحكومة التطبير و السلاسل في عام 1935، فأقدا بكل ثقة على إثارته.

كما « كانت هذه الشعائر نوعاً من اللغة الرمزية التي تنقل مختلف الرسائل المكتوبة بطريقة الشفرة. و كانت تبين مكونات المجتمع المختلفة و تشير إلى المركز الديني للعوائل المتعلمة و السادة و شيوخ العشائر و الوجهاء و الناس الاعتياديين حسب موقعهم الاقتصادي- الاجتماعي النسبي في المجتمع. ... و غالباً ما كانت العوائل الدينية و العشائرية الكبيرة و غيرها من العوائل النخبوية ترعى المواكب في مجتمعاتها. و كانت بهذا لا تسعى إلى كسب احترام المجتمع فحسب بل و إلى صيانة مركزها و سلطتها داخل المجتمع.»²²⁷

كان أهالي الحلة على اختلاف طبقاتهم و منزلتهم الاجتماعية، يشاركون في احتفالات "عاشورا". فقد كان اجتماعاً شعبياً ضخماً، و كانت المراسيم تبدأ بتحضير القدور الكبيرة، التي توضع في شوارع الأحياء المحاذية للحسينيات، و في حنايا مدينة الحلة الصاخبة التي تضج في خصوصياتها و أنماط حياتها. فتقلب أرققتها إلى مطابخ في الهواء الطلق، يسرع الحمالون في نقل الدهن و أكياس الرز و القمح و الخضروات المحملة على ظهورهم محذرين المارة و العابرين بإفساح الطريق لهم، مرددين "بالك، بالك" فينتحي المارة جانب الزقاق الملاصق لجدران الدور، و تتعالى أصوات المشرفين على الطبخ بالأوامر، التي تبدأ بعد الظهر من كل يوم، و تمتزج رائحة الطعام المتصاعد بخاره برائحة دخان الخشب في فضاء الأزقة كغيمة تغطي سماءها، حيث يقف جمهور، معظمهم من الفقراء و المتسولين، حاملين قدورهم لملئها بأنواع الأطعمة. كان الرز و القيمة و الطرشانة/ المشمش اليابس، و الهريسة، من الأنواع الغالبة التي تقدم في مثل هذه المناسبات.

كما يصبح اللون الأسود أثناء عاشوراء، هو اللباس الرسمي للطفل و الشيخ. و يزداد النشاط و الحركة كلما أقتربت الأيام نحو اليوم العاشر من الشهر، و هو "الطبك"،²²⁸ حيث يتحول البشر إلى خلية نحل. فيحتشد آلاف الناس أمام مقر رئيس في إحدى الحسينيات، ينتظمون بصفوف، يتقدمها عدد من وجهاء المدينة و الشيوخ

227 - "شعبة العراق" اسحق النقاش، منشورات دار المدى للثقافة و النشر- دمشق 1996، ص- 274

228 - "الطبك": هو اليوم الختامي لطقس تأبين الحسين بن علي.(ب.ش)

من رجال الدين، يتبعهم صفوف من حاملي البيارق السوداء و اللافتات لكل حي، ثم صف من الرجال من ذوي الرؤوس المحلوقة، مرتدين الأكفان البيضاء، حاملين السلاسل و القامات، يليهم صف من الشباب المرتدين الملابس السوداء بصدر عارية.

ترتفع أصوات الحشود البشرية المتلاحمة بإيقاع متناسق "يا الله، يا علي، يا حسين" و تمتاز بضربات السلاسل و القامات و ألدم/ اللطم على الصدور، بإيقاع متناغم رهيب. و بارتفاعها و هبوطها، تتدفق الدماء من الرؤوس و الأكتاف و الصدور، و تسيل على الأكفان البيضاء، فيسقط بعضهم مغمى عليهم، و ينقلون إلى المستشفى، و منهم من يقضي نحبه، فيصبح في عداد الشهداء!! ثم تبدأ المعركة بين جيش الحسين و جيش يزيد، ترفع أصوات النسوة من سطوح الدور المطلة عليهم بتشجيع جيش الحسين، و ينهال البصاق و الشتائم على جيش يزيد، و تنتهي المعركة بإبادة جيش الحسين و عائلته.²²⁹

كانت هذه الدراما أو كما يطلق عليها "التشابه" تعاد كل عام بنفس الأسلوب الفج و الإخراج الشعبي البدائي، فالملحمة في يوم "الطبك" هي تمثيلية جماهيرية، يتحرك مسرحها في الفضاء و في سيكولوجية الجماهير، من الرجال و النساء. و تنتهي الطقوس بالمعركة الرئيسية بين جيش الحسين و جيش يزيد، و ينتهي الحداد حالاً بانتهاء المسرحية، و تعود الحياة اليومية إلى مجراها ثانية، فيختفي اللون الأسود من شوارع المدينة، و تختفي معها اللافتات السوداء و تتغير ملابس الكبار و

229 - « كما ان دعاة التسوط من الشيعة العراقيين لا يبدون قادرين على الإشارة إلى أي مرجع واضح بلا لبس عن هذه الممارسات في مؤلفات المجتهدين قبل القرن التاسع عشر. و أول ذكر واضح لها إلى الشيخ خضر ابن شلال آل خدام العفكاوي النجفي (ت 1840) ... و كان شق الرأس بسيف أو سكين أكثر أشكال التسوط عنفاً و لكن نطاقه محدود و عدد المشاركين في هذه الممارسة صغير جداً في العادة... و نقلت ممارسة شق الرأس إلى مدن العتبات المقدسة في القرن التاسع عشر بواسطة شيعة من أصل تركي... و مارسه لأول مرة في العراق الزوار الشيعة من الففاس، أو أذربيجان أو تبريز. فقد وصل هؤلاء إلى كربلاء حاملين أسلحتهم الشخصية، و خاصة السيوف (القامات) التي استخدموها في شق الرأس. كما يقال انه في الوقت الذي بدأ فيه النحفيون يمارسون شق الرأس في وقت ما من خمسينيات القرن التاسع عشر فان منظمي هذه الفعلية و المشاركين فيها كانوا بالدرجة الرئيسية من الأتراك و الفرس المقيمين في المدينة.»

"شيعة العراق" اسحق النقاش، منشورات دار المدى للثقافة و النشر - دمشق 1996، ص 268-269
- و تشير بعض الدراسات إلى أن أصل هذه الطقوس جاءت من إيطاليا، و اعتمدت في العراق في العصر البويهي.

الصغار من الناس و تتخذ ألواناً مختلفة، و لا يبقى من اللون الأسود في الشوارع إلا عباآت النسوة المتلفعات بها، و تصدح الأغاني من راديو المقاهي المطلة على تلك الشوارع التي صممت عشرة أيام! و لكن تظل الرغبة المتأججة في نفوس الناس التي لم يطلها الفتور على رغم مرور الزمن، تتجدد بل تتوالد باتجاه هدف واحد، يترأى لهم الشوق في تحقيقه كل عام، حيث ينتهي بنفس الطقوس التي أصبحت هي الهدف الرئيس الذي يثير اهتمامهم.

أثار خلال تلك الفترة في "عاشوراء" كل من محمد شرارة و جاسم الرجب، الموضوع مع تلامذتهم في الصف، و شرحاً للطلبة إمكانية تهذيب هذه المراسيم. و جعلها مراسيم حضارية ترفع من سمعة البلاد، و لا تؤذي صحة البشر. و دار نقاش حام بينهم، و أنقسم الطلبة بين مؤيد و مناوئ لهما، و اتخذ الصراع شكلاً سافراً عندما انتشر رأيهما في أسلوب تلك المراسيم التي تقام في "عاشورا"، بين أهالي الطلبة الذين معظمهم من المذهب الشيعي، فأثار رأيهما غضباً و نقمة، أدت إلى ضجة كبيرة في مجتمع الحلة. و بدل من أن يكون الرد حواراً عقلانياً، فقد أحتج أهالي الطلبة بالرد عليهما في السبايات/ المواكب، التي نزلت في شوارع المدينة، مرددين: "يريدون اسمك ينمحي جاسم رجب و شرارة" يا حسين، يا حسين!!

و بدأت حملة منظمة ضدهما، و تناقلت الصحف في اليوم التالي الموضوع، و أصبح موضوع نقاش حاد، دام أكثر من أسبوع. اضطر كل من محمد شرارة و جاسم الرجب، على إصدار إيضاح جري، لكنهما لم يتنازلا عن رأيهما، بل أوضحا أنهما ضد التطبير و السلاسل و القامات التي تؤذي صحة المطربين و تجرح شعور الناس، و انهما يؤيدان إقامة طقوس محترمة، مهذبة.²³⁰

و كأن التاريخ يعيد نفسه، عندما كتب السيد محسن الأمين في عام 1928 "رسالة التنزيه لأعمال الشبيهة" التي بحث فيها المراسيم الدينية المتعلقة بعاشوراء، و « انتقد فيها الطقوس الدخيلة على الدين كضرب الصدور بالسلاسل و شج الرؤوس و قرع

230 - مقابلة مع سكنة شرارة بتاريخ 2007/12/14

- كانت عمتي سكنة شرارة، تعيش مع العائلة في تلك الفترة في مدينة الحلة، و ذكرت إن نقاشاً حاداً جرى في الصحف حول هذا الموضوع، و لكن لم نعر للأسف على الصحيفة أو الصحف التي نشرت النقاش أو الرد الذي كتبه محمد شرارة حول هذا الموضوع، و بين الذين كانوا ضد رأيه. (ب.ش)

الطبول و الصنوج في مواكب الأحزان التي تقام في يوم عاشوراء، و دعا إلى التمسك بجوهر الدين الحنيف و مبادئه و الابتعاد عن الترهات و الخزعبلات.» و تعرض أتباعه حتى إلى الضرب الشديد و نظمت به قصائد هجائية، « و بلغ الاستهتار أن راح حملة القرب و سقاة الماء في مأتم الحسين بيوم عاشورا ينادون مرددين : لعن الله الأمين: ماء" بينما كان نداؤهم من قبل يتلخص في ترديدهم القول "لعن الله حرمة: ماء. 231»

* * *

لم تمض الفترة التي أقام بها محمد شرارة في الحلة من دون متاعب تتعلق بعائلته، فقد أصيب أبنة الثاني "وديع"، الذي لم يبلغ عامه الرابع، بمرض "السحايا". مازال "وديع" نبتة صغيرة لم تمتد جذورها في عمق الأرض، فتأرجحت تلك النبتة الطرية تحت رياح المرض العاتي. و عزل عن أعضاء العائلة، و كرست و الدته و قتها للعناية به، ترفعه برفق و حنان، تمسح حبات العرق المنبجسة من جسده الصغير، و تضع المنديل الأبيض المبلل بماء الثلج على جبينه، تعيده ثانية إلى إناء الماء المتلج، تعصره لتضعه ثانية على جبينه. كان الوالد يراقب وجه ابنه الشاحب و عينيه الذابلتين و جسده النحيل، و صعق عندما رحل لعدم توفر الأدوية التي كان من الممكن إنقاذه. و قال له الطبيب "انتهى الأمر؟"

« لقد انتهى الأمر، و تمت لعبة القدر! إنها كلمة، و لكن ماذا تحمل من المقاطع؟ إنها تحمل ألوانا من الألم الصارخ، و عوالم من الأحزان السود. إنها لعبة قاسية يلعبها القضاء الساخر، انه لهو غريب يلهو به القدر الأعمى. رأيت الحياة كيف تتمزق قطعة قطعة، و أدركت عندئذ ان أفراح الحياة كلها، لو كانت أفراحا قبل هذه اللحظة، لا تعادل هذه الفجيعة، و ليس الحزن في ساعة الموت أضعاف السرور في ساعة الميلاد فحسب كما يقول شاعر الحياة، (المعري) بل هي الأحزان كلها تنحدر انهاراً و جداول ثم تلتقي - و هي طاغية متجبرة - في هذه الساعة ... فما الحياة كلها سوى ميدان تسابق فيه مع الموت، و ما الناس كلهم إلا آلات تحركها أصابع الدهر، ثم يلهو القدر الضاحك على الأماني و الآمال.»²³²

231 - "هكذا عرفتهم"، جعفر الخليلي، بغداد 1963، ص - 209
232 - "قدر يلهو!" محمد شرارة، جريدة الساعة - بغداد، 1945/4/6.

كان فقدان ابنه "وديع" كالصاعقة عليه، حمل موته رسالة قاسية له، لم ينسها طيلة حياته. أحس بالذنب في أعماقه، لأنه لم يستطع أن يجد الدواء الذي ينقذ ابنه، بسبب الحرب و التقنين في الأدوية. هيمن الموت بظلاله المعتمة على العائلة. نظرات عينيه الحزینتين تحكي النكبة التي حلت به. دموع زوجته تتساب بصمت، فقد أطبق الموت بفيكه و انتزع ابنها من حضنها.

فكتب عنها: « في مثل ارتدادة الطرف ينطفئ السراج الذي كان ينير قلبها، و يرسل الأنوار في ظلمات حياتها.»²³³

كانت زوجته تنتهد بحسرة عميقة على فقدان ابنها، و جهها خريطة مجسمة بمرارة الحزن و الفقدان، و شهقة النحيب، و صمت الدموع المناسبة من عينها. تردد دائماً أمام أولادها "راح و ديع للجنة، طير أبيض و طار، الله بي يحبو"، فالأطفال أبرياء و ليس لهم من ذنوب يحاسبون عليها، فهم سيعيشون في "ررف عال طاهر". كانت قانعة، مؤمنة، من انها مشيئة الله، و ليس عدم توفر الدواء! فالله هو القوة الخارقة التي تهيمن بكل ما هو معجز على البشر. و ما هو مكتوب على جبيننا سيقع لا محالة، و كأن الأحداث مسطرة مسبقاً منذ الأزل، و ليس علينا إلا انتظار و قوعها. إن الله يرى و يبصر كل ما نقوم به، و رقيب على أقوالنا و أفعالنا.

ارتسمت صورة "وديع" في ذاكرتنا، ترفرف روحه فوق رؤوسنا! طيف مرّ كالطير الهارب من سربه، رحل في فضاء و اسع فوق الغيوم البيضاء المتناثرة في السماء. أصبح طليقاً، ناظراً إلى عالمنا الأرضي المليء بالأحزان. و أصبحت مراقبة "الطيور البيضاء" عادة متأصلة بنا في ذلك الصيف، نفتش عن ذلك الطيف، عن أخينا وديع! نرفع رؤوسنا محدقين بسرب الطيور البيضاء قاطعة سماء دارنا، نراقب أجنحتها المرفرفة، بعيون متسائلة مبهورة، تتموج أجنحتها، تصعد و تنقطع، و تتبعد حتى تصبح نقطاً بيضاء متناثرة كالقطن في السماء المشعة بنورها، فتتلاشى و تغيب عن ناظرنا.

زارت نساء الحي زوجته "أم إبراهيم"، تتكرر الجمل و تعاد على مسمعا، كما كانت تتكرر في مدينة النجف، "عيني الله ينجينا من عين الحسود!. هاي أبنج/ أبنك حسدوا الناس، لازم جان تلبيسي حرز/تعويذة، تحمي من عيونهم". كانت النسوة و

العامّة من الناس، يرجئون في تأويل و تفسير كل شيء إلى قوة بعيدة عن الواقع، قوى إلهية، و يجهلون إن الإصابة بالمرض هي جراء فيروسات تؤدي أحياناً إلى الموت.

كان و ديع طفلاً و ديعاً كاسمه، هادئاً على صغر سنه، أشقر الشعر، يتألق و وجهه الأبيض نضارة، بعينه العسليتين الواسعتين. و كانت هنالك شريحة واسعة من المجتمع العراقي تؤمن بهذا النوع من التفكير بعين الحسود، و كان "الملاً" يقوم بتجهيز النسوة بالتعاون. و كم تمنّت زوجته "أم إبراهيم" بعد فقدانها ابنها لو أنها وضعت تعويذة في ملابسه أو تحت و سادته لتحميه من عين الحساد،²³⁴ لكنها لم تجرؤ على القيام بذلك خوفاً من سخرية زوجها.

ظل محمد شرارة يحس بالذنب في سبب فقدان ابنه، فقد كان من الممكن إنقاذه لولا انقطاع الدواء، و ليس الاتكال على قوة غيبية تعينه على تحمل العبء، لكن زوجته اعتبرت فقدان ابنها مشيئة القدر، التي كانت تتعزز عليها دائماً في حالات الضعف أمام عاصفة الأحداث الجسيمة. كان الاختلاف و اضحاً بين الموقفين، موقف محمد شرارة العقلاني و نظرتة للأمور أمام الأحداث و المصاعب، و انصياع زوجته التام للقدر و مشيئة الله.

لم تجف دموع زوجته ذلك الصيف و هي تندب فقدان طفلها! كان يعود إلى الدار ليرى زوجه كئيبة تتفرق الدموع في عينيها كلما ذكر اسم وديع. كان يكره البكاء و النواح، فتهيمن الكآبة على غرف الدار و تتلاشى الضحكات التي كانت تتردد أصدائها بين جدران تلك الغرف. أصبحت الكآبة دودة تتخر أحشاء البيت، و أمطرت دموع زوجته أعمدة الدار و تلوث هواؤه بالحسرات، و انحسرت الضحكات عن الشفاه. أصبح الدعاء و الصلاة يأخذان وقتاً أطول مما كانت معتادة عليه. أحسّ كأن دموعها تأنيب له لعدم قدرته على إنقاذ ابنه من برائن الموت. موت طفل قلب حياة العائلة و غير مجراها!! و أدى إلى توتر دائم بينهما. فقد ذات مرة ضبط النفس الذي تحلى به، صارخاً بأعلى صوته أن تكف عن البكاء، لكنه أحس بالندم حالاً، و ترك الغرفة مسرعاً، مهزوزاً، و شعر أنه تخطى الحدود المرسومة بينهما، المتجلية بالاحترام المتبادل. و هو الذي يؤمن أن: « المرأة

234 - أنظر الحديث مع رفعة الجادرجي بتاريخ 2008/2/20، عن الخوف من عين الحسود، في الفصل الثاني عن النجف.

مصدر من مصادر النور الذي يوزع الأشعة على القلوب، فيضيء ما بها من ظلمة، كما توزع النجوم شعاعها في الليالي الحالكة، و تضيء ما بها من ظلام»²³⁵

ظل فقدان ابنه و ديع جرحاً يعتمل في أعماقه. فبعد أكثر من عقد على و فاته، انتمى محمد شرارة إلى حركة أنصار السلام، و عندما هاجم رئيس الوزراء "فاضل الجمالي" في عام 1954، حركة السلام و قال عنهم: "أنصار السلام هم أنصار الشيوعية و أعداء السلام". رد عليه محمد شرارة بمقال، بعنوان "غارة جديدة على أنصار السلام"، ذكر فيه السبب الذي جعله ضد الحرب و مع السلم، و كتب:

« انك لم تنق شيئاً من مرارة الحرب السابقة. فما انتظرت بطاقة التموين، و لا و قفت على أبواب المخازن تنتظر دورك في أخذ السكر الذي يشبه الطين. و لا مات لك ولد يشبه الزهر لعدم وجود الدواء. ... و لا ذقت شيئاً من المصائب. أما أنا - يا سيدي - و أنا من أنصار السلام، فقد ذقت ذلك كله، و أن أنسَ كل شيء، فلا أنسَ ولدي الذي كان يرف على يدي كما ترف الأزهار و قد أخذه الموت لأننا لم نجد - بسبب الحرب - بعض الحبوب التي كان بإمكانها أن تنقذه من "السحايا"، و إذا نسيت ولدي فلا أقدر أن أنسى أمه التي كانت تلوب و طفلها يتساقط على يدها كما تتساقط أوراق الزهرة الذابلة! إن هذه المصائب - و هي قطرة صغيرة مما مرّ بنا و بأمثالنا هي التي دفعتنا للدعوة إلى السلام، و ليس للشيوعية أي يد بذلك»²³⁶

لم يتردد محمد شرارة، لحظة و احدة عندما أصيب ابنه الثاني بمرض التيفوئيد، الذي كان صغيراً، لا يتجاوز العام و النصف، فصمم على نقله حالاً إلى مستشفى حماية الأطفال في بغداد، و لم تتوان زوجته هذه المرة في و ضع حرز²³⁷ تحمي

235 - "وحي الحب" محمد شرارة، مجلة العرفان، شباط 1938، م 27، ج9، ص- 782

236 - "غارة جديدة على أنصار السلام"، محمد شرارة، مجلة الوادي 1954

237 - حديث مع رفعة الجادرجي بتاريخ 2008/2/20

« "الحرز أو التعميذة": هي عبارة عن أحرف أو أرقام بينكرها "الملاً" التي يحملها تلك القوى التي تمنع الروح الشريرة من أن تحل أو تدخل الدار. و في بعض الحالات يكون مصدر هذه التعاويذ من كتب مقدسة، و بذلك تمنحها قوى معاكسة، تعطل فيها قوى الروح الشريرة.»

و جاء في كتاب "صورة أب" عندما مرض رفعة، و كان طفلاً، وضعت والدته دعاء تحت وسادته، فما كان من الطفل إلا أن قام بتمزيقه.

تعلمت الفجوة الفكرية بين محمد شرارة و زوجته بمرور الزمن و توالي السنين حتى أصبحت هوة عميقة فاغرة، بين الجانبين. حاول في بداية زواجه تعليمها القراءة و الكتابة، فقد كان يتأمل إن تعلمت القراءة و الكتابة، فبإمكانهما ردم الفجوة الفكرية بينهما. و لكنها رفضت ذلك.

أصبح هناك معسكران واضحان في الدار، معسكر زوجته "أم إبراهيم" المبني على النظرة الخلاصية للعالم من خلال الإيمان بالدين و الغيبات المتعلقة به، و معسكر "أبو إبراهيم" المبني على النظرة الإنسانية في بناء عالم أفضل، يؤمن بحق الفرد في المجتمع و مساواته.

كانت زوجته تؤكد على تربية أطفالها تربية تقليدية دينية، محاولة أن يسيروا على نفس النهج الذي تشربت به في طفولتها و شبابها في لبنان. و قد نجحت في بادئ الأمر في إقناع ابنتها "مريم" بالصوم عندما بلغت سن الثانية عشرة من العمر، و لكنها أصيبت بفقر الدم بعد عشرة أيام من الصيام، و اضطرت إلى الإفطار. و لم تنته القصة عند هذا الحد، و إنما سجل الوالد نجاحاً و انتصاراً على معسكر زوجته عندما أفنعت ابنته "مريم" بخلع العباءة بعد شهرين من لبسها لها، إطاعة لوالدتها. مُني معسكرها بخسارة فادحة، و لم يعد باستطاعتها إقناع أي من بناتها بالصيام أثناء شهر رمضان - رغم صغر سنهن - و خسرت بذلك أول معركة. و بان الوهن و الضعف على معسكرها، و بمرور الوقت تتالت الخسائر، لكننا، شعرنا

238 - مقابلة أجرتها حياة شرارة مع إبراهيم الوائلي بتاريخ 1980/6/9

« و قد مرّ صديقه جعفر الخليلي بنفس الحالة، فقد توفي ابنه "هاتف" بعام قبل رحيل وبيع. كان محمد شرارة متألماً عندما فقد جعفر الخليلي ابنه "هاتف" في عام 1942. كانت صدمة عنيفة له، فلم يستطع كتابة رسالة شخصية له، و إنما اجتمع أصدقاء الخليلي و قرروا إصدار عدد خاص من جريدة "الهاتف" في تأبين هذا الطفل، و قد صدر هذا العدد و أسهم إبراهيم الوائلي في قصيدة و كتب في العدد كل من حسين مروة و مصطفى جواد، و محمد شرارة.»

- مقابلة مع مريم شرارة بتاريخ 2008/7/16، لندن - انكلترا

« كان وقع موته عنيف، فقد كانت خسارة و فاجعة بالنسبة لجعفر الخليلي و زوجته، فاقترح محمد شرارة عليهما تغيير الجو و ترك النجف، و قد جاءت العائلة و قضت شهراً كاملاً مع عائلة شرارة. كانت زيارات الناس لهما متواصلة، كما كانت "أم إبراهيم" تخرج مع "أم فريدة" لزيارة الأصدقاء و المعارف للترفيه عنها.»

بانشاطار إلى نصفين ممزقين، نصف ينافس النصف الآخر و يحاول التغلب عليه. نميل بعواطفنا نحوها، و لكن في الوقت ذاته كنا نحس بالقرب من عقلانية والدنا، التي كانت تتسم بها سلوكياته عامة! و رأى الوالد ان هذه المرحلة، هي نقلة مهمة في تنشئة أبنائه و بناته بعيداً عن عرف المجتمع التقليدي المحدود في نظرته، و ذلك في فتح كوة منيرة على آفاق جديدة في العالم. و وجد ذلك ضرورة - رغم انزعاج زوجته من هذا التوجيه - في مجتمع متخلف و منهك بالتقاليد، و متعثر بالقيود الاجتماعية الثقيلة المهيمنة عليه.

لم تمض إلا فترة قصيرة حتى خسر معسكر الوالدة جميع المعارك، و رفعت الراية البيضاء و أصبحت على الحياد، لا تتدخل في توجيه أولادها، أو في موقفهم و نظرتهم التي تأثرت لحد كبير بموقف والدهم.

* * *

كان محمد شرارة من الذين يؤمنون بالمساواة التامة بين المرأة و الرجل، و قد كتب عدداً من المقالات دافع فيها عن حقوق المرأة. و كتب مقالاً رد فيه على كتاب العقاد الذي صدر بعنوان "هذه الشجرة" التي قصد بها المرأة:

« ... كلمة "هذه" و هي إشارة إلى "شجرة النفاح" أو بتعبير آخر "شجرة المرأة" التي أخرجتها و أخرجت معها رفيقها من الجنة - كما هو معروف - و هو رأي معروف لا يختلف في جوهره عن رأي الكنيسة في القرون الوسطى بشأن المرأة ... لقد ساهمت المرأة في الماضي و الحاضر في ميادين الحياة كافة و نجحت في جميع الأعمال و هذا النجاح الذي صادفته في الأعمال يدلنا على ما وراءه من حيوية و استعداد، و لذلك لا نريد أن يفرض الرجل عليها آراء خاصة مستمدة من أنانيته و خيالاته و عنجهيته، بل نريد أن نفتح أمامها جميع أبواب الحياة، و أن تجرب استعدادها و مواهبها فإذا كان النجاح حليفها زاد رقي الأمة، و اندفاعها إلى الأمام ... تحتل المرأة الآن في العالم المتمدن مكاناً رفيعاً و لم يتنازل لها الرجل عن هذا المكان - و الرجل هناك كالرجل هنا لا فرق بينهما - إكراماً لسواد عيونها، و لكن أعمالها العظيمة، في فروع العلوم المختلفة كانت ثمناً لهذا المكان الرفيع الذي يعتقد أنها أخذته أخذاً من الرجل، و لم يوهب لها هبة.»²³⁹

و قد تجلت هذه النظرة في احترام المرأة، و الموقف المناصر لها، في تربية بناته. و ابتعد عن التربية التقليدية، و كن أقرب إليه من أبنائه، فقد نهج ثلاثتهن نهجاً أدبياً، و كان يشجعهن و يدفعهن إلى المطالعة و النقد و إبداء الرأي فيما يقرآن. لم يعاملهن كأب يصدر "الأوامر الأبوية" التي لا يمكن مخالفتها - كما كانت هي الحالة السائدة في المجتمع العراقي آنذاك - و إنما كان صديقاً لهن يرشدهن عند الحاجة إليه.

و كتب مقالاً آخر دافع فيه عن المرأة في "جريدة الساعة"، بعد الردود الكثيرة التي وردت إلى الجريدة، المتعلقة بهذا الموضوع، و أشار فيه إلى رأي "صدر الدين شرف الدين" صاحب و محرر جريدة "الساعة" حيث اتفق مع صدر الدين أن المرأة:

« عليها أن تتعلم، و أن تكون لها مع العلم شخصية لأن لها رسالة لا يرتفع صوتها بغير العلم و الشخصية».

و لكنه اختلف معه لأن صدر الدين لا يوافق على أن تخوض المرأة المعترك السياسي، أما موقف محمد شرارة من المرأة فهو المساواة التامة في جميع الحقول

- انقطع محمد شرارة عن الكتابة في جريدة "الهاتف" منذ بداية عام 1945، و انتقل لنشر مقالاته في جريدتي الحضارة و الساعة، بعد أن بدأ اتجاه اليساري يتبلور. و عندما سألت فريدة جعفر الخليلي عن سبب القطيعة التي بدأت بين محمد شرارة و والدها، أجابت:

« كان اتجاه جعفر الخليلي يمينياً، و كان يؤيد الملكية و سياسة نوري السعيد، و كانت علاقته قوية بالملك و الوصي و نوري السعيد. و ربما كان الافتراق بينهما بسبب الفكر السياسي، فقد اتجه كل من محمد شرارة و حسين مروة إلى التحليل المادي الماركسي في الكتابة. و كان جعفر الخليلي متألماً جداً، و يقول: لماذا درسا الدين؟ لكي يصبحا شيوعيين؟ فلم يتقبل ذلك.»

- و لكن يظهر من ان جعفر الخليلي كان متألماً بعمق من محمد شرارة و حسين مروة في الاتجاه اليساري الذي سلكاه، فعندما كتب كتاب "هكذا عرفتهم"، تجاهل وجودهما، و لم يذكر عنهما شيئاً، كما تجاهل ذكر أسم محمد شرارة و الدور الذي لعبه في جريدة "الهاتف" الذي دام عشر سنوات. و عندما أجريت مقابلة تلفزيونية معه في بغداد، و سأل عن دوره في الصحافة، و عن الذين ساهموا في الكتابة في جريدة "الهاتف" حيث كانت الجريدة بيده أثناء المقابلة التلفزيونية، عندما ظهر فيها اسم المدير المسؤول محمد شرارة، لم يذكر اسمه، و محمد شرارة من الذين ساهموا في توجيه الجريدة و كان له دور مهم و فعال خلال عقد من صدورهما. لذا تألمت شقيقتي حياة شرارة جداً من موقفه آنذاك.

- إن نكران وجود دور أو إعطاء أهمية إلى الآخر بسبب الاختلاف في الرأي، يعود إلى ان جعفر الخليلي لم يستطع أن يتجاوز الموقف المبني على إيديولوجية المجتمع الأهلي المنغلق و الحدي، بينما إيديولوجية المجتمع المدني تقبل التسوية و الاختلاف و لا تتكر دور الآخر مهما كان الاختلاف بينهما في الرأي.

(ب.ش)

بما في ذلك المعترك السياسي. فقد كتب صدر الدين شرف الدين: « أما أن تساوي الرجل فيما خلق له الرجل من وظائف الحياة فذلك هو التجني لا على الرجل وحده بل على الحياة نفسها أيضاً.»²⁴⁰

و اعترف محمد شرارة من ان المجتمع العربي لا يزال متخلفاً و خاصة المرأة نفسها، و كتب عنها:

« فان المرأة في الشرق لا يختلف رأيا في قيمتها عن رأي الجمهور اللهم إلا النادرات من الناس.»²⁴¹

لكنه شحذ قلمه ثانية في الدفاع عنها و تأييدها في المشاركة في الحياة السياسية و حق الانتخاب الذي اعتبره حقاً مشروعاً من حقوقها، و عليها التمتع بهذا الحق كما الرجل، و تحدى العقاد، فكتب:

« لست أفهم - و لا أظن العقاد على دقة موازينه يستطيع أن يفهمني - لماذا كان يحق للرجل الجاهل الأبله العبيط، أن يكون له صوت في هذا الحق السياسي في الوقت الذي تحرم فيه منه المرأة العاملة أمثال سهير القلماوي و السيدة أمينة السعيد و ابنة الشاطئ مثلاً. و هل يكبر على المرأة أن تكون نائبة و يكبر عليها أن تكون أستاذة في الجامعة، و هل يصعب على التي تحل أدق النظريات العلمية للشباب أن تساهم في سن بعض اللوائح القانونية!»²⁴²

رغم موقف محمد شرارة في الدفاع عن حقوق المرأة، ضد ما يؤمن به أفلاطون و سقراط من ان المرأة آلة للتفريخ و التناسل، و القيام في أعمال الطبخ و تربية الأطفال، لكنه يكمن نوع من التناقض بين نظريته المثالية للمرأة التي وضعها في "الررف العالي" و بين كيفية تطبيقها من الناحية العملية. فلم يحاول في يوم من الأيام، أن يدخل المطبخ و يساعد زوجته، فهذا الجناح من الدار خاص بها. كان كالضيف في داره، يجلس حول المائدة و الطعام جاهز أمامه، و لم تعترض هي على هذا السلوك بل كانت تعتبره جزءاً من واجباتها اليومية. و لو حاول مساعدتها لرفضت طلبه مسبقاً، لأنها ستعتبره تدخلاً في شؤونها الخاصة، فالمطبخ عالمها الخاص، و تنظيم الدار و تربية الأطفال من واجباتها الرئيسية. كما إن المجتمع الذي

240 - المقال نفسه، أدب الساعة "امرأة و خيال" جريدة الساعة، بتاريخ 1945/4/10

241 - أدب الساعة، "المرأة أيضاً!!" جريدة الساعة بتاريخ 1945/4/20

242 - المقال نفسه.

يعيش فيه، سينظر إليه نظرة بعيدة عن الاحترام، فكيف يمكن لرجل أن يدنس يديه بأعمال يدوية كالطبخ و غسل الأطفال و تنظيم الدار؟
 كان هذا التناقض سائداً أيضاً في سلوك أصدقائه المتحررين في موقفهم و نظرتهم للمرأة، الذين يؤمنون بمساواتها بالرجل في جميع مجالات الحياة.

* * *

استمر في الكتابة عن المرأة فلم ينقطع عن تناول هذا الموضوع طيلة حياته. و فكر في أن يكتب كتاباً بعنوان "نساء و مواقف"، يتعلق بعدد من النساء العربيات اللواتي كانت لهن مواقف متميزة و نادرة في التاريخ العربي. و بدأ الكتاب في مقال عن الشاعرة "عنان الناطفي" بعنوان: "عنان و السوط". هذه المرأة التي ظلت بالرغم من شاعريتها في رتبة الجوارى. و كانت دار مولاها « ملتقى الشعراء، و كانت هي نجمة النادي و محور الحوار، و لولاها لما قصدت الدار و لما دار الحديث الممتع.²⁴³ لكن مولاها ظل يعاملها كجارية يضربها بالسوط أحياناً، بالرغم من التقدير الواسع لها بين شعراء عصرها من مروان بن أبي حفصة و عمر بن شبة و أبي نؤاس.

و كتب في مقال آخر عن موقف "حفصة الركونية"، بعنوان "قمرية على ربا غرناطة"، و هي المرأة التي جمعت بين الجمال و الشعر. و في رأي محمد شرارة إن الجمال و حده لا يكفي. و لكن كانت حفصة على جانب كبير من الثقة بالنفس و الأريحية، و كان بينها و بين أبي جعفر تبادل الرسائل الشعرية:

| | |
|---------------------------|---------------------------------------|
| أزورك أم تزور فان قلبي | إلى ما تشتهي أبداً يميل |
| فهل تخشى بأن تظماً و تضحى | إذا و افي إليك بي المقيل |
| و ثغري مورد عذب زلال | و فرع ذوائبي ظل ظليل |
| فجعل بالجواب فما جميل | إباؤك عن بثينة يا جميل ²⁴⁴ |

²⁴³ - "عنان. و السوط. و الشعر!.." نظرات في تراثنا القومي، محمد شرارة، المؤسسة العربية للدراسات و النشر - بيروت، 1982، ص- 94

- أكمل كتاب "مواقف و نساء" في منتصف عقد السبعينيات، و قدمه مع كتب أخرى للطبع إلى "دار القلم" في بيروت، التي احترقت أثناء الحرب الأهلية، و لذا طبع بعض هذه المقالات في كتاب "تظرات من تراثنا القومي". (ب.ش)

²⁴⁴ - المراجع تجعل البيت الثاني ثالثاً في الترتيب، و قد خالفنا المراجع، لان الترتيب بهذا الشكل أكثر انسجاماً في الأداء. هامش: (محمد شرارة).

« في هذه الأبيات ترتفع حفصة إلى القمة في الصياغة و الأداء الفني. و كما تشير هذه الأبيات إلى المستوى التكاملي الذي وصلت إليه الشاعرة، تشير إلى عالم داخلي غني بالأوتار و التعانق العاطفي المخلص. و إخلاص الشاعرة لمن تحب ابرز ما يترأى في شعرها:

و لو اني خبأتك في عيوني إلى يوم القيامة ما كفاني

« هذا الشعر في الحقيقة لا يفرض إطلالة على امرأة، و إنما يفرض، أو قد يفرض إطلالة على العالم الذي أرغم على البقاء وراء الأسوار المعتمة، و حرم الحياة إرغامه من أنفاس كثيرة لا تقل عن هذا النفس الحنون الغني بالأبعاد العاطفية الملونة.»

كانت "حفصة" ترتاد البلاط الملكي كما يرتاده كبار الأدباء، و اقتضت إحدى الجلسات أن تتحدث عن الشعر أمام الملك الذي أعجب بها، و الذي أدى بدوره إلى أن « قتل الملك أبا جعفر ليخلو قلب الشاعرة. و لكن القلب ظل مملوءا إلى الضفاف بعد القتل كما كان قبله، و انقلب الغزل إلى رثاء.»

و يرى محمد شرارة:

« إن عالم المرأة الداخلي لا يختلف عن عالم الرجل على رغم الجرائر المعزولة التي وضعت فيها المرأة العربية ... لأن الإحساس و احد، و الفروق بين الجنسين في المسرح الداخلي تحت الصفر ... و لكن المجتمعات البدائية المغلقة هي التي خفقت الأدوات الفنية على شفتي المرأة، و حرمتها من التعبير. و استمرار هذا الحرمان إلى عصرنا الراهن أثر من آثار السلطة البدائية على العقول و الأنواق.»²⁴⁵

كما أكد على هذه النقطة في مقال بعنوان " الحرب ... و الحب ... و الموت و الشعر"، حيث بحث فيه الحب المتبادل بين الشاعر توبة بن حمير و ليلى بنت عبد الله بن الرحال، الذي رفض والدها طلبه في الزواج منها، و كتب:

« و لكن العاطفة بين الرجل و المرأة بقيت شامخة تتحدى جميع الهزائم، و تقف في وجوه الذين يتجاهلون أسرار النفس، و لا يعرفون مساراتها التي تتحرك فيها.»

245 - "قمرية على ربا غرناطة" مخطوطة: تأملات في الأدب و الحياة، محمد شرارة، مجلة العرفان - لبنان، 1972/7/15

رغم ان « الزواج حصن أو قلعة تحمي المرأة من العاشق و تحول بينه و بين الأمل، أو بينه و بين الطمع، و هذه القلعة تستطيع فعلاً أن تقوم بالحماية، و تتمكن أن تقطع الخيط الدقيق الذهبي، و تسحب الجسر الذي تسير عليه الأقدام في العبور من شاطئ إلى شاطئ. تستطيع أن تفعل ذلك في العرف الاجتماعي و القانوني و ما أشبه ذلك، و لكنها لن تستطيع أن تفعل شيئاً منه في العرف السيكولوجي، أو في القوانين الخفية التي قامت عليها العوالم الداخلية للحياة و لاسيما في مثل هذا النوع من الزواج.»²⁴⁶

* * *

246 - " الحرب.. و الحب.. و الموتُ و الشعر"، "نظرات في تراثنا القومي" محمد شرارة، المؤسسة العربية للدراسات و النشر - بيروت، 1982، ص - 79

كانت الحرب العالمية الثانية في نهايتها، عندما نقل محمد شرارة من الحلة في بداية العام الدراسي 1944 إلى بغداد، مدرساً في دار المعلمين الريفية في الرستمية.²⁴⁷ وقد وصفها حسن الأمين عندما عين مدرساً فيها في عام 1940:

« كانت تقع على ضفة (ديالي) في مكان جميل، تحوطه المروج الخضراء و الشجر الغضيب، و كانت دار المعلمين الريفية تجمع مئات التلاميذ القادمين من كل قرية في العراق، فيهم العربي القادم من الشمال و الجنوب و الوسط، و فيهم التركي القادم من كركوك، و فيهم الكردي القادم من كردستان، و كان تدريس قواعد اللغة العربية و آدابها لهذه المجموعات مهمة من أشق المهمات، كما كانت دار المعلمين الريفية مدرسة الفقراء، و القرويين منهم بصفة خاصة، فهؤلاء لم يكن باستطاعتهم أن يتحملوا الإنفاق ليتابعوا الدراسة الثانوية، لذلك كانوا يقبلون على دار المعلمين الريفية التي تتكفل بمساكنهم و طعامهم و ملابسهم، و تضمن لهم، بعد أربع سنوات، تعيينهم معلمين.»²⁴⁸

و قبلت شقيقته "سكنة" في دار المعلمات الأولية، و حصل أخوه "مرتضى" على قبول في كلية الحقوق. و أصبحت سكنة لا تزور العائلة إلا مساء الخميس و يوم الجمعة، حيث كانت تعيش في قسم المدرسة الداخلي.

كانت شقيقته سكنة تتفجر حيويةً و نشاطاً عندما تأتي لقضاء العطلة الأسبوعية. تتحدث عن صديقاتها و مدرّساتها في دار المعلمات. و كانت السبب في لقاء محمد شرارة بالشاعرة نازك الملائكة حيث كانت نازك تدرّس اللغة العربية في المدرسة

247 - الرستمية: ضاحية تقع في جنوب بغداد، أسست من قبل الجيش البريطاني في بداية عقد العشرينيات من القرن الماضي، و بني في الرستمية دور للضباط الإنكليز. فكانت الدور محاطة بحدائق واسعة، تلوها أشجار اليوكالبتوس. و بعد أن انسحب الجيش البريطاني إلى معسكري الحبانية و الشعيبة، تسلمتها الحكومة العراقية، و أسست دار المعلمين الريفية، كمزرعة نموذجية، و مختبر للتجارب الزراعية للطلبة. و أصبحت دور الضباط، دوراً سكن فيها المدرسون و الخبراء الفنيون في الزراعة. (ب.ش)

248 - "حسن الأمين، رحالة و أديبا و مؤرخا"، إحسان شرارة، دار المنهل اللبناني- بيروت، 2006، ص

التي كانت تدرس بها.²⁴⁹التقى محمد شرارة بالشاعرة نازك عندما زار إحدى المدرسات اللبنانيات التي تربط العائلة بصداقة. كان ذلك اللقاء نقطة تحول بالنسبة له، و توطدت العلاقات بين العائلتين، و دعا عائلتها لزيارة عائلته في الرستمية.

* * *

أخذ التوتر يشوب الوضع السياسي في العراق في تلك الفترة، و خاصة العلاقة بين الوصّي و نوري السعيد، مما أدى بنوري السعيد إلى الاستقالة، فتولى حمدي الباجي رئاسة الوزراء، و استطاع أن ينهي محكومية بعض السجناء الذين حكم عليهم في السجن في حركة رشيد عالي الكيلاني، كما أرخى قبضة الرقابة عن الصحافة. و طبق قانون "ميري سيرف/ أميري صرف" عام 1945، في مشروع "الدجيل" و هو توزيع أراضي الدولة على القرويين الذين لا يملكون أراضي خاصة، و ضح مشايخ القبائل الذين لم يوافقوا عليه في البداية و اعتبروه كبداية إلى الإصلاح الزراعي.

كما تصاعد في تلك الفترة المطالبة في تطبيق المطالب الكردية، التي تم الاتفاق عليها في بداية عام 1944، عندما كان نوري السعيد رئيساً للوزراء و ماجد مصطفى أحد الوزراء. و كانت تتعلق في فصل المقاطعات الكردية عن مقاطعة الموصل، و إنشاء حاكمية كردية منفصلة، و تم عقد صلح مع مُلاً مصطفى في عام 1944. و لكن رفض حمدي الباجي مطالب مُلاً مصطفى البرزاني، عندما تقلد منصب رئاسة الوزراء، فواجه ثورة متصاعدة من قبل الأكراد. و لكن الجيش قضى على الثورة، و فرّ ملا مصطفى مع رجاله عبر الجبال الإيرانية عام 1945،

²⁴⁹ -مقابلة مع سكتة شرارة بتاريخ 2007/12/14

« كانت "سكتة" بارعة في درس "الإنشاء" و طلبت "نازك" من الطالبات أن يكتبن عن موضوع "كيف تتصرفين مع الضيوف بصحبة أولادهم". كتبت "سكتة" الإنشاء بلغة تختلف عن لغة تلميذات صفها، و لفت أسلوبها الشيق في الكتابة انتباه المعلمة، و أعجبت بطريقة العرض، فبعثت عليها، فقد شعرت نازك الحزن في أسلوب الكتابة، و سألتها، لما أنت حزينة؟ فوجئت سكتة بالسؤال، إذ كانت تكن لها الإعجاب و الاحترام. فأخبرتها: إنها بعيدة عن أهلها في لبنان، قالت لها نازك: إنك تشعرين بالغرابة، أجابتها: نعم. ثم استرسلت بعد ذلك في الأسئلة عن محمد و عبد اللطيف و مرتضى شرارة الذين كانت تعرفهم من خلال ما يكتبون من مقالات أدبية، و توطدت العلاقة منذ ذلك الحين.»

و أصبح لاعباً مهماً في جمهورية "مهباد"²⁵⁰ الكردية المستقلة، التي لم تعش طويلاً، فقد قضى عليها في عام 1946.

و واصل الوصي دعوته إلى "الإصلاح" و عندما شعر بتجاهل السياسيين له، ألقى خطاباً في كانون الأول 1945، « دعا فيه إلى مزيد من الحرية السياسية و إجراء انتخابات حرة، و تنفيذ الإصلاحات التي ستؤدي إلى العدالة الاجتماعية و نظام ضمان اجتماعي.»²⁵¹

أجيزت الأحزاب في العراق،²⁵² و أجيزت معها الصحافة، و بدأ الكتاب و السياسيون يكتبون آراءهم و ينتقدون و يطالبون بالإصلاح. أصبحت جريدة الأهالي مدرسة يتتبع الناس افتتاحياتها يومياً، و لكن لم يسمح للحزب الشيوعي بممارسة نشاطه علناً عندما قدم على حزب باسم حزب التحرر الوطني، فظل حزباً سريراً. و لكنه استفاد من الحرية التي سادت أجواء العراق، و قد نشط في تكوين نفسه و كوّن كادراً مهماً من المثقفين الذين انتموا إليه، منذ بداية عام 1941، عندما أصبح يوسف سلمان "فهد" رئيسه.

* * *

في مثل هذا الجو نحتُ كتابات محمد شرارة منحنى اجتماعياً، في الدفاع عن الفلاحين و الفقراء و المعوزين من طبقات الشعب، و لكن لم يكن هنالك التزام حزبي معين في مساره، فقد كانت النظرة الليبرالية الإنسانية غالبية في مقالاته. و كانت معظم المقالات التي كتبها في تلك الفترة و التي نشرت في جريدة "الساعة" و

250 - تأسست جمهورية "مهباد" في أقصى شمال غرب إيران، حول مدينة "مهباد" التي كانت عاصمتها. كانت دويلة قصيرة العمر غير معترف بها دولياً، مدعومة من الاتحاد السوفيتي، كجمهورية كردية، و لم تدم أكثر من 11 شهراً و قضى عليها. و تم إعدام قاضي محمد في 31 آذار 1947 في ساحة عامة في مدينة "مهباد"، و هرب ملا مصطفى البارزاني مع مجموعة من مقاتليه من المنطقة، بعد أن سيطر عليها الشاه محمد رضا بهلوي و ضمها ثانية إلى إيران. (الموسوعة الحرة)

251 - "صفحات من تاريخ العراق المعاصر" تشارلز تريپ، ترجمة: زينة جابر إدريس، الدار العربية للعلوم 2006، بيروت - لبنان. ص - 166

252 - أجيزت خمسة أحزاب: 1- الحزب الوطني الديمقراطي، رئيسه: كامل الجادرجي، أصدر جريدة "الأهالي". 2 - حزب الاستقلال، رئيسه: محمد مهدي كبة، أصدر جريدة "لواء الاستقلال"، 3 - حزب الشعب، رئيسه: عزيز شريف، أصدر جريدة "الوطن"، 4 - حزب الاتحاد الوطني، رئيسه: عبد الفتاح إبراهيم، أصدر جريدة "السياسة"، 5 - حزب الأحرار، رئيسه: توفيق السويدي ثم سعد صالح، أصدر جريدة "الأحرار". (بش)

مجلة "الحضارة"، تجمع بين النفحة الشعرية و المشاكل الاجتماعية، و معظمها تعبير عن صور الحياة اليومية القاسية، التي يحييها عامة الناس و يعانون منها. كان يتألم و يحس بما يقاسون به، و لم يكن عنده سلاح غير قلمه، لكنه كان قلماً لاذعاً في النقد في كثير من الأحيان.

كتب مقالاً بعنوان "في الريف" بعد زيارته بصحبة الطلبة إلى "الزعفرانية"²⁵³ حيث شاهد بؤس الفلاح العراقي و خاصة المرأة، المرأة المظلومة في المجتمع الذكوري، فقد سمع فتاة تعني "هلي يا ظلام" و قد أثارت تلك الفتاة العاطفة الإنسانية التي تحلى بها:

« أما هذه الفتاة التي وقفت على الربوة تغني بصوتها الشجي "هلي يا ظلام" و هي: أهلي أيها الظالمون، تلقى الفتاة بصوتها الحزين فتلوح لك الدنيا سحباً مدلهمة و أجواءً محلولة، و يخيل إليك إن كل شيء من حولك ينادي "هلي يا ظلام". إنها كلمة بسيطة و لكنها زوبعة. فالمرأة في الريف العراقي مظلومة لو كانت كلمة "مظلومة" كافية لتدل القارئ على معاملة هذا المخلوق المجاهد الذي لا يقل كفاحه في شق الأرض و زرعها و سقيها و حصدها عن كفاح أقوى الآلات الفولاذية. تلك المعاملة التي تتصل بأعمق أعماق العصور الجاهلية و أبعدها استهانة بحقوق الإنسان. ... لقد كان بلاء الشرق بعمائمه و قلائسه، فكيف الآن و قد تحالفت الطرابيش و البرانيط أيضاً مع القلائس و العمائم، و شكلت موكباً واحداً، و جوقاً موسيقياً واحداً، يضرب على وتر واحد و يغني لحنا واحداً.»²⁵⁴

أما مقال "شهادة!"، و هو عن اعتداء رجل دين على بائع خبز، حيث أحدث الاعتداء ضجة، و انتشرت قصته بين الناس. فكتب محمد شرارة المقال بنفس الأسلوب السردى الشائق. و المقال عن بائع "الصمون"²⁵⁵، حيث اشترى رجل دين صموناً و إذا به بارد. و كان البائع ينادي على صمونه بالحار، و انتهى بضربه و ركله، وصف محمد شرارة بائع الصمون:

253 - "الزعفرانية" مزرعة نموذجية، واقعة في الناحية الجنوبية الشرقية من نواحي بغداد، أسستها الحكومة العراقية عام 1934. (ب.ش)

254 - "في الريف" محمد شرارة، جريدة الساعة، 1946.

255 - الصمون: هو نوع من الخبز، يعجن بالخميرة. أدخل إلى العراق من قبل خبازين يونانيين، استوطنوا في العراق. (ب.ش)

« وقف يرتجف كالريشة في مهب الريح، يداه في جيبيّ معطفه المهلهل البالي، و عيناه تتطلعان إلى الوجوه و في بريقهما حقد على السماء و نقمة على البشر. »
ثم ينتقل إلى و صف رجل الدين المعمم بنوع من السخرية اللاذعة، على شكل كاريكاتوري مضحك:

« و جاءت "الصمونة" تتهادى مختالة فخورة على أخواتها لأن الذي سيأويها إلى بطنه حارس من حراس الشريعة، و رجل من الرجال الساهرين على كرامة المدرسة الدينية، و انطلقت "الصمونة" إلى الزاوية المعدودة لها في بطن "الشيخ الكريم!" و لكن "الشيخ" أحس بعد تلاشي "الصمونة" في جوفه أنها لم تكن "حارة" كما كان ينادي عليها المنادي!.. إنها خديعة! انه نداء لا يفترق عن حديث الافك بشيء، هذا الرجل يخدع المسلمين، و ينادي نداء كاذباً، و يصف "البارد" "بالحار" و البارد و الحار ضدان لا يجتمعان، و بناء على ذلك فهو كذاب، و في ذلك اهانة للفضيلة، و اعتداء على كرامة الدين و غش للمسلمين! و الكاذب يجب أن يعاقب حتى يكون عبرة لغيره. و هكذا أخذت الخطيئة تتعاضم في نفس "الشيخ" و تتضخم حتى و صلت إلى وادي الكبائر! »²⁵⁶

* * *

كما لم تُعقهِ المقالات التي كتبها في معالجه القضايا الاجتماعية، عن الرد على "محمود العقاد" في مهاجمته للكتاب و الفلاسفة اليساريين. و كان مساره اليساري قد بدأ يتبلور في تلك الفترة، و اعتبر محمد شرارة، ما كتبه العقاد "نهش"، « فالرافعي بقلم العقاد، "مهذار أصم" و برنارد شو "متزلف" و سلامة موسى "بيغاء" و لكن "الحوفي" أستاذ"، في ريشة العقاد الدقيقة التصوير...»²⁵⁷

و لم تتج التربية و المشرفون عليها من قلمه، فانقد ضحالة الثقافة بصورة عامة في مقال بعنوان "الطفولة الضائعة!" عالج فيه الإهمال الذي يعاني منه الأطفال، من قبل الأهل و الدولة، و تساعل كيف من الممكن بناء مستقبل لهذه الأمة؟ فكتب:
« و الحياة الثقافية حياة عرجاء تمشي على عكازة ملتوية يطوق الارتعاش كل مظهر من مظاهرها، و يحيط الضعف بكل حركة من حركاتها، و الحياة الاجتماعية حياة مضعضعة مشلولة، تتحكم بها عناصر الجمود و الرجعية، و تسيطر عليها

256 - "شهامة!" محمد شرارة، جريدة الساعة - بغداد، 1945 / 2/1
257 - نهلات طائر، "أديب" محمد شرارة، مجلة الحضارة، 1945/8/27.

أفكار بليدة تسير بها إلى هاوية الانحطاط و ترجع بها إلى الوراء أميالا و أميالا!... إن هذه الأطفال التي تغص بها الأزقة، يغص معظمها بالفذارة و الأوساخ ... و اصغاء واحدة إلى ما تلقيه هذه الأفواه الصغيرة من كلمات نابية، و شتائم فاضحة كافية لأن تضع أمام أعيننا الهوة التي وقفت و ستقف على حافتها الأخلاق... و إذا قال "وطسن John Broadus Watson" و هو من كبار علماء النفس - هذا القول (إننا نعتقد انه عند نهاية السنة الثانية يكون قالب المستقبل قد تم شكله، و كثير من الأشياء التي تدخل في وضع هذا القالب تقع تحت سيطرة الآباء منهم لم يحيطوا بها علما) ... و لم يبق شك لدى الذين اختبروا الحياة، و عرفوا الكثير من تجاربها في صحة ما يذهب إليه العالم و أمثاله، من ان الآباء - و على الأخص في محيطنا - قد أضاعوا سيطرتهم على أبنائهم في الوقت المناسب، و بضياح هذه السيطرة ضاع الطفل، و بضياح الطفل ضاع مستقبل الأمة التي ضاع أطفالها.²⁵⁸

و يضرب على الوتر نفسه في مقال "تربية.. مربون!" الذي كتب فيه عن التخلف في طرق التعليم. و يرى إن الأساس للتقدم العلمي، هو في إيجاد الحلول الجذرية للحالة المزرية التي تعاني منها المدارس و المعلمون و الطلبة.

* * *

و يظهر أن محمد شرارة لم ينسجم في يوم من الأيام في سماع الموسيقى و الغناء العراقي، و اعتبره نحيباً متواصلًا، حيث تتكرر النغمة نفسها في جميع الأغاني، و الغناء المبني على شعر تافه في اغلب الأحيان، و حنين إلى الماضي. فكتب بشيء من السخرية عن أصوات المغنين غير المهذبة التي كانت تبتث من الإذاعة، بدلاً من أن يكون و اجب الإذاعة رفع مستوى الذائقة بين الناس و تثقيفهم الفني الذي يعتمد

258 - "الطفولة الضائعة" محمد شرارة، مجلة الحضارة - بغداد، تشرين الأول 1945.

- و رفض جون وطسن (1878- 1958) « تأثير الوراثة في سلوك الفرد و شخصيته، و أبرز دور البيئة الاجتماعية في تشكيل الشخصية، حيث يرى أن المتعلم إذ ما أعطي عدة استجابات لمثير ما فإن الاستجابة التي تتكرر أو تتردد أكثر من غيرها هي الاستجابة التي تم تعلمها. و أنه كلما عززت هذه الاستجابة بحكم تكرارها فإنها ستصبح استجابة طبيعية، أي انه جعل التكرار هو الذي يكون الاستجابة الغالبة.»

"سيكولوجية الجريمة و النظريات النفسية التي تفسر أسبابها"، د. رضا الموسوي، مجلة نرجس، العدد (10) كانون الثاني 2009، ص- 44

على المعرفة و التتبع في الموسيقى: « و انك لا تكاد تسمع الفن هناك حتى تصلي و تسلم على "أنكر الأصوات".»

و كتب بنفس الأسلوب الساخر عن ما يسمى بالموسيقى في هذا البلد:
« كانت الموسيقى تعزف بين حين و آخر بعض الأنغام التقليدية الشائعة التي يسميها "الموهوبون" في هذا البلد "فنا"... و إذا قدر لك بعد ذلك أن تسمع "الفن" الجديد ضحكت على التاريخ الذي قدس "موزارت" و "ألّه" "بيتهوفن" و غفل عن هذه العبقرية الجديدة التي اختارتها محطة الإذاعة ليكون اختيارها بعد ذلك "شهادة" عالية تتقدم مواكب الفن قبل وصوله إلى الآذان، و تغلغله في القلوب لتصل به إلى الأرواح من طريق سريع!»²⁵⁹

لكنه كتب مقالاً عن أهمية الموسيقى في حياة الإنسان و تأثيرها عليه، بعد مرور ثلاثة عقود، بعنوان " شاعر و أغنية"، بدأه بالحديث عن أسطورة أورفيوس:
« الأسطورة التي تحدثت عن أورفيوس²⁶⁰ و عن قيثارته، رفعت الغناء إلى مستوى الآلهة، و خلعت عليه الطاقة التي تستطيع أن تلعب بالنواميس و قوانين الطبيعة، بل و حتى بالآلهة التي سنت النواميس.

« و إذا كانت الأسطورة خيالاً بدائياً قائماً على التضخيم و المبالغة الخارجة عن حدود المعقول فإنها، على بدائيتها، لا تخلو من عبقرية، أو من رؤية نفسية بعيدة نفاذة. و إذا - كانت الحياة بلا معنى لولا الموسيقى- كما قيل- فإن هذا القول لم يكن مستمداً من رؤية ما وراثية، بل كان مستمداً من الحياة و من وقائعها... و ما دام الجمال الفني قوة فسيبقى له نفوذه و تأثيره على النفس.

«... إن للموسيقى و ألحانها التأثير القادر على إعادة التوازن للحياة. و إذا كان هذا المعنى و وظيفة الفن عامة، كما يقول موندريال، فإن الموسيقى من أكثر الفنون

259 - "تربية.. مربون" محمد شرارة، جريدة الساعة - بغداد، 6 / 11 / 1945.

260 - أورفيوس : ابن الإله أبولو في الأساطير الإغريقية. و قد أهداه والده قيثارة و علمه العزف عليها، و وصل إتقانه في العزف إلى درجة الكمال. سحر بموسيقاه البشر و حتى الوحوش الكاسرة و الأشجار. تزوج الحورية يوريديسي. و قد لاحقها اريستاوس، و عند هروباها، لدغتها حية كانت بين الأعشاب، و ماتت و نزلت إلى العالم السفلي، فلاحق بها أورفيوس، و تمكن من إقناع بيرسفوني و هيريدس، الهَي العالم السفلي بإعادة الحياة إلى زوجته. ووفقا بشرط ألا يلتفت إليها في طريق رحلته. و عندما التفت و أراد الاطمئنان على وجودها خلفه، فوجئ ببعودتها إلى عالم الموت. و لم يستطع فراقها فانتحر. (الأساطير اليونانية)

تعبيراً عن الحاجة الروحية، و أشدها قربي من الأساس البشري إذا كان يمتلك شيئاً قليلاً من الرهافة.²⁶¹

* * *

و بالانفتاح الذي حدث في العراق بعد الحرب العالمية الثانية، و إجازة الأحزاب و الصحف، بدأ محمد شرارة المشاركة في الحياة السياسية، و نشط سياسياً و شارك في التظاهرة التي نظمها الحزب الشيوعي بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية في 1946/6/28، و كانت التظاهرة تطالب في إجلاء القوات الأجنبية عن العراق. و قُمع المتظاهرون بتوجيه أفواه البنادق نحوهم، و سقط خمسة قتلى من بينهم طفل و احد، و جرح عدد منهم، فقد قمعت التظاهرة بصورة تعسفية. مما أثار الأحزاب الوطنية التي نددت بالبطش و العنف الذي تعرض له المتظاهرون من قبل الشرطة آنذاك. و كان رئيس الوزراء آنذاك أرشد العمري الذي أمر في قمع التظاهرة. أصبح اتجاهه السياسي و اضحاً متبلوراً، في مقارعة الظلم و تعسف السلطة، و لكن شعرت زوجته منذ ذلك الحين انه أخذ يسلك طريقاً شائكاً سيعرض نفسه و عائلته لمشاكل هو في غنى عنها!

فقد بدأ منذ عام 1942، في الاطلاع على الأدب الماركسي، و تأثر بالنظرية الماركسية و التفسير المادي للتاريخ، كما تأثر بالتنظير السوفيتي للماركسية، و يظهر ذلك التنظير في مقال كتبه بعنوان "الخلود الأدبي". إذ إن نظرية كارل ماركس في الفن، هو التفاعل الاجتماعي في زمن معين، أي إن الفكر هو إنتاج حالة اجتماعية معينة، و اعتبرت ثورة بمفهوم الفن، إذ قبل نظرية كارل ماركس، كانت معظم النظريات الفنية متأثرة بمثالية أفلاطون و مبنية عليه.²⁶² إلا ان النظام السوفيتي حول هذا المفهوم إلى نظرية سياسية، فظهرت بصيغة "الواقعية الاشتراكية"، حيث ارتبط الفن بحالة سياسية معينة. و ذلك واضح في تنظير ديمتري جدانوف، الذي حدد الإبداع الفني و الأدبي و الفكري و جعله في خدمة الحزب، و من أجل البروليتاريا و ديكتاتوريتها. و قضى بذلك على حرية الفكر عند الفنان و الأديب و الشاعر، المتمثلة في الانفتاح و التعددية الفكرية و الإبداع في

261 - "شاعر و أغنية" محمد شرارة، "طريق الشعب"، 1977 /3/3

262 - نظرية أفلاطون: تعبر عن صناعة الفن خارج تفكير الإنسان في وضعه الاجتماعي، و إنما هو مخلوق "universal" "عميم" يتأثر به الإنسان، فيصوغ صيغة معينة خاصة بزمن معين.

جميع المجالات و الفضاءات. و جعل منها آلة قمع في يد السلطة في الاتحاد السوفيتي.

لذا اعترض محمد شرارة في هذا المقال على بعض الكتاب الذين كانوا يكتبون عن بعض الآثار الأدبية من انها خالدة، و هي لا تستحق هذه التسمية. و تخوف من الجمود الذي أضفى على الآثار الأدبية كما حدث في الصين، و نشأ تقديس للماضي و الثناء عليه، « و من نافذة هذا التقديس المتمزمت أطل الخطر على تطور الحياة فرمي الكتاب الذين حاولوا التجديد بالوقاحة الإلحادية، و كان من اثر ذلك أن نشر التقديس أجنحته على الكتاب الكلاسيكيين، و ألقى على اللغة الصينية وشاحاً من الجمود، و أوقفها عن التطور منذ فجر التاريخ.»

ثم يتساءل عن الخلود و ما هو الخلود؟ فكتب:
« الخلود. ما هو الخلود؟ حتى يهون هذا الهوان، و يبتذل هذا الابتذال! انه كلمة هائلة لو قدر لها الوجود فيما ينتجه العقل الإنساني لأوقفت عجلة التاريخ عن الاندفاع، و أوقفت جرثومة الحياة عن التطور، و أبقتها في دائرة خاصة من الدوائر الضيقة التي تصاب معها العقول بالشلل و الأفكار بالالتواء و في ذلك ما فيه من الخطر على سير الإنسانية، و حركتها المستمرة الصاعدة! ... فان كان الأدب "تصويراً" للحياة - و هو ما نؤمن به - فخلوده يدور في الفلك الذي دارت به الحياة. فقد قيل عن "روميو و جوليت" في الأدب الانكليزي إنها خالدة، و لكن القصة الانكليزية²⁶³ أحيطت بظروف و عادات و قتيبة لم يبق لها أثر في الحياة الانكليزية الحديثة، و إذا كانت العناصر التي استمدت القصة و روحها قد زالت في العصر الجديد فكيف يمكن أن يبقى الشيء خالداً و هو معدوم الروح؟! و قصة "قيس و ليلى" في الأدب العربي إنها خالدة، و قصة الحبيبين العربيين كقصة الحبيبين الانكليزيين، محاطة بتقاليد بدوية و عنعنات صحراوية أدت إلى الحيلولة بين لقاء الحبيبين، و نشأ عن ذلك ما نشأ من حرقة و لوعة، كان من أثرها الشعر الحزين الباكي في الأدب العربي و غيره. ... هذا الأدب إذا كان تصويراً للحياة قيمته بقيم الحياة التي يعبر عنها، و ظلالة بوجود أشجارها؛ أما إذا هبت العواصف

263 - "روميو و جوليت" ليست قصة انكليزية و إنما هي قصة ايطالية، وقعت أحداثها في مدينة فيرونا، شمال ايطاليا" و اتخذ شكسبير هذه القصة أساساً لمسرحيته. (ب.ش)

و اقتلعت الأشجار من جذورها فمعنى ذلك زوال الوجود، و إذا زال الوجود زالت
الظلال حتماً.²⁶⁴

و لكن يرجى رفعة الجادرجي الخلود إلى "الإبتمال في الفن":
« إن مبدأ الخلود في الفن الجيد هو تصوير للحياة كما كتب محمد شرارة، حيث
يعبر عن حالة اجتماعية معينة، نتيجة فكر معين و عاطفة معينة في وضع اجتماعي
معين. لذا فهو ضمن التاريخ و يكتسب أهميته و زواله مع أهمية التعبير عن الحالة
الاجتماعية المعنية في وقتها. لكنه حدد قيمة القطعة الفنية بأهميتها الاجتماعية و
العاطفية في زمنها، و ما إن زالت الظروف فتزول أهميتها. و هذا الموقف من الفن
هو بتأثير النظرة السوفيتية، التي حددت مفهوم العلاقة بين الفن و التفاعل
الاجتماعي و لم تستطع أن تتوصل إلى مصطلح "الإبتمال - optimal" في الفن»²⁶⁵

264 - "الخلود الأدبي" محمد شرارة، مجلة الاعتدال - النجف، آذار 1946.
265 - حديث مع رفعة الجادرجي بتاريخ 2008/2/20، عندما سألته عن مفهوم الإبتمال optimality في
الفن:

« أن تفهم الإبتمال optimality في الفن: يتعين علينا، أن نسأل ما هي تلك الآلية التي تجعل هذا الفن
يعبر عن زمنه أكثر من غيره، و يمتد تأثيره بالزمن، بينما الآخر الذي لا يتمكن من الامتداد في الزمن.
أو كيف تتمكن قطعة فنية أن تحقق قيمة إنسانية أكثر من غيرها؟ فالسؤال يجب أن يكون، ما هي الآلية
التي تعبر عن القيمة في عقل الإنسان، و عن قيم عواطفه و رؤى الوجود؟
« يقرن مصدر قيمة القطعة بقدر ما تحقق صورة من التوازن بين إرضاء حاجة العاطفة المركبة: النفعية
و الرمزية و الاستطيقية، و المنضمنة العاطفة و مختلف متطلبات العلاقات الإنسانية، في مقابل الكم و
الجهد أو الطاقة المستنفذة في آلية التعبير. فيصطلح على توازن هذه المحصلة "بالإبتمال"، و بقدر ما
يحصل هذا التوازن بين التعبير المقترضب عن حالة اجتماعية مهما كانت، و في أي زمن كان، فعند ذلك
يكتسب العمل صفة "الإبتمال". إنها قيمة لصفة تنطبق على الأدب و الفن و أشكال جميع المصنعات التي
يحققها الإنتاج. و بقدر ما يتحقق هذا التوازن الذي يعبر عن متطلبات وجدانية المجتمع، عمومياته و
خصوصياته الإنسانية، سيتجاوز العمل الزمن، لأنه يكون اكتسب مسبقاً صفة الإبتمال. بمعنى، كلما كان
التعبير أعمق و أدق، و في الوقت نفسه يستنفد جهداً أقل، فيكون قد تحقق ذلك التوازن الذي يصطلح عليه
الإبتمال.

« و البرهان على ذلك إن مجتمع الصيد البدائي الذي أنتج رسوم كهف "لاسكو Lascaux" في جنوب
فرنسا، و رسوم كهف "التميرا Altamira" في أسبانيا، لم تزل تتمتع بقدرات تعبير فذة في صفاتها التعبيرية
على وجدان و حسيات الحاضر، بالرغم من مرور أكثر من عشرين ألف عام، و انتقال الحضارة إلى
مراحل أخرى. إنها صورة دقيقة، حية ناطقة، و تعبير صادق عن وجدانية ذلك المجتمع، بالرغم من زوال
مجتمع الصيد.

« كما سيتوضح هذا المفهوم، حين دراسة "اللبوة الجريحة في الجداريات الأشورية"، فنحن نعلم إن اللبوة
كيان يتمتع بقوى هائلة، و لكنها في هذه الصورة، جريحة، تمثل رمزاً يعبر عن مأساة العظيم حينما يفقد

فالفن ليس فقط تصويراً للحياة، "و قيمته بقيم الحياة التي يعبر عنها" فقط، و إنما يتضمن الفن التعبير عن عاطفة الإنسان و قدرة هذه العاطفة في التعبير عن نفسها. فإذا تمكن الأديب أو الفنان أن يتجاوز الحاجة الزمنية المعينة و يعبر عن عاطفة الإنسان "العمومية"، يكون بذلك قد استطاع أن يتجاوز الفترة الزمنية التي كتبت فيها تلك القصة أو المسرحية أو الصورة التي رسمت فيها القطعة الفنية، و إن تقدم الزمن وراء السنين.

ف نجد الشعر المبسط الواضح في مسرحية "روميو و جوليت" الذي يعبر عن عاطفة الحب الجياشة، بين مراهقين في زهرة شبابهما، في زمن ما، جاء هذا التعبير عن الحب الذي ظهر مع تطور عاطفة الإنسان، و الذي لا يمثل فترة معينة، لأنها قيمة إنسانية تمتد في جميع الحضارات و الأزمان، ما زال هناك حب عاطفي يتمتع به الإنسان. و قيمة هذه القطعة الشعرية في أنها عبرت عن هذه العاطفة الهائلة التي تحدث المخاطر. لذا فان مسرحية "روميو و جوليت" هي تعبير إنساني عميق، و اقتضاب شديد في استعمال اللغة، التي استعملها الشاعر في التعبير عن تلك العاطفة المتقدة و القدرة الهائلة على الحب، و لذا منحت قصة "روميو و جوليت" قيمة الخلود. و هنا تتجلى عظمة الشاعر شكسبير في قدرته على تحقيق ذلك، و إن تقدم الزمن و امتدت وراؤه السنين، و تغيرت الظروف الاجتماعية.

القوة، و يسقط و يتخلى عنه الدهر. و استطاع النحات الأشوري بخطوط قليلة أن يعبر عن هذه المأساة سواء التي يتعرض إليها الحيوان أم الإنسان. فالتعبير هنا عن موضوع عام يشمل صيغ عمومية الوجود. و هي مأساة السقوط و فقدان حيوية الوجود. لذا تتجاوز هذه الجدارية الزمن الذي نحتت فيه، بسبب النوعية المقتضية للتعبير عن مأساة عميمة للكيان الحي. كما تتجاوز "كلجريات cultures"، زمنها و بعد زمنها، و كأن الخطوط تتميم لك، بهدوء لا تكاد تسمعه، عن مأساة السقوط. و هنا يكمن مصدر التوازن بين تعبير هذه الخطوط القليلة عن مأساة عميمة، و هي صفة الإبتالية التي يحملها هذا العمل الفني.

« و مثل آخر يوضح هذه النقطة أي "الابتمال optimal"، هو التوازن بين التعبير بالحد الأعلى و باستنفاد الطاقة بالحد الأدنى، المتمثل في النوافذ الملونة لكاتدرائية شارتر "Chartre" في فرنسا. و إن الصورة تمثل رؤى أسطورية، منقاة من أساطير الأناجيل، و مع ذلك، فإنها صور تعبر عن الحماية الأبوية و عاطفة الأمومة "العميمة universal"، التي تخص الإنسانية بعاملتها، و جاء التعبير عن طريق ألوان محددة، و أشكال غير منتظمة. جاءت تعبيراً عن هذه عاطفة تشمل حضارة الإنسان في كل مكان و زمان، عن طريق زجاجيات ملونة مبسطة، و السهلة الصنع.»

و لكن عاد محمد شرارة إلى معالجة موضوع الخلود مرات عديدة، فقد كتب عن المتنبّي في مقال بعنوان " إثبات الوجود":²⁶⁶
« نحن نتفق مع أفغيني يفتشنيكو²⁶⁷ إن "الخلود" امتداد الفكر من الذات المبدعة إلى بقية الذات معاصرة كانت أو غير معاصرة، فأنت باق بمقدار ما تبقى أفكارك و مشاعرك و أحنائك زاداً لغيرك. فإذا فقدت هذا العنصر فقدت أهم عناصر الامتداد الضارب في النجوم البعيدة. و إذا فقدته انفصلت عن الحياة، و عن الأرض التي تحيطها بعناصر البقاء اللازمة».²⁶⁸

* * *

في ربيع عام 1946 اكتسحت مياه نهر دجلة ما بناه الإنسان. بيوت الفلاحين الطينية تطفو و تتن، ثم تنهار و تتلاشى تحت وطأة المياه الجارفة للمساحات الواسعة التي غطتها، و تتحول إلى مجرد ذاكرة.
ليس هنالك ملجأ للهرب من غضب النهر العاتي، إلا السدة الطينية التي سارت عليها السيارات المحملة بالناس و الحيوانات و العفش. فغرقت "الرُسّمية"، بعد أن غطت المياه المزارع النموذجية و دور المعلمين و مدرسة دار المعلمين الريفية. و

266 - "المتنبّي بين البطولة الاعتراب" محمد شرارة، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت 1981،

ص-60

267 - يفغيني يفتشنيكو/Yevgeni Yevtushenko: شاعر روسي معاصر، اشتهر في الغرب، بقصيدته التي شجب فيها التعصب ضد السامية بعنوان: بابي يار/ Babi Yar، في عام 1961. (ب.ش)

268 - حديث مع رفعة الجادرجي عن "ما هو الخلود؟" بتاريخ 2008/3/2

« لقد ظهر مفهوم الخلود بصيغة واضحة مع تبلور ظهور الآلهة في مجتمع الإنتاج الزراعي، و ابتكرت رؤية الخلود التي تنفصل عن البدن، و في قدرتها أن تنتقل إلى عالم آخر بعد وفاة الفرد المعين. و قد جاء في ملحمة "الكامش" مساعلة هذه الرؤية، حيث تنصح الإنسان أن يهتم في معيشه اليومي و الاستمتاع بوجوده. ثم جاءت الفلسفة الإغريقية بمفهوم الخلود للإنتاج العقلي، و كان أرسطو أول من وضع مفهوم خلود الفكر، بكونه فكر يمتد في الزمن.

« بعد العصر الهليني و مع مجيء الزرادشتية و من ثم الإبراهيميات، حصلت ردة معرفية كبرى. فظهرت صور الخلود في جنة تتضمن عالماً أخروياً سرمدياً مريحاً حيث تتوفر فيه كافة تمنيات العالم الدنيوي. و أصبح التوسل للخلود من أهم هموم المؤمنين بالإيديولوجية الزرادشتية الإبراهيمية. و عندما جاء عصر النهضة، تجاوز هذه الرؤية الخرافية، و اعتبر الخلود ينحصر في إنتاج ما يحققه الفكر. و من بين الفلاسفة الذين صاغوا و أوضحوا رؤية الخلود الفكري هو بيتر و بومبونازي Pietro Pomponazzi، الذي عاش 1462-1525.»

هذه هي المرة الأولى التي يتعرض محمد شرارة و عائلته بها للفيضان.²⁶⁹ حيث عانت العائلة و خاصة زوجته، من نقل العفش، فلم يمنحها الفيضان الوقت لكي تقوم في ترتيب و تنظيم العفش بطريقتها الدقيقة الخاصة، التي أصبح طابعها المميز في النقل، حيث كانت معتادة على نظام معين، من كثرة التنقل بين الألوية /المحافظات في العراق.

و اضطرت العائلة إلى الانتقال إلى دار جديدة في الاعظمية لقضاء فصل الصيف. إذ كان محمد شرارة يكتب في تلك الفترة في جريدتي "الساعة و الحضارة"، أما أخوه مرتضى فكان يشرف على الصفحة الثقافية في جريدة "الزمان" التي كان رئيس تحريرها "توفيق السمعاني". فكان يعود كلاهما محملاً بالجرائد.

لذا لعبت الجريدة دوراً مهماً في حياة العائلة. كانت الجريدة تمرّ بفصول و مراحل مختلفة و وظائف عديدة قبل انتهاء حياتها. الجريدة هي الحقل الذي يزرع فيها محمد شرارة أفكاره، كما كانت مصدر رزق في بعض الأحيان، عندما تغلق جميع أبواب العمل في وجهه. و الجريدة لها الدور المعتاد في قراءتها و تتبع الأحداث الآنية، إلا أنها بعد أن تنتهي مهمة الوالد منها، تصبح من حصة زوجته، التي كانت تقوم على جمعها و تنسيقها يومياً، بوضعها فوق بعضها باعتماد، و حفظها في غرفة الخزن!

كان زجاج النوافذ يغسل بالماء بعد كل عاصفة ترابية، أو قبل الاحتفال بالعيد، فيأتي دور الجرائد المكدسة في المخزن. تكور على شكل كرة و يمسح زجاج النافذة باعتماد، و يمتزج الماء بالحبر الأسود، و تسيل حروف كلمات الجريدة و تدوب بين الأسطر، و تصبح مرقطة بالبقع السوداء، ليكون نصيبها كيس النفايات.

كما كان للجرائد دور آخر في السفر و التنقل من دار إلى دار، و من مدينة إلى أخرى. فتجلس زوجته قبل أن يحين موعد السفر أمام الصناديق الخشبية الكبيرة قبل أن تضع فيها الأدوات الزجاجية، تلفها برفق بالجرائد، يمتلئ أول صف من الصندوق، تغطيه بلفائف إضافية قبل أن تبدأ بالصف الثاني. و عندما تصل العائلة دارها في المدينة الجديدة، تبدأ طقوس جديدة بإخراج أدوات المائدة الزجاجية من الجرائد التي حفظتها من الكسر، و ينتهي بذلك عمر تلك الجرائد التي تنتظر

²⁶⁹ - لقد تعرضت مدينة الناصرية إلى الفيضان عندما كان محمد شرارة يقطن فيها، و غرقت أطراف المدينة فقط، و قد حمت السدة وسط المدينة، فلم تتعرض داره للغرق. (ب.ش)

مصيرها في كيس أو سلة النفايات. و هكذا استمرت الجرائد تتخذ أهمية لها في جميع المراحل التي كانت تمرّ بها في دار محمد شرارة.

* * *

انتقلت في بداية العام الدراسي مدرسة دار المعلمين الريفية إلى حي "سبع قصور" في الكرادة، و انتقلت عائلة شرارة إلى الحي نفسه. كانت الدور مبنية على طراز البناء الإنكليزي بشكل "بنكلة".²⁷⁰ تحيط الدار حديقة من جميع جهاتها، أشجار النخيل شامخة برشاقتها، و أشجار الدفلة متكئة على السياج الذي تغطيه بألوان أزهارها الوردية و البيضاء، مظلة على نهر دجلة، لا تفصلها عنه إلا سدة عريضة، للحماية من الفيضان.

و وصفت حياة شرارة الدار في مقال "تلك أيام خلت":

« كان منزلنا أشبه ببيت ريفي، فهو من دور مدرسة دار المعلمين الريفية التي نقلت من منطقة الرستمية. و كانت تحيطها أشجار النخيل و غيرها، و مساحات خضر واسعة، و لم تكن بجمال الرستمية بطابعها الريفي المحض، و لكنها كانت تحمل شيئاً من ملامحها الريفية، إضافة إلى نهر دجلة يجري على امتدادها. و كان غروب الشمس يرسم كل يوم لوحة بديعة زاهية بألوانها الصفراء و الحمراء و الزرقاء و الرمادية التي تظهر بين فينة و أخرى بمنظر جديد، فيتغير ترتيب ألوانها و تدرجها من الغامق إلى الخفيف و تنعكس متلاثلة أو هادئة ساجية على صفحة مياهه لتخلب العيون بروعتها و تأسر العقول، فيظل المرء مسمرّاً يحرق فيها حتى يطويها جناح الظلام. كان الغروب الذي يختال بجماله أشبه بواجهة مشرقة لتلك الأمسيات.»²⁷¹

* * *

270 - Bungalow، بنكلة: الكلمة من أصل هندي، و معناها بيت من طابق واحد، محاط بالحدائق، و استعملها الإنكليز في البيوت التي بنيت لهم في بعض مناطق بغداد. (ب.ش)
271 - "تلك أيام خلت" د. حياة شرارة، مجلة الأقلام- العدد التاسع، أيلول 1989 ص- 98

الفصل السابع

1949 - 1946

الندوة الشعرية

نمت الحركة الوطنية في العراق، وازدهرت في عقد الأربعينيات و بداية الخمسينيات، وخاصة بعد الانفتاح الفكري و السياسي الذي تلا الحرب العالمية الثانية، فأجيزت الأحزاب الوطنية، و لعب رؤساء تلك الأحزاب دوراً مهماً في توعية الشعب و مساءلة السلطة عن الفساد الذي كان ينخر مؤسسات الدولة. و كان للجراند دور مهم في تنوير الفكر العراقي، و خاصة افتتاحيات جريدة الأهالي. كما برز الحزب الشيوعي - الذي لم يجز علناً - في دوره القيادي للتظاهرات التي حدثت في العراق في تلك الفترة.

و بسبب هذا الانفتاح، تمخض عقد الأربعينيات عن ظهور حركة ثقافية واسعة، و اكبت الحركة الوطنية في العراق، و انقلبت إلى ثورة فكرية في جميع المجالات الأدبية و الفنية و السياسية و الاجتماعية، فازدهرت الأفكار الماركسية و الليبرالية و القومية. كما برزت حركات أدبية كانت في صراع مع الأفكار اليسارية هي البودليرية و الوجودية و الفرويدية، و كانت العاصمة بغداد هي البوتقة التي تفاعلت و انصهرت فيها جميع الأفكار و الحركات المختلفة الجديدة.

و أسس الرسام فائق حسن "جماعة الرواد"²⁷² المعروفة "بالأس بي Society Primitive". كانوا مجموعة من الرسامين يرسمون الطبيعة كالرسامين الانطباعيين في القرن التاسع عشر في فرنسا. و لكن بعودة فنانيين معظمهم من خريجي جامعات إنكلترا و فرنسا و ايطاليا، درسوا الحركات الفنية المختلفة في أوروبا من التكعيبية و التجريدية و السريالية، لم يعد هذا النوع من الرسم يشبع تطلعاتهم، بل كانوا من الشباب المتمرد و المتحمس الذي يحاول إيجاد أسس جديدة لخلق حركة فنية جديدة في العراق، و ابتكار طابع عراقي مميز.²⁷³

272 - "جماعة الرواد": هم فائق حسن و إسماعيل الشихلي و الدكتور خالد القصاب، و الدكتور قتيبة الشبخ

نوري، و زيد صالح، و محمود صبري و عيسى حنا و غيرهم.

273 - « كانت المناقشات في أمسيات "الرواد" تتطور، ثم تتبلور في ضرورة استحداث فن عراقي حديث متأثر بالمجتمع العراقي، و تكون له قاعدة معاصرة متقدمة و أممية السند، على أن تكون له في نفس

كما أسس النحات جواد سليم الذي كان متأثراً بالفن التجريدي الأوربي "جماعة بغداد"،²⁷⁴ و هي مدرسة جديدة تستلهم التراث العراقي، متمثلاً برؤية حديثة في صهر التراث العراقي من النحت السومري و الآشوري،²⁷⁵ و مدرسة الواسطي في بغداد في القرن الثالث عشر. كان البحث يدور حول الفن، هل يكون في خدمة المجتمع أو لا يتحدد بهموم المجتمع و مشاكله. و استقطب الحوار و الجدل الذي كان قائماً بينهم جزءاً كبيراً عن الفن الملتزم و غير الملتزم في معالجة هموم المجتمع!

فالمجموعة الأولى تؤمن بأن الفن يجب أن يكون ذا موقف إنساني و رابطة اجتماعية يشارك في نقلة الإنسان من التقاليد و الجمود الذي يزرع تحته و يعوقه عن التقدم، و بذلك انتقل فائق و جماعته إلى مرحلة جديدة في مزج الحداثة في نقل جوانب من الحياة الاجتماعية في العراق. أما المجموعة الثانية برئاسة جواد سليم فكانت تؤمن بأن الفن يجب أن يكون له أبعاد فكرية أخرى، و يجب أن تتوفر الحرية اللازمة للفن و هي حاجة ماسة له في الإبداع. و كلاهما ركز على الخصوصية العراقية في الرسم و النحت.

الوقت مسحة عراقية خاصة به ... و قد أنتج فائق حسن أول رسم له يصور فتاة أعرابية مع معزة... و لهذه الصورة أهمية كبيرة لي، لقد كانت أول صورة استخدمت تكتيكاً مهنياً متقدماً، و هي في ذات الوقت تمثل موضوعاً محلياً له مسحة و لون و روح عراقية... كان توجيه الفن نحو المساهمة في الحركة التقدمية بحيث يصبح جزءاً منها هو بالنسبة لمحمود صبري هدف لا نقاش فيه. ... بدأ عمل محمود و موقفه من الفن يؤثر في الفنانين الآخرين من حيث يعلمون أو لا يعلمون. و أخذ يقودهم في اختيار المواضيع نحو فتاة جديدة من فن يعكس حياة اجتماعية ذات واقعية معينة بل ذات صبغة خاصة هي صبغة الثورة العمالية الفلاحية كما يتصورها.»

"الاخضر و القصر البلوري" رفعة الجادري، دار رياض الريس للكتب و النشر، لندن - قبرص، الطبعة الأولى 1991، ص 45-46

274 - "جماعة بغداد" هم جواد سليم، و قحطان عوني و نزيهة سليم و نزار سليم و جبرا إبراهيم جبرا و خالد الرحال، و شاكر حسن آل سعيد و غيرهم.

275 - « كان التطلع نحو الحضارة الغربية بما تتطوي عليه تكنولوجيا معاصرة في الرسم من جهة، و التعرف على الحضارة العراقية المندثرة من جهة أخرى و التي يكشف عنها النحت السومري و البابلي و الآشوري. هذان القطبان المتجاذبان أدبا إلى نشوء القفزة إلى النظرة الفنية لدى الفنان العراقي، و لعل هذه القفزة قد حصلت عند جواد بالذات قبل غيره. فقد ذهب جواد في ذلك الزمن المتزمت إلى المبعى العام و رسم هناك القواد و العاهرات. كما رسم مرضى الملايا.»

"شارع طه و همرسمت - بحث في جدلية العمارة"، رفعة الجادري، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت - لبنان 1985، ص- 11

أما في العمارة فقد عاد شباب معماريون درسوا في الجامعات الأوروبية والأمريكية، و أصبحوا بعد فترة قصيرة قادة العمارة في الشرق الأوسط، مثل محمد مكية و رفعة الجادرجي و قحطان عوني. و برزت ثلاثة اتجاهات. النقلة التي قام بها رفعة الجادرجي هي صهر التراث بالحدائثة، و ألا يكون عبداً للتراث و إنما التراث وسيلة لإعطاء طابع محلي بتقنية حديثة، بما في ذلك مسألة الهوية.²⁷⁶ أما المعمار محمد مكية فقد استعمل الزخرفة و النقوش الإسلامية من غير تطوير جذري أو ملموس، و لكنه وضعها ضمن هيكل معاصر متقدم و دمجها في العمارة الحديثة كنقوش فقط. أما المعماريون الآخرون، فقد التزموا بالأشكال المعمارية الغربية من غير الالتفات إلى مفهوم متطلبات الحاجة و المتطلبات المحلية.

و ما حدث في الفن انعكس في الشعر و الأدب أيضاً، فكان هنالك مجموعتان، مجموعة تؤمن بالحرية الفكرية الفردية. كانوا يلتقون في المقاهي و اشتهرت مقهى "واق واق" في الاعظمية في لقاءات أولئك الشعراء و الأدباء الذين كانوا متأثرين بالبودلييرية و الوجودية، أو في الصيف في "الجراديج"²⁷⁷ على شواطئ جزر صغيرة تظهر بانحسار ماء دجلة في فصل الصيف. و كان الجدل و النقاش يستقطب تلك اللقاءات. كانوا يؤمنون بالعبيثة بمفهومها الايجابي، كردود فعل و ثورة على الجمود و تقاليد المجتمع البالية.

« و أسسوا جماعة "الوقت الضائع" كان من أعضائها المؤسسين إلى جانب عدد من أهم الفنانين و الشعراء و الكتاب آنذاك و منهم جواد سليم و نزار سليم و فؤاد

276 - « أخذت أبحث عن أسلوب أو عن سنن أتمكن بموجبها من استحداث أشكال زخرفية أو إدخال معالم في العمارة تعطيها طابعاً عراقياً، بالإضافة إلى إيجاد الحلول للمشاكل البيئية و المناخية التي كنت أفكر فيها و أعمل على اكتشافها ... إن نقل الزخارف نقلاً حرفياً جعلته من الأمور المحظورة بل المحرمة عليّ، ذلك لأن النقل يعني بالنسبة لي إنتاج شكل معين من غير اللجوء إلى استخدام تلك التقنية و بكامل مكوناتها التي ولدت الشكل أصلاً. و بما أن التقنية التي ولدت الزخرفة الإسلامية قد انعدمت، أو إن أهم مكوناتها قد بليت نتيجة التطور الحاصل في أساليب الإنتاج. فان النقل إذن سيكون عبارة عن مسخ للشكل القديم و مسخ للتقنية الحديثة و مسخ للفن المعاصر الذي يجب أن يتوافق معه توليد الشكل الجديد و يكون أحد نتاجاته.»

"الاخضر و القصر البلوري" رفعة الجادرجي، دار رياض الريس للكتب و النشر، لندن - قبرص، الطبعة الأولى 1991، ص - 47

277 - الجرداغ: هو سقيفة من البردي، تقام خلال فصل الصيف على الجزر الصغيرة التي تظهر بانحسار ماء دجلة.(ب.ش)

التكرلي و نهاد التكرلي و جميل حمودي و عدنان رؤوف و إبراهيم اليتيم و أكرم الوتري. التي استلهمت اسمها من رواية "البحث عن الوقت الضائع" للروائي الفرنسي مارسيل بروست ولدت تعبيراً عن حالة فرار من واقع مأزوم و لم تصبح حركة للتجديد في الشعر و الرسم و النحت و القصة إلا عرضاً.²⁷⁸ كانت المجموعة الأخرى من الشعراء و الأدباء تلتقي في دار محمد شرارة، و لكن لا يعني هذا أن هنالك قطيعة بين المجموعتين، بل كانوا في تواصل دائم، حيث كان بعضهم كبلند الحيدري و أكرم الوتري يحضرون أحياناً الندوات التي كانت تعقد في دار محمد شرارة، و كتب عنه زهير ماجد:

« الذي عَرَفَ منزله في العراق للمسات الأولى لبداية الشعر الحديث هناك، منذ مطلع الأربعينيات، كانت تجمعات الشعراء الشباب آنذاك تتمركز في منزله. و لذا فقد عاش التجربة من أولها و عرف البداية و النهاية، و انخرط في مجالسهم و ثم وقف على الحقائق يلمسها و يضع تاريخاً مضبوطاً لها.»²⁷⁹ و ما كان يجمعهم في تلك اللقاءات، حبهم للأدب و الشعر، بالرغم من التباين و الاختلاف في آرائهم السياسية. ضمت الندوة الشعراء و الأدباء، فكان من بين الشعراء نازك الملائكة و بدر شاكر السياب و لميعة عباس عمارة و أكرم الوتري و بلند الحيدري، و كاظم السماوي و من الأدباء حسن الأمين²⁸⁰ و حسين مروة و محمد حسن الصوري و صادق الملائكة، كما كان يحضر عدد من الأصدقاء كعزيز

278 - " بلند الحيدري و إغراء الفلسفة"، حسين الهنداوي، مجلة النزوى - العدد 5

279 - حديث مع محمد شرارة أجراه زهير ماجد معه بعنوان: " محاولة لتاريخ جديد في الشعر العراقي - حكايات من "الصالون" الأدبي الذي ولد فيه الشعر العربي الحديث"، بيروت المساء، الجمعة 21 حزيران

1974

280 - حسن الأمين: أستاذ اللغة العربية في كلية الملكة عالية من 1945- 1948، أعطته " أمت السعيد" عميدة كلية الملكة عالية، غرفة للإقامة في الكلية، و عندما كان يصل قبل بدء موسم الدراسة في الكلية، كان يقيم في دار عزيز أبو ألتمن. (ب.ش)

« كان حسن الأمين أول من قام بنشر ثلاث قصائد لنازك الملائكة في مجلة العرفان بعد أن رفضت "مجلة الغد" الأسبوعية التي كان يصدرها فريق من خريجي الجامعة الأمريكية نشر قصائدها، " و فوجئت الشاعرعة نفسها بنشرها في مجلة لم ترسلها إليها"، كما كان حسن الأمين يدرس في دار المعلمين العالية، و علم إن في الدار "طالباً شاعراً، اصدر ديواناً صغيراً باسم (أزهار ذابلة) فكتب - تعريفاً به و بديوانه - مقالاً في جريدة (الأخبار) اليومية كان أول ما يكتب عن السياب.»

"حسن الأمين، رحالة و أدبياً و مؤرخاً"، بقلم: إحسان شرارة، دار المنهل اللبناني - بيروت 2006، ص-

أبو التمن ابن جعفر أبو التمن²⁸¹، و ناجي جواد الساعاتي، و شقيقه مرتضى شرارة، و نزار حسين مروة، و كريم مروة و نزار الملائكة و غيرهم.²⁸²
و قد و صفت حياة شرارة الحاضرين في تلك الندوة:

« كان معظم الحاضرين، كما هو واضح، في عمر الشباب، أو الفتوة أو الصبا، و لا يتجاوز حتى الكبار منهم سن الأربعين ما عدا الجواهري. و كانت غالبيتهم على حظ وافر من الوسامة و الأناقة، بل كان البعض منهم يختال الجمال طاغياً جذاباً في محياهم و قوامهم. و كانت الأحلام العذبة و الأماني الباسمة تداعب عقولهم و تسري في أرواحهم و تمتاز بأجواء الشعر و النثر الرومانتيكية من قصائد الشابي و إيليا أبو ماضي و شيلي و كيتس و جبران خليل جبران و المنفلوطي و طه حسين و سلامة موسى و المازني و محمود تيمور و غيرهم. و كان بعضهم ممن توطدت منزلته الشعرية أو الأدبية و منهم ما بدأ بداية تبشر بموهبة لامعة، و منهم من يلتهم الكتاب تلو الآخر و يصغي للكبير منه و ينتظر دورة الزمن لتتجلى و تبرز إمكاناته الفكرية و الأدبية. و هكذا التقى "الصبا و الجمال" و الأناقة و الشعر و الحديث الحاذق و الكلمة الذكية... و الإصغاء إلى تلاوة الشعر أو المناقشات الأدبية

281 - عزيز أبو التمن، هو نجل جعفر أبو التمن، و قد نشأ في جو محافظ و بيت تقليدي، فلم يسمح له والده في ممارسة الفعاليات التي كان يقوم بها أقرانه مثل رفعة الجادرجي. و كان من جملة الفعاليات تعلم العزف على آلة موسيقية، لأنها تلهيه عن ذكر الله. لذا بمجرد أن تجاوز سن المراهقة مال إلى ابنة عمته "غازية" و تزوجها عندما كان في مطلع شبابه، فلم يمر بأي نوع من التجارب في الحياة قبل إقدامه على الزواج، و بمجرد وفاة والده، زالت القيود التي كان يعاني منها، و أصبحت هواياته الكثيرة التي كانت محرمة عليه، في متناول يده، من التصوير الفوتوغرافي إلى شراء السيارات السبورت، إلى السفر و البذخ لدرجة بالغة من التبذير، و بذلك بذر ثروة والده في سنوات قليلة. مما خلقت له مشاكل عائلية كثيرة، أودت بالنهاية بحياته، و هو ما زال في أوج شبابه! (ب.ش)

282 - و كتب كريم مروة عن الندوة:

« لقد كانت دار محمد شرارة في الكرادة الشرقية، و هي ضاحية من ضواحي بغداد، ملتقى للأدباء و الفنانين. و ملتقى للشخصيات السياسية و الاجتماعية. و كنا، أبو نزار و نزار و أنا مع سائر أفراد العائلة، و أحياناً نحن الثلاثة لوحدها، نذهب لقضاء سهرات أو أيام عطلة بكاملها، مع العائلة الصديقة، المتعددة الهوايات و الطباع و العلاقات. من أبي إبراهيم إلى مرتضى شقيقه، إلى شقيقته سكنة، و بناته مريم و بلقيس و حياة، جميعهم كانوا يحبون الثقافة و يمارسون صنوفاً منها، إبداعاً و نقداً أو قراءة على الأقل، أو نقاشاً في جوانب منها. تعرفت مع نزار إلى أشخاص كثيرين و لكنني أحفظ بمكان خاص بين هؤلاء للشاعر بدر شاكر السياب و للشاعرة نازك الملائكة.»

"تكريات مع نزار مروة: عن الكاظمية و السياب و مرحلة الأربعينيات". كريم مروة، جريدة السفير

1992/6/3

و العامة... لاشك إن محمد شرارة كان المضيف و الراعي و المشجع لتلك الندوة بشخصيته القوية اللبقة البشوش و روحه الاجتماعية و نقداته الأدبية الذكية و حديثه الممتع و حفاوته بالوافدين و حبه للضيافة...»²⁸³ و استمرت تلك اللقاءات متصلة لا تعرف الانقطاع حتى سنة 1949.

لقد شكلت الندوة الأسبوعية بداية النهضة الشعرية، و تركت آثارها على الشعر الحديث ليس فقط في العراق و إنما في العالم العربي. و كان الجدل و النقاش حول تجديد الشعر، و جعله بعيداً عن شعر القافية، التي تحدد الشاعر في قالب معين.

« كان بدر يحس برتابة العروض التقليدية و محدوديته، و كان يتابع مزج البحور في القصيدة الواحدة و غير ذلك مما كان يقدم عليه في ذلك الوقت الشاعر اللبناني الياس أبو شبكة (ت 1947) و الشاعر المصري خليل شيبوب (ت 1951) و غيرهما.»²⁸⁴

و يؤكد حسن الأمين على إن بلند الحيدري و نازك الملائكة كانا سباقيين بعامين لبدر شاكر السياب في هذا المضمار، إذ لم يكن مواكباً لتلك الندوة، بل كان له دور مهم في نشر تلك القصائد في العراق و لبنان عندما كان أستاذاً يدرس في كلية الملكة عالية في بغداد.²⁸⁵

²⁸³ - " ندوة الشعر الحر في بغداد الأربعينات: لحظات من الأدب و الحب المستحيل"، د. حياة شرارة، جريدة النهار، الملحق 1997/11/29

²⁸⁴ - « و زعمت نازك الملائكة إنها هي أول من نشر قصيدة منه (الشعر الحر)، و ذلك في قصيدتها "الكوليرا" التي كتبتها في 27 تشرين الأول 1947، و نشرتها في عدد كانون الأول من مجلة "العروبة" البيروتية. و لكن صدر ديوان بدر "أزهار ذابلة" في كانون الأول... إن محاولات قبل نازك و بدر استعمل الشعر الحر في ترجمات، احمد علي باكتير... و لباكتير قصيدة من الشعر الحر بعنوان "نموذج من الشعر المرسل الحر" عام 1945. و لحسين غنام ترجمة لقصيدة لونجفلو عنوانها "هياواتا" هي من الشعر الحر، 1945، و لفؤاد الخشن قصيدة عنوانها "أنا لولاك" الأديب، تشرين الأول 1946. و كل هذه محاولات سابقة لمحاولة بدر و نازك. غير انها لم تنجح في جذب الشعراء العرب و تحميسهم للتجديد مثل ما نجحت محاولات بدر و نازك بعدها، فبدأت حركة جديدة في الشعر العربي. و قد انتشر هذا اللون الجديد من الشعر بسرعة في بضع سنوات بين شعراء العراق الشباب، و من ثم بين شعراء آخرين في العالم العربي، و عرف باسم "الشعر الحر".»

"بدر شاكر السياب - حياته و شعره"، عيسى بلّاطة، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، الطبعة السادسة، 2007، ص 58 - 60

²⁸⁵ - أكد حسن الأمين في حديثه الذي نشر في مجلة "بيروت المساء" على إن نازك و بلند كانا متقدمين على بدر:

كانت تلك الفترة هي العصر الذهبي بالنسبة للشعر الحديث في العراق، فقد صدرت ثلاثة دواوين شعر، لشعراء شباب من مجددي الشعر، ديوان بدر شاكر السياب "أزهار ذابلة" و ديوان نازك الملائكة "عاشقة الليل" و ديوان بلند الحيدري "خفقة الطين"، غيرت هذه الدواوين بدورها مفهوم الشعر و هزت الأسس التي كان يقوم عليها، من كلام موزون مقفى، و خرجوا عن الأنماط الشعرية السائدة، و حققوا مفاجآت كبيرة في الرؤيا الشعرية، فقد أدخل هؤلاء الشعراء أساليب جديدة، محررين الشعر من قيوده القديمة، من الأوزان و الإيقاعات و نأى شعرهم عن

« كنت في بغداد خلال الأربعينيات أتولى التدريس في كلية البنات في جامعة بغداد. و كنت أتردد على مجلة "عالم الغد" الأسبوعية، و فيها رأيت أول قصائد الشعر الحديث و كانت مكدسة في مكتب المجلة و أصحابها حائرون في نشر هذا النوع من الشعر أو عدم نشره. » و الحقيقة أن تلك القصيدة كانت لنازك الملائكة، و كان ذلك عام 1946، و بعد أن قرأتها، أعجبت بها و أشرت عليهم بنشرها، فكانت هذه القصائد أول ما نشر من الشعر الحديث. » و بعدها اتصلت بنازك و أخذت بعض قصائدها و منها قصيدتها المشهورة "الكوليرا" و أرسلتها إلى مجلة "القبس" الدمشقية و "العرفان" اللبنانية. فكانت تلك القصائد هي أول ما نشر من الشعر الحديث خارج العراق.

« و في هذه الأثناء عرفت أن هناك شاعراً شاباً هو بلند الحيدري ينظم في نفس الطريقة و نفس الأسلوب، فتعرفت عليه و قرأ لي شيئاً من الشعر الجديد، ثم أصدر بعدها ديوانه "خفقة الطين" فكان فتحاً في هذا الشعر، و كان أول ديوان لشاعر عربي يصدر في هذا الأسلوب.

« بناء على هذا فان شعر نازك الملائكة و بلند الحيدري سابقان بمدة بعيدة لشعر السياب. و اذكر أن السياب نشر ديوانه "أزهار ذابلة" بعد ديوان الحيدري بعامين تقريباً. و جاء ديوان السياب تجديداً و اضحاً في الشعر العربي و لكن ليس ما أطلق مؤخراً عليه بالشعر الحديث. و هنا أريد أن أوضح أو أعطي شاعرة أخرى حقها في هذا الموضوع بعد أن حذت حذو نازك و بلند و السياب و نظمت الشعر الحديث و أجادت ثم اختفت عن الأنظار، و هي هيام أوسواسي التي لو استمرت لجاعت في طليعة هؤلاء. و بمناسبة هيام الوسواسي لابد من القول بأن العراق يضم مجموعة من الشاعرات المجدات مما لا يجتمع في غيره من الأقطار العربية، و نذكر منهن: عاتكة الخزرجي، فطينة النائب، مقبولة الحلبي و غيرهن. »

" محاولة لتاريخ جديد في الشعر العراقي - حكايات من "الصالون" الأدبي الذي ولد فيه الشعر العربي الحديث"، زهير ماجد، بيروت المساء، الجمعة 21 حزيران 1974

- و كتب ناجي علوش في مقدمة كتاب "الأعمال الشعرية الكاملة - بدر شاكر السياب": « ان ديوان بدر "أزهار ذابلة" صدر في كانون الأول ... و لكن بدر نفسه يذكر أن ديوان "أزهار ذابلة" طبع في مصر، و أنه وصل العراق في شهر كانون الثاني سنة 1947، و قصيدة "هل كان حياً" المكتوبة على طريقة الشعر الحر قد كتبت قبل طبعه لا يقل عن شهرين - إذا كانت المسألة مسألة حساب فقط - و بأكثر من عام كما هي الحقيقة. »

"الأعمال الشعرية الكاملة- بدر شاكر السياب" المجلد الأول، دار العودة، بيروت - لبنان 2000، ص- (م) من المقدمة

المديح أو الارتهان لجهة معينة، و أصبح حاجة و جودية و إبداعية، حققوا من خلال شعرهم ذاتهم الإبداعية.

إن تجديد الشعر في العراق قد حدث في منتصف عقد الأربعينيات، و استحق هؤلاء الشعراء الذين ساهموا في هذا التحديث لقب "الرواد". و لكن الأهم من ذلك هو أن الانجاز الإبداعي الذي وصلوا إليه في قصائدهم في تلك الفترة، هو الذي قرر البعد الحقيقي للريادة الفنية.

و قد كتبت نازك في مقدمة ديوانها "شظايا و رماد":

« فنحن عموماً ما زلنا أسرى، تسيّرنا القواعد التي وضعها أسلافنا في الجاهلية و صدر الإسلام. ما زلنا نلهث في قصائدنا و نجر عواطفنا المقيدة بسلاسل الأوزان القديمة، و قرعة الألفاظ الميتة، و سدىّ يحاول أفراد منا أن يخالفوا فإذ ذلك يتصدى لهم ألف غيور على اللغة، و ألف حريص على التقاليد الشعرية التي ابتكرها واحد قديم أدرك ما يناسب زمانه، فجمدنا نحن على ما ابتكر و اتخذناه سنة. كأن سلامة اللغة لا تتم إلا إن هي جمدت على ما كانت عليه منذ ألف عام، و كأن الشعر لا يستطيع أن يكون شعراً إن خرجت تفعيلاته على طريقة الخليل... إنها قد كانت يوماً لغة موحية، تتحرك و تضحك و تبكي و تعصف، ثم ابتليت بأجيال من الذين يجيدون التحنيط و صنع التماثيل، فصنعوا من ألفاظها "تسخاً" جاهزة، و وزعوها على كتابهم و شعرائهم، دون أن يدركوا ان شاعراً و احداً قد يصنع للغة ما لا يصنعه ألف نحوي و لغوي مجتمعين.»²⁸⁶

أما بدر فقد كتب عن الشعر الحديث: « الشعر الحر أكثر من اختلاف عدد التفعيلات المتشابهة بين بيت و آخر. انه بناء فني جديد، و اتجاه واقعي جديد جاء

286 - "ديوان نازك الملائكة" مقدمة ديوان "شظايا و رماد" نازك الملائكة، دار العودة - بيروت 1997، الطبعة الثانية، ص 8-9

- لكن عادت نازك عن الرؤية التجديدية في الشعر: « و حاصرت تجربتها، و ما كتب في إطار نظرية "الشعر الحر" واضحة إيابه ضمن دائرة مغلقة من القوانين العروضية التي كانت قبل هذا، وجدت فيها عامل إعاقة لتطور الشعر. ... و جاء معظم ما كتبت من شعر في هذه المرحلة، ممتدة بها إلى النهاية، ممثلاً لحالة انسحاب شعري من فضاء التجربة و آفاق الواقع الحي و الانسراب نحو نمط شعري مقلد، أكثر من كونه ذا خصوصية إبداعية.»

" في الذكرى الأولى لرحيل "عاشقة الليل"... نازك الملائكة الشاعرة المجددة التي وقعت في شرك التقليد"، ماجد السامرائي، جريدة الحياة 2008/6/30

ليسحق الميوعة الرومانتيكية و أدب الأبراج العاجية و جمود الكلاسيكية، كما جاء ليسحق الشعر الخطابي الذي اعتاد الشعراء السياسيون و الاجتماعيون الكتابة به.²⁸⁷

و أما محمد شرارة فلم « يعارض الجديد من الشعر الحر، و إنما على العكس، كان أول من شجّعه و أبدى إعجابه به، بل و افتتانه بالصور الشعرية الجميلة و تسلسل الأفكار في القصيدة و ترابطها العضوي. كان يهيمه في الدرجة الرئيسة، الإبداع و روح الخلق و الفكرة في الشعر، و ليغيّر الشاعر بعد ذلك ما يشاء في القافية و التفعيلات لكي يعبر عن أفكاره و خلجات نفسه في شكل حر.»²⁸⁸

تميزت هذه الندوة في أنها كانت تضم الجنسين من الشباب و الشابات و من الرجال و النساء، و هي ظاهرة لم يشهدها العراق في حينه و لا فيما بعد. إذ ظلت الندوات سواء أكانت أدبية أو سياسية مقتصرة على الرجال، بينما كانت ندوة الخميس التي تعقد في دار محمد شرارة يشارك فيها كلا الجنسين.

كانت الندوة تعقد عصر يوم الخميس، بين تقديم أقداح الشاي، و الحديث عن القضايا العامة، و حول ما تكتبه الصحافة اليومية و الأسبوعية في الأدب و الشؤون العامة من قضايا اجتماعية و سياسية. و لكن حالما يهيمن الصمت، عندما تقرأ القصائد من قبل الشعراء، و يتحول المستمعون إلى آذان صاغية، لا ينقطع الصمت إلا بارتفاع الأصوات المعجبة بإعادة بيت أو مقطع من قصيدة. و ما إن ينتهي الشاعر من قراءة قصيدته حتى يبدأ النقاش، و تدور أقداح الشاي ثانية، و ترتفع الأصوات بالرضا أو النقد. كان صوت محمد شرارة يعلو أحياناً على الأصوات الأخرى، باندفاعه في تقييم القصيدة و تفنيدها و تفكيكها أحياناً أخرى. و كان لا يرحم في نقده اللاذع أحياناً أخرى. إذ كان يعتبر الشاعر ضمير المجتمع، و الصوت الذي غنى الملاحم و المآسي خلال العصور التي مرّت على المجتمع العربي قبل فجر الإسلام، لذا عليه أن يلعب دوراً مهماً في المجتمع، و هذا ما أكد عليه بدر في شعره في تلك الفترة:

287 - مجلة الآداب: بيروت حزيران 1954، ص - 12

288 - " ندوة الشعر الحر في بغداد الأربعينيات: لحظات من الأدب و الحب المستحيل"، د. حياة شرارة، جريدة النهار، الملحق 1997/11/29

« إن الأديب حين يصور هذا الصراع لا يقف منه موقف المتفرج المحايد - لأنه قبل كل شيء - فالقضية إذن قضيته و المعركة معركته. و هكذا كان الأدب، و ما يزال، سلاحاً من أسلحة الإنسان التي شق و يشق بها طريقه نحو حياة أفضل.»²⁸⁹
كما كتب بدر السياب في مقدمة ديوانه "أساطير":

« أنا من المؤمنين بأن على الفنان ديناً يجب أن يؤديه لهذا المجتمع البائس الذي يعيش فيه. و لكنني لا أرتضي أن نجعل الفنان - و خاصة الشاعر - عبداً لهذه النظرية. و الشاعر إذا كان صادقاً في التعبير عن الحياة في كل نواحيها، فلا بد من أن يعبر عن آلام المجتمع و آماله، دون أن يدفعه أحد إلى هذا. كما انه من الناحية الأخرى يعبر عن آلامه هو و أحاسيسه الخاصة، التي هي في أعماق أغوارها أحاسيس الأكثرية من أفراد المجتمع.»²⁹⁰

هذا صحيح من الناحية المبدئية، فالالتزام يفرض فرضاً على الفرد و الفنان، كما هو في الأنظمة الشمولية، بينما التضامن الاجتماعي هو ربط وجدان الفرد مع هموم و وجدان المجتمع. فيكون الفنان في هذه الحالة، هو الذي يسخر إرادته الحرة في التعبير عن هموم المجتمع، سواء أكان ذلك الفنان شاعراً أو أديباً أو رساماً أو نحّاتاً أو معماراً، فهو الذي يعبر عنها بصيغ بليغة لا يتمكن أن يعبر عنها الفرد الاعتيادي.

لقد كان الجو ناضجاً لولادة مثل هذا الشعر الذي أطلق عليه فيما بعد (بالشعر الحر).²⁹¹ و عندما سئل محمد شرارة عما إذا كان هنالك نوع من المنافسة بين الشعراء، أجاب:

289 - "بدر شاكر السياب - حياته و شعره"، عيسى بلّاطة، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، الطبعة السادسة 2007، ص 239-240

290 - ديوان "أساطير" النجف 1950، ص-8

291 - و قد ميز د.عبد الواحد لؤلؤة بين "الشعر الحر" و "قصيدة النثر" و "شعر التفعيلة":

« هذا الخلط مصيبة في الكتابات النقدية منذ عام 1947، و أحاديث نازك الملائكة عن (الشعر الحر) و هي التسمية الخطأ لشعر التفعيلة الذي طورته في أولى قصائدها بعد (الكوليرا). طوال أربعة عقود عجاف و أنا أكرر في جميع كتاباتي إن (الشعر الحر) تسمية اخترعها الشاعر الأمريكي "ولت وتمن" عام 1855 في مقدمة مجموعة "أوراق العشب". و الترجمة العربية للمصطلح الأمريكي غير دقيقة أساساً. فالعبارة Free verse و ليس Free poetry ، و المشكلة ان كلمة Verse ، تعني "بيتاً من الشعر المنظوم" بينما Poetry تعني الشعر بمعناه الأوسع. كما الحري بالمصطلح أن يترجم (النظم الحر) لأن ما طورته نازك الملائكة و معها بدر و البياتي و بلند و التابعون هو نظم بالتفعيلة يتحرر من عدد التفعيلات في بحور الخليل. ... و

« لم تحدث منافسة شعرية أثناء الاجتماع في منزله و إن كان الأمر لا يخلو من "الزكزكات" لكن المنافسة تجلت فيما بعد بين بدر و البياتي، و كان البادئ هو بدر. و برأي محمد شرارة إن السبب في ذلك كان خوف بدر من أن يتفوق البياتي و يتقدم عليه، و يرى ان شعر البياتي أصفى اسلوباً و أدق لغة من شعر بدر. و هذا دلالة على أن البياتي يتعب أكثر في التفتيش عن الكلمة الشعرية المناسبة، و قلما تجد في شعره كلمة قابلة للتغيير». ²⁹²

الترجمة الفرنسية Vers Libre و ليس Poesie Libre ففي الفرنسية، كما في الانجليزية شعر موزون مقفى بعدد محدد من التفعيلات إلى جانب (شعر حر) غير موزون و لا مقفى، يحمل شحنة شعرية هي في شعر (بول ايلوار) شبيهة بشعر "والت وتمن" و "اليوت" من بعده. أما في العربية، فشعر التفعيلة يلتزم الوزن و القافية، لكنه (يتحرر) من عدد التفعيلات الخليلية و من حرف الروي الواحد. فهو (نظم شعري) لأنه موزون مقفى و لأن شحنته الشعرية لا تخفى على أي متذوق للشعر ... أما (قصيدة النثر) فهي من (مخترعات الفرنجة) لصاحبها (بودلير) الذي سماها Poeme en Prose أي (قصيدة نثر) أو قصيد النثر. هذه كتابة ذات شحنة شعرية مكثفة تمتد فقرات بطولها أو صفحات، لا وزن و لا قافية و لا أسطر قصيرة مثل (الشعر الحر)».

"الشعر الحر" و "قصيدة النثر" و "شعر التفعيلة"، عبد الواحد لؤلؤة، حاوره محمد عبيد الله، مجلة النزوى، العدد 38

292 - "محاولة لتاريخ جديد في الشعر العراقي - حكايات من "الصالون" الأدبي الذي ولد فيه الشعر العربي الحديث"، زهير ماجد، بيروت المساء، الجمعة 21 حزيران 1974
- و قد التقى عبد الوهاب ألبياتي ببدر في دار المعلمين العالية: « و كان بدر معروفاً في الوسط الطلابي في بغداد عندما كان يلقي قصائده الوطنية و السياسية في الاحتفالات الطلابية. ... كان كل واحد يقرأ قصائد للآخر، و كان هو يشعر بتفوقه عليّ لأنه معروف أكثر مني. ... و لكنني لم أشعر بالغيرة على الإطلاق لأنني أحس بأعماقي أنني أعد نفسي لسنوات طويلة قادمة، أي أن روحي كانت تسكن المستقبل، و لهذا فان حبي له و صداقتي كانا صادقين جداً، إذ أنني لم أسكن الحاضر لكي أشعر بأنه منافس لي.»
غير إن الصداقة بينهما لم تستمر طويلاً ... فبعد أن انفصل بدر عن الحزب الشيوعي، لم يستثن البياتي من تلك الهجمات. فيقول: « هاجمني السياب بعنف غير اني لم أرد على هجومه و اكتفيت بالصمت.»

"مسيرة شاعر منفي داخل نفسه و خارجها" حسونة ألمصباحي، جريدة العرب، 2007/7/19
- و يدل من ان بدر كان هو البادئ في المنافسة، من طريقة مهاجمته لعبد الوهاب البياتي في جريدة "الحرية" عام 1959، عندما كتب:

« و لاحظت آنذاك أن بعض المتشاعرين التافهين من أمثال عبد الوهاب البياتي و زميرته قد برزوا بشكل عجيب آنذاك نظراً لخلو الميدان لهم، لأنني لم أنشر خلال و جودي في إيران و الكويت ثم إيران و لا بيتاً واحداً من الشعر. و راح الأصدقاء يلوموني على هذا الصمت و يحرضونني على أن أنشر شيئاً من شعري في مجلة الأداب.»

"كنت شيوعياً" بدر شاكر السياب، منشورات الجمل - بغداد 2007

و قد كتب محمد شرارة مقالاً عن عبد الوهاب البياتي في تقييم شعره، عندما صدر ديوانه "عشرون قصيدة من برلين" بعد أن ترك الشاعر العراق، و اعتبره من الشعراء الرواد في حركة الشعر الحديث و يأتي بعد بدر:

أنا لن أموت

ما دام في مصباح ليل اللاجئين

زيت و نار، عبر مقبرة الحدود

حيث الخيام الباليات

كأنها في الريح لافئة تشير

إلى طريق العودة الدامي القريب.

« هذه الروح الطيبة التي مدت شعر البياتي بأرفع المعاني كانت سبباً في شهرته، أما السبب الآخر فيعود إلى أسلوبه العذب و إحساسه الغني، تحس و أنت تقرأ الشاعر أنك تفتح زجاجة العطور، أو تمتص رضاب النحلة، أو ترى فرح العصافير أو تلمح جلال الغابة في أماسي الربيع، أو تتأمل كآبة الشفق في ظلال الغروب.»²⁹³

* * *

كان لشعر بدر أفق متميز عن أقرانه، « فقد تنبه في وقت مبكر إلى قيمة الأسطورة، بوصفها أداة مهمة من أدوات التعبير عن التجربة الشعرية الحديثة، و ربما كان بحق المروض الأول في شعرنا العربي المعاصر.»²⁹⁴

« و إن ما يبدو في قصيدة السياب، من تمجيد للبطل الأسطوري، إنما هو، في حقيقته و مؤداه تمجيد للإنسان، الذي هو البطل الفعلي في قصيدة السياب.»²⁹⁵ كانت حياته أقرب ما تكون إلى المأساة، أحب الكثير من الفتيات، و لكنه حب تشوبه الخيبة دائماً. و تجلى ذلك في علاقة الحب التي نشأت بينه و بين الشاعرة لميعة

293 - "عشرون قصيدة من برلين"، محمد شرارة، جريدة الحضارة - بغداد، 19 أيلول 1959

294 - مقال بعنوان: "النفاتة العاشق"، حسب الله يحيى، نشر على موقع الجيران - موقع الجمعية العراقية الكويتية، 2008/7/26

295 - "أطياف السياب العراقية... واقعاً و أسطورة"، ماجد السامرائي، جريدة الحياة 2004/12/23

التي كان لها أثر صاعق في سلوكه.²⁹⁶ كانا من أول القادمين إلى الدار،²⁹⁷ حيث يتم لقاء الحبيبين، و كانت آلام الحب التي يبثها العاشقان في قصائدهما، يخلعان على تلك القصائد أحوالهما النفسية المضطربة المتقلبة من حزن و فرح.

تتجلى في قصائد بدر، صور شعرية رقيقة تجاه الحبيبة و غضبه المفاجئ منها، فيعكس لنا هشاشة تلك العاطفة، قبل أن ينقلب نرساً غاضباً مدمراً و مشوهاً سمعتها الرقيقة. كان اختلاف و تقلب مشاعره يتناوب بين لوني الحزن و الفرح و الأسى و النشوة في قصائده، فيرتدي ثوب الحداد تارة و ينقلب إلى لون زاهٍ تارة أخرى، بحسب استجابة لميعة لعواطفه.

كانت تلك اللقاءات بالنسبة لبدر تجسيداً مكثفاً للحظات التي كان يعيشها مع لميعة، يحاول أن يسرقها قبل أن تفر من بين يديه و ليس هنالك أجدى من نظم قصيدة تساعده في إثبات تلك اللحظات التي سرعان ما تختفي و تضيع في تعاقب الزمن. و كم نظم قصائد بفتيات لم يبادلنه الحب، و كم ذمهن بقصائد مشابهة عندما لا يجد استجابة منهن.

و قصيدته " ديوان شعر" التي مطلعها "يا ليتني كنت ديواني/ لأفر من صدر إلى ثان" هي دليل على خيبة الشاعر في هذا الصدد، و كما كتبت عنه حياة شرارة: « لم يكن بمقدوره أن يلفت أنظارهن إلى شخصه و كأن ثمة حاجزاً فاصلاً يقوم بين شخصه و شعره، فالأول متوار في الظل لا يلحظه المرء رغم حضوره، و الثاني يتألق في الفضاء الرحب المشمس جاذباً إليه الأبصار.»²⁹⁸

296 - مكالمة تلفونية ثانية مع لميعة بتاريخ 2008/4/18، سندیغو - الولايات المتحدة.

« بدأت العلاقة بيني و بين بدر عندما دخلت دار المعلمين في الصف الأول 1946، و كان بدر في الصف الثالث. كانت علاقة صداقة مثل باقي زملائي يحلقون حول بدر لسماع شعره. و أصبحنا أصدقاء أكثر في نهاية العام الدراسي، و أهداني كتاباً بعنوان (أشهر رسائل الحب) عن جوزفين بونابرت. حدثت بوجهه و رفضت أن استلم الكتاب. فقال لي: هذا الكتاب عبارة عن قطعة أدبية رائعة. و قد تطورت العلاقة بيني و بينه بعد منتصف عام 1947 حتى 1948، حيث أصبح مدرساً و عين في الرمادي، و كان يأتي كل خميس إلى بغداد لزيارتي في دار مبارك جودت ناشي.»

297 - كان محمد شرارة يرافق بدر إلى باب الحديقة و يوصد الباب خلفه، و ذكر بدر ذلك في قصيدة بعنوان: "ستار"، " و الباب توصده وراءك في الظلام يدا صديق"، الأعمال الشعرية الكاملة - بدر شاكر السياب، دار العودة- بيروت 2000، ص- 75

298 - "تلك أيام خلت" د. حياة شرارة، مجلة الأقلام - العدد التاسع - أيلول 1989

إذ كان دفتر الشعر ذا الجلد الأحمر ينتقل من يد فتاة إلى أخرى، و تمنى أن تهواه
الفتيات كما كن يهوين ديوانه:

قد بت من حسد أقول له: يا ليت من تهواك تهواني
أو لست مني؟ أنني نكد ما بال حظك غير منكود
و قد نظم قصيدة أخرى بعودة ديوانه إليه:

زورق حبّ شراعه الغزلُ ما بين موج النهود ينتقلُ
أُثلتُ من عطفهنّ يا ورق ما لم ينلّه المسهدّ الأرق²⁹⁹

و ما أشبه حاله بحال بعض شعراء العصر الأموي الذين مروا بتجربة مشابهة
لتجربة السياب، حيث أحسوا بحالة الغبن التي انزلها المجتمع الأموي بهم إذ:

« إن تحرر المرأة الذي اتسع نسبياً لدى بعض الأوساط في العصر الأموي كان قد
أغنى اللغة الجنسية، و بالمقابل فإن هذه قد يسّرت الاتصال بين الرجال و النساء
على الرغم من التعاليم الدينية. و مع ذلك فإن ما يثير الانتباه في هذا التقارب بين
الجنسين هو إحلال الكلمة محلّ صاحبها، الشاعر على الخصوص. و كثيرة هي
الحكايات التي تُروى عن سيدات من عائلات رفيعة المقام سمحن لأنفسهن بأن
يفتننّ جنسياً، أو يكدن، لا بالشاعر بل بشعره.»³⁰⁰

هذا ما عانى منه بدر بالذات، فقد كانت الفتيات يعجبن بشعره و ليس بالشاعر! أو
يحاولن أن يصبحن مصدر الهام لقصيدة، و هذا ما كتبت عنه حياة شرارة:

« لم يسعد بدر بالحب، فهناك عناصر أقوى من شاعريته تتحكم في مشاعر الناس
و في أفكارهم و تصرفاتهم سواء كن واعيات بذلك أو غير واعيات، و المرأة دائماً
واعية بسلطان جمالها و شبابها و أنوثتها، و تعتبر استخدامه كسلطان طاغ يمسك
بأحاسيس الشاعر و يسخرها لصالحها، فينتزعن منه قصائد حب تخرجهن من دائرة
الظل إلى الشمس و تصبح أسماؤهن المجهولة متداولة على الألسن، لذلك يحرصن

299 - "عودة الديوان"، بدر شاكر السياب - الأعمال الشعرية الكاملة"، دار العودة - بيروت، 2000،

المجلد الثاني: ص 176-178

300 - "سوسولوجيا الغزل العربي (الشعر العذري نموذجاً)، الطاهر لبيب، ترجمة: مصطفى المسناوي،

دار الطليعة - بيروت، الطبعة الثانية 1988، ص - 12

- كما كتب محمد شرارة مقالاً بعنوان " شاعر و امرأة" عن تلك الفترة، ذكر فيه و "كانت النساء
الارستقراطيات تحب هذا اللون من الشعراء و تحب أن تقول فيها أبياتاً أو قصيدة". مجلة العرفان، تشرين

الثاني 1970

على تسديد أسلحتهن بحيث تصيب الهدف، فينظم فيهن قصائده. فكيف إذا كان هذا الشاعر فتى من القرية³⁰¹، مشوق للجمال يرتل في داخله عشرات "صلوات في هيكل الحب" و ينظر العيون الجميلة و الثغور الباسمة و يكاد يصرخ أو يتمزق شيء في داخله: "إنني شاب و لست شاعراً أمتع الغير و أتغزل بهن".³⁰²

نظم بالشاعرة لميعة قصائد كثيرة في ديوانه الثاني "أساطير". كان متيماً بحب المرأة، أية امرأة و خاصة إن بادلتها تلك المرأة عاطفة الحب، و ينقلب إلى جنون إن رفضته! كانت لميعة تختلف عن الفتيات اللواتي نظم فيهن قصائده. فقد بادلتها الحب، و لكن العلاقة انتهت بالخيبة و الفراق. فنظم فيها قصائد في ديوانه "أساطير" فيقول عنها في إحدى قصائده، بعد أن رفضت عرضه في الزواج منها، لأن اختلاف دينهما لا تسمح به تقاليد المجتمع:

أساطير من حشرجات الزمان
نسيج اليد البالية،
رواها ظلام من الهاوية
و غنى بها ميثان.

* * *

و هذا الغرامُ اللجوج
أيرتدُّ من لمسة باردة..
على أصبع من خيال الثلوج،
و أسطورة باندة³⁰³

* * *

و تجيبه لميعة بدورها بقصيدة عنوانها "شهرزاد" التي قرأتها في تلك اللقاءات الأدبية التي كانت تعقد في دار محمد شرارة، ملوحة إلى الاختلاف الديني أيضاً:

أساطير نمقها الأولون
و أشباح موتى تجوبُ القرون

301 - بدر شاكر السياب من قرية جبكور قرب ميناء البصرة.

302 - مسودة لحياة شرارة عن بدر شاكر السياب، كتبتها بتاريخ 1991

303 - ديوان "أزهار و أساطير"، "بدر شاكر السياب - الأعمال الشعرية الكاملة"، دار العودة - بيروت،

2000، المجلد الأول ص 33- 35

لتخفقَ أجملَ أحلامنا
و تعبثَ فينا، فيا للجنون

* * *

و قصيدة "أسوف أمضي" التي قرأها قبل أن تكتمل في إحدى الأمسيات:
سوف أمضي أسمع الريح تتاديني بعيدا
في ظلام الغابة اللفاء... و الدربُ الطويل³⁰⁴
و ردت عليه لميعة:

ستمضي، فمن لي بأن أمنعك؟

ستمضي، فهل لي أن أتبعك؟

فقلبي، و شعري، و عمري، سُدَى

إذا لم أمتع بعيشي معك.³⁰⁵

و قد اختلفت الآراء بين الذين كانت لهم علاقة بهما، فاعتقد مرتضى شرارة الذي كانت تربطه علاقة صداقة حميمة ببدر، أن لميعة كانت تحب بدرًا، أما محمد شرارة و كريم مروة فاعتبرا أن الحب كان من جانب و احد.
و كتب مرتضى عن ذلك في مجلة "أفكار" اللبنانية، حيث كان يحكي له بدر تفاصيل عن قصة حبه للميعة:

« أحب السياب حباً عميقاً عاصفاً، و اتفق ذات مرة مع حبيبته السمراء على موعد تكون فيه و حدها. و ذهب في الموعد المحدد يسابق و جده و أشواق قلبه ... و لكنه عاد تخنقه غصة، و في حنايا صدره عذاب مجنون ... لم تخلف سمرأوه الوعد ... كانت هناك في المكان المحدد، و الساعة المتفق عليها. و لكنها كانت قد دعت مجموعة من رفيقاتها إلى حفلة شاي، و فوجئ بدر بحشد من الصبايا يُطرقن في صمت، و يستمعن إلى سيمفونية شهرزاد لريمسكي كورسكوف. فكان أن نظم قصيدته "لقاء و لقاء"، التي يشير فيها على نحو صريح إلى هذه الحادثة:

التقينا؟ أكان شوقي للقياك اشتياقاً إلى الضياء الحزين

و احتشاد الوجوه في الغرفة الجوفاء، و الشاي و الخطى و اللحون؟»³⁰⁶

304 - المصدر نفسه، ص- 47

305 - "عودة الربيع" لميعة عباس عمارة، الناشر: عمارة، بيروت، الطبعة الثانية 2001، ص 30- 31

و كان يعتقد مرتضى شرارة إن « لميعة تحب بدرأً. و الغريب أنها كانت في كثير من الأحيان تتصرف بشكل يلهب شاعريته، و تطير فرحاً إذا نجحت في أن تكون مصدر الهام لقصيدة جديدة.»³⁰⁷

و ذكر محمد شرارة أن الحب لم ينمُ إلا من جانب و احد هو بدر، يقول:
« إن للميعة تأثيراً كبيراً في شعر بدر، فقد كانت من أبرز فتيات العراق وطنياً، و هذه الروح الوطنية كانت من جملة الأسباب التي جمعت بينها و بين بدر. ثم تحولت هذه الرابطة إلى حب، لكنه كان من جانب و احد هو بدر فقط، و قد أفهمته من البداية أن هذه العلاقة ستبقى أو يجب أن تبقى في حدود الصداقة، و لا ينبغي أن يفكر بالزواج، لأن هناك تقاليد عائلية و دينية تحتم أن تبقى تلك العلاقة في حدودها الضيقة، لا لأنها تقديس العادات و التقاليد، بل لأنها مرتبطة بأم تقديس ذلك. و ليست مستعدة لأن تكون السبب في تحطيم أمها إرضاء لعواطفها. فسكت بدر و لكن السكوت تحول فيما بعد إلى قصائد عتاب أو أكثر من العتاب، و الذي يقرأ ديوانه "أساطير" و مقدمته يتضح له نوع من الغضب يكاد يتحول أحياناً إلى بركان.»³⁰⁸

كما وصف كريم مروة حضور لميعة في الندوة و أكد على ان الحب لم ينمُ و كان من جهة و احدة: « فقد كانت نضارة الشباب فيها، و تألقها و حيويتها، و مرحها النسائي الخبيث، و ما كانت تخفيه عيناها من معان و أسرار، تثير لدى الشاعر الشاب المحب كل المشاعر، و كثيراً ما كان يقرأ لنا، حين كان يقرأ، قصائد موجهة لها. فهو يحبها، و كان صادقاً في حبه لها. في حين لم تكن هي كذلك، كما أذكر.»³⁰⁹

* * *

306 - " بدر شاكر السياب - الأعمال الشعرية الكاملة"، دار العودة - بيروت 2000، المجلد الأول، ص- 99، و مرتضى شرارة، مجلة " أفكار" عدد 129، 1984. نقلاً عن مقال "تلك أيام خلت" حياة شرارة، مجلة الأقلام - العدد التاسع - أيلول 1989، ص- 100

307 - المصدر نفسه، ص- 100

308 - "محاولة لتاريخ جديد في الشعر العراقي - حكايات من "الصالون" الأدبي الذي ولد فيه الشعر العربي الحديث"، زهير ماجد، بيروت المساء، الجمعة 21 حزيران 1974

309 - " نكريات مع نزار مروة: عن الكاظمية و السياب و مرحلة الأربعينيات" كريم مروة، جريدة السفير

كان ديوان "خفقة الطين" لبلند الحيدري قد صدر في عام 1946، و حضر بعض تلك الندوات، التي دار فيها الحديث عن تجديد الشعر، و قرأ قصيدة "أهواك":

أنا أهواك و لكن

غير ما تهوين أهوى

أنا أهواك جراحاً في حياتي تتلوى

كلما هدهدتها

أهدت إلى العالم نجوى

* * *

أنا أهواك نشيداً

أزلياً

يتعنى

فيه ذوّبت شبابي الرائع الأبحان لحنا

ولنفن بعده

فالحبُّ عمرٌ ليس يفنى³¹⁰

* * *

كان ديوانه تعبيراً عن خيبة الأمل و الإحباط الذي واجهه الشباب في تلك الفترة، و ما كان يمرّ به العراق من مخاض عسير، فقد هيمن على شعره جو من التمرد الذي كان سائداً بين عدد من الشعراء العراقيين آنذاك.

نحن طين

و أي طين حقير

فلم الخوف من خوالج طينك.

كان بلند متأثراً بالحركات الفنية التي كانت قائمة في الغرب بصورة تلقائية، كثير المطالعة، مبدعاً في أسلوبه الجديد، البعيد عن الشعر المقفى، فهو يختلف عن الشعراء العراقيين من أنه كان بعيداً عن شعراء الحماسة السياسيين، بل كان شعره سلسلة من صور حية، تزخر بالألوان المضيئة و المعتمة، و هي انعكاس لما كان

310 - "أهواك"، الأعمال الكاملة للشاعر بلند الحيدري، دار سعاد الصباح - القاهرة، الطبعة الأولى

يعانيه من توتر عاطفي آنذاك و تعبير عن صيحة و تمرد في مجتمع لم يفهمه و يقدر موهبته.

فيقول بلند: « هنالك في بغداد الأمس كان الواحد منّا يحاول أن يجد لما تراكم في نفسه من قلق و هلع و خيبة متسعاً في الأدب يثبت فيه قيماً جديدة تتناسب مع أحاسيسه و تفهمه العاطفي لمشاكل العالم.»³¹¹

كانت قصائده متماسكة البناء كما قال عنه جبرا إبراهيم جبرا: «لن تستطيع أن ترفع بيتاً واحداً من مكانه في قصائده دون أن تترك فجوة ظاهرة في المعنى و التركيب.»³¹²

و اعتبره حسين مروة من رواد الشعر الجديد، و كتب عنه: « و في طليعة من فتح آفاقاً على تجارب شعرية لم يكن قد ألفها بعد شعرنا الحديث ... حاول أن يعطي أبعاداً جديدة لمضامين قضايا معاصرة ضمن الأشكال الشعرية التي أول من جدد فيها في الأربعينات.»³¹³

رغم ذلك، لم يكن محمد شرارة من الذين يؤيدون اتجاه بلند و شعره في تلك الفترة، و اعتبره بعيداً عن هموم المجتمع و معاناته - و لو أنه غير رأيه فيما بعد - و كان يعطي أهمية في تقييمه إلى المضمون الاجتماعي في الشعر. كما غلب على شهرة بلند الشعرية، سلوكه البوهيمي الذي لم يكن مقبولاً في مجتمع محافظ تقليدي في مفاهيمه، كالمجتمع العراقي آنذاك.

و قد كتب عنه محمد شرارة: «أما بلند الحيدري، فقد كان رائد مدرسة جديدة تستمد عناصرها الأولى من الفلسفة الوجودية، و ربما كان أول من شق الطريق في هذه الفلسفة في العراق. ... لم تكن شهرة بلند متساوية مع شهرة رفاقه، لكنه فيما بعد انضم إلى ألفاظه التقدمية و إن بقيت الخيوط الوجودية واضحة في شعره. و بعد فترة من الزمن انتشرت هذه الفلسفة بشكل غامض في أدب الشباب فكان بلند رائداً في هذه الناحية.»³¹⁴

311 - " بلند الحيدري و إغراء الفلسفة"، حسين الهنداوي، مجلة النزوى - العدد 52

312 - "الأعمال الكاملة للشاعر بلند الحيدري"، دار سعاد الصباح - القاهرة، الطبعة الأولى 1993 ص -

191

313 - المصدر نفسه، ص 291-292

314 - "محاولة لتاريخ جديد في الشعر العراقي - حكايات من "الصالون" الأدبي الذي ولد فيه الشعر العربي الحديث"، زهير ماجد، مجلة بيروت المساء، الجمعة 21 حزيران 1974

و يختلف بلند عن زملائه الشعراء: «السياب و البياتي و الملائكة و البريكان و حسين مردان. فهو لم ينتقل من الأنشيد و التراث و السياسة و المجتمع إلى الحداثة، إنما من الذات ذاتها إليها في حالة نزاعة إلى التغرب الواعي، بل التغرب المتفكر، الذي يظل منذ ديوانه الأول "خفقة الطين" إلى ديوانه الأخير "دروب في المنفى" السمة المحورية الوحيدة ربما التي تطبع نتاج هذا الشاعر.»³¹⁵

كان بلند الحيدري من أصدقاء مرتضى شرارة، فقد كانوا شلة³¹⁶ من الشباب يلتقون في معظم الأحيان في المقاهي، أو في "الجراديع" التي تنتشر على ضفاف الجزرات الصغيرة التي تظهر عندما ينحسر ماء دجلة، حيث ينخفض مستواه في صيف بغداد. كانوا - أثناء احتسائهم البيرة - يقرأون الشعر و يتحدثون عن آخر النظريات التي ظهرت في العالم الغربي. و يقول بلند عن تلك المرحلة: «إن كلاً منا كان يحاول أن يكتشف ذاته من خلال تجربته بالذات.»³¹⁷

* * *

كانت الشاعرة نازك الملائكة من المساهمات في تلك الندوة، و لكنها كانت هادئة، قليلة الكلام، عميقة الإحساس، واسعة الاطلاع، تقن اللغة الإنكليزية و العربية و اللاتينية و الفرنسية، و لم تكن جذابة أو جميلة كالشاعرة لميعة، و إنما كانت قصيرة القامة، مليئة الجسد، بسيطة المظهر. تنتظر إلى الوجود في تلك الفترة، نظرة معتمة مأسوية، إذ كانت متأثرة بفلسفة الفيلسوف الألماني المتشائم "شوبنهاور" حيث يقول عن الحياة: «لست أدري لماذا نرفع الستار عن حياة جديدة كلما أسدل على هزيمة الموت. لست أدري لماذا نخدع أنفسنا بهذه الزوبعة التي تثور حول لا شيء؟»³¹⁸

و تجلت هذه النظرة في قصيدتها "مأساة الحياة" التي نظمها 1945-1946، و ما هي إلا تعبير عن ذلك الإحساس المعتم بالحياة و كتبت عنها:

315 - "بلند الحيدري و إغراء الفلسفة" حسين الهنداوي، مجلة النزوى - العدد 52

316 - كانت الشلة مؤلفة من بلند الحيدري و شقيقه صفاء الحيدري و بدر شاكر السياب و مرتضى شرارة و حسين مردان و نزار سليم و غيرهم. (ب.ش)

317 - "بلند الحيدري و إغراء الفلسفة" حسين الهنداوي، مجلة النزوى - العدد 52

318 - "ديوان نازك الملائكة" المجلد الأول، دار العودة - بيروت 1997، ص 6-7

- و قد غيرت نازك الملائكة رأيها بعد عام 1950، و أصبحت تنتظر إلى الحياة بمنظار أكثر تفاؤلاً، كما غيرت عنوان القصيدة "مأساة الحياة" إلى: "أغنية الإنسان"، عندما أعادت نظمها. نفس المصدر، ص-10

« و هو عنوان يدل على تشاؤمي المطلق و شعوري بأن الحياة كلها ألم و إبهام و تعقيد. و قد اتخذت للقصيدة شعراً يكشف عن فلسفتي فيها. و الواقع أن تشاؤمي قد فاق تشاؤم شوبنهاور نفسه لأنه - كما يبدو - كان يعتقد أن الموت نعيم لأنه يختم عذاب الإنسان.»³¹⁹

و كان محمد شرارة محقاً عندما كتب مقالاً قيم فيه ديوانها عاشقة الليل: « إن قصائد نازك تكاد تكون أنة متجددة، و لوعة متصلة».³²⁰ لكنه كان قاسياً في نقد شعرها و كتب: «إن الأدب الباكي قائم على الإيمان بالذات أكثر منه على الإيمان بالتضحية»، خاصة و إن ديوانها قد صدر في عام مرت فيه البلاد العربية في مخاض عنيف أدى إلى خسارة الأرض الفلسطينية و الاعتراف بالدولة الإسرائيلية، و توافد اللاجئين على تلك البلاد. و لكنه وجد تارة الأعذار و الأسباب التي دعتها إلى هذا الانطواء، في مقال: "عاشقة الليل.. و هل في الليل ما يعشق؟" الذي نشره في مجلة العرفان عام 1948:

« فالشاعر رجل، و الرجل يستطيع أن يتحدى الرجعية الاجتماعية، و لا يخشى أنيابها، و يستطيع أن يرد الهجوم - إذا هوجم- بهجوم أقوى منه و أشد عنفاً و ضراوة. فقد هوجم شللي في إنكلترا و هوجم بوشكين في روسيا، و هوجم هايني في ألمانيا، و هوجم أبو العلاء المعري في عصره - و هو الشاعر العربي الوحيد الذي تصح مقارنته من ناحية تحدي الأوضاع الظالمة بأولئك الشعراء العباسيين - و استطاع هؤلاء كلهم أن يصمدوا للهجوم المسلح بالخرافات و التقاليد، و أن يحولوه بالنهاية إلى نصر لهم و هزائم للأوضاع المسرقة في البلاد و الرجعية. أما الشاعرة فامرأة، و المرأة أسرع إلى العطب من الرجل لا لأنها امرأة - كما يعتقد أو يظن - بل لأن مركزها الحالي أقل سلطة على المجتمع من الرجل. ... هذا الوضع الاجتماعي السائد في الشرق هو الذي يرد الإحساس الشعري في نفوس الشعارين أحياناً، و الشاعرات غالباً أو دائماً إلى مناطق الكبت في النفس، و إذا عاد الإحساس كبتاً تحول إلى مطارق - كما يقول كميل فلامريون - تهز الأعصاب، و تدققها دقاً، ثم يتحول ذلك الاهتزاز إلى نفوس الشعارين و الشاعرات

319 - ديوان نازك الملائكة" المجلد الأول، دار العودة - بيروت 1997، ص - 7

إلى هذا النوع من الأدب الباكي. ... و هذا التحليل يقودنا إلى نتيجة مؤلمة تتلخص في ان الأدب الباكي قائم على الإيمان بالذات أكثر من قيامه على الإيمان بالتضحية.³²¹»

و يؤيد كريم مروة هذه النظرة المتشائمة عندما كتب: « أما نازك فكانت نموذجاً آخر من الشعراء. نموذجاً آخر من النساء. كانت سوداوية بطبيعتها، بسيطة و هادئة لكن عميقة الإحساس بالحياة. حملت شعرها الجميل الغني بالصور الإنسانية، المنفتح على ثقافة عصرية واسعة، كل مأساة الحياة التي كانت تريد أن توصلها لكل الناس. ... كانت من النوع الهادئ، الوداع، المغلف بالحزن و الحنين و الآهات المكبوتة.»³²²

و أضاف رفعة الجادرجي إلى رؤية كريم مروة، « أن هذا التشخيص الذي يصف الكثير من شعور الفنان الحساس و الواعي مآسي الحياة، لأن هنالك مسألة أكثر عمقاً و وجداناً في حس الفنان، و هي الوعي بعبثية الوجود البيولوجي. فالفنان و الفيلسوف و الأديب، بمختلف مواقعهم و أدوارهم و مستوياتهم المعرفية و الوجدانية في سيكولوجية المجتمع يعي تلك العبثية. لذا يُقدم هؤلاء على ملء هذا الفراغ الحسي الوجداني بما تبتكره قدراتهم الفنية من فلسفة أو شعر أو رسم أو غناء أو رقص أو نحت بهدف ابتكار صور تملأ و تغني فراغ عبثية الوجود. و بهذا تنتقل الذات من هموم الهوية إلى الاستمتاع بما تبتكره خارج عبثية الوجود.»³²³

و لكن أعجب محمد شرارة بقدرتها في ترجمة العاطفة الجياشة التي احتوت عليها قصيدة "كوليرا" التي نظمها آنذاك، بسبب الوباء الذي أثر على إحساس الشاعرة بعد انتشاره في مصر، و اقتات عدداً غير قليل من ضحايا البلد، و ظل يتحدث عن أهمية تلك القصيدة و اعتبرت مفتاح تحديث الشعر العربي و تجديده، فقد خرجت في هذه القصيدة عن التقليد الصارم في النظم، و عمدت إلى كسر عمود الشعر، كما لقيت التقدير و الاهتمام لأنها قصيدة تدور حول القضايا الاجتماعية و الشعور بمعاناة الناس.

321 - "عاشقة الليل.. و هل في الليل ما يعشق؟" محمد شرارة، مجلة العرفان - 1948

322 - " ذكريات مع نزار مروة: عن الكاظمية و السياب و مرحلة الأربعينيات" كريم مروة، جريدة السفير

1992/6/3

323 - حديث مع رفعة الجادرجي بتاريخ 2009/1/20

سكن الليلُ
أصغ إلى وقعِ صدَى الأناثِ
في عمقِ الظلمةِ، تحت الصمتِ، على الأمواتِ
صرخاتٌ تعلو، تضطربُ
حزنٌ يتدفقُ، يلتهبُ
يتعثرُ فيه صدَى الآهاتِ
في كل فؤادِ غليانِ
في الكوخِ الساكنِ أحزانِ
في كل مكانِ روحٍ تصرخُ في الظلماتِ
في كل مكانِ يبكي صوتِ
هذا ما قد مرَّقه الموتُ
ألموتُ ألموتُ ألموتُ

يا حزنَ النيلِ الصارخِ مما فعلَ الموتُ³²⁴

و في رأي محمد شرارة: « ظلت نازك شاعرة وجدانية و أكثر قصائدها في تلك الفترة تدور حول العواطف الذاتية. و ابرز مثال على ذلك ديوانها الأول "عاشقة الليل" و ديوانها الثاني "شظايا و رماد"، و بعدئذ تطورت نازك تطوراً ملحوظاً.³²⁵ أما كيف نظمت نازك الملائكة قصيدة "الكوليرا" التي أطلق عليها بداية "الشعر الحر"، فكتبت حياة شرارة:

« في أثناء انتظار صدور ديوان "عاشقة الليل" كانت ترد أنباء مفاجئة عن ضحايا وباء الكوليرا الذي انتشر في مصر و أخذ يحصد الناس بالمئات و يتزايد عددهم يوماً بعد آخر. حاولت نازك أن تعبر عن حزنها بالشعر و لكن الأبيات بدت لها قاصرة. فالفقتها جانباً، غير أنها أعادت المحاولة لأنها ما كانت تستطيع الشعور بالاستقرار و الهدوء النفسي إذا لم تنفس عن كربها. و لم ترض عن أبيات القصيدة الثانية أيضاً، و تملكها الحيرة من عدم مطاوعة الشعر لها. و في صباح الجمعة

324 - "ديوان نازك الملائكة - شظايا و رماد" المجلد الثاني، دار العودة - بيروت 1997، ص 138-

139

325 - "محاولة لتاريخ جديد في الشعر العراقي - حكايات من "الصالون" الأدبي الذي ولد فيه الشعر العربي الحديث"، زهير ماجد، بيروت المساء، الجمعة 21 حزيران 1974

ظلت مسترخية في فراشها تصغي إلى الأخبار التي ينقلها الراديو، فبلغ سمعها رقم أثارها، لقد وصل عدد الموتى إلى ألف في اليوم. تناولت قلماً و دفتراً و ذهبت إلى منزل مجاور لها ما زال في طور البناء فجلست فيه بعيدة عن ضوضاء بيتهم، و بدأت تكتب. فاسلست الأبيات لها قيادها، و لكنها خرجت بشكل جديد مغاير لما اعتادت أن تنظمه. طغت عليها الفرحة لأنها استطاعت أن تعبر عن مشاعرها بأسلوب يعتمد "الاشطر غير المتساوية في الطول". و هكذا و لدت أول قصيدة نظمتها في الشعر الحر، و هي "الكوليرا" التي كتبتها في بحر ساعة.³²⁶

و اعتبرت نازك إن القافية هي ذلك "الحجر" الذي وقف في طريق تطوير الشعر العربي، و حرمه من كتابة الملاحم: « و نسوا أن أية لغة مهما اتسعت و غنيت، لا تستطيع أن تمد ملحمة بقافية موحدة، أيا كانت.»³²⁷ و اعتبرتها من الأسباب التي حالت دون و جود الملحمة في الأدب العربي، رغم أنها و جدت عند الأمم الأخرى.

أما قصيدتها "في وادي العبيد" التي كان لها صدى كبير في تلك اللقاءات، فكانت ثورة على المجتمع الجامد الذي تشبه أفراده بجثث متحركة، إنها تعبير عن معاناتها، و صرخة التمرد في مجتمع لم يفهمها و لا قدر موهبتها.

لا أريد العيش في وادي العبيد
بين أمواتٍ ... و إن لم يدفنوا ...
جثث ترسفت في أسر القيود
و تماثيل اجتوتها الأعين

* * *

قلبي الحر الذي لم يفهمه
سوف يلقي في أغانيه العزاء
لا يظنوا أنهم قد سحقوه

326 - صفحات من حياة نازك الملائكة" د. حياة شرارة، دار الريس للكتب و النشر 1994، ص - 119

327 - ديوان نازك الملائكة - شظايا و رماد" المجلد الثاني، دار العودة - بيروت، ص - 17

و كتبت "حياة شرارة" عن نازك من انها « تؤمن بالحب المثالي العذري الذي يقاسي فيه المحب من اللوعة و العذاب دون أن يمني نفسه بوصال الحبيب. فالوصال يحول الحب السامي إلى حدث مادي و عادي. ... و بلغ أمر النفور من الزواج عند نازك أن شكلت في النصف الثاني من الأربعينيات جمعية ضد الزواج ضمت إليها أختها إحسان و القاصة ديزي الأمير و أختها نعمت. ... يتحدث عن السينما و الأفلام و الأغاني و الكتب التي قرأها. أما مشاعرهن الداخلية فكان يلزم الصمت حيالها لأنها من الأسرار التي ينبغي أن تظل دفيئة في قمم النفس.»³²⁹

توطدت أواصر الصداقة بين العائلتين بمرور الزمن و توالي اللقاءات، و لاحظ محمد شرارة ان هنالك علاقة ودية و نوع من الإعجاب بين شقيقه مرتضى و نازك، و اعتقد أنها ستنتهي بالزواج بعد أن نظمت نازك قصيدتها بعنوان: "الخيوط المشدود إلى شجرة السرو".³³⁰ فما كان منه إلا أن قدم لها هدية (ساعة يد) في عيد ميلادها، و اعتبرت خطبة غير رسمية من قبلها.

كان مرتضى أسمر اللون نحيف القوام، ذا وجه ضامر، يتوسطه أنف كبير، و عينان ضيقتان، و شعر أسود جعد. كان لا يزال تلميذاً في كلية الحقوق آنذاك، يتقن اللغتين الانكليزية و الفرنسية، و كان ينشر ما يترجمه من اللغة الانكليزية إلى العربية في الصحف العراقية. كما كان معظم أصدقائه من الشعراء و الكتاب الشباب، يلتقون في المقاهي أو في "الجرادينغ" في ليالي صيف بغداد، يتناولون العشاء و يشربون البيرة/الجمعة، و يتحدثون في المواضيع الأدبية، و يقرؤون آخر ما نظموا من قصائدهم. و عندما علمت نازك بتلك اللقاءات الأدبية و الشعرية التي تتخللها كؤوس الشراب، تملكها سورة الغضب، إذ كانت ذات نظرة محافظة،

³²⁸ - "في وادي العبيد" عاشقة الليل، ديوان نازك الملائكة، دار العودة - بيروت، 1997، ص 482-

483

³²⁹ - "صفحات من حياة نازك الملائكة"، حياة شرارة، دار الريس للكتب و النشر، 1994، ص 111-

112 « غير إن الجمعية تصدعت و انسلت منها منتسباتها و كانت أخت ديزي أول من تزوجت في عام 1948.»

³³⁰ - مقابلة مع سكنة شرارة بتاريخ 2007/12/14

« حيث كان مرتضى يجلس قرب شجرة السرو في الزاوية، عند زيارة آل الملائكة.»

متمسكة بتقاليد المجتمع، ضد شرب أي نوع من الكحول! أدت ردود الفعل اللاعقلانية إلى نوع من القطيعة بينهما، عندما بعث لها رسالة بيد شقيقته "سكنة" ينبئها برأيه في الموضوع!³³¹ متألماً من موقفها المتمزمت تجاهه، الذي كان صدمة له.³³²

و أكدت "حياة" على هذا التزمت:

« كانت نازك متمزمتة حيال العلاقة بالرجل و نظرتها محافظة، و قد التزمت بهذا الموقف المتشدد حتى عندما تقدمت في السن و صارت لها مكانتها الشعرية المرموقة. فظلت متمسكة بالتقاليد الاجتماعية الصارمة.»³³³

لذا بعد أن حصل مرتضى على شهادة الحقوق، ترك العراق في تلك السنة و لم يعد إليه، إذ كانت صدمة عنيفة أثرت حتى على مجرى حياته و مستقبله. فقد ترك خلفه ماضيه المفعم بالطموح و الإبداع. و خبت الشعلة المتقدة من الأفكار المتلاطمة و المشاريع المتلاحمة في ذهنه، و ذابت المشاريع الأدبية، و غطتها قشرة هلامية من واقع الحياة المعتادة الباهتة اللون، التي انخرط بها، بعيداً عن طموحاته الأدبية. عمل في البداية في لبنان في حقل الإعلام و الإذاعة، و بعد أن أصبح قائم مقام، تزوج من إحدى قريباته، و اتجه نحو تكوين عائلة و كسب العيش اللائق لها. فهجر الكتابة و ترك نظم الشعر و الترجمة.

قذفته الحياة اليومية كالكرة في تيارها و أبعدته عن منابع المعرفة التي كان ينهل منها في العراق، و انجرف في بحر الحياة الهائج، يتوقى الضربات القاسية، مؤمناً

331 - نفس المقابلة مع سكنة شرارة

332 - و كتب عن موقفها المتمزمت شوقي بزيع بمناسبة وفاتها :

« يبدو شعر نازك بهذا المعنى تعويضاً رمزياً عن أنوثة غير متحققة إلا في الأحلام و الرغبات الدفينة. و الشاعرة التي لم تستطع أن تكسر جدار العادات و التقاليد المحافظة عمدت إلى كسر عمود الشعر و انتهاك تقاليد الصارمة بما يسمح للجسد الأنثوي أن "يهرب" رغباته عبر جيشان اللغة و اندفاعاتها المحمومة. و إذا كان الرد على ذكورية المجتمع و مفاهيمه القاسية و المتعنتة غير متيسر على مستوى السلوك و الفعل المباشر فقد جاء ذلك الرد عنيفاً و مدوياً على مستوى الكتابة و ذلك عبر انتهاك المنظور أفحولي للشعر و استبدال نظامه المتماثل و الأفقي بنظام التموج الانسيابي أو تدوير الأسطر و الأبيات بحيث تحل "الدائرة" المؤنثة محل "العمود" المذكور.»

" قصيدتان متماثلتان بين نازك الملائكة و سعيد عقل ... تأثر فاضح أم افتتان مشترك بالموت؟" شوقي

بزيع، جريدة الحياة 2007/6/25

333 - "صفحات من حياة نازك الملائكة"، حياة شرارة، رياض الريس للكتب و النشر - الطبعة الأولى

1994، ص- 113

حياة هادئة، بعيدة عن عاصفة الإبداع الخلاق. فجفت مواهبه كما تجف ينابيع الماء في قبض صيف حار. فلم يطورها لتتفتق عن مولود أدبي. و لم ينتج كتاباً واحداً طيلة حياته!!

* * *

بدأت التظاهرات في عام 1947 ضد تقسيم فلسطين، و انتشرت في أنحاء العراق، و قررت طالبات كلية الملكة عالية القيام بتظاهرة، احتجاجاً على تقسيم فلسطين، و أصررن على أن يكون حسن الأمين أستاذ الأدب العربي مسؤولاً عنهن: « فقبل أن يسير معهن كمسؤول عن كل ما يجري في المظاهرة قائلاً لهن: أنا لا أحسب إن فيكن الإساءة إلي، لذلك سنحدد الشعارات، فلا تتعدى فلسطين و قضيتها؛ فكان صوتهن و احداً بالموافقة؛ و أردف: سأسير أنا في أول المظاهرة فحيث اتجهت تتجه المظاهرة، و على أن يكون السير في صفوف منظمة؛ و هكذا كان، و كان بين الحين و الآخر، يترك المقدمة و يرجع إلى الوراء لملاحظة الهتافات، فإذا ما توجس منه قد وقع؛ إذ سمع صوتاً يصرخ: ماذا تريدون؟ فتجيبه بضعة أصوات: الحرية و الخبز (شعار للشيوخيين) فأسرع نحو صاحبة الصوت و بمجرد وصوله إليها، كان صوتها قد انطلق: ماذا تريدون؟ و كان قد صار وراءها تماماً، فأهوى بكفه على رقبتها صائحاً: نريد أن تخرسي! و إذا بها تراه فجلت و انطوت على نفسها.»³³⁴

كما عادت في تلك الفترة، المناقشات في إعادة التفاوض في المعاهدة العراقية البريطانية، التي أيقظت مشاعر النقمة القديمة، المتمثلة في معاهدة 1930، و أعادت الحكومة العراقية فتح النقاش في المعاهدة، التي تتضمن إجلاء الجيوش البريطانية و تسليم القاعدتين الجويتين في الحبانية و الشعبية. و عندما أصبح صالح جبر رئيس الوزراء، في آذار 1947، سرعان ما قام بالمفاوضات، آملاً أن يكون له شرف تحقيق الانسحاب البريطاني النهائي. لذلك بدأت المحادثات سراً، خوفاً من أن تؤدي المفاوضات العلنية إلى تعبئة الأحزاب العديدة التي كان هدفها إنهاء جميع أشكال النفوذ البريطاني. و قد توصلت الحكومة العراقية في نهاية 1947، إلى اتفاق توقيع المعاهدة في كانون الثاني 1948. و بالرغم من وعد الانسحاب النهائي للقوات

³³⁴ - "حسن الأمين، رحالة و أديباً و مؤرخاً"، بقلم: إحسان شرارة، دار المنهل اللبناني - بيروت 2008،

البريطانية، إلا أنها أسست مجلس دفاع مشترك من البريطانيين و العراقيين للإشراف على التخطيط العسكري العراقي. كما سمحت باستعادة القاعدتين الجويتين في حالة الحرب، على أن يكون العراق معتمداً على بريطانية بالتموين و التدريب العسكري.³³⁵

و قد كتب صدر الدين شرف الدين في كتابه "سحابة بورتسموث" عن المعاهدة: « ظهر ان المنهج الوزاري و وضعت صيغته بالاشتراك مع أقطاب السفارة البريطانية، و أحكمت آياته بوحى الخطة المرسومة في دائرة الخارجية بلندن.³³⁶ » بدأت غيوم التوتر تتكاثر في أجواء العراق، و سببت المعاهدة سخطاً عاماً أدى إلى مسيرات احتجاج و تظاهرات في جميع أنحاء العراق. و عبّرت "الوثبة" عن أضخم تعبئة جماهيرية عرفتها الملكية في العراق. و نجحت بذلك الأحزاب المعارضة في تعبئة الشارع ضد المعاهدة، التي اعترضت عليها، و اعتبرتها جائرة و مجحفة بحق العراق، و وقفت ضدها. سرت المقاومة لتلك المعاهدة إلى الشارع. و شارك فيها المثقفون و المفكرون من كتاب و شعراء في تلك التظاهرات التي كان حسين مروة شاهداً عليها.³³⁷

بدأت التظاهرات، التي تخللتها الخطابات الحماسية و القصائد الملتهبة و الهتافات الرنانة، و اشتدت المقاومة يوماً بعد يوم، حتى أمرت الشرطة بفتح النار على

335 - "صفحات من تاريخ العراق المعاصر" تشارلز تريبي، ترجمة: زينة جابر إدريس، الدار العربية للعلوم 2006، ص 173-176،

336 - "العراق المعاصر"، عبد الوهاب حميد سعيد، دار المدى للثقافة و النشر - دمشق 2002، ص-

« كان ذلك أيام الوثبة الوطنية المعروفة 1948 التي استشهد فيها جعفر الجواهري. شاركتُ في الوثبة و شهدت فصول الانتفاضة الشعبية يوماً بيوم. كنت أسير في التظاهرات و اكتب مقالاً يومياً في جريدة "الرأي العام" للجواهري. كنت حريصاً أن تنجح الانتفاضة خائفاً من أن تغرق في الفوضى و الصراعات الجانبية لذا كنت أراقب أجواء التظاهرات خشية أن تنتشر أو تختل أو تضطرب، و ما أن يتراءى لي أن شخصاً يخرب أو يشوش حتى اتصل بقادته و أرشدهم إليه ليكبحوا جماعه. ... من هنا تكون عندي ميل للشيوعيين يتقاطع مع نظرتي المادية و موقفي الوطني. و من هنا بدأ تحولي الحاسم إلى الشيوعية، رافق ذلك نهم إلى الاطلاع على الفكر الماركسي في مؤلفاته الأساسية. لكنني رغم ذلك لم اهتم عضواً إلى الحزب الشيوعي العراقي فلم تكن نضجت عندي بعد فكرة الانتماء الحزبي.»

"حسين مروة - ولدت شيخاً و أموت طفلاً" سيرة ذاتية في حديث أجراه معه عباس بيضون 1985، نشر في دار الفارابي بيروت 1990، ص 57-58

المتظاهرين، و سقط عدد من القتلى قرب جسر "مود"، عندما كان المتظاهرون متجهين نحو السفارة البريطانية، و التهاب الوضع عندما كان من بين القتلى الذين سقطوا مخرجين بدمائهم، جعفر الجواهري، شقيق الشاعر المشهور، محمد مهدي الجواهري. الذي نظم قصيدته المشهورة فيه، و التي أصبحت تتردد على فم كل عراقي:

أتعلم أم أنت لا تعلم بأن جراح الضحايا فم
فمّ ليس كالمدعي قولة و ليس كأخر يسترحم
و اعتبر محمد شرارة:

« و ثبة الشعب في سنة 1948 و إحياء معاهدة بورتسموث لوحة من أروع اللوحات الفنية في قصائد الجواهري.»³³⁸

و استمرت التظاهرات مما دفع الوصي إلى الإعلان من أنه سيرفض التصديق على المعاهدة، و صادف هذا الإعلان مع عودة صالح جبر إلى بغداد. فتراجعت السلطة عندئذ عن إبرام المعاهدة، و سقطت حكومة صالح جبر. و عينت وزارة جديدة برئاسة السيد محمد الصدر، و هدأ الشارع نسبياً، و تحول إلى لافتات رفعها المشيعون للضحايا الذين سقطوا برصاص السلطة. كما إن الأحزاب المعارضة أتاح لها التركيز على المطالب التي اشتملت على اتهام عام للحكومة، و شجب النظام الملكي و الأوضاع الاقتصادية السيئة التي كان يعاني منها الشعب.

و انتهت المسيرات و التظاهرات بإعلان قانون الاحكام العرفية في أيار 1948، حيث اندلعت الحرب في فلسطين. و قد أرسل العراق بضعة آلاف من الجنود للمشاركة في الدفاع عن فلسطين. لكن ساء الوضع عندما منيت الجيوش العربية بالنكسات العسكرية، التي أدت إلى وقف إطلاق النار في تموز من العام نفسه. و هجر أبناء فلسطين من بيوتهم، و توافد اللاجئين على البلدان العربية. و نظم الجواهري قصيدة بفلسطين: "دلالاً في ميادين الجهاد":

سبعون مليوناً و سبع ممالك و جيوشها يا خيبة الإحصاء

338 - "الجواهري - شاعر الكفاح العربي" محمد شرارة، جريدة الحضارة، 1959

و استقال محمد الصدر بعد إجراء الانتخابات التي جرت في حزيران من تلك السنة، حيث حصلت الأحزاب المعارضة على سبعة مقاعد فقط! و شكل مزاحم الباجي الحكومة. و استغل و في تشديد الخناق ضد الجالية اليهودية.

وقد شمل الغليان معظم البلدان العربية، لخسارتهم فلسطين في حربهم مع إسرائيل. و خرجت التظاهرات تهتف ضد الصهيونية و وعد بلفور. كانت تلك الخسارة بعد ولادة دولة إسرائيل، بقرار من هيئة الأمم، كارثة على العرب، التي لا تزال أصدائها مستمرة حتى الآن. فتم فرض قيود على الجالية اليهودية، و منعت من تولي الوظائف الحكومية، و صدرت أحكام ضد بعض الشخصيات اليهودية التي اتهمت بمساعدة الحركة الصهيونية و العمل لدولة إسرائيل. و أعدم بعضهم و زج عدد منهم في السجن، و كانت نذيراً إلى هجرة الجالية اليهودية من العراق. كما كانت بداية للاعتداء على اليهود في بغداد، فقد جمّدت الدولة أملاكهم أو بيعت بأسعار بخسة من قبلهم. و كانت الجالية اليهودية في العراق من الجاليات الموسرة، و جالية منسجمة مع نسيج المجتمع العراقي بالرغم من انه مجتمع محافظ تقليدي. كان عدد كبير من التجار اليهود يعملون في السوق بجانب التجار العراقيين، كما كان التجار العراقيون يطمئنون إليهم و يوظفونهم كمحاسبين عندهم أيضاً. و كان لهم دور مهم في الحياة الثقافية و مجال التعليم. ساد جو من العدا، خاصة بين الشباب، و أصبح التعدي على الجالية اليهودية من السمات الواضحة، بعد خسارة الأرض الفلسطينية، و انعكس الجو المتوتر في جميع أنحاء العراق.

اعتقد محمد شرارة منذ إعلان وعد "بلفور" الذي هتف ضده الجميع في التظاهرات، انه الوند الذي دق في قلب المنطقة لتدميرها. كان في البداية ضد التقسيم، و كان يعتقد ان اليهود باستطاعتهم أن يعيشوا مع الفلسطينيين. إذ اعتبرها لعبة استعمارية صهيونية. كان يرفض أن تبنى دولة على أسس دينية في هذا العصر، في القرن العشرين؟ و استغرب من اعتراف الاتحاد السوفيتي بدولة إسرائيل. و اضطر الحزب الشيوعي بدوره إلى أن يؤيد التقسيم، و اتهم من قبل القوميين من انه حزب غير مستقل، تابع بمواقفه إلى سياسة الاتحاد السوفيتي! هنا ظهر الصراع الوجداني عند محمد شرارة، و هو قرار الحزب من جهة و التخلي عن إرادته من جهة أخرى؟ لأنه كان يتساءل دائماً هل من الممكن بناء دولة على مجموعة من أساطير و قصص تلتها و تناقلتها أجيال في الشتات و أضافت إليها من مخيلتها في التغني

في أرض الميعاد؟ لم يكن يقبل مثل هذه الفكرة، و لكنه كان في الوقت نفسه يعتقد إن اليهود كشعب، مظلوم تاريخياً، فكان يدافع عنهم و لا يقبل التعدي الذي تعرضوا له في العراق أثناء "الفرهود"، و اعتبر الأسعار البخسة التي بيعت بها حاجياتهم عندما هاجروا أو أجبروا على الهجرة إلى إسرائيل، نوعاً من التجني عليهم.

كان في حديثه يفصل دائماً بين اليهود كشعب و بين دولة إسرائيل التي دعمتها الصهيونية العالمية و اغتصبت بذلك أرض الشعب الفلسطيني. و ظل طيلة حياته يدافع عن الشعب الفلسطيني الذي اغتصبت أرضه، الشعب الذي هُجّر من دياره ليعيش في غربة دائمة، و قد كتب محمد شرارة عن قسوة الغربة:

« و لكنها غربة المطرود من بيته و من أرضه و من عشه الذي بناه بكل ما في روحه من عزم و تصميم و إرادة. و إذا كانت الغربة الاعتيادية مرة و قاسية فكيف تكون إذا اقترنت بالطرد من البيت الذي بني بدم القلوب.»

إن الغربة التي نشأت عنها الأحزان تحولت إلى ثورة دامية في نفس كل مولود فلسطيني، في بلاد الغربة و الشتات التي اجبروا على العيش فيها، بعيدين عن وطنهم فلسطين.

* * *

عاد نوري السعيد ثانية إلى تشكيل الوزارة، بعد استقالة وزارة مزاحم الباججي. و بدأت تلك الحقبة، بحملة اعتقالات واسعة في العراق، لم يشهد لها مثيل في تاريخ العراق. و انتهز نوري السعيد فرصة الأحكام العرفية، فجمدت بعض الأحزاب، و عطلت الصحف، و اعتقل عدد كبير من مفكري العراق، كما اعتقل أعداد كبيرة من أعضاء الحزب الشيوعي. و اعدم قادة الحزب الشيوعي في 15 شباط 1949، بعد محاكمة صورية.³³⁹

داهم رجال الأمن و الشرطة دار محمد شرارة في كانون الثاني عام 1949، حيث اعتبرته السلطة أحد المسؤولين الرئيسيين و المحرضين عما حدث من تظاهرات و احتجاجات من قبل طلبة دار المعلمين الريفية. قرعوا باب الدار في حي "سبع قصور". سمعت زوجته طرقاتاً شديداً بعد منتصف الليل، كانت لا تنام نوماً عميقاً، لأنها تقوم لصلاة الفجر، أو السحور في شهر رمضان، فتحت الباب و بان أمامها

339 - قادة الحزب الشيوعي الذين اعدموا في تلك الفترة هم: يوسف سلمان الملقب بـ "فهد" سكرتير الحزب الشيوعي، و محمد حسين الشبيبي و زكي بسيم و يهودا صديق. (ب.ش)

"رجال الأمن"، هجموا مدججين بالسلاح، و انتشر الخوف، و ازداد الرعب، عندما فتشت جميع الغرف، و نثرت الكتب و أوراق زوجها التي غطت ارض الغرفة. و صودرت حتى الصور التي التقطت لبناته، التي شاركت مدرستهن في تشيع القتل ضد معاهدة بورتموث. و اختفت بعض الكتب من مكتبته، و جميع ما كتبه في تلك الفترة من مقالات³⁴⁰، و لم تتجُ حتى دفاتر المذكرات التي كانت تخفيها بناته تحت الفرش. كما اخفى الدفتر الضخم الذي سجلت فيه جميع الندوات الأسبوعية التي كانت تقام في داره، و ضمّ القصائد التي كانت تقرأ في تلك اللقاءات، و منها بعض قصائد بدر التي لم تنشر، فقد ضاعت بين الملفات الكثيرة التي احتوت عليها رفوف مديرية التحقيقات الجنائية.³⁴¹

كان جميع أعضاء العائلة يراقبونهم عن كثب، عندما فتحوا خزانة الكتب التي كانت الضحية الأولى في معاقبة محمد شرارة، حيث أصبحت وسيلة انتقام، كانوا يراقبون بعينون مذعورة حزينة ما يحدث لتلك الكتب! فقد علم محمد شرارة أولاده و بناته على أهمية الكتاب و المحافظة عليه، و أحيط الكتاب في داره بنوع من الاحترام. فكان يغلف بورق أسمر قبل البدء بقراءته، بغض النظر إن كان من مجموعته أو مستعاراً من بعض أصدقائه. نظرة و احدة إلى كتب المكتبة المبعثرة في أرض الغرفة، و تحس بقوة الكتاب و ضعف السلطة التي تخافه!

غاب بعد بضع دقائق الوالد عن الأنظار و اختفى مع الكتب و الأوراق التي صودرت، لا يسمع في صمت الليل و سكونه إلا دوايب عجلة سيارة الشرطة التي أفلته. خيم القلق على جميع أفراد العائلة، و لم ينم أحد تلك الليلة إلا عندما بزغت الشمس و بددت أشعتها ظلام الليل. و عادوا في اليوم التالي يلملمون ما تبقى من الأوراق و الكتب المبعثرة، يعيدونها باعثناء إلى أماكنها، و لكن ظلت الدار تعاني من العتمة التي اخترقت كيان العائلة، بعد اختفاء رب العائلة عن أنظارها! أما أخوه مرتضى فلم يعد إلى الدار، إذ القى القبض عليه في كلية الحقوق.

340 - لم أعرث إلا على مقال واحد، كتبه محمد شرارة عام 1948، بعنوان: "عاشقة الليل.. و هل في الليل ما يعشق؟! " و ربما كان السبب في ذلك هو مصادرة مقالاته مع ما صودر من كتب من قبل رجال الأمن. (ب.ش)

341 - و ربما كان من الممكن أن يُلقى ذلك الدفتر الضخم، ضوءاً على تاريخ تلك القصائد لو لم يتعرض إلى المصادرة، و الذي ضم معظم القصائد التي أُلقيت في الندوة الأسبوعية. (ب.ش)

علمت العائلة في اليوم التالي أنهما معتقلان في موقف الكرخ، مع عدد من أصدقائه، من أمثال الشاعر بدر شاكر السياب الذي ألقى القبض عليه في البصرة و نقل إلى بغداد، و محمد مهدي الجواهري³⁴²، و عدد من الشخصيات السياسية للأحزاب المعارضة و رؤسائها، و طلبة بعض الكليات. أحدث اعتقالهما فراغاً في حياة عائلته، فقد خلت الدار من أحاديثهما و خيمت الكآبة و الحزن بين أفرادها. و لكن بعد فترة سمح لأهالي المعتقلين بالزيارات و قد وصفت حياة شرارة تلك الزيارة:

« لم نصل إلى المعتقل في الوقت المقرر للمقابلة، و طلبوا منا أن نأتي في اليوم التالي، و ساعنا هذا الخبر و بقينا واقفين في مقدمة ساحة المعتقل التي ينيرها ضوء الشمس. كان والدي واقفاً خلف القضبان و قد أسند و جهه و ذراعيه إليها لكي يريانا. بقي كل منا يتطلع إلى الآخر من خلال المسافة القصيرة التي تفصلنا عنه، و بدت لنا كالحاجز الذي لا يحق لنا اجتيازه. لاحت ردهة المعتقل و اسعة من وراء القضبان، و لكننا لم نستطع أن نرى سوى المتر الأول من مقدمتها؛ لقد احتواها الظلام و غابت فيه و جوه المعتقلين و قاماتهم و أعدادهم. صُدمت أنفسنا الفتية للمرة الأولى بقسوة الحياة، فقد بعث فينا منظرها الكآبة و الأسى. و أخيراً صاح والدي عندما وجد أننا لن نستطيع أن نقابله: إن خيرة أبناء البلاد يحتجزون خلف هذه القضبان من فلان و فلان ... رد الشرطي الذي يقوم بالحراسة قائلاً:

- أي و الله، إن هذا الموقف ليس لأمثالكم!³⁴³

* * *

342 - مقابلة مع كريم مروة، بتاريخ 2008/2/8 الذي زار الجواهري و محمد شرارة بصحبة عزيز أبو التمن في "موقف الكرخ".

« كان الشاعر محمد مهدي الجواهري في المعتقل الذي اعتقل فيه محمد شرارة، لكنه وضع في غرفة صغيرة منفصلة عن المعتقلين الآخرين، و قضى أسبوعاً واحداً، و اخلي سبيله لعدم توفر مستمسك عليه. أما محمد شرارة فقد قضى شهرين في المعتقل، و كان في غرفة واسعة مع 20-30، شخصاً، كانت الحالة مزرية، تعمها الفوضى و القذارة محيطة بالمعتقلين، و لم ير الشاعر بدر.»

- مكالمة تلفونية مع لميعة عباس عمارة، بتاريخ 2008/4/18
كما زارت الشاعرة لميعة عباس عمارة كل من بدر شاكر السياب و محمد شرارة أثناء الزيارة الرسمية للمعتقلين.

343 - "ندوة الشعر الحر في بغداد الأربعينيات: لحظات من الأدب و الحب و المستقبل"، د. حياة شرارة، جريدة النهار، المحلق الأدبي، العدد 299، 1997/11/29، "الموقف" هو المعتقل.

عاد محمد شرارة من المعتقل، بمعنويات عالية، لكنه فصل من وظيفته، مصدر رزقه الوحيد، و لم يتجاوز الأربعين من العمر.³⁴⁴ كما فصل معظم المعتقلين الذين كانوا معه في المعتقل، و من جملتهم بدر شاكر السياب. و يذكر محمد شرارة عن السياب في ذلك المعتقل:

« لقد التقينا أنا و بدر في "موقف الكرخ" بعد أن فصلنا جميعاً من أعمالنا على أثر التوقيف، و كان ذلك منتظراً، و لكن بدر رأى على ما ظهر ان العقاب كان كبيراً، فأخذه شيء من التنازل الحائر، و كثيراً ما كان يبدو عصبياً على أثر ذلك. لكن رفاقه كانوا يهونون عليه الأمر و يضربون له الأمثال بالذين بذلوا دماءهم و صعدوا إلى المشانق، و إن تضحياتنا كلنا نحن الذين لا نزال في "الموقف" تبدو بسيطة إذا قيست بالذين بذلوا دماءهم من أجل الوطن. و لما خرجنا من "المواقف" بقينا جميعاً بدون عمل، تطاردنا الشرطة.»³⁴⁵

كان محمد شرارة في قلب المعركة، أما زوجته فكان دورها على الهامش دائماً، مسؤولة عن رعاية العائلة، تنظر إلى ما يحدث حولها، تحاول ألا تدخل في أحداث الدراما، أما هو فكان مخلصاً لمنطلقاته الفكرية و معتقداته التي لم يتخل عنها. ركز في مقالاته على الدور الاجتماعي، متحدياً التقاليد الجامدة، مؤمناً بقيم الحرية الفكرية في المجتمع و ألا يكون الأديب منعزلاً عن قضايا المجتمع و أحلامه، يعيش داخل أبراجه العاجية، فان مثل هذا الأديب لا يمكنه أن يخرج عن حيز الذات، و هذا ما كان خلافه مع الشعراء من أمثال نازك الملائكة و بلند الحيدري، اللذين كان يختلف معها فكرياً، لكنه يكن لهما الاحترام.

* * *

خرج من المعتقل و وجد جميع أبواب العمل مغلقة أمامه. أصبح بين ليلة و ضحاها بلا وظيفة، و لا راتب شهري يسلمه لزوجته في بداية كل شهر، كانت الأسئلة المتشابكة تدور في رأسه، كيف سيعيل هذه العائلة؟ و يشبع أفواهاها؟ هل يقنط و هو

344 - فصل محمد شرارة من الوظيفة في عام 1949 مع المدرس مدحت عبد الله، و 150 طالباً من مدرسة دار المعلمين الريفية، و نقلت المدرسة إلى مدينة بعقوبة، بعد مشاركتها الفعالة في وثبة 1948. (ب.ش)

345 - "محاولة لتاريخ جديد في الشعر العراقي - حكايات من "الصالون" الأدبي الذي ولد فيه الشعر العربي الحديث"، زهير ماجد، مجلة بيروت المساء، الجمعة 21 حزيران 1974

البعيد عن القنوط؟ بل التفاؤل ظلّه كلما واجهته مشكلة! و لكن لم تواجهه مشكلة اقتصادية من قبل، حتى عندما خلع العمامة و بدأ حياة جديدة!

ترك الكتابة و نظم الشعر في تلك الفترة و لم ينشر له شيء. إذ كان عام 1949 من الأعوام العجاف في إنتاجه الفكري و الأدبي، كان يخزن المشاهد في ذاكرته، لشحة الوقت، فليس عنده الوقت الكافي للتأمل لكي يكتب، بل أصبحت الكتابة نوعاً من الترف. كان الحصول على القوت اليومي، مهيمناً على تفكيره. كانت الأفكار التي تدور في رأسه، تؤرقه، و تبعد النوم عنه. و هو التفكير الدائم في إيجاد عمل يضمن لعائلته العيش المستقر، و لم يجد أية نافذة تعينه على حل هذه المشكلة. و اضطر تحت هذا الضغط النفسي و الحاجة المادية، إلى مفاتحة زوجته مكرهاً و لأول مرة بما يخالجه من قلق. جفت شفثاه قبل النطق بالكلمة، و قبل أن يسألها عن "الحلي الذهبية و المجوهرات" التي كانت تتحلى بلبسها، فلم يطلب في حياته طلباً من أقرب الناس إليه، لكنها لم تفاجأ بالسؤال، عرفت في الحال ما كان يدور في خذه. جلبت له علبة مليئة بالمجوهرات، و وضعتها أمامه! نظر إلى العلبة، و تردد في فتحها، فهي خزين ما حصلت عليه من الهدايا في عرسها من أهلها و أقربائها و أقارب زوجها، إنها ذاكرة للحظات الجميلة التي مرت في حياتها. رفع العلبة بيديه، متألماً، حزيناً، و وضعها في كيس و خرج مطأطئاً الرأس، و عرفت زوجته، انها لن ترى "مجوهراتها" ثانية بعد رهنها، و لن تلبس القلائد و الأساور و الخواتم التي حلت أناملها و عنقها، و لن تستطيع أن تشارك في تقديمها هدية لبناتها و بنيتها في أعراسهم، إنما و دعتها إلى الأبد!

بعد شهرين من رهنه مجوهرات زوجته، حصل على "الإكرامية - نهاية الخدمة" التي أنقذت الوضع المالي لعام، و لكنها لم تنقذ مجوهرات زوجته. كان قلقاً في البداية، عليه أن يكون حذراً، و أن يفكر و يخطط، قبل الإقدام في توظيف و استغلال المبلغ، و إيداعه في مشروع يدر عليه أرباحاً يستطيع أن يعيل به عائلته. كان قلقاً في الولوج في حقل غريب، بعيد عن اختصاصه، تردد في البداية عندما اقترح عليه أن يوظف المبلغ في الأعمال التجارية، فهو لا يفهم العقلية التجارية، بعيداً عن السوق، و عن البيع و الشراء، و يجهل المعاملات التجارية! لكنه و افق على مضض، عندما لم يجد أمامه حلاً أخرى تنقذه من الوضع الذي وجد نفسه فيه!. أجر محلاً كبيراً في محلة "الحيدر خانة" في شارع الرشيد،

بالاشتراك مع صديقه الصحفي محمد حسن الصوري، صاحب جريدة الحضارة، التي كان يكتب عموداً أسبوعياً فيها بعنوان "تهلات طائر".

* * *

أصبحت العائلة لا تراه إلا في الليل، إذ كان الدوام في الحانوت سبعة أيام من دون عطلة يتمتع بها. كان يفيق في العتمة يومياً، قبل انبلاج الفجر، و يترك الدار في السادسة صباحاً، فيصل الحانوت بعد سفرة طويلة يقطع فيها الباص شوارع مدينة بغداد، فيصل الحانوت في السابعة، كي يشرف على بيع اللبن و الزبد و القيمر/ القشطة العراقية، الذي يتناوله العراقيون في الصباح كجزء من وجبة الفطور، مع الشاي.

كان جميع أفراد العائلة ينتظرون عودته إلى الدار في العاشرة ليلاً، لكنه كان يعود متعباً، مرهقاً من العمل المضني. غاب الضحك و النقاش و الجدل الذي كانت عائلته معتادة عليه بصحبته، فكان يلتحف الفراش و ينام بعمق، لكي يستقبل اليوم الجديد. تغيرت أحاديثه الشائقة، المطرزة بالأدب و السياسة، إلى أحاديث جافة، تتعلق بأسعار السلع من الرز و الطحين و السمن!

كما تغيرت حياة العائلة اليومية في تلك الحقبة الصعبة التي مرت بها، فبان الاقتصاد إلى درجة التقدير في جميع المجالات. إذ أصبح يجلب لها المواد الضرورية من الرز و الدهن و السكر و الشاي من مخزنه، و يسلمها يومياً ديناراً واحداً، عليها أن تقوم بإطعام عائلة مكونة من سبعة أفراد بهذا المبلغ.

لم يستطع محمد شرارة الاستمرار في العمل الشاق في الحانوت، فقد شعر بالخيبة و النفور. فبعد عام من العمل الرتيب، المتواصل، المضني، وجد ان الخسارة المادية - إضافة إلى الخسارة المعنوية - لا يمكن تعويضها، فاضطر إلى التنازل عن حصته لـ محمد حسن الصوري، و خسر بذلك "الإكرامية" التي شارك فيها في الحانوت. كان يجهل محاسبة شريكه و لم يكن من طبعه محاسبة الآخرين في قضايا مالية، إذ كان بعيداً عن عقلية رجال الأعمال.

عاد إلى التعليم، يلقي صباحاً محاضرات في مدرسة "شماش" للجالية اليهودية، و محاضرات مسائية في المدرسة "الجعفرية". لكن بالرغم من العمل المرهق و كثرة عدد ساعات التدريس، و التوصيلح للذين كانا يستنزفان وقت راحته و إنتاجه الفكري، إلا انه شعر بارتياح، فقد عاد إلى جو مألوف بالنسبة له.

و قد شارك في رفع جزء من العبء المادي عن كاهله، شقيقه مرتضى³⁴⁶ الذي كان يشرف على الصفحة الأدبية في جريدة "الزمان" لصاحبها توفيق السمعاني، و كان حلقة الوصل بين الشعراء و الكتاب آنذاك. فقد كان بالإضافة إلى الدراسة في كلية الحقوق التي تستنزف معظم وقته، « يجمع الإنتاج الأدبي للكتاب و الشعراء، فيمر على كلياتهم أسبوعياً، إذ كان بعضهم لا زالوا تلامذة، و ينشره في الصفحة الأدبية لذلك الأسبوع.»³⁴⁷

رغم ذلك فقد زادت مصاريف العائلة بعد أن شبت بناته و أصبحن صبايا، و اضطر ثانية إلى الطلب من زوجته في مساعدته! و كان يحس بالامتهان لكرامته في طلب أي شيء من الآخرين، حتى من أقرب الناس إليه، لكن زوجته كانت دائماً مستعدة في الوقوف إلى جانبه، رغم اختلافها التام، في اختياره طريق النضال الشائك الوعر!. فاضطرت إلى بيع قطعة من الأراضي التي كانت تملكها في لبنان، لسد النقص المادي الذي كانت تعاني منه العائلة. و لكن استمرت داره مفتوحة أبوابها أمام الأصدقاء، تلقاهم - تلك الدار - برحابة صدر.

* * *

كما انعكست الأحداث السياسية و الأوضاع القلقة في العراق في عام 1949، على الحالة النفسية التي مرّ بها بعض المفكرين من الشعراء و الكتاب. فتوقفت اللقاءات الأدبية الأسبوعية، حيث واجه عدد من الذين كانوا يحضرون تلك الندوة الأسبوعية، قسطاً من الاضطهاد - لكن استمرت العلاقة بآل الملائكة، و لم تتأثر بالأحداث السياسية، بالرغم من ان آل الملائكة لا علاقة لهم بالسياسة، و لا يؤمنون بالأفكار اليسارية، بل معظمهم قومي التفكير و الاتجاه. كما ساءت العلاقة بين بدر و لميعة،³⁴⁸ و توقفت لميعة عن زيارة دار محمد شرارة. لم يكن سبب توقف زيارة

³⁴⁶ - مقابلة مع سكنة شرارة بتاريخ 2008/4/14، بيروت - لبنان

« كان مرتضى يشرف على القسم الأدبي في جريدة الزمان. كما كان يلقي محاضرات في اللغة العربية في مدرسة شماش. كان محبوباً من قبل الطلبة، و عندما احتلت إسرائيل جنوب لبنان عام 1982، بعث له احد تلامذته اليهود في الجيش الإسرائيلي رسالة بعنوان (إلى أستاذي الكبير مرتضى شرارة- بنت جبيل) و قد تسلمها مرتضى و قرأها.»

³⁴⁷ - مكالمة تلفونية مع الشاعرة لميعة عباس عمارة في 2007/12/17، سنيغو - الولايات المتحدة

³⁴⁸ - مكالمة تلفونية مع لميعة عباس عمارة، بتاريخ 2008/4/18، سنيغو - الولايات المتحدة

الشاعرة لميعة إلى دار محمد شرارة متأثراً بالوضع السياسي و إنما كان السبب شخصياً. فقد كلف محمد شرارة نيابة عن الشاعر بدر شاكر السياب، في تلك الفترة، في خطبة لميعة بصورة رسمية، و أجابته لميعة:

« من انها تقدر ذلك، خاصة و انك "الرسول" الذي كلفه بدر بهذه المهمة، لكنني لا استطيع قبول الزواج منه! فهذا شيء مستحيل، إذ لا يمكنني أن أتحرر من قيود عائلتي من جهة، كما لا يمكنني أن أتخلى عن مسيرة حياتي الأدبية من جهة أخرى، فأنا شاعرة و لا يمكنني العيش بظل بدر! فكل ما سوف أنظمه أو أكتبه، سيقال إن بدر هو الذي كتب لها هذه القصيدة أو تلك!، و أضافت إنها الوحيدة التي بادلته الحب بصدق و عاطفة.»³⁴⁹

كان بدر متألماً و حزيناً من موقف لميعة منه، فقد انقطعت العلاقة بينهما، و أنقلب الألم إلى حقد دفين، إذ كان عاطفي المزاج، ينفعل بسرعة، و تجلت بردود فعل عنيفة لا عقلانية تجاهها، كما تجلت في القصائد التي نظمها في تلك الفترة. فنظم قصيدة بلميعة، و صف ثوبها الأسود بالخزي و الإثم و العار، مما أغضب الوالد، و أنبه على القصيدة و طلب منه أن يتلفها.³⁵⁰ إذ كان للميعة عنده مكانة خاصة، يجلبها و يحترم شعورها، و اعتبر القصيدة نوعاً من الإسفاف و التجني عليها، و لذا كان يشجب مثل هذا السلوك حتى من شاعر و صديق مثل بدر. لكن هذا النوع من ردود الفعل العنيفة التي تجلت في مشاعر بدر، كان معروفاً و ليس بالشيء الغريب في سلوكياته، فقد نظم قصيدة بـ "لمعان البكري":

« التي كانت تلميذة في دار المعلمين العالية، و كانت فتاة متميزة بجمالها عن رفيقاتها، و بدر يعشق و يقدس الجمال. كانت لمعان تجلس مع رفيقاتها في حديقة

« كان يزورني بدر عندما يعود من الرمادي في دار "مبارك جودت ناشي" و كنت أسمى هذا الشخص بخالي! و الذي أصبح زوجي فيما بعد! حيث انقطعت العلاقة بيني و بين بدر في عام 1951، و تزوجت في نهاية عام 1951.»

³⁴⁹ - مكالمة تلفونية مع لميعة في 2007/12/17، سنديغو - الولايات المتحدة

« و لم يكن ظن لميعة ببدر خاطئاً، فقد همس بدر السياب ذات يوم في أذن الشاعر "أونيس"، "انه هو كاتب الشعر" و ليست لميعة، و بذلك أثار الشك حولها، و السبب لأنها رفضت الزواج منه." و كتب عنها " الأسماء التي أصبحت مناضلة"، و وثقت زوجة أونيس ذلك بكتاباتهن عن لميعة، لكن أونيس انتقد زوجته على ما كتبتة.»

³⁵⁰ - و علمت من الوالد من أن بدر وافق على ذلك، و أتلّف القصيدة. (ب.ش)

الكلية عندما كان بدر يقرأ لهن الشعر، و لم يكن هنالك أية علاقة عاطفية بينهما، و لم تتوه في يوم ما، من أنها تحبه. لكن كل ذنبها، أنها انتقلت من كلية دار المعلمين العالية إلى كلية الحقوق، و حرم بذلك بدر من رؤيتها، فنظم بها قصيدة " ذات الغمazes"، و كال لها اللعنات و الشتائم، من أنها فتاة جميلة تزوجت "إلى قصر و سيارة!"³⁵¹.

351 - مكاملة تلفونية مع لميعة عباس عمارة، 17/12/2007، سنديغو- الولايات المتحدة. و لكن ما كتبه عيسى بلاطة في كتابه عن بدر شاعر السياب عن صاحبة الغمazes يختلف تماماً عما ذكرته لميعة:

« بينما كان يسير يوماً في أحد ممرات الدار، إذا بيد بضعة تربت على كتفه. فالتفت، فوَقعت عيناه على و جه صبح كانت صاحبه تبتسم ابتسامة مشجعة أظهرت في خديها غمzتين مشرقيتين. و سألته الفتاة الأنيقة أن يكتب لها قصائد حب، فاحمرت وجنتاه و لم يستطع أن يصدق أذنيه. إذ كيف لهذه الفتاة أن تهتم بشعره الغزلي؟ لكنها أكدت له اهتمامها و طلبت منه أن يسمعها ما يكتب فيها من الشعر.»
"بدر شاعر السياب- حياته و شعره"، عيسى بلاطة، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، الطبعة السادسة، 2007، ص- 51

- مكاملة تلفونية مع لمعان البكري بتاريخ 16/9/2008، لندن - انكلترا و اتصلت بلمعان البكري و أخبرتني: « انها أمضت شهراً كاملاً في كلية دار المعلمين العالية قبل أن تنتقل إلى كلية الحقوق، و خلال تلك الفترة قامت الكلية بسفرة و اشتركت فيها، و كان بدر شاعر السياب من جملة الطلبة الذين شاركوا في تلك السفرة، و قرأ لنا بعض القصائد، و لم يكن شاعراً مشهوراً في تلك الفترة، و كان ديوانه ما زال مخطوطاً، ينتقل بين تلميذات الكلية، و بذلك نظم قصيدة "ديوان شعر كله غزل/ بين العذارى بات ينتقل". و بعد أن انتقلت إلى كلية الحقوق بعث لي قصائد كان قد نظمها بي. و لم يكن هنالك أية علاقة بيننا.»

- مكاملة تلفونية مع بتول القشطيني بتاريخ 15/9/2008، لندن - انكلترا
« نظم بدر السياب أول قصيدة بلمعان البكري بعنوان "يا هواي البكر" و القصيدة الثانية "ذات الغمazes"، أما القصيدة التي كال لها الشتائم و اللعنات فهي قصيدة "المحوبة المذمنة" التي يقول فيها: "و نواظرَ كانت نواظرُ للخنا و العار".»

- و هذه القصائد جميعها غير منشورة في ديوانه الكامل الذي صدر بمجلدين عن دار العودة. و لكن قصيدة بعنوان: "بين الرضا و الغضب" يشير في أحد الهوامش إلى قصيدة "المحوبة المذمنة":
أبت الخيانة أن تملكه قلباً بطهر هواه يتسبم
لا تعذلي شعري فليس له ذنباً إذا هو جاء يضطرم
لومي التي غدرت بصاحبه وجفته و هو من الأسى حطم
لو نلت منك العطف ما جزعت نفسي فجئت إليك اتهم

نشرت قصيدة "بين الرضا و الغضب" بتاريخ 18/11/1944، معنى ذلك ان قصيدة "المحوبة المذمنة" قد نظمت قبل هذا التاريخ، عندما كانت لمعان البكري تلميذة في الثانوية.(ب.ش)

"بدر شاعر السياب - الأعمال الشعرية الكاملة" دار العودة- بيروت 2000، المجلد الثاني ص- 330

و لم ينسَ بدر لميعة، فتذكرها بعد فترة من انقطاع علاقتهما، حيث "تفرقت الدروب" و ذلك بعد زيارتها له في قريته جيكور:
 و تلك؟ و تلك شاعرتي التي كانت لي الدنيا و من فيها
 شربت الشعر من أحداقها و نعستُ في أفيائها
 ثم يقول:
 و أقرأ و هي تصغي و الربا و النخلُ و الأحلام في دواليها!
 تفرقت الدروب بنا نسير لغير ما رجعة...

* * *

فقد الشعب العراقي تدريجياً نسيم الحرية التي تنفسها بعد الحرب العالمية الثانية، و تراكمت غيوم الاضطهاد في أجوائه، بعد اعتقال و سجن المفكرين و السياسيين البارزين في البلد، و لم ينجُ منها حتى اقرب صديق لمحمد شرارة، فقد أسقطت الجنسية العراقية عن حسين مروة و عائلته في تلك السنة، بسبب مقال نشره بعنوان:

« "العقل و العاطفة عند نوري السعيد"، رداً على دعوة نوري السعيد الناس إلى التعقل. في هذا المقال حاولت تفسير ماذا يعني نوري السعيد بالعقل و ماذا يعني بالعاطفة. ثم اتفق أن جاء نوري السعيد إلى الحكم عقب أسبوع من نشر المقال و لم ينقض أسبوع حتى أُخرجتُ قسراً من العراق».³⁵²
 كما أسقطت الجنسية عن صدر الدين شرف الدين و عائلته، صاحب و رئيس تحرير جريدة "الساعة"، بعد أن أغلقت الجريدة.³⁵³
 كانت أواصر علاقة و صداقة متينة و قديمة تربط عائلتيّ محمد شرارة و حسين مروة، و ذلك منذ أن كانا يدرسان في المدرسة الدينية في مدينة النجف. بعد عقد

352 - "حسين مروة - ولدت شيخاً و أموت طفلاً" سيرة ذاتية في حديث أجراه معه عباس بيضون 1985،

نشر في دار الفارابي بيروت 1990، ص- 58

353 - سحبت الجنسية العراقية من "صدر الدين شرف الدين" بعد تعطيل جريدة "الساعة" في 1948/10/27، « التي كان فيها مصارعاً للسياسيين في تحليلاته و افتتاحياته و أخباره القصيرة (أشتات مجموعة) أو الكتب التي أصدرها لتؤرخ للأحداث، فتخلّى عنه السياسيون جميعاً، و اعتقل حتى انجاز معاملة تسفيره في تموز 1949»، و كان كتاباه "سحابة بورسموث" 1948، و "صورة العراق الحاضرة" 1949، اللذان انتقد فيهما الأوضاع التي كانت سائدة في العراق آنذاك، سبباً في سحب الجنسية. أما حسين مروة فقد أُبعدَ عن العراق في 1949/6/9 بعد أن سحبت منه الجنسية.

من التنقل بين مدن العراق من لقاء و افتراق بين العائلتين، التقت العائلتان ثانية في بغداد، حيث كانت عائلة حسين مروة تقطن في حي الكاظمية، و كانت عائلة شرارة تقطن في حي سبع قصور في جنوب بغداد.

كان حسين مروة هادئاً في نقاشه، بعيداً عن الانفعال، خافت الصوت. ذا شعر جعد، ابيض اللون، طويل القامة. يدرس اللغة العربية في مدرسة "شماش"، و هي مدرسة خاصة بالجالية اليهودية، كما كان يشرف على تحرير جريدة "الساعة"، إضافة إلى التدريس. كانت جريدة "الساعة" لصاحبها "صدر الدين شرف الدين"، ذات طابع قومي الاتجاه. فكان هنالك نقاش دائم بين شرارة و مروة عن خط الجريدة العام. إذ كان محمد شرارة يختلف اختلافاً كلياً بنظرته عن النظرة القومية التي تبنتها الجريدة. و لكن خلال فترة قصيرة، لحق مروة بالركب في الاتجاه الماركسي، حيث كانت نقطة تحول في نظره و تحليله للقضايا التي كتب عنها فيما بعد.

أما زوجته "أم نزار"، فكانت ذات شعر جعد، أحمر اللون، يتوهج تحت أشعة الشمس ببريقه كتوهج اللهب، يتدلى فوق كتفيها، ذات بشرة حلبيية اللون. ورث أولادها لون شعرها و بياض بشرتها المبقعة بالنمش. كانت "أم نزار"، متدينة، تصلي و تصوم شهر رمضان، و تذهب إلى زيارة مقام موسى بن جعفر الصادق في الكاظمية. أدى هذا الشبه بينها و بين "أم إبراهيم" إلى علاقة متينة، فكن كأختين. تتكلمان عن مسؤولية الأولاد و مشاكل الحياة اليومية التي يجابهنها. لكن كانت "أم نزار" تجيد القراءة و الكتابة، تقرأ بعض الكتب، بالإضافة إلى قراءة القرآن، و لذا كانت أوسع أفقاً من "أم إبراهيم" من هذه الناحية.

كان إسقاط الجنسية عن حسين مروة و عائلته،³⁵⁴ ضربة قاسية سددت إلى عائلة محمد شرارة، و شعر جميع أفراد العائلة كباراً و صغاراً بالخسارة التي تترتب عليها إسقاط جنسية آل مروة، و كأن عضواً مهماً قد بُتر من جسد العائلة! فقد كانوا عائلة واحدة، فان غضبت العائلة على أحد أبنائها، كانت العائلة الأخرى تحتضنه.

354 - أسقطت الجنسية عن حسين مروة و صدر الدين شرف الدين « حسب مرسوم إسقاط الجنسية في عام 1932، لأسباب سياسية الذي أصدره وزير الداخلية ناجي شوكت بتاريخ 1932/4/20، و الذي استعمل قبل ذلك في إسقاط جنسية عبد القادر إسماعيل البستاني في عام 1938، و سحب جنسيته لنشاطه الشيوعي وفقاً لقانون رقم 51 لسنة 1938، الذي حرم الترويج للمبادئ الشيوعية.»

"من هو العراقي؟ إشكالية الجنسية و اللانجسية في القانونين العراقي و الدولي"، د.حسين شعبان، دار الكنوز الأدبية - بيروت 2002، ص- 63

قضت عائلة حسين مروة آخر أسبوع لها في بغداد في دار محمد شرارة، بعد أن تخلصوا من تصفية كل ما كان يربطهم بالعراق، و لكن بالرغم من الغبن و التعدي على حقوق حسين مروة و عائلته، فقد أشاع وجودهم البهجة و الفرح، رغم المصاعب المالية التي كانت تمرّ بها عائلة شرارة. و لم يكن محمد شرارة رفيق و صديق حسين مروة فقط، بل كان أولاده نزار و حسان و أحمد و ابن أخيه " كريم مروة"، جزءاً لا يتجزأ من عائلة محمد شرارة.

تألم الجميع عندما حان موعد الذهاب إلى محطة القطار، و شارك في توديعهم حتى الأطفال. كان رصيف المحطة مزدحماً بالناس على اختلاف طبقاتهم و أجناسهم، نساء متلفعات بالعباءة السوداء و نساء مرتديات آخر أزياء الموضة، رجال بملابسهم الشعبية و آخرون بزيمهم الأوربي، باعة المشروبات و الأطعمة، ينادون بأعلى أصواتهم على بضائعهم من "السميط"،³⁵⁵ إلى لفات الأبيض و بيض.

و أحتشد المودعون من الأصدقاء و المعارف أمام "عربة" عائلة حسين مروة، و أعلن ناظر المحطة بصفارته عن موعد الرحيل، و تحركت العواطف مع حركة القطار، و سار المودعون بسرعة حركة عجلات القطار، و لاحت المناديل "تهفو و تروح" كما يقول محمد شرارة، في إحدى قصائده و "كل مندبل به من رعشة التوديع روح"³⁵⁶ و ارتفعت الأيدي و الأذرع ملوحة بالوداع و انسابت دموع المودعين صغاراً و كباراً، فالفراق لا يعرف الحدود بين صغير و كبير!

عادت العائلة إلى الدار، الدار موحشة، فقد خلت غرفه من أحاديث الكبار و ضحكات و لعب الصغار. و لم يشعر محمد شرارة و حده بالفراغ الذي تركه رحيل حسين مروة و عائلته عن بغداد، و إنما شملت أعضاء العائلة كبارها و صغارها، و ساد صمت غريب، و خيم الوجوم علي الجميع، بعد الرحيل! لكن فراق حسين مروة ترك في أعماق محمد شرارة أثراً عميقاً، فقد كانا كالتوأمين كما كتب عنه حسين مروة!

* * *

355 - السميط: هو عجين، يضاف له الخميرة، ثم يسلق، و يصنع على شكل صغيرة صغيرة مستديرة الشكل. و يعتقد إن الوصفة عراقية قديمة، و قد نقلها يهود العراق معهم إلى نيويورك و اصطلح عليه بـ البيكل - Bagel. (ب.ش)

356 - قصيدة لمحمد شرارة بعنوان " أغنية وداع إلى أوديسا".

التقى محمد شرارة خلال اعتقاله في "موقف الكرخ"، بعدد من الأشخاص المنتمين إلى الحزب الشيوعي. و أخذ بعضهم يتردد على داره، كانوا يختلفون في المستوى الثقافي و الاجتماعي. فمنهم المثقف المادي الماركسي، و منهم اليساري المثالي التفكير، أو الحزبي الضيق التفكير، الذي لا ينظر إلى العالم إلا بمنظار تعلمه من ثقافته الحزبية المحدودة. كان بعضهم في مناصب عالية في الحزب، بل كان لبعضهم ضلع كبير في توجيه سياسة الحزب. و لكن كانت المكاسب الحزبية طاغية عند البعض منهم على العلاقات الإنسانية. لذا تتوقف العلاقة و تنقطع مهما كانت طيدة، و تنقلب أحياناً إلى عدااء بسبب أي اختلاف فكري أو أيديولوجي.

و كانت قاعدة الحزب تعتمد على الأكثرية من الطائفة الشيعية و من المثقفين من الجالية اليهودية، أما الجالية المسيحية فلم تمنح أهمية إلى الممارسة السياسية إلا القلائل منهم. كما كان هناك عدد من الشخصيات السنية المثقفة اليسارية بتفكيرها، و خاصة الشباب، و لكن عددهم لا يقاس بعدد المتعاطفين في الطائفة الشيعية، رغم ان مؤسسي الحزب الشيوعي في البداية كان معظمهم من مثقفي الطائفة السنية.

كان من بين الذين يزورن محمد شرارة، د. صفاء الحافظ، و الدكتورة نزيهة الدليمي³⁵⁷ مع أخيها عبد اللطيف الدليمي، التي أصبحت من النساء النشطات في التنظيم النسائي في العراق. كانت سمراء اللون، مليئة الجسد، أقرب إلى السمنة من النحافة، ذات عينين و اسعيتين سوداوين، و شعر أسود و أنف كبير. و لكن بالرغم من بعد شكلها عن الجمال، إلا أنها كانت ذات شخصية شفافة، تفرض احترامها على الآخرين. و طبيبة من الطبيبات العراقيات القليلات اللواتي تخرجن في الكلية الطبية في الأربعينيات، متفانية و مخلصه بعملها.

357 - تعرف محمد شرارة على الدكتورة نزيهة الدليمي، عندما سقط ابنه إبراهيم من شرفة الدار في الرسمية و كسر أنفه، و نقله إلى المستشفى الذي كانت فيه الدكتورة نزيهة مقيمة في عام 1945. انتسبت نزيهة الدليمي إلى الحزب الشيوعي في شبابها عام 1948. و أسست "رابطة النساء العراقيات" 1951، التي أصبحت فيما بعد باسم "رابطة المرأة العراقية" 1960. أصبحت عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي. عينت وزيرة البلديات في عهد عبد الكريم قاسم 1959. و هي أول امرأة وزيرة في تاريخ العراق و العالم العربي آنذاك، توفيت في 10/9/2007 (ب.ش)

أما ثمينة ناجي يوسف،³⁵⁸ فكانت صديقة بناته، تتردد على الدار في تلك الفترة، و لكن بتعرفها على حسين الرضي، أصبحت تأتي بصحبته. ثم قلت زيارتها تدريجياً، بعد أن ألقى على عاتقها واجبات حزبية بعد زواجها من حسين الرضي.³⁵⁹ و كان الشاعر كاظم السماوي،³⁶⁰ من الذين يزورون الوالد، و هو من الشعراء اليساريين الذين ساهموا بنضالهم ضمن الحركة السياسية الوطنية في العهد الملكي، متحملاً السجن و المطاردة. و كتب محمد شرارة مقدمة لديوان "أغاني القافلة" الذي صدر آنذاك: بعنوان "السماوي و ديوان أغاني القافلة".

« إنه شاعر القافلة، هذه القافلة التي تسير في طريق موحش شائك تتطاير في جنباته الصخور، و تتواثب في قلبه الأشواك، و ترى في فضائه أرواح الضحايا و يختلط بترابه دماء الشهداء!

» و بمثل هذا الطريق المظلم المرعب تندفع قافلة الشاعر تحدها أغاني الأمل و تسوقها أنشودة الفجر الجديد الذي بدأ يرسل خيوطه البيض في حواشي الأفق الأسود!

إنها تسير تنثر الضحايا على طول الطريق.. و الشاعر يحدو و كلما سقطت ضحية، أو وق شهيد! القوافل تتلاشى و تضمحل إذا بذلت من الضحايا ما تبذله قافلة الشاعر، و الحداة يتعبون و تختنق الأصوات في حناجرهم إذا بذلوا جزءاً من مجهود الشاعر، و لكن قافلة الشاعر تزداد عدداً كلما أسرفت في البذل! إن الذين

358 - مكالمة تلفونية مع ثمينة ناجي يوسف بتاريخ 2008/9/1، موسكو - روسيا

« كان محمد شرارة واسع الإطلاع، و يقرأ كثيراً عن النظرية الماركسية و ما يصدر من كتب في هذا الموضوع، و كان يرغب دائماً أن يفهم الآخرون ما هي الماركسية و المبادئ الإنسانية المرتكزة عليها، لذا كان في جدل و نقاش مستمر أثناء جلساته.»

359 - حسين الرضي، المعروف باسمه الحزبي "سلام عادل"، كان مدرساً في دار المعلمين الريفية. تعرف عليه محمد شرارة عندما كان يدرس الأدب العربي في نفس المدرسة. أصبح السكرتير الأول للجنة المركزية في الحزب الشيوعي 1955-1963، حيث عذب و اعدم في انقلاب 1963. (ب.ش)

360 - الشاعر كاظم السماوي من بلدة السماوة، ترك الحزب الشيوعي بعد إعدام "فهد"، و أصبح شاعر "حزب الشعب" الذي كان يرأسه عزيز شريف، صدر له ديوان "أغاني القافلة" في عام 1950، حيث كتب محمد شرارة مقدمة له. ترك العراق في الخمسينيات و أسقطت الجنسية العراقية عنه في عام 1955، عاد إلى العراق بعد ثورة 14 تموز 1958، حيث عين مديراً عاماً للإذاعة العراقية في عهد عبد الكريم قاسم. و أصدر جريدة "الإنسانية". (ب.ش)

يتبعونها أكثر من الذين يسقطون في الطريق! الشاعر يزداد عزماً كلما نفخ نغمة جديدة... إن ابتكار الأنغام يعنشه، إنه يزداد قوة كلما أسرف في إذاعة الألحان:

هنا نحن دموع و دياجير و أطلال

هنا نحن ذماء هدها الجوع و أسمال

هنا نحن دماء ظلّها البغي و أغلال

هنا نحن في قبضة العاصر أوशल

و لكذا.. هنا نحن - على الأهوال - أهوال

« أسمعت؟! هنا نحن! و ما نحن إلا قطرات من الدموع، و بقايا من الأطلال تلوح للعيون المترفة خالية خاوية مقفرة، أو ذماء يهددها الجوع، أو أسمال بالية مهلهلة لا يرتبط منها خيط بخيط، و لا نسيج بنسيج، أو دماء يسكبها البغي و العدوان، أو أغلال متشابكة الحلقات، أو أوशल في قبضة العاصر... و تحس بالألم يعصر قلبك لهذه البقية الباقية من الدموع و الأطلال، و الذماء، و الأغلال... لكنك لا تلبث أن تستفيق من سكرة الألم، أو نشوة الشماتة و أنت تسمع:

و لكذا.. هنا نحن - على الأهوال - أهوال

« إنها الهزة! هزة المفاجأة التي تصب "الانهيار" في أعصاب الشامتين، و تسكب النشوة الرائعة في رؤوس الشرفاء الطاهرين.. و لكذا هنا نحن.. و من "هنا" سينبعث الفجر، و تنتشر خيوطه على الدنيا»³⁶¹

كما كتب محمد شرارة مقالاً عن قصيدة الجواهري التي ألقاها في حفل تكريم هاشم الوتري:

« و لما تم لنوري السعيد ما أراد في أواخر تلك السنة، و قدر له أن يرد على الحركة الوطنية، و أن يعود إلى قواعده كانت غضبة الجواهري في ذلك الوقت أعظم غضبة عرفها تاريخ تلك الأيام السود. و قصيدته التي ألقاها في المسبح كانت زلزلاً مخيفاً تحت أقدام الفئة الحاكمة في ذلك الوقت الذي كانت الكلمة الواحدة كافية لدق الأعناق إذا تعرضت بسوء للطغاة. كان الجواهري يصيح في وجوه القردة و مسوخ الاستعمار:

أعرفت مملكة يباح "شهيدها" للخائنين الخادمين أجانباً

361 - مقدمة: السماوي و ديوان "أغاني القافلة" محمد شرارة بتاريخ 1951/1/1

مستأجرين يخربون ديارهم و يكافؤن على الخراب رواتباً

و هذه الوقفة المعدودة في تاريخ العراق، قد برهنت لنوري السعيد إن روح الشعب التي يعبر عنها الجواهري لا تزال قوية. بل لا تزال جبارة. و قد عززت تلك القصيدة روح الأمل في الشعب.»³⁶²

كما كان الشاعر محمد مهدي الجواهري يتردد أحياناً على دار محمد شرارة، بعد أن أطلق سراحه من المعتقل الذي قضى فيه شهراً.³⁶³ و أصبح الشاعر بطل المعارك التي خاضها ضد الاستعمار و السلطة و سمح الوالد لنا حضور تلك الأمسية، حيث تعرفنا عن قرب إلى الشاعر الذي كنا نحفظ شعره فقط. سحرتنا طريقة إلقائه و قراءته للشعر. فقرأ من بين القصائد قصيدة غزلية، نظمها بفتاة فرنسية اسمها "أنيتا" عندما التقى بها بفرنسا. كانت الكلمات تتدافع - عندما يبدأ في قراءة الشعر - منطلقة على لسانه لتكوّن منظومة كاملة في الذهن، يعيد المقطع مرتين، يمزج الكلمات ببطء، فتتحول تلك الكلمات إلى صور متحركة، صور

362 - "الجواهري - شاعر الكفاح العربي" محمد شرارة، جريدة الحضارة 1959

363 - مقابلة مع كريم مروة بتاريخ 2008/2/12، بيروت - لبنان

« القي القبض على الشاعر محمد مهدي الجواهري ثانية، و قضى أسبوعاً في المعتقل، فقد ألقى قصيدته الشهيرة في حفل تكريم هاشم الوتري عميد الكلية الطبية: "أنا حتفهم ألج البيوت عليهم/أعري الوليد بشتهم و الحاجبا" و بعد أن انتهى جلس معنا، و رفع القصيدة و مزقها و رامها على الأرض، فانتظرت بضع دقائق، ثم جمعتها و وضعتها في جيبتي، و عندما القي القبض عليه، لم يكن عندهم أي مستمسك عليه، فبقي في المعتقل أسبوعاً واحداً و أفرج عنه. و لكن بعد أن سافرت إلى بيروت، جمعت الأوراق الممزقة و لصقتها، و أعطيتها للنشر في جريدة التلغراف اللبنانية، فالقي القبض عليه ثانية، بعد أن أصبح عندهم وثيقة عليه، و مكث شهراً في المعتقل هذه المرة الثانية.»

- و يذكر الجواهري هذه الحادثة فيقول: « ... ففي قصيدة هاشم الوتري، رأيت كيف أضع الخصوم في زاوية، و أوجه السهام عليهم. و كان أقطاب الحكم قد أخذوا الذين كفروا. و قد مضيت في إلقاء القصيدة حتى النهاية ... بعد أن أكملت القصيدة، مزقت أوراقي و رميتها. و غادرت و إذا بي في معتقلي، في مديرية التحقيقات الجنائية، فأجأ بوفد من الشباب المتتور و معه " قصاصات من القصيدة الممزقة، مجموعة من حديقة المسبح الذي شهد الاحتفال.»

"الجواهري - جدل الشعر و الحياة"، عبد الحسن شعبان، دار الكنوز الأدبية - بيروت، الطبعة الأولى 1997، ص - 153

- كما ذكر محمد شرارة : «...الجواهري بعد إلقائه قصيدته المشهورة حول "هاشم الوتري" (بعد أن أصبح عضو شرف في الجمعية الطبية الانكليزية) و كرمته الجمعية الطبية العراقية و طلب من الجواهري أن يلقي قصيدة في هذا التكريم و كانت القصيدة قبيلة أكثر من قصيدة.»

"محاولة لتاريخ جديد في الشعر العراقي - حكايات من "الصالون" الأدبي الذي ولد فيه الشعر العربي الحديث"، زهير ماجد، بيروت المساء، الجمعة 21 حزيران 1974

حسية شهبوانية حيوانية، يجعل المستمع يحس معه بكل جوارحه، فيتحسس معه جسد "أنيثا" التي تطوق مشاعره و أحاسيسه، كما أحس بها الشاعر. كانت هذه الصفة يتميز بها الجواهري عن أقرانه، فينقل الأجواء المختلفة في قصائده المتنوعة، الداكنة منها و الضاحكة، الخاصة و العامة، و يحس المستمع إليه، كأنه مشارك في التجربة نفسها. و لا عجب في أن تكون القصيدة مخاضاً عسيراً بالنسبة له، و قد عبّر عن ذلك بقوله:

« بولادة القصيدة، أشعر أنني أولد من جديد. قد تكون ولادة عسيرة، و مع كل قصيدة أشعر أنني أكتب الشعر لأول مرة ... و أتعجب من ذلك، مثلما هو البطل المسرحي حين يواجه الجمهور. ففي كل مرة يشعر بالرهبة، و حين تكتمل القصيدة أشعر بالنشوة.»³⁶⁴

و قد حفظ معظم أفراد العائلة المقطع الأخير من قصيدة "وداع أنيثا"، و أصبحوا يرددونه دائماً، محاولين أحياناً تقليد الجواهري بمضغ الكلمات:

إليّ إليّ حبيبي "أنيث"
إليّ إليّ بجيد و لبت
كأن عروقهما النافرات
خطوط من الكلم الساحرات

* * *

أليّ إليّ بذاك الذراع
أبضّ تفايض منه الشعاع
أطليّ عليّ به كالشراع
فقد لفحتني سموم العراق
فألهبني مني جرح الفراق
إليّ إليّ به للعناق³⁶⁵

364 - "الجواهري - جدل الشعر و الحياة"، عبد الحسن شعبان، دار الكنوز الأدبية - بيروت، الطبعة الأولى 1997 ص- 143

- و بهذا المفهوم قال الرسام السريالي "سلفادور دالي" عن المبدع " بأنه امرأة في حال حمل دائمة، ما أن تضع مولوداً لها حتى تحمل بأخر".

365 - نظم قصيدة "وداع أنيثا"، قبل مغادرته باريس، و عندما قرأها في دار محمد شرارة، كانت مكتوبة على ورق لف السكائر، و يقول الجواهري في مقدمتها: « كان حباً عارماً لا يريد - و لا يقدر لو أراد -

و عندما رافقه تلك الليلة إلى بوابة الدار، التفت إليه الشاعر، قائلاً: لقد وجدنا زوجة "قرات"،³⁶⁶ أجابه الوالد: لا يوجد عندي بنات للزواج!
 كان هذا موقف محمد شرارة دائماً تجاه بناته. حريصاً على تعليم أولاده و بناته، و جعله الهدف الأول في حياته. و لأنه لم يتمتع هو بالتعليم الجامعي الذي كان ينشده بل حرم منه، بسبب الظروف القاهرة التي عانى منها و الده، و اضطر أن يبعثه في سن مبكرة إلى النجف لدراسة العلوم العربية و الدينية. و هذا الغبن الذي عانى منه ظاهر أحياناً بين الأسطر في بعض مقالاته.

* * *

كان أسلوبه في معاملة أبنائه و بناته، يمتاز بعقلانية مطلقة، و كأنه يلقي على من فشل من أولاده، درساً في علم النفس. لم يكن يؤنب أبناءه، إذا فشل أحدهم في الدراسة في عام من الأعوام، كما كان يفعل الآباء عادة، و لم يشفق عليهم و لو « إن الشفقة على الأبناء عاطفة أصيلة في الأبوين، و لكن النصح يستدعي شيئاً أكبر من الشفقة ... يستدعي بُعد النظر و اختراق الغوامض و القدرة على تحليل الكوامن القائمة في العالم البعيد و الحكمة المستمدة من التجربة.»³⁶⁷
 و هذا ما كان يقوم به، هو إسداء النصح و التوجيه، و التخفيف من خيبة الفشل، و كان يذكرهم دائماً: من إن الحياة رحلة طويلة، ستتكشف لهم خلال الطريق الطويل الذي سيقطعونه. ربما يكون الطريق أحياناً و عراً، أو مكللاً بالفشل أحياناً أخرى، لكن الهدف هو تخطيه، و التفكير دائماً في الخطوة التي تليه. فالحياة ليست باقة من الزهور، و إنما سلسلة من المطبات و الصعاب، سلسلة من الضياء و الظلام. و الحكمة في تخطي صعاب الحياة و الخروج منها. و الفشل في الامتحان هو ليس

أن يقف عند حد. و كان كأنه يتفجر عن "ينبوع" خفي تجّاج.. و كان سر الخفاء في هذا الينبوع.. رغبات! و آلام!.. و مطامح!.. ظلت طوال ثلاثين عاماً، هي عصارة العمر الزاحف!.. بسحق بعضها بعضاً!.. حتى لو وجد هذا الينبوع المختق منافقاً بدلاً عنه لما اختلف الأمر بكثير!.. لقد كان هذا الحب من "الفورة" و "السورة" بدرجة إن صاحبه كان لا يرى في ملامح المرأة إلا ما يراه العازف المتجرد في أنغام قيثارته من أنها طريق للتعبير و شعار للانطلاق.. على الضوء تلتقط الصورة.. الصادقة لقصيدة ... أنيتا!»
 ديوان الجواهري، ص 280، 298

³⁶⁶ - كان "قرات" ابن الشاعر البكر.
³⁶⁷ - "نظرات في تاريخنا القومي" محمد شرارة، المؤسسة العربية للدراسات و النشر - بيروت، الطبعة الأولى 1982، ص - 12

نهاية المطاف! فالعلم بحر لا ينتهي بالحصول على الشهادة الجامعية! وإنما الشهادة الجامعية هي مفتاح مهم من خلالها يستطيع خوض معترك الحياة، و ما هي إلا بداية الطريق.

كما كانت المباريات الشعرية أداة من أدوات التسلية في الدار و خاصة عندما كان يشارك بها الوالد.³⁶⁸ كان يقضي جزءاً من وقته في العطلة الصيفية في تلك المباريات بعد تناول الغداء. فيجلس جميع أفراد العائلة على شكل نصف دائرة، و تبدأ المباريات و التنافس و السرعة في الإجابة. كانت "حياة" على صغر سنها أكثرنا حفظاً للشعر، حيث حفظت عدة دواوين من الشعر. كان الوالد يتلأأ أحياناً في الإجابة، فيعرف الجميع، انه يحاول أن ينظم بيتاً جديداً، فيردوا عليه سوية، في كورس متناغم من الأصوات: "ده تصاعل/ أي انك تتحایل علينا"، و انك تنظم الآن بيتا من الشعر، فيضحك عند قراءته للبيت الذي نظمه، لذا كان الجميع في الجانب الخاسر في تلك المباريات بحضور محمد شرارة!!

* * *

نقلت مدرسة دار المعلمين الريفية إلى بعقوبة. إذ كان سبب و جودها مرتبطاً بالزراعة في الرستمية، و عندما نقلت إلى حي سبع قصور في الكراة، انتفى سبب و جودها في هذه المنطقة الخالية من الزراعة. مما دعا والدي إلى التفتيش عن دار أخرى، و انتقلنا إلى دار قرب محلة "البوليس خانة"/ في الكراة. ودعنا نهر دجلة قبل أن نترك دارنا المظلة عليه، الذي طالما قضينا الساعات و الأيام نمشى أو نجلس على حافته، متأملين عظمة الطبيعة بصمت. ننحني إجلالاً إلى سمو و عظمة ما شاهدناه في الطبيعة. التي كونت صورها الجميلة خزينا تراكم في أعماقنا.

وقفت مع الوالد أمام دجلة الذي انعكس الضوء فوق مساحاته، و الغيوم المتموجة و السماء المتكسرة التي احتضنت معها المشاكل التي كانت جائمة في أعماقه، تأملنا سوية عظمة ما حولنا، و تنشق بعمق هواء دجلة و هو يحرق بجريانه، كان حزينا متقللاً بالهموم لأنه سيتترك الدار المحملة بالذكريات الجميلة الحلوة. هذه الدار التي أصغت جدرانها إلى الجلسات الأدبية و تشرب أثارها بالنقاش الدائر عن تجديد

368 - كان يشارك في المباريات الشعرية بناته مريم و بلقيس و حياة و أخيه مرتضى و أحياناً أخته سكرة. (ب.ش)

الشعر و شعر التفعيلة، و التي كانت شاهداً على تجربة جديدة في الشعر في الجلسات الأسبوعية، التي حضرها الشعراء و الكتاب و النقاد، و السياسيون و الحزبيون. حيث شكلت تلك الجلسات و الندوات باقةً متنوعة من مجتمع رفيع من الناس في بغداد.

أصبحنا شبه مهاجرين، نعيش في دار موقتة استأجرها الوالد لشهر، لكي يبحث عن دار مناسبة تليق بالعائلة. زارتنا خلال تلك الفترة الشاعرة لميعة عباس عمارة بصحبة خطيبها "مبارك جودت ناشي"، بعد أن قطعت علاقتها بالشاعر بدر.³⁶⁹ وجد محمد شرارة الدار المناسبة التي كانت قريبة من النهر، لكنها لا تطل عليه، كانت الدار واسعة، بعدد غرفها و صالون كبير تشرف غرف الدار عليه، لكنها بلا

369 - مكالمة تلفونية مع لميعة عباس عمارة بتاريخ 2008/4/18، سندیغو- الولايات المتحدة

« انقطعت العلاقة بيننا، بعد أن تزوجت في نهاية عام 1951، و لم التق ببدر إلا بعد سنوات، حيث أقام صلاح نيازي حفل برثاسة د.علي جواد طاهر، في دار المعلمين العالية في 15/2/1956 جمعي فيها ببدر، فقرأت قصيدتي "الزاوية الخالية"، و فوجئت عندما صعد بدر إلى المنصة. لم نتكلم، و كان زوجي و ابني من بين المستمعين.»

و هذه بعض مقاطع من قصيدة "الزاوية الخالية"، و هي قصيدة عبرت فيها عن الفراغ الذي كانت تحس به، حياة رتيبة، خالية من الابتكار و الإبداع، هيمنت عليها القضايا الآتية، و هي الشاعرة المرهفة الحساسة، فكيف لها أن تعيش من دون نظم الشعر و من دون الخيال. (ب.ش)

أحسُّ كَأني نسيت الكلام

نسيت وجودي، نسيت الألم

كماكنة دون ما غاية

تسير، و ما شعرت بالسأم

و كان فراغي امتلاءً الخيال

فصار امتلاءً حياتي عدم.

ديوان،" عودة الربيع و الزاوية الخالية"، لميعة عباس عمارة، الناشر: عمارة الطبعة الثانية- بيروت 2001، ص 8-9

- مكالمة تلفونية مع د. صلاح نيازي بتاريخ 2008/4/19، لندن - انكلترا

« كنت رئيس "جمعية أخوان المكتبة" التي كان يشرف عليها د. جواد طاهر، فدعي كل من لميعة و بدر. و كان بدر جالساً في نهاية المنصة و لميعة في النهاية الثانية و كان بينهم جالس عدد من المشتركين. و قد قرأ بدر قصيدة حماسية سياسية عن بور سعيد و عن عبد الناصر، نظمها بشكل مزج فيها الشعر الحديث و الكلاسيكي. "حتى تنفست الصحراء قرأنا" و قد ابتعد عن الحب، و هي المرة الأولى التي يقرأ بمثل هذا النفس الذي تتمثل فيه القومية العربية.

أما لميعة فقد قرأت قصيدة بعيدة عن الحب و المماحكات العاطفية أيضاً، و إنما كانت القصيدة عن المطبخ و الأولاد، و عن رثابة الحياة.»

حديقة، لأن الحديقة استغلها صاحب الدار لبناء "مشمتم". لم تقض العائلة أقل من عام في تلك الدار، عندما اكتسح الفيضان المنطقة في مطلع الخمسينيات، بعد انهيار السدة الجنوبية لبغداد. فقد انهارت في ربيع ذلك العام السدة فجأة التي كانت تحمي القسم الجنوبي من مدينة بغداد. لم تكن الدار بعيدة عن الشارع الرئيس عندما بدأت مياه الفيضان تغطي عتبة الدار، و استطاعت العائلة بأعجوبة تخليص العفش. حيث وضعت أكياس الرمل و الطابوق في الزقاق المؤدي إلى الدار، الناس يقفزون من كتلة من الأكياس إلى أخرى، متفادين السقوط في الماء. جرى الماء في الشوارع بتيار هادر سريع، فانغمرت الأزقة و الشوارع الرئيسة بالماء، و انقلبت البيوت إلى جزر عائمة في وسطها. عمت الفوضى بين مناداة و صراخ الناس و دفع بعضهم البعض، قاذفين بالعفش يتلقفونه ككرات في ملعب. جلس بعضهم على عفشه بانتظار من ينقلهم إلى ضفة النجاة. كانت هي المرة الثانية التي باغتت مياه الفيضان دار محمد شرارة، و اضطر للهجرة و البحث عن دار جديدة لعائلته! و انتقلت العائلة إلى دار في حي "الهويدي" في الكرادة الشرقية.

* * *

من مديرية الأموال المستوردة إلى السجن

أدى وضعه المالي، في بداية الخمسينيات إلى ترك حي الكرادة الشرقية في جنوب بغداد، بعد أن وجد شقة في شارع الأيمن. و كانت نقلة من منطقة سكنية هادئة محاطة ببساتين النخيل، إلى حي تجاري صاخب، في وسط العاصمة بغداد. حيث يربط شارع الأيمن عمارات من جهتيه، لا ترتفع عن ثلاثة أو أربعة طوابق، من الكونكريت الرمادي اللون الخالي من الحياة و الجمال المعماري، و تصطف على جانبيه السيارات. و الشارع محاط بالمقاهي التي يؤمها الرجال، فيقضون وقت فراغهم في شرب الشاي و الأحاديث و لعب الطاولة/النرد. كانت المقاهي مصنفة حسب المهنة و الرتبة الاجتماعية. و كانت مقاهي شارع الأيمن مقاهي شعبية. يصدح فيها صوت المذياع، بالأغاني العراقية و المصرية، من الصباح الباكر و لا يتوقف إلا بعد منتصف الليل.

تطل الشقة المكونة من عدد من الغرف الصغيرة على هذا الشارع الصاخب الذي يفور بالحياة، فتعلو الموسيقى الممتزجة بأصوات المارة من الحمالين و الباعة، و ترعق أبواق السيارات، منبهة المارة من العابرين الذين لا يعيرون أهمية لها إلا بالتنبية المزعج الذي يعكر صفو الهدوء، الذي كانت العائلة بأمس الحاجة إليه في متابعة الدرس و المطالعة. إذ افتقدت العائلة الهدوء الذي كانت تتمتع به في حي "هويدي"، و الحدايق التي كانت تحيط ببيوت ذلك الحي، كما افتقدت الهواء النقي الذي تميزت به تلك المنطقة، التي ما زالت غير مكتظة بالسكان. حيث كانت الدور محاطة بمساحات واسعة لزراعة الخضراوات تحت أشجار النخيل. كما خسرت العائلة التمشي في المساء الذي كان أفراد العائلة تسلية ممتعة لهم، يتجولون بصحبة والدهم، في الشوارع الصامتة، الخالية إلا من بعض المارة، مصغين لأحاديثه الشائقة التي لا يمل منها!

كانت زوجته "أم إبراهيم" غير مرتاحة من العيش بين الضجيج المستمر، و خاصة بعد أن اكتشفت إن الفئران تشارك العائلة في الشقة. كانت الفئران جريئة، لها الحرية التامة في التنقل و العيش بهدوء و اطمئنان، معتادة على مشاركة كل من

يقطن الشقة طعامهم و منامهم، فأصبحت ألفة بينها و بينهم، تقفز من رف إلى رف، و من غرفة إلى أخرى، تاركة آثار برازها في كل مكان. تتكاثر بحرية تامة، لا يعترض أحد طريقها! و لكن تغيرت الحال فجأة بالنسبة لتلك الفئران عندما فوجئت بإبراهيم! فقد أنهى دراسته الابتدائية، و لم يكن هنالك ما يليه و يستهلك طاقته و حيويته المتفجرة في العطلة الصيفية، فليس هنالك أشجار يتسلقها كما كان يفعل في الرستمية أو في حي سبع قصور في الكرادة، فأتجه نحو القضاء على فئران الشقة! و كان امتعاض الوالدة شديداً من مشاركة الفئران لها في المطبخ، و أظهرت غضبها بشن حرب لا هوادة فيها. و إذا بصوتها المستغيث بابنها، يرتفع حالماً تشاهد فأراً مختفياً وراء كيس طحين أو أرز! منادية عليه "يا إبراهيم، في فارة بالمطبخ!"، يقفز عندئذ إبراهيم، و المضرب بيده حالماً يسمع استغاثتها. و تقع معركة عنيفة بين خبط المضرب و إرشاد والدته التي تساعده في إزاحة أكياس المئونة، فيقضى على الفأر قبل هربه، و يهيمن الهدوء و الاطمئنان في الشقة! و لكن سرعان ما كانت الفئران تريح أكثر المعارك الدائرة بينها و بين "أم إبراهيم"، و تعود إلى النط و الرقص ثانية بين أكياس المئونة معلنة انتصارها.

أصبح جميع أفراد العائلة يستيقظون كل صباح ليجدوا دزينة من الفئران على طاولة الطعام، رتبها إبراهيم، بطريقة هندسية، و بشكل فني متقن حسب حجم الفأر. و اضعاً رؤوسها متجهة إلى أعلى الطبق المستطيل الشكل، صافاً إياها بعناية بجانب بعضها، كأنها طبق شهي من أطباق طيور القبع أو العصافير المقلية التي تقدم عادة في مطاعم لبنان. فتتفرج عندئذ شفتا والدته الرقيقتان عن ابتسامة تأييد لما قام به ابنها من جهد في صيد تلك الفئران، مشجعة إياه بالمديح و الثناء عليه في الاستمرار في عملية الصيد! لذا أصبحت العائلة في شقة شارع الأمين، تفتح أعينها كل صباح على طبق من الفئران الميتة، بدلاً من باقة من الزهور، أو تغريد العصافير و الطيور التي كانت تملأ حديقة الدار في حي سبع قصور في الكرادة. مرّ أسبوع، و بدأ عددها يتناقص تدريجياً في الطبق الموضوع على طاولة الطعام، و اختفت معها الفئران، التي كان يصفها في الطبق المستطيل على المائدة، في نهاية الشهر.

* * *

كان محمد شرارة في تلك الفترة مرهقاً في العمل، يدرس في مدرستين. يقوم في التدريس صباحاً في مدرسة "شماش" التابعة للجالية اليهودية³⁷⁰ في بغداد، و في المساء في المدرسة الجعفرية كما كان تصليح أوراق الامتحانات الشهرية يستنفد معظم وقته. و قلت في تلك الفترة زيارات الأصدقاء، خاصة بعد سفر شقيقته و شقيقه. فانقطعت زيارات الشاعر بلند الحيدري، الذي كان صديق أخيه مرتضى، و تلاشت صداقة العائلة بآل الملائكة، و انقطعت العلاقة التي كانت تربطه بهم، و ظل

370 - و قد كتب عنه تلميذه البروفسور ساسون سوميخ مقالاً بعنوان "المعلمان" و يقصد بهما: حسين مروة و محمد شرارة: " أما معلمي الثاني، محمد شرارة، فقد شرع في تدريسنا في العام الدراسي 1949-1950... كان أيام عرفته يوالي نشر مقالاته و بعض قصائده أحياناً في الصحف العراقية.. و كنا نحن الطلاب نتابع ما ينشر استاذنا بكثير من الفخر و الاعتزاز. أما دروسه فكان كل واحد منها مغامرة روحية ممتعة، بالنسبة لي و للعديد من أصدقائي الطلبة. كان الأستاذ شرارة رجل أدب من رأسه إلى أخمص قدميه، و لكن الأدب عنده لم يكن مجرد كلمات جميلة أنتجتها قريحة خلاقة! كان رغم اهتمامه بالعناصر الفنية في النص، يؤكد دائماً ما يمثله الأدب، قديمه و حديثه، من خلفية اجتماعية و صراع طبقي و ثورة على الحياة الدليلة، على الاستعمار و الاستغلال و العبودية. كان رغم الظروف السياسية القاسية، لا يفتأ يتحدث عن الثورة و الأدب الثوري، فإذا نشر الجواهري رائعة جديدة من روائحه فسرعان ما كان يقرأها الأستاذ شرارة على طلابه في الساعات المخصصة لدراسة الأدب ... و قد نشأت بيني و بين الأستاذ شرارة صداقة قلما ينشأ مثلها بين طالب و معلمه. فقد عرفني على الجواهري، و بدر شاكر السياب و غيرهم ... سأذكر ما حبيت هذين المعلمين الجليلين اللذين كان لهما أكبر الأثر في تكويني الروحي و الثقافي. و أذكرهما أيضاً لأنهما يمثلان أجمل صفات الإنسانية: الإيمان بالإنسان و بالفكر الإنساني. و اذكرهما أخيراً رمزاً للأخوة التي لا تعرف الحدود و السودود.

"المعلمان"، ساسون سوميخ، الجديد، العدد 11-12 كانون الأول 1985، المجلد 34

- و في مقال آخر ذكر ساسون سوميخ زيارته للجواهري بصحبة محمد شرارة: " و اقترح (محمد شرارة) أن نذهب سوية لزيارة الجواهري في مقهى "حسن عجمي" المتاخم لمدرسة شماش". و كأنما أصابتي الصاعقة. لقاء الجواهري الأسطورة؟ عم سنتحدث؟ ما سيقوله و الداوي لو علما بأنتي سألتقي مثل هذا الرجل "الخطير"؟ كانت تلك أيام القمع السياسي الذي سلط على اليسار في العراق ... لملمت شجاعتي و رافقت محمد شرارة إلى المقهى بعد انتهاء الدراسة، كان الشاعر يجلس وحيداً يدخن و يشرب الشاي الأسود "الكسكين"/ الشاي المركز ... أتذكر انه تطرق فيما تطرق إلى "القضية اليهودية" و روى لنا الجواهري الدفاع عن يهود بغداد المحتاجين".

" يوم اتهم الجواهري بإثارة الفتنة الطائفية بين أغنياء اليهود و فقرائهم". ساسون سوميخ، جريدة المؤتمر،

18-24 أيار 2002، العدد 304

- ساسون سوميخ: ولد في بغداد 1933، هاجر إلى إسرائيل 1951، أستاذ الأدب العربي في جامعة تل أبيب و رئيس معهد اللغات و الآداب فيها. نشر عدداً من الكتب حول الأدب العربي المعاصر، كما ترجم إلى العبرية منوعات من الشعر العربي المحلي. صدر له مؤخراً كتاب "بغداد الأمس". (ب.ش)

نزار الملائكة شقيق نازك، الوحيد الذي يتردد على الدار من بين أفراد العائلة، و لم تعد الدار ملتقى الأدباء و الشعراء كما كانت عليه منذ منتصف الأربعينيات. و لكن استمر على زيارته، الشاعر كاظم السماوي و الشاعر بدر شاعر السياب، و شعر بدر في تلك الفترة العصبية التي كان يمرّ بها، بالخيبة و الألم الدفينين اللذين كان يعاني منهما في أعماقه، و أحس بالفقدان و الضياع بعد أن تركته لميعة. أحب بدر في تلك الفترة "مادلين مير" فتاة يهودية³⁷¹، كانت تزور دار محمد شرارة أحياناً. كما كانت نشطة في الحزب الشيوعي. كانت جميلة المحيا، قصيرة القامة، مليئة البدن، / يسميها بدر السياب مرّبة/ المرأة البدينة، و لم يكن حباً حقيقياً و إنما دمل للجروح التي خلفها حبه إلى لميعة. و نظم فيها قصيدة بعنوان "إلى الملتقى" التي نشرها تحت عنوان "يوم الطغاة الأخير"، "حيث يمتزج الهوى بالنضال في سبيل الوطن" و مطلعها:

"إلى الملتقى... و انطوى الموعد

و ظلّ الغد:

غدُ الثائرين القريب.

يداً بيد من غمار اللهب

سنرقى إلى القمة العالية

و شعرك حقلّ حباه المغيب

أزاهيره القانية.³⁷²

و بعد زواج مادلين من بهاء الدين نوري، تعرّف بدر على فتاة اسمها "إقبال" في عام 1952 و ذهب معها إلى دار محمد شرارة في حي "الوزيرية"³⁷³ و عرفها على العائلة. و كتبت حياة شرارة عن تلك الزيارة:

371 - تزوجت مادلين مير في عام 1952، بهاء الدين نوري، سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، و قد بقي القبض عليها و على زوجها في العام نفسه، و حكم عليهما بالسجن، و قد أنجبت طفلاً، عاش معها في السجن حتى ثورة 1958.

مذكرات بهاء الدين نوري" دار الحكمة - لندن 1991، ص- 176

372 - "بدر شاعر السياب - الأعمال الشعرية الكاملة، ديوان أنشودة المطر"، دار العودة- بيروت 2000،

المجلد الأول ص 375- 376

373 - انتقلت عائلة محمد شرارة في تلك الفترة من شقة شارع الأمين إلى دار في حي الوزيرية. (ب.ش.)

« زارنا بدر في هذه الفترة بصحبة "إقبال" لأول مرة في أواخر عام 1952، و كانت فتاة سمراء متوسطة القامة، عرفنا بها كقريبة له. و دار الحديث حول الأدب و الشعر و السياسة و غيرها من المواضيع. و كان عدم الارتياح بادياً على إقبال، فكأنما ألقى بها في جو غريب عنها لم تعهده من قبل و لم تستطع أن تحتمله و لو ما ينيف على ساعة من الوقت، فكانت جالسة على مضض منها.»³⁷⁴

و قد تحدث بدر بعد مرور سنوات، عن فشل زواجه، برسالة نصح فيها صديقه مؤيد العبد الواحد، الذي كان من الشعراء الشباب:

« يا مؤيد، نصيحتي إليك إذا أردت الإقدام على الزواج أن تكون رفيقة مستقبلك ذات ميل إلى الأدب على الأقل، لكي تفهم مشاعرك و تشاركك في إحساساتك. و إن لم تكن كذلك فحاول أن تحبب لها الدخول إلى هذا العالم الجميل، و كن لها الباب حتى تدخل إليه. حاول و حاول يا مؤيد، و لا ترتكب الخطأ الذي وقعت فيه. ... إنها لم تفهمني و لم تحاول أن تشاركني إحساساتي و مشاعري. إنها تعيش في عالم غير العالم الذي أعيش فيه، لأنها تجهل ما هو الإنسان البائس الذي يحرق نفسه من أجل الغاية التي يطمح إلى تحقيقها، هذا الإنسان الذي يسمونه الشاعر...»³⁷⁵

374 - " تلك أيام خلّت"، حياة شرارة، مجلة الأفلام - العدد التاسع - أيلول 1989، ص- 104
 - و أكدت على ذلك سكتة شرارة في مقابلة أجريتها معها بتاريخ 2008/4/9، بيروت - لبنان
 « كانت إقبال معي في نفس السنة التي دخلت بها دار المعلمات الأولية، كانت تجلس بالرحلة التي بجانبني؛ لم تكن فتاة جميلة. كانت بدينة الجسم، بسيطة في شكلها و تفكيرها. كما لم تكن بارزة في الصف. تعرفت عليها عندما كنت أتحدث عن زيارة بدر لدار شقيقي محمد شرارة، فقالت لي إنها قريبة بدر. و استغربت عندما تزوجت بدر بعد بضعة أعوام. إذ كانت تلميذة غير طموحة، و لم تكن بارزة أو متفوقة في أي مادة من المواد الدراسية. و لكن يظهر أنه بعد أن أفلس من الفتيات اللواتي أحبهن و نظم بهن القصائد، تزوجها، و لم يكن هنالك أي انسجام بينهما.»
 375 - "بدر شاكر السياب- حياته و شعره" د. عيسى بلاطة، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، الطبعة السادسة 2006، ص- 116

- و كتب قصيدة عن علاقته بزوجته بعنوان: "الحن و المجرة" قبل وفاته بعام:
 لكن ما عليها جناح؛ كنت معتدا
 بذهني و شبابي

سوف أصهرها، أغيرها كطين في يد الفنان.
 و قد غيرت. لكن الذي غيرت ماذا كان؟
 فوإذا ضيقاً كاللحد... كيف أوسع للحد؟
 و نفساً حدّها بين السرير و بين قائمة الحساب كأنها قن

من الأفنان

و هذا ما مرّ به محمد شرارة، رغم جيل كامل يفصل بينهما.

لقد عاش محمد شرارة في عالم الأدب و الشعر، عالم الحس المرهف و الذائقة المفعمة بنكهة الحياة، عندما كانت داره ملتقى الندوة الأدبية. حيث كان يلتقي و يتحدث أسبوعياً مع الشاعرات و الشعراء و الأدباء في الشعر و السياسة و الاجتماع و الفلسفة، ليعود إلى عالم زوجته المحدود البعيد كل البعد عن المعرفة، بل انحصرت المعرفة ببضع آيات قرآنية حفظتها عن ظهر قلب منذ طفولتها و ظلت تردها كل يوم في وقت الصلاة. و لم تكن زوجته متعلمة بالمعنى الذي يستطيع أن يتعامل معها في تلك المعرفة التي تتضمن رؤية عامة إلى وجود الإنسان، بل كانت بعيدة كل البعد عما يتوق إليه في مشاركة عالمه، عالم المعرفة و الفكر! لقد شعر محمد شرارة بعد هذه الحقبة الزمنية في حياته الزوجية، عندما وقف يتأملها بخسارة الحياة، فأحس بالغبن، و الذي كان سبب هذا الغبن هو المجتمع، و ليس فرداً معيناً، و إنما تقاليد المجتمع المتخلفة، مقارنة بالمجتمعات المتقدمة التي يعرفها من خلال اطلاعه و قراءاته الواسعة. و أحس أنه أصيب بالغبن لأنه يعيش في هذا المجتمع المتخلف. و لكي يعوض عن هذا الغبن الذي شعر به، اتجه إلى التركيز على تربية و تنشئة بناته في الاطلاع على الأدب و الشعر و التتبع في كافة المجالات، و تشجيعهن على حضور الندوات الأسبوعية التي كانت تعقد في داره أو في دار صادق الملائكة. فلم يحدد لهن ما يجب أن يقرأن بل أعطاهن الحرية الكاملة لتنمية مواهبهن و التثرب بالمعرفة. كان يتحدث معهن في ساعات فراغه، و يقرأ الشعر أو يتنافس معهن في قراءته، و هذا التركيز عوض في أعماقه عن الفجوة الفكرية التي كان يعاني منها مع زوجته، فكانت البلمس الذي داوى به الغبن الذي لحقه في زواجه بسبب المجتمع.

* * *

و لكن رغم الظروف الصعبة التي عانى منها في تلك الفترة، إلا انه لم ينقطع عن الكتابة، فكتب مقالاً بعنوان "الرصاصي جندي عنيد من جنود الحرية"، و كان بداية

- "بدر شاكر السياب - الأعمال الشعرية الكاملة،" ديوان شاشيل ابنة الجلبي"، دار العودة- بيروت
2000، المجلد الأول ص - 689

لدراسة الشاعر، حيث تناول نواحي مختلفة من شعره، و كتب عدة مقالات في فترات مختلفة عن شعره. كان محمد شرارة من المعجبين بجرأة الرصافي في مقارعة السلطة، و كان يعتبره :

« جندياً من جنود الفكر، و شهيداً من شهداء الحرية التي رآها مهانة في عهد الاستبداد الحميدي، فيما يليه من عهود مظلمة.»

ثم استمر الرصافي في خوض المعركة في جميع الجبهات « و يبدأ بمحاربة الاستعمار، ثم ينثني نحو الرجعية الوطنية، و يشن الغارة على جنودها من الجهل و التعصب، و يكيل لها الضربات القاصمة، فيدعو إلى نبذ التعصب، و إلى محاربة الجهل، و يصر على تحرير المرأة إصراراً عنيداً.»

كان محمد شرارة يؤمن بما يؤمن به الرصافي من ان الأمة تبقى خاملة إذا بقيت المرأة جاهلة، إذ ظل طيلة حياته نصيراً للمرأة، لذا كان يردد دائماً بيتين من قصيدة للرصافي يتناول فيها هذا الموضوع:

فحضن الأم مدرسة تسامت بتربية البنين أو البنات
و كيف نظن بالأبناء خيراً إذا نشئوا بحضن الجاهلات

و كتب محمد شرارة عن مطالبة الرصافي بتعليم المرأة التي لم تمر بسلام: « جيش مؤلف من "العائم" التي كانت تحتكر المعرفة، كما تحتكر "الشرف" و "الغيرة" و ما أشبه ذلك من الأخلاق، فما كان من الرصافي إلا أن رد الهجوم بأقوى منه:

و أقبح جهل في بني الشرق أنهم يسمون أهل الجهل بالعلماء
و أكبر مظلوم هو العلم عنده فقد يدّعيه أجهل الجهلاء³⁷⁶»

و كأن محمد شرارة يتكلم عن نفسه، فقد مرّ بهجوم مشابه لما مرّ به معروف الرصافي، عندما عبّر عن موقفه من المدرسة الدينية في النجف، التي اعتبرها عدو المنطق و التحرر الفكري. و لكن الرصافي فضل ترك بغداد التي ودعها بقصيدة مؤثرة، و التي تبدأ:

ويل لبغداد مما سوف تذكره عني و عنها الليالي في الدواوين

³⁷⁶ - "الرصافي جندي عنيد من جنود الحرية"، محمد شرارة، جريدة الأوقات البغدادية، 1951/3/20

أما محمد شرارة، فاضطرته الرجعية الدينية أن يغير مستقبل حياته، و يترك العمامة و شهادة الاجتهاد التي حصل عليها، و هنا نجد ان محمد شرارة لا تقل جرأته عن جرأة الرصافي في مقارعة رجال الدين، إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار الفترة الزمنية.

* * *

عين محمد شرارة موظفاً في "مديرية الأموال المستوردة العامة"، و كان من الغرابة في أن تنشأ مثل هذه المديرية، بعد القمع الفكري، الذي تعرّض له الكتاب و الشعراء و السياسيون في البلد. فقد ضمت تحت جناحها نخبة من المفكرين و الأدباء و الشعراء و النقاد الذين اعتقلوا و فصلوا من وظائفهم خلال الاحتجاجات و التظاهرات التي حدثت بسبب التوقيع على معاهدة برتسموث في عام 1948. و كان الفضل في اختيارهم إلى "ناظم الزهاوي"³⁷⁷ الذي احتضن مثل هذه المجموعة من العقول المستتيرة التواقة إلى مستقبل أفضل للمجتمع العراقي. و قال محمد شرارة عن تلك الفترة:

« و لما خرجنا من "المواقف"³⁷⁸ بقينا جميعاً بلا عمل تطاردنا الشرطة، و لكن مديرية الأموال المستوردة - و كان مديرها تقديمياً - استطاعت أن تمتص عدداً كبيراً من المفصولين.»³⁷⁹

377 - مقابلة مع حارث ناظم الزهاوي بتاريخ 2008/5/17 لندن - انكلترا

« كان "ناظم الزهاوي" محامياً معروفاً و كاتباً و سياسياً، يساري الاتجاه و أحد مؤسسي حزب الاتحاد الوطني الذي كان يرأسه عبد الفتاح إبراهيم. درس الاقتصاد في جامعة لندن، عين مديراً لمديرية الأموال المستوردة العامة في نهاية الأربعينيات. و أصبح مدير البنك الصناعي 1956، بعد أن ألحقت مديرية المستوردة بوزارة المالية. ثم مدير البنك المركزي في عام 1958، و عين بعد ذلك وزير التجارة و الاقتصاد. ترك العراق قبل انقلاب عام 1963 حيث كان في لندن، فذهب إلى السعودية، بناء على طلب من سمو الأمير فيصل في أن يؤسس البنك المركزي في الرياض. و بعث عندئذ على فريق من المتخصصين العراقيين، و عمل معهم و لكن وافته المنية بعد أربعة أشهر، و دفن في المقبرة الملكية في الرياض في عام 1964، عن عمر لا يناهز 54 عام.»

378 - "المواقف": يقصد بها المعتقلات. (ب.ش)

379 - "حكايات من "الصالون" الأدبي الذي ولد فيه الشعر العربي الحديث" حاوره زهير ماجد، مجلة "بيروت النساء" 1974/6/12

و احتوت في فترة من الفترات، على اثني عشر أديباً، بين شاعر و كاتب و ناقد. و لقد برهنوا إن العقول تبدع أينما وجدت، حتى في مديرية بعيدة عن أهوائهم و طموحاتهم كمديرية الأموال المستوردة.

تأسست هذه المديرية، بعد إلغاء وزارة التموين التي كانت تقوم في تجهيز المواد الغذائية للناس أثناء الحرب العالمية الثانية، و بعد انتهاء الحرب، لم يعد هنالك حاجة لها. و أراد "نوري السعيد" رئيس الوزراء آنذاك، تأسيس مديرية جديدة تحل محل وزارة التموين، و تقوم في التجارة و الاستيراد. كان "ناظم الزهاوي" من أصدقاء "صباح نوري السعيد"، و اختاره نوري السعيد، لأنه شخص نزيه و محام و سياسي معروف في حزب "الاتحاد الوطني". وافق ناظم الزهاوي عندما عرضت عليه الوظيفة، بشرط واحد، و هو أن يعطى الحرية التامة في اختيار الموظفين، قائلاً لنوري السعيد:

« دعني اختار بحرية الموظفين الذين يستحقون التعيين في هذه المديرية، لأجعل منها دائرة نموذجية، مبنية على أسس حديثة.»³⁸⁰

إن كانت هذه الدائرة تأتي بأهميتها بعد البنك المركزي، فالبنك المركزي يصدر العملة و المديرية تصدر إجازات الاستيراد للتجار. كانت إجازات الاستيراد تصدر حسب الاستحقاق و كفاءة التاجر. و كان التجار مصنفين حسب المواد التي يستوردونها. كما كانت أول دائرة قامت في إحصاء، و تصنيف المواد المستوردة، و وضعت منهج استيراد لكل مادة و مبلغ معين لها.³⁸¹

اختار "ناظم الزهاوي" الموظفين حسب الكفاءة و النزاهة، بغض النظر عن القومية أو الدين أو الرأي السياسي. كانت مديرية الأموال المستوردة مديرية نموذجية، حيث استقطبت خيرة العقول، المتمثلة فيها جميع الطوائف و الأعراق، المسلم السني و الشيعي، و المسيحي و اليهودي، كما شملت جميع الاتجاهات السياسية. كانت أكثر مديرية من بين المديرات معروفة باستقامتها و نزاهتها. و وضع ناظم

380 - مقابلة مع خالص محيي الدين الذي كان موظف في مديرية الأموال المستوردة، بتاريخ 2008/1/8، عمان - الأردن.

381 - كانت عمارة مديرية الأموال المستوردة العامة تقع في أحد أركان ساحة الأمين، و تطل على جسر الأمين من جهة، و شارع الرشيد من جهة أخرى، يتوسطها تمثال الشاعر الرصافي. تتألف العمارة من أربعة طوابق، الطابق الأرضي للدكاكين و صيدلية، و الطوابق الثلاثة هي المديرية. و كان مالك العمارة سامي سعد الدين.

الزهاوي تعليمات مشددة على الموظفين، عليهم أن يتبعوها مع التجار. و كان ضد المنوبولي/ الاحتكار، إذ كان بعض التجار الكبار يحاولون أن يشتروا إجازات التجار الصغار، لكي يسيطروا على السوق و يضعوا الأسعار التي يرتنونها من غير منافسة.³⁸²

كانت خطوة تتمثل فيها الجرأة و التحدي للسلطة من قبل مديرها، ناظم الزهاوي، الذي قام في تعيين أناس مفصولين لأسباب سياسية، و هذا غير مقبول من السلطة آنذاك. إذ كان يفترض حسب التعليمات ألا يعين موظف إلا بعد تزكيته بشهادة "حسن السلوك" من مديرية الأمن العامة. كان عدد كبير من موظفيها يساريين بما في ذلك الرزامون. و أطلق على المديرية من قبل التجار بـ "المديرية الحمراء"³⁸³ و اعتبرها "بهجت العطية" مدير التحقيقات الجنائية بؤرة الشيوعية. إذ كانت كلمة "شيوعي" تطلق من قبل مديرية التحقيقات الجنائية على كل يساري أو ديمقراطي أو شيوعي.

و لأن المديرية كانت مستهدفة من قبل "مديرية الأمن" للاتجاه اليساري المهيمن عليها، لذا منع رجال الأمن من الدخول إليها، لكنهم ظلوا يراقبونها من الخارج. و كان الموظفون يعلمون بذلك، لأن معظم الرزاميين كانوا يساريي الاتجاه، يخبروهم بما يحدث خارج الدائرة. كما كان ناظم الزهاوي في بعض الأحيان ينبه بعض الموظفين بصورة غير مباشرة بالحذر في الكلام، لكي لا ترفع تقارير عنهم إلى مديرية الأمن.

و عندما تجمع طلبة الكليات أثناء انتفاضة تشرين 1952، أمام المديرية في ساحة الأمين، و بدأ التعدي عليهم من قبل الشرطة لتفريقهم، أخذ بعض الطلبة يجمعون الحجارة للدفاع عن أنفسهم. فعندما شاهد ناظم الزهاوي من نافذة غرفته ما يحدث لطلبة الجامعة، أمر الفراشين بفتح باب المديرية لهم. فدخلوا و اختبئوا بدرج المديرية و القاعة الكبيرة، و أغلق باب المديرية. و بذلك أنقذ الطلبة من التعدي عليهم من قبل الشرطة. إذ كان يقول: "ما أخلي الشرطة تتعدى عليهم".³⁸⁴

382 - مقابلة مع حارث ناظم الزهاوي بتاريخ 2008/5/17، لندن - انكلترا

383 - مكالمة هاتفية مع كاظم السماوي بتاريخ 2008/5/8، ستوكهولم - السويد.

384 - مقابلة مع حارث الزهاوي بتاريخ 2008/5/17، لندن - انكلترا

كما كان يقدر جهود الموظفين، لكنه كان متشدداً في سلوك موظفي الدائرة الشخصي. و من الأشياء التي أقدم عليها في المديرية هو منع التجار من الدخول إلى الدائرة، إذ كانوا يستلمون إجازات الاستيراد من خلال شباك في المديرية، و ذلك منعاً للرشوة.³⁸⁵ و لكن كان التجار يحترمون موظفي المديرية لنزاهتهم، و عدم تأخير معاملاتهم.³⁸⁶

385 - مكالمة تلفزيونية مع كاظم السماوي بتاريخ 2008/5/8 ، ستوكهولم - السويد.

386 - مقابلة مع خالص محيي الدين بتاريخ 2008/1/8، عمان- الأردن

« كانت الدائرة مقسمة حسب درجة الموظف. فكان الطابق الثالث مخصصاً لمدير الدائرة، و معاونه و المميزين. أما الطابق، الثاني فكان مخصصاً للملاحظين، و الطابق الأول إلى معاوني الملاحظين و الرزامين. كما كانت الدائرة مقسمة إلى خمس شعب متخصصة. و الموظفون الذين يعملون في المديرية هم:

1 - زكي عبد الوهاب: معاون المدير. محام، و المدير المسؤول عن جريدة "الأهالي"، و كان من الأعضاء المهمين و البارزين في الحزب الوطني الديمقراطي، و قد اختلف مع الحزب و انشق عنه و ترك الحزب. و عندما سيطر حزب البعث على الحكم في عام 1968، أُلقي القبض عليه في عام 1968، بتهمة ملفقة و حكم عليه بالإعدام.

2 - عبد اللطيف الشواف: عين بدرجة مميز، محام، و ثم عين حاكماً في البصرة، كان عدل زكي عبد الوهاب، يساري الاتجاه و غير منتم إلى حزب معين، لكنه كان يدافع عن اليساريين و الشيوعيين في المحاكم.

3 - حسين عبد العال: مميز أي رئيس درجة ملاحظين. خريج الجامعة الأمريكية في فرع الرياضيات، و كان مدرسا قبل ذلك، يساري و عضو بارز في حزب الشعب، الذي كان يرأسه عزيز شريف.

4 - عبد الجبار وهبي: صحفي، مميز شعبة المعامل. متخصص بالفيزياء، خريج الجامعة الأمريكية. كان عبد الجبار وهبي بارعاً في الكتابة، و كان يقول عنه ناظم الزهاوي: "لا يوجد أحد يستطيع أن يكتب مثله"، حيث كان يقوم في كتابة التقارير أو تصحيحها. كان عضواً في حزب الشعب. عاد من دمشق بعد ثورة 1958، انفصل مع عبد الرحيم شريف عن حزب الشعب و التحق في الحزب الشيوعي، و كان يكتب عموداً بعنوان (كلمة اليوم) في الصفحة الثامنة من جريدة "اتحاد الشعب" الصادرة باسم الحزب الشيوعي، بتوقيع "أبو سعيد". و يذكر ان احد الصحفيين الانكليز لاحظ ظاهرة غريبة لدى العراقيين، و هي قراءتهم الجريدة من الصفحة الأخيرة و كان يعد هذا بالطبع قلة في المعرفة، و الحقيقة هي إن العراقيين كانوا يذهبون إلى الصفحة الثامنة/الأخيرة لقراءة ما كتبه عبد الجبار وهبي. القي القبض عليه في انقلاب 1963 و قتل تحت التعذيب.

5 - شكري صالح زكي: درجته مميز، محام، قومي الاتجاه، يقوم في الإدارة و تصدير الإجازات.

6 - ياسين أُلحفي: ملاحظ و مساعد عبد الجبار وهبي في شعبة المعامل. خريج كلية الحقوق، شيوعي مفصول من الجامعة الأمريكية، لذا درس الحقوق في العراق، و تخرج محامياً.

7 - عبد الله عباس: محام و المدير المسؤول عن جريدة "المواطن"، عضو الحزب الوطني الديمقراطي. ملاحظ في مديريةية المستوردة.

- 8 - بدر شاكر السياب: شاعر، عين كاتباً على ملاك المستخدمين الدائم في الشعبة الخامسة في المديرية، كان مسؤولاً عن إخراج الأموال من الكمرك. عضو في الحزب الشيوعي، خريج دار المعلمين العالية، تخصص في الأدب العربي، و فصل في الصف الثاني، و عندما أعيد، انتقل إلى دراسة الأدب الانكليزي. تخرج مدرساً في اللغة الانكليزية و عين في مدينة البصرة. فصل من الوظيفة في عام 1949.
- 9 - أكرم الوتري: شاعر، موظف في الشعبة الخامسة. تلمذ في كلية الحقوق مسائلي في الصف الثاني. و يعمل في المديرية في الصباح، حيادي غير منتم إلى أية جهة سياسية. أصدر ديوان "الوتر الجاحد" في تلك الفترة، ثم أكمل دراسته في فرنسا و حصل على الدكتوراه و عاد إلى التدوين القانوني.
- 10 - كاظم السماوي: شاعر، موظف في شعبة الإحصاء. كان معلماً سابقاً و عضواً في الحزب الشيوعي، ترك الحزب بعد إعدام "فهد"، و انتمى إلى "حزب الشعب" الذي كان يرأسه "عزيز شريف". أصدر ديوان "أغاني القافلة"، و "ملحمة الحرب و السلم"، و كان مفصلاً من عمله عندما عين في مديرية الأموال المستوردة، أصبح مدير الإذاعة و التلفزيون بعد ثورة 1958.
- 11 - إبراهيم اليتيم: أديب و ناقد، درس في فرنسا، كان يكتب في الصحف كتابات نقدية، محسوب على الاتجاه اليساري. و هو الذي قرر منع دخول رجال الأمن إلى الدائرة، فوافق على ذلك المدير.
- 12 - محمد شرارة: كاتب و شاعر و ناقد. مساعد ملاحظ في الشعبة الخامسة. خريج المدرسة الدينية في النجف، أستاذ اللغة و الأدب العربي في عديد من المدارس الثانوية. كان مسؤولاً في الدائرة عن استيراد المكائن. انتمى إلى الحزب الشيوعي، و طورد و فصل من وظيفته عام 1949.
- 13 - جاسم الرجب: كاتب و ناقد، ملاحظ، مسؤول عن الشعبة الرابعة. و مدرس اللغة العربية، مفصول في عام 1949، من أهالي الاعظمية. منتم إلى حزب الاتحاد الوطني الذي كان يرأسه عبد الفتاح إبراهيم.
- 14 - عبد الرزاق الشيخ علي: كاتب قصة، موظف في الدائرة، و قد كتب قصة أثناء عمله في المديرية، بعنوان "حصاد الشوك" درس في النجف الفقه و اللغة، و تعلم بدرجة متوسطة. ثم ذهب إلى باريس، كانت القصص التي يكتبها واقعية و جميلة جداً، كما كان عضواً في الحزب الشيوعي.
- 15 - رشيد ياسين: شاعر، موظف في الدائرة. و من شعراء الخمسينيات البارزين، من أهالي بغداد، خريج الثانوية، أكمل دراسته في بلغاريا، و تزوج من امرأة سورية، و عمل في جريدة "المحرر" في بيروت.
- 16 - نجيب المانع: كاتب و مترجم، عمل في مديرية الأموال المستوردة لمدة خمسة أشهر و انتقل إلى البصرة.
- 17 - نوري الراوي: رسام، معاون ملاحظ، عمل مع لطفي الدليمي في الشعبة الثانية. خريج دار المعلمين الابتدائية، درس الفن بعد ذلك، و كان تلميذ فائق حسن في أكاديمية الفنون الجميلة، كما كان يكتب في ملحق جريدة "الأهالي".
- 18 - حازم سعيد: شاعر، محام، موظف في المديرية. عين بعد ذلك رئيساً لمحكمة العمل في وزارة الشؤون الاجتماعية. توفي في حادث سيارة.
- 19 - لطفي الدليمي: محام، و خريج كلية الحقوق، ملاحظ في الشعبة الثانية، غير مفصول، و هو شقيق الدكتورة نزيهة الدليمي التي أصبحت وزيرة البلديات في عهد عبد الكريم قاسم عام 1959. كان مسؤولاً عن الاستيراد، حيث كان الاستيراد حسب الحروف الأبجدية، إلى عشر درجات للتجار، و حسب أهمية التاجر. فالتجار الكبار من الدرجة الأولى، يسمح لهم بإجازة استيراد بـ مئة ألف دينار، بينما يسمح لتجار الدرجة العاشرة بإجازة استيراد بخمسة مئة دينار.

كان الجو المهيمن على الدائرة بين الموظفين جواً أخوياً، لا فرق بين درجة مميز أو كاتب، بل كانت تربطهم علاقات شفافة، بعيدة عن أي نوع من الاستعلاء أو التكبر. كانت علاقات الود و المحبة سائدة بينهم، إضافة إلى التفاني و الإخلاص في إكمال العمل. كان العمل يبدأ في الساعة الثامنة صباحاً حتى الساعة الثانية بعد الظهر، و إن لم يكمل العمل فعليهم أن يأتوا بعد أوقات الدوام لانجازه، بما في ذلك الموظفون غير المسجلين في تقاضى أجور إضافية عن عملهم. إذ كان العمل مضمناً أحياناً، لكثرة الاستثمارات التي يجب أن يقرر من خلالها المبلغ المحدد لكل تاجر، حسب درجته.

و لكن كان الموظفون في بعض الأحيان يnehون العمل قبل الثانية بعد الظهر، فيجتمع الأدباء و الشعراء في جلسة أدبية، في الشعبة الخامسة، يتنافسون في نظم ما يسمى بـ "الشعر الملمع" أي صدر البيت فصيح و العجز عامي، و من بين الشعراء الذين كانوا يشاركون في تلك الجلسات و "الشكشقيات" في نظم القصائد المرتجلة، أكرم الوتري و بدر شاكر السياب و محمد شرارة و رشيد ياسين. فكان أكرم الوتري يقول:

جوزي فداك القلب جوزي أصبحت بعدك كالعجوزي
لا تزعلي مني فاني إن زعلت لويت بوزي
أرجعتني طفلاً، فعدت وصرت أقرأ زيزي زيزي
ثم يبدأ محمد شرارة الصدر بالفصحى، و يكمله رشيد ياسين بالعامية:

20 - خالص محيي الدين: متابعة المعاملات في الشعبة الخامسة. طالب مفصول من ثانوية بعقوبة لأسباب سياسية، و أصبح طالباً في ثانوية الجعفرية مسائي، و هو شقيق نجيب محي الدين. كانت متابعة المعاملات مهمة، فمثلاً إن ارتفع السكر و صارت أزمة في الأسواق، كان السكر يخزن في مستودعات الخزن، و يوزع على التجار في السوق لكي لا ترتفع الأسعار. و قد توطدت علاقته بالشاعر بدر السياب لأنها كانا يخرجان سوية إلى أكمرك لمتابعة المعاملات.

21 - جاسم الجبوري: شاعر، يساري، اعتقل عدة مرات، رزّام أي بدرجة فراش. خريج المدرسة الابتدائية، و كان يقوم بتوزيع الإجازات، و راتبه راتب رزّام.

22- عامر عبد الله: عضو في حزب الشعب الذي يرأسه عزيز شريف، ترك حزب الشعب، و انتقل إلى الحزب الشيوعي، و أصبح وزيراً في عهد البعثيين. عندما انضم الحزب الشيوعي إلى العمل في الجبهة الوطنية مع حزب البعث في عام 1970.

23- ألبير مسكينة: مسيحي، عندما أصبح ناظم الزهاوي محافظاً البنك المركزي في 1958، انتقل معه إلى البنك المركزي.»

فيرد عليهما أكرم في الصدر و يكمل العجز بدر:

أصبحت في ذل الهوى هندي يسير ورا انكليزي³⁸⁷

كانت مديرية الأموال المستوردة من المديرية النادرة في نوعية موظفيها، حيث يأتون إلى الدوام، محملين بالكتب، يقرؤون في أوقات فراغهم، فالوقت ثمين لمثل هذه المجموعة المفكرة من الناس، التي كانت مقالاتهم وقصائدهم تنصدر الجرائد و الصحف المحلية في اليوم التالي. لذا كانت مديرية المستوردة نادرة ليس في العراق و إنما في العالم، فلا أظن أن اجتمع مثل هذا العدد الكبير من المفكرين إن كانوا شعراء أو نقاداً أو من القادة السياسيين في مكان واحد مثلما حدث في تلك المديرية التي لولا وسع أفق مديرها "ناظم الزهاوي" لما اجتمعوا سوية في هذه المديرية و الذي يعود الفضل إليه في ذلك.

* * *

كان البعض من هؤلاء الشعراء و الأدباء يجتمعون في المقاهي بعد انتهاء الدوام، اذ لعبت المقاهي دوراً مهماً في بعث الحوار الجمعي بين مختلف طبقات الشعب في العراق، من التجار و الموظفين والأدباء. و كان يمثل هذا الحوار نوعاً من المقاومة للسلطة. كما كانت مرتعاً لبحث الحركات الفنية والتوجهات الجديدة في الأدب والشعر. و لم تكن المقاهي فقط لقضاء أوقات الفراغ، و إنما للتفاعل بين المثقفين من أدباء و شعراء و نقاد، في النقاش و الحوار المتبادل بينهم و الذي كثيراً ما كان يقود إلى انبثاق حركات تغيير جديدة في الثقافة والأدب والفن. كما كان لوفرة الصحف في تلك المقاهي دور مهم للنقاش و الحوار السياسي. اشتهرت بعض المقاهي في بغداد، مثل "حسن عجمي" و "البرازيلية" و "الفرات" و "الزهاوي" و "الشابندر" و غيرها، التي كان يؤمها هؤلاء الكتاب، و من بينهم الشاعر بدر شاكر السياب الذي:

³⁸⁷ - مقابلة مع خالص محيي الدين في 2008/1/8، عمان - الأردن. و " ندوة الشعر الحر في بغداد الأربعينات: لحظات من الأدب و الحب المستحيل"، د. حياة شرارة، جريدة النهار، الملحق 1997/11/29-

« كان يحب أن يروي النكات و يرتب المقالب الهازلة لأصدقائه و يتفكه على السذج من الناس. و لم يفقد يوماً روح الفكاهة حتى في أحلك لحظات حياته. »³⁸⁸

فيقول عن ديوان الشاعر جاسم الجبوري: "النظم البعروري في شعر جاسم الجبوري" أو "المزمار السحري في شعر أكرم الوتري". و كانت تؤدي هذه النكات و السخرية و التهكم أحياناً إلى مشادة عنيفة، كما حدث بين الشاعر رشيد ياسين عندما انتقد ديوان "أغاني القافلة" للشاعر كاظم السماوي.³⁸⁹

و للحد من هذه الاجتماعات في المقاهي العامة،³⁹⁰ قام نوري السعيد و بهجت العطية مدير الأمن العام، في وضع رقابة من قبل رجال الأمن للتجسس على ما يدور فيها. و بهذا قاموا بقمع قدرة الحوار الجمعي بين الطبقات المتعددة في المجتمع التي كانت تلتقي في تلك المقاهي، من الحرفيين، و المعلمين و موظفي الدولة و الأدباء و الشعراء. و توقف الحوار الذي كان له دور في بلورة الرأي العام في بغداد. و من الذين عانوا من تلك الرقابة الشاعر بدر شاكر السياب:

« الذين كانوا يلاحقونه باستمرار، و أحياناً عن كثب. فلم ينعم بأسيات الأصدقاء في مقهى "الفرات" بشارع الأمين، حيث لا بد أن يكون مخبر في إحدى الزوايا يعد عليه أنفاسه. غير إن شخصية المخبر أثارت اهتمامه.. حيث كان المخبر يحيا على موت الحرية. و كتب قصيدة عنوانها "المُخبر" و قد حاول أن يغوص في أعماق المخبر ليحلل شخصيته الدنيئة. فاستنتج ان المخبر لم يكن يعيش بأمل أو رجاء، و

388 - "بدر شاكر السياب، حياته و شعره" د. عيسى بلاطة، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، الطبعة

السادسة 2006، ص-93

389 - مقابلة مع خالص محيي الدين في 2008/1/8، عمان - الأردن.

390 - و للمقاهي دور مهم في بداية تكوين العراق الحديث، فيما كان يبدأ في الجوامع من الوعظ و الإرشاد الذي يتناول السياسة أيضاً، كان يشمل المقاهي أيضاً. « و واصلت المقاهي العمل الذي كان يبدأ في الجوامع. كان عدد المقاهي هائلاً، و بما أن المنزل في المجتمع الشرقي يعتبر مكاناً للنساء بالدرجة الأولى فان الرجال يوجدون في المقاهي، و هي المكان المعتاد للقاءات الاجتماعية و التسلية. و كان يوجد في عدد منها راوية محترف لتلاوة الأشعار و الأساطير و الحكايات و يعرف باسم القصخون، و يقدم نوعاً من عرض منفرد. كما كان المقهى مصدراً مثيراً للقلق و القال و الإشاعات و قد ورد في أحد التقارير الإدارية البريطانية - إن إشاعات المقاهي راجعة جداً لدى الناس و تنتشر أشدها مغالاة بسرعة رائعة...».

"العراق - نشأة الدولة"، غسان العطية، منشورات دار اللام - لندن 1988 ص-36

انه كان دائم الخوف من الموت في حالة تغيرات سياسية، و إن حياته كانت حقيرة جداً، و إن كانت لفترة قصيرة تنعم بالقوة. انه كان في الواقع ضحية علاقات معقدة ظالمة في مجتمع مبني أصلاً على الفساد و الشر.³⁹¹

و هذه بعض مقاطع منها:

أنا ما تتشاء: أنا الحقيير

صباغ أحذية الغزاة، و بائع الدم و الضمير

للظالمين. أنا الغراب

يقتات من جنث الفراخ. أنا الدمار، أنا الخراب!

ثم يقول:

سأقتفيه فما يفرّ، سأقتفيه إلى السعير.

أنا ما تتشاء: أنا اللئيم، أنا الغبي، أنا الحقود

لكنّما أنا ما أريد: أنا القويّ، أنا القدير.

أنا حامل الأغلال في نفسي، أقيّد من أشياء

بمثلهن من الحديد، و استبيح الخدود

و من الجباه أعزهنّ. أنا المصير، أنا القضاء.³⁹²

* * *

ظهرت حركة أنصار السلام التي هيمن عليها الحزب الشيوعي، و قام بتنظيم العمال و الانخراط في تلك الجمعية التي تأسست في عام 1950 أثناء الحرب الكورية، منددة بالحرب، و أصبح محمد شرارة من النشطين في حركة السلم، فلم يكن ضد الحرب الكورية فقط، بل ضد أي حرب. إذ كان يردد دائماً: "لا تجلب الحروب إلا الدمار لشعوبها". و كان معظم الذين يترددون على زيارته في تلك الفترة من اليساريين أو من أنصار السلام.³⁹³

391 - "بدر شاكر السياب، حياته و شعره"، عيسى بلاطة، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، الطبعة السادسة 2006، ص 101-102

392 - "بدر شاكر السياب - الأعمال الكاملة" المجلد الأول، دار العودة - بيروت، 2000، ص 338 -

340

393 - مكالمة تلفونية مع الشاعر سعدي يوسف، في 28/4/2008، لندن - انكلترا

« تعود معرفتي بمحمد شرارة إلى أوائل الخمسينات، إذ كان بالغ النشاط و التأثير في المشهد العراقي، و بخاصة اليساريّ منه. إنه مؤسس في حركة " أنصار السلام "، كاتبٌ غزيرٌ، يواكب الأحداث، و باحث في

و قد نجحت سياسة عدم الانحياز، إذ لم يقتصر تحالف "عدم الانحياز" على موقف حيادي وإنما على إنهاء التحالف مع بريطانيا العظمى. و نجح في استقطاب عدد كبير من أبناء الطبقة المتوسطة و العاملة، و أدى نجاحه إلى التحالف مع الكتل السياسية الأخرى.³⁹⁴ أدى هذا التكتل إلى استقالة مصطفى العمري من رئاسة الوزارة في نهاية تشرين الثاني، في الوقت الذي اكتسحت التظاهرات شوارع بغداد. كما أُضرب السجناء السياسيون عن الطعام مرات عديدة مطالبين بحقوقهم السياسية و الإنسانية. و قد نشط الحزب الشيوعي في إصدار النداءات إلى الشعب لدعم مطالب المضربين.

« و في بعض الأحيان كانت هذه العائلات تخرج في مظاهرات لإلفات النظر إلى قضية أبنائها ... و كان السجين الشاب "تعمان محمد صالح" أحد المضربين المنقولين إلى مستشفى بغداد ... الذي رفض بحزم كسر الإضراب عن الطعام ... و توفي في نهاية الأمر في المستشفى.»³⁹⁵

خرجت التظاهرات حاملين نعشه، و قد اشترك في التظاهرة عدد كبير من المتظاهرين. كما اشترك رجال من الأحزاب المعارضة للنظام، و مستقلون و وطنيون، و تقدم التظاهرة المحامي حسين جميل، و الشاعر محمد الجواهري، الذي

التراث العربي البعيد، في محاولة دائبة لجلاء الأفق الإنساني في ذلك التراث، مع تأكيد على القيم المتفقة مع النهج اليساري الذي يتبناه الكاتب، أي محمد شرارة. أعقد أن محمد شرارة كان الأتقي من بين الشيوعيين الذين عرفتهم. كانت عيناه و ابتسامته و كلماته تستدعي ثقة مباشرة و اطمئناناً و ما كان بالمتكلف في هذا. كان يصدر في ذلك كله عن نفس مُطمئنة مُطمئنة ... و لقد كان شجاعاً: يشترك في التظاهرات، و يلقي الخطب في الاجتماعات العامة، و ينتظم في العمل السري. ثم التقيت به في أوائل الستينات في دار الشاعر محمد صالح بحر العلوم. كنا أعضاء في خلية شيوعية للمتقنين. كنا نجتمع أسبوعياً في منزل محمد صالح بحر العلوم (أبو ناظم) في منزله بالكاظمية. و كان الحديث بعيداً عن الثقافة، و إنما يدور عن التنظيم، و لم تطرح قضية ثقافية، و إذا طرحت قضية ثقافية فلها علاقة بالتنظيم و الإجراءات. و كانت هذه الاجتماعات تأخذ ساعتين أو أكثر من الوقت في معظم الأحيان.»

³⁹⁴ - شكلت المعارضة "لجنة اتصال" شملت تحالفاً مؤقتاً، ضم إليه حركة أنصار السلام و الحزب الوطني الديمقراطي برئاسة كامل الجادرجي، و الجبهة الشعبية المتحدة برئاسة طه الهاشمي، و حزب الاستقلال برئاسة محمد مهدي كبة. و رفعت مذكرة من قبل كل منهم بصورة منفصلة إلى السلطة.

"صفحات من تاريخ العراق المعاصر"، تشارلز تريب، ترجمة: زينة جابر إدريس، الدار العربية للعلوم، الطبعة الأولى 2006، ص 185-186

³⁹⁵ - "مذكرات بهاء الدين نوري" دار الحكمة، لندن 1991، ص- 145

أثار بأبيات شعرية بها حماس الشباب، و بدر شاعر السياب الذي ألقى قصيدة بعنوان "أم السجين المضرب"، و وصفت حياة شرارة تفاصيل تشييعه و تأبينه:
 « و جرى له تشييع من ساحة الست زبيدة في بغداد، ماراً بشارع الأمين ثم يميناَ إلى الرشيد. و تصدره في باب المعظم، موكب من النساء يحملن الشموع، مرددات "البسات":

سودة على الوزارة شكدة غدارة/ نعمان السبع ما تنطفي ناره / بحيل الله نأخذ ناره.
 دفن في مقبرة الشيخ عمر، و ألقى بدر شاعر السياب قصيدته الشهيرة بعنوان: "أم السجين المضرب":

« و تقوم القصيدة على ذكريات الأم لأبنها و هو طفل و معاناتها الطويلة في تربيته و يظل صوت الأم هو المتكلم عن عذابها و عن توجع الشاعر و أفكاره و آماله. و تبدأ القصيدة:

لك أن تتأم و لي أنا السهر
 أيقر جنبي و هو يحتضر
 طفلي الذي ربيته بدمي
 و بأدمعي و زها به العمر

* * *

و تنطلق صرخة عميقة موجعة من داخلها فنقول:

أفلسجون ولدته اجري دمعي
 و ضحكت و الحمى تهز دمي
 لما استهل و أدركته يدي
 تلك العظام أكنت أطعمها
 ليدكها ثمل و يركلها
 و زلزل جسمي السقم
 و الدمع في عيني يضطرم
 و رأيت كيف تجسد الحلم
 لحمي و ابنيها و أنهدم
 بحذائه المتجبر العرم

« و يعود إليها الهدوء و تتذكر طفولته و تنتشئتها له و إرشادها له و البون الشاسع بين ذلك الطفل الغر و الشاب الحالي الصلب الإرادة:

طفلا أراك تعود متسحا
 بيكيك تعنفي فتتهف بي
 و لكم نصحتك نصح مرشدة
 فأراك تتصحني و قد بعدوا
 بالطين ثوبك بادي الوجل
 أنا لا أريدك ثم تضحك
 و لكم و تظهر صورة البطل
 بك لا يخنك الدمع و احتمل

أنا للجياح و أنت بعضهم

و بنوك ملء مشارف الأمل

و بنوك أجيال سنسعددها

و بها أعيش و سرت في جدل

« و تعود أيام الطفولة إلى ذهن الأم و تسمع صوت جلاله و هو يمشي و بدل أن تفرح لذلك الصوت الماضي الجميل ذاك فانه يرتد مؤلماً موجعاً في ذهنها فتسمع رنين الأصفاذ على قدميه:

و اليوم حين يرن في خلدي

فالغم رجع صداه و النصب

و صليل قيدك حين تسحبه

و نشيح أمك و هي تنتحب».³⁹⁶

* * *

بعد إضراب السجناء، و تشييع السجين السياسي، بدأت انتفاضة عام 1952 بإضراب طلبة كلية الصيدلة و الكيمياء، التي كانت الفتيلة التي ولعتها. و ازداد قلق السلطة الحاكمة عندما تلمست مخاطر اتساع الإضراب الطلابي، حيث شمل كليات و معاهد أخرى، و كان موقع كلية الآداب الاستراتيجي في باب المعظم، سبباً في اختياره مركزاً لتجمع الطلبة من كافة الكليات، فكانت التظاهرات تتطرق منها، تجوب شوارع مدينة بغداد. كانوا شباباً و شابات متحمسين ضد ظلم و طغيان السلطة و إذلالها للشعب. و كان اتحاد الطلبة العام الموجه من قبل الحزب الشيوعي يقوم بتنظيم التظاهرات و كتابة اللافتات و الإشراف عليها في البداية. ثم انتشرت الإضرابات في جميع مرافق الحياة فشارك العمال بها تأييداً للطلبة، و استمرت التظاهرات عدة أيام. فأعلنت الأحكام العرفية، و عين رئيس أركان الجيش الجنرال نور الدين محمود رئيساً للوزراء،³ منع التجول من المساء إلى الصباح. و عطلت الدراسة في الكليات و المعاهد و شنت السلطة حملة اعتقالات و أسعة، القي القبض فيها على آلاف الناس. و لم يقتصر الاعتقال على طلبة الجامعات و المدارس الثانوية، و إنما شمل الأساتذة و العمال، و أعضاء الأحزاب، من الوطني الديمقراطي و حزب الاستقلال، و شخصيات معروفة من الكتاب و الشعراء.

كتب محمد شرارة مقالاً عن انتفاضة تشرين بعد سنوات، بعنوان "نكري تشرين"، وصف فيه حشد المتظاهرين أمام حشد الشرطة ببنادقهم الموجهة نحوهم:

396 - ما كتبه حياة شرارة من تفاصيل عن ذلك التأبين، و عن قصيدة بدر شاكر السياب التي نشرت في جريدة "العقيدة"، و التي صدرت لخمسة أيام و أغلقت، لمعارضتها الشديدة للوضع. لم تنشر هذه القصيدة في أعماله الكاملة، و لكن حفظتها حياة عن ظهر قلب. (ب.ش)

« كانوا ينتظرون الصباح و ينتظرون معه الولادة التي تنمخض بها الحياة. و ما كادت تنتشر الشمس و ترف أجنحتها على الأرض حتى كانت الخوذ الفولاذية تغطي قلوب الشوارع، و البنادق على الأكتاف و في الأيدي مستعدة لإطلاق النار ... العيون تلمع بالغضب، و الشفاه تنطق بشيء من الهمس المخنوق، و الصدور تخنق الزفرات في الضلوع و هي تشاهد الأصابع اللاعبة على زناد البنادق ... لا تزال الشمس على عاداتها تصعد و تصعد في الفضاء، و كلما تقدمت في الصعود ازدادت الشرطة كثافة في الشوارع و ازدادت الخوذ الفولاذية لمعانا تحت الشعاع ... و كانوا يمتحنون البنادق و يختبرون "قدرتها" على الفتك إذا حلت الساعة و أزف الوقت. و بينما كانت البنادق تتلقى الامتحان سألت الشوارع بسيول المظاهرات و تعالت الهتافات بسقوط الاستعمار و عملائه! ... أخذ الشارع يلهث و هو يختنق بدخان الغازات السامة التي تستخرج الدموع من العيون، و يئن تحت تبادل الضربات ... المظاهرات لا تزال تزحف في شارع الأمين،³⁹⁷ تتفرق دقائق معدودة أمام القنابل ثم تعود إلى الالتفاف ... الغازات المسيلة للدموع تتضاعف و تغطي الجو بالدخان. النار تندلع في "مكتب الاستعلامات الأمريكي" و غمام الدخان تتصاعد من نوافذه. الشرطة تتبخر و لا يعود لها أثر في الشوارع و الشعب يسيطر على الموقف. و لكن الجيش نزل إلى الشارع و كان ما كان...».³⁹⁸

ترك محمد شرارة بغداد كغيره من المفكرين اليساريين و الشيوعيين، و سافر إلى النجف، لكي يبتعد عن عيون الشرطة و رجال الأمن، إذ كان يعلم إن الشرطة ستداهم داره.³⁹⁹ و قد داهم رجال الأمن الدار بعد منتصف الليل، و اتجهوا نحو المكتبة، و كانت الضحية للمرة الثانية. كانت عقدة السلطة تتمركز في عدائها و خوفها من الكتب اليسارية. فنبشوا الأوراق و الكتب و الصور، و بعثروها على الأرض، و صادروا صور التأيين لعام 1948 عن معاهدة بورتسموث⁴⁰⁰، و عندما لم يجدوا مستمسكاً آخر لمصادرتة! اعتقلوا ابنته مريم هذه المرة، التي أصرت على

397 - و هو الشارع الذي تقع فيه مديرية الأموال المستوردة التي كان محمد شرارة موظفاً فيها. (ب.ش)

398 - نهلات طائر "نكري تشرين"، محمد شرارة، جريدة الحضارة 1959/11/28

399 - كما تركت الدار لأنني كنت مشتركة في التظاهرات أيضاً. (ب.ش)

400 - و صادر رجال الأمن "التخطيط الذي رسمه لي جواد سليم" و لا أدري حتى الآن ما هي العلاقة في مصادرة التخطيط، و هل كانت مصادرتة، انتقاماً، عندما لم يجدوا الأصل؟ (ب.ش)

إنها ليست الفتاة المطلوبة!! فاسمها مريم و ليست بلقيس!! لكن السلطة المتمثلة
 برجال الأمن و الشرطة، كان عليهم أن يزرعوا الرعب و الذعر في هذا النوع من
 الاعتقال، و هو اعتقال البديل!! و لولا شهادة هادي محبوبة،⁴⁰¹ و الذي كان مدير
 الداخلي لكلية دار المعلمين العالية، لما نجت مريم من قضاء تلك الليلة في المعتقل.
 بعد أن شعر رجال الأمن بالإحباط، قرروا اعتقال ابنه إبراهيم بالرغم من صغر
 سنه، فلم يكن قد بلغ الرابعة عشرة من عمره!. كان أخذ البديل بادرة جديدة في
 الاعتقال و قاعدة للعقاب في الحكومات المتتالية التي حكمت العراق. اعتقل إبراهيم
 في مديرية الأمن العامة، و فشلت والدته في إقناع رجال الأمن من أن أخذ الصبي
 بدل والده، غير صحيح!! إذ كان اعتقاله عقاباً للعائلة، لكي يلقنوها بذلك درساً
 قاسياً. فلم يكن باستطاعة والدته زيارته أو إرسال الطعام و الملابس له. أطلق
 سراحه بعد أربعة أيام، حيث حقق معه مدير التحقيقات الجنائية بهجت العطية، و
 عندما عرف أنه ابن محمد شرارة، قال له: "أبوك خوش آدمي، لكن يشتغل مع
 حزبيين مو خوش أوادم/ أي و الدك إنسان طيب، لكنه يعمل مع أناس حزبيين غير
 جيدين!".

و ألقى القبض على محمد شرارة بعد شهر تقريباً، عندما عاد إلى بغداد، إذ كانت
 داره تحت رقابة دائمة من قبل رجال الأمن، بعد أن فصل من وظيفته للمرة
 الثانية.⁴⁰²

« و قدّم إلى المحاكمة أمام أحد المجالس العرفية بسبب اشتراكه في الدعوة إلى
 السلام و انضمامه إلى حركة السلام التي نشأت في تلك الفترة، و من جراء
 المقالات التي كتبها أيضاً. و كانت من جملة التهم التي وجهت إليه توقيعه على
 برقية احتجاج ضد ديكتاتورية الشيشكلي في سوريا. و يروي أحد الذين قدموا
 للمحاكمة معه أنه أجاب عن التهمة الأخيرة قائلاً: " إذا كان نوري السعيد و صالح
 جبر يعتبران الشيشكلي ديكتاتوراً فهل تريدون منا أن نكون أقل إحساساً و وطنية

401 - كان د.عبد الهادي محبوبة، مدير الداخلي في كلية دار المعلمين العالية، تزوج بعد بضع سنوات
 الشاعرة نازك الملائكة. (ب.ش)

402 - مقابلة مع خالص محيي الدين، بتاريخ 2008/1/8، عمان - الأردن
 « بعد انتفاضة عام 1952، صدرت أول قائمة في دائرة مديرية الأموال المستوردة العامة، شملت بالفصل
 كلاً من: محمد شرارة الذي صدر الحكم عليه مدة عام بالسجن، و بدر شاكر السياب، و خالص محيي
 الدين و المحامي عبد الوهاب القيسي، و عبد الوهاب أحمد أحسك.»

منهما؟" و قد دافع عن آرائه بحماسة و هاجم الاضطهاد و قمع الحريات مما جعل الحاكم يصدر عليه حكماً بالسجن سنة واحدة أو دفع كفالة نقدية كبيرة، فدخل السجن.⁴⁰³

و لكن عندما اندلعت مظاهرات الطلبة عام 1953، لم تتج عائلته من زيارة رجال الأمن لها، مطالبين في اعتقال محمد شرارة، فأجابتهم زوجته: "انه عندكم في السجن!!".

* * *

على أثر فشل الانتفاضة بدت بوادر الخلافات الفكرية في الحزب الشيوعي، و شمل الانشقاق حتى السجناء في داخل سجن بغداد،⁴⁰⁴ و كانت هنالك رسائل متبادلة بين سكرتير اللجنة المركزية بهاء الدين نوري:

« و بين البعض من السجناء الشيوعيين في سجن بغداد ... كان السجن الشيوعي عزيز محمد على رأس العناصر المخالفة في السجن. ... و الشيء الأكيد الذي كان مثار الخلاف، إنما هو شعار إسقاط الملكية و إقامة النظام الجمهوري الشعبي الذي تضمنه برنامجنا المعدل ... و المسألة الثانية، التي اعترض عليها هؤلاء، كانت سياستنا في ميدان التحالفات. كانوا يعتبرون سياستنا يسارية متطرفة إزاء الأحزاب البرجوازية الوطنية. و قد كتب لنا عزيز محمد رسالة مطولة تضمنت كامل اعتراضاتهم و خلافاتهم. و أجبت عليها برسالة رافضاً منطلقاته و معتبراً إياها انتهازية يمينية، خصوصاً للموقف من شعار الجمهورية الشعبية و من قضية التحالف مع الأحزاب البرجوازية الوطنية. و اعتقد الآن انني كنت على حق بالنسبة للموقف من الملكية، و هو كان مخطئاً، في حين كانت الحقيقة ضائعة بين يساريتي و بين يمينيته و هو بالنسبة لموقفنا من التحالفات.

403 - مقدمة "المتنبي بين البطولة و الاغتراب"، حياة شرارة، ص- 24، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت 1981

- و لم يكن بإمكانه أن يدفع مبلغ (400) دينار عراقي إلى المحكمة، إذ أن دفع مثل هذا المبلغ في تلك الظروف بالنسبة لمحمد شرارة كان نوعاً من التعجيز. (ب.ش)

404 - مكالمة تلفونية مع بشري برتو بتاريخ 2008/6/10، لندن - انكلترا

« إن السبب في الخلاف هو حول سياسة الحزب، و كان بهاء الدين نوري سكرتير الحزب، متجهاً نحو اليسار المتطرف، و أراد جمال الحيدري و عزيز محمد أن يكون الحزب أكثر اعتدالاً. و كان الانشقاق سيئاً و عنيفاً و قد حاربهم الحزب، لأنهم كانوا أكثر مرونة، و أصدروا هم بدورهم "رأية الشغيلة».

في آذار تطورت الخلافات إلى حدوث انشقاق تنظيمي. وقف عدد قليل مع الفريق المنشق فيما وقفت الغالبية الساحقة مع الجليبي و الفلاحي. و عليّ الاعتراف بأن الانشقاق كان مفاجأة نوعاً ما بالنسبة إليّ شخصياً. و قد اتخذت موقفاً متسرعاً و خاطئاً. كان عليّ التروّي و بذل الجهود لرأب الصدع و تأجيل التحيز إلى أي طرف - و كان ذلك ممكناً بالطبع في تلك الظروف. لكنني لجأت إلى سكين العملية و البتر، أي الطرد الفوري للفريق المنشق من صفوف الحزب.⁴⁰⁵

و بعد الانشقاق بفترة قصيرة هرب في شهر نيسان عام 1953، ثلاثة سجناء،⁴⁰⁶ اثنان منهم، كانا أعضاء في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي. لم تمرّ إلا فترة قصيرة حتى قررت الحكومة نقل السجناء السياسيين من سجن بغداد إلى سجن في مدينة بعقوبة، التي تبعد عن بغداد أكثر من ساعة. رفض السجناء ذلك، لأنّ ابتعادهم عن بغداد سيصبح من الصعب على أهاليهم زيارتهم في الأوقات المعينة للزيارة فاعتصموا في السجن، و أطلقت السلطة في 18 حزيران عام 1953 النار على السجناء العزل داخل السجن، فأودى بقتل تسعة منهم و جرح عدد كبير،⁴⁰⁷ و

405 - "مذكرات بهاء الدين نوري- سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي"، دار الحكمة - لندن 1991، ص 177-179
 - مكالمة تلفونية مع ثمينه ناجي يوسف زوجة حسين الرضي (سلام عادل) بتاريخ 2008/9/2، موسكو- روسيا.

« كما أصدر بهاء الدين نوري نشرة انتقد فيها المنشقين في داخل السجن، و خص بالذكر من بين جميع الأسماء أسم محمد شرارة. و الذي كتب عنه "إن هذا المنشق الشيوعي هو ليس بشيوعي". و وزعت النشرة في العراق، و كان ذلك خطأ كبيراً، فقد عرض حياته إلى الخطر، و لحسن الحظ إن التحقيقات الجنائية لم تنتبه إلى هذه النشرة.»

406 - و السجناء الذين هربوا هم: سليم الجليبي و صادق الفلاحي و حمدي أيوب.

407 - قدم كامل الجادرجي باسم الحزب الوطني الديمقراطي مذكرة بتاريخ 22-6-1953 إلى رئيس الوزراء السيد جميل المدفعي:

« بشأن حادث سجن بغداد المفعج الذي أطلقت فيه السلطات الحكومية النار على السجناء السياسيين في 18-6-1953، و هم داخل أسوار السجن عزل من كل سلاح فأودى ذلك بحياة عدد منهم و أدى إلى جرح عدد كبير آخر ذلك الحادث الذي روع الرأي العام و هز الضمير الإنساني. و قد استنكر الحزب ذلك العمل الفظيع كما استنكره الرأي العام و طالب بإجراء تحقيق عادل نزيه يتناول الأسباب القريبة و البعيدة التي أدت إلى الحادث و تعيين المسؤولين المباشرين و الأمرين بإطلاق النار و معاقبتهم عقاباً يتناسب و فظاعة هذا العمل الذي ارتكبه و ألا يسدل الستار عليه كما جرى في حوادث إطلاق النار على الناس و تقتيلهم في المرات السابقة. ... و الظاهر إن سياسة الإقناء التي أشرنا إليها في مذكرتنا تلك و

كان محمد شرارة من بين الجرحى، و انتشر خبر المذبحة بين الناس، حيث حاولت الحكومة التستر عليها. و وضعوا في سجن بعقوبة مع السجناء الاعتياديين و لم يعاملوا كسجناء سياسيين.

كانت زوجته قلقة جداً من الأخبار التي وصلت إلى مسمعها، فلم يسمح لها بزيارته، بل نقل جميع السجناء السياسيين من سجن بغداد إلى سجن بعقوبة. عاش جميع أفراد العائلة في قلق متواصل على مصيره! فلا أحد يدري إن كان من بين الأموات أو الأحياء؟ و لكن زال القلق، بعد مرور ثلاثة و عشرين يوماً على المذبحة، عندما وصلت رسالة من سجن بعقوبة، تخبر فيها عن موعد الزيارة المحددة في السجن. و قد أصيب محمد شرارة بجرح في جبهته و آخر في يده، لكن - من حسن حظه - كانت جروحاً طفيفة، رغم ذلك فقد خضبت الدماء بيجامته.

سافرت زوجته بصحبة ابنتها مريم إلى بعقوبة، و بعد سفرة متعبة دامت أكثر من ساعة و نصف من الخض و الهز في منعطفات الطريق غير المبلط، و صلنا

التي كانت و ما تزال تتبعها الحكومة في معاملتها لهؤلاء السجناء هي التي خلقت حادثة سجن بغداد و هي التي جعلت الفاجعة تتكرر في سجن الكوت بصورة أشنع.

و قد أصبح معروفاً لدى الرأي العام أن وقوع أمثال هذه الحوادث المفجعة لا يمكن أن يكون وليد الصدفة المجردة و إنما هو في الحقيقة وليد عدم تقدير الحريات العامة للمواطنين و عدم الاكتراث بأرواح الناس من قبل السلطة التنفيذية و معاملة السجناء السياسيين معاملة غاية في القسوة الأمر الذي يؤدي إلى خلق مشاكل بين السجناء السياسيين و إدارات السجون و الشرطة ... و كما فعلت الحكومة في حادث سجن بغداد امتنعت هذه المرة عن تسليم جنث المقتولين "في سجن الكوت" لذويهم و منعت أي اتصال بالباقيين منهم على قيد الحياة و هذا العمل لا مثيل له في أشد العهود الإرهابية.»

"مذكرات كامل الجادرجي و تاريخ الحزب الوطني الديمقراطي"، كامل الجادرجي، منشورات الجمل،

الطبعة الثانية 2002، ص 533-534

كما وزع الحزب الشيوعي بياناً عما جرى في سجن بغداد:

« أريد هنا أن أذكر مثلاً حول حرص سلام عادل الشديد على قضية الحزب، و هو حادث طبع بيان الحزب الشيوعي في البصرة، حول مجزرة سجن بغداد المركزي، هذه المجزرة التي حدثت في 18/6/1953، و روعت الرأي العام، و حزت في نفسينا سلام و أنا، و كان سلام عادل يعرف الشهداء من ضحايا المجزرة معرفة جيدة، فهم رفاق أعزاء قاسمهم صعوبات السجن سنوات طويلة ... عندما سمع سلام عادل بالمجزرة اجتمع بلجنة المنطقة الجنوبية، و تقرر إصدار بيان احتجاجي على هذه الجريمة و تنظيم مظاهرة خاطفة احتجاجية، و بذلك نعلن للناس عن عودة نشاط المنظمة في البصرة ... و طبع بياناً صغيراً على ورق الستسيل بعد أن تعلم الدق على الطابعة فوراً.»

"سلام عادل - سيرة مناضل"، ثمينة ناجي يوسف و نزار خالد، دار المدى للثقافة و النشر، الطبعة الأولى

2001، ص - 46

السجن في منطقة نائية، خارج المدينة. كانت هي المقابلة الأولى لهما بعد مذبحه سجن بغداد. و كانتا واقفتين في أول الصف، و أول من دخلتا إلى غرفة المقابلة. كانت الغرفة مقطوعة إلى قسمين بحاجز من الأسلاك بارتفاع مترين. يحرسها ثلاثة من الشرطة، و كان محمد شرارة واقفاً خلف الحاجز، نحيف الجسد شاحب اللون غائر العينين، مرتدياً البيجامة التي التصقت على جسده ثلاثة و عشرين يوماً. يقع الدم اليباس المائل إلى الاصفرار تحكي قصة المجزرة الرهيبة التي مرت عليه في سجن بغداد.

تسمرت زوجته في مكانها، و سألت الدموع من عينها، أما ابنته مريم فلم تستطع السيطرة على عواطفها، عندما شاهدته و أجهشت في البكاء. قال لها: « لا تبكي فالبكاء لا يجدي شيئاً. اذهبوا إلى كامل الجادرجي و إلى صحيفة الأهالي و الصحف الوطنية الأخرى، و اخبروهم بالمعاملة القاسية التي نعامل بها، إنها مؤامرة تحاك على قتلنا. نحن سجناء سياسيون و لسنا بسجناء عاديين لنعامل بهذه الطريقة و أنا أرفض مقابلتكم تحت هذه الشروط! ».

خرجتا بعد أن رفض مقابلتهما، و أخبرتا أهالي السجناء المتجمعين أمام السجن بما حدث. فضجت عائلات السجناء، و اخذوا يلطمون وجوههم و صدورهم بشكل تظاهرة احتجاج. لم يكن هنالك عدد كافٍ من السجنانيين لكي يوقفوا هذه الحشود التي تعد بالمئات من العائلات القادمين لزيارة أبنائهم و أزواجهم. فاتصل مدير السجن بالسلطات المسؤولة في بغداد، و اخبرهم بالوضع المتوتر في الساحة التي يطل عليها السجن. وافقوا على رفع الحاجز الحديدي، و خرج السجناء و جلسوا مع عائلاتهم. و لولا موقف محمد شرارة الصلب و رفضه مقابلة زوجته و ابنته، لما حصلوا على مطالبهم، فقد كان هو البادئ في تلك المبادرة. و لكن لسوء الحظ، لم تحظ ابنته و زوجته بالمقابلة، فقد عادتا إلى بغداد، قبل السماح لأهالي السجناء في المواجهة.⁴⁰⁸

أوحت له دموع زوجته قصيدة "لغة الدموع":

دموع أم ظلال من حنان
دموعك يا أميمة غاليات
مطلات من المقل الرواني!!
فصونيتها مع الألم المصان

408 - مقابلة مع مريم شرارة بتاريخ 2008/7/16، لندن - انكلترا

ثم يقول عن موقفها و ما عانتها:
عهدتك - و الشدائد عاصفات -
فكوني مثلما كنت، و عودي
و كوني في كتاب الدهر معنى
تدوس على العقارب في سراها

سياجا يستطيل من الأمان
رنيانا في نشيد العنقوان
تذوب أمام قوته المعاني
و تسخر من فحيح .. الأفعوان

عاد في هذه القصيدة إلى نظم الشعر الموزون، الذي كان ينظمه عندما كان شاباً في عقد العشرينيات. عبّر فيها عن عواطفه و شعوره الذاتي نحو ما كانت تعانيه زوجته من ألم و حزن، و لكنه أشاد بشجاعته و تحملها الشدائد. أراد منها ألا تنهار بل تبقى كما كانت على سابق عهدا، "تسخر من فحيح الأفعوان". كما إن هذه القصيدة تجمع بين العاطفة الذاتية و الأمل في الثورة على الظلم و التعدي الذي يعاني منه الناس، و إن هناك "وراء الغيب خيط من شعاع"، سيبزغ بالرغم جميع المآسي:

و عندئذ يسود الأرض عدل
فلا سجن، و لا إرهاب فيه
ترفرف فيه أجنحة الأمان
و لا تخويف للشرف المصان⁴⁰⁹

* * *

كان الاتفاق بيني و بين رفعة أن أخبر والدي قبل إعلان خطوبتنا، فقررت أن أرافق والدتي أثناء الزيارة الرسمية لأهالي السجناء في سجن بعقوبة. كانت هي المرة الأولى التي أزوره في السجن. فلم استطع زيارته قبل ذلك، إذ كنت مطاردة من قبل رجال الأمن.

ركبت مع والدتي سيارة الأجرة، و جلبنا معنا ملابس نظيفة و ألواناً من الأطعمة التي كان يلتذ بأكلها. سرنا في الطريق المبلطة الملتوية، نهتز في مقاعدنا باهتزاز السيارة في المطبات التي تقطعها و تجتازها صعوداً و نزولاً، و صلنا بعد ساعة و نصف من الهز و الخض، بوابة السجن، خارج مدينة بعقوبة. كان هنالك حشد كبير من الناس في الانتظار، وقفنا في الطابور الطويل، نسير خطوة بعد خطوة ببطء، و

409 - قصيدة "دموع"، محمد شرارة، جريدة الأهالي- بغداد 1954، و نشرت بعد أن أنهى محمد شرارة محكومتيه في السجن. (ب.ش)

في كل خطوة نحس بامتهان كرامتنا. و عندما وصلنا بوابة السجن، سلمنا ما جلبناه من مواد غذائية و ملابس إلى التفتيش. ففتشت الأغراض و تناثرت الأشياء و قلبت فوق بعضها البعض، و ضاعت أتعاب والدتي خلال لحظات.

كان الوالد واقفاً في انتظارنا في الجانب الآخر من المجاز، نحياً، شاحب اللون، باهت العينين، اشتعل رأسه بالشيب، و بدأ التغضن يغزو وجهه. آثار الحبس تحكي قصة طويلة في نظراته الحزينة. فكيف يستطع الطائر في قفص أن يتغنى بقصائد الحرية التي عشقها! بعد أن حجبوا عنه النسيم و خريف الماء و نور الشمس و حفيف الأشجار و رائحة الأزهار المتفتحة و ضحكات الأطفال، و ضجيج الأزقة و صخبها؟ رفع عينيه الزائغتين، و طففت على قسماط و جهة ابتسامة حنونة لكنها حزينة. شمني و ضمنني بقوة لصدره، و حجب الدموع المرتعشة في عينه.

انفجرت شفته الياستان قائلاً: لا تتركوا الزناويل/السلال في مدخل السجن! لأن جماعة "سليم الجليبي" يستولون عليها و يحرموننا من حصتنا! دهشت من سلوك رفاق السجن!! أولئك الرفاق الذين يدعون أنهم يؤمنون بتخليص البشرية من الظلم و الاضطهاد، و هم بدورهم يضطهدون رفاقهم داخل السجن لمجرد اختلاف بالرأي! ساد الصمت بيننا! سجن داخل سجن! حتى الطيور لا تحبس بقفص داخل قفص!

سار والدي أمامنا في مجاز طويل مفتوح السقف، حتى وصلنا نهايته. كان المجاز مفروشا من الجانبين بحصران و منادر/ فرش صغيرة الحجم، جلست عليها عائلات السجناء من الجانبين. جلسنا في المكان المخصص لوالدي. فرش الأرض بما يملكه السجن السياسي في بغداد من أثاث! حصيرة و بطانية و وسادة!

كانت معنوياته عالية كعهدي به، بالرغم من الجروح التي أصيب بها في سجن بغداد، و الانشقاق الذي حدث داخل السجن. و بعض التصرفات الصببانية من قبل جماعة سليم الجليبي. و استمر يعقد مع زملائه في السجن ندوات و حلقات أدبية، يدور فيها الجدل و النقاش و النقد و التحليل في القضايا الأدبية و الفلسفية. كما كان يطالع كثيراً، و قرأ في تلك الفترة شعر الشاعر التركي ناظم حكمت، و كان يشيد بموقفه الجريء من السلطة، و عن سخريته من "جيش يخاف من الشعر!!"، حسب تعبير الشاعر ناظم حكمت، أي جيش يخاف من الكلمة، لأن الكلمة "حادة كالسكين" بالنسبة للسلطة، التي سجن من أجلها ناظم حكمت و محمد شرارة.

جلست بجانبه و بينما كنت أتحدث معه، خدش سمعي كلمات قاسية تناهت إليّ بين الفينة و الفينة، صوت يردد "ديمقراطيين مزيفين". تجاهلت مصدر الكلمات الجارحة، حاولت ألا ألتفت نحو الصوت و من كان يردد تلك الكلمات!! هيمن الصمت بيننا للحظات، و لكنني عدت إلى التحدث مع والدي، فليس لنا ترف الوقت الذي نحظى به عادة خارج أبواب السجن و أسواره، لأغوص في تداعي الأفكار و بحارها، فحاولت استيعاب كل لحظة من اللحظات التي مرّت عليّ في تلك الزيارة. فكل لحظة كانت ثمينة و غالية عليّ من الضياع.

قضينا معه ساعتين، و طلب مني ألا أزوره ثانية، لكي لا أتعرض ثانية لمشقة السفر و عناء الزيارة و الإذلال من قبل الشرطة و السجانين. ودعته و سرت خلف والدي محاولة قطع المجاز ثانية نحو بوابة السجن، شعرت بوخز الإبرة ثانية، و سرى بأذني صوت الكلمات الجارحة "ديمقراطيين مزيفين"! رفعت قناع التجاهل عن عيني، و التفت هذه المرة نحو الصوت، و نظرت إلى و جهة، إلى شفثيه اللتين كانتا ترتعشان و تقذفان الكلمات بسرعة، يرددها و يعيدها على مسمعي مرة و مرتين و ثلاث و أربع. فوجئت عندما عرفته! نظرت إليه باشمزاز و لم أجه! كانت تلك الكلمات التي ظلت تطن في أذني كلمات "كاظم جواد".⁴¹⁰ كان من الأشخاص الذين يترددون على دارنا أحيانا، في أوقات مختلفة، عندما يسدل الليل ستائره. فيطرق الدار عندئذ بمفرده أو بصحبة زميل له. يفتح والدي الباب، و يستقبله بحرارة، و يحظى بضيافته، و يقدم له الشاي أو طعام العشاء. ثم ينسل تاركاً الدار تحت جنح الظلام.

410 - أعيد تشكيل لجنة بغداد للحزب الشيوعي، و التحق "كاظم جواد" بها بعد أن خرج من السجن، بعد ثورة 14 تموز 1958. "من الذاكرة" صالح مهدي دكلة، دار المدى للثقافة و النشر 2000، ص- 55
- مكالمة تلفونية مع الدكتور فاروق رضاعة بتاريخ 2008/7/2، لندن - انكلترا
« كان كاظم جواد في لجنة بغداد، و صار مسؤولاً عن الطلبة في بغداد، و التقيت به في تلك الفترة في كلية الطب عندما كنت طالبا. كان الالتزام بالعمل السياسي، و النظام و الضبط الحديدي هو المهم. أي الالتزام الكامل و ليس هنالك أي نوع من الحوار و النقاش أو المرونة، إنما تنفيذ القرارات فقط. كان متشدداً في مواقفه، ضحلاً من الناحية الثقافية و الفكرية، لكنه كانسان كان جيداً و لم يكن انتهازياً أو مرتزقاً.»

- كما أصبح كاظم جواد عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي خلال الستينيات في عام 1965، "مذكرات بهاء الدين نوري"، دار الحكمة 1991، ص- 465
ملاحظة: ليس المقصود هنا الشاعر كاظم جواد (ب.ش)

ركبنا سيارة الأجرة و اتجهنا نحو بغداد، و لكن وجه "كاظم جواد" كان أمامي لا يفارقني، و صدى كلماته المؤلمة ترن في أذني، تطن كطنين البعوضة، أبعدنا لتعود ثانية إلى طينها المزعج.

كانت والدتي متألمة من موقف أشخاص من أمثال "كاظم جواد"، و اعتبرتهم أشخاصاً عاقين غير أوفياء أو أصدقاء غير مخلصين. أما أنا فلم أكن اعتبرهم أصدقاء و إنما أناساً بعيدين عن اللياقة، لا يهمهم إن تعرض محمد شرارة إلى الأذى بسبب تلك الزيارات الليلية. إذ كانوا مراقبين من قبل رجال الأمن، و كانت الشرطة في أثرهم دائماً. و لكن ما يهمهم هو مصلحتهم الآنية! و لذا تصرّف تجاهنا في سجن بعقوبة بهذا الأسلوب المج البعيد عن اللياقة، و أنقلب ضد والذي في الانشقاق الذي حدث في سجن بغداد بحدية أقرب منها إلى شراسة النمر. و هذا ليس بالغريب، في حزب لا يقبل من يخالف معتقداته، حيث كانت لغة الاتهام و إزاحة الآخر من صلب نهجه.

لكن رغم ظروف السجن القاسية، و رغم المجزرة التي مرتّ عليه و على زملائه إلا انه نظم بعض القصائد، و سلمني قبل أن أودعه قصيدة، بعنوان، "ذكراك"، و قد أهداها إلى صديقتي بتول القشطيني، التي أعتبرها كابنته الرابعة. و نجد في هذه القصيدة روحه التي لا توهن، رغم المصاعب و المعاناة في السجن، فهو متفائل بغد مشرق يطل على البلاد. هذا التفاؤل هو الذي جعل معنوياته عالية في السجن رغم التعدي و الاضطهاد و القمع من قبل السلطة في الخارج، و جماعة سليم الجليبي في الداخل، و هذه بعض مقاطع منها:

ذكراك! (حمامة السلام):

« في فجر يوم من أيام الصيف - و كان الشاعر في السجن - سمع حمامة تهتف هتافاً متواصلاً على شرفات السجن، فذكرته بحمامة بيكاسو الرسام العالمي العظيم، و أوحى له الذكرى هذه القصيدة:

ذكراك أم نغم الحياة في الناي.. في الفجر الجديد؟
وقفت تطل كما يطل النجم من أفق بعيد!

* * *

ثم يقول:

بينني و بينك غيمة من ظلمة السجن الرهيب

تلتف، ثم تدور ما بين الشوارع و الدروب
سوداء تنتشر روحها السوداء في الوطن الحبيب
لا تجزعي منها فسوف تدوب في حمم اللهب
و ينير داجية العوالم كوكب الأمل السعيد»⁴¹¹

* * *

كما نظم قصيدة أخرى عندما كان في السجن بعنوان "حبيبان في السجن"، عندما
رأى "قناة تطوف على السجناء في رقة و حنان، كأنها أخت لكل سجين، ثم علم أنها
خطيبة أحد السجناء" و مطلعها:

لقاؤكما هذا شجاني
لمن بقي الروض الجميل و أنتما
أمثلكما في السجن يلتقيان؟
بعيدان عن نجواه مغتربان؟⁴¹²

أنهى محمد شرارة مدة الحكم بالسجن بعد زيارتي له بأقل من شهر، و أطلق
سراحه في نهاية شهر تشرين الثاني عام 1953، عم الفرح دارنا، و اجتمع شمل
العائلة تحت سقف واحد، بعدما كابد من عناء خلال العام الذي قضاه في السجن.
فلم يقتصر التعسف و التعدي بحقه من قبل السجانين و المسؤولين في السجن، و
إنما شمل أعضاء الحزب الشيوعي من جماعة سليم الجلبي. خرج متألماً و حزينا
من التجربة التي مرّ بها في السجن. كانت تجربة قاسية، تركت جروحها المؤلمة
في أعماقه. كان ماركسياً، مثالياً في نظرته للأمور، التي تختلف تماماً عما كان
يجري على أرض الواقع. و كان التفاؤل ظللاً له في نظرته إلى الأمور و الأحداث
التي مرّت عليه، و ظل إيمانه بالحياة إيماناً قوياً لم يصبه الوهن و لم تضنيه
المعارك و الحروب التي خاضها من أجل الفكرة التي ظل يؤمن بها و يدافع عنها.

* * *

كان محمد شرارة يؤمن بالرؤى التقدمية الثورية، و هو الهدف الذي وضعه نصب
عينيه. و انتهى بالسجن، بسبب جرأته في نقد الأوضاع التي كانت سائدة في العراق
على المستوى السياسي و الاجتماعي و الاقتصادي و الثقافي. و قد رأت السلطة في

411 - قصيدة "نكرارك"، محمد شرارة، جريدة "صوت الأهالي" بغداد 21 نيسان 1954.

412 - قصيدة "حبيبان في السجن" محمد شرارة، ص- 22، مجلة "الثقافة الوطنية" - بيروت، العدد (1)
السنة السادسة، كانون الثاني 1957.

المقالات التي كان يكتبها على صفحات جريدة "الحضارة" تحدياً لها، فكانت أكثر ما تخاف منه هي الكلمة، و لذا وجب إسكاته.

و لأن الفكر بالنسبة لمحمد شرارة هو: « وليد الحياة المتطورة الصاعدة. ... إنها جريان متصل، و حركة متتابعة لا تعرف الهدوء و لا الاستقرار، و لا تؤمن بالركود الذي يحيلها إلى مستنقع عفن ملوث تتبعث منه الروائح الكريهة و تتوزع "سموماً" على الحياة ... الفكرة الحرة العنيدة هي التي تستمد وجودها من الحياة المتطورة النامية...»⁴¹³.

في الشهر الذي أنهى محمد شرارة فيه مدة الحكم عليه و خرج من السجن، صدرت مجلة "الثقافة الجديدة"، في تشرين الثاني، التي كانت لسان المتقنين من الوطنيين و التقدميين و الشيوعيين. كان هدفها بث الفكر العلمي و الثقافة التقدمية "كل من منطلقه الإيديولوجي". و لكن سحبت إجازتها بعد صدور ثلاثة أعداد، إذ لم تتحمل السلطة مثل هذه المجلة التي كانت نواة إلى حركة ثقافية، شملت متقنين و وطنيين من اتجاهات مختلفة، و قد كتب محمد شرارة مقالين قبل إغلاقها.⁴¹⁴

413 - "الرصافي جندي عنيد من جنود الحرية"، محمد شرارة، جريدة الأوقات البغدادية، 1951 /3/20
414 - نشر محمد شرارة مقالين في مجلة "الثقافة الجديدة" في العدد الذي صدر في نيسان 1954، و هو العدد الثالث و الأخير بعد أن سحبت إجازتها في العهد الملكي. أحدهما كان عن الروائي العراقي " شاكر خصباك" و الثاني عن الكاتب الروسي " أنطون شيخوف". و عاد إلى النشر فيها في عقد السبعينات. و تحدث عنها د.صفاء الحافظ فقال:

« كانت مجلة "الثقافة الجديدة" رمز معركة من أجل الديمقراطية و من أجل حرية الفكر في العراق، كانت مناسبة لتجميع المتقنين الوطنيين و التقدميين في جبهة فكرية واحدة، كانت أداة لنشر الفكر العلمي و الثقافة التقدمية. و كانت نواة لحركة ثقافية أثمرت فيما بعد تنظيمات جبهوية ثقافية تضم متقنين من مختلف الأحزاب و من مختلف القوميات، حزبيين و لا حزبيين، كلهم سوية ينشرون العلم و الثقافة و يدافعون عن حرية الفكر و الديمقراطية.»

و نكر كيف أثير موضوع إغلاقها:

« و أثير الموضوع حيث نشرت الصحف ضبط الجلسة كاملاً. طالب النائب عبد الرزاق الشихلي من رئيس الوزراء (فاضل الجمالي) بيان أسباب غلق مجلة الثقافة الجديدة، فكان حواراً هذا فحواه: الجمالي: إنها مجلة حمراء.

الشيخلي: دلني على سطر واحد فيه شيوعية.

الجمالي: المجلة كتبت بعناية، و لكنها حمراء من الغلاف حتى الغلاف.

الشيخلي: إنكم تضطهدون حرية الفكر. و سوف يأتي يوم إما أن تعلقونا فيه على أعمدة الكهرباء في الشوارع و إما نعلقكم.

الجمالي: لن تعلقونا و لن نعلقكم!»

عادت ابنته "حياة" في نهاية عام 1953، من النمسا، حيث ذهبت مع وفد من قبل الحزب الشيوعي لحضور مؤتمر السلام. و لم يسمح لها الحزب بالعودة إلى دار والدها. تألم والدي عندما علم إن الحزب أبعد عنه أبنته. و اختبأت في دار "شامل النهر" و كانت شقيقة شامل اسمها "حياة" أيضاً. و عندما جيء "بحياة" من قبل الحزب الشيوعي لإخفائها في دارهم، إذ كان الحزبيون يتعاونون في هذا المجال و يفتحون دورهم، أصبح اسمها الحزبي "سميرة"، و كان كلما ينادى على "حياة" شقيقة شامل، كانت "سميرة" تجفل،⁴¹⁵ لأن اسمها الحقيقي "حياة" و ليس "سميرة"، و قد لاحظ شامل النهر ذلك، و استغرب من سلوكها، إذ لم يكن يعرف أسمها الحقيقي آنذاك. ثم نقلت ثانية إلى دار إحدى الرفيقات، التي كانت لي معرفة سابقة بها، و كانت في الوقت نفسه طالبة في كلية الآداب، أخبرتني بعد فترة وجيزة، من ان "حياة" مختفية في دارهم، و يمكننا زيارتها.

ذهبت بصحبة رفعة، و استقبلتنا "عميدة الرفيعي" و والدتها في غرفة الضيوف، و إذا "بحياة" أمامنا، فلم أرها منذ عام تقريباً. كنت حذرة في البدء في الحديث معها، لأنني أعرف جيداً انها ملتزمة بأوامر الحزب الشيوعي و ليس باستطاعتها أن تحيد عن تعليماته. فقد اتبعت و طبقت جميع التعليمات المجحفة و القاسية، التي أصدرها الحزب بحق والدها. و قالت لي أثناء الحديث: إنها التقت بوالدها في الشارع بعد أن خرج من السجن، و لكنها أخفت وجهها بالعباءة لكي لا يتعرف عليها! فقد أُعتبر والدها من "الديمقراطيين المزيفين" و المنشقين عن الحزب، لذا وجب إبعادها عنه لكي لا يبذر سموم آرائه في ذهنها!

عدت إلى الدار، أخبرته بزيارتي لـ "حياة". تألم كثيراً من موقف الحزب و تأليب ابنته عليه. لقد خرب الحزب و قلب العلاقات الحميمة بين الوالد و ابنته. فالفرد لا قيمة له كإنسان، و يسحق في سبيل تسيير سياسة الحزب، التي كانت بمثابة المصحف المقدس! و أكد على ذلك بعد عقود بهاء الدين نوري الذي كان سكرتير الحزب الشيوعي في تلك الفترة، فكتب:

مقتطفة من المقابلة التي أجريت مع د.صفاء الحافظ عام 1978، و أعيد نشرها في حزيران 2003، عدد

« فانعدام الديمقراطية و خنق أبسط أشكال المعارضة و النقد ... و الجمود العقائدي لدرجة تحولت معها العقيدة الشيوعية إلى ما يشبه عقيدة دينية - سماوية.»⁴¹⁶
كما كتب في مذكراته عن السلوك الصبباني السائد بين المسجونين من أعضاء الحزب آنذاك:

« وصلت بي الحماسة إلى حد المشاركة في مسيرات مع رفاقي داخل السجن، بمناسبة ما وطنية أو أممية، لأنشد معهم نشيداً يتضمن الإشادة بي و تقديسي، بدلاً من أن أمنعهم من ذلك، حيث كان أحد مقاطعه "باسم قائدنا"، أي أنني أنا الذي قُدمت إليه ... كانت عبادة الفرد و تقديس القائد هي الأسلوب السائد في الحركة الشيوعية آنئذ. و كان من المألوف أن أكون في تلك الأيام ضمن القادة المعبودين أو الآلهة المحليين للحركة الشيوعية.»⁴¹⁷

هذه الظاهرة اتسمت بها جميع الأحزاب الشيوعية في العالم على مستويات مختلفة. التي أكد عليها بهاء الدين نوري بعد أن حكم عليه بالسجن.⁴¹⁸

إن المشكلة الحقيقية التي عانى منها الحزب الشيوعي العراقي، بسبب تعرضه للاضطهاد الدائم و العنف المتواصل في قمع الحركة الشيوعية من قبل السلطة، إلى الاعتماد على أنصاف المتعلمين في توجيه سياسة الحزب، فقد عانى معظم المتقنين اليساريين و الشيوعيين من تلك الظاهرة، ظاهرة تهميش المتقنين، و لم يعان منها محمد شرارة فقط، و إنما عانى منها بدر السياب أيضاً، عندما اختفى في تلك الفترة في الكويت هرباً من ملاحقة السلطة له في العراق، فوجد « رفاقه الشيوعيون في

⁴¹⁶ - و هو الذي كان مسؤولاً عن تطرف الحزب الشيوعي، عندما كان سكرتير الحزب بين 1949-

1953، انظر "مذكرات بهاء الدين نوري" دار الحكمة - لندن 1991، ص- 16

⁴¹⁷ - نفس المصدر، ص - 216

⁴¹⁸ - حديث مع رفعة الجادرجي حول التقديس، بتاريخ 2008/7/24

« لا يحصل التقديس لشيء أو فئة أو رجل إلا لأن المؤمن و الممارس للتقديس يكون مسبقاً مؤمناً بصيغة لوجود الأرواح. و الإيمان بالأرواح يرجع زمنها منذ ظهور الإنسان. و لم تخفف إلا في العصر الأثيني، ثم اشتدت مع ظهور إبراهيميات التي سيطرت على الشرق الأوسط و أوروبا. و لم تخفف مرة ثانية، بل لم تقارح إلا بعد أن ظهرت الحركة الإنسانية في القرن الرابع و الخامس عشر و من ثم العقلانية و الموضوعية في عصر التنوير، في القرن الثامن عشر. و الماركسية هي وليدة عصر التنوير، و لكن الشيوعية و الحزب الواحد و دكتاتورية البروليتاريا، هي الرجوع إلى التقديس. و لم تتج منه جميع الأحزاب الشيوعية في العالم. و يعرف التقديس بأنه تلك الحركة السيكولوجية التي تنقل الشيء، سواء أكان مادياً أم معنوياً، من واقعه في الوجود المادي و الاجتماعي، إلى موقع في منأى عن النقد و المسامحة.»

البيت من المثقفين ... من أنصاف المتعلمين... كانوا يعتبرونه مجرد لسان ناطق لحركتهم لأنه لم يكن سوى شاعر، و المناضل أرفع شأنًا من الشاعر، و كانوا يعاملونه معاملة جافية». 419

و لا غرابة في ذلك الموقف من المثقفين، إذا عرفنا ان سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي بهاء الدين نوري، الذي جاء إلى بغداد من إحدى قرى شمال العراق آنذاك، و تسلم قيادة الحزب عن عمر لا يتجاوز الرابعة و العشرين، لم يكن عنده تجربة حزبية أكثر من أربعة أعوام - أي تجربة في توزيع المناشير - أما المعرفة العلمية القيادية و الفلسفية فكانت بمستويات متدنية جداً. كما هو واضح في مذكراته 420

* * *

أنهت أبنته "مريم" دراستها و حصلت على شهادة البكالوريوس في الأدب الانكليزي من كلية دار المعلمين العالية بدرجة شرف، و أصبحت المسؤولة عن إعالة عائلة بكاملها و هي لم تتخط الثانية و العشرين من العمر. حاول محمد شرارة أن يجد عملاً له في المدارس الأهلية، لكي يشارك في إعالة العائلة، لكنه ظل عاطلاً. فقد أوصدت أبواب الرزق في و جهه، بسبب عدم قدرته على الحصول على وثيقتين

419 - "بدر شاكر السياب - حياته و شعره"، عيسى بلّاطة، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، الطبعة السادسة - 2007، ص - 89

420 - و كتب بهاء الدين نوري في مذكراته عندما دعاه سليم أجبلي عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، إلى دار شقيقته، كيف استغرب من اتكتت الطعام:

« أكلت السوب - الشوربة - و استعملت الشوكة و جلست على كرسي وراء منضدة الطعام، للمرة الأولى في حياتي، في منزل شقيقة سليم أجبلي بالكرادة الشرقية، و أخذني سليم إلى هناك، و كنا نتباحث في بعض الأمور. لم أكن معتاداً على تناول الطعام بهذه الطريقة. كان كل ما في غرفة الطعام يبعث على الاستغراب بالنسبة إليّ، أنا الشاب القروي أصلاً و عديم الاختلاط مع الأثرياء العراقيين من مقلدي الحياة الأوربية في تلك الحقبة. و قد فكرت مع نفسي: "هكذا يعيش البرجوازيون".»

"مذكرات بهاء الدين نوري"، دار الحكمة - لندن، 1991، ص - 138

- و كتب "هاني الفكيكي" في هذا الصدد، عن "علي صالح السعدي" عندما كان عضواً في القيادة القطرية و زار ميشيل عفلق في فندق بغداد: « عندما فتح باب المصعد تردد علي و تملكه الخوف من الدخول إلى تلك "الغرفة الحديدية" الصغيرة مؤثراً استخدام السلم. كان علي يروي لي هذه الحادثة في معرض الكلام على أن الحزب الذي أراد توحيد الأمة و التصدي للاستعمار، لم يكن عضو قيادته قد رأى مصعداً كهربائياً حتى 1958. »

"أوكار الهزيمة، تجربتي في حزب البعث العراقي" هاني الفكيكي، رياض الريس للكتب و النشر، 1993 - لندن، ص - 98

مهمتين من مديرية التحقيقات الجنائية، تخوله الحصول على عمل. هما: عدم المحكومية و حسن السلوك.

كانت محاربة الناس في أرزاقهم من الأسلحة المهمة التي استعملتها الحكومة في العهد الملكي. و كانت من أساليب القمع في إسكات المعارضين لسياستها، و خاصة الفئة ذات الميول اليسارية و الديمقراطية، و ابتكرت تلك العقبات في طريق من يطلب العمل في وظيفة حكومية. فلا يحصل الشخص على وظيفة في الدولة إلا بالتخلي عن مبادئه، و الانصياع التام للسلطة، و ذلك بتوقيع شهادة حسن السلوك، أي نبذ ما يعتقد به الإنسان من مفاهيم، لكي يصبح آلة مسخرة بيدهم، ذليلاً أمام أقرانه، يشعر بالضعف و الخنوع في أعماقه. لذا كان محمد شرارة دائماً، معرضاً للاعتقال بعد أن خرج من السجن، فقد خرج من السجن و هو مؤمن بصواب رأيه و عدالة القضية التي كافح من أجلها، و الأهداف السامية التي كان يتوق لتحقيقها. و استمر يكتب المقالات في الصحف و المجلات، ينتقد بجرأة الأوضاع و الأحداث التي كان يمرّ بها العراق، و دفع ثمن ذلك وظيفته للمرة الثانية، و لكنه ظل ملتزماً بموقفه، و ذلك في "أن يقهر المعاناة و ينتصر عليها". استمر في تلك الفترة الشاعر بدر شاكر السياب على زيارته، كما كان يلتقي بالشباب المنتمين إلى حركة أنصار السلام،³ لكن أعيد بدر إلى وظيفته في مديرية المستوردة، أما محمد شرارة فظل عاطلاً بلا عمل.

* * *

كان محمد شرارة من الذين يعشقون الطبيعة و يتغنون بها، و كتاباته مليئة بوصفها منذ أن بدأ في الكتابة و نظم الشعر. و عزله عن الطبيعة لعام بين جدران السجن الشاهقة، بعيد عن دجلة و نخيلها، بعيد عن تغريد الطيور في الصباح، بعيد عن الشمس المشعة و السماء الضاحكة، أدى به هذا الحرمان، بعد أن خرج من السجن بستة أسابيع، إلى كتابة مقال بعنوان "حصان المتبّي يدعو إلى السلام"، و هو مرتبط ارتباطاً كلياً بالطبيعة التي حرم منها في ذلك العام و ضد الحرب، و هذه بعض مقاطع منها:

أعن هذا يسار إلى الطعان؟!
و علمكم مفارقة الجنان!

يقول بشعب بوان حصاني
أبوكم آدم سنّ المعاصي

« هذان البيتان من قصيدة طويلة نظمها الشاعر بعد مروره بـ "شعب بوان"، و هو مرج تتعالى فيه الأشجار، و تغني البلابل، و تنتشر الأعشاب، و يختلط فيه تغريد البلبل بزقزقة العصفور، و أحاديث الناس بحفيف الأوراق، و تتصاعد فيه لغات لو سمعها النبي سليمان لاحتاج إلى مترجم:

ملاعب جنة لو سار فيها
سليمان لسار بترجمان

« و قد وصف الشاعر هذا "الشعب" وصفاً دقيقاً، و صورّه تصويراً فنياً يكاد يرى القارئ من خلاله الظلال و الأفياء، و الأشجار، و المروج، و ما تتطوي عليه من روعة و فتنة، و يرى الطبيعة- و قد لبست ثوبها الساحر الأخضر- فتنة تسبي العيون، و تتعش القلوب.

« في هذين البيتين "إحساس" و "تصوير"... و إحساس الشاعر في هذه اللحظة الفاتنة، هو إحساس إنساني عميق تتفتح به الحياة كما تتفتح الزهرة على هبوب النسيم، و أطياف الأشعة، و ترى الوجود و ما فيه من جمال أخاذ. جنة لا تختلف عن الجنة التي خرج منها آدم - جنة حلوة فاتنة تغري الأحياء بالحياة، و تجذبهم إليها، و تحبب إليهم "العيش" في ظلالها و أفيائها الناعمة اللذيذة. و لا يقتصر إحساس الشاعر في هذه اللحظة على نفسه، و إنما يطغى عليه فيفيض و يفيض كما تفيض الكأس عند امتلائها. و إذا الشاعر يخلع هذا الإحساس الرائع على ما حوله - على حصانه. و إذا الحصان يرى الحياة - و قد ارتدت هذا الثوب المغربي الفاتن- شيئاً لذيذاً تستحق العناية، و تستحق الحرص ... و لا يقف الحصان عند هذا الحد بل ينتقل إلى التفكير بما يهدد هذه الحياة، و بمن يهددها، و إذا بتفكيره - و هو في قمة الإحساس - يوصله إلى مصدر هذا التهديد الضاري: إنه الحرب - الحرب التي تأخذ الناس و الخيل، و تختطفهم من هذه الجنة الحلوة السائغة إلى "الطعن" و "الضرب" و "القتل"، و عندئذ يصرخ الحصان صرخة الجريح، و يستفهم استفهماً إنكارياً موجعاً: "أعن هذا يُسار إلى الطعان!؟". و لا يلبث أن ينتقل بعد ذلك الاستفهام الموجع - و قد أخذه الغضب - إلى "آدم" الذي علم أولاده مفارقة الجنة!

« في هذه النهاية يلقي حصان الشاعر تبعة الحروب و إثارتها على الإنسان الأول الذي لم تكفه معصيته الأولى التي سببت طرده من الجنة حتى أتبعها غيرها من

المعاصي - و أكبر معاصيه بعد الخروج من الجنة هي الحروب - و الشاعر يجعل الحيوان في هذا الاستنتاج أرقى إحساساً و أصح تفكيراً من الإنسان!

« إن الشيء الذي حرصت عليه، و أحببت أن أوصله إلى القارئ بهذه الكلمة، هو التأثر العميق الذي أيقظه جمال الطبيعة في نفس الشاعر؛ ذلك التأثر الذي أوجد تحويلاً - و لو كان التحويل و قتيلاً - في روحه و عاطفته. حيث أحس - و هو أمام الطبيعة الفاتنة - بقيمة الحياة، و أدرك و هو في نشوة هذا الإحساس العدو اللئيم لهذه الحياة. و إذا الريشة الشعرية تمتد و تصوّر هذا العدو، و تشن عليه غارتها العنيفة. و تستشرف الهدف و أنت ترافق الشاعر في غارته، و إذا الحرب هي الهدف الوحيد، إنها- إذن- هي العدو: عدو الحياة، و هي التي تتلقى نقمة الشاعر. و عندما يشن هذه الغارة على الحرب ينطلق من ذاته المحدودة، و يتحرر منها، و تصبح الحياة كلها معنى من معاني أغنيته. ... إن هذه اللحظة في حياة شاعرنا تكاد تكون أسمى لحظاته. لقد تجرّد فيها من مطامعه، و انطلقت فيها إنسانيته انطلاقاً الجواد المكبوت في الميدان الواسع، و رأى فيها الحياة شيئاً جميلاً، كما رأى هذا الجمال متعة مشاعة لجميع الناس.»⁴²¹

يدل هذا المقال عن موقف محمد شرارة الذي كان طيلة حياته ضد الحرب. لذا أصبح من النشطين في حركة أنصار السلام و رد في مقال كتبه، على رئيس الوزراء آنذاك فاضل الجمالي، عندما اتهم حركة أنصار السلام بأن: "أنصار السلام هم أنصار الشيوعية و أعداء السلام"، بعنوان "غارة جديدة على أنصار السلام". شرح فيه لماذا هو نصير سلم و عدو للحرب.⁴²²

و كتب بعد عقدين مقالاً عن "الجمال و الجنس" و عن دور أنصار السلم و تأثير مقال "حصان المتنبّي يدعو إلى السلام" و الثمن الباهظ الذي أداه و الصعوبات التي تعرض لها، و لكن كما كتب "ظلت الرؤوس عالية":

421 - "حصان المتنبّي يدعو إلى السلام"، "نظرات في تراثنا القومي" محمد شرارة، المؤسسة العربية للدراسات و النشر- بيروت، 1982، ص 144-146، و قد نشر هذا المقال في جريدة "الأهالي" 1954/1/29، و عندما قرأ كامل الجادرجي المقال، أعجبته التفاتة محمد شرارة إلى هذه النقطة في شعر المتنبّي، و قال له: "وين لكيت هل الحصان"؟ و قال والدي: و كانت جلسة طويلة بيننا، دار الحديث فيها عن المتنبّي. (ب.ش)

422 - لقد أخذت مقطعاً من مقال "غارة جديدة على أنصار السلام" في الفصل الذي فقد فيه محمد شرارة ابنه وديع في مدينة الحلة. عنوان الفصل: "مدينة الحلة" 1942-1944. (ب.ش)

« لما روع العالم بقنبلة هيروشيما خافت الدنيا أن يلعب المجانين بالأررار. و من قلب الخوف على مصير البشرية و الحضارة ولدت الدعوة إلى السلم، و ولدت معها المطالبة بحل المشاكل الدولية حلا سلميا و حماية العالم من الكارثة. و لكن الاقتصاد القائم على الحرب رأى في هذه الدعوة خطرا على ازدهاره فأوعز إلى مصانع الدعاية أن تجد الرد المناسب لهذه الدعوة الخطيرة، و وجدت ردها في اتهام الدعوة بـ"الشيوعية"! و بدا الاتهام بجولته العالمية و انداح في كثير من بقاع الدنيا حتى وصل إلى العراق.

« من سوء الحظ ان الحكم في العالم العربي لم يكن، يومئذ، سوى صدى لمصانع الدعاية القابعة وراء الاقتصاد الحربي. و ما أوعز له بتسلم أدواره حتى كان أبطال الكوميديا على المسرح.

« لم يقف الأنصار (أي أنصار السلام)، و فيهم عدد كبير من حملة الأقلام، موقف الخائف أو المتخاذل، بل واجهوا "الدعاية" بما لديهم من سلاح مستمد من العلم و الثقافة. و من القدرة على الإقناع. و كلما ربح الأنصار جولة ازداد الممثلون حنقا، و ازدادت في رؤوسهم الأشباح. و كان نوري السعيد اكبر الممثلين و لكنه كان، بالرغم من مكانته الأسطورية، أفضلهم منطقا و أكثرهم عصبية.

« في هذا الجو المشحون بالبارود كان حصان المتنبى يطل على كاتب هذه السطور. و كان في سهيله استنكار للحرب، و هجوم مركز على دعائها، فكتب مقالا بعنوان: "حصان المتنبى يدعو إلى السلام".

« نشر المقال في الأهالي: جريدة الحزب الوطني الديمقراطي. و كانت من أوسع الجرائد انتشاراً، و كان للمقال صدى و اسع. اغتاض الباشا السعيد، و لكنه انتظر حتى أعلنت الأحكام العرفية، فكان في إعلانها فرصة ذهبية لمطالبة الكتاب بالثمن. و فرض الثمن على هذه الالتفاتة الساخرة من دعاة الحروب و ظلالهم، و على كاتبها أيضاً! و بالرغم من الثمن الباهظ ظلت الرؤوس عالية».⁴²³

و لكي تبقى "الرؤوس عالية"، اضطر محمد شرارة إلى أن يترك العراق لأول مرة قسراً، فاختار الرحيل إلى مسقط رأسه لبنان، تاركاً خلفه عائلته.⁴²⁴

* * *

⁴²⁴ - و يقول محمد شرارة: « بعد هجوم جديد على الحركة الوطنية ... خرج قسم كبير من الأبناء في العراق بينهم بدر شاكر السياب و عبد الوهاب البياتي و كاظم السماوي و لم يعونوا إلا بعد ثورة 14 تموز 1958 و أنا كنت معهم».

" محاولة لتاريخ جديد في الشعر العراقي - حكايات من "الصالون" الأدبي الذي ولد فيه الشعر العربي الحديث"، زهير ماجد، مجلة "بيروت المساء"، الجمعة 21 حزيران 1974

أخذ الفكر السياسي في العراق ظاهرياً، بعد إعلان الأحكام العرفية في عام 1952، و أعيدت سلطة النظام من قبل رئيس أركان الجيش نوري الدين محمود، بعد أن وعد الوصي عبد الإله، بإجراء إصلاح انتخابي، فقد كانت الانتفاضة نذيراً إلى الثورة. كما إن نجاح انقلاب الضباط الأحرار في مصر في العام نفسه، أدى ببعض الضباط في العراق إلى التفكير في تنظيم شبيه بالتنظيم المصري في المستقبل. و لكن استمر نشاط المعارضة الشعبية في تركيز جهودها ضد قانون الأحكام العرفية في العاصمة بغداد. كما تولى الملك فيصل الثاني في أيار عام 1953، السلطات الدستورية الكاملة بعد أن بلغ السن القانونية، و منح الوصي رتبة ولي عهد. و لكنه استمر قابضاً على زمام الأمر من خلال شبكات أعماله التي أسسها على مرّ السنين التي كان فيها وصياً على العراق. و كانت رؤية الملك السياسية معدومة، فلم يتسنّ له الوقت الكافي في تنمية شخصيته السياسية تحت ظل خاله الوصي، و لم يمتلك القدرات العقلية كذلك. و قد كلف الملك فاضل الجمالي في تشكيل الحكومة آنذاك. و علقّت الحكومة الجديدة قانون الأحكام العرفية، و رفعت الرقابة عن الصحافة و سمحت بعودة النشاط السياسي. أدت بدورها هذه الفرصة، إلى تأسيس الجبهة الوطنية⁴²⁵ في أيار 1954، لخوض الانتخابات. بعد استقالة رئيس الوزراء فاضل الجمالي، وقع الاختيار على أرشد العمري لتأليف حكومة و إجراء انتخابات.

و تحولت أسواق شارع الرشيد إلى سلسلة من الاجتماعات الحزبية، و الخطب من قبل المرشحين للانتخابات في بغداد. و أضيء سوق الصفاير بحبل من المصابيح الكهربائية المتلألئة حيث قلبت الليل إلى نهار، و ارتفعت أصوات الرجال بالخطابات السياسية الحماسية من قبل المرشحين و مؤيديهم، و التهبت الأيدي

425 - تكونت الجبهة الوطنية في أيار 1954 من الحزب الوطني الديمقراطي و حزب الاستقلال و جمعية أنصار السلام التي تمثل الحزب الشيوعي من خلالها. (ب.ش)

بالتصفيق، و انقلبت دار كامل الجادرجي إلى خلية نحل في حركة دائمة من الاجتماعات السياسية المتواصلة من الناس الذين يمثلون جميع شرائح المجتمع و الأحزاب. لا يخرج وفد حتى يدخل وفد آخر.

كانت النتيجة أن حصلت المعارضة على إحدى عشر مقعداً في العراق، متيحة للمرة الأولى وصول صوت الأحزاب التي تمثلها إلى البرلمان، بالرغم من محاولة و جهد الحكومة في السيطرة على البرلمان، من خلال التزوير الذي حدث في جميع أنحاء البلاد، حيث حصل نوري السعيد على فوزٍ ساحقٍ في الانتخابات، و حصد حزبه أكثرية المقاعد. و رغم النتائج التي كانت لصالح الحكومة، إلا إن شريحة من الشعب العراقي كانت متفائلة. إذ انها المرة الأولى التي ستجابه به الحكومة محاسبة شديدة من قبل أعضاء البرلمان، و سيتغير مجرى المناقشات و محاسبة الحكومة في المجلس، فلم يكن هنالك برلمان حقيقي قبل هذه الانتخابات، و إنما برلمان صوري، يصادق على كل ما تمليه الحكومة.

حاولت الجبهة الوطنية الضغط على القصر لدفعه في تعيين رئيس وزراء مقبول و ذلك من خلال التظاهرات و المسيرات التي نظمت في بغداد لإعطائهم انطباعاً من أن قوة المطالبين في الإصلاح لا يمكن صدها. لكن هذا التحرك أعطى نتيجة عكسية، فخوفاً من عواقب الاضطرابات المدنية، أدى إلى أن طلب الوصي عودة نوري السعيد من أوربا ليتولى تعيين حكومة جديدة، بضغط من الانكليز، حيث سمح له فيها إملاء شروطه.

شكل نوري السعيد الحكومة في آب 1954، و أفتتح البرلمان بخطبة العرش، و فوجئ النواب بإعلان نوري السعيد تعطيل المجلس، و حل البرلمان. أحدث حل البرلمان ضجة كبيرة بين صفوف المعارضة التي أغلقت أمامها جميع فرص العمل العلني، و التي كانت تتوق إلى التغيير من خلال العمل الدستوري الديمقراطي، فأغلق بذلك نوري السعيد جميع الأبواب أمامها! و حل حزبه الخاص، و أعلن أن على جميع الأحزاب الأخرى أن تقوم بالمثل، فصدر مرسوماً بحل الأحزاب و الجمعيات و الصحف، و أصدر قانون جمعيات جديد. و لم يكتف بذلك و إنما أصدر قانون إسقاط الجنسية، الذي شن به حملة على اليساريين و الشيوعيين.

« لا بد من الإشارة إلى إن الوزارة السعيدية الثانية عشرة كانت قد (طورت) فكرة مكافحة الشيوعية التي وضعتها الوزارة المدفعية الرابعة بالتعديل على قانون

العقوبات البغدادية وفقاً للقانون 51 لسنة 1938 الذي ينص على: "اعتبار كل من حبذاً أو روجاً ... أياً من المذهب الاشتراكية - البلشفية - الشيوعية و الفوضوية و الإباحية و ما يماثلها، التي ترمي إلى تغيير نظام الحكم و المبادئ و الأوضاع السياسية للهيئة الاجتماعية المضمونة بالقانون الأساسي جرمًا يستحق عقوبة الحبس لمدة سبع سنوات أو الحبس المؤبد أو الإعدام إذا كان التحبيذ جرى بين القوات المسلحة." و قد شملت منظمات « كأنصار السلام و الشبيبة الديمقراطية و ما شاكل ذلك." و كان ذلك تمهيداً للمرسوم رقم 17 حول إسقاط الجنسية.⁴²⁶

و قد شجب الحزب الوطني الديمقراطي هذا القانون، و رفع مذكرة بيّن فيها الخطورة التي يتضمنها هذا القانون.⁴²⁷

426 - "من هو العراقي؟ إشكالية الجنسية و اللاجنسية في القانونيين العراقي و الدولي" د. حسين شعبان، دار الكنوز الأدبية - بيروت 2002، ص 64-66، 258-259

427 - بيان حول إسقاط الجنسية العراقية - كامل الجادرجي:

« بالرغم من تحذيرنا للحكومة من فظاعة العمل الذي نوه عنه رئيس الوزراء السيد نوري السعيد عند مجيئه إلى الحكم، و الإقدام على إسقاط الجنسية العراقية عن الشيوعيين، فقد صدر يوم أمس مرسوم بهذا الأمر، مع مرسومين آخرين، احدهما يمنح وزير الداخلية حق سد النقابات المهنية المشككة وفق قانون خاص، و الآخر يوسع حكم ذيل قانون العقوبات رقم 51 لسنة 1938، بحيث تشمل عقوبة تحبيذ المبادئ الشيوعية بعض الجماعات التي لا يمكن أن يشملها مفهوم الشيوعية، أو يمكن أن تنطوي تحت ظلها بأي شكل من الأشكال.

« إن حزبنا الوطني الديمقراطي، الذي يؤمن بالديمقراطية، و يقوم منهاجه على العمل على تطبيقها، و ضمان الحريات السياسية جميعاً، يرى أن خير طريق للإصلاح و التقدم، هو أن يفسح المجال لكل عقيدة، أو رأي، أو حركة سياسية بالعمل، سواء كانت متفقة معنا في الرأي أو مخالفة لنا، لأننا نرى إن التجارب على مدى التاريخ قد أثبتت أن تضارب الآراء و مناقشتها هما الطريق الصحيح لدحر الآراء التي لا تتفق معها، و انه لا يمكن أن يثبت نظام ما لم يقم على قناعة و إيمان بالمبادئ التي يقوم عليها.

« لذلك فنحن نرى إن هذه المراسيم الرجعية التي أصدرتها الحكومة الحاضرة تعتبر أظعم ما قامت أية حكومة، ليس في العراق فحسب، بل و في العالم اجمع لا لأنها تخالف المبادئ الديمقراطية و تخرق المبادئ الدستورية بل لأنها ضربت عرض الحائط بأحد الحقوق الطبيعية المقدسة للإنسان، و هو حق المواطنة، و لأنها تضمنت من التوسع، اضطهاد الرأي و الحرية السياسية، بتعاريف غامضة، مما يفسح مجالاً أوسع لاضطهاد كل نشاط سياسي، و قد رأينا كيف ان المجالس العرفية، و بعض المحاكم و السلطات الحكومية، كانت قد اعتبرت شيوعياً، ليس من يثبت اعتناقه لهذا المذهب فقط، بل كثيراً من الذين لم يكن لهم ذنب سوى اشتراكهم ببعض الحركات و المظاهرات، أو الذين يملكون بعض الكتب و النشرات التي لم يكن بعضها حتى ليتصل بالشيوعية، و على ذلك يمكننا أن نتصور الخطر الجسيم الذي يهدد حرية الرأي، بإضافة مجال أوسع للسلطات في التوسع بالتفسير و التعريف في تطبيق أحكام هي في الأصل مخالفة للمبادئ الديمقراطية و الحريات العامة.

و هكذا ظلت الوزارات في العهد الملكي تتغير و تتعاقب و تدور في حلقة مفرغة، لتعود نفس الوجوه ثانية فتحتل الأسماء و زارات مختلفة عن التي احتلوا قبل تغير

« إن حق كل شخص في جنسية البلد الذي ولد فيه من أب من ذلك البلد، حق طبيعي لم يكتسب بقانون، و إنما هو حق ولد معه، و لا يحق لأية قوة في العالم أن تنتزع حقه في هذه الجنسية، و على هذا الرأي أجمع الحقوقيون في العالم. و إذا كان بين الحقوقيين من يجيز استرجاع الجنسية عن شخص اكتسبها هو نفسه عن طريق التجنس، فليس في العالم حقوقي واحد يجيز أن تسلب الجنسية عن شخص اكتسبها بالولادة. و إلى جانب ذلك فإن هذا المرسوم يخالف القانون الأساسي العراقي، الذي يمنع بصورة مطلقة نفي العراقيين إلى الخارج، و يخالف الإعلان الدولي لحقوق الإنسان الذي وقع عليه العراق. و من السخرية أن يسعى العراق للاشتراك في لجنة حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة، و هو يصدر مثل هذه التشريعات البعيدة عن كل مفهوم إنساني، و المخالفة لكل مبدأ قانوني، مما يجعل العراق موضع استنكار العالم أجمع بإصداره هذا التشريع.

« إن الحكومة العراقية قد بزّت أكثر حكومات العالم رجعية في هذه الإجراءات، التي جعلت الوضع السياسي في العراق أضيق خناقاً على حرية الرأي و العمل السياسي مما هو في أي قطر آخر.

« إن الحوادث القريبة و البعيدة برهنت على الاضطهاد، و الظلم و خنق الحريات، و التمادي في سن القوانين الرجعية كل ذلك لا يجدي نفعاً في حماية الأوضاع البالية التي سبب التذمر و الشكوى، بل العكس، فهو يؤدي إلى فرض الديكتاتورية بكل ما يرافقها من مظالم شنيعة، و أعمال فظيعة لا بد أن توظف في النهاية ضمير الأمة فتعمل على إزالتها.

« إن الحزب الوطني الديمقراطي يطالب بإلغاء هذه المراسيم، و إحلال وضع يبعث الطمأنينة لدى الناس و يهئ جواً صالحاً بعيداً عن التحدي و الاستفزاز للعمل على تحقيق الإصلاحات الكثيرة التي تحتاج إليها البلاد، تلك الإصلاحات التي لا يمكن أن تكون حقيقية و نافعة إلا إذا تحققت في وضع تسوده الحريات، و يطمئن الناس فيه على حياتهم و حرياتهم و حقوقهم و يؤمنون فيه على نفوسهم من اضطهاد الرأي و العقيدة.»

كامل الجادرجي - رئيس الحزب الوطني الديمقراطي، بغداد في 2 محرم الحرام 1374، 1 أيلول 1954
- و قد عمل بالقانون و قرر مجلس الوزراء بتاريخ 13/10/1955 إسقاط الجنسية العراقية عن عدد من الشخصيات الشيوعية و اليسارية من العرب و الأكراد، و من المسلمين و المسيحيين و من الشيعة و السنة على حد سواء. و ذلك لاعتبار مناهضتهم الحكم الملكي و ارتباطاته الخارجية و بخاصة حلف بغداد. و شمل القرار كلاً من: الشاعر كاظم السماوي و المحامي توفيق منير و المحامي عزيز شريف، و د. صفاء الحافظ، و الشاعر عدنان الراوي، و كامل قرانجي و أكرم حسين و بهاء الدين نوري و بابا علي و جاسم حمودي و عبد الرزاق الزبيدي و زكي خيري و صادق جعفر أفلح و كامل صالح السامرائي و غيرهم.

"من هو العراقي؟ إشكالية الجنسية و اللاجنسية في القانونيين العراقي و الدولي"، د. حسين شعبان، دار الكنوز الأدبية - بيروت 2002، ص 64-66، 258-259

الوزارة السابقة. تعاد اللعبة و لا يتغير اللاعبون، إنها لعبة تغير الكراسي، و هذا ما أدى إلى ثورة 14 تموز، التي كان لتلك الخطوة نتائج باهظة و قاسية على العراق.

* * *

في مثل هذا الجو الملبد بغيوم اليأس من إصلاح الوضع السياسي، ترك محمد شرارة العراق، بعد أن قطعت جميع سبل العيش أمامه و سافر إلى لبنان في عام 1954، و ترك العبء على ابنته "مريم". و لكنه لم يكن مرتاحاً في بيروت، و كان يفكر دائماً بعائلته البعيدة عنه في بغداد. فهي المرة الثانية التي أُجبر فيها على تركها، بعد سجنه لمدة عام في العراق. و لم تسقط جنسيته أو ينفى قسراً من العراق، لكنه حارب برزقه، بعد فصله من الوظيفة و منعه من العمل في المدارس الأهلية في بغداد. فلم يعد أمامه إلا خيار واحد و هو السفر إلى لبنان. و اضطرتّه الضائقة المالية في بيروت أن يقبل التدريس في مدارس أهلية، استنزفت قواه، في بذل جهد فكري و جسدي أكثر مما كان معتاد عليه في بغداد. فكانت ساعات التدريس الطويلة، لا تتناسب مع راتبه، إضافة إلى الواجبات الكثيرة التي كان عليه أن ينجزها، من تصليح الأوراق و تحضير مادة التدريس. و لولا وجوده بين عائلته، الذين كانوا سندا له، لما استطاع الاستمرار في هذا النمط من المعيشة. و تنقل بين المدارس الأهلية في بيروت، حيث انتهى به المطاف في المعهد التابع لدير "ميفوق" في شمال لبنان. كما لم يكن مرتاح في إقامته في الدير أيضاً، و ذلك لانعدام الانسجام الفكري بينه و بين الآباء الذين يدرسون في تلك المدرسة. كان ماركسي التفكير، بعيد عن تفسير الظواهر تفسيراً غيبياً، أما تفكيرهم فكان تفكير ديني محض، بعيد عما يحدث في العالم من تطورات علمية. يهيمن على الطلبة التعصب الديني، و يجهلون أبسط النظريات العلمية التي بنى عليها العلم الحديث، بما في ذلك نظرية الاصطفاء الطبيعي لـ "دارون Darwin"، التي لا يسمح بتدريسها في المدارس الدينية! لذا اعتقد بعضهم بأساطير غريبة بعيدة عن الواقع، كاعتقادهم من إن البشر مختلفون من الناحية البيولوجية. كان هذا التفكير سائد في بيئة هذا العقل الفتوي، حيث تعتقد إن بعض الفئات تختلف بايدولوجيا عن الفئة الأخرى.

كان محمد شرارة يحضر أحياناً ندوة مجموعة من الكتاب و الأدباء في بيروت، الذين أطلقوا عليها "الجبيل الملهم". و كانوا كتاب تدميون علمانيون، يبحثون الأدب

و الأدب السياسي. منهم حسين مروة، عبد الله العلايلي، فؤاد الخشن، محمد عيتاني، على سعد، منعم أحمد و محمد دكروب.⁴²⁸

* * *

أما فيما يتعلق بإنتاجه الفكري، فقد كانت فترة بعيدة عن الغزارة في الإنتاج، إذا ما قورنت في عقدي الثلاثينيات و الأربعينيات. فمذ أن ترك العراق، في نهاية عام 1954، ليس هنالك إلا مقالة واحدة كتبها في عام 1955، عن الشاعر "الحارث بن حلزة اليشكري". و ربما كان انقطاعه عن الكتابة، - كما ذكرنا سابقاً - هو معاناته من الإرهاق المتواصل في التعليم و تبعاته، لدرجة لم يجعل له المجال في التفكير بغير عمله المضني، و ذلك واضح في رسالة بعثتها له ابنته مريم التي طلبت منه أن يترك التعليم في معهد ميفوق.

لكن هذه المقالة كانت أول الغيث، حيث عاد إلى الكتابة في 1957، فنشر بعض المقالات في مجلة "الثقافة الوطنية" الصادرة في بيروت. و معظم كتاباته دراسات في التراث العربي، تحت عنوان "لحظات إنسانية في حياة الشعراء". حيث اختار شعراء و أدباء، كانوا مرآة لعصر ندرت فيه المواقف الجريئة في الحياة، و ساد الغرور و المدح لغرض المكاسب الشخصية. « انه عصر العجرفة و الكبرياء و الاعتداد الطائش بالنفس و بالقبيلة». و لكن لا يخفى التاريخ من الومضات المضيئة، فركز في كتاباته على تلك الومضات. و قارن بين الأديب و الشاعر الذي أختزل الحياة و الوجود في شخصه، و بين الذين حملوا الرسالة، فشقاءه و سعادته مرتبط بشقاء و سعادة المجموع. « و هم التعبير الفني عن حياة المجموع و المرأة التي تعكس أفكاره و أحلامه و آراءه و معتقداته.» و على هذا الأساس توصل محمد شرارة إلى ان:

« كلما ازداد الأديب - كاتباً أم شاعراً - غراماً بذاته و هيماً بعبقريته، ضمرت بنظره الحياة، و راحت تتطوي أمامه طي السجل حتى يصبح الوجود كله قطرة من وجوده، و تصبح الحياة كلها دائرة في فلكه ... و كلما ازداد الأديب إحساساً بالحياة العامة ازداد تجرداً من ذاته و أصبحت حياته الخاصة جزءاً من حياة المجموع، سعادتها من سعادته، و شقاؤها من شقائه. أما كيف يكون المجموع؟ أسرة أو

⁴²⁸ - مكالمة تلفونية مع الكاتب و الصحفي محمد دكروب بتاريخ 2008/3/3، و استمرت مجموعة "الجبيل الملهم" من منتصف الأربعينيات حتى منتصف الخمسينيات.

عشيرة أو قبيلة أو قوماً أو عالماً، فذلك راجع إلى درجة التطور، و إلى المرحلة التاريخية التي وصل إليها المجموع في سيرة التصاعد.»
و الشاعر "الحارث بن حلزة اليشكري" أحد هؤلاء الذين، أنكروا ذاتهم في سبيل المجموع، و هنا المجموع يتمثل في القبيلة و قومه:

« فلم يقف على التل أو يقل إن الأديب فوق المعارك، و فوق الحياة. و مكانة الشاعر في التأريخ لا تستمد من وجودها من كونه شاعراً يجيد التعبير و يحسن التصوير، و إنما هي مستمدة من هذه الوقفة النضالية الرائعة التي كان لها الفضل الأكبر في تقدير شاعريته و خلوده، و لولاها لما كان له ذلك الشأن الذي عرفه التاريخ.»⁴²⁹

و اتسمت كتاباته في هذه الفترة في النضج الفكري، و التحليل، و الموضوعية التي اتبعتها في التحقق من الخلفية التاريخية، و ابتعد عن الصفة السردية القصصية الاجتماعية، و هو الطابع الذي غلب على كتاباته في عقد الثلاثينيات حتى منتصف عقد الأربعينيات.

فقد كتب عن المتنبي المعروف تاريخياً، بالكبرياء و الغطرسة و الغرور، و وجد أن في هذا:

« الإطار الذي خطه التاريخ حول الشاعر هو الخط البارز في حياته، و في شعره ... و لم يكن التاريخ جانبا و لا ظالماً حينما وضع هذا الإطار حوله ... فالمتنبي لم تكن حياته كلها أنانية و عجرفة كما يصوره التاريخ، و لا كانت جهاداً في سبيل العرب و العروبة كما حاول أن يصوره الأستاذ حسين مروة⁴³⁰ ... و الذي لا ريب فيه أن الشعور بالقومية تفلت من الذات، و انطلق نحو أفق واسع، و هو بالتالي شعور بالمسؤولية نحو الآخرين.. شعور بالانتقال من "أنا" إلى "نحن". و في هذا

429 - "الحارث اليشكري يدافع عن قومه..". محمد شرارة، مجلة الثقافة الوطنية، العدد التاسع، السنة الرابعة، أيلول 1955، ص41-42

430 - رد على المقال الذي نشره حسين مروة عن المتنبي في مجلة "الثقافة الوطنية": عدد أيار 1957، ص-11، بعنوان: "المتنبي في شعب بوان" محمد شرارة، الثقافة الوطنية، ص 32-36، العدد الحادي و العشرين، السنة السادسة، 15/11/1957. و قد نشر في كتاب: "نظرات في تراثنا القومي" محمد شرارة، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت - لبنان، ص 129-136

- كتب محمد شرارة في عام 1954 عن هذا الموضوع مقالاً بعنوان "حصان المتنبي" الذي مرّ في هذه البقعة الجميلة التي تدعى "شعب بوان". أنظر فصل "من مديرية الأموال المستوردة إلى السجن".

« فهل ينطبق على المتنبى ما ينطبق على فولتير؟ و هل يكون الأديب "مجمع متناقضات"؟ إذا أخذنا برأي أرسطو في التناقض، و اعتبرنا وحدة الزمان و المكان و الشخصية و غيرها من الشروط و جدنا الأديب كغيره واقعاً تحت المؤثرات المختلفة، و هذه المؤثرات هي التي تملي عليه خواطره في الحياة إذا لم يكن وراءها خط فلسفي متين يراقبها، و يراقب تذبذبها بين الأنانية و إنكار الذات. و المتنبى من هؤلاء الناس الذين تؤثر فيهم الظروف التأثير الذي رأيناه، فحيناً يرتفع إلى القمة في إنسانيته، و يتمرد على مقاييس العصر، و حيناً يصبح ريشة في التيار المندفِع في وادي الزمان ... زمانه الخاص.»

و كتب مقالاً آخر عن المتنبى بعنوان "القوافي البائسة" بعد عقدين أوضح فيه تفرد المتنبى، الذي منح الحق لذاته بالتفرد على القوم، بينما لا يمنحه المجتمع هذا الحق، و هو واعٍ إن المجتمع لا يمنحه هذا الحق، و لذا تحدى المجتمع بهذه الصراحة التي تصل إلى نوع من العنجهية أحياناً:

« المتنبى أول شاعر عربي ألقى على الدنيا درساً في قيم الشعر و الشاعر، و أول شاعر يملي شروطه على الأمراء، كما كان أول شاعر ينزل الإمارة من عليائها، و يفرض عليها الاستجابة لشروطه. و بهذه البادرة، أو هذا الفتح، كان أول من يدق المسامير في نعش المفاهيم التي سادت عصره، و سادت ما تقدم و ما تأخر من العصور.

في ذلك العصر الذي كان يعتبر الشاعر شحاذاً، كان أبو الطيب يرفع الكلمة الفنية إلى مستوى الإمارة، و يفهم الذائنين في المفاهيم السائدة أن للشعر قيمة، و أن هذه القيمة أمانة في أعناق الذين يفهمون أبعاد الكلمة، و يقدرّون قواها الداخلية و الخارجية.⁴³²

* * *

أما مقاله بعنوان: "متمم بن نويرة و مأساة أخيه"، ففارق بين ثلاثة شعراء مروا بمصايب متشابهة في فقدان الأخ. فتمتم بن نويرة عاصر الخليفة أبا بكر الصديق و حروب الردة، و قد ارتد أخوه مالك عن الإسلام و كان جزاؤه الموت على يد خالد بن الوليد.

432 - "القوافي البائسة"، محمد شرارة، طريق الشعب 1977/3/6

و المقال يؤكد على الاختلاف في الموقف و التعبير عن الحزن. فالحزن تجاوز في أبيات متم بن نويرة فيه قبر أخيه و شمل كل قبر، فكل قبر "هو قبر مالك". هذا هو شعور التضامن مع المجتمع و ليس الالتزام، و لو كان التزاماً، لكان عليه أن يعرف من هو الميت و ما علاقة الميت بالقبيلة أو الجماعة التي ينتمي إليها الشاعر، لأن حتى الحزن في الموقف الفتوي يؤلف حالة من الالتزام، و لكن تجاوز الشاعر هذا الالتزام المتمثل بالفئوية القبلية و العائلية، ليتضامن مع كل قبر، و هنا تتجلى إنسانية الشاعر حيث وثب و وثبة تجاوز فيها حدود القبيلة، كما عبر محمد شرارة عن مفهوم التضامن و التماسك الاجتماعي بعد الرجوع إلى الأحداث التاريخية، و وجد هذا التماسك قائماً في مجتمع البداوة و الذي يدل على إنسانية مرهفة: 433

لقد لامني عند القبور على البكا
و قال: أتبكي كل قبر رأيتَه
رفيقي لندراف الدموع السوافك
لقبر ثوى بين اللوى، فالدكادك؟
فدعني، فهذا كله قبر مالك!
فقلت له: ان الشجا يبعث الشجا
و كتب:

433 - حديث مع رفعة الجادرجي بتاريخ 2008/8/22، حول الالتزام و التضامن:

يعرّف رفعة الجادرجي: « التباين بين الالتزام و التضامن ، في أن كلاهما صيغ في التماسك الاجتماعي. و التماسك لا بد منه لإدامة مجتمع صالح. غير أن الالتزام تنحصر همومه في إدارة المجتمع الأهلي بمختلف صيغته الفتوية: العائلة و القبيلة و الاثنية و غيرها. لذا فان التماسك يكون بقدر ما هو ضمن المجتمع الأهلي حيث يفرض شروط سلوكيات أفراد المجتمع، و صيغ رؤى الوجود. و ذلك بصيغ السحر و الأديان و التقاليد الاجتماعية الطبقية و غيرها من الفتويات، و في المقابل، فان التماسك التضامني، ظهر في المجتمع المدني منظمًا علاقات التماسك الاجتماعي. في هذا التماسك يكون الفرد حراً في اختيار علاقته مع الجماعة، و لكنها حرية شرطها ألا تؤثر على حرية الآخرين من أفراد المجتمع. و بهذا التعريف يصبح الفرد المتفرد في المجتمع الأهلي، خارج هموم المجتمع، بينما في الحالة الثانية يكون ضمنها.

« لقد ظهر التشخص individuation مع عصر النهضة، و هو كذلك نوع من التفرد، و لكنه يتمتع بحق التفرد و يمنحه المجتمع هذا الحق. و لا يظهر التشخص إلا في مجتمع مدني، حيث يعتبر المجتمع بأن هذا التشخص يعني المجتمع بتفرده. و تتمثل هذه العلاقة بالفنان و المبتكر و القادة السياسيين المصلحين في المجتمع المدني.

و مع ذلك هناك حالات حينما يرتقي المتفرد في المجتمع الأهلي، و يصبح المبتكر و الفنان و الشاعر و الأديب، لكن المجتمع لا يمنحه حرية التفرد إلا بعد نجاحه، أو بعد أن تخفف حدة تناقض رؤيته، مع رؤى المجتمع. بينما يمنح المجتمع المدني مسبقاً حق الذات بحرية التفرد، فيتفرد الفرد و يبتكر، و من ثم يكتسب صفة التشخص حينما يكون قد أدى للمجتمع رؤية جديدة لهموم المجتمع.»

« و أعرف أنها أحدثت في نفسي الأثر الذي يجب أن تحدثه، و كشفت لي روح الشاعر بكل ما فيها من لوعة و غصة، و بكل ما فيها من انطلاق و تفتح لا على مأساة أخيه و حسب، بل على مأساة الإنسانية كلها ... على مأساة الوجود الذي ينتهي إلى هذه القبور. و أذكر أنني و قفت كثيراً أمام الشطر الأخير: "قدعني، فهذا كله قبر مالك." و قلت في نفسي: أي وثبة هائلة في هذه الكلمات، و أي ضوء ساطع في هذه الحروف التي تفتح لك النوافذ لتطل منها على روح الشاعر و قلبه و أحاسيسه و شعوره بالوجود! "فهذا كله قبر مالك!" و كانت قطرة من دم القلب ... قطعة من الحياة ... قطعة من الأخوة أقيت في حفرة اسمها "قبر!" و لكن هذه الحفرة التي تتطوي على مالك لم تعد تلك الأشياء القليلة التي يرقد في قلبها مالك، و إنما أخذت تمتد و تنتشر حتى أصبحت كل "حفرة" تتطوي على إنسان، و أصبح كل إنسان في كل واحدة من هذه الحفر التي تسمى "قبوراً" قطرة من دم القلب ... قطعة في قول الشاعر: فدعني ... فهذا كله قبر مالك!"

لينتقل محمد شرارة و يقارن بين هذا الموقف النبيل المتجرد عن كل أنانية، إلى موقف الشاعرة "الخنساء"، التي خفف من مصيبتها كثرة بكاء الآخرين على أخوانهم، عندما و قفت تبكي على أخيها صخر:

و لولا كثرة الباكين حولي
و لا يكون مثل أخي، و لكن
على إخوانهم لقتلت نفسي
اعزي النفس عنه بالتأسي
فكتب:

« قتل النفس هو العلاج، و اللحاق بالراحل الحبيب هو الشفاء، و اختصار الحياة هو النقطة التي يتسمر عندها الخيال! و لكن هذه الكثرة الغامرة من البكاء على الإخوان هي العنان الذي يرد المهرة الجامحة، السائرة في جموحها إلى نهاية الشوط. هذه الكثرة الباكية على إخوانها، المصابة بفقد الأجزاء، هي العزاء ... هي التأسي الذي يخفف من ألم المصيبة!

« إلى هذه النقطة المريعة تقودك الشاعرة، و عندها تفتح لك النافذة لتطل منها على تفكيرها و أخيلتها و روحها. و إذا بك أمام روح تتلهى عن مأساتها بمآسي الناس، و تهون مصيبتها بمصائب الآخرين ... على ان أخاها يبقى فوق بقية الإخوان، و مصيبتها تبقى فوق جميع المصائب. و لكن هذه المصائب - و إن قلت عن مصيبتها - فيها عزاء، و فيها تأس و فيها بالنهاية قدرة على الوقوف بوجه

التصميم على الانتحار... و كم يبدو لك الفرق هائلاً إذا قارنت هذه النظرة بنظرة متمم بن نويرة الذي يبكي كل قبر رآه. و يرى في كل قبر رفات أخيه، و روح أخيه، و شعاع أخيه حتى لأمه رفيقه و عنفه على هذه الرؤية. و أنك لتشعر لدى المقارنة أنك أمام خطين متعاكسين تعاكساً تاماً. فذاك تقوده المصيبة إلى أن يرى كل مصيبة في الدنيا مصيبتها، و هذه تقودها مصيبتها إلى أن ترى في مصائب الناس تسلية و عزاء لها عما أصيبت به.

و لا يكتفي محمد شرارة بمقارنة مصيبة متمم بن نويرة بمصيبة الخنساء، و إنما ينتقل بنا إلى شاعر آخر مرّ بنفس المصيبة. هذا الشاعر هو "المهلل ألتغلي"، الذي هو نموذج اعتيادي يمثل الالتزام بالتقاليد القبلية، حيث يأخذ الفرد أو القبيلة الحق بالثأر من القاتل:

« المهلل ألتغلي، أخو "كليب": بطل الجاهلية المعروف ... و إذا الفجيعة تحول الشاعر من تلك الحياة اللاهية إلى حياة تشبه لعلعة التيار: رجل في الركاب، و يد على العنان، و انطلاقة إلى المقبرة، و وقوف على القبر يللمم الذكريات، و يجمع خيوطها، و يضم بعضها إلى بعض لتنفجر فيما بعد في دوي العاصفة ... و بكاء الرجولة لا يحزن بل يخيف و ينذر بالكوارث، و يلوح بالدماء التي ستكون شراباً للأرض ... إنه الثأر الذي يضيف إلى الضحية القديمة ضحايا جديدة، و يصبغ الأرض بالدماء، و هكذا كان.

و إلا أن تبيد سراة بكر

فلا يبقى لها أبداً آثار

« و هذا المنطق الطبيعي في عرف البداوة، و لا غبار عليه ما دامت الحياة فيها "غارة" متصلة، و ثأراً يتبعه ثأر... و لم يستطع الشاعر أن يفلت من محيطه و عاداته و تقاليد، كما أفلت متمم بن نويرة، و ارتفع إلى تلك القمة العالية التي سمت ذلك السمو ... و ظل متمم بن نويرة وحده بين هذه المجموعة متفرداً بشيء جديد ... متفرداً بروح جديدة في الإطلاة على روح أخيه. و هي روح تقف في القمة من المعاني الإنسانية.»⁴³⁴

* * *

434 - متمم بن نويرة و مأساة أخيه" محمد شرارة، مجلة الثقافة الوطنية، العدد 8، السنة السابعة، كانون الأول 1958، و المقال طويل، و نشر في كتاب "نظرات في تراثنا القومي" محمد شرارة، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت 1982.

في عام 1955، قطع العراق العلاقات مع الاتحاد السوفيتي، فقد كان نوري السعيد مرتاباً من تورط السوفيت في إيران بعد انتهاء الحرب العالمية، و شكوكه بالدور الذي لعبه الاتحاد السوفيتي في العراق من خلال نشاطات الحزب الشيوعي في التظاهرات و الاحتجاجات. و باشر في العام نفسه في حلف بين العراق و تركيا و بريطانيا، و انضمت لاحقاً له الباكستان و إيران، و عرف "بحلف بغداد". و وقف ضده جمال عبد الناصر، و ندد الإعلام المصري بالحلف. كما نددت بالحلف المعارضة المتمثلة بالقوميين و اليساريين من العراقيين. و كان لهجوم عبد الناصر على الحلف تأثير على الضباط في الجيش، فشحروا بالنقمة تجاه استمرار العلاقات مع بريطانيا. ففي عام 1956 « تم الكشف عن إحدى المؤامرات، بالرغم من ان التحقيق فيها لم يكن حاسماً و انتهى إلى إعادة الضباط المشتبه بهم.»⁴³⁵

و في تشرين الأول من عام 1956، حدث العدوان الثلاثي، البريطاني - الفرنسي على مصر بالتواطؤ مع إسرائيل، فاندلعت التظاهرات في أنحاء البلاد و لم تقتصر على بغداد و إنما شملت مدناً من الموصل في الشمال حتى النجف في الجنوب. أغلق نوري السعيد على أثر ذلك المدارس و الجامعات، للحماس و الاحتجاج الذي

435 - "صفحات من تاريخ العراق المعاصر"، تشارلز تريب، ترجمة: زينا جابر إدريس، 2006، بيروت - لبنان، ص - 199

- تأثرت مجموعات من الضباط « بتطورات أحداث المنطقة العامة، ما لبثت أن انتظمت مبدئياً بالتدرج في مجموعات ثلاث ثم باتنتين، و أخيراً بحركة الضباط الأحرار الموحدة. مجموعتان برزتا في المراحل الأخيرة من هذا الالتحام: واحدة انبثقت في الظاهر من خلية ألفها المقدم "صالح عبد المجيد السامرائي" الملحق العسكري في عمان، بعد الثورة المصرية بقليل. و من أعضائها الأوائل "رفعت الحاج سري" و "ناظم الطبقجلي" و "عبد الوهاب الشواف".

في نهاية عام 1954 انضمت إلى هذه الخلية خلية أخرى كان قد أنشأها "عبد الكريم قاسم" و أقرب المتعاونين معه "العقيد إسماعيل العارف". بعد حين من الزمن انضم إلى هذه المجموعة العقيد "عبد السلام عارف" الذي كان تحت أمرة عبد الكريم قاسم.

و يبدو أن اتحاد هاتين المجموعتين تمّ أيام العدوان الثلاثي: البريطاني - الفرنسي - الإسرائيلي في تشرين الثاني من العام 1956. و انتخب "قاسم"، و كان في حينه قد رقي إلى رتبة عميد و أمر اللواء التاسع عشر، رئيساً للجنة المركزية العليا لحركة الضباط الأحرار التي قادت التشكل الموحد. كان الأعضاء الاصلاء في هذه اللجنة فضلاً عن قاسم، كلاً من ناجي طالب و عبد الوهاب أمين، و محيي الدين عبد الحميد، و إسماعيل العارف، و عبد الوهاب الشواف و عبد الكريم فرحان و رجب عبد الحميد، و رفعت الحاج سري، و العقيد طاهر يحيى، و وصفي طاهر و محمد سبع.»

"العراق في عهد عبد الكريم قاسم، تاريخ سياسي 1958-1963"، أوريل دان، ترجمة: جرجيس فتح الله، دار نبر للطباعة، السويد- 1989، ص 33- 34

قام به أساتذة و طلاب المدارس و الجامعات، مما أدى إلى توقف التظاهرات. و لكن أصبح عبد الناصر بطلاً و رمزاً للتححر العربي في جميع البلدان العربية، و ذلك بعد التهديد و طلب الانسحاب الفوري من قبل خروشيف و أيزنهاور، فانسحبت على أثر ذلك كل من بريطانيا و فرنسا و إسرائيل من مصر. و أصبحت الشعوب العربية تنظر له كقائد إلى جيش التحرير في المستقبل، الذي سيحرر الأراضي المحتلة من فلسطين! و قد أطلق الرئيس عبد الناصر في خطبته الطويلة الرنانة شعار و "تذبهم بالبحر"، فاستغلت إسرائيل و الصحافة الموالية لها في الغرب هذا الشعار، للعقود التي تلت.

كان العراق من جملة البلدان التي واكبت الأزمة التي أحدثتها حرب السويس في مصر. و كان عدد من رجال المعارضة العراقيين و السوريين في القاهرة، و من بينهم كان كامل الجادري،⁴³⁶ الذي ما إن عاد إلى بغداد، حتى أحيل إلى المحكمة و حكم عليه بالسجن لمدة ثلاثة أعوام. شعرت المعارضة بعد هذا الحكم الصادر على رئيس الحزب الوطني الديمقراطي، من أنها حوصرت و لم يدع نوري السعيد مجالاً للعمل السياسي، و بدأ التفكير الجدي في قلب النظام. فشكّلت أحزاب المعارضة "جبهة الاتحاد الوطني" في شباط عام 1957، و ضمت كلاً من الحزب الوطني الديمقراطي، و حزب الاستقلال و الحزب الشيوعي و حزب البعث.

* * *

زرت الوالد في بيروت عام 1956، و كانت آثار التعب و الإرهاق بادية عليه، فلم يكن منسجماً في المدرسة، لا مع إدارتها و لا طلابها، و وجد هدف المدارس الأهلية التي كان يدرس فيها، هو الكسب المادي بالدرجة الأولى. و لم يكن قبول الطلاب معتمداً على المستوى العلمي و إنما على المستوى المالي. و لشحة الوقت المتاح له، أصبحت الكتابة نوعاً من الترف، لأن الكتابة تحتاج إلى نوع من الهدوء

436 - كان كامل الجادري في مصر آنذاك، أثناء حرب السويس، حيث قضى ثلاثة أسابيع و التقى بجمال عبد الناصر. و عندما عاد إلى بغداد، كنا نرغب في سماع المزيد عما قام به الجيش المصري من أعمال بطولية أثناء العدوان الثلاثي على مصر، بناء على ما كنا نسمعه من إذاعة "صوت العرب"، و ما يبثه أحمد سعيد من خطب شعبية حماسية يلهب بها عواطف الناس. أجاب كامل الجادري بنوع من السخرية: أي صمود! لولا تهديد خروشيف و وقوف الولايات المتحدة مؤيدة الانسحاب الفوري، لم يستطع الجيش المصري أن يقاوم إلا بضع ساعات، عندما نزلت الجيوش الفرنسية و البريطانية و الإسرائيلية! شعر الجميع بخيبة أمل في قوة الجيش المصري و بطولاته!! (ب.ش)

و الصفاء الفكري اللذين لم يتوفرا له في تلك الحقبة من حياته. و قد حاول أن يجد عملا في تدريس اللغة العربية و الأدب العربي في الاتحاد السوفيتي عندما دعي لزيارته و لكن باءت تلك المحاولات بالفشل. كما حاول أبناؤه و بناته زيارته في تلك الفترة، عندما كانوا يمرون في بيروت، إما لغرض الاضطياف أو في طريقهم لغرض إكمال دراستهم في الخارج.

و استمر في التدريس "المرهق للأعصاب" كما كان يقول، و لكنه كتب مقالاً عن كتاب "الأرواح المتمردة" لجبران خليل جبران. بعنوان "موازين الحرية في قصص جبران".⁴³⁷ بحث فيه موقف جبران من الحرية، و اختلف مع جبران في مفهوم الحرية في قصة "وردة الهاني". و هي المرأة التي تركت منزل زوجها المَسن الذي لا تحبه، و تخلت عن المال و الغنى، من أجل أن تعيش مع الشاب الذي أحبته "عيشة الزوجة مع زوجها". و الاختلاف بالنسبة لمحمد شرارة هو أن الحرية التي تغنى بها جبران في هذه القصة، و التي شبهها بحرية العصافير، هي حرية مرفوضة من قبله، لأنها أقرب إلى "الفوضى" من الحرية، فكتب:

« يعود وجود الحرية في التاريخ إلى اللحظة التي استطاعت أن تفلت من الكدح في تاريخ الحياة الإنسانية، لقد كانت الحياة الأولى مستهلكة استهلاكاً تاماً في سدّ الضرورات التي يقتضيها استمرار الوجود، و كان مخنوقاً بالبحث عن تلك الضرورات بحيث لا يبقى شيء منه للفكر يقدر على التنفس فيه. فلما لمّ الفكر بعض تجاربه و صعد في ضوئها على سلم التطور، و أخذ يستخدم أشعته في التغلب على الضرورة توفر له عندئذ شيء من الفراغ قدر أن يكسر به الطوق و يخرج منه إلى الفضاء و يتنفس... في ذلك الوقت انقلبت الحرية نفسها إلى نفس من أنفاس الحياة و أدركت الحياة أن بقاءها بغيرها يحولها إلى آلة، و يعيدها ريشة في مهب الرياح المتناوحة، و لذلك أصبحت من أخطر قضايا الحياة إن لم يكن أخطرها على الإطلاق. ... البشر محرومون من هذه النعمة! نعمة الحرية التي تمارسها العصافير في المناجاة. و ما دامت الأشجار تفرح بالحرية، و العصافير تنتاجي بها فما عملته "وردة الهاني" نعمة من النعم. إن عملها لا يتعدى عمل

437 - "موازين الحرية في قصص جبران خليل جبران" محمد شرارة، الثقافة الوطنية، 1958

الأشجار و العصافير. فإذا أخذنا الحرية بهذا المعنى، و فسرناها هذا التفسير فماذا بقي لمعنى "الفوضى"؟ أو للمعنى العامي المبتذل؟»

هذا الاختلاف واضح، بين النظريتين: فمحمد شرارة عاش طيلة حياته في مجتمع أهلي، غارق بالتقاليد، التي تحتم على الشخص الالتزام بها، أما جبران الذي عاش في الولايات المتحدة، و أنبهر في معيشته في الحرية التي يتمتع بها الفرد إن كان رجلاً أو امرأة. و قد عاش جبران في الفترة التي بدأت النساء بالمطالبة بجدية في حقوقهن، و برزت أسماء بعضهن كقادة للحركة النسائية، و كافحت المرأة في الولايات المتحدة كفاعلاً طويلاً للحصول على حقوقها دام أكثر من قرن. و لأن المجتمع في الولايات المتحدة مجتمع مدني فباستطاعة الفرد مخالفة تقاليد المجتمع الأهلي. و كان باستطاعة المرأة العيش مع رفيقها من غير زواج، حيث اعتبرها محمد شرارة مخالفة للقيم و المفاهيم - و هي قيم و مفاهيم المجتمع الأهلي - مجتمع الزراعة الذكوري، لذا اعتبرها من قبيل الفوضى، و ليست حرية، بالرغم من ان محمد شرارة من المدافعين بحماس عن حقوق المرأة من حيث التعليم و المساواة مع الرجل.⁴³⁸

438 - حديث مع رفعة الجادري، بتاريخ 2008/2/4، عندما وجهت له السؤال التالي: ما هو الفرق بين

حرية العصافير و حرية البشر؟

« إن العصفور لا يتمتع بالحرية - ضمن هذا السياق من البحث- و إنما سلوكياته تتمتع بغريزة تعطي الأهمية الكبرى إلى إدامة النكاثر. فالأنثى تسعى أن يكون النكاثر الذي تحققه مع الذكر الذي يعطيها أمني سيودي إلى نسل ذرية تتمتع بصحة جيدة، أشبه بصحة الذكر. الأنثى هي التي تختار الذكر، و لذا فهي تفتش دائماً عن عصفور يتمتع بالصحة أكثر من غيره من بين الذكور، حيث ستنقل هذه الصحة إلى ذريتها. بينما العصفور الذكر لا يهيم إلا بتفريغ المنوي لكي يعزز هدف النكاثر بأكثر عدد ممكن.

« بالمقارنة تختلف علاقة الإنسان كلياً عن الحيوان، لأن الإنسان يتعامل ضمن علاقة غريزية متداخلة مع أنظمة اجتماعية يبتكرها المجتمع نفسه، و ما يحدد التعامل، هو دور العقل في ابتكار كالجريات cultures و تفاعلها مع القدرات الغريزية الموروثة، فتصبح العلاقة بين الأنثى و الذكر ضمن محددات شبكة الكجريات التي أبتكرها المجتمع، حيث تنتظم علاقات الأفراد اليومية ضمنها. لذا تتجاوز سلوكيات الغريزة بدرجة كبيرة. فمصلحة الأنثى "المرأة" من حيث النكاثر، لا تفرق كثيراً عن العصفور، فعند كليهما الهدف الغريزي هو الحصول على سلالة بصحة جيدة، بينما الذكر "الرجل" هو كذلك يهيم النكاثر الأكثر الذي يحصل عن طريق المنوي الذي يحملها.

« لذا هنالك فرق جوهري بين سلوكيات الحيوان كالعصفور، في مقابل الأنثى و الذكر لدى الإنسان. فالحيوان أو العصفور لا يملك إرادة مستقلة عن الغريزة، بينما تطور الإنسان مع إرادة مستقلة نسبياً عن الغريزة، التي يتحكم بها أحياناً. فقد جاء الإنسان بأنظمة اجتماعية تطورت حسب مراحل: الصيد و الزراعة و الصناعة.

ففي مجتمع الصيد، تمتعت الأنثى بحرية انتقاء الذكر، بينما فقدت هذه الحرية تدريجياً في المجتمع الزراعي و منح الذكر حقوق التفرد في التكاثر، لأنه أصبح العنصر الذي يؤمن المعيش، حيث أصبحت الأنثى معتمدة عليه. و الخروج عن هذا النظام بين الذكر و الأنثى فيما يخص سلوكيات التكاثر التي جاء بها المجتمع الزراعي، و هو المجتمع الأهلي، أذكوري، يعتبر فوضى، بمعنى حرية الذكر خارج أنظمة المجتمع الزراعي. كما إن سلوكيات الأنثى خارج النظام الذي حدده الإنتاج الزراعي تعتبر فوضى. خاصة عندما جمدت هذه العلاقة بقوانين إلهية، فأصبحت خارج قدرات المجتمع من تغييرها أو مسحها.

« و أخذت المرأة تسترجع هذه الحرية تدريجياً مع تطور الإنتاج الصناعي، و مع ابتكار أنظمة المجتمع المدني، و مع تقدم رؤى حركة التنوير و الليبرالية. بعد أن أقدمت المجتمعات المتطورة في تجربة المجتمع المدني، و حققت تجارب كثيرة و تقدماً واضحاً، في مواجهة إشكالية حقوق المرأة. فتحررت المرأة أخذة موقع حق إقرار في العلاقة الجنسية، و مع ذلك لم تزل هذه التجارب في دور التنشئة، و لم تتمكن لحد الآن هذه الأنظمة المتقدمة، التوصل لصيغ ناضجة لتربية الأطفال، تربية سيكولوجية مناسبة، من غير النظام العائلي الذي قاعدته بيولوجية، و الذي أنبنى على مفهوم مجتمع الإنتاج الزراعي. و هنا مصدر الحيرة في تقبل هذا التناقض في تكوين أنظمة المجتمع المدني المتقدم، و في الوقت نفسه مجابهة تنظيم مبادئ العلاقات الاجتماعية التي لم تحسم بعد إشكاليات تطورها و نضجها.

« تحدث محمد شرارة عن حقوق المرأة، التي لها الحق في التعلم و حق اختيار الزوج و اختيار العمل و اختيار أن تكون حقوقها متساوية مع الرجل. إن مصدر هذه الرؤية التي أخذ يؤمن بها، و هذه الحقوق التي يتكلم عليها، لم تمنح إلا في المجتمع المدني، و مخالفة كلياً مع أيديولوجية المجتمع الأهلي. و حينما اعترض على موقف جبران خليل جبران، يكون قد رجع إلى التزامات المجتمع الأهلي. إنهما مفهومان مختلفان، يرجعان إلى تنظيمين كلجربة/ إنتاجية متباينة.

« إن سبب هذا التناقض في موقف شرارة، هو إن تطور الرؤى و الأيديولوجية، لبعض المتقين في العالم العربي، و من بينهم التقدميون و الشيوعيون، استوعبوا البعض من مبادئ التنوير و تجاهلوا الأخرى. لم يكن هذا التباين بسبب عامل الصدفة أو تناقض ذاتي، و إنما يرجع إلى تأسيس مبادئ المجتمع المدني بما يتضمن حرية الفرد و الليبرالية، التي لم تزل في دور النمو و التطور بصورة عامة، و في العالم العربي بصورة خاصة حيث ما زالت في دورها البدائي. و لم تزل أوروبا تعاني من كيفية معالجة التناقض المتأصل في النقلة من المجتمع الأهلي إلى المدني، من الالتزام بأيديولوجيات الأرواح و الآلهة، إلى أيديولوجيات حرية العقل الذي بدوره يبتكر الأيديولوجيات محصلة إلى حوار علني و حر و تسويات.

« كما إن تربية محمد شرارة من الطفولة حصلت في مجتمع أهلي تقليدي، و لذا لم يتمكن تجاوز كلياً منظومة أيديولوجية مجتمع الإنتاج الأهلي الزراعي، و منها الأديان. بل إن المجتمعات الصناعية المتقدمة ذاتها، لم تسع على تجاوزها إلا بمراحل، منقطعة مع ردات رجعية، و ذلك منذ أن ظهرت ديمقراطية مجتمع أثينا و عصر التنوير خاصة. و لذا تستمر، في مجال الشعر و الرومانتيكيات، المقارنة بين حرية الإنسان مع "حرية" العصفور المفترضة.

« لذا فإن تعريف الحرية التي جاء بها المجتمع المدني و الذي أنبنى على مبادئ حركة التنوير و الليبرالية، تفترض حق الفرد أن يقرر سلوكيات معيشه بشرط ألا تتعارض مع حرية فرد آخر و أفراد المجتمع ككل. بمعنى تفترض هذه الحرية التضامن بين أفراد المجتمع، بحيث لا يجوز أن يتقدم أحدهما بسلوكيات تعكر حرية الآخر و الإساءة إليها. إذ هناك باع طويل لكي يصل إلى النضج، و ذلك بابتكار الأنظمة المناسبة لكي يمارس الفرد الحرية الفردية من غير الإساءة إلى حرية الآخر. و هي صيرورة جديدة في مجتمع الإنسان.»

لكنه أنفق مع جبران في قصة "خليل الكافر" و هو راهب من رهبان الدير، و لكنه راعٍ خرج من صفوف الرعيان. و الحرية التي يبشر بها هذا الراعي أرقى بكثير من "حرية" وردة الهاني، "التي هي أقرب إلى الفوضى منها إلى الحرية الصحيحة" حسبما يراها محمد شرارة، انه مع الثائر و المتمرد "خليل" لأنه تخطى قيود الدير و طالب بحرية الفكر و القول:

" أما حرية الراعي فإنها حرية الفكر و القول. فخليل يفكر تفكيراً مستقلاً عن تفكير الرهبان. و نظام الرهينة يشد الأدنى بالأعلى- أي إن الراهب الصغير لا يجوز له أن يتجاوز في تفكيره رئيسه. و خليل- على صغر رتبته الكهنوتية- يخرج على هذا النظام. و واجب الإنسان- عنده - أن يكون سعيداً على الأرض، و أن يعلم سبل السعادة. و من لا يشاهد ملكوت السموات في هذه الأرض لن يراه في الحياة الآتية ... و التفكير بحد ذاته لا خطر منه ما دام ساكناً في رأس صاحبه. أما الخوف و الخطر فعندما ينطلق هذا الفكر من الرأس و يتجسد في القول.»

و ينتهي الأمر "بخليل" إلى السجن الكهنوتي، ثم إلى الطرد. فجبران هنا يفهم الحرية، بالنسبة لمحمد شرارة " فهما دقيقاً ... يفهمها على إنها قول و عمل و جهاد" و يضحي في سبيلها بطل الرواية بالطرد و الضرب و الجلد، و لا يتنمر الكاهن لأنه ثمن الشعور بالحرية.

فصل محمد شرارة هنا بين حرية الفكر التي هو أول من يقف للدفاع عنها، و بين الحرية الفردية للمرأة، أي حق تفرد المرأة، التي فضلت العيش مع رجل تحبه على العيش مع زوج لا تحبه، و هذا النوع من الحرية لا يمكن أن يهضمها محمد شرارة، لأنه يؤمن بقديسية الزواج.

* * *

ثورة 14 تموز 1958

السجن/ و السفر إلى الصين

في صبيحة الرابع عشر من شهر تموز، تغير الوضع في العراق تغيراً جذرياً، فقد أطاح الجيش العراقي بالعهـد الملكي و بذلك أطيح بالنظام الدستوري، الذي دام ما يقرب من أربعة عقود، و أعلنت الجمهورية العراقية. و استبشر الشعب العراقي في ما حققه الجيش، و نزلوا إلى الشوارع، بتشجيع من عبد السلام عارف، الذي كان الرجل الثاني بعد عبد الكريم قاسم المشارك في الثورة.⁴³⁹ و الذي كانت بياناته المتواصلة التي تداع من الإذاعة العراقية في ذلك الصباح، مشجعة على الانتقام، ممن سموا "بجماعة العهد المباد"، مدمرين بطريقهم كل ما يرمز إليه ذلك العهد.⁴⁴⁰

439 - « لقد أخل عبد الكريم قاسم و عبد السلام عارف بانفرادهما، في اختيار ساعة الصفر و إبلاغ وحدتهما بموعـد العملية دون إبلاغ بقية قيادة حركة الضباط الأحرار بالموعـد للمساهمة بها. خلق هذا الموقف مشكلات و حسابيات كثيرة رافقت مسيرة الثورة و لعبت دورها السلبـي لاحقاً في صفوف الضباط الأحرار و في زعزعة الثقة و التضامن بين حركة الضباط و بدء المنافسة في ما بينهم و التأمر على بعضهم ... و في توزيع المناصب الوزارية و المواقع الأساسية في الدولة و القوات المسلحة بين جماعة معينة من الضباط و إبعاد جماعة أخرى من أعضاء حركة الضباط الأحرار عن مواقع المسؤولية السياسية المهمة ... لقد كان الوعي المدني الديمقراطي لدى الضباط الأحرار، بغض النظر عن شخصهم، ضعيفاً و بعيداً عن فهم حاجات المجتمع و ضرورات التطور السياسي و الاقتصادي و الاجتماعي و الثقافي الديمقراطي.»

"أفكار و ملاحظات للمناقشة في الذكرى الخمسينية لثورة تموز 1958"، كاظم حبيب، ألفت في ستوكهولم/السويد في 2008/7/14، كما نشر المقال في جريدة المدى في شهر تموز 2008.

440 - مقطع من البيان الأول: صادر من القائد العام للقوات المسلحة الوطنية/ بسم الله الرحمن الرحيم/ أيها الشعب الكريم

« بعد الاتكال على الله و بموازية المخلصين من أبناء الشعب و القوات الوطنية المسلحة، أقدمنا على تحرير الوطن العزيز من سيطرة الطغمة الفاسدة التي نصبها الاستعمار لحكم الشعب و التلاعب بمقدراته و في سبيل المنافع الشخصية. إن الجيش منكم و إليكم، و قد قام بما تريدون و أزال الطبقة الباغية التي استهترت بحقوق الشعب، فما عليكم إلا أن تآزروه. و أعلموا إن الظفر لا يتم إلا بترصينه و المحافظة عليه من مؤامرات الاستعمار و أنذابه و عليه فإننا نوجه إليكم نداعنا للقيام بإخبار السلطات عن كل مفسد و مسيء و خائن لاستتصـاله. و نطلب منكم أن تكونوا يداً واحدة للقضاء على هؤلاء و التخلص من شرهم.»

فهمجوا على دار نوري السعيد رئيس الوزراء، و لم يبقوا فيه إلا الهيكل، و لم ينج حتى "قصر الرحاب" الذي كان يسكنه الملك و خاله الوصي عبد الإله. فأقدمت العامة و جنود الثورة على نهبه و تدميره، فبعثرت الوثائق و الأوراق و الصور، و تطايرت و امتزجت بنتف الملابس، و قطع الأثاث التي دمرت. و استمر النهب و التدمير بضعة أيام.

كما أقدمت العامة على تدمير تمثال "مود" لقائد الجيش البريطاني، الذي دخل العاصمة بغداد و أنهى الحكم العثماني في عام 1917. فدُوب التمثال و بيع كمعدن في الأسواق، بدل المحافظة عليه. و لم ينج حتى تمثال الملك فيصل الأول الذي كان مصيره السرقة و التدمير أيضاً. و كان الأحرى بالجيش المحافظة على "قصر الرحاب"، بدل غض النظر عما كان يحدث أمامهم، و لم يخطر ببالهم الحفاظ على القصر كجزء من التراث العراقي. إذ إن كلاً من التمثالين و القصر، يمثلان فترة مهمة في تكوين العراق الحديث. لم يكن هذا التدمير بشيء جديد في العراق، فقد تكرر مرات عديدة في تاريخه الطويل. و له خلفية الغزو السائدة في عالم البداوة، و لا غرابة في تدمير و محو ذاكرة المجتمع، كلما حدث ثورة أو انقلاب.

امتألت ساحة باب المعظم، أمام وزارة الدفاع، بالجماهير المندفعة المتحمسة التي هيمن عليها الفرح و الغبطة، كما عمت الفرحة جميع شوارع العاصمة بغداد. و استمرت الجماهير تتوجه نحو الساحة، حتى أصبحت أمواج من الكتل البشرية المتدافعة في صيف تموز الحارق، تتدافع أمام جثة الوصي عبد الإله، المتدلّية عارية أمام مدخل وزارة الدفاع. جثة هامة بيضاء بلون الحليب، تلمسها الجماهير المتحمسة بأيديها تارة، أو تركلها تارة، فتتأرجح من شدة الدفع و الركل في الفضاء. لتعود الجماهير ثانية، تهتف بأعلى حناجرها، مهنئة أنفسها بالنصر على الجثة التي كانت رمزاً للفساد و التعدي على حقوق الشعب.

لم تخل تلك التظاهرات من العنف الذي اتسمت بها الثورة في ذلك اليوم، حيث ذهب ضحيتها البعض، و سحلت جثثهم⁴⁴¹ المحروقة في الشوارع من قبل

441 - ترجع أعمال السحل في العراق إلى القرن السابع الميلادي، فقد سُحل الملك شهربراز في المدائن، و هو أحد قادة الفرس الحاكمين، عام 630م، و سُحل يوسف بن عمر والي العراق أيام الأمويين الذي تخفى بلباس النساء، و سُحل الأمويون في شوارع البصرة بعد انتصار العباسيين و نكل بهم تنكلاً فظيعاً، و سُحل الخليفة الأمين بعد مقتله عام 813م، و سحل أحمد آغا، الذي كان قائداً للانكشارية في بغداد عام

المتظاهرين المتهبة أيديهم بالتصفيق و المبحوحة حناجرهم من الهتافات.⁴⁴² و استمر الراديو في إذاعة بيانات الثورة طيلة اليوم منذ الصباح الباكر. هيمنت الحيرة على الناس في بادئ الأمر، لجهلهم خلفية و اتجاه القائدين اللذين قاما في الثورة. و اتجه البعض منهم إلى دار كامل الجادرجي في الساعات الأولى من إعلان البيان الأول، لأنهم يعرفون اسم كامل الجادرجي الذي أصبح رمزاً للنضال السياسي خلال العقود الثلاثة الماضية.

امتلأت غرفته و الحديقة بالشخصيات السياسية المختلفة، منها البعثي و الشيوعي و الديمقراطي و القومي، و مهنيون من جميع الاتجاهات و الملل و النحل، أكراد و شيعة و سنة و مسيحيين، كبار و شيوخ و شباب.

ظل شارع طه، الذي نسكن فيه، مزدحماً بالناس، فقد عرجت بعض تلك التظاهرات من شوارع المدينة الرئيسية إلى شارع طه، اعترافاً بنضال الجادرجي و موقفه الحازم ضد إفساد دولة القانون و عنف السلطة ضد المعارضين و بالأخص الشيوعيين و اليساريين منهم.

1802، و سُحل ناصيف آغا، من وجهاء بغداد عام 1808، و سحل الأمير عبد الإله و نوري السعيد عام 1958.

"تاريخ العنف الدموي في العراق"، باقر ياسين، دار الكنوز الأدبية، بيروت- لبنان، 1999، ص 368-369

442 - « الخبر الأول الذي بَلَغ للشعب العراقي هو إذاعة "عارف" العاطفية في حدود الساعة السادسة و الدقيقة الثلاثين من يوم 14 تموز. دعاهم للخروج إلى الشارع و مشاهدة رموز الطغيان تتهاوى تغدو أنقاضاً. و ما مرّت ساعة واحدة حتى تحركت مئات الألوف من الدهماء و اندفعت كالموج الكاسح فملأت الشوارع و هي تهتف فرحة مستبشرة متعطشة للانتقام. هذه الحشود من أهالي بغداد المعدمين هبت هبوب الإعصار مهددة بتدمير كل شيء. و لم يكن الثوار مستعدين لهذا كما يبدو. و كان عليهم أن يتعظوا بأحداث الانقلابات السابقة و يتخذوها نذراً.

حاولت الجموع هدم السفارة البريطانية. و أصيب بناؤها بتلف كبير قبل أن يتمكن الجيش من دفع الحشود عنها. و فقد محاسب السفارة حياته في مثار الصخب و العراك. و أُلقت مفرزة مسلحة القبض على الوزراء و الضباط الأردنيين، و كانوا قد جاؤوا للبحث في شؤون (الاتحاد العربي) و نزلوا في احد فنادق بغداد. و قبل دخولهم وزارة الدفاع و نجاتهم انقض المتظاهرون عليهم و على حرسهم، فقتل "إبراهيم هاشم" نائب رئيس وزراء الاتحاد. و "سليمان طوقان" وزير دفاع الاتحاد و دبلوماسي أردني واحد، و ضابط في الجيش الأردني و رجل أعمال أوروبي اعتقل خطأ.

و اقتحمت الجموع القصور الملكية و راحت تتهب كل ما تقع عليه يدها و تتمر الباقي... و من بين حوادث التخريب الأقل شأنًا تنديس مقبرة الحرب التركية و تحطيم تمثالي الملك فيصل الأول و الجنرال "مود" فاتح بغداد في العام 1917. و أعلنت الأحكام العرفية في التاسعة مساء من ذلك اليوم.»

القي القبض على نوري السعيد رئيس الوزراء السابق، بعد يومين من الثورة، كان متخفياً بعباءة نسائية، و هذا ليس بالجديد في تاريخ العراق⁴⁴³، فبانت بيجامته من تحت العباءة، و أطلق النار من مسدسه الخاص الذي يحمله. ارتاح الناس عندما علموا بمقتل نوري السعيد،⁴⁴⁴ و تلاشى جو القلق الذي هيمن على الثورة في بادي الأمر.

كان محمد شرارة بعيداً عن العراق، في تلك الفترة، و لم تكتحل عيناه بانتهاء العهد الذي كان سبباً في سجنه و فصله و محاربته في رزقه، و كم تمنينا أن يكون بيننا ليشاركنا الفرحة و الغبطة التي هيمنت علينا في ذلك اليوم. و غضضنا النظر عن التعدي و التسيب و الفوضى في الأيام الأولى، و اعتبرت هذه الأحداث من طبيعة الثورات، لكل ثورة ضحاياها كما درسنا ذلك في التاريخ. فقد كان للثورة الفرنسية ضحاياها عندما حدثت قبل قرنين في 1789، كما كان للثورة البلشفية ضحاياها عام 1917، و لكن سرعان ما امتزج الفرح بالشك و المساءلة بعد فترة قصيرة.

* * *

أسقط النظام الملكي، و بدأ النظام الجمهوري، و لكنه سرعان ما تبين انه غير دستوري، بل استبدل نظاماً دستورياً فاسداً بنظام عسكري لا دستوري. إذ كانت

"العراق في عهد قاسم، تاريخ سياسي 1958 - 1963"، أوريل دان، ترجمة: جرجيس فتح الله، دار نبر للطباعة و النشر، السويد- 1989، ص 49- 50

⁴⁴³ - و هنالك شبه بين هرب نوري السعيد و والي العثماني علي باشا: « بعد أن انتشرت المتاريس في طرقات و شوارع بغداد و عمت الفوضى و المظاهرات و انتشرت مظاهر التمرد، فاضطر والي علي باشا عام 1763 أن يهرب متكرراً بزي امرأة و التجأ إلى أحد دور بغداد، إلا أن صاحب الدار أخبر عنه فجاعوا إليه و أخرجوه و قتلوه.»

" تاريخ العنف الدموي في العراق"، باقر ياسين، دار الكنوز الأدبية، بيروت- لبنان، 1999، ص - 218

⁴⁴⁴ - ولد نوري بن سعيد بن طه في بغداد 1888، من عشيرة القرغول البغدادية. درس في بغداد، و التحق بالكلية العسكرية في الأستانة حيث تخرج منها برتبة ضابط عام 1906. شارك في حروب البلقان ضد البلغار عام 1912، أمضى عاماً أسيراً في بومباي في الهند بعد أن سقطت البصرة في أيدي البريطانيين. تسلم منصب أركان الملك فيصل في سوريا عام 1918، ثم أصبح رئيس أركان الجيش في عام 1920، حيث عمل على تنظيم وزارة الدفاع و الشرطة. أصبح لأول مرة رئيساً للوزراء عام 1930، ثم تناوب هذا المنصب ثلاث عشرة مرة قبل أن يصبح رئيساً لوزراء الاتحاد الهاشمي. توفي في عام 1958.

"مذكرات نوري السعيد عن الحركات العسكرية للجيش العربي"، الدار العربية للموسوعات، الطبعة الثانية، بيروت- لبنان، 1987، ص 5- 6

الثورات في السابق، ثورات شعبية ضد الجوع أو الطائفية أو صراعاً على السلطة، بينما كان هدف ثورة 14 تموز إصلاح دولة دستورية فاسدة، غير أنها أصبحت بقيادة العسكريين، سلطة ألغت دولة الدستور و دفعت بالعراق إلى حكم عشوائي.

فالعسكريون يخطبون و يذيعون البيانات من الراديو، و الشعب الذي أقدم على التظاهرات اليومية من غير انقطاع، و أصبحت ظاهرة من المظاهر التي تعرقل سير الحياة اليومية. بدأ التصدع يظهر في نظام السلطة بصورة جدية من الأيام الأولى، و زادت حدة التنافس بين البطلين العسكريين، و شعر المدنيون بالخيبة، فقد ناضلوا طيلة حياتهم من أجل تغيير الأوضاع في العراق بطرق شرعية و قانونية دستورية، و لم يفكروا بالجيش كمخرج من تلك الأزمة إلا بعد أن فشلت مساعيهم و أحبطت عزائمهم من قبل السلطة و عنفها المتواصل، بتعطيل الدستور و إغلاق البرلمان، و إرهابها المتواصل لهم، مما اضطرت المعارضة للتعاون مع الجيش و قلب النظام بالرغم من المخاطر المحيطة بتلك الخطوة. إذ لم يكن للمعارضة و لا السياسيين الآخرين في العراق ممارسات سياسية طويلة تمتد بالزمن، لذا كان قرارهم الاشتراك مع العسكر يرجع إلى قلة الخبرة و التجربة السياسية. و سبب ذلك أن الممارسة السياسية المتفاعلة و المتطورة لا تحصل إلا في بيئة المجتمع المدني، و بما أن العراق لا يمتلك هذا المجتمع أو يرتقي إليه، فبقيت الممارسة السياسية ضعيفة من غير مرجعية مركبة حققتها أجيال متعددة في الماضي. هذا لا يعني أنه لم يظهر أفراد محنكون في السياسة في العراق.

كان عبد السلام عارف رجلاً طائفي النزعة⁴⁴⁵، بأسلوبه الغوغائي يطالب بالتخلي عن القصور و الثلاجات التي كانت لا تزال تعتبر من الكماليات في العراق، و لم

445 - أما عن عقلية عبد السلام عارف الفتوية، فتظهر في إجابته لوزير الخارجية طالب شبيب بعد انقلاب 8 شباط عام 1963، في إعادة كاظم خلف الذي اعفي من منصبه عندما كان سفيراً للعراق في عهد عبد الكريم قاسم، أجابه عبد السلام: "هم كاظم و هم خلف و هم تردون أرجعه .. ما أرجعه..!". "مذكرات فؤاد عارف"، الجزء الأول، تقديم و تعليق د. كمال مظهر، الطبعة الأولى، مطبعة خه بات- دهوك 1999، ص- 26

و يذكر هاني الفكيكي عندما وصل مع محسن الشيخ راضي: « متأخرين إلى إحدى جلسات مجلس قيادة الثورة فقال عبد السلام: جاء الروافض، و كان يقصد بذلك أننا شيعة... »
"أوكار الهزيمة، تجربتي في حزب البعث العراقي"، هاني الفكيكي، رياض الريس للكتب و النشر، 1993

- لندن، ص- 273

تقطع خطبه المرتجلة التي هاجم فيها العهد الملكي: « لا إقطاع بعد اليوم، لا تفاوت و طبقات و لا جلالات و لا معالي و فخامات، بل حرية و عدل و مساواة... هدف واحد، جمهورية واحدة، أمل واحد، غاية واحدة، قومية واحدة، مبدأ واحد، حزب واحد إلا ان حزب الله هم المفلحون.» أو في خطبة أخرى: « جمهورية خاكية، عراقية، وطنية، اشتراكية، تحريرية استقلالية، الجمهورية العراقية... إنها في خدمتكم.»⁴⁴⁶

و عبد الكريم قاسم الذي كان أكثر نكاء و فطنة منه، يعمل بصمت و هدوء في وزارة الدفاع لتثبيت مركزه و القبض على زمام الأمور و إضعاف عبد السلام تدريجياً و عزله و الاستيلاء على الثورة من منافسه. و بدل من أن يعود الجيش إلى ثكناته بعد الانقلاب مسلماً أمور الحكم للمدنيين، كما كان المفروض و المتفق عليه مع المعارضة المدنية من خلال جبهة الاتحاد الوطني، إلا انه تمسك بزمام السلطة!

« إذ تراجع قاسم عن الوعد الذي قطعه على نفسه مع اللجنة العليا لجبهة الاتحاد الوطني في تسليم السلطة بعد فترة وجيزة إلى المدنيين و عودة القوات المسلحة إلى معسكراتها استفادة من تجربة 1936... و عدم تنفيذ الالتزام بوضع و إقرار دستور البلاد الجديد و البدء بإقامة المؤسسات الدستورية و الحياة الحزبية الشرعية... و الاعتماد على قرارات و سياسات فردية دون أن يسمح لمؤسسات الدولة القائمة و أجهزتها في أن تلعب دورها الطبيعي في دراستها و إقرارها و رفضها. مما ساعد على نشوء الفوضى و العفوية و الصراعات و ما نشأ عنها من نزاعات دموية»⁴⁴⁷

كما « أصبحت وزارة الدفاع، و ليس البرلمان، هي بؤرة النظام في فترة عبد الكريم قاسم.»⁴⁴⁸

- كما انتشرت شائعة عن عقلية عبد السلام الفتوية، عندما سئل من قبل صحفي في مطار دمشق، ما هو مصير الشيعة في العراق؟ أجابه: " لا يوجد عندنا شيعة، عندنا كم إيراني"

⁴⁴⁶ - "العراق في عهد قاسم، تاريخ سياسي 1958-1963"، أوريل دان، ترجمة: جرجيس فتح الله، دار نيز للطباعة و النشر، السويد- 1989، ص- 103

⁴⁴⁷ - "أفكار و ملاحظات للمناقشة في الذكرى الخمسينية لثورة تموز 1958"، كاظم حبيب، ألقيت في

ستوكهولم/السويد في 2008/7/14، و نشرت في جريدة المدى في شهر تموز 2008.

⁴⁴⁸ - "الدولة غير المثقفة"، كريم عيّد، المركز العربي للفنون و الآداب، بلجيكا- بروكسل، 1995، ص-

انقسمت قيادات الأحزاب الوطنية إلى مؤيدين و مخلصين لكلا بطلي الثورة. و انقسم بذلك المجتمع العراقي معهما. كما ظهر الصراع بين أطراف "جبهة الاتحاد الوطني"، و بوادر الاختلاف و الانشقاق في المجتمع، كل طرف يحاول الحصول على مكاسب آنية على حساب الآخر، بعيدين عن التفكير بالحوار و التسويات، إلا فئة صغيرة منهم. كما كان لخطب جمال عبد الناصر الذي وصف عبد الكريم قاسم "بقاسم العراق" دور في اتساع رقعة الانشقاق في العراق. و كان له دور كبير في التدخل في شؤون العراق الداخلية بصورة علنية آنذاك، و أحد الأسباب التي أدت إلى التطرف الذي حدث في العراق، كما كان لإذاعة صوت العرب ضلع كبير في تشجيع بعض الفئات في التآمر عليه.

و ظهر نشاط حزب البعث بعد ثورة 14 تموز، الذي كان في بداية الثورة حزباً ناشئاً صغيراً، مقارنة بالحزب الشيوعي أو الأحزاب السياسية الأخرى، لا يتجاوز عدد أعضائه أكثر من بضعة مئات. تأسس فرع له في العراق في عام 1951، و تزعمه فؤاد الركابي.⁴⁴⁹ و كان الحزب علمانياً، يؤمن بالقومية العربية، ذا توجه اشتراكي، ينتقد انعدام المساواة و الإقطاع في العالم العربي. و استقطب الطلاب في المدارس الثانوية و الجامعة، الذين سئموا هيئة نخبة من القوميين الأكبر سناً و أكثر محافظة. و قد تبنى منهج "جبهة الاتحاد الوطني" في العهد الملكي، الذي كان يؤكد على الدعوة إلى الديمقراطية و الحريات الدستورية و الانسحاب من حلف بغداد و تبني سياسة "عدم الانحياز".

« في المبدأ ساند حزب البعث الحكم الجديد من دون تحفظ... و خرج بجريده الخاصة اليومية "الجمهورية" في 17 تموز 1958، بمعونة مديرية الاستخبارات

449 - فؤاد الركابي: ولد في الناصرية عام 1931. كان من مؤسسي حزب البعث في أوائل الخمسينات، و انتخب كأول أمين قطري لحزب البعث العراقي. اشترك في برنامج جبهة الاتحاد الوطني عام 1957. عين وزير الأعمار بعد ثورة 14 تموز، استقال من منصبه في تشرين الثاني 1959. و شارك بالتخطيط لاغتيال عبد الكريم قاسم عام 1959، لجأ إلى سورية و حكم عليه بالإعدام في 1960. عين وزيراً للبلديات 1964-1965، و اعتقل بعد وصول البعث إلى السلطة في 17 يوليو 1968. صدر عليه الحكم بالسجن لمدة ثلاث سنوات، و قتل داخل السجن عام 1971. (ب.ش)

- بعد عشرة أيام من الثورة، قام ميشيل عفلق، السكرتير العام للقيادة القومية، بزيارة بغداد، و شدد على وجوب قيام (الوحدة الفورية) مع الجمهورية العربية المتحدة، مدفوعاً أيضاً بالرغبة في تقوية حزب البعث، بعد تحقيق تلك الوحدة.

العسكرية، و كان صاحب امتيازها "عبد السلام عارف"، و بعد حوالي أسبوع من صدورهما سلمها إلى البعثيين...»⁴⁵⁰

و لما كان حزبا منظماً، يشبه في تنظيمه الحزب الشيوعي، لذا استطاع أن يستقطب عدداً كبيراً من الناس في فترة قصيرة. و استغل الحزب في الأشهر الأولى للثورة، توتر العلاقات بين عبد السلام عارف و بين عبد الكريم قاسم. كما استفاد من القلق الذي أخذ يتزايد بين القوميين و رجال الدين من الشيعة و السنة من نشاط الحزب الشيوعي، و أيد شعار الوحدة الفورية مع الجمهورية العربية المتحدة، ضد شعار "الاتحاد الفدرالي" الذي تبناه عبد الكريم قاسم و الحزب الوطني الديمقراطي و الحزب الشيوعي. و أصبح من الأحزاب المتطرفة في محاربة المفاهيم اليسارية و الشيوعية، و قد أيدته عدد من الدول العربية، و ساعدته من الناحية المادية و السياسية و الإعلامية.

* * *

عاش محمد شرارة بعد أن عاد إلى بغداد، في هذا الجو المفعم بالانقسام و التشتت و التوتر. فقد عاد إلى العراق يحدوه التفاؤل في إطلالة العهد الجديد الذي شمل معظم الشعب العراقي، كما عادت ابنته "حياة" من مصر، و التأم شمل العائلة لأول مرة منذ سنوات.

أعيد إلى عمله، و أصبح يقضي وقته بين الوظيفة و الكتابة. كان متفائلاً بالوضع لدرجة أنه نظم قصيدة بعنوان "الفجر فوق بغداد"، إذ عم السرور حتى شمل الصخرة الصماء! و هذه بعض الأبيات التي حيا فيها الجيش و قائده عبد الكريم قاسم:

| | |
|-------------------------------|-------------------------------|
| في الفجر، و احتضن الوجود بهاء | الليل ذاب، و غنّت الأضواء |
| في الأرض حتى الصخرة الصماء | عم السرور، فكل شيء ضاحك |
| في الساحة الكبرى دمی بلهَاء | و إذا الطغاة و من يدور مدارهم |
| | ثم يمدح الجيش: |

و الجيش! عاش الجيش عاش نضاله
الأعلى، و عاشت روحه السماء

450 - "العراق في عهد قاسم، تاريخ سياسي 1958-1963"، أوريل دان، ترجمة: جرجيس فتح الله، دار نيز للطباعة و النشر، السويد-1989، ص 95-96

و على العدو مصيبة سوداء
بين النجوم، النجمة الغراء⁴⁵¹

للشعب درع، لا يذوب حديده
وزعيمه بين الصفوف كأنه

* * *

و لم يقتصر نظم الشعر بالثورة على محمد شرارة، و إنما حيّت الثورة و
الجمهورية حتى الشاعرة نازك الملائكة البعيدة عن السياسة و هموم المجتمع،
فكتبت :

جمهوريةنا، طفلتنا الجدلي العينين
مولودتنا السمراء الباسمة الشفتين
سنوسدها في أذرعنا و مآقينا
سنغذها بأغانينا⁴⁵²

كما كتب بدر السياب قصيدة بعنوان "يوم ارتوى الثأر" يحيي الثورة، و لكنه لم
ينشر القصيدة إلا بعد ثلاثة سنوات:

بشراك هذا سحاب الذلة انقشعا
و انفكّ عن ساعدك القيد و انقطعا
ثم يقول:

لم يكذب الجيش إلا ظن شردمة
و الجيش ما كان إلا سور أمته
و الجيش ما كان إلا سرّ قائده
عبد الكريم الذي أجرى بثورته
في ثورة عاد منها الشعب منتصراً
و الحق مزدهراً و البغي منصرعا⁴⁵³

أصبح محمد شرارة يكتب مقالاً أسبوعياً في جريدة "الحضارة"، و في بعض الأحيان
كان يكتب افتتاحياتها أيضاً، كما كان يكتب أحيانا في جريدة "اتحاد الشعب" التي
يصدرها الحزب الشيوعي و جريدة "الإنسانية" التي يصدرها الشاعر كاظم

451 - قصيدة "الفجر فوق بغداد" نظمها محمد شرارة بعد عودته من لبنان، و قد نشرت في "جريدة 14 تموز" 1958.

452 - "تحية للجمهورية العراقية" ديوان شجرة القمر، نازك الملائكة، دار العودة - بيروت 1997، المجلد الثاني ص- 446

453 - قصيدة "يوم ارتوى الجيش"، "بدر شاكر السياب - الأعمال الشعرية الكاملة"، المجلد الثاني، دار العودة، بيروت - 2000، ص- 561، 565، ألفت هذه القصيدة التي نظمها بدر إبان ثورة 14 تموز 1958، بعد ثلاث سنوات في مديرية مصلحة المواني العراقية في البصرة.

السماوي. بالإضافة إلى اجتماعات الحزب الشيوعي، التي أصبح ملتزماً بها و مواظباً على حضورها، من خلال "خلية المتقنين".⁴⁵⁴

كانت الاجتماعات الحزبية تعقد في دار الشاعر محمد صالح بحر العلوم الذي كان مسؤولاً للخلية. و بعد أن سافر إلى خارج العراق، أصبح الخطاط و الكاتب محمد سعيد الصكار مسؤولاً عن الخلية التي كانت بعيدة عن الضبط الحزبي. و لذا كان يؤنب من قبل قيادة الحزب.⁴⁵⁵ إذ لم يستطيع الحزب الشيوعي أن يتصور ان المفكر ليس بإمكانه تطبيق الأوامر الحزبية بحذافيرها، و المساءلة و الشك بالنسبة للمفكر كالأكل و الشرب، فالتوقف عن المسائلة، هو توقف عن التفكير، و يصبح المفكر أداة طيعة بيد الحزب، فتجف بذلك منابع الفكر، و يحيا في جمود فكري بعيد عن الإبداع.

كتب محمد شرارة في تلك الفترة مقالاً عن الثورة بعنوان "ثورة العراق - أهي الثورة الأولى؟" فلم يعتبر ثورة 1958، هي الثورة الأولى التي قلبت عرش العراق، بل اختصر تاريخ العراق:

454 - مكالمة تلفونية مع محمد سعيد الصكار، بتاريخ 2007/10/18، باريس - فرنسا

« كانت خلية المتقنين مكونة من الرئيس: الشاعر محمد صالح بحر العلوم، و الأعضاء: الأديب و الكاتب محمد شرارة و الشاعر عبد الرزاق عبد الواحد و الكاتب و الروائي غائب طعمة فرمان و سليم غاوي (صائب) يعمل في مجال التعليم، و الشاعر رشدي العامل و الشاعر عبد الوهاب ألبياتي، و الشاعر سعدي يوسف و أنا.

« كان محمد شرارة في تلك الفترة يحضر اجتماعات الحزب الشيوعي من خلال "خلية المتقنين". و بعد أن سافر محمد صالح بحر العلوم، انتهت "خلية المتقنين" بتسلم الشباب لها. فقد وقعت المسؤولية عليّ بين 1959 - 1960». و أضاف الصكار : « كان محمد شرارة رجلاً رصيناً في سلوكه خلال تلك الاجتماعات التي كانت تعقد، قليل الكلام، مستمعاً في معظم الوقت، لأن الأمور التي كانت تبحث كانت أموراً تنظيمية بالنسبة إلى الثقافة.»

455 - حديث مع محمد سعيد الصكار بتاريخ 2001/5/2، في لندن

« كان محمد سعيد الصكار لا يتجاوز الخامسة و العشرين من العمر، عندما أصبح مسؤولاً عن توجيه و قيادة كتاب و شعراء ربوا أجيالاً في العراق.

ثم أضيف قائلاً: كنت أخرج من أن أوجه لهم الأوامر الحزبية عندما لا يلتزمون بتعاليم الحزب، و أشعر بالخرج أحياناً، هؤلاء المفكرون فطاحل في موضوعهم و أنا لا أزال تلميذاً من تلامذتهم، و لذا كنت أتسلم دائماً تأنيباً من الحزب عن عدم ضبط الخلية. فكان بعضهم لا يخضع إلى التعليمات الحزبية و الأوامر الفوقية بل يناقشونها و يردون عليها. لذلك اعتبرت الخلية من قبل قيادة الحزب، خلية مشاغبة بعيدة عن الإطاعة العمياء التي يتطلبها الحزب من أعضائه. و كنت في معظم الأحيان، الملام عن عدم قدرتي على ضبط الخلية. و تساءل قائلاً: كيف أستطيع أن اضبط خلية من المفكرين و الشعراء؟»

« كيف كان يداعب مهدد الطغاة و يكفي - في هذه الناحية - أن نقرأ خطب الحجاج، و الخطبة البتراء لزياد ابن أبيه لنعرف ما كان يعانيه الطغيان من إباء العراق و شموخ العراق و انتفاضاته العميقة في وجه الظلم. و ربما كان تاريخ العراق في الماضي أكثر تواريخ العالم غنى بالثورة على غرور و عنجبية الحكام.»

ثم ينتقل إلى تاريخ العراق الحديث من ثورة العشرين و ما أعقبها من ثورات، و تاريخ الانتفاضات و التظاهرات و المحاكمات السياسية، و الإضرابات، منذ 1946 - 1958:

« و شعب هذا تاريخه، و هذه ومضات من وثباته لا يستكثر عليه أن يثب و وثبته الأخيرة. بل إن هذه الوثبة، لم تكن سوى صفحة من تاريخ الانتفاضات المتتابعة.»⁴⁵⁶

* * *

تألفت في تلك الفترة «محكمة الشعب»، لمحكمة رجال «العهد المباد»، و أطلق عليها الناس «محكمة المهداوي»، و هو أسم رئيس المحكمة، كما تألفت في الوقت نفسه المقاومة الشعبية.

و قد بنيت المحكمة لأول مرة من خلال شاشة التلفزيون في 16/8/1958، و هي أول محكمة علنية في تاريخ العراق. و كانت ظاهرة جديدة، فتسمرت عيون الشعب العراقي في المقاهي و في البيوت بمشاهدة المحاكمة و قلبت بناية البرلمان التي تمثل منتخب الشعب إلى «محكمة الشعب». و احتل قفص الاتهام مكان رئيس البرلمان، و أصبحت الصالة قاعة المحكمة.

و كان هنالك في البداية محاولة في إتباع نصوص ممارسة القضاء نسبياً و روعيت التقاليد القضائية الغربية في المرافعات بما يقرب من الدقة في المراحل الأولى من نشاط المحكمة. فسمح للمتهم بالإدلاء بإفادته، و حاول محامو الدفاع بإخلاص و صدق الدفاع عنه. و ان شاب دفاعهم دوماً إطرأ و تملق للمحكمة و

456 - "ثورة العراق - أهي الثورة الأولى؟"، محمد شرارة، جريدة السياسة، 31/7/1958، عدد 505

إشادة بالمبادئ التي تمثلها. و كان الرئيس يلتزم باحترام معقول للمتهمين. كانت المحكمة عموماً لا تحيد عن الأصول و الضبط القضائيين.⁴⁵⁷

و لكن بعد اكتشاف مؤامرة رشيد عالي الكيلاني في بداية كانون الأول من 1958، و فشل انقلاب "الشواف" في آذار 1959، انقلبت المحكمة إلى مسرح لإمتاع الجمهور!⁴⁵⁸ و أصبح الحاكم هو مخرج المسرحية و المشرف على تنفيذها، و الممثلون هم المتهمون في هذه المسرحية.

و قد أصبح مسرح من صلب واقعنا الفج المرير! و لذا لا تنتهي مسرحية و يسدل الستار عليها، حتى تبدأ مسرحية ثانية بممثلين جدد، لا تختلف بمضمونها عن المسرحية الأولى، إلا بممثلها. و أصبحت سلسلة تلفزيونية مهمة مثيرة، تعبّر عن مسرح التراجيدية الواقعية في العراق. و تهافت بعض الناس من المتحمسين إلى حضور المحكمة، ليشاركوا في ذلك السرك الهزلي التراجيدي، لإشباع رغباتهم الغريزية في الانتقام. و اتخذت المسرحية أبعاداً و جوانب أخرى، فكانت تتقلب أحياناً إلى "سوق عكاظ". يتنافس الحاضرون خلال مشاهدتها في قراءة القصائد الحماسية التي تلهب عواطف المشاهدين و تثير حماسهم. و أصبحت المحكمة تفوقاً لفظياً، و لكن كان رئيس المحكمة - المهداوي - هو الذي يفوز بالمنافسة النهائية، و يحصل على الجائزة القيمة بخطاباته الرنانة و حكاياته من القصة و الشعر و التاريخ القديم و الحديث، و تختتم عادة المسرحية بالتصفيق و الهتاف، فتلهب أيدي المشاهدين بالتصفيق، صارخين بأعلى أصواتهم بإطالة عمر الزعيم «الأوحد».

كان «المهداوي» يعتلي المنبر، يصول و يجول في نقد أعداء الثورة المتأمرين على الزعيم «الأوحد»! يتخلل التصفيق المحاكمة و تتوقف المحكمة لسماع الهتافات كلما

457 - "العراق في عهد قاسم، تاريخ سياسي 1958-1963"، أوريل دان، ترجمة: جرجيس فتح الله، دار نيز للطباعة و النشر، السويد- 1989، ص- 67

458 - « باستئناف الجلسات العلنية انقلبت محكمة "المهداوي" إلى ما دعي بسيرك "المهداوي" و هو الوصف الذي أطلق على الجو الذي سادها: الرئيس يُفلسف و يتقنعر و يصبّ الاهانات صبا على رؤوس المتهمين. القاعة تضج بهتاف "الكورس" من الشرفات، الشعراء، ينشدون قصائدهم التي تشيد بالمحكمة و بالشعب و الحرية و الاشتراكية. و أطرف ما فيها هو ذلك التجاوب الودّي، و تبادل عبارات المجاملة بين الرئيس و النظارة.»

"العراق في عهد قاسم، تاريخ سياسي 1958-1963"، أوريل دان، ترجمة: جرجيس فتح الله، دار نيز للطباعة و النشر، السويد- 1989، ص- 171

أنت على ذكر اسم الزعيم، مجلجلة بصوت واحد «يعيش الزعيم الأوحى يا يعيش» هازة بصداها جدران المحكمة!

أما المتهمون فكانوا يقفون كما يقف الممثلون في مسرح اللامعقول - بمفهومه السلبى المبذل - تحت رحمة الحاكم ينظرون بعيون باهتة زائغة من خلال قضبان القفص الحديدى إلى جمهور المتفرجين، لا يهمه إلا أن ينقض عليهم .
و لم يقتصر "مسرح المهداوى" على التفوق الكلامى و اللفظى وإنما عمت الفوضى إلى أقصى الحدود، عندما رميت الحبال من قبل المشاهدين تجاه المتهمين الواقفين فى قفص الاتهام، ممتزجة بالهتافات المطالبة بإرابة دمهم، مرددين: "ماكو مؤامرة تصوير و الحبال موجودة" و يتغلب الواقع على المسرح عندما يترك المشاهدون مقاعدهم مقتربين من المتهمين، مطالبين بدمهم!.

إن طلب الموت للمتهم و الاستهزاء به أثناء سير مرافعات المحكمة، يخالف عرف القضاء بأبشع و أقصى حالاته، و يعطل مفهوم عدالة القضاء و إنسانية الفرد. فقد سلب المتهمون فى "محكمة الشعب"، حق الدفاع عن أنفسهم، و جردوا من إنسانيتهم، و لذا لم ينضب عدد المشاهدين، بل كان فى ازدياد متواصل، فضاعت القوانين، و هيمن الحماس و الاندفاع فى الثأر من "أعداء الشعب"، و عادت الأغنية تتكرر و تعاد كترانيم الصلاة. و هكذا التحم الواقع المرّ بالمسرح، مسرح حياة العنف فى العراق.⁴⁵⁹

* * *

و تأسست أيضاً فى تلك الفترة، "المقاومة الشعبية"، و بدأ اختيار أعضاء المقاومة الشعبية بعد تركيتهم من قبل الحزب الشيوعى و تدريبهم السريع من قبل الجيش فى ساحة "أم الطبول"، غرب بغداد، و كانت البنادق تحفظ فى مشاجب الشرطة و تسلم عندما يبدأ منع التجول ليلاً. و حاول الحزب الشيوعى أن تحتفظ المقاومة الشعبية بأسلحتها فى النهار، و لكن لم يلب طلبهم عبد الكريم قاسم.

459 - « و أهملت المحاكم المدنية، و استعيز عنها بالمحاكم العسكرية، فيما ضربت محكمة الشعب التى رأس هيئتها العقيد فاضل عباس المهداوى، ابن خالة قاسم، أبرز الأمثال فى امتهان القضاء و العدالة و حقوق المتهمين. و من مشاهداها ان المحامين الذين كانت تنتدبهم للدفاع عن بعض المتهمين، كانوا يعلنون فى جلساتها خيانة موكلهم للثورة و للزعيم و يطالبون بإدانتهم.»

"أوكار الهزيمة، تجربتي فى حزب البعث العراقى"، هانى الفككى، رياض الرئيس للكتب و النشر، 1993 - لندن، ص - 114

« ان الإصرار الشيوعي على وجوب تسليح المقاومة الشعبية إنما كان غطاء يخفي تحته خطة بناء قوة ميدانية مقاتلة تحت تصرف الحزب الشيوعي. كان هذا الاقتراح عند تحقيقه سيسمح لأفراد قوة المقاومة الشعبية بالاحتفاظ بأسلحتهم النارية كجزء من التجهيزات الشخصية بدلاً من تسليمها لمستودعات الجيش بعد الفراغ من كل واجب... إلا أن المطلوب لم يتحقق و لم تعر الحكومة إذناً صاغية للإلحاح.»⁴⁶⁰

كان يجري تسجيل المتطوعين في المقاومة الشعبية بشكل علني في شوارع مدينة بغداد، مما أثار سخط الحزبين البعث و حزب الاستقلال اللذين كان لهما دور في تنظيم الثورة سياسياً و عسكرياً، و حاولوا الضغط على عبد الكريم قاسم في إيقاف تلك العملية، و لكن قرر الحزب الشيوعي الاستمرار بها بحجة "تصاعد مخاطر التآمر و التهديدات الإمبريالية"، و خوفاً من الوجوديين الذين سيستأثرون بالحكم بتشجيع من جمال عبد الناصر، و بقيادة عبد السلام عارف.

و اعتمدت المقاومة الشعبية بالدرجة الأولى على شباب من المدارس الثانوية و الكليات في بغداد و من عمال و فلاحين في القرى و الأودية. و تطورت صلاحية المقاومة الشعبية بمرور الزمن و شملت مراقبة "المتأمرين" على الحكومة، و الذين بدأت تزداد أعدادهم بكثرة عجيبة و غريبة!. فسادت الشعبوية و الغوغائية، و كان للحزب الشيوعي دور مهم في تأجيحها و تشجيعها. لكن التزام محمد شرارة الحزبي جعله يجد الأعداء في تلك الفوضى، التي اعتبرها فوضى طارئة، و إنها مرحلة انتقالية، إذ كان يؤمن من ان العراق محاط في تلك الفترة بأعداء في الخارج و الداخل، يحاولون الانقضاض على المكاسب التي حققها، لأن الثورة كانت عزيزة عليه. و كان يجد في الحزب الشيوعي، الذي انتقل من العمل السري إلى العمل العلني، الحزب الساهر على مكاسب الثورة و حاميتها. و لم يستطع أن يرى الأحداث بصورة موضوعية، بعيدة عن توجيهات الحزب و أوامره.

كانت السلطة في العراق، سلطة ظالمة، بأجهزتها الحكومية، و كان النظام الملكي نظاماً قمعياً دموياً، و جاءت ثورة 14 تموز في 1958، في إلغاء ذلك العهد، و فتح أمل في مخيلة الشعب العراقي ببزوغ عهد جديد. ربما كانت هذه المخيلة صحيحة

460 - "العراق في عهد قاسم، تاريخ سياسي 1958 - 1963"، أوريل دان، ترجمة: جرجيس فتح الله، دار نيز للطباعة و النشر، السويد - 1989، ص 236 - 237

قبل أن يعلن عبد السلام عارف "البيان الأول"، إذ انتقل العراق في هذا البيان من دولة ذات إطار دستوري كانت قد أفسدت من قبل السلطة، إلى شبه فوضى اللا دولة.

لم تستطع مخيلة محمد شرارة إدراك ذلك بعمق في تلك الفترة، و ذلك لفقدان الخبرة السياسية في معالجة النتائج المرتبة بعد الثورة، رغم إن موقفه و نظرتة الإنسانية في تحليل و تقييم الأحداث، قادتة منذ اليوم الأول الذي وصل فيه إلى النجف إلى الوقوف ضد الظلم و التعسف في الأمور، و لكن استمرار هذا الظلم و امتداده بالزمن، جعله يفقد لحد ما بعد ثورة 58، هذه الموضوعية التي زاملته في جميع مواقفه، أو أنشأت لفترة قصيرة، و اعتبر هذه الفوضى عابرة، و لا يمكن أن تستمر. لم يكن هو الوحيد الذي مرّ في هذا الوهم، بل شمل عدداً كبيراً من المفكرين و السياسيين التقدميين آنذاك، و ذلك لفقدان الخبرة و الموضوعية السياسية.

و السبب الثاني هو تكتل القوى الأخرى من القوميين و البعثيين ضد اليساريين و الشيوعيين، و تأليب الناس ضدهم باختلاق الأكاذيب و الإشاعات و المبالغة في الأحداث و تشويه الحقائق أحياناً. فقد بدأت حملة و اسعة موجهة ضدهم، بقيادة عبد الناصر و إذاعة صوت العرب، و بمباركة المخابرات المركزية الأمريكية التي كانت تعمل خلف الكواليس.

و تمثل هذا الانقسام الذي أصاب الشعب العراقي، في تأليه عبد الناصر من جهة و تأليه عبد الكريم قاسم من جهة أخرى.

« ففي الوقت الذي راح "قاسم" يرحب بالمظاهرات المعارضة للوحدة من شرفة وزارة الدفاع، كنت ترى "عارفاً" يخطب في حشود منافسة أمام البناية القريبة التي كان يشغلها مجلس الوزراء. و كان مستمعوه يهتفون و يجيبون على عباراته الطويلة بعبارة "نريد الوحدة لا الاتحاد الفدرالي" إذ كان هذا العمل تحدياً من "عارف"... و ليس هنالك ذرة و احدة من الشك في قناعة "قاسم" بأنّ "عارفاً" هو المسؤول الأول عن الانقسام الذي شق الشعب العراقي إلى راية الوحدة الفورية و إلى معارضي تلك الوحدة.»⁴⁶¹

461 - "العراق في عهد قاسم، تاريخ سياسي 1958 - 1963"، أوريل دان، ترجمة: جرجيس فتح الله، دار نيز للطباعة و النشر، السويد - 1989، ص - 105، 108

و كان لكلا الحزبين الشيوعي و البعثي دور في ذلك. إذ كان الكسب السياسي الآني هو ما يصبو إليه الحزبان في جميع تحركاتهما. و لم تكن هذه السلوكيات حالة طارئة. وإنما كان الشعب العراقي بعامته يعيش ضمن إيديولوجية المجتمع الأهلي الفئوي، المؤيد لها. و الذي لا يرى في القيادة إلا تعظيم و تبجيل الحاكم. و قد جاء عبد الكريم قاسم ليكون الشخص المناسب في هذا الموقع من إيديولوجية التبجيل.

* * *

كشفت لنا المقالات التي كتبها محمد شرارة في هذه المرحلة، التمسك و الالتزام في الحفاظ على مكاسب ثورة 14 تموز، و الخوف من الإيقاع بها من قبل المتآمرين على مكتسباتها.

كان ذا إنتاج غزير في تلك الفترة، حيث نشط في كتابة المقالات الأسبوعية مدافعاً عن الحركة التقدمية التي آمن بها و نذر نفسه في الدفاع عن مكاسبها. فكان ينشر أسبوعياً مقالاً في جريدة "الحضارة" تحت عنوان "تهلات طائر"، يؤكد فيه على مكاسب الثورة اليومية و المحافظة عليها. كانت معظم مقالاته عن الأوضاع المتأزمة في البلد، حيث كرّس معظم وقته في الكتابة و الرد على التهم و الأكاذيب التي كانت تكال لزعيم البلاد و للشيوعيين و اليساريين، إذ كانت معركة حامية بين الجانبين. كما انهمك في تلك الفترة في الرد على الصحف المتمثلة بجريدة "الثورة" و "الحرية" و "الفجر الجديد"، و كتابها الذين يتشدقون في القومية، و كان همه فضح ما يرمون إليه من قذف و اتهام الحركة اليسارية و الحزب الشيوعي العراقي. كان في قلب المعركة، جاعلاً قلمه يصد و يتحدى به مدّعي القومية، لأنه هو من المؤمنين بالإنسانية و القومية العربية، و وجد أن القومية العربية أصبحت نوعاً من الشوفينية. و أصبح يصد الهجوم تلو الهجوم في مقالاته، كالجندي الذي يصد الهجوم في المعارك الحربية.

* * *

عاد حسين مروة إلى بغداد في شباط من عام 1959، و التقى بالوالد هذه المرة في بغداد، بعد أن غاب عنها عقداً كاملاً عندما أسقطت عنه الجنسية العراقية في عام 1949.

بعد عودة حسين مروة بشهر إلى بغداد، حدثت محاولة انقلاب فاشلة في مدينة الموصل في 8 آذار عام 1959، بهدف الإطاحة بحكم عبد الكريم قاسم، فقام

المشاركون في الانقلاب في قتل عدد كبير من الشيوعيين و اليساريين قبل القضاء على المؤامرة و قتل قائد الانقلاب "الشوّاف" في اليوم الثاني، و أصبح الانتقام هو القاعدة،⁴⁶² إذ رد الشيوعيون عليهم بالمثل، و استمرت المذابح في شوارع مدينة الموصل لبضعة أيام، من قتل و سحل في شوارع المدينة، و الذين نجوا من الموت، أصبحوا في غياهب المعتقلات!! و قد عانى اليساريون و الشيوعيون بدورهم من التهديد بالقتل، و الاغتيال و أول من اغتيل "كامل قزانجي"⁴⁶³ و كتب محمد شرارة مقالاً بعنوان "أعراس الشهداء"، شبه فيه القائمين بالاغتيال بالعقارب و الأفاعي التي تنفث سمومها عندما تجد المنفذ المناسب لها:

462 - و كتب عن ذلك بهاء الدين نوري:

« و قد وجدت ان محاولة نظمت من الشوّاف و بعض أعوانه و بعض العناصر الرجعية من العائلات الارستقراطية في الموصل و من شيوخ العشائر. و إن عبد الناصر كان مشاركاً فعلاً في هندسة و تنظيم العملية و كان مخطئاً في حساباته. و كان عدد الضحايا من الشيوعيين و سائر مؤيدي السلطة قرابة مئة شخص مقابل 40 شخصاً من ضحايا الطرف الآخر. و قد طغت نزعة الثأر على سلوك المسؤولين المحليين للحزب الشيوعي فقتلوا 17 شخصاً - و هم ضمن الأربعة قتيلاً - من أبرز الخصوم السياسيين المؤيدين لمحاولة الانقلاب، في وقت كانت المحاولة قد قمعت.

«... رغم التطرف، و رغم وجوب شجب ما قام به رفاقنا هناك فان من الإنصاف أن يشجب أولاً سلوك و جرائم رؤوس التمرد العسكري الذين قتلوا، خلال اليوم الأول من التمرد، ستة أضعاف هذا العدد، بينهم المحامي الديمقراطي البارز كامل القازانجي.»

"مذكرات بهاء الدين نوري - سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي"، دار الحكمة - لندن، الطبعة الأولى 2001، ص 270-271

- الارستقراطية: يستعمل بهاء الدين نوري و الحزب الشيوعي مصطلح الارستقراطية، كما يستعمله آخرون لوصف بعض عائلات أصحاب الأراضي الزراعية و التجاري في المجتمع العربي و العراقي، و هو استعمال غير صائب. إذ أن شروط ظهور الارستقراطية هي: أولاً أن يكون في تنظيم المجتمع مجلس سلطة إدارة المجتمع، و يرتقي أعضاء هذه الطبقة تلقائياً إلى عضوية المجلس. ثانياً، إن وظيفة هذه الطبقة في المجتمع هو أن ترعى مصالح الإقطاع ضد مصالح سلطة الملك. ثالثاً، يفترض أن يكون هنالك تقدم في الإنتاج الزراعي، لكي يؤلف قاعدة لظهور طبقة غنية لعدة قرون، لها دور رئيس في إدارة المجتمع، و لم تحصل هذه الشروط في المجتمع العراقي أو العربي. (رفعة الجادرجي).

463 - "كامل قزانجي": شخصية وطنية معروفة، و مدرس ذو ثقافة واسعة، أصبح عضواً في الحزب الوطني الديمقراطي أثناء تأسيسه في عام 1946، تزعم ما سماه جناحاً يسارياً داخل الحزب، و اعتبر ذلك خروجاً على مبادئ الحزب فأنهت عضويته في عام 1947، حكم عليه بالسجن عام 1949، كما أسقطت عنه الجنسية العراقية عام 1955، مع مجموعة من المثقفين الشيوعيين و اليساريين و أعيدت إليه بعد ثورة 14 تموز عام 1958، و كان بالصدفة في الموصل أثناء مؤامرة "الشوّاف"، و اعتقل من قبل المتآمريين، و قرروا القضاء على المحتجزين، و كان أول من أطلق النار عليه. (ب ش)

« كانت الجريمة السوداء تختبئ في رؤوس اللصوص كما تختبئ العقارب في تقوئها، و كانت تتلوى هناك كما تتلوى الأفاعي المخنوقة التي تبلع سمها و هي تحاول أن تنفثه على الحياة. و كانت تبحث عن ثقب تستطيع أن تنطلق منه لتتشر الرعب، و الموت و السواد، و كل ما في قلبها من ضغائن و أحقاد على الزهر و الضياء و البراعم التي تتفتح في موكب الربيع ... و لأن كامل قرانجي كان مدرسا، فقد امتد موكبه من الاعظمية، دار المعلمين الابتدائية، حتى باب المعظم، و قد شارك بها مختلف المنظمات و النقابات و المدارس من البنين و البنات ... و عاد الموكب إلى الحركة، و شارك الشهيد إلى مثواه، و ظلت الريح تذيع تمتمة الأزهار.»⁴⁶⁴

و على أثر فشل حركة الشواف، خرجت التظاهرات الضخمة المنظمة من قبل الحزب الشيوعي « التي غصّ بها شارع الرشيد مطالبة "قاسم" بالقضاء على المتآمرين، تطهير الجيش و الإدارات، تسليح الجماهير، الانسحاب من حلف بغداد فوراً، اتخاذ إجراءات قانونية و دبلوماسية و وقائية ضد البلدان التي ساهمت في العدوان على البلاد.»⁴⁶⁵

و في 16 آذار و وقع اتفاق تعاون اقتصادي و فني مع الاتحاد السوفيتي، و في 24 آذار 1959، أعلن عبد الكريم قاسم للصحفيين بين الهتاف و التصفيق انسحاب العراق من حلف بغداد، كما ساءت العلاقات مع الجمهورية العربية المتحدة و سحبت المدرسين و الخبراء الفنيين المصريين في بداية شهر نيسان 1959. كما بدأ التطهير في صفوف الجيش، و عزل ضباط مقتدرون و حل محلهم يساريون، للتخلص من العناصر العدوّة و المتآمرة. و لم يحظ الشيوعيون بالمناصب الحساسة في الجيش أو في المناصب الإدارية المهمة، بل بقيت مناصب المحافظين في الأولوية و القائمقامين في الأفضية بعيد عن منالهم.

عندما مارس الحزب الشيوعي الضغط بصدد المشاركة في الحكم، من خلال إعادة الحياة إلى جبهة الاتحاد الوطني، كرر قاسم معارضته « لقيام الأحزاب و التكتلات

464 - نهلات طائر "أعراس الشهداء"، محمد شرارة، جريدة الحضارة 1959/3/21

465 - "العراق في عهد قاسم، تاريخ سياسي 1958 - 1963"، أوريل دان، ترجمة: جرجيس فتح الله، دار

نيز للطباعة و النشر، السويد - 1989، ص- 229

في الوقت الحاضر لأن ذلك سيأتي فيما بعد... إذ ليس هناك و جود لزمرة من الشعب تحاول السيطرة عليه.⁴⁶⁶

* * *

أدت أعمال العنف في الموصل إلى صراع دموي، دار هذه المرة بين الأكراد و التركمان في مدينة كركوك، و قتل و سحل عدد من أهالي المدينة، و أدت حلقة العنف إلى ردود فعل بدورها، و إلى هوة عميقة بين القوتين الرئيسيتين بعد أحداث الموصل و كركوك. و خلفت جرحاً عميقاً، و زاد الانقسام بين الفئتين من البعثيين و أنصارهم القوميين، و الشيوعيين و أنصارهم اليساريين. و سهل اختراق الجبهة الداخلية من قبل الغرب، و خاصة الولايات المتحدة، التي سعت لتوسيع عوامل الصراع و الانشقاق الداخلي في العراق.

كان محمد شرارة ضد أعمال السحل و العنف التي حدثت في مدينتي الموصل و كركوك، و لكنه لم يكتب و لو مقالاً واحداً يندد بتلك الأعمال، لأن هاجس الخوف على الثورة كان ملازماً له كظله، متوجساً دائماً من أن أعداء الثورة سينقضون عليها، لذا وجب الدفاع عنها بكل ما آتاه من قوة. و لأنه كان ملتزماً حزيباً، و خوفه على الحركة التقدمية من أعدائها و التي ناضل من أجل نجاحها، فلم يكن باستطاعته توجيه النقد إلا للرأسمالية! كما إن القيود الحزبية لا تسمح إلى المفكر في أن ينتقد الحزب بصراحة، كغيره من الأحزاب و المنظمات الشمولية و الأصولية.

كان موقف حسين مروة مشابهاً لموقفه أيضاً،⁴⁶⁷ فلم يعترض على ما حدث من سحل و قتل في الشوارع، دفاعاً عن الثورة.

و لم يصدر تقرير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، الذي نشر في جريدة الحزب "اتحاد الشعب"، إلا في 1959/8/3، حيث ذكر: « هو موقف اللامبالاة الذي وقفه الحزب من "تجاوزات" معينة كـ "سحل الجثث، و تعذيب الموقوفين و النهب و

466 - المصدر نفسه، ص- 264

467- مقابلة مع كريم مروة، بتاريخ 2008/2/12، الذي اعتبر:

« إن موقف الحزب الشيوعي العراقي كان موقفاً بعيداً عن الصواب في تأييد السحل و القتل، و قد أعطوا تضحيات كبيرة بسبب هذا الموقف.»

- و قال: الكاتب و الصحفي محمد دكروب في المكالمة التلفزيونية بتاريخ 2008/3/3، « إن الحزب الشيوعي اللبناني لم يؤيد السحل و لكنه لم يصدر أي بيان ضده.»

السلب و الاعتداء على حقوق المواطنين و حرياتهم" هذه كلها كانت من أعمال "الجمهور الذي يفتقر إلى الوعي السياسي" إنها حصيلة جانبية "لعمل تلقائي" هو النتيجة الطبيعية لأربعين سنة من القمع و مصادرة الحريات. إلا أن واجب الحزب كان تأمين السيطرة على هذه المبادرات و قد أهمل واجبه.⁴⁶⁸

* * *

و كتب محمد شرارة مقالاً بعنوان "متأمرون" عدد فيه المؤامرات التي حيكت في تلك الفترة القصيرة بعد ثورة 1958:

« و كانت المؤامرة الأولى التي انكشفت في مهدها، و هوى عبد السلام عارف، كما يهوي الشهاب، و تحول إلى رماد تافه، و أعقبتها المؤامرة الثانية، و انكشف القائد القديم الجديد ... و وقع رشيد عالي الكيلاني كما تقع الشجرة المنخورة... و جاءت المؤامرة الثالثة و في رأسها كل أحقاد الفاشلين و الموتورين و استطاعت أن تخفي وجهها لحظات عن الشعب و أن تحفظ أسرارها ثواني معدودات، حتى إذا مضت الثواني تمزقت أشلاء، و تطايرت كما يتطاير الريش في الزوبعة. و تمزق الشواف كما تتمزق الخيوط الواهية التي تحاول أن تشد الدولاب السريع لتوقفه عن الدوران.»⁴⁶⁹

و اتضح إن لعبد الناصر يداً في محاولة الانقلاب الذي قام به "الشواف"، و انطلقت الإشاعات ضد العراق، في داخله و خارجه، و كان لإذاعة صوت العرب يد في بث الإشاعات الكاذبة، فقد اتهم الشيوعيون و اليساريون بتمزيق و حرق القرآن أمام باب وزارة الدفاع، ليؤلبوا الناس ضدهم، و انتشرت الشائعات في جميع أنحاء بغداد، حول هذه الحادثة، و تعددت الأماكن، فلم يقتصر على وزارة الدفاع و إنما منهم من شاهده يمزق في حي الأعظمية أمام جامع أبو حنيفة! فكتب محمد شرارة مقالاً بعنوان "تمزيق القرآن":⁴⁷⁰

468 - "العراق في عهد قاسم، تاريخ سياسي 1958-1963"، أوريل دان، ترجمة: جرجيس فتح الله، دار نيز للطباعة و النشر، السويد-1989، ص 288-289

469 - نهلات الطائر "متأمرون..!"، محمد شرارة، جريدة الحضارة، 1959/3/14

470 - « أما تمزيق القرآن في الحادثة الشهيرة (و يقصد حسن العلوي هي جمع رماد القرآن من الشارع بعد سنتين) التي قيل أنها وقعت في مظاهرة للحزب الشيوعي أمام وزارة الدفاع و التي بقرار المحكمة العرفية. و لا ندري كيف تم ذلك و من للشيوعيين بقرآن حتى يمزقوه. و لماذا يمزقونه أمام وزارة الدفاع. إن أحداً لم يسأل ما دام ثلاثة شهود قد أقسموا أنهم شاهدوا هؤلاء يمزقون القرآن! و أغلب الظن

« الاستهتار بالقيم، و الإسفاف في الأكاذيب ضرب الرقم القياسي، و ارتفع فوق الذرى في الجمهورية العربية المتحدة ... إن عبد الناصر... راح يستعين على تغطية جرائمه بالكنايس و الجوامع، و يثير على العراق رجال الدين بعدما حاول أن يدخل في روعهم إن العراق عدو الدين.»⁴⁷¹

و كتب مقالاً آخر عن تدخل جمال عبد الناصر في شؤون العراق الداخلية: « بعد أن أخفقت فتنة الشّواف، اقتنع أكثر الناس إن أصابع الرائد العتيد للقومية العربية كانت وراء الفتنة تمدها بالرصاص ... و كانت للشك مبرراته، فقد كان الرئيس يكرر في خطبه القديمة إن الوحدة يجب أن تتم عن طريق القناعة و عن طريق الإيمان الشعبي الواسع بأنها ضرورة. و إن الشعوب وحدها هي التي تقرر لها الظرف و تختار الزمن المناسب. و لكن فتنة الشّواف و ما سبقها من مؤامرات كشفت أن الكلام القديم لم يكن أكثر من تكتيك مؤقت...»⁴⁷²

و استمرت حملة الشائعات بكل قواها ضد عبد الكريم قاسم و الحزب الشيوعي و اليساريين، فكتب مقالين بهذا الصدد رد فيهما على تلك الأكاذيب، أحدهما بعنوان "بغداد و أمواج التتر!!" حيث استغرب محمد شرارة من التغيير الذي طرأ في موقف جمال عبد الناصر المعادي تجاه العراق، و قد خاب ظنه بموقفه و دوره في العراق، إذ كان من المعجبين بمواقفه قبل ذلك. أما المقال الثاني فهو بعنوان "وراء الأكاذيب" و يعود ثانية إلى قصة تمزيق و حرق القرآن التي اتهم القوميون و البعثيون، الشيوعيين بهذه التهمة، و كان لعبد الناصر يد في تلك الشائعات، فكتب:

« لقد كان الرجل أسطورة في أذهان كثير من الناس. و كان معجزة أنزلها الله على العرب لينقذهم من المصير الأسود الذي خطه الخونة في مأساة فلسطين. ... و إذا الأسطورة قائمة على الخرافة فقط. ... لقد كانت فجيحة أولئك المؤمنين بالرجل لدرجة كبيرة ... و كانت فجيحة تهد الأعصاب. و كانت أكذوبة "حرق القرآن" أو

هم الشهود الذين مزقوا القرآن. إن العقيد شمس الدين عبد الله ظاهرة فريدة في الحكومات و الأنظمة. معارض كبير يقاضي أنصار الحكومة و يحكم على محبي زعيمها بالسجن، فكيف حصل هذا و هل كان عبد الكريم قاسم متقصداً في تعيينه رئيساً للمجلس العرفي حسب نظرية التوازن التي اعتمدها في حكمه.»

"عبد الكريم قاسم - رؤية بعد العشرين"، حسن العلوي، دار الزوراء- لندن 1983، ص- 48

471 - نهلات طائر "تمزيق القرآن"، محمد شرارة، جريدة الحضارة 1959/3/28

472 - نهلات طائر "معركة الإشاعات" محمد شرارة، جريدة الحضارة، 1959/6/27

"تمزيقه" من أكبر الفجائع التي نزلت بأولئك المؤمنين الذين وضعوا أصابعهم في آذنه، و سدوها حتى لا يسمعون بقية الخبر!⁴⁷³

* * *

شمل الوضع المتفجر حتى علاقات الصداقات الحميمة القديمة بين الأصدقاء، فتوترت العلاقة بل انقطعت بين محمد شرارة و الشاعر بدر شاكر السياب، و كان الوالد في حيرة من موقف بدر، عندما كتب في جريدة "الحرية" البغدادية سلسلة من المقالات بعنوان "كنت شيوعياً" مهاجماً فيها الشيوعيين و اليساريين، متهما حسين مروة بالطائفية، و محمد شرارة بالشعبوية، حيث يشير بدر إلى مناسبة الأربعين التي أقيمت في و ثبة عام 1948:

« أما كلمة محمد شرارة فقد كانت مخصصة للهجوم على الحجاج، هذا البطل الذي أراد أن يحمي الكوفة من الغزو الفارسي الشعبي و الذي وضع نظاماً خالداً ألا يدخل الكوفة إلا عربي». ⁴⁷⁴ و قد وصلت مقالاته درجة الإسفاف، فقد كان هجوماً حاقداً لا عقلانياً.

لكن عانى بدر كما عانى غيره من الذين لم يلتزموا بسياسة الحزب. لم يبتعد بدر عن الأجواء السياسية عندما شعر بخيبة أمل بالثورة التي فرح بها و حياها بقصيدة، و بالمبادئ الماركسية التي كان يؤمن بها، و لكنه عندما انحاز إلى القوميين، حمل الحزب الشيوعي عليه حملة عنيفة، و حاربه بكل ما أوتي من قوة، عندما رفض التوقيع بإدانة انقلاب الشواف كما رفض التوقيع على عريضة ضد جمال عبد

473 - نهلات طائر "وراء الأكاذيب"، محمد شرارة، جريدة الحضارة 1959/4/18

474 - "كنت شيوعياً" بدر شاكر السياب، دار الجمل 2007، ص- 85

- و التي دعي للمشاركة فيها كل من محمد شرارة و بدر السياب لإلقاء كلمة بهذه المناسبة. و انتقد بدر كلمة محمد شرارة بعد أكثر من عقد في جريدة الحرية.

ظل محمد شرارة مجروحاً و ممتعضاً إلى درجة الأشمزاز من المقالات التي هاجم فيها بدر أصدقاءه من الشيوعيين و اليساريين، فقد أصيب بخيبة أمل في سلوكية بدر التي كانت بعيدة عن اللياقة و الأدب و الاحترام، و شعر انه قد خسر صديقاً و علاقة فكرية حميمة عاشت خلال الأعاصير السياسية و الفكرية لأكثر من عقد و نصف، و ظل متألماً طيلة حياته من الأكاذيب التي اختلقها بدر بحقه في عدد من المقالات التي نشرها في جريدة "الحرية". شعرت بألمه الدفين عندما اقترحت عليه أن يكتب عن بدر و يقيم شعره بعد وفاته بعقد تقريباً، أجبني ممتعضاً و منفعلًا: « كيف تطالبين مني الكتابة عن بدر، بعد وحل الأكاذيب التي لصقها بي؟». شعرت إن الجرح لا يزال عميقاً، بالرغم من الأعوام التي مضت، فلم يندمل في أعماقه بل ظل حيا. (ب.ش)

الناصر. تعرّض بدر على أثرها لمضايقات وإهانات أدت إلى الوشاية به و اعتقاله لبضعة أيام و خسارته وظيفته. « و قد روى جبرا إبراهيم جبرا، كيف كان بدر متجهاً ليزوره فتعرض له الشيوعيون في الشارع، و شتموه و أجبروه على حمل صورة عبد الكريم قاسم في شريط على ياقة معطفه.»⁴⁷⁵ و على أثر ذلك انهار بدر تحت تلك الضربات، و ما إن بدأ بندول عبد الكريم قاسم يميل إلى اليمين و البعد عن الشيوعيين و اليساريين، حتى هب في كتابة سلسلة من المقالات في جريدة "الحرية" بعنوان "كنت شيوعياً" نشرت في منتصف آب سنة 1959 و أنقلب إلى عدو يهاجم المفكرين اليساريين و الشيوعيين بلا هوادة.⁴⁷⁶

* * *

لم تمض إلا بضعة أشهر على تكوين الوزارة الجديدة، حتى استقال منها الوزراء الممثلون لحزب الاستقلال و حزب البعث. و كان كامل الجادرجي من المؤيدين لاستقالة وزراء الحزب الوطني الديمقراطي من الوزارة أيضاً.

« و في العشرين من شهر أيار و جهة ضربة جانبية قاسية للحزب الشيوعي العراقي، إذ أصدر الحزب الوطني الديمقراطي بياناً أعلن فيه رغبة وقف نشاطه السياسي "خلال فترة الانتقال". و نزولاً عند رغبة "قاسم".»⁴⁷⁷

أدى ذلك التجميد إلى الانقسام في الحزب الوطني الديمقراطي في تلك الفترة، بين قطبيه كامل الجادرجي و محمد حديد. إذ أصر محمد حديد على « ان التجميد هو مخالف لنظام الحزب الداخلي و هو لذلك لا يلزم إلا أولئك الذين أصدروه.»

كان كامل الجادرجي، ضد السياسة الفوضوية و الشعبوية، التي اتبعتها عبد الكريم في إدارة سياسة شؤون العراق، و شعر أن البلد مقدم على كارثة إن استمر على هذه الحالة. و كان يشكو من التعب بسبب النوبة القلبية التي تعرض لها في بداية

475- "بدر شاكر السياب - حياته و شعره" ص- 142، عيسى بلّاطة، المؤسسة العربية للدراسات و

النشر، الطبعة السادسة، 2007

476- مكالمة تلفونية مع لميعة عباس عمارة في 2007/12/17، سنديغو - الولايات المتحدة

« و لم ينح بدر من المعاملة القاسية حتى في باريس، عندما بُعث للمعالجة في أحد مستشفياتها. و كان عزيز الحاج عضو اللجنة المركزية في الحزب الشيوعي، في باريس، يوصي الذين يلتقون ببدر في الطريق: باحتقاره و عدم معاملته باحترام، لأنه انقلب على الحزب الشيوعي.»

477 - "العراق في عهد قاسم، تاريخ سياسي 1958-1963"، أوريل دان، ترجمة: جرجيس فتح الله، دار

نيز للطباعة و النشر، السويد- 1989، ص- 265

عام 1959، فسافر إلى موسكو و قضى الصيف في إحدى مصحاتها، كانت سفرة في واقعها للراحة، و في الوقت نفسه، الابتعاد عن الفوضى التي شملت جميع مرافق الحياة في العراق.

و كتب محمد شرارة مقالاً استغرب فيه من تجميد الحزب الوطني الديمقراطي، و اعتبر ذلك بداية إلى "الانتعاش الرجعي و عودته إلى مسرح الحياة بكل ما في النفس الرجعي من جرائم":

« و قيل لنا يومئذ إن الحزب الوطني الديمقراطي هو الذي يحمل هذه المرة لواء المناوشة. و قلنا يومئذ للرواة - يستحيل! فإن الحزب الوطني الديمقراطي أشرف من أن يخوض معمة دنيئة، و له من ماضيه سجل مشرف يستحيل أن يخرج عليه أو يلوته بهذه السرعة ... لكن فوجئ الناس "بتجميد الحزب الوطني الديمقراطي أعماله" فعلت الوجوه سحابة من الوجوم، و ارتسمت في الأفق علامات الاستفهام و الإنكار، و تأسف كثير من أصدقاء الحزب - و نحن منهم - لهذه المبادرة الغربية...»⁴⁷⁸

* * *

لم يتوقف محمد شرارة عن كتابة المقالات ضد الحملة المكثفة التي شنت على العراق. و استغرب من أن يشترك في تلك الحملة كاتب و أديب بمستوى طه حسين، فكتب مقالاً بعنوان "إننا نتحداكم":

« و قد وقع طه حسين نفسه الذي كان في يوم من الأيام ضحية من ضحايا إرهاب عبد الناصر في الإثم الذي وقعت به صحافة القاهرة و إذاعاتها، فوصفت بغداد و صفا يخيل لقارئه إن بغداد و اقعة تحت حكم العصابات! ... و لكن الذي يجري في بغداد و في محكمة الشعب يجري تحت العيون المفتوحة و الأضواء الساطعة. و لم يجر شيء منه في الظلام أو وراء الكواليس، و كان الجدير بطه حسين أن يتحدث عن شوقي بغدادي، و ليان ديراني، و محمود أمين العالم، و عبد العظيم أنيس و ما يلاقونه من أجهزة عبد الناصر قبل أن يتحدث عن "دار السلام".»⁴⁷⁹

بعد فشل انقلاب الشواف، بدأت "محكمة الشعب"، في بث المسلسلة الثانية عن "متأمري الشواف"، و ذلك بعد أن أسدل الستار على مسرحية "العهد المباد". و

478 - نهلات طائر "معركة الإشاعات!" محمد شرارة، جريدة الحضارة، 1959/6/27

479 - نهلات طائر "إننا نتحداكم"، محمد شرارة، جريدة الحضارة/ 1959/5/16

أصبحت المسرحية هذه المرة أكثر ضراوة و عنفاً. و شاركت شريحة من الناس في هذه الدراما، من المتعاطشين للدم، الذين كانت تملو هتافاتهم بين الآونة و الأخرى، "اعدم، اعدم" و أصبح العنف الكلامي في "محكمة الشعب"، يقابل من قبل البعثيين و القومييين، بالاغتيالات الفردية لأعضاء الحزب الشيوعي و اليساريين.

و كتب هاني الفكيكي عضو القيادة القطرية لحزب البعث آنذاك: « بدأت فترة أواخر 1959 و أوائل 1960 تشهد تفشي عمليات اغتيال فردي تطال الشيوعيين في سائر أنحاء العراق، و لاسيما الموصل و كركوك. و هذه العمليات جاءت في معظمها تأرية ... و لا أذكر ان حزب البعث شجب هذه الاغتيالات أو حاول الوقوف في وجهها، بل يمكنني القول اننا في بعض المناطق و الأحياء شجعناها و رعيناها من دون أن يكون ثمة دور مكشوف أو مباشر للحزب...»⁴⁸⁰

* * *

و قبل أن ينتهي عام 1959، عينت الدكتورة نزيهة الدليمي وزيرة البلديات، بعد حملة ضغط لتعيين وزراء للحزب الشيوعي، و ارتاح محمد شرارة لهذا التعيين، فقد اعتبر تعيينها انتصاراً و مكسباً من المكاسب المهمة التي حصل عليها الحزب الشيوعي، و أحد مكاسب الحركة التقدمية. إذ كانت نزيهة عضواً مهماً في الحزب الشيوعي. فقد تولت مناصب عديدة في الحزب، و توج نشاطها الحزبي في تعيينها وزيرة البلديات، إضافة إلى رابطة الصداقة التي كانت تربطه بها و بعائلتها التي تعود إلى عام 1946، و كان معجباً بنشاطها و مثابرتها و إخلاصها في عملها.

فنزلت على أثر ذلك التظاهرات مؤيدة الدكتورة نزيهة، بتنظيم من الحزب الشيوعي، حيث وصل الحزب لأول مرة إلى دفة الحكم.⁴⁸¹ و عجت شوارع بغداد بالناس هاتفة بحياة الزعيم و منددة بحزب البعث. كانت الجماهير تردد هتافات: "نزيهة صارت بالحكم موتوا يا بعثية" و "عاش زعيمى عبد الكريمى/ حزب الشيوعي بالحكم مطلب عظيمى". هذا التطرف بأسلوب العمل، و التشجيع على

480 - "أوكار الهزيمة، تجربتي في حزب البعث العراقي"، هاني الفكيكي، رياض الريس للكتب و النشر، 1993 - لندن، ص - 167

481 - عيّن عن اليساريين وزير الاقتصاد إبراهيم كبة في أول وزارة بعد ثورة 14 تموز 1958، و لكن كانت الدكتورة نزيهة الدليمي عضواً مهماً في الحزب الشيوعي. و أعفيت من منصبها في 15/11/1960، (ب.ش)

الانتقام من أعداء الثورة، و المديح لرئيس الوزراء، خلقت هالة من التقديس حوله، عندما نعت بـ "الأوحد"⁴⁸²، إذ إن صفة الأوحد التي أُسبغت على عبد الكريم قاسم هي صفة نقلته من واقعه الطبيعي إلى موقع خارج الوجود الطبيعي أي منحه صفة التقديس. و صدّق الناس الذين خلقوا منه زعيماً أنه الأوحد، و صدّق عبد الكريم قاسم بذلك و تمسك بهذه التسمية، التي أضفت عليه سمة التقديس.

و بدأت عبادة البطل كما هي الحال في الاتحاد السوفيتي، فخلقت صور عبد الكريم على الجدار الخاص بوزارة الدفاع، كما راجع النحات خالد الرحال مكتب عبد الكريم قاسم و بيّن له انه مستعد في عمل تمثال له، فكلف بذلك، بعد أن أهمل رفعة الجادرجي طلبه، في وضع تمثال له في نصب 14 تموز.⁴⁸³ و لكن لم ينته عام 1959 بسلام، بل صليت سيارته في مساء السابع من تشرين الثاني، بوابل من الرصاص عندما كان ماراً في شارع الرشيد، و لكنها كانت محاولة اغتيال فاشلة من قبل أفراد حزب البعث الاشتراكي، و قد نجا بالصدفة.

فكتب محمد شرارة مقالاً بعنوان "دولة الاغتيال"، عن تكتيك حزب البعث العراقي في نشر الأكاذيب، و هو الذي تأمر على اغتيال عبد الكريم، و لكن أشيع من إن الشيوعيين هم الذين حاولوا اغتياله:

« و قد اعترفوا أنهم هم أطلقوا النار على الزعيم، و أنهم أرسلوا له بعد ذلك برقيات التهاني بالنجاة، و أنهم اتهموا في برقياتهم الشيوعيين، و ألقوا تبعة الاغتيال عليهم!! و اعترفوا إن عبد الناصر بعث لهم برقية يطلب فيها "العجلة" و "سرعة

482 - « يقول حنا بطاطو عن عبد الكريم قاسم: "ربما يكون تعبير (الزعيم الأوحد) قد ولد على لسان متعلق لا قيمة له، و لكنه كان لهذا التعبير أن يكون صياغة سياسية جيدة الإعداد. و أول ما استعملت هاتان الكلمتان - كما هو مؤكد تقريباً - في تشرين الأول 1958، و من قبل ضابط صغير من المحيطين بقاسم...» و قد تبنى الشيوعيون "قوراً هذا الشعار و نشره على أوسع نطاق ممكن".»

"من يصنع الدكتاتور؟ صدام نموذجاً" سلام عبود، منشورات الجمل، كولون- ألمانيا 2008، ص- 64

483 - عندما قُدم رفعة الجادرجي صورة مصغرة لمنحوتات نصب الحرية في بغداد إلى عبد الكريم قاسم: « فتأمل قاسم في المعروضات قليلاً ثم قال بأن هذا النصب جيد لكنه لا يمثل ثورة 14 تموز بالذات، انه قد يكون نصبا رومانياً، أو نصباً في أي مكان... ثم أخذ يلمح بصورة توحى بأنه يطمح في أن تظهر صورته الشخصية في الوسط بدلاً من الجندي الرمزي... و مما زاد في همي أنني كنت قد سمعت قبل المقابلة ان خالد الرّحال كان قد راجع مقر الزعيم و أبلغ الحاشية (أو الزعيم) ان النصب يخلو من صورة الزعيم و ان هذا عمل مقصود و انه مستعد أن يقوم بالعمل بنفسه.»

"الأخضر و القصر البلوري - نشوء النظرية الجدلية في العمارة" رفعة الجادرجي، رياض الرئيس للكتب و النشر، لندن - قبرص، 1991، ص 101- 102

التنفيذ" و اعترفوا أنهم كانوا يفكرون بالاغتيال منذ شهر و اعترفوا بأشياء أخرى كثيرة نشرتها الصحف، و ستنتشر في كتب خاصة. ... و من حسن حظ العرب أن ينكشف عبد الناصر و ينكشف حزب البعث بهذه السرعة.⁴⁸⁴

و كان يعتقد محمد شرارة ان قواعد حزب البعث بريئة من أعمال القادة المسؤولين عن توجيههم، في الحزب، و كتب مقالاً بعنوان "حزب البعث":
« ... و نحن ما زلنا عند رأينا الذي أشرنا إليه في هذا الحقل قبل اليوم من وجوب التفرقة بين الهرم و القواعد في هذا الحزب و في كل حزب مثله. فالقاعدة قد تكون بريئة و لو أجرم الهرم الأعلى.»⁴⁸⁵

* * *

بالرغم من غزارة إنتاجه في كتابة المقالات السياسية في عدد من الصحف اليسارية التي كانت تصدر في تلك الفترة، إلا ان جميع تلك الأجواء المتقلبة الصاخبة، لم تبعده عن الجو الأدبي، فقد كتب في تلك الحقبة، عدداً من المقالات في النقد الأدبي و قيم فيها أعمال عدد من الشعراء العراقيين و العرب.⁴⁸⁶

و كتب بمناسبة وفاة الشاعر النجفي باقر الشبيبي ثلاثة مقالات. إذ كان يمثل الأمل في التغيير بالنسبة للجيل الصاعد من الشباب في النجف في فترة العشرينيات، و ذلك في نفص الأجواء الراكدة، حيث كان الشاعر من قادة الثورة على ذلك الركود،

484 - نهلات طائر "دولة الاغتيال" محمد شرارة، جريدة الحضارة 1960/1/2

- كان لجمال عبد الناصر دور كبير في مساعدة القوميين و حزب البعث مالياً و عسكرياً، و قد كتب هاني الفكيكي: « ذهبت إلى القاهرة برفقة حازم جواد و أخضعنا لدورة تدريب على أجهزة الإرسال و البث و الاستسلام دامت أسبوعين... بعد الدورة قابلت جمال عبد الناصر مرتين، أحدهما بمناسبة إجراء تمرينات عسكرية، و الثانية عندما تسلمت 30 ألف دينار من عبد المجيد فريد الذي بات مدير المكتب الخاص لعبد الناصر.»

"أوكار الهزيمة، تجربتي في حزب البعث العراقي"، هاني الفكيكي، رياض الريس للكتب و النشر، 1993
- لندن، ص- 161

485 - نهلات طائر "حزب البعث"، محمد شرارة، جريدة الحضارة، 1960/2/6

486- كما كتب في تلك الفترة مقالاً عن: "الجواهري، شاعر الكفاح العربي" الحضارة - 1958 /12/26، "الروح العاطفية في شعر الرصافي" جريدة، الثورة 1958، "الجواهري في مهرجان الجزائر" الحضارة- 1959، "شوقي و انتحار الشباب"، الأهالي، 1959/2/2، "البياتي في ديوانه الجديد (عشرون قصيدة من برلين) الحضارة 1959/9/19، "باقر الشبيبي خسارة وطنية و أدبية"، جريدة الحضارة، 1960/6/18، "باقر الشبيبي، خسارة وطنية.. كبرى" جريدة الحضارة، 1960/6/25 و "باقر الشبيبي .. في شعره السياسي" مجلة الأديب - 1960

و كانت داره منتدى أدبياً سياسياً يؤمه الناس على اختلاف طبقاتهم و مشاربهم. فكتب مقالاً بعنوان "باقر الشبيبي خسارة وطنية و أدبية" بمناسبة و فاتته:

« لما كنا نودع الطفولة و ندق أبواب الربيع في حياة الشباب، كان أسم الأستاذ باقر من الأسماء التي تملأ حياتنا بالحيوية، و تمدها بالعزم. لقد كنا يومئذ نشعر أن الحياة في النجف شبيهة بالماء الراكد، و إنها بحاجة إلى تحويل يبعث فيها الحركة و الفوران. فإذا ورد أسم باقر في خلال الأحاديث شعرنا أن التاريخ يتحرك في هذا الاسم كما يتحرك في الأسماء الأخرى التي تماثله، و شعرنا بأن أمانينا تتحد في إنسان له قيمته الاجتماعية.

« فلما بدأت النهضة كانت النجف من البلاد الأولى أو كانت في الطليعة التي يشار إليها في المحافظة على التراث، و قد كانت هذه المحافظة شيئاً كبيراً في الماضي ... شيئاً قادراً على قيادة الروح و الفكر. أما في الحاضر فلم تعد المحافظة على التراث كافية ... بل لم تعد لها القدرة على القيادة. و لكن النجف التي كانت بماضيها روحاً من أرواح الطليعة أصرت أن تبقى واقفة حيث كانت. أي إنها أصرت أن تبقى محافظة على التراث فقط، كما أصرت في الوقت ذاته أن يبقى بيدها و حدها عنان القيادة.

« في هذا الإصرار المزدوج ولد التصادم بين القوى الناشئة المتطلعة إلى فجر جديد، و بين القوى المحافظة التي تتكر على "الجديد" فجره، و تعتقد ان مثلها العليا هي المثل الوحيدة الخالدة، و تصر على أن تكون عقيدتها هي السيدة... و كنا نحن الشباب - يومئذ - نشرب هذه الأحاديث و نرتوي منها كما يرتوي الظائمون من مياة الينابيع الصافية.»⁴⁸⁷

* * *

أصبح عبد الكريم متخوفاً من قوة الحزب الشيوعي الذي تغلغل بين جميع طبقات الشعب، بما في ذلك الجيش. رغم أن الحزب الشيوعي كان حليفاً مهماً لقاسم، الذي ثبت دعائم حكمه. كان الحزب بسبب قدرته على التنظيم، ذا أسس متينة في المجتمع العراقي في المدن و قرى الشمال و الجنوب. لذا سمح له في أعقاب ثورة 14 تموز بنشر أفكاره بحرية و بإنشاء منظمات عاودت نشاطها، كرابطة حقوق

487 - " باقر الشبيبي خسارة وطنية و أدبية"، محمد شرارة، جريدة الحضارة، 1960/6/18

المرأة و اتحاد الشبيبة الديمقراطي العراقي و اتحاد الطلبة العام و النقابات العمالية و جمعيات الفلاحين. و كانت علاقة عبد الكريم قاسم بالحزب الشيوعي علاقة يشوبها الغموض، إذ كان أقرب إيديولوجياً إلى الحزب الوطني الديمقراطي منه إلى الحزب الشيوعي، لذا مال قاسم في تلك الفترة إلى الوسط و اليمين أحياناً، و بدأت الحملة على اليساريين من قبل الفئات المناهضة لهم.

و تكللت تلك الأعمال بقائمة اغتيال الأشخاص المهمين في الحزب الشيوعي و اليساريين النشطين. و وصلت الحالة في استئجار عصابات من القبضيات/ الشقاوات في تهجير و قتل الشيوعيين في مدينة الموصل. كما امتدت قائمة القتل و التهجير أحياناً، فشملت مئات الأسماء من أعضاء الحزب الشيوعي أو المتعاطفين معه، و كان من جملة الأسماء أسم محمد شرارة و ابنته حياة، و يؤكد على ذلك الوضع المبلبل ما كتبه "صالح مهدي دكلة":

« قبيل الذكرى الأولى لثورة تموز، بدأت حكومة قاسم في الهجوم على بعض مكاسبها الديمقراطية. فقبل أن تكمل الثورة عامها الأول بدأ هجوم غير معلن على الحركة الجماهيرية كغلق بعض النقابات و الجمعيات الفلاحية و تزوير الانتخابات فضلاً عن تسريح عدد من ضباط الجيش و إجراء تنقلات تقلص من دور الحركة الديمقراطية. في هذه الأجواء بدأ قاسم يُضعف دور القوى الديمقراطية و يعزز القوى الرجعية و القومية في أجهزة الدولة و في الجيش بشكل خاص ... و في 3-7 حزيران 1959، تلقيت تقريراً يفيد أن ثمة حركة انقلابية يعد لها بعض الضباط القوميون و القاسميون ... تهدف هذه العملية الانقلابية إلى الإطاحة بعبد الكريم قاسم و تصفية الحزب الشيوعي.»⁴⁸⁸

بالرغم من موقف عبد الكريم قاسم الغامض، كان « رد الفعل الشيوعي لهذه النكسات ينم عن مزيج من التردد و الخيبة الغضوب. و عبّر عنها قادة الحزب و الصحف الموالية بلهجة تختلف بين الحنق و الدهشة الأليمة. لم يشك الشيوعيون بزعامة قاسم الأمانة و لم ينكروا وجود "الهيئات الوطنية" المحيطة به. و ما عدا

⁴⁸⁸ - "من الذاكرة - سيرة حياة" صالح مهدي دكلة، دار المدى للثقافة و النشر - دمشق 2000، ص 57-59، و هو العضو الوحيد في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، الذي هرب و نجا من التعذيب و القتل في انقلاب 8 شباط 1963.

ذلك فقد قرر الحزب أن يعضّ على الشكيمة بأسنانه و ربما كان يعتمد في ذلك على عزوف "قاسم" عن الأذى».⁴⁸⁹

فقد كانت هنالك ثقة كبيرة زرعت في أعماق اليساريين و الشيوعيين، هو الدفاع عن عبد الكريم قاسم و عن الجمهورية الناشئة حتى و إن أصدرت هذه الجمهورية الأحكام القاسية بحقهم، أحكاماً بعيدة عن الإنصاف و العدل. و ذلك لأن الحزب الشيوعي ربط مصيره بمصير عبد الكريم قاسم، و ارتبطت مصائر أعضائه بهذا المصير. و لم يدع الحزب له أي منفذ آخر إلا الزعيم! حتى و إن تعرض أعضاؤه للسجن و التعدي فهم بجانب الزعيم! مؤيدون دائماً سياسته المعتمدة على مزاجه المتقلب. و هكذا تجلّى قصر نظر الحزب في توجيه سياسته. فقد حكم بالسجن على بعضهم و هم أبرياء، لكنهم لم يقفوا ضده، بل ظلوا و هم في السجن، يتغنون بإخلاص الزعيم و الدفاع عن الجمهورية الفتية! و كتب محمد شرارة بهذا المضمون عن أحد السجناء، بعنوان "قال لي":

« قال ذلك عهد مضى و دفعنا ثمنه من سجون و منافٍ و مشانق و مطاردة، أفلم يكن ما دفعنا له حتى جاءنا في العهد الأبيض و راح يسوق حماة الجمهورية إلى السجون، و إلى المشانق أيضاً؟ قلت إنها بقاياها لم تزل حية و هي تتغلغل في العهد الجديد و تنتشر سوادها في وجهه النقي، و تحاول تشويهه، و علينا نحن الوعاة أن نكشف هذه المحاولة و نبقي في خطوط الدفاع عن الجمهورية».⁴⁹⁰

و كتب مقالاً بعنوان "حلوى.. و أطفال!"، عن التنقلات التي أجرتها الوزارة بين موظفيها، و كان أول الغيث للسيطرة على وزارة المعارف من قبل المناوئين لليساريين و الشيوعيين:

489- إذ « كانت الضحية الأولى في التنقلات "عضبان السعد"، سكرتيره العسكري منذ الثورة ليشغل منصب الملحق العسكري في موسكو، و أُحيل على التقاعد العميد "داود الجنابي"، قائد الفرقة الثانية، و اعتقل "مهدي حميد" فكان أول شيوعي يقوم برحلة العودة، و نحي "سليم الفخري" مدير الإذاعة عن منصبه، و لحق به "عدنان البرّك" كبير المعلقين و أهمهم، و شمل أيضاً "عبد الباقي كاظم" مدير شرطة بغداد.»

"العراق في عهد قاسم، تاريخ سياسي 1958-1963"، أوريل دان، ترجمة: جرجيس فتح الله، دار نيز للطباعة و النشر، السويد- 1989، ص 269-270

490 - نهلات طائر "قال لي" - محمد شرارة، جريدة الحضارة، 1960/2/27

« هؤلاء الأطفال الكبار يحلمون بـ "توري السعيد" و "خليل كنة" و "حلف بغداد" و لجانه الثقافية العسكرية، و لجنته الخاصة بمكافحة المبادئ الهدامة. و يحلمون بتجسيد هذه الأمانى الحلوة في خيال الناديين على "الحلف" الذبيح، و على عاقيه ... ماذا حدث؟ عدد من الموظفين في جهاز الوزارة نقلوا إلى وظائف جديدة أصغر من وظائفهم السابقة في العرف المؤلف. و هذا أول الغيث - كما قالوا - أما ثوانيه فسينصب على نقابة المعلمين و اتحاد الطلاب و غيرهما من المؤسسات التابعة. و بذلك تتخلص وزارة المعارف من جميع الأخلاق المستوردة التي شاعت في العهد الجديد، و تعود إلى الفلسفة التي كانت تعيشها تحت ظلال خليل كنة⁴⁹¹ و تابعه، و يعود معها الفصل و المطاردة و السجون و التجويع و كل فضائل العهد الأسود الذي مزقته العواصف.»⁴⁹²

في العام الثاني لثورة 14 تموز، خرجت التظاهرات تسير في شوارع بغداد الرئيسية، و قد هوجم المتظاهرون بالضرب من قبل البعثيين و القوميين، فكتب محمد شرارة مقالاً عما حدث:

« و انتشر ضباب الإشاعات، و أثير الغبار الأسود، و انطلقت صحفهم في بغداد تغمز و تومئ إلى "مسيرة أيار" و ما انتهت إليه في الكرخ.. كل ذلك لتدخل في الرؤوس إن الذين صنعوا المأساة في أيار لا يزالون أحياء، و لا يزال السلاح بأيديهم، و لا يزالون "قادرين" على تمثيل الدور في مسيرة تموز. ... و العصابة التي ضربت الزعيم في شارع الرشيد هي التي ضربت بقايا المسيرة العائدة إلى البيوت،⁴⁹³ و الذين غضوا "أطرافهم" في ذلك اليوم حتى أريق دم الزعيم هم الذين يغمضون عيونهم هذا اليوم حتى تراق دماء الذين يساهمون بأفراح الشعب.»⁴⁹⁴

491 - "خليل كنة": أحد مؤسسي حزب الاستقلال، و المعتمد الثاني للحزب، و رئيس تحرير جريدة الحزب "لواء الاستقلال" في 1946. اختلف بعد أقل من شهر مع رئيس الحزب "محمد مهدي كبة"، و حل محله كرئيس لتحرير الجريدة فائق السامرائي. ثم تقلد مناصب عديدة في العهد الملكي، و أصبح وزير المعارف في بداية الخمسينيات. لم يكن شخصاً محبوباً من قبل الناس بسبب عرفتته. و كان السفير البريطاني "مايكل رايت"، يعتقد إن خليل كنة من الممكن أن يكون خلفاً لنوري السعيد في تولي منصب رئاسة الوزراء. (ب.ش)

492 - نهلات طائر "حلوى .. و أطفال!" محمد شرارة، جريدة الحضارة، 1960/7/9

493 - مكالمة تلفونية مع الشاعر كاظم السماوي بتاريخ 2008/5/8، ستوكهولم - السويد

« عندما كنت مديراً للإذاعة و التلفزيون العراقي، أصدرت جريدة "الإنسانية"، و كتب محمد شرارة مقالاً بمناسبة خروج مظاهرة في الكاظمية في تلك الفترة، و قوبلت المظاهرة بالرصاص من قبل الأمن. فكان

و قد تساءل مرارا عندما قيل له: « انه "صراع عقائدي"، فلماذا يباح لأحد جانبي "الصراع" أن يبرهن على عقيدته بالرصاص و "البوكس" و "السكين" و "الخنجر" و لا يباح للجانب الثاني أن يدافع عن نفسه و عن عقيدته أيضا بمثل السلاح الذي يهاجم به ما دامت السلطة على الحياد؟ و يتساءل "أليس الدفاع عن النفس من أوليات القانون الطبيعي.»⁴⁹⁵

أدت هذه المقالات الأسبوعية المتتالية التي كان يكتبها في جريدة "الحضارة" و الجرائد الأخرى، إلى العداء السافر له في حي الأعظمية الذي كان يقطنه. و حي الأعظمية من الأحياء المحافظة، التي كانت تدين بالولاء لعبد الناصر و من مؤيدي الوحدة الفورية آنذاك. فكتب مقالا بعنوان "حماية الشعب" عندما تعرضت داره إلى قذف بالحجارة من قبل بعض شباب الحي:⁴⁹⁶

« منذ سنوات كنا نسكن في الأعظمية، و كانت العلاقة بيننا و بين السكان الآخرين طبيعية، و لم يحدث بيننا و بين أحد خلال إقامتنا الطويلة هناك شيء من سوء التفاهم فضلاً عن الاعتداء ... و في صباح يوم من أيام آب كنت جالسا وراء المنضدة أدون بعض الملاحظات و إذا الحجارة تتهال على الباب و تدق رأسه حتى تهشم، تتعداه إلى النوافذ و تدك زجاجها ثم ترفرف فوق الشجرة الوحيدة الواقفة بقرب الباب و تمزق أوراقها، و تحطم أغصانها، و ما اعتادت قبلها أن ترى غير العصافير و الحمام. قمت من مكاني و نظرت من النافذة لأرى أبطال المسرحية و إذا بكوكبة من الصبيان يقودهم شاب اسمر عابس الوجه يشير بيديه و يومئ بعينيه

المقال ضد مديرية الأمن و رجالها. و بعثه إلى جريدتي، بعنوان "شمس و رصاص" و لم أدر من ان المقال كان ضد مديرية الأمن، فنشرته في الصفحة الأولى و كان ذلك في عام 1959، و في اليوم التالي بعثوا عليّ للتحقيق، و لكن انتهت القضية بسلام من دون عقاب لكلينا.»

494 - نهلات طائر "حفلات.. و ماتم" محمد شرارة، جريدة الحضارة، 1960/7/23

495 - و قد كتب هاني الفكيكي عضو القيادة القطرية في حزب البعث العراقي، عن تدريبهم على استعمال السلاح و تهريبه من سورية في تلك الفترة: « وقع الأمر إن السلاح كان يتم تهريبه مرتين، مرة عبر الحدود إلى العراق، و مرة قبلها من مخازن الجيش السوري إلى بيتي في أبو كمال، و كان على رأس المجموعة التي تؤمن ذلك العقيد أمين كمال، و الرائد إبراهيم الرفاعي و غيرهما من الضباط البعثيين. »
"أوكار الهزيمة، تجربتي في حزب البعث العراقي"، هاني الفكيكي، رياض الريس لكتب و النشر، 1993

- لندن، ص- 139

496 - لقد سكنت عائلة محمد شرارة لأول مرة في الأعظمية عام 1946، ثم عادت ثانية إلى حي الأعظمية في عام 1953-1959، و استقرت العائلة في الدار نفسها ستة أعوام، و انتقلت إلى حي الكاظمية بعد ذلك الحادث. (ب.ش)

و خلفهم نساء يتفرجن على المنظر الجميل الذي تنصب فيه الحجارة على جار من جيرانهم ... و أدركت من حينه إن الشكوى عبث، و التفكير بها سخافة، و قررت أن أغادر المكان إلى مكان آخر لا يعتدي فيه الجار على جاره، و لا يقود الشباب فيه مواكب الصبيان لتحطيم الأبواب و النوافذ، و تمزيق الأشجار أوراقها.»⁴⁹⁷

* * *

و لم يقتصر الوضع على التهجير و إنما عانى من الحكم عليه بالسجن في عهد "الزعيم الأوحده!!" عندما كتب مقالاً بعنوان "كرامة المعلمين" نشر في جريدة الحضارة، تطرق فيه: إلى إرهاب العهد المباد حتى وصل إلى انطواء ذلك الزمن و أهله و عندما و صل إلى العهد الجديد بدأه:

« و اعتقد الناس أنهم دخلوا في عصر جديد و إن تموز ما جميع المفاهيم السابقة و أحل محلها مفاهيم تتناسب مع روحه و فجره و اشراقته. و لكن العقائد - على ما يبدو- مسرفة في التفاؤل. فالمفاهيم التي ثار عليها تموز تحولت إلى أشباح و اختفت هنيهة في الكهوف. ثم أخذت تطل على الحياة إطلالة الأفراخ الخائفة ثم أخذت تحاول أن تظهر بمظهر النور. كل ما بناه تموز هوجم و كل مفاهيمه تعرضت للطعن و الضرب. و كان بإمكانه أن يعتمد الهجوم بإشارة من سبابته و لكنه ترك الهجوم يسير و تخلى عن شيء كبير من مفاهيمه ... شيء بسيط نقوله لهؤلاء الذين يحاولون إحياء التراث الأسود و نحن نرجو خلاصة هذا الشيء إن للثقافة أن يكون لها مكان في رؤوسهم كرامة يجب أن تصان خاصة واحد من هؤلاء الناس لهم آراء فلذا أريد تبديل رأيه فلن يكون ذلك عن طريق الأذى و إنزاله به.»

و اعتبرت السلطة المقال، انتقاداً لسياسة رئيس الوزراء عبد الكريم قاسم. إذ أصدر "أحمد صالح العبدى" في 1959/9/2، بياناً استند فيه إلى مرسوم الإدارة العرفية لسنة 1935، و إلى مرسوم الصحافة الذي أصدره نوري السعيد في 1954، « هذا المرسوم فرض إلى جانب تعطيل المطبوع - عقوبة أقصاها الحبس لمدة ثلاثة أعوام أو غرامة لا تتعدى (150) دينار للمسؤول عن المطبوع بنشره أخباراً أو مقالات يقصد منها الإخلال بالراحة العامة و التحريض ضد النظام القائم و زرع

497 - نهلات طائر "حمية الشعب" محمد شرارة، جريدة الحضارة، 1960/8/6

بذور البغضاء... المنافي للنقد السليم المبني على أساس علمي... و التأثير على الرأي العام في قضايا تنظرها المحاكم، و نشر أنباء كاذبة... و الطعن بالهيئات الرسمية في الأمور التي تتعلق بأداء واجبهم...⁴⁹⁸ «

فحكمت المحكمة عليه بالسجن لمدة ثلاثة أشهر بالسجن، كما أغلقت جريدة "الحضارة" بسبب المقال⁴⁹⁹ و احتج المحامي حسين جميل و قال: " أين هي العدالة التي يحكم من أجلها محمد شرارة على مقال انتقد فيه الأوضاع غير الطبيعية التي يتعرض لها المعلمون، و هل يستحق السجن على ذلك؟". كما كان رأي كامل الجادرجي مماثلاً لرأي حسين جميل، في الإجحاف الذي لحق بمحمد شرارة. و انطبق عليه ما كتبه في مقال بعنوان "حيث تتحول الكلمة إلى موقف":

« في أحيان تقف الكلمة عند حدود الأصوات، و إذا تحركت كانت حركتها في إطار ضيق لا تقدر أن تتعداه. و في أحيان تخرج من هذه الحدود لتأخذ دور المتأهب للمخاطرة، و تتحمل في سبيل ذلك جميع التبعات. و عندئذ لا تبقى كلمة، بل تتحول إلى "موقف" بحيث لا يبقى بينها و بين الإنسان نفسه ما دام الإنسان موقفاً.»⁵⁰⁰

- 498 - "العراق في عهد قاسم، تاريخ سياسي 1958-1963"، أوريل دان، ترجمة: جرجيس فتح الله، دار نيز للطباعة و النشر، السويد- 1989، ص- 307
- 499 - نهلات طائر "كرامة المعلمين" محمد شرارة، جريدة الحضارة 1960/9/24
- نص قرار الحكم:
- تشكل المجلس العرفي العسكري الثاني في معسكر الرشيد بتاريخ 27-11-1960 برئاسة العقيد شاكِر مدحت السعود، و عضوية كل من العقيد فاضل عباس شهاب، و المقدم عواد خضر المأذونين بالقضاء باسم الشعب و أصدر الحكم الآتي:
- 1- الحكم على المجرم عبد الغني مطر بغرامة قدرها 30 ديناراً و عند عدم الدفع فحبسه بسبباً لمدة خمسة و أربعين يوماً على أن تحتسب له مدة موقوفته في هذه الحالة وفقاً للمادة 29 منه.
 - 2- الحكم على المجرم محمد شرارة بالحبس البسيط لمدة ثلاثة أشهر وفقاً للمادة 21-4 من مرسوم المطبوعات لسنة 54 بدلالة المادة 29 منه على أن تحتسب له مدة موقوفته.
 - 3- غلق جريدة الحضارة لمدة تسعة أشهر اعتباراً من تاريخ هذا الحكم وفقاً للمادة 29 من مرسوم المطبوعات رقم 24 لسنة 1954
 - 4- مصادرة ما تبقى من عدد جريدة الحضارة المرقم 73 و المؤرخ في 24-9-1960.
- و صدر القرار بالاتفاق و افهم بتاريخ 27-11-1960.
- العقيد مدحت السعود
- 500 - "حيث تتحول الكلمة إلى موقف"، نظرات في تراثنا القومي، محمد شرارة، المؤسسة العربية للدراسات و النشر - بيروت، 1982، ص- 35

لقد اعتبر مقال "كرامة المعلمين" تحدياً للسلطة، لذا يحق لها أن تعاقبه، و ليس أشد عقاباً من عقاب السجن و إبعاده عن العيش بين أهله و أحبائه، و كأنه يكتب عن نفسه:

« بعد التحدي كان السجن، و كانت الوحدة المقرونة بالغرابة، و كانت الذكرى ... ذكرى الأم و الأخ و الأهل و الأحباب. و كان الفراغ الهائل الذي يزود الذكرى بحنين تذوب في تياره جميع الأحلام الزائفة القادمة من المفاهيم الاجتماعية و القوانين السائدة التي فرضتها قوى خفية على عقول شح فيها التساؤل أو مات. و إذ مات التساؤل في العقل تحول إلى مستنقع.»⁵⁰¹

صعقت عائلته عندما علمت بسجنه، و لم تكن تتوقع ان الوضع السياسي سيصل بهذه السرعة إلى هذه الحالة من التردّي، حيث يسجن المثقفون كما كانوا يسجنون في العهد الملكي، من قبل محكمة عسكرية يرأسها عقيد بالجيش و ليس من قبل حاكم مدني، يستطيع المتهم أن يميز الحكم! و يظهر ان المثقفون هم دائماً أول الضحايا.

قضى محمد شرارة فصل الشتاء في سجن العمارة، و ليس في سجن بغداد القريب من عائلته، و هو نوع من العقاب أقرب منه إلى الانتقام، و يعرف جيداً العقيد "مدحت شاكر السعود" الذي أصدر الحكم بحقه، مدى صعوبة زيارة السجين في سجن العمارة، و الصعوبات التي يتعرض لها أهله في زيارته.

إذ كان على زوجته أن تسافر قبل يوم، و تقضي الليلة في فندق العمارة، ليتسنى لها زيارته في اليوم التالي، و تعود قافلة إلى بغداد في اليوم نفسه إن توفرت لها واسطة نقل. لذا لم تستطع زوجته زيارته إلا مرة واحدة، و طلب منها ألا تزوره ثانية، بعد المشقة و التعب اللذين تعرضت لهما، فقضى الشتاء وحيداً بين جدران السجن الباردة، بعيداً عن دفء الأهل و الأحباء، بسبب كتابة مقال! و خسر وظيفته، فأصبح بلا عمل ثانية.⁵⁰²

لم يكن السجن و الفصل من الوظيفة بالشيء الغريب عليه، فقد اعتقل في العهد الملكي مرات عديدة و سجن من أجل تمسكه بأرائه و نقده المتواصل للسلطة، و

501 - المصدر نفسه. ص- 36

502 - لم أعر على نص الكتاب الذي فصل فيه محمد شرارة من الوظيفة، و لكن عثرت على ورقة، سجلت فيها شقيقتي "حياة" تاريخ و رقم الكتاب. العدد: 74260، تاريخ: 1960/12/11 (ب.ش)

لكنه لم يكن يتوقع في أن يسجن خلال عهد "الزعيم" الذي وصفه "بالنجمه الغراء" في أول قصيدة نظمها في ثورة 14 تموز. شعر عندئذ بالحيرة و خيبة الأمل في موقف السلطة، و المعاملة المجحفة التي تعرض لها، خاصة عندما حكم عليه في السجن.

لم أكن قد تغلبت على الصدمة التي هيمنت عليّ عندما حكم على الوالد بالسجن، حتى أصابتنني شظايا الغضب و الانفعال اللاعقلاني، من قبل بعض أقارب زوجي. فبعد مرور أسبوع على الحكم على محمد شرارة بالسجن، دعونا بعضهم إلى العشاء، و شعرت بتقل الجو الذي خيم على دارنا، عندما دخل أحدهم مهدداً و متوعداً بأعلى صوته، "الثأر، الثأر، الثأر"، أي كان يقصد من انه بهذا الحكم، أخذنا ثأرنا من محمد شرارة، كان المدعو من بين القوميين المعروفين. إذ كان الأخرى به أن يندد بالحكم الجائر الذي صدر بحق محمد شرارة كما فعل المحامي حسين جميل، لكنه كان قادماً لدارنا لأخذ "الثأر"! مخالفاً بذلك آداب الضيافة.⁵⁰³

عصفت بي شحنة من الألم و الانفعال في أعماقي و أحسست بألم دفين، و لكنني تجاهلت الكلمات النابية، و اعتبرته سلوكاً بعيداً عن اللياقة و الأخلاق. لم أتوقع ان الأمور ستصل إلى هذه الدرجة من الضعة و الخسة، لا لشيء، إنما لاختلاف سياسي محض! كانت كلمات "الثأر، الثأر، الثأر" حادة كالمنشار، كما كانت أجوبة "رفعة" حادة، أدت إلى قطع جميع الجسور بيننا و بين هذا القريب.

هذه الحادثة إن دلت على شيء، فإنما تدل على مدى الانقسام الحاد الذي هيمن على أجواء العراق بين مختلف طبقاته في تلك الفترة، فلم تتج حتى الطبقة المتعلمة التي بيدها قيادة المجتمع!!

« كانت قيادة الحزب الشيوعي متجانسة شكلاً في تلك الفترة، و لكن كان هناك عدم الانسجام و التطرف في المكتب السياسي نفسه، كل منهم يراقب الآخر. و القيادة بالحقيقة لم تكن متجانسة إلا شكلاً و لم تكن قادرة على صنع قرار واضح.»⁵⁰⁴

503 - عندما علم كامل الجادرجي في اليوم التالي، بما حدث في "دعوة العشاء" التي أقمناها في دارنا، قال لي: "شجايبكم عليهم، ليش تدعوهم في بيتكم؟". (ب.ش)

504 - مكالمة تلفونية مع الدكتور فاروق رضاعة بتاريخ 7/2 / 2008 ، لندن- انكلترا

و يؤيد هذا تقرير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي في 1959/8/3: « حصل تفكك في القيادة الجماعية منذ انقلاب "الشوآف" و "أهمل بعض الرفاق من المكتب السياسي" أثناء ممارستهم و اجباتهم التماس مع اللجنة المركزية و العمل بروحيتها. تلك اللجنة التي لم تعقد أية جلسة موسعة منذ شهر أيلول 1958... ان الحزب الشيوعي العراقي - رغم حصول جزر في الحركة الثورية بعد مدٍ لا مثيل له من قبل- قد عزم على الاحتفاظ بدوره في الحركة الوطنية و في الدفاع عن الجمهورية.»⁵⁰⁵

و استخلص "عبد الكريم قاسم" من التقرير، "بأن الخطر الشيوعي الذي كثر التبجح به لا يزيد عن الخطر الذي يكمن في تنين ورقي". و كان بوسعه فضلاً عن هذا أن يستدل منه بأن الحزب الشيوعي العراقي فقد حرية العمل ... و لكنه في الوقت نفسه "وجب عليه ألا يضعفهم أكثر من القدر اللازم"، و يدفعهم إلى اليأس، عليه أن يفكر بأفضل الوسائل للمحافظة على صورته كزعيم للشعب، و تثبيت مركزه. فكان عليه في الوقت نفسه، ألا يوحى إلى القوميين و البعثيين "بأي فكرة في أن هزيمة الشيوعيين هي فرصتهم".⁵⁰⁶

كان الحزب الشيوعي يمرّ آنذاك في فترة جزر، عندما خرج محمد شرارة بعد ثلاثة أشهر من السجن، كانت معنوياته عالية، رغم الحكم الجائر الذي صدر بحقه، و أصبح عاطلاً عن العمل. كما كان جميع أفراد العائلة قلقين عليه خارج السجن. و أصبح من الصعب عليه أن يعيش حياة طبيعية، بعد أن وضع اسمه في قائمة الاغتيال، فكانت حياته في خطر دائم، لا أحد يدري متى ينفذ بحقه الاغتيال!. كانت

- « عندما كنت طالباً في الكلية الطبية في عام 1961 في الصف الخامس، جاء حسين الوردى المسؤول عن الطلبة و طلب مني أن أرسب هذه السنة، قلت له كيف؟ قال نحتاجك في الكلية. فقلت له: "خليني أطلع إكمال أي اسقط في درس واحد، ثم امتحن في الصيف"، قال: "اطلع إكمال زين". ثم حدثت مظاهرات في تلك الفترة و جاء محمد صالح العبلي الذي كان عضواً في المكتب السياسي في تلك الفترة: قلت له إن علي أن ارسب هذا العام، استغرب و قال لي: "روح أدرس و انتجح!"»
- أي كانت الممارسة الحزبية الضيقة، و المكاسب الآنية هي أهم من التعليم، مما يؤلف اتجاهاً سياسياً، حيث كان بعض أفراد القيادة من غير المتقنين في الحزب.(ب.ش)

⁵⁰⁵ - "العراق في عهد قاسم، تاريخ سياسي 1958-1963"، أوريل دان، ترجمة: جرجيس فتح الله، دار نبر للطباعة و النشر، السويد- 1989، ص - 291

⁵⁰⁶ - المصدر نفسه، ص - 289، 296

زوجته تتوقع ان زوجها لن يعود حياً، كلما خرج من الدار في تلك الفترة، حتى أصبح القلق على حياته ملازماً لها كظلها.

و قد طُلب من محمد شرارة في تلك الفترة الحرجة بعد أن خرج من السجن، أن يكتب مقالات في "اتحاد الشعب" جريدة الحزب! و لم يأخذوا بنظر الاعتبار الظرف الحرج الذي كان يمرّ به، لأن الحزب الشيوعي كأى حزب شمولي، يؤمن بالالتزام و يمارسه بالنسبة إلى واجبات و سلوكيات أعضائه، سواء تعارضت هذه مع الأخلاق السياسية أم لا، فالشخص عندما يصبح عضواً يتحول من إنسان إلى أداة في ماكينة الحزب الكبيرة.

ظل محمد شرارة مؤمناً بالنظرية الماركسية، و ذلك بالرغم من أنها تطورت، خاصة بصيغتها الشيوعية، التي تتمثل بنظام دكتاتورية البروليتاريا، أي تفرد الحزب في قيادة الرؤية الماركسية و اعتبر نفسه المالك لها دون غيره. و على تلك الرؤية أنبنى التفرد في قيادة المجتمع. و لم يتحدّ طلبات الحزب، بالرغم من الإنسانية التي كان يتحلى و يؤمن بها، و المتجلية عاطفياً في مختلف كتاباته في الشعر و النثر، لذا نجد أن هنالك تناقضاً بين تلك الإنسانية و بين خضوعه التام لدكتاتورية الحزب.

كانت زوجته قلقة عليه، و كنتُ خائفة عليه من عاقبة الاستمرار في نشاطه الحزبي العلني، لذا ذهبتُ بصحبة زوجي رفعة الجادرجي لزيارته، و أخبره رفعة ان من الأفضل له أن يترك البلد في هذه الظروف الصعبة التي يمرّ بها العراق، و أضاف رفعة قائلاً:

« إن من المؤسف أن تنتهي حياة الإنسان لأسباب تافهة، دون أن يقدم ما يطمح به، و إن كان باستطاعة الإنسان أن يبتعد عن هذه الأجواء و يحافظ بذلك على حياته يكون قد قدّم خدمة أكبر لبلده من أن يموت موتاً هو في غنى عنه».

إذ صار « اغتيال شيوعي واحد من الأمور المألوفة... لم تبدل الشرطة و رجال الأمن أي مجهود محسوس لحماية الضحايا. و نما انطباع قوي بأنها مغتبطة بتبدل الحال و سير الأحداث. فبدلاً من محاولتها تعقب الفاعلين و اتخاذ الإجراءات القانونية بحقهم، وضعت نفسها في حالة تأهب و ترقب لردّ شيوعي بالمثل... و

وصلت حوادث الاغتيال إلى درجة من الكثرة بحيث لم يعد في الموصل "شيعوي حيّ واحد". و لم يكن ثم ما يدل على وقوع القتل في يد العدالة.⁵⁰⁷

ترك محمد شرارة العراق مكرهاً، و عاد إلى حياة المنفى، بعيداً عن عائلته و وطنه. سافر إلى لبنان، ثم ذهب إلى الصين بعد أن حصل على عمل حيث شغل و وظيفة مستشار الترجمة، للقسم العربي في دار النشر في اللغات الأجنبية.

* * *

بدأت المؤتمرات تحاك في تغيير نظام الحكم في داخل و خارج العراق بجد، و شعر رئيس الوزراء عبد الكريم قاسم أنه محاصر، و ان قيادة دفة السفينة بدأت تفلت من بين يده و لم يعد ربانها، فزاد تخبطه السياسي، ما أدى إلى إعلانه المفاجئ في يوم الأحد 25 حزيران، 1961، ضم الكويت إلى العراق، حيث أعلن ان الكويت جزء لا يتجزأ من العراق، و لا يعترف باتفاقية 1899. و ارتكز على ان الكويت كانت مقاطعة من و لاية البصرة العثمانية، و أرفق طلبه بإعلانه تعيين حاكم الكويت قائم مقام للمقاطعة.⁵⁰⁸

لم يهدد عبد الكريم قاسم طلبه بالقوة، و لم يحتل الكويت، إذ إن معظم قطعات الجيش العراقي كانت منتشرة في شمال العراق، استعداداً للتصدي للوضع المتدهور في المنطقة الكردية. بعد أن قام عبد الكريم قاسم بنفس التكتيك الذي اتبعه مع الحزب الشيوعي سابقاً، التهميش و الضغط على رؤساء الحزب الديمقراطي الكردستاني، و غلق صحفهم و التثديد ببذر الشقاق بين صفوف الشعب.

هرعت بريطانيا في ظل هذا الوضع، لمساعدة الكويت و حمايتها عسكرياً. و وافقت هيئة الأمم على اعتبار إمارة الكويت دولة مستقلة في هيئة الأمم. و أعلن

⁵⁰⁷ - « بعد ختام العام 1960 عاد قادة الشيوعيين إلى الاختفاء أو لجأوا إلى الخارج... » و في خلال 1961 كادت الساحة تخلو تماماً من الصحف اليسارية اللاحزبية بأوامر تعطيل صادرة من (العبدى) و تركزت صحيفتا "صوت الأحرار" و "البلاد" لتمثل قضية اليسار بقيود كثيرة... و شهد عام 1960 عودة تدريجية للصحف القومية، فعادت صحف "بغداد، و الحرية، و الفجر الجديد، و الحياد". و استمرت في حملتها على الخطر الأحمر.

" العراق في عهد قاسم، تاريخ سياسي 1958-1963"، أوريل دان، ترجمة: جرجيس فتح الله، دار نَبز للطباعة و النشر، السويد- 1989، ص- 364، 394 - 395، 411

⁵⁰⁸ - و « عقد مؤتمراً صحفياً طالب فيه بالكويت، بوصفه قائمقامية تابعة لمحافظة البصرة، كان قد فصل منذ أكثر من ستين عاماً، في حين انها جزء لا يتجزأ من العراق. »

المصدر نفسه ، ص- 437

جمال عبد الناصر تأييده استقلال الكويت و سيادتها و معارضته محاولة العراق ضم الكويت إليه، و انسحبت القوات البريطانية من الكويت لتحل محلها قوات من الجامعة العربية.

أصبحت الخطة جاهزة في التخلص من عبد الكريم قاسم. فبعد صدور قانون 80 في تأميم حصص شركات النفط في 1961/12/11، و هو القانون الذي قلص مساحة امتيازات شركات النفط، حيث وضعت شركة النفط العراقية يدها على 99 بالمئة من الامتيازات من غير تعويض. و أصبحت بذلك شركات النفط مجبرة على الاكتفاء بالحقوق المهمة التي استغلتها. و احتجت شركات النفط على القانون الجديد، لكنها لم تطعن في شرعيته بل طلبت التحكيم.

و تفاقمت الأجواء بسبب موقف شركات النفط خلال سنوات وفرة النفط حين أجبرت البلاد المنتجة على تحمّل وطأة انهيار الأسعار. و هذا ما دفع العراق إلى التشجيع على تأسيس منظمة الدول المصدرة للنفط "أوبيك"، و في هذا السياق شكل قانون 80 ضربة لشركات النفط، و اعتبر أيضا ضربة لشرعية السيطرة البريطانية في العراق. و اعتبرت السفارة الأمريكية تلك السياسة خطراً على مصالحها في الشرق الأوسط.

« و بدا "قاسم" مصاباً بعقم على صعيد السياسة الخارجية، فمطالبته بالكويت شوّه سمعته. و موقفه من قضية النفط أثار عليه بريطانيا و أقلقها في حين ظلت الولايات المتحدة دائمة الشك في ميول "قاسم" نحو الشيوعية. ان أفول الشيوعية في العراق ما لبث أن نشر ظلالاً على العلاقات بين البلدين و كذلك ثمة شعور عام تقريباً بأن مساعدة السوفييت الاقتصادية خيبت الآمال المعقودة عليها.»⁵⁰⁹

كما تغلغل حزب البعث رغم إن أعضاءه الأساسيين، لم يكونوا بالعدد الكبير، و لكنهم احتلوا مناصب جيدة في إدارة الدولة و في القوات المسلحة، و كان بإمكانهم تعبئة المتعاطفين معهم في الأزمات. و أدرك الحزب أهمية السيطرة على الشارع في الأزمات السياسية، منافساً بذلك الحزب الشيوعي، حيث إن الحزب الشيوعي منع تدريجياً من الوصول إلى معظم المنظمات الشعبية، و وضع تحت مراقبة أجهزة مخابرات عبد الكريم قاسم بشكل مستمر. كما إن انقسام الحزب الوطني

الديمقراطي، أدى إلى تفككه، أما الحزب الديمقراطي الكردي فقد تحول ضد عبد الكريم قاسم، إلى العمل مع القوميين و حزب البعث. وفي نهاية عام 1962، أعلن الطلبة إضراباً في الجامعات،⁵¹⁰ لم يستعمل عبد الكريم قاسم العنف والأساليب التعسفية في القضاء على الإضراب في البداية. كما انه لم ينوه بالإضراب تنويهاً مباشراً في خطبه. كان خلف ذلك الإضراب البعثيون و القوميون، الذين وجدوا تأييداً و تعاطفاً لهم بين الطلبة، و انضم إليهم رفاقهم الكرد بتوصية من الحزب الديمقراطي الكردستاني، و استمر الإضراب و لم يعد الطلبة للدراسة لمدة ستة أسابيع، أي حتى انقلاب 8 شباط 1963، عندما نجح حزب البعث بالسيطرة على السلطة، كان محمد شرارة يعيش في الصين، بعيداً عن العراق.

و انتهى بذلك العهد الذي اعتبر العصر الذهبي بالنسبة للشيوعيين و اليساريين، و بدأ عهد جديد، معادٍ لهم و لكل من يؤمن بالحركة التقدمية و اليسارية. ان « عدم رغبة أو قدرة قاسم على نقل السلطة أو إنشاء مؤسسات قادرة على إكسابه تأييداً شعبياً حقيقياً لم يعن فحسب بأنه جعل كل العداء يتركز على شخصه بل و بأنه لا يملك أي دفاع ضد مؤامرة عسكرية منظمة جيداً... إلا انه لم يتمكن من رؤية إن الحس العام لا يتطور ما لم يشعر الشعب بأن آراءه ممثلة بشكل صحيح في مؤسسات يثق بها. و بغياب توزيع السلطة فان أصحاب الامتيازات و الأشخاص الذين يملكون القدرة المباشرة على ممارسة سياسة الإكراه سيستمررون بتقرير مصير الحكومة وفقاً لقوانينهم و أهواءهم. حكم قاسم كأوتوقراطي و مات

510 - إن « سبب الإضراب كان من التفاهة بمكان. ففي 1962/12/27، حصلت مشادة كلامية بين "مناضل عباس المهداوي" ابن رئيس المحكمة العسكرية الخاصة مع طلاب قوميين في المدرسة الثانوية حول ما زعموا من توزيع نشرات شيوعية. فانهالوا عليه ضرباً فاتصل "مناضل" تلفونياً بأبيه الذي أرسل حرسه الخاص فضربوا المعتدين. عند ذلك قام "الاتحاد الوطني لطلبة العراق" المحظور، بتنظيم مظاهرة احتجاج سقط فيها طالب قومي قتيلاً. فأعلن الاتحاد إضراباً شارك فيه كثير من المدرسين و أدت التظاهرات المتوالية إلى اشتباكات أخرى مع الشرطة... و استخدمت الحكومة قوات الشرطة ضد معاهد ثقافية. و قتل أناس في مقتبل العمر و اضر الإضراب بألاف عديدة من الطلاب و أسرهم، و هزّ العاصمة هزاً و ظل مستمراً بأعنف ما يمكن عند سقوط قاسم.»

" العراق في عهد قاسم، تاريخ سياسي 1958 - 1963"، أوريل دان، ترجمة: جرجيس فتح الله، دار نَبز للطباعة و النشر، السويد- 1989، ص 450-451، 452

كذلك، مساهماً في إعادة بناء التركيبات المميّزة للسياسة العراقية و نزواتها
الاستبدادية»⁵¹¹

* * *

⁵¹¹ - "صفحات من تاريخ العراق المعاصر" تشارلز تريب، ترجمة: زينة جابر إدريس، الدار العربية للعلوم - بيروت 2006، ص - 233

تلقى عبد الكريم قاسم تقارير عن مؤامرة تحاك ضده إلا أنه اكتفى باعتقال "علي صالح السعدي" و "صالح عمّاش"، فدفع بالبقية من المتآمرين إلى التحرك خشية لجوء الحكومة إلى عملية تطهير أوسع.⁵¹² كان "علي صالح السعدي" قد أقام علاقات مع الضباط القوميين أمثال عبد السلام عارف.⁵¹³ لم يكن المتآمرون الضباط أعضاء رسميين في حزب البعث باستثناء "منذر الوندأوي" وربما "حردان التكريتي"، أما "أحمد حسن البكر" فقد عرف بميله الشديد إلى الحزب.

استطاع حزب البعث تجميع القوى المعارضة لسياسة عبد الكريم قاسم و القوى الشيوعية و اليسارية، و نجح في تأسيس التجمع القومي، من حزب الاستقلال و حركة القوميين العرب و الرابطة القومية و حزب البعث الاشتراكي، و شمل منظمين عن المحامين و الأطباء و المعلمين و أساتذة الجامعة و عن الضباط القوميين المستقلين و غيرهم. « إن موقف الإغضاء و إغماض العين الذي تبنته دوائر الأمن خلال السنتين الأخيرتين من حكم "قاسم"، ساعد حزب البعث على تنظيم و تدريب ميليشيا الحزب. و عندما أزمف يوم الانقلاب كانت هذه القوة مهيأة للنزول إلى الشارع بالآفها.»⁵¹²

و بدأ الانقلاب في صباح 8 شباط، من قبل عبد السلام عارف و انضم إليه أحمد حسن البكر، حيث استقل كلاهما دبابة و وضعها أمر الكتيبة "خالد مكي الهاشمي" تحت تصرفهما، و توجها إلى الإذاعة القريبة من ضفة دجلة اليمنى، و هو أستوديو احتياطي من قبل عبد الكريم قاسم لاستخدامه في التسجيل و الإذاعة الاضطرارية فيما لو حصل طارئ أو خلل آخر، و سيطروا على البناية و على أجهزتها، و التحق بهم عدد صغير من قيادي حزب البعث، و أذاعوا البيان الأول.⁵¹³ ثم عطلوا

512 - المصدر نفسه، ص - 456

513 - ذهب فؤاد عارف إلى الإذاعة في اليوم الأول من الانقلاب، و استغرب عندما لم يجد الوزراء المدنيين، فسألهم:

مدرج الطائرات في قاعدة الرشيد العسكرية، من قبل "منذر الوندواوي" الذي "حرث المطار حرثاً بالقنابل". و أيقضت الانفجارات الأولى "قاسم" من نومه في منزله في حي "العلوية"، فالتجأ إلى مقره في بناية وزارة الدفاع التي كانت تحت قصف جوي مستمر، و نجح في الدخول قبل تعذر ذلك.

و توجهت فرقة اغتيال إلى العميد "جلال الأوقاتي"، قائد القوة الجوية، و الذي كان محسوباً على الشيوعيين، فأردته قتيلاً عند عتبة داره.

« كان حزب البعث، - أي مكتب البعث العسكري - هيئة قيادية تجتمع و تقرر بمرونة... و كان الحزب الشيوعي يحتاج من أجل تحريك العدد الهائل من منتسبيه العسكريين وقتاً أطول من الفترة التي احتاجها ثوار 8 شباط القليلي العدد لتحقيق المباغثة و لضرب أو قطع أية تحركات و تبليغات مؤيدة لعبد كريم قاسم و للشيوعيين و هي في المهد. و بذلك استطاع العسكريون البعثيون تنفيذ خطة وضع مرتكزاتها مدنيون ليتغلبوا بعملية تعتبر من أذكى و أدق العمليات العسكرية الناجحة، إذ تمكن فيها عدد محدود جداً من الضباط و المدنيين مواجهة و خنق عشرات أمثالهم و انتزاع السلطة منهم، و إنهاء الصراع فوراً بالكثف و باستسلام الخصم وسط حيرة المتفرجين و المستمعين.»⁵¹⁴

عندما علم الحزب الشيوعي بالانقلاب حشد الجماهير بمظاهرات توجهوا نحو وزارة الدفاع، طالبين الأسلحة من عبد الكريم قاسم، بهدف إحباط الانقلاب، لكن رفض قاسم إعطاءهم السلاح، كعسكري، إذ لا يمكنه أن يضع السلاح بتصرف

« أين الوزراء المدنيون؟ ألم نتفق على ذلك؟» قال مهدي عماش: « أبو فرهاد إحنا نسوي ثورة و نجيب الأفندية، ليش إحنا شبينا؟»، ثم قال عبد السلام عارف: « شنو إحنا شبينا؟ ليش ما نجى للحكم» ثم أُرِدِف قائلاً: أبو فرهاد: « إحنا نريد تأييدك» قلت: « أنا لا أملك أية قوة سياسية لتأييدكم، لأنني لا أملك أحداً». "منكرات فؤاد عارف"، الجزء الأول، تقديم و تعليق د. كمال مظهر، الطبعة الأولى، مطبعة خه بات-دهوك 1999، ص- 260

و لكن يذكر أوريل دان في كتابه "العراق" في عهد قاسم: « من أولى مفاجئات الإذاعة، ان "صالح اليوسفي و فؤاد عارف" وصلها مهنيين المجلس الوطني لقيادة الثورة على الثورة باسم الكرد، معبرين عن أسفهما لأنهما لم يسعدا بفرصة المشاركة في الأحداث». "العراق في عهد قاسم، تاريخ سياسي 1958 - 1963"، أوريل دان، ترجمة: جرجيس فتح الله، دار نيز للطباعة و النشر، السويد- 1989، ص- 460

⁵¹⁴ - "العراق: البيروية المسلحة - حركة حسن السريع و قطار الموت 1963"، د. علي كريم سعيد، الفرات للنشر و التوزيع، بيروت- لبنان 2002، ص- 40

الشعب، و اعتقد إن قواته الخاصة ستقضي على المتآمرين. و في الوقت نفسه دعا حزب البعث أنصاره إلى الشارع، فنزلوا بكامل سلاحهم بنية القضاء على خصومهم السياسيين. و « تعززت مراكز الشرطة بالحرس القومي و باتت مستعدة لمواجهة أي هجوم على مشاجب السلاح، و أخيراً كانت قوى الشيوعيين الجسدية و الروحية قد استنزفت: فقادتهم في المنافي أو في السجون، و كوادهم نخرتها الجاسوسية فأشرفت على الانحلال و تنظيمهم شاع فيه الاضطراب و عمته الفوضى.»⁵¹⁵ و كانوا سيء التسليح، لذا حصدت ميليشيات الحرس القومي و الجيش مئات منهم و لم يؤثر تدخلهم في أحداث اليوم.

و بذلك اسقط نظام قاسم، بإذاعة البيانات و بضع دبابات و طائرة واحدة قصفت مدرج الطائرات في المعسكر، و أصبح الهدف الأول الاستيلاء على الإذاعة في جميع الانقلابات التي حدثت بعد ذلك، لأنها اعتبرت أهم مؤسسة تخدم الغرض.⁵¹⁶ بدأت صفحة جديدة، و انطوت صفحة،⁵¹⁷ حيث تغيرت اللعبة السياسية مع تغير اللاعبين، و بدأت حالة جديدة و قادة جدد، و ظهر التأثير الأمريكي الذي ساهم عن طريق عملائه الذين أطاحوا بعبد الكريم قاسم. و كان دور السفارة الأمريكية بارز في كل خطوة في الانقلاب البعثي، و أميط اللثام عن دور "بيل ليكلاند"⁵¹⁸ مساعد

⁵¹⁵ - "العراق في عهد قاسم، تاريخ سياسي 1958 - 1963"، أوريل دان، ترجمة: جرجيس فتح الله، دار نيز للطباعة و النشر، السويد- 1989، ص - 462

⁵¹⁶ - « صدر بيان (13) فكان نصه: نظراً لقيام الشيوعيين العملاء شركاء عبد الكريم قاسم في جرائمه بمحاولات يائسة لإحداث البلبلة بين صفوف الشعب و عدم الانصياع إلى الأوامر و التعليمات الرسمية، فعليه يحول أمر و القطعات و قوات الشرطة و الحرس القومي بإيادة كل من يتصدى للإخلال بالأمن. إننا ندعو جميع أبناء الشعب المخلصين للتعاون مع السلطة الوطنية بالإخبار عن هؤلاء المجرمين و القضاء عليهم.»

"عراق 8 شباط، من حوار المفاهيم إلى حوار الدم" مراجعات في ذاكرة طالب شبيب، علي كريم سعيد، دار الكونز الأدبية، بيروت، الطبعة الأولى 1999، ص - 108

⁵¹⁷ - نص البيان الذي إذاعته إذاعة بغداد يوم 9 شباط 1963: « لقد تم إلقاء القبض على عدو الشعب عبد الكريم قاسم، و معه فاضل عباس المهداوي و طه الشيخ أحمد و خليل حداد من قبل القوات المسلحة و قد تشكل مجلس عرقي عسكري لمحاكمتهم، و أصدر المجلس العرقي العسكري الحكم عليهم بالإعدام رمياً بالرصاص، و نفذ فيهم الحكم رمياً بالرصاص في الساعة الواحدة و النصف بعد ظهر اليوم.»

المصدر نفسه، ص 105 - 106

⁵¹⁸ - « بيل ليكلاند من مواليد 1923، و هو عوضاً عن وظيفته كمتخصص في شؤون الشرق الأوسط، عمل لفترة طويلة في سفارة بلاده في القاهرة... أرسل إلى مصر في النصف الأول من عام 1952 من قبل هاري ترومان، بمنصب سكرتير ثان في سفارة بلاده، ليكون حلقة الاتصال بين الضباط الأحرار و

الملحق العسكري الأمريكي في السفارة الأمريكية، إذ كان له دور مهم في الانقلاب، و من ثم أخذ و زير الدفاع صالح مهدي عماش يجتمع به صباح كل سبت في تلك الفترة.⁵¹⁹

حل اللاعبين الجدد بأسماء جديدة، فاتخذوا برنامجاً للقمع أكثر فعالية من خلال ميليشيا "الحرس القومي"⁵²⁰ برئاسة منذر الوندائي. فربطوا الأشرطة الخضراء على أذرعهم و حملوا البنادق المصرية التي جهزهم بها جمال عبد الناصر،⁵²¹ و

السفارة الأمريكية في الأشهر التي سبقت الانقلاب... كان ليكلاند جندياً سابقاً في مشاة البحرية الأمريكية، خدم في موقعين حساسين من مواقع الحرب الباردة: أنقرة 1947-1948، و ميونخ 1949. و أتاح له صغر سنه و خلفيته العسكرية مصادقة الكولونيلات الشبان بسهولة و خاصة عبد الناصر الذي كان بمصادفة مؤاتية، جاراً له، و من خلال ليكلاند أبلغ عبد الناصر كافرني إن الكولونيلات يريدون صداقة الولايات المتحدة. هذا الرجل نفسه أرسل إلى بغداد زمن قاسم لإدارة اتصالات سفارته العامة فيها... و يقول هاني الفكيكي: إن عبد الناصر حذر علي صالح السعدي في نهاية شباط 1963 من بيل ليكلاند قائلاً: إن بيل ليكلاند سبق أن خدم في القاهرة و هو خبير انقلابات.»

"عراق 8 شباط، من حوار المفاهيم إلى حوار الدم" مراجعات في ذاكرة طالب شبيب، د.علي كريم سعيد، دار الكونز الأدبية، بيروت، الطبعة الأولى 1999، ص 277-278

- و يؤكد على ذلك الملك حسين الذي قال لمحمد حسين هيكل في 1963/9/27، « ان ما جرى في العراق في 8 شباط قد حظي بدعم الاستخبارات الأمريكية... لقد عقدت اجتماعات عديدة بين حزب البعث و الاستخبارات الأمريكية، و عقد أهمها في الكويت.»

"من يصنع الدكتاتور؟ صدام حسين نموذجاً" سلام عبود، منشورات دار الجمل، كولون-ألمانيا، 2008، ص-72

519 - "أوكار الهزيمة، تجربتي في حزب البعث العراقي"، هاني الفكيكي، رياض الريس للكتب و النشر، 1993 - لندن، ص-283

- بعد أن مضى أسبوعان على الانقلاب، التقى بيل ليكلاند رفعة الجادرجي في أحد المعارض الفنية التي أقيمت في بغداد آنذاك، قال له: « كان لي علم بجميع أسماء الوزراء في الوزارة، إلا أسمين تغييرا في الساعات الأخيرة قبل الانقلاب.» و هذا ما يؤكد دوره في عملية الانقلاب.(ب.ش)

520 - « حقق "الحرس القومي" في الأيام الأولى للثورة (للالنقلاب) مكاسب كبيرة على حساب مؤسسات الدولة الشرعية، و تمكن بسرعة من ابتلاع جميع منظمات الحزب المحلية و أخذ دورها و حل محلها تدريجياً، و لا يستثنى من ذلك التنظيم المرتبط بالمكتب العسكري للبعث. و قد انتقل البعثيون إلى مقرات الحرس و تواجدوا فيها. و صار كل بعثي تقريباً حارساً قومياً، رغم ان قانون تأسيسه لم يشترط على كل حارس قومي أن يكون بعثياً.»

"عراق 8 شباط، من حوار المفاهيم إلى حوار الدم" مراجعات في ذاكرة طالب شبيب، د.علي كريم سعيد، دار الكونز الأدبية، بيروت، الطبعة الأولى 1999، ص - 165

521 - بعد أيام على الانقلاب ذهب وفد شعبي عراقي للقاهرة للتهنئة بأعياد ثورة 23 يوليو 1952، « برئاسة علي صالح السعدي، و ضمت جلال الطالباني و طالب شبيب و فؤاد عارف و عدداً من ممثلي النقابات المهنية بينهم عبد الرزاق شبيب نقيب المحامين و هو أحد قادة التيار الناصري في العراق. خلال

افتتحوا مراكز اعتقال في كل حي من أحياء المدن في العراق، و حولوا الملاعب و النوادي في العاصمة بغداد إلى مراكز اعتقال، و لم ينج حتى "قصر الرحاب" الذي أطلق عليه "قصر النهاية"، بعد أن استعملت غرفه و قاعاته لتعذيب رهيب، من قلع الأعين و الأظافر، إلى استعمال الأسلاك الكهربائية و سوائل لحرق الأجساد. و امتلأت قاعاته بالسجناء الذين امتزج أرائهم برائحة الجثث المتفسخة المتركمة فوق بعضها البعض.

جاءوا ضد ما سموه بالإرهاب الأحمر، لكنهم لم يستطيعوا أن يتخطوا مشاعر الثأر و الانتقام و التدمير، فقتلوا و عذبوا في الفترة القصيرة التي سيطروا فيها على السلطة، فاخفت "محكمة الشعب" العلنية، و أصبح التعذيب النفسي و الجسدي و القتل الجماعي في داخل غرف محكمة مغلقة، يجري فيها تحقيق سرّي رهيب بعيد عن الأنظار،⁵²² ليس هنالك شهود عليهم بما يقترفون من جرائم بحق المعتقلين، و همهم الوحيد إخفاء آثار الجريمة.

الحديث عاتب جمال عبد الناصر أعضاء الوفد حول ما كانت ترده من أنباء العنف الذي تمارسه الحكومة العراقية ضد الشيوعيين. فرد عليه عبد الرزاق شبيب: "الأفضل تصفية الشيوعيين بتقسيمهم إلى ثلاثة أقسام، الأول: نرسله إلى معسكرات تدريب، و توجيه الثاني إلى السجون و المنافي البعيدة مثل سجن نقرة السلمان، و الثالث: و هنا رفع المتحدث يده مشيراً إلى رقيبته بحركة تدل على الذبح بالسكين... و فوراً بعد انتهاء حديثه علّق الطالباني موجهاً كلامه إلى عبد الناصر قائلاً: " الأستاذ يتحدث بوصفه نقيب المحامين العراقيين!!!"

" العراق: الليبريّة المسلحة - حركة حسن السريع و قطار الموت 1963"، د.علي كريم سعيد، الفرات للنشر و التوزيع، بيروت- لبنان 2002، ص- 194

522 - و قد عذب جميع أعضاء اللجنة المركزية تعذيباً وحشياً، فتصف "ماجدة علي" التعذيب الذي لحق

بسلام عادل "حسين الرضي" سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، و آخرين في قصر النهاية: « شاهدت سلام عادل جالساً في زاوية من زوايا غرفة استقبال القصر، بملابسه ممزقة و أثر الركلات و الكدمات على ساقيه و ركبتيه و هو معصوب العينين ... بدل فتح الكليجة بالمفتاح انتزعوها من يده فأصيب بجروح كثيرة محتجين بوجود المفتاح في مركز الأمن ... انتشرت الدماء على شكل بركة كبيرة في الغرفة و أدوات التعذيب متناثرة فيها و الحبل ممدود من سقفها. ... نقلوني بعد تعذيب وحشي إلى السرداب الذي تغطي أرضه المياه القنرة و الحشرات و أنين المعتقلين و هذيانهم و حشرات الموت. كنت معصوبة اليدين و مربوطة الرجلين و يداي مشدودتان إلى خلف ظهري وسط المياه القنرة لكنني ميزت أنين سلام عادل و صوته مردداً: هنا التجربة أيها الرفاق. ثم بدأ ينشد أناشيد ثورية. رجوت الحارس إزالة العصا عن عيني فاستجاب لرجائي، فحاولت معرفة سلام عادل من بين الموجودين في السرداب فلم أفلح في ذلك و كل ما عرفته إن صوته بدأ بالخفوت. و شاهدته للمرة الخامسة و الأخيرة في 27 شباط و قد شوه جسده و لم يعد من السهل التعرف عليه فقد فقنت عيناه، و كانت الدماء تنزف من أنفيه و يتلى اللحم من يديه المقطوعتين و رش الملح و الفلفل فوق جسده المدمي لزيادة آلامه.»

و أكد على ذلك عضو القيادة القطرية لحزب البعث هاني الفكيكي:

« لا اذكر انني استكرت التعذيب أو أدنته، و كنت كغيري من ثوريي ذلك الزمان أرى حماية الثورة و الحزب فوق أي اعتبار آخر، و إن إذلال الخصم و إبادته هما من صميم العقيدة و أساليب الحزم الثوري. و لئن استعان الشيوعيون بمحكمة المهداوي لإتمام ما كانوا يمارسونه في أقبية التعذيب و إخراجة "قانونياً"، فإن لجان التحقيق معهم و مراكز الاعتقال تجاوزت في الكثير من الأحيان تلك الشكليات، و مارست مسؤولياتها الثورية من دون رقابة.»⁵²³

كانت سياسية القمع الدموي هي المعيار الذي اتبعه "الحرس القومي" في الانتقام و الثأر من كل ما له رائحة اليسار، بغض النظر عن براءة الإنسان. و قد القي القبض على جميع أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، الذين حاولوا تنظيم تظاهرات ضد الانقلاب و لكنه فشل، لأن الكوادر لم تكن مستعدة بل كانت في حالة انتظار سلبي.⁵²⁴ كما عانت الفئة المثقفة و المفكرة من اليساريين معاناة مريرة، تحملت خلالها صنوف من التعذيب و القتل و الإهانة لكل ما يتعلق بكرامة الإنسان. و قد قتل أكثر من ثلاثة آلاف شخص حسب التقديرات." و كتب هاني الفكيكي: « فقد باتت تصفية الشيوعيين "واجباً قومياً"، كل من يتحفظ عليه أو يتردد فيه يعدّ جباناً، بعد أن كانت من قبل واجباً إسلامياً.»⁵²⁵

كما « أصبح روتينياً أن يدخل الحارس القومي إلى المحكمة، و يمد يده إلى قفص الاتهام ليخرج منه من يشاء من المتهمين، و يترك خلفه القاضي مندهشاً، خجلاً، و

"سلام عادل - سيرة مناضل" ثمينة ناجي يوسف و نزار خالد، دار المدى الثقافي للنشر - دمشق 2001، الجزء الثاني، ص 385-387

⁵²³ - "أوكار الهزيمة، تجربتي في حزب البعث العراقي"، هاني الفكيكي، رياض الرئيس للكتب و النشر،

1993 - لندن. ص- 276

⁵²⁴ - « لقد قتل تحت التعذيب معظم أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي: " سلام عادل - حسين الرضي"، سكرتير الحزب، و جمال الحيدري، محمد صالح العبلي، محمد حسين أبو العيس، جورج تلو، عبد الرحيم شريف، حمزة سلمان و نافع يونس.»

"من الذاكرة - سيرة حياة" صالح مهدي دكلة، دار المدى للثقافة و النشر، دمشق 2000، ص- 104

⁵²⁵ - "أوكار الهزيمة، تجربتي في حزب البعث العراقي"، هاني الفكيكي، رياض الرئيس للكتب و النشر،

1993 - لندن. ص- 95

خائفاً. لكن القاضي تجنباً للإجراج يضطر في النهاية إلى الخضوع و التظاهر بالموافقة.⁵²⁶»

و أستمر "الحرس القومي" يجوب شوارع العاصمة بأسلحته، يفتش عن الخونة "أعداء الشعب"، ما أكثر أعداء هذا الشعب و ما أقل أصدقاءه! فكل واحد يقفز إلى السلطة، منادياً بالقضاء على أعداء الشعب. و تتكرر الأغنية ثانية « نحن لسنا ضد الشعب و إنما ضد المتآمرين العصاة من المجرمين أعداء الشعب»!
و قد هلك الشاعر بدر شاكر السياب لانقلاب 8 شباط، و اعتبره ثورة عندما كان في لندن للعلاج. و نظم قصيدتين، الأولى بعنوان "ثورة 14 رمضان" و الأخرى "قصيدة إلى العراق الثائر" يحي الجيش العراقي الذي قضى على عهد عبد الكريم قاسم، و يكيل المديح له، و التفاؤل بعهد جديد:

ألف لسان جاء عندك يشكر لإيفاء ما أسديت؟ هيهات يقدر

تأرت لشوآف⁵²⁷ و أمطرت ناظماً⁵²⁸ بما روى القبر الذي كاد يطمر
و سد من التهريج أعلاه قاسم و ما كان إلا كاسمه فهو يشطر
لك الحمد إذ أرويت بالثأر أرضنا فسرنا على الدرب الذي كاد يطمر

و قصيدة أخرى بعنوان "قصيدة إلى العراق الثائر" مطلعها:

عملاء "قاسم" يُطلقون النارَ، آه، على الربيعِ
سيزوب ما جمعه من مال حرام كالجليذِ
ليعود ماءً منه تطفحُ كل ساقيةٍ، يُعيد
ألقَ الحياةَ إلى الغضون اليابساتِ فتستعيد
ما لَصَّ منها في الشتاء القاسميّ.. فلا يضيع

526 - "عراق 8 شباط، من حوار المفاهيم إلى حوار الدم" مراجعات في ذاكرة طالب شبيب، د. على كريم

سعيد، دار الكنوز الأدبية، بيروت، الطبعة الأولى 1999، ص - 169

527 - الشوآف هو الذي قام في الانقلاب الفاشل في مدينة الموصل في آذار 1959، (ب.ش)

528 - ناظم الطبقجلي من الضباط الأحرار، شارك في التحضير لثورة 14 تموز 1958، و القضاء على العهد الملكي، و قد أعدم في عهد عبد الكريم قاسم، متهماً بالتآمر على الزعيم. (ب.ش)

يا للعراق!

ثم يقول:

هرع الطبيب إليّ و هو يقول: "ماذا في العراق؟

الجيشُ ثار و مات "قاسم".." أيّ بُشرى بالشفاء!

و لكدتُ من فرّحي أقومُ، أسيرُ، أعدو دون داء.

ثم يقول:

فلتحرسوها ثورةً عربيّةً صُعبُ "الرّفاقُ"

منها و خرّ الظالمون،

لأنّ "تموزَ" استفاق

من بعد ما سرق العميل سناه، فانبعث العراق⁵²⁹.

و لكن من سخرية الأقدار أن الجيش و النظام الجديد الذي مدحه في هاتين

القصيدتين، "بعودة تموز و بعث العراق"، قام بفصله من وظيفته و اعتبره من أزلام

عبد الكريم قاسم! فقد كرمه عبد الكريم قاسم بدفع مبلغ سفره و علاجه في لندن. و

قضى نحبه في الكويت بعيداً عن العراق.

* * *

و لعبت الصدفة من جانب محمد شرارة، حيث كان بعيداً عن العراق في تلك

الفترة، فقد سافر إلى الصين في بداية عام 1962، و تخلص من الانتقام الذي كان

سيلقاه أو ينتظره على أيدي ميليشيا "الحرس القومي" الذين أصبح عددهم ثلاثين ألف

شخص⁵³⁰، لكن عانت عائلته من التفتيش و الفصل من الوظيفة.

عندما وصل بكين وجد العمل الذي خصص له، ليس في حقل التدريس و إنما عين

مستشاراً للقسم العربي بدار النشر في اللغات الأجنبية. لم يرق له نوع العمل، و

لكن "حذار من السؤال"، في بلد لا يجوز فيه السؤال أو الاستفسار. و كان عليه

الصمت و قبول العمل الذي نيظ به.

و أكد على ذلك د. احمد العلبي:

529 - "قصيدة إلى العراق النائر"، "مَنْزِلُ الاقْنان"، بدر شاكر السياب - الأعمال الشعرية الكاملة" دار

العودة - بيروت 2000، المجلد الأول ص 309-311

530 - "أوكار الهزيمة، تجربتي في حزب البعث العراقي"، هاني الفكيكي، رياض الريس للكتب و النشر،

1993 - لندن.

« لم يكن محمد شرارة راضياً عن الوضع في الصين، لكنه لم يتحدث ملياً، و لم يكن متفقاً مع الرفاق في الصين في الخلاف الذي حدث بين الصين و الاتحاد السوفيتي، و كان ميالاً إلى الاتحاد السوفيتي. و قد حدثني إن الإنسان غير الصيني يشعر بغربة، لأن موقفهم مرتاب من غير الصيني، و كان الرفاق متشددين حتى لو كان شيوعياً مثلهم. هنالك نوع من الانغلاق الاجتماعي في الصين. لكنه كان متحفظاً في الكلام عن الصين.»⁵³¹

و ليس من المستبعد أن يشعر محمد شرارة بالغربة و الوحدة، و عدم الراحة في الصين ف "الغريب غريب في غربته"، كما قال أبو حيان التوحيدي، و تجلت تلك الغربة و اضحة في القصيدة التي نظمها بعيداً عن أهله و أحبائه أثناء العيد في عام 1963، و مطلعها:

تنفس في السهول و في الهضاب
ثم يقول:

أعيّد أنت تختلج الأغاني
يهدده القطا في الدوّ لحناً
به و تطل في المتع العذاب؟
و تنتشره الحمام في السحاب
و أين بلابل الدنيا: صحابي
إذا ما كنت فيه، فأين أهلي

* * *

فلا بلقيس تتعش مقلتها
ولا "الشعر الضحوك" تشع حولي
و لا إلهام تنساب ابتساماً
و عزة كالفراشة في شذاها
دروب الركب إن تعبت ركابي
روائعه و لا "وتر الرباب"
كما تنساب أغنية الشهاب
تحوم و لا تمر على رحابي

* * *

و أين حلاوة الدنيا جهاد...
و وضاح! و مالي لا أراه؟
و إبراهيم جوهرة الشباب
و كان أرق معنى في كتابي⁵³²

531 - مقابلة مع د. أحمد غلبي، بتاريخ 2008/2/12

532 - قصيدة "في العيد" نظمت عندما كان في الصين في عام 1963. بلقيس هي بنت محمد شرارة، و إلهام ابنة أخيه حسين شرارة، و عزة ابنة أخيه عبد اللطيف شرارة، و جهاد و إبراهيم ولده، و وضاح ابن أخيه عبد اللطيف شرارة. (ب ش)

كانت الصين ترزح تحت عبء من التخلف الاجتماعي و الاقتصادي و الثقافي، و عندما رأى الفلاحين في ضواحي بكين، يحرثون الأرض بدل الدواب على سكة المحراث، سأل:

« أبمثل هذا العالم نغني؟».⁵³³ فقد راوده الشك لأول مرة، عندما رأى بأعينه تطبيق نظام شبيه بالنظام الشيوعي المشابه للاتحاد السوفيتي. و شاهد كيف يستغل البشر، الذي لا يختلف عن استغلاله في عصر الإقطاع في أوروبا في القرون الوسطى.

و قد كتب رسالة إلى ابن أخيه وضاح شرارة، رداً على الرسالة التي بعثها إليه، و التي سأله فيها عن وضع النظام في الصين، إذ كانت تطرح الأسئلة من قبل الشيوعيين في فرنسا عندما كان تلميذا في تلك الفترة، بعد الاختلاف الإيديولوجي الذي حدث بين الصين و الاتحاد السوفيتي.

و كانت فحوى الرسالة: « إن هؤلاء الناس الذين يزعمون الدفاع عن نظام اشتراكي هم أقل الناس جدارة بالكلام عن الاشتراكية، و رأيت في الصين ما لم أراه في أي مكان، حتى في العراق المتخلف و الذي يسوده الإقطاع الظالم، و لكنني لم أرَ ما رأيته في الصين. فالفلاحة على ظهور البشر بدلاً من على ظهور الدواب. و كما تعرف في مثل هذه البلاد " الذين يدافعون عن الاشتراكية الناصعة"، يراقبون أقل أو أصغر كلمة في الرسائل، حيث تفتح الرسائل تحت الرقابة المشددة و تقرأ من قبل المترجمين، الذين يتقاضون رواتب تكلف الدولة كثيراً من الأموال، التي تصرف لهذا الغرض فقط! و بعد ذلك ختم نقاشه السياسي الذي يتعلق بالنقطة التي سألتها عنها. حيث كان النقاش بخصوص هذا الموضوع معتمداً على الحماس و ليس على المنطق أو العقل. و ختم الرسالة: هذا غير مهم و المهم ان هذه الرسالة هي نوع من المغامرة، كتبته لك جواباً عن طلبك».⁵³⁴

أي إن إرسال مثل هذه الرسالة ستعرضه إلى الخطر، إن قرأها المترجمون، و ربما يفقد بسببها وظيفته. و كما كتب "حنا مينا" عن الصين في تلك الفترة: « الصينيون

⁵³³ - في تأييد محمد شرارة، "أعرف يا عمّ كنا نطلّ على المصطبة"، وضّاح شرارة، جريدة النهار

1979/7/20

⁵³⁴ - مقابلة مع وضّاح شرارة، بتاريخ 2008/1/30

يراقبون كل شيء و يعرفون كل شيء و يسكتون عن كل شيء، مع لطف شديد و تقرير مفصل، يضاف إلى ما سبقه من تقارير، يجعل اضبارته تتضخم.⁵³⁵ كما بعث إلى و ضاح رسالة ثانية، فحواها:

« مضت الرسالة بسلام و لم يسأل عن فحواها، و لم يكن عنده موقف من الاتحاد السوفيتي، و لكن الخطابات كانت من كلا الجهتين، استهلاكية و مناورة و فيها كذب لا يقاس و لا يحصى، رغم معرفته بالاتحاد السوفيتي، من خلال قراءاته التي تدل عن اهتمام الاتحاد السوفيتي بمعيشة الناس أكثر مما في الصين.»⁵³⁶

ساعت بعد فترة، العلاقة بينه و بين المسؤولين عن إدارة المجلة في بكين، عندما رفض ترجمة مقالات ضد الاتحاد السوفيتي، لاتخاذ موقفاً مبدئياً أدى به إلى عدم موافقته في أن يزج نفسه في مثل هذه المعارك. و كان يعتقد أن مثل هذه المعارك الإيديولوجية ستؤدي بالدول الرأسمالية إلى استغلال الموقف، و إضعاف الجبهة الاشتراكية. أدى موقفه هذا إلى توتر بينه و بينهم، و لم يستطع التوصل إلى أي نوع من التفاهم أو الانسجام معهم. و انطبق عليه ما كتبه "حنا مينا" عن الصينيين:

« الصينيون جميعاً منغلزون. متعصبون إلى الدرجة القصوى، بالنسبة لما يحملون من أفكار، و لاسيما أفكار ماوتسي تونغ، و لانفع في النقاش معهم ... يثنون عليك لاستمالتك. لاشك إن لديك الكفاءة، لكن الكفاءة الأهم هنا، أن تكون معهم، أن ترد ما تسمع منهم.»⁵³⁷

لذا وجد محمد شرارة نفسه في قلب الإعصار الفكري الأيدلوجي، الذي قسم الدولتين الشيوعيتين إلى معسكرين متناحرين في عام 1963.

« فهو في غربته، غريب مرتين: الأولى لا يستطيع العودة إلى وطنه، و الثانية لأنه يختلف مع الذين يعيش معهم في الفكر و المبدأ، و هذه هي الغربة الأمر، التي تركت في روحه جرحاً لا يندمل. ... ثم الحملات المكشوفة العنيفة، بين بلدين كبيرين، كان التحالف بينهما، في الماضي، يرتفع إلى مرتبة المقدس.»⁵³⁸

535 - حدث في بيتاخو، حنا مينا، دار الآداب - بيروت، الطبعة الثانية 1998، ص- 63

536- مقابلة مع وضاح شرارة بتاريخ 2008/1/30، فحوى الرسالتين اللتين بعثهما له محمد شرارة في عام 1962-1963، و لكن أتت عليهما النار، مع ما أتت عليه في داره في سوق الغرب، أثناء الحرب الأهلية في لبنان.

537 - حدث في بيتاخو، حنا مينا، دار الآداب - بيروت، الطبعة الثانية 1998، ص- 271

538 - المصدر نفسه، ص- 70

و شعر محمد شرارة بالنفور عندما رفضت الحكومة الصينية تجديد الفيزا له، كما رفضت السفارة العراقية تجديد جواز سفره، فاضطر إلى ترك الصين، متجهاً إلى البلد الذي رفض أن يكتب ضده!. و كان يتوقع أن يفتح الإتحاد السوفيتي ذراعيه له عندما وصل العاصمة موسكو، بعد أن و عدوه في أن يدرس في إحدى جامعاتها، و لكنه وجد نفسه كرة تتقاذفها العقلية المتزمتة التي ترفض الاستماع إلى الحقائق. و لأنه كان في الصين، فاعتبر أنه موالٍ إلى الأيدولوجية الصينية. لم يستطع محمد شرارة، إيجاد عمل له بعد انتظار شهرين في موسكو، و وجد نفسه مطارداً في بلده غير الاشتراكي، و غير مرغوب فيه في البلدان الاشتراكية! ففعل راجعاً إلى و طنه لبنان، بعد الخيبة التي أصابته في الصميم!⁵³⁹

لقد آمن محمد شرارة بالحركة التقدمية، و هي الهدف الذي وضعه نصب عينيه. و لقد مرّ في مسالك و عرة مملوءة بالمحن بسبب جرأته في نقد الأوضاع التي كانت سائدة في العراق على المستوى السياسي و الاجتماعي و الاقتصادي و الثقافي، و كان يعرف جيداً إن الطريق الذي سلكه طريق وعر، يتطلب منه في كل خطوة يخطوها، البذل و التضحية في سبيل مفاهيمه الفكرية. عرف السجن و المعتقلات و المطاردة و النفي، لكنه رغم كل ذلك أختار هذا الطريق المملوء بالصعوبات و المحن، و هو مطمئن إلى ان ذلك لن يؤثر عليه. فلم يصبه الوهن و لم تضنيه المعارك التي خاضها. كان صارماً في موقفه لا ترزعه الأحوال. فالظماً و الحنين و المثل العليا التي كان يحلم بها، جعلت له رؤية بعيدة تتغلغل في أعماق الحياة. و لكن بعد التجربة التي مرّ بها في الصين و الاتحاد السوفيتي، ساورته الخيبة لأول مرة، خيبة في مواقف المسؤولين و سلوكهم في تطبيق الأيديولوجية الماركسية التي نذر حياته لها، و هذا ما أحس و مرّ به الشاعر التركي "ناظم حكمت" عندما ذهب إلى الاتحاد السوفيتي. لقد أصدمت المثالية بجدار الواقع المرّ، لكن محمد شرارة لم يستطع أن يتخلص منها! فقد خبت - لكنها لم تمت عنده - تلك المثاليات التي كان يؤمن بها، المحاطة بهالة من التقديس و التي اعتبر فيها نظام الاتحاد السوفيتي قائم على المبادئ الإنسانية الرفيعة.⁵⁴⁰

539 - " في بلدنا غير الاشتراكي نطارد، و في البلدان الاشتراكية نطارد، فأين نذهب؟"، "حدث في بيتاخو"،

حنا مينا، دار الآداب - بيروت الطبعة الثانية 1998، ص- 272

540 - مقابلة مع سكنة شرارة بتاريخ 2008/4/9، بيروت - لبنان

و لأن محمد شرارة كان إنساناً مستقيماً فلم يتحمل جمود "المدرسة الدينية" عندما كان تلميذاً في دراسة العلوم الدينية في النجف، لكنه عندما أصبح شيعياً أصبح ملتزماً بالنظرية الماركسية، لكن استقامته و وجدانه جعلاه ينكر سوء تطبيقها، و لم يجد في مخيلته بديلاً لها، بينما وقف في النجف موقفاً حازماً معترضاً على سلوكية التعليم و على الرجعية الدينية، عجز في هذه الحالة عن الاعتراض على سلوكيات الحزب الشيوعي، فهيمنت عليه حيرة مستمرة في تلك الفترة، و لكي يبرر هذه الحيرة، كان يعتبرها دائماً أخطاء يقع بها الحزب و من الممكن تصحيحها.⁵⁴¹

« عاد محمد شرارة من الاتحاد السوفيتي بشعر طويل، نحيل البدن، لم يستطع أن يذهب إلى حلاق كي يخلق شعره، لوجود صف طويل من الناس في انتظار دورهم لقص شعورهم في موسكو. و قد خاب أمله عندما رأى بأم عينيه الكذب و النفاق، و المعيشة التي يعاني منها الناس في أبسط الأمور، بالقياس إلى البذخ الذي كان يعيش فيه أعضاء الحزب الشيوعي، من السيارات و الفيلات الفارهة و الطعام الجيد و الشراب الفاخر، و ارتداء أحسن الملابس و استعمال أفخر العطور. و قد قرر العودة إلى لبنان قائلاً: "لا يزال في رأسي بعض المثاليات التي لا أود أن تتروّل". كان يأسف على أولئك الذين دخلوا السجون و تعذبوا، و منهم من مات لأجل عقيدته، و المثاليات التي يؤمنون بها. و قد عاد خائب الأمل لكنه كان حذراً في الكلام.»

541 - و قد بحثت هذا الموضوع مع رفعة الجادرجي، و سألته عن سبب الشك و الحيرة في وجدان محمد شرارة بعد أن عاد من الصين و الاتحاد السوفيتي؟ و هل كان سبب الحيرة هو خطأ في رؤيته إلى الحركة التقدمية و الشيوعية؟ أم أن هناك تناقضاً في وجدانه بين ما آمن به من إنسانية مقابل الالتزام الذي فرضه الحزب الشيوعي عليه؟ و هل سبب حيرته، هو في التناقض الموجود بين متطلبات الالتزام و ضمير الفرد؟

« و اختصر رفعة الجادرجي جوابه في خلاصة التطور التاريخي الذي أدى إلى ظهور الماركسية، و من ثم الشيوعية:

« لكي نتمكن من معالجة هذه المشكلة، مشكلة التعارض بين مطلب الالتزام، في مقابل حرية الضمير، و هي مشكلة ما كان لها أن تظهر، بالحدة التي ظهرت فيها، لو لم يظهر المجتمع المدني. و لذا سيكون من المفيد أن نعرض هنا مختزلاً لهذا المجتمع و علاقته بالمجتمع الأهلي. و من ثم نسطر بعض أهم المبادئ التي انبثت عليها الماركسية. و نشير إلى مبادئ الأحزاب الشيوعية اللينينية، و علاقة الأحزاب الشيوعية العراقية، و موقع محمد شرارة في هذه المركبات المبدئية و السياسية.

« لقد ظهر المجتمع الأهلي مع ظهور الإنسان العاقل، و ينبني هذا المجتمع على التماسك الاجتماعي الذي تفترضه العلاقة البيولوجية، و التي تتضمن العائلة و القبيلة. و مع تطور مجتمع الإنسان، امتدت صيغة هذا التماسك لتشمل الانتماء الديني و العقائدي، كما تشمل العلاقات المهنية و غيرها. لقد استمر تركيب المجتمع مبنياً على التماسك الفتوي لحين ظهور عصر النهضة، سوى بعض الفجوات التاريخية، كالمجتمع الإغريقي و الروماني، التي ظهرت لفترات قصيرة حيث أصبح التماسك الاجتماعي، مبنياً على التضامن بدلاً من الالتزام. إذ عندما جاءت الأديان الإبراهيمية أكدت على التماسك الفتوي و القبلي و الديني و الطائفي. و لم يخفف هذا الاتجاه إلا مع ظهور عصر النهضة، و من ثم حركة التنوير التي أسست لأول

مرة في تاريخ تطور إدارة مجتمع الإنسان، التنظير و المبادئ التي تفترض مساواة الأفراد في الحقوق، و تجاوز الالتزام الفئوي، و استبداله بالتضامن الاجتماعي.

لقد أُنشئ التضامن الاجتماعي على حق حرية الفرد في العقيدة و الانتماء، فأصبحت حرية إرادة الفرد هي التي تقرر صيغة الانتماء و جهته. و حينما منح المجتمع الإغريقي هذه الحرية إلى الفلاسفة و العلماء، كانت هذه المنحة من قبل المجتمع. غير إن حرية الفرد ليست منحة في حركة التنوير، و إنما متأصلة في إنسانية الإنسان. و هذا هو التباين الجوهري بين جميع رؤى و مبادئ الحركات السياسية، في تنظيم و إدارة المجتمع، في مقابل الليبرالية. إن إدارة و مقومات بيئة المجتمع المدني متداخلة مع الرؤى الليبرالية، فكل منهما يدعم الآخر، و حينما يعجز أحدهما من إدامة نفسه، سيتعطل ظرف وجود الآخر.

« بعد منتصف القرن التاسع عشر و لغاية منتصف القرن العشرين، كانت الرؤية الماركسية ربما أكثر حركة سياسية تحررية فعالة في الكثير من أرجاء العالم. و كانت فعالة في بيئتين متباينتين في تركيبها الاجتماعي و تقدمها الحضاري: فهناك ماركسية/ شيوعية أوروبا الغربية التي قاعدتها مبنية على مجتمع مدني متقدم، و في المقابل هناك شيوعية الشرق الأوسط، التي قاعدتها مبنية على مجتمع أهلي. لقد جاءت المبادئ الماركسية من ضمن المجتمع المدني، و من صلب الحركة التنويرية. و لا يظهر المجتمع المدني من غير نضج مناسب لحركة التنوير.

« كما ظهرت مبادئ متعددة متداخلة، في أدب الفلسفة و التنظير الاجتماعي الذي دعم حركة التنوير. جاء البعض منها مكملة لها و الأخرى متناقضة معها، و التي ألفت بمجموعها قاعدة تركيب الماركسية، و من ثم الشيوعية اللينينية التي أحدثت تغييرات أخرى في الرؤية الماركسية. و سأسطر ما يهمننا منها في هذا البحث:

1 — مفهوم تطور التاريخ الذي جاء به "جيامباتيستا فيكو Giambattista Vico" 1744 — 1668، الذي يفترض علاقة عضوية بين العمل و تطور المعرفة، كما يفترض أن يحصل تطور المجتمع حسب مراحل متعاقبة، و حسب دورات متعاقبة أيضاً، بمعنى إن تطور تاريخ حضارة الإنسان هو محصلة لتفعيل العمل. 2 — جاءت البروستاتانية بالليبرالية بصيغتها الأولى عندما اعتبرت العبادة مسألة شخصية بين المتعبد و الله. و من ثم جاءت الطبقة الوسطى، البرجوازية، في القرن الثامن عشر و التاسع عشر، بالليبرالية بصيغتها الثانية، حينما نظرت المساواة بين كافة أفراد الفئويات: أي مختلف الأثنيات و الأديان و القوميات.

3 — يؤلف التفاعل الجدلي بصيغته المثالية التي جاء بها "هيجل"، قوى تفعيل التطور الاجتماعي، و من ثم صيغته المادية، التي جاء بها "ماركس".

4 — جاءت حركة التنوير بالموسوعة encyclopedia، في القرن الثامن عشر، فسببت انتشار المعرفة بمفهومها المادي مقابل الأوهام و غيبيات الأديان التي كانت سائدة، فاطلع عليها الكثير من المتعلمين في أوروبا و تأثروا بها.

5 — اعتمد ماركس مفهوم قيمة العمل الذي جاء به ريكاردو.

6 — اعتمد ماركس المفهوم المادي لتطور التاريخ، الذي يفترض تحقق صيغة الإنتاج، الوجود المادي و المعنوي للعلاقات بين الأفراد، و تبعا لذلك مرحلة تطور علاقات المجتمع.

« ندلنا هذه الفقرات و مرجعياتها على إن الماركسية، كموقف فلسفي من الوجود لتطور المجتمع، ما كان من الممكن لأي من هذه الفقرات أن تظهر ضمن القدرات المعرفية و الفكرية للمجتمع الأهلي، مما يعني أن القاعدة المعرفية للماركسية هي المجتمع المدني، و حركة التنوير. مع ذلك سحبت معها الماركسية بعض المفاهيم من المجتمع الأهلي، و أهمها:

7 - كردود فعل للرؤية المادية، ظهرت الحركة الرومانسية في القرن التاسع عشر، و منها تولدت رؤية اليوتوبيا utopia، امتدادا لها الرؤية الخلاصية salvation، التي ترجع إلى الرؤية و الأيديولوجيات الإبراهيمية، و الأديان بعامتها. كما ظهر في الماركسية منحى لوضع الحلول المثلى، الحاسمة و المطلقة، و هي كذلك رؤى ترجع إلى المثالية، و التي يرجع أصلها إلى رؤية دينية.

8 - نظر "هيجل" إن الدولة خير بذاتها، و أصبح الفرد تابعا لها. اعتمد ماركس هذه الرؤية بعد أن صاغها بمفهوم تبعية الفرد لقضية تطور المجتمع، مما جعل الفرد تابعا لضروريات التاريخ، فعطل مفهوم حقوق الفرد الذي جاءت به الليبرالية. و هنا كذلك ترجع رؤى مركزية الوجود، إلى السلطة المركزية في المجتمع الأهلي، كما إلى رؤى التوحيد الإلهي التي جاءت به الزرادشتية/ الإبراهيميات.

9 - تفترض الماركسية قدرة تنبؤ مراحل التطور، بما في ذلك تنبؤ صيغة جديدة "خلاصية" المجتمع من الاستغلال. و هي رؤى أشبه بالخلاصيات التي جاءت بها الزرادشتية/ الإبراهيميات.

10 - يفترض المفهوم الفئوي البدائي المعتمد من قبل المجتمع الأهلي: «من هو ليس منا فهو علينا». و قد اعتمدت هذه الرؤية من قبل اللينينية، و أصبحت نهجاً عاماً لغالب الأحزاب الشيوعية. و هو موقف انبنت عليه مختلف صيغ الفئوية التي تؤلف قاعدة المجتمع الأهلي.

11 - منذ أن ظهرت كتابة التاريخ، و منهم هيروdot و مؤرخو الحضارة الإسلامية، اعتبروا ان سبب محرك أحداث التاريخ هي إرادة و قدرة إلهية. لم تتغير هذه الرؤية، لقوى دفع أحداث التاريخ إلا مع ظهور "فيكو" - الذي اشرنا إليه في الفقرة (1)- في أوائل القرن الثامن عشر. و من ثم جاء ماركس في منتصف القرن التاسع عشر. اعتبر فيكو حركة تفاعل العمل و العقل هما المحرك للتاريخ، أما ماركس فاعتبر المحرك للتاريخ هو التناقض للتفاعل الجدلي ضمن حركة تطور الإنتاج، بأنها تنتهج خطأ مستقيماً لأحداث التاريخ. أي إن التاريخ محتّم عليه السير في خط محدد في مراحل التطور، بمعنى آخر: حتمية التاريخ.

لاشك في ان التاريخ يتطور بمراحل، و لكن لا يمكن أن نتكهن مراحل المستقبل القريب، كما إن هذه المراحل لا تسلك خطأ مستقيماً واضحاً، بل تتضمن نكسات و ردات. لم تظهر رؤية مفهوم الردات إلا في القرن العشرين، مع نضج مناسب في فلسفة التاريخ.

« تبين لنا الفقرات التي سطرتها، بأنها انبنت على نهجين متناقضين: تضمن النهج الأول، المسطر في الفقرات 1 - 6: تحرير الإنسانية، و إلغاء استغلال الإنسان للإنسان، و الرؤية المادية. إنها رؤى تتطابق، و لا تتعارض، مع مبادئ حركة التنوير.

« النهج الثاني: المسطر في الفقرات 7 - 11، تتعارض مع مبادئ حركة التنوير، لأنها تتعارض جذريا مع الليبرالية، بصيغتها الثانية، التي تفترض التوازن بين حق الفرد في مقابل حق الجماعة. و قد توضحت أكثر هذه العلاقة في القرن العشرين، حينما جاءت اللينينية و أغتت كليا حق الفرد، المتضمن بمفهوم الحزب الواحد، و احتكار قيادة المجتمع من قبل الحزب الشيوعي. هذا في مقابل تبلور الليبرالية في القرن العشرين، في مفهوم الحرية الإيجابية، حرية الجماعة، مقابل الحرية السلبية، حرية الفرد. و من بين الفلاسفة التي انضح تنظيرها هو أرايا برلين I.Berlin، في منتصف القرن العشرين.

« كان هذا وصفا للحركة الماركسية في أوروبا الغربية. و هي حركة معرفية تفاعلت و تداخلت مع المبادئ العلمية التي تمخضت عن مجتمع مدني و حركة التنوير، و التطور المعرفي الذي تبلور بالقدر المناسب، ليهيئ ظهور هذه الحركات و المبادئ، التي أهمها: الداروينية و العلوم الفيزيائية و البيولوجية، و تبلور مفهوم الدولة و استقلال السلطات بما في ذلك تأسيس البيروقراطية، و تقدم المؤسسات المعرفية و استقلالها عن السلطة المركزية و الدينية، و تحرر الفن من هيمنة الدين. لا يهمنا هنا بحث الردات الفاشية

و مشكلة الانتكاسات القومية و الحركات الأخرى الفتوية و اللا إنسانية التي ابتليت بها أوربا في القرن العشرين خاصة.

« حينما احتلت فرنسا و انكلترا بعض بلدان العالم العربي، أسست الجامعات و التعليم العام، و الصحافة، كما قامت بتأسيس فصل السلطات، أخذت عندئذ تظهر الحركات التقدمية في العراق و البلدان العربية الأخرى. غير أن تقبل المبادئ التقدمية و الإنسانية و الليبرالية و الماركسية في العراق و غيره من البلدان العربية، يختلف جذريا عن تقبلها في الغرب. فهناك في الغرب هم صناعاتها، و قد صنعوها ضمن تطور تأسيس المجتمع المدني، و تكمن تجربتها في ذاكرة قدر مناسب من القادة و عامة الأفراد في المجتمع. هذا لا يعني إن الفتوية قد زالت كلياً من عقل أفراد المجتمع المدني، و إنما يعني إن هناك كلجريات cultures ليبرالية بالقدر المناسب ضمن شبكة الكلجريات التي تقود المجتمع في الأزمات الاقتصادية و العسكرية. و بقدر ما يعجز المجتمع عن إدامة تركيب المجتمع المدني و ما يبنى عليه من رؤى ليبرالية، سيعجز عن إدامة نفسه، و يرجع إلى إحدى صيغ فتوية المجتمع الأهلي، و هذا ما حصل في ألمانيا الثلاثينيات.

« بينما استوردت هذه المبادئ في العالم العربي من قبل مجتمع غارق في تناقضات و خصومات و امتيازات و غيبيات، قائم عليها المجتمع الأهلي، و خاصة بصيغه البدوية و العشائرية و العائلية، إضافة إلى التخلف في مختلف فروع المعرفة، و غيرها من مركبات المجتمع الأهلي، بما في ذلك فقدان المؤسسات التعليمية و الأنظمة المدنية، و هيمنة الشرع على المعيش اليومي، و جهل القادة في السلطة و احتكارها، و ظهور الرومانسية القومية في الجيش.

« مع ذلك، اطلع البعض من المتعلمين على مبادئ الإنسانية، و الليبرالية، و تقبل البعض من مناحيها، و آمنوا بها. كما إن الكثير من الذين وعوا ضرورة إزالة الاستغلال الاقتصادي، أسسوا حركات وطنية و تقدمية، تعارض مصلحة الاستعمار مع التقدم الذي اخذوا يطمحون إليه. لم تنتشر الرؤية الليبرالية في العالم العربي بسبب عدم وجود مقومات المجتمع المدني، لتدعم ظهور هذه الرؤية. لذا كان ظهورها هشا، و منحصرا في مجموعة صغيرة من المفكرين intellectuals، و للسبب نفسه لم تؤلف قوى سياسية فعالة شعبية. لقد اكتسبت أحزاب هذه الفئة موقعا اجتماعيا محترما، لا بسبب ليبراليتها التي هي بعيدة عن تقبلها من قبل عامة الناس، و إنما بسبب استقامة قاداتها. فبقيت مؤسسات و أحزاب ليست شعبية هشة.

« أما الذين اطلعوا على المبادئ الشيوعية و اقتنعوا بها، و التي تبشر بتحرير الشعوب، و إلغاء مختلف صيغ الاستغلال، أقدموا و ألفوا الأحزاب الشيوعية، و التزموا بها. كان هذا غالبه تطورا وجدانياً و معرفياً، و لكنه حدث ذلك قبل أن يتعرض المجتمع إلى مرحلة المعيش في بيئة المجتمع المدني، و إسهامه في تنضيجه، و العمل على تجاوز الالتزام الديني و الفتوي، لذا كان غالبه حركة استبدال، و هو استبدال الالتزام الأهلي بنوع آخر من الالتزام الحزبي.

« و هنا يكمن سبب التناقض في موقف محمد شرارة. فهذا الرجل أمين و صادق مع نفسه، كما تدل سلوكياته و سيرته، و قد اطلع على أدب الغرب الحديث و المبادئ الإنسانية، و تقبل البعض منها. إلا أن تقبله حصل ضمن المعيش في المجتمع الأهلي. في الوقت نفسه، انتمى إلى الحزب الشيوعي، حيث يفترض هذا الانتماء الالتزام. لكنه الرجل الذي رفض قبل هذا الالتزام الديني. و ذلك لأن المبادئ الإنسانية و الليبرالية التي اطلع عليها و تقبلها، ترفض الالتزام و تتناقض جذريا معها، لأن قاعدتها تعتمد التضامن الاجتماعي. لهذا السبب وجد نفسه في تناقض معرفي و سيكولوجي و سلوكي، بين أمانة الانتماء الذي يفترض الالتزام، في مقابل أمانة حرية الضمير. و لذا أصيب بخيبة أمل، بعد ما عانى من سلوكيات التنظيم الحزبي، و بعد أن اطلع على واقع معيش الفرد في الاتحاد السوفيتي و الصين، مقارنة بمعيش الفرد في العالم الغربي البرجوازي.

لم استطع زيارة والدتي إلا بعد مرور أربعة أيام على الانقلاب، حيث وضعت الحواجز في الطرقات، من قبل "الحرس القومي" المنتشرين في كل زاوية من زوايا المدينة، يسألون عن الهوية!. قطعت أربعة حواجز من شارع طه إلى حي الكاظمين! حيث لا تتجاوز المسافة أكثر من أربعة كيلومترات.

طرقت الباب، و انتظرت، لم تفتح الوالدة الباب لي إلا بعد أن سمعت صوتي. فتحت الباب تدريجياً و ببطء، و كأنها غير متأكدة من الطارق!! أطل وجهها الشاحب، و قرأت بعينيها المذعورتين صور الرعب الذي هيمن على العراق! غابت الابتسامة الرقيقة من الوجه الضاحك، و تلاشى بريق العينين العسليتين الحنونين!. دخلت الدار، الدار صامته كصمت الموت!! الدار التي استقبلتني بالضحكات و غناء الشعر و ترنيمه، الدار التي كانت تنبض بقوة الحياة، بالجدل و النقاش حول سمور الشاي، أصابها الخرس و تبعثر أهلها في الشتات! رب البيت بعيد في منفى، و أبنته "حياة" في منفى آخر!

جلست بجانبها في غرفة الاستقبال. كانت مذهولة، بصرها يتوزع بين جدران الغرفة و السجادة! تبتعت نظراتها حتى التقت في ثقب كبير في السجادة المفروشة على الأرض! سيطر الاستغراب عليّ و حامت الأسئلة في رأسي، شعرت ان هذه الموجة العنيفة قد شملت أهلي أيضاً! وجدت نفسي فجأة أسأل عما حل بالسجادة و عن الثقب الذي يتوسطها؟ و ليس عما حل بهم خلال تلك الأيام العصيبة! رفعت رأسها و مقلتها مغرورقتان بالدموع و قالت: « جاء الحرس القومي في النهار الثاني من الانقلاب، و هجموا موجهين فوهات بنادقهم نحوي عندما دخلوا الدار، و أطلقوا عدة رصاصات من فوهة إحدى البنادق فاخترقت السجادة، و التصقت بجدار الغرفة بلا حركة، من الفزع الذي سيطر عليّ، كانوا يفتشون عن والدك و شقيقتك حياة، فأجبتهم أنهما تركا العراق منذ عامين!»!

« و إذا رجعنا إلى المجتمع الروسي، بلد اللينينية، فنجده مجتمع لم يتبلور المجتمع المدني فيه، و لم يستوعب مبادئ التنوير بالقدر المناسب قبل الثورة البلشفية. لذا لم يكن حظ المثقف الروسي الذي اطلع على مبادئ التنوير و ساهم في تطورها، و من ثم انتمى إلى الحزب الشيوعي، أفضل من زميله العراقي المتنور. لأن في كلا الحالتين، يتعارض ضمير التضامن الليبرالي مع تقبل الانترام و ممارسته. فوجد الروسي نفسه، بين بين، « ليس علينا، ولكنه ليس منا» عندما هيمن الحزب الشيوعي على المجتمع الروسي، فعاش في حيرة و تناقض سيكولوجي قاتل. و لذا كانت حيرة intellectuals الروسي أشبه بحيرة محمد شرارة.»

أصبح لوالدتي خبرة جيدة من خلال التجارب التي مرّت بها، بزوار الأمن، عندما تسمع طرق الباب العنيف في ساعة متأخرة من الليل. و ما أن تأكّدت من نجاح الانقلاب، حتى هجمت على المكتبة، قبل أن تداهما فرق "الحرس القومي"، جلست على كرسي في وسط ساحة الدار محاطة بالكتب و الأوراق. و لعت النار في برميل النفايات التي استقبلت مقالات و قصائد محمد شرارة! ثم ابتلعت كتب ماركس و أنجلز و لنينين و روايات كوركي و قصائد ماياكوفسكي، و لم تتجّ حتى كتب محاكمات المهوداي التي صفت في المكتبة بعشرين مجلداً، فأنت عليها النار! تأوه الفجر الحزين في ساحة الدار، و هي جالسة طيلة الليل، متجهمة الوجه، أمام البرميل تطعمه كتاباً كلما خبت ناره، فترتفع ألسنة اللهب ثانية لتبتلع كتاباً آخر. كان مهمما الأول منصباً على تخليص ولديها من قبضة "الحرس القومي"، تحق عينها ببوابة الدار كلما اندلعت ألسنة اللهب، خائفة من قرعه و هي لم تنته بعد من عملية الحرق. و ما أن انتهت من عملية الحرق، حتى هرعت، رغم برد شهر شباط الفارس، إلى تنظيف و غسل شظايا الرماد المتناثرة في كل زاوية من زوايا ساحة الدار. كانت تعلم إنها لا تستطيع أن تخبئ هذا الكم الهائل من الكتب عن أعين "الحرس القومي"، و لم يدر بذهنها في تلك اللحظات إلا فكرة واحدة: إنقاذ ولديها!! نامت في الصباح متعبة و لكنها بعيدة عن كوابيس القلق! و للمرة الثالثة في تاريخ هذه المكتبة، أصبحت و قوداً و أتت عليها النار!. لم يفكر محمد شرارة في إيجاد مخبأ أميناً لكتبه و مقالاته، لأنه لم يكن يملك بيتاً، بل كانت وظيفته تحدد مكان بيته، فكان في ترحال دائم.

فتش "الحرس القومي" الدار، نبشوا الصور و الكتب و الملابس، و لم يعثروا على شيء، شعروا بالإحباط، فقد خلت الدار من المطلوبين و الكتب!! حاولوا إلقاء القبض على ابنه إبراهيم عندما لم يجدوا والده، إذ كان أخذ البديل سائعاً منذ العهد الملكي!. كانت هي المرة الثانية التي يتعرض فيها إبراهيم للاعتقال، و لكن بعد التحقيق معه لمدة ساعتين، اقتنعوا ان لا علاقة له بالعمل السياسي.⁵⁴² تركوا الدار بعد أن زرعوا الخوف و الهلع في أعماق والدتي و شقيقي، و ظل الثقب في

542 - ترك إبراهيم بغداد لغرض الدراسة في انكلترا عام 1956، و عاد من انكلترا في نهاية عام 1962.

السجادة شاهداً على الوحشية التي تجلّى بها انقلاب عام 1963، و أصبح رمزاً لجرح عميق في أعماق فئة من الشعب العراقي.

نجا محمد شرارة و ابنته "حياة"! من الإبادة التي كانت تنتظرهما. و نجا من التعذيب الذي لحق برفاقهم، و لكن لم ينجُ ابنه جهاد هذه المرة من الاعتقال، ففي اليوم التالي القي القبض عليه عندما كان عائداً إلى الدار، و قضى بضع ساعات في المعتقل، لا لشيء إلا لأن لقبه شرارة! إذ أصبح الاعتقال على الهوية أمراً جديداً في ذلك الانقلاب. و لولا تركية أحد أصدقائه البعثيين لما أطلق سراحه، و لكان قابلاً في غياهب المعتقلات، التي ظهرت فجأة في كل ناحية من أنحاء القطر، كما ينفلق الكما و الفطر من الأرض.

كانت فرق "الحرس القومي" أو "فرق الاغتيال" - كما عُرف عنهم بين الناس - ينشطون ليلاً، يجوبون بأسلحتهم شوارع المدينة الميتة بسكونها، الفارغة من البشر، طارقين الأبواب، في إلقاء القبض على "أعداء الشعب"! و كثير من الذين القي القبض عليهم، اختفوا و لم يبق لهم أثر، حيث دفنوا في مقابر جماعية.

كان الوالد يعيش في الصين، في تلك الفترة العصبية التي مرّت على العائلة في بغداد، كان قلقاً على عائلته، لكنه مغلول اليدين، ليس باستطاعته تقديم أي مساعدة لها، إن كانت مالية أو معنوية. أما زوجته فشعرت ان كابوس الاعتقال و زيارة السجن قد أزيحا عن كاهليها، رغم زلزال الرعب الذي أحدثته زيارة "الحرس القومي" لها و ولديها.

لم تمضِ إلا ثمانية أشهر على الانقلاب، حتى انقلب عبد السلام عارف على حزب البعث، و الحرس القومي، و ذلك بعد تجاوزات الحرس القومي، « على قادة الجيش، و إيقاف سياراتهم العسكرية على الحواجز، و تقنيش ركابها من الضباط و معاملتهم بصورة غير لائقة... و هكذا بدأنا نشعر بأن الدولة التي نقودها أخذت تتفكك بفعل الأضرار التي يلحقها بها جهاز محسوب عليها و على الحزب الحاكم نفسه.»⁵⁴³

فخلع "الحرس القومي" أسلحتهم الخضر و رموا أسلحتهم أو أخفوها، و اختفوا فجأة من الشوارع مثلما ظهروا، فتنفس الناس الصعداء في التخلص منهم، في 11 تشرين

543 - "عراق 8 شباط 1963، من حوار المفاهيم إلى حوار الدم: مراجعات في ذاكرة طالب شبيب"، د. علي كريم سعيد، دار الكنوز الأدبية - بيروت، الطبعة الأولى 1999، ص - 171

الثاني 1963، عندما سيطر الجيش ثانيةً على زمام الحكم، و أعلن قانون الطوارئ. لم يكن عهد عبد السلام عارف أقلّ عنفاً من عهد حزب البعث، في استعمال البطش و التتكيل كأداة للحصول على الاعترافات من اليساريين و الشيوعيين.

إذ « كان عبد السلام دموياً في موقفه من الشيوعيين و الأكراد و يحمل حقداً ضد قطاعات شعبية واسعة... و قد نفذت أحكام إعدام سياسية كانت قد صدرت في عهد البعث" السابق، كذلك استمرت في احتجاز عدد كبير من المتعلقين من غير محاكمة و احتفظت و لو بدرجة أقلّ بالتعذيب كوسيلة أساسية في التحقيق مع السياسيين المناهضين لها في كل المعتقلات... و حصر التحقيقات بمؤسسات حكومية من شرطة و أمن و استخبارات... كان قتلى حكومة عبد السلام و طاهر يحي التكريتي خلال سنتها الأولى أضعاف مجموع الذين اعدموا في خلال الأربع سنوات و النصف التي قضاها عبد الكريم قاسم في الحكم... و الإعدامات في زمن قاسم كانت كلها بحق ضباط حملوا السلاح ضد سلطة قائمة»⁵⁴⁴

و لكن لم ينج محمد شرارة مما ترتب من نتائج على هذا الانقلاب، رغم بعده عن العراق، فقد أسقطت عنه الجنسية العراقية.⁵⁴⁵

عاش محمد شرارة بعد عودته من الصين إلى لبنان في ضيعة بنت جبيل، و قد زاره وضاح شرارة في تلك الفترة في آخر صيف عام 1963، و قضى معظم الشهر معه في بنت جبيل. و كانا في نقاش دائم حول ما يحدث في العالم، و عن الجزائر خاصة.⁵⁴⁶

544 - " العراق: البيروية المسلحة - حركة حسن السريع و قطار الموت 1963"، د.علي كريم سعيد،

الفرات للنشر و التوزيع، بيروت- لبنان 2002، ص192، 195

545 - أسقطت الجنسية العراقية عن محمد شرارة في عهد عبد السلام عارف الكتاب المرقم: 12627،

تاريخ: 1963/12/2

« نص المادة 20 من قانون الجنسية العراقية رقم 43 لسنة 1963 التي أجازت لوزير الداخلية سحب الجنسية العراقية. إذا قبل دخول الخدمة العسكرية في دولة إحدى الدول الأجنبية، أو عمل لمصلحة دولة أجنبية أو جهة معادية في الخارج، أو أقام بصورة معتادة أو انضم إلى هيئة أجنبية لتقويض نظام الحكم في بلده.»

"من هو العراقي؟ إشكالية الجنسية و اللاجنسية في القانونين العراقي و الدول"، د. حسين شعبان، دار

الكنوز الأدبية - بيروت 2002، ص- 92

546 - مقابلة مع وضاح شرارة بتاريخ 2008/1/30، بيروت - لبنان

و انتقل بعد ذلك إلى بيروت، و وجد عملاً في التدريس، في مدرسة "محمد علي الرز"، كان راتبه زهيداً، إذ كان الاستغلال واضحاً في معاملة المدرسين في المدارس الأهلية، التي هدفها هو الكسب و الربح.

كما التقى محمد شرارة في تلك الفترة بأعضاء من الحزب الشيوعي اللبناني، و لكنه لم ينتم إلى الحزب. و كان من جملة من التقى بهم حسين مروة الذي كان نشطاً في الحزب، ملتزماً بتعليماته، و قال وضاح عنه:

« كان حسين مروة حزبياً، ملتزماً، لا يخالف رأي الحزب. طلب مني أن أكتب مقالاً لجريدة "النداء" و قرأ المقال محمد شرارة و تحمس له كثيراً، و أعطاه إلى حسين مروة. و بعد أن نوقش المقال، وافق عليه حسين مروة، و لكنه فضل أن يأخذه إلى هيئة التحرير في الجريدة ليطلع عليه الرفاق. رفضت هيئة التحرير نشره، لأن المقال تضمن أفكاراً لا تتوافق مع سياسة الحزب. كان موقف محمد شرارة موقف الغاضب على جريدة "النداء" و الحزب و هي المرة الوحيدة التي شاهدت فيها محمد شرارة غاضباً مع حسين مروة قائلاً له: " انه لا يفهم لم تقف هذا الموقف مع هيئة التحرير و توافق معهم على عدم نشر المقال، بينما كنت المدافع عن نشره."⁵⁴⁷»

هذه الحادثة توضح لنا موقف حسين مروة و التزامه بما يقرره الحزب،⁵⁴⁸ بغض النظر عن اختلافه بالرأي معه أحياناً، لأن القيادة المركزية للحزب الشيوعي، مبنية على الالتزام و الشمولية. فالقيادة المركزية هي أدري من غيرها بمعرفة الوضع

547 - نفس المقابلة مع وضاح شرارة.

548 - مقابلة مع كريم مروة بتاريخ 2008/2/12

و يؤكد كريم مروة على الالتزام من قبل حسين مروة، فيقول: « كان حسين مروة شديد الالتزام بسياسة الحزب إلى حد المبالغة، و كنت أقول له أنت منقف كبير و يجب ألا تكون ملتزماً، فكان يجيب: إن كان الحزب مخطئاً فإنه يصح خطأه.

» لم يدخل الالتزام كتابات حسين مروة، و لكنه دخل عندما كتب عن القضايا السياسية بصورة عامة. و برز ذلك في مقدمة كتابه "التيارات المادية في الفكر الإسلامي"، حيث أدخل في الكتاب مقولات ماركسية على تاريخ قديم لا علاقة له بها. و هذه نقطة ضعف في الكتاب و لم يستمع إلى الآخرين. و هذا أحد أشكال التعبير عن الالتزام الحزبي. و لم يكن للحزب نظرية أدبية، و لكنه كان يتبع ما يسمى (بالواقعية الاشتراكية). ... و عندما كان يكتب في جريدة الحزب اليومية "الأخبار" كان يكتب تحت عمود بعنوان "من لحم و دم". و الكتابة كانت عن القضايا السياسية بصورة عامة. و لكنه أخذ يكتب بصراحة، و خاصة بعد ثورة 14 تموز. إذ التزم الحزب الشيوعي اللبناني التزاماً كاملاً في تأييد الثورة في العراق، و كان مؤيداً شعار "اعدم.. اعدم"، الذي رفعه الحزب الشيوعي العراقي، و قد دفعوا ثمن ذلك.»

العام، و بمعرفة إستراتيجيات الحزب، و من حق الأعضاء أن يدرسوا القرارات و يقدموا الاقتراحات، و لا يجوز لهم أن يعترضوا عليها، كما لا يحق لهم تغييرها بل الالتزام بها.

كما إن الحزب الشيوعي يختلف عن الأحزاب الأخرى، فهو حزب شمولي، يعتقد بأن هنالك نظرية تعطي كل شيء. و النظرية بمفهومها الماركسي "المبسط" تدعي بتنظيمها السياسي من انها حركة نقود التاريخ، و مطابقة للتطور التاريخي. لذا فان الاعتراض على النظرية هو اعتراض على ضروريات التاريخ. و لأن قرارات الحزب متطابقة مع ضروريات تطور التاريخ، فالقرار النهائي للقيادة، لأنها تمثل القرار الجمعي الذي هي أدرى من غيرها في تطور التاريخ. فكل فكر جديد، يجب أن يأتي ضمن هذه النظرية و لا يجوز تجاوزها، و إنما يجوز الإضافة إليها و توسيعها، من قبل القيادة و ليس من قبل الفرد. و لا يجوز حتى الاجتهاد إلا إذا كان يتماشى مع فلسفة الحزب و القيادة هي التي تقرر صلاحياته. فهي مظلة لا يمكن الخروج عليها أو منها.

* * *

كان الوالد في بيروت عندما تسلمتُ في عام 1964 رسالة مطولة من شقيقتي "مريم"⁵⁴⁹ تخبرني أنها و افقت على الزواج من زميلها في الدراسة المستر "جيم شو Jim Shaw"، و أخبرتني انها في الوقت نفسه، بعثت إلى الوالد رسالة تخبره في الموضوع.

هيمنت الحيرة عليّ في البداية، عندما اوكلت هذه المهمة بي، كي أرف الخبر إلى الوالدة! و أخبرت رفعة بالموضوع، فأيد موقف مريم من زواجها بأجنبي، و شجعني على ألا أتردد في أن أخبر والدتي بالموضوع. و لكن كيف باستطاعتي أن اخبرها عن اقتران أبنيتها بأجنبي! و أنا اعلم جيداً ان مثل هذا الخبر سيكون بمثابة زلزال يهدم الصرح الذي بنت عليه إيمانها؟ و دارت الأسئلة في رأسي، هل ستتقبل الوالدة الموضوع من غير أن تكون صدمة كبيرة لها، خاصة في تلك الفترة العصيبة التي خلت فيها الدار إلا من ولديها، إبراهيم و جهاد؟ و إن تقبلتها بصبر،

⁵⁴⁹ - سافرت "مريم" إلى انكلترا لإكمال دراستها و الحصول على الماجستير في عام 1958، و التقت بزميلها "جيم شو Jim Shaw" في جامعة ليستر Leicester.

فما سيكون موقف المجتمع منها؟ إذ لم يكن المجتمع العراقي رحباً و منفتحاً ليتقبل مثل هذه الزيجة!

كُتبتُ إلى الوالد ليكون عوناً لي في فتح كوة، استطيع من خلالها أن أجد الأسلوب المقنع في عرض الموضوع على الوالدة. إذ أعلم جيداً الفرق الشاسع في تفكير كليهما، من حيث الموقف و النظرة إلى الأمور. رحب محمد شرارة بزواج ابنته من أجنبي، و كان اختيارها كافياً لموافقته على الزواج، و اعتبره موضوعاً شخصياً، يخص ابنته "مريم" بالذات، التي اختارت رفيق حياتها. لذا اتفقتُ مع الوالد أن نترك الموضوع حتى تسافر و الدتي إلى بيروت، حيث يكون و قع الخبر أخف عليها بين أهلها و أقربائها!

سافرت و الدتي ذلك العام إلى الحج، حيث زارت بيروت قبل عودتها إلى بغداد. و قامت العائلة بطبخ فكرة الزواج من أجنبي بأسلوب شبه مقنع بالنسبة لها. فقلب اسم "جيم" إلى "جميل"، و هو الاسم الذي اختاره عندما أصبح مسلماً. و حافظوا على جنسية و الدته البريطانية، و انتحلوا جنسية مغربية لجدّه!!

التقت الوالدة بمريم و زوجها "جيم" في بيروت، و اتضح لها رغم الحكاية الطويلة عن هجرة جده من المغرب إلى انكلترا، ان جينات "جيم" أبعد من أن تكون قد اختلطت بدم عربي!!⁵⁵⁰. ف "جيم" شاب ضخم، يبلغ طوله مترين، تنتثر بقع النمش في وجهه الأبيض، و يتهدل شعره الأحمر على جبينه كلما حرك رأسه، فيرفعه عن عينيه العسليتين المختلفتين وراء نظارة سميكة. كانت الوالدة تتطلع إلى صهرها الجديد يرطن بلغة غريبة عن لغتها، و هي مقتنعة في أعماق نفسها من أنه غريب في كل ما تعنيه الكلمة من حيث شكله و مفاهيمه و بلده!! و انقلب الشك الذي ساورها في البداية إلى يقين و هي تتأمله يتحدث. و الحقيقة ان "جيم" محدث لبق، يطرز حديثه نكات متتالية، و تعلقو القهقهات و الضحكات بين الحاضرين، و هي تصغي إليه محاولة حل اللغز الذي يُضحك جميع الحاضرين!

و قد حضرا "جيم و مريم" الانتخابات النيابية التي جرت في لبنان في عام 1964، و استعرب جيم من زيف الانتخابات و شراء الأصوات. فقد كان شراء الأصوات

550 - عندما عادت الوالدة إلى بغداد، لم تكن مقتنعة بالقصة التي حكيت عن "جيم" و قالت لي: " إن جيم انكليزي ابن انكليزي، شو بدمك تزعبروا علي!!"

يرتفع كلما اقترب الوقت من إغلاق صناديق الاقتراع. كانت تجربة غريبة بالنسبة له، و هو القادم من بلد الديمقراطية.

و قد خسر في تلك الانتخابات النائب "علي بزي" ابن خالة محمد شرارة. فقد كان نائباً عن قضاء بنت جليل لمدة عشرين عاماً. و عندما علم محمد شرارة بخبر خسارة علي بزي في الانتخابات، قام حالاً و لبس ملابسه، قائلاً لأبنته "مريم": «الآن يحتاج علي بزي إلى صديق، و إلى دعم بعد خسارته النيابة.»⁵⁵¹

فمحمد شرارة لا يزوره بهذه السرعة لو كان قد ربح الانتخابات لأنه يعلم أن الناس سيلتفون حول الراح، و لكنهم ينفضون عن الخاسر. و هذا النوع من التعاطف الإنساني كان إحدى صفاته البارزة في التعامل مع معارفه.

ظلت زوجته متألمة بعد عودتها إلى بغداد من زواج ابنتها من أجنبي، و ذلك واضح في الرسالة التي كتبها الوالد لمريم بعد أربع سنوات على زواجها ينصحها ألا تأتي إلى بغداد: « لا يرجح أحد من العائلة مجيئك للعراق، و إذا كان بالإمكان أن تأتي في أول الصيف إلى لبنان كان ذلك أفضل و نلتقي كلنا هناك. و الأسباب معروفة.»

كانت مريم ترغب في زيارة بغداد و زيارة و الدتها، فعندما و صل الوالد في نهاية عام 1968، بعث لها برسالة ثانية من بغداد، يظهر فيها تفاؤله بالوضع العام في العراق:

« إذا بقي الوضع العام على ما هو الآن فبالإمكان أن تأتي لزيارة والدتك في بداية العطلة، و لا ملاحظة في ذلك. و الذي رأيته ان هناك مبالغة في تقدير الأمور. و والدتك متأثرة من معرفتها "جميل" بالشكل الذي بلغنا. إنها متأثرة بالفعل و لكن إلى حد ما. و لولا الخوف من بعض التثرثرات الرجعية لما تأثرت أبداً. إنها على العموم أحسن من غيرها بكثير.» .

* * *

كان إنتاجه الأدبي غزيراً في تلك الفترة رغم ساعات العمل الطويلة، فقد كتب عدداً من المقالات، بحث فيها مواضيع مختلفة مهمة، منها مقال يحدد فيه قيمة الفن، بعنوان: "الإبداع و الإحساس بالخيبة":

551 - مقابلة مع مريم شرارة بتاريخ 2008/7/16، لندن - انكلترا

« فالشاعر، أو الفنان بصورة عامة، الذي يخلج أمام الجمال أو المأساة، يحس انه تحول إلى طاقة، و إن هذه الطاقة تحاول أن تتطلق في إطار فني.»
و بحث من خلال هذا الموضوع نظرة هيجل و أرسطو و سارتر، و اتفق مع هيجل و أرسطو لكنه اختلف اختلافاً كلياً مع سارتر.

يقول هيجل: « إن الحاجة الشاملة المطلقة التي تؤدي إلى نشوء الفن، تعود إلى ان الإنسان واع مفكر، و انه يدرك و عيه لذاته بطريقتين: نظرية و عملية، و ذلك بقدر ما يملك من غريزة خلق ذاته هو نفسه في الموضوع المعطى مباشرة، أي في الموجودات و الكائنات الخارجية. و الإنسان يدرك هذه الغاية بتطوير الأشياء الخارجية عنه ... و ينعم من خلال الأشياء بطبيعته الخاصة التي أضفاها عليها، و مدها إليها، و هذه الحاجة تجتاز أشكالاً متباينة حتى تبلغ هذا النمط من إنتاج الإنسان لذاته، و هو ما يسمى بالأثر الفني.»

« و هذا التحليل الذي يعطيه في منتهى الروعة. فالفنان يضيف نفسه على الأشياء، و يمددها إليها، أو يسكبها فيها حتى تكون امتداداً لحياته ... فإذا كان الفن هو إنتاج الإنسان لذاته، كما يقول هيجل: أو التغلب على المأساة، ... فالذي لا ريب فيه أن الفنان الأصيل يبقى شاعراً بالفرق بين ذاته و الأثر الفني، أو بين انفعاله و تحوله إلى طاقة فنية.

« مهما كان أساس الفن و قيمته، الشكل Form أو المحتوى Content فلا بد و أن يكون له موضوع، و لا يمكن بأي وجه من الوجوه أن يتخلى عن الحياة، كل ما في الأمر من الفروق هو المدى، فالحياة قد تكون محدودة ضيقة، أو لا نهائية.. قد تكون ذاتاً خاصة، و قد تكون أمة، أو إنسانية بكاملها. و حكاية "الفن للفن" أسطورة لا أساس لها في غير أخيلة الفلسفة التي حاولت، و ما زالت تحاول، أن تبعد الفن عن الحياة الواسعة العريضة، و تحصره في قمم الذات الفردية، و مصيرها الهزيمة بالتأكيد.

« إذن فلا بد أن يكون للفن محتوى، و هذا المحتوى، سواء كان على صعيد الذات، أو الحياة الكبرى، يبقى اكبر من "الكلمة" التي خرج فيها.. أكبر من النغمة، إذا كان الفن شعراً أو موسيقى و كثيراً ما يشعر الفنان انه لم يقل شيئاً بالرغم من كل ما قاله و بالرغم من إبداعه، لان الشيء الذي في نفسه لا يزال اكبر مما يحمله الورق من كلمات، أو لأن البناء الفني في إطاره الهندسي لا يزال ناقصاً، أو عاجزاً عن

الأداء الكامل، و هذا هو السر في الشكوى التي نراها عند بعض الشعراء من "الشحوب" الذي يروونه في آثارهم الشعرية بعد إخراجها.⁵⁵²

* * *

و من جملة المواضيع التي كتب عنها هي السخرية، و التي بحثها في مقال عن الجاحظ بعنوان " الجاحظ و أسلوب السخرية"، تطرق فيه إلى موقف الجاحظ و أهميته في استعمال السخرية كسلاح من أسلحة الشك، و الثورة و الرفض:

« كان أبو عثمان و اقعياً فيما يكتب يدرس الأشياء و يختبرها، ثم ينتهي إلى النتائج. و الشك عنده أساس اليقين: (اعلم مواضع الشك و حالاتها لتعرف بها مواضع اليقين.. و ليكن قلبك إلى إنكار الخبر أميل). و في هذا الأساس يلتقي مع ديكرات الذي كان الشك روح فلسفته، أو يلتقي معه ديكرات فيما وضعه من أساس فكري. هذه النظرة الواقعية للحياة دفعته للكتابة في موضوعات استكبرت عليه، و أثارت بعض المتزمتين، فشنوا عليه غارة من الانتقاد الجارح، و حدثت بينه و بينهم معركة شديدة كانت السخرية فيها بعض أسلحته.»

فقد استعمل الجاحظ السخرية:

« سلاح من أسلحة الثورة .. و كثيراً ما تكون جروحها أقوى من جراح السيوف. ... و قلما ترى كاتباً كبيراً، أو شاعراً عظيماً خلت آثاره من السخرية أو التهكم.»

كما إن « السخرية نوع من الرفض و من هنا كان خطرها، و كانت قدرتها على هدم ما يستحق الهدم أحياناً، فيمسح عن وجوها الزينة المصطنعة، و يظهرها بكل ما فيها من بشاعة و قبح. ... و إذا قمنا برحلة في التاريخ رأينا صوراً كثيرة تلعب السخرية دوراً كبيراً في نزع ألقنتها، و وضعها أمام الأعين بكل ما فيها من عري، و بكل ما في العري من عاهات تثير القرف و التقزز حيناً، كما تثير الضحك أحياناً.»⁵⁵³

و يبرز محمد شرارة هذه الصفات التي غلبت على الجاحظ، حتى السخرية من نفسه لأنه كان دميماً قبيحاً جاحظ العينين، و التي قلما توجد بين المفكرين، و

552 - "الإبداع و الإحساس بالخبيثة" محمد شرارة، مجلة العرفان - لبنان، أيلول 1965

553 - "الجاحظ و أسلوب السخرية"، نظرات في تراثنا القومي، محمد شرارة، المؤسسة العربية للدراسات

و النشر 1982، ص- 98

خاصة في عصر الجاحظ، المبني على المدح و التزلف، و أن يسخر إنسان مثل الجاحظ من نفسه، فكتب:

« لم يكن حياً مجرداً للسخرية، إنما كان ثورة على المفاهيم التي غرق فيها المجتمع. فالقيمة للشكل، و إذا كان الشكل جميلاً ذابت أمام جماله جميع القيم ... و الجاحظ لم يكن شخصاً اعتيادياً، و كان يدرك ان هذه القيم سطحية، و ان القيمة الحقيقية للإنسان يجب أن تكون للعقل، أو للإبداع في مختلف فروع الحياة. و قد كان أبو عثمان أحد المبدعين لا في تاريخ العرب وحده، بل في تاريخ البشرية كلها. فإذا سخر من شكله فلا يسخر منه لأنه شكل قبيح، بل ليوضح لمن ينصبون الميزان أن الشكل ضئيل القيمة إذا لم يكن وراءه عقل مبدع. و قد ذهب الجاحظ و ذهب شكله، و بقي إبداعه، و سيبقى ما بقي للفن قيمة.»⁵⁵⁴

* * *

كان محمد شرارة يؤمن بمساواة الناس، و كان يتمتع و يتألم من الفروق الطبقيّة التي لها دور كبير في تصنيف الناس في المجتمع. و يعود السبب في ذلك إلى اطلاعه على حركة التنوير في القرن الثامن عشر، و النظرية الماركسية التي سندت موقفه في هذا الاتجاه. لذا علم بناته و أبناءه من الصغر على احترام الإنسان كإنسان بغض النظر عن الطبقة و العرق و الدين و اللون.

و للتأكيد على هذا الموقف، عندما أنهيت الدراسة الابتدائية و انتقلت إلى الدراسة الثانوية، كان في الصف تلميذة سوداء البشرة، يشبه تكوين جسمها و تكوين رديفها أجسام الأفارقة. كانت أنيقة في ملابسها، ترتدي آخر تقليعات الموضة، تجلبها سيارة خاصة عليها إشارة القصر الملكي. كانت هذه الفتاة من بين مجموع الفتيات اللواتي كانت تشرف على تربيتهن الملكة "عالية"، و الدة الملك فيصل الثاني.

كان استعمال كلمة "عبد أو عبدة"، سائداً بين الناس في وصف البشرة ذوي السحنة السوداء، و لكن عندما سمعني الوالد أصف تلك الفتاة بـ "عبدة"! أنبني حالاً قائلاً: « ليس هنالك عبيد بين الناس، فكلمة عبد تحط من قيمة الإنسان، يولد الناس متساوين، و لكن الفروق الاجتماعية و العنصرية التي خلقها البشر، هي التي جعلت

الناس يفكرون بهذه الطريقة الفجة البعيدة عن الأخلاق!». كان هذا موقفه، قبل بدء الحركات التحررية للسود في الولايات المتحدة بأكثر من عقد و نصف.

ولذا عندما كتب عن دور الشاعر و الفارس "عنتره" في العصر الجاهلي، و الذي كان محتقراً للونه حتى من قبل والده و أعمامه، تطرق إلى موضوع اللون و أهميته. حيث بدأ مقال "عنتره و أسطورة اللون" بلون الأشياء و تسميتها عند العرب، « اللون مقياس من المقاييس التي تقاس بها القيم في كثير من الأشياء، فالبياض في الدر، و الحمرة في الياقوت، و الزرقة في الفيروز، و الصفرة في الذهب ألوان لها قيمة مهمة في تقدير هذه الأحجار و المعادن، و في اعتبارها الكبير.» لينتقل إلى لون البشر، و كيف يقرر اللون مكانة و منزلة الإنسان عندهم، فكتب:

« أما في "الإنسان" فلم يكن له ذلك، بل كان الشرف للبياض و حده، كما كانت السيادة و قفاً عليه. و لكن العقلية العربية، على ما يبدو لنا، لم تكن متحجرة حتى في الجاهلية، بل نستطيع الادعاء بأنها كانت مرنة، و عندها قابلية كبيرة للتطور تتغير بسرعة إذا رأته ما يستدعي التغيير، و تعدل عن الخطأ إذا رأته الصواب في غيره كما سيتضح. فقد كانت هذه العقلية، كما نعرف، تفرق بين السواد و البياض في الإنسان، و ترى أن "الإنسانية" لا تتكامل في "الأسود" كما تتكامل في الأبيض، و لذلك و جب أن يكون الأول عبداً، و الثاني سيداً! من هنا كانت مأساة عنتره الشاعر الفارس، و مأساة أمثاله من السود الذين لهم من دقة الحس و شرف النفس ما يحتاجه أكثر البييض، أو أرفع البييض، على الأصح، ألقاباً و مكانة في المجتمعات. ... و للشاعر منزلة ذات شأن عظيم في الحياة العربية، و لكن يبقى عاجزاً عن الوصول إذا كان الشاعر أسود اللون. فاتجه إلى البطولة و هي لها حياة البداوة و قوة التقديس و انتظر الفرصة التي تذيب بطولته و تنشرها الصحراء. ... و قلب الخرافة و أثبت العبد انه الفارس الأول.»⁵⁵⁵

* * *

أما اختياره الكتابة عن الشاعر "عروة الصعاليك"، فيعود إلى الموقف نفسه من الإنسان و ثورته على قيم المجتمع إن كانت متمثلة بقبيلة أو عرق أو دين. فالشاعر

عروة بن الورد الذي لقب بـ "عروة الصعاليك" و جمع التناقضات في سلوكه، و جُرد من الحقوق القبلية، لأنه كان يقوم بالغزو، و يوزع ما يحصل عليه من أموال على المشردين، حيث عاش مشرداً مثلهم. كانت ثورته على مفاهيم قبيلته، و كتب محمد شرارة:

لحا الله صلوكا إذا جن ليله مصافي المشاش ألفا كل مجزر
« و كلمة "الصعلوك" تشير في الماضي، و في الحاضر أيضاً، إلى معنى لا يخلو من الشتيمة أو الإهانة لمن تطلق عليه. و كان العرب القدامى يطلقونها على المشردين الذين جردوا من حقوقهم القبلية، فقد كانت للقبائل قوانين، و كان المفروض فيمن ينتمي إليها أن يخضع لقوانينها خضوعاً مطلقاً، فإذا خرج عليها أو على بعضها فقد حقوقه القبلية و عاش مشرداً، و عندئذ ينضوي تحت لواء الصعاليك، و يصبح جديراً بهذا اللقب.

أما السبب في إطلاقه على عروة بالذات فراجع إلى معنى آخر. تقول المصادر الأدبية:

« و كان يقب عروة الصعاليك لجمعه إياهم و قيامه بأمرهم إذا أخفقوا في غزواتهم و لم يكن معاش و لا مغزى".⁵⁵⁶ و هذا التفسير يخلع على اللقب معنى يختلف عن المعنى المعروف. ... انه هنا يعني "الملجأ" و "العون" و "السند" في ساعة الإخفاق. فهل يرفع هذا التفسير ضيعة اللقب، و يسمو به عن المكان الذي وضع فيه؟ إن الكرم و الإعانة من معاني الفضيلة عند العرب. و لكن "إعانة" الصعاليك لم تستطع، على ما يظهر، أن تتال شرف الفضيلة التي تتالها على الأيدي الأخرى، بل ان "الدناءة" التي تحملها الصعلكة استطاعت أن تلوث الشرف الذي تكتسبه الإعانة عادة و تنزله إلى مستواها.

« القوانين - و لو كانت بدائية - مقدسة بنظر و اضعيها، و الخارجون عليها يجب أن ينالوا العقوبة الرادعة التي تعيدهم إلى الصواب. و التجريد من الحقوق القبلية لا يكفي - على ما يظهر - لذلك تجب مطاردتهم بعده ... تجب إماتتهم من الجوع.
« إن الغزو بحد ذاته مفخرة من مفاخر الجاهلية العربية، و القائمون به أبطال ميامين و سادة نجب. و لكن الصعاليك لا ينقلبون إلى أبطال، و لا يتحولون إلى

556 - شعراء النصرانية. ص 883. الهامش جزء من مقال لمحمد شرارة.

سادة و إن نجح الغزو، بل يبقون حيث كانوا على الحضيض. و أدرك عروة هذا المعنى، و أدرك ما فيه من تهاة و سخف.»⁵⁵⁷

* * *

كنت أزور الوالد في لبنان كل عام تقريباً، بعد أن سمح السفر لي و لرفعة، فقد منعنا ثلاثة أعوام من السفر، و فصلت من الوظيفة لا لسبب، إلا لكوني ابنة محمد شرارة. و أثناء زيارتي له في نيسان عام 1966، توفي عبد السلام عارف رئيس الجمهورية في حادث تحطيم مروحية كانت نقله إلى بغداد في عاصفة رملية. و اعتقد الناس من ان مؤامرة قد حيكت من قبل أعدائه للتخلص منه، و لكن في الحقيقة لم يكن هنالك حزب معارض مستعد لاستغلال الوضع، و لذا بعد وفاته انتخب شقيقه عبد الرحمن عارف، من قبل زملائه الذين بقيت مشاعر الوفاء حية في هذا الانتخاب. و طويت بذلك صفحة أخرى من تاريخ العراق الحديث، بوفاة عبد السلام عارف، الذي أذاع البيان الأول في ثورة 14 تموز 1958، عندما تسلّم شقيقه الحكم.

لم يكن عبد الرحمن عارف عنيف أو فوضوي كما كان أخيه عبد السلام، بل كان حاكماً مسالماً، إذ عين عبد الرحمن بزاز رئيساً للوزراء، و توصلت حكومة البزاز في عهد عبد الرحمن عارف إلى إيقاف إطلاق النار مع الأكراد، بعد أن مُني الجيش العراقي بسلسلة من الهزائم. و أدى إعلان البزاز في أواخر حزيران 1966، إلى الاعتراف بالحقوق الوطنية و القومية و الهوية الثقافية و اللغوية للأكراد. "كما و عد الأكراد بتمثيل كامل و حكم ذاتي ضمن إطار من الديمقراطية البرلمانية".⁵⁵⁸ "و تعزيز الطابع المدني للسلطة" لكن « تحولت السلطة إلى سلسلة

557 - "عروة الصعاليك" نظرات في تراثنا القومي، محمد شرارة، المؤسسة العربية للدراسات و النشر - بيروت 1982

- و هو الذي قال:

إني امرؤ عافى إنائي شركة و أنت امرؤ عافى إنائك وإحدُ
أنهزأ مني أن سمنت و أن ترى بجسمي شحوب الحق و الحق جاهدُ
أفرق جسمي في جسوم كثيرة و أحسو قراح الماء و الماء باردُ

و قال عنه عبد الملك بن مروان: " من زعم أن حاتماً أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد".

558 - "صفحات من تاريخ العراق" تشارلز تريب، ترجمة: زينة جابر إدريس، الدار العربية للعلوم،

بيروت - 2006، ص- 253

من المعارك الخفية و العلنية بين الكتل المختلفة. و أصيب المواطن العراقي بصداق شديد، و عمت السخرية و تعالى التندر من قبل الناس، و جرى الاستهزاء بالحكومات العجيبة المتعاقبة غير الاستثنائية، و أصبحت مشاريع الانقلابات تعرض في المقاهي».⁵⁵⁹

إذ كان عدد كبير من الضباط متخوفين من مجريات الأحداث، و عارض بعضهم تقديم أية تنازلات للأكراد، كما كانوا متخوفين من تقليص الميزانية الحربية. و تصاعدت المشاعر العدائية بين ضباط الجيش، فاضطر عبد الرحمن عارف إلى إقالة البرزاز و تعيين ناجي طالب رئيساً للوزراء، حيث نال فيها العسكر معظم الوزارات الأساسية، و على أثر ذلك توقفت المفاوضات مع ملا مصطفى البرزاني. و أظهر عارف عجزه عن تأسيس شبكات المحسوبية التي منحت شقيقه عبد السلام نفوذاً كبيراً في الجيش.

* * *

و عندما زرت و الذي في ربيع عام 1967، كنا⁵⁶⁰ عائدتين من الضفة الغربية في فلسطين. و لم نكن نعلم أننا و دعنا الضفة الغربية و داعا أبدياً! فلم نكن ندرى ما تضمه الأيام لمدينة القدس و للشعب الفلسطيني و العالم العربي، من غيوم مكفهرة محملة بأعاصير الذل و قهر الاحتلال. لم نكن نعلم إنها آخر زيارة لنا للقدس، و قبة الصخرة و بيت لحم، و إننا لن نرى جوامعها و أزقتها إلا من خلال شاشة التلفزيون.

إذ تأزم الوضع بين إسرائيل و مصر، و أقدم الرئيس جمال عبد الناصر على مغامرة جديدة، بعد شهرين من عودتنا من الضفة الغربية، طالباً من مراقبي هيئة الأمم الانسحاب من منطقة شرم الشيخ. كان عبد الناصر قائداً "شعبوياً"، ناجحاً في تأجيج عواطف الشعوب العربية بخطبه التي يغلب عليها الإطالة و التكرار، و العفوية من دون تحضير سابق لها، لكنه لم يكن سياسياً متزناً، لأن العقلية العسكرية

559 - "من يصنع الدكتاتور؟ صدام حسين نموذجاً"، سلام عبود، منشورات الجمل، كولون - ألمانيا،

2008، ص - 58

560 - كنا رفعة و أنا نكرت زيارتنا إلى مدينة القدس، بهدف زيارة قبة الصخرة و المعالم المعمارية الأخرى قبل احتلالها. (ب.ش)

ظلت هي الغالبة عليه في إدارة شؤون البلد، بعيدة عن المعرفة السياسية و عقلانية القرار.

بدأت ساعة الصفر، بقصف سلاح مصر الجوي و القضاء عليه ببضع ساعات. كنا نستمع إلى صوت العرب، أذاننا ملتصقة بالمذيع، نستمع إلى الأكاذيب و المبالغات، نستمع إلى ما أسقطه المصريون من طائرات إسرائيلية. ثم انتقلنا لسماع بي بي سي / BBC، و صعقنا بتناقض الأخبار، فالتجأنا بعد ذلك إلى سماع أخبارها الموزونة و البعيدة عن المبالغة التي تتصف بها إذاعة صوت العرب.

لم تمض إلا فترة قصيرة حتى بدأت شاشة التلفزيون تبتث ما تعانيه القدس و أهلها من ذل. شعرت بألم في أحشائي، و معاناة كما تعاني منه القدس! حطام البيوت، شوارع و اسعة اجتثت قلبها، عمليات جراحية جعلت منها ساحة واسعة أمام حائط المبكى! أهلها أسرى تحت ظل المنتصر!

أدت خسارة الضفة إلى خسارة الأراضي الفلسطينية، و احتلت تلك الخسارة مكاناً في تفكير محمد شرارة، إذ كانت أكثر من فاجعة بالنسبة له، كانت كارثة حلت في العالم العربي. أحس بألم دفين، كطائر لا يمكنه أن يخلق جناح واحد. فكتب قصيدة يقول فيها: « و أنا بالرغم من شوقي غريب و وحيد / و جناحي زغب و الأفق عتمّ و بعيد».

* * *

فقد بدأت القضية الفلسطينية تنمو في مخيلة محمد شرارة منذ أن كان طفلاً، عندما أعلن وعد "بلفور"، و نظم أول قصيدة في فلسطين في عام 1932، عندما بدأت السحب تتكاثف حولها، و ظل موضوع فلسطين يؤرقه، يتتبع أخبارها بلهف، فنظم قصيدة في عام 1939، بعنوان "يا بلاد الوحي"، و مطلعها:

صبرت حتى تلاشى صبرها و محا اليأس شعاع الأمل
ثم يقول:

لا أرى فوقك إلا معولا هادما متصلا في معول
أنظري ما حمل الماضي و ما يحمل الحاضر للمستقبل⁵⁶¹

ثم أصبح استرجاع فلسطين حلاً في قصيدة "حلم أن تعودى"، و بدأت صفحة جديدة في تاريخ المأساة الفلسطينية، و بان له مدى المقامرة التي أقدم عليها الرؤساء العرب و الخسارة الفادحة التي تكبدتها الدول العربية و الفلسطينيون بصورة خاصة، التي انتهت بحرب دامت ستة أيام، خسر فيها العرب الأراضي الفلسطينية. عاد الوالد في هذه القصيدة إلى التاريخ، يستقصى تاريخ فلسطين، فهي مهبط الوحي و الإلهام و أرض الأنبياء، و ستبقى كذلك رغم جميع العقبات التي رمز لها في "الأفعى و التتين" المتمثلان في الاستعمار:

و أناجي القبس الهادي على "الطور"

و موسى و ذهوله

و أناجي، مثلما ناجى، كليم الله فيه و خليله

و أنادي. و ابتهاج الشوق يضني القلب فيه

لتعودى.

ثم يقول:

و و حوش الأرض تمتد على الدرب

و تمتد السواقي

و أمامي ظمأ الأفعى و خلفي

ألف تتين خرافي

و أنا ما بين هذا العالم المجنون

عاري الرأس حافي

و على عينيَّ عيناك تشدُّ العزم

من خلف الضفاف

فمتى يا منية الروح تعودى

إلى الروح؟

و حلم أن تعودى...

و استمر يكتب القصائد عن فلسطين في السنوات التي تلت، فالقصيدة تجنح نحو العاطفة، و باستطاعته أن يفرغ شجونه في أبياتها، و هي «أكثر قدرة على التعبير

عن لواعج الروح.»⁵⁶² فلم يمل أو يقنط، بل ظل يراوده حلم أن تعود فلسطين إلى مكانتها، فهي جزء من الجزيرة العربية، و لا يمكن لها أن تجتث: «و رأى أن و جودها في قلب الشرق العربي حتمية جغرافية، لذا ظلت محط أنظار الغزاة الطامعين، بموقعها، بقديستها بجمالها، بخيرات أرضها.»⁵⁶³ و يعود الحلم يداعبه ثائية، في قصيدة "الوجه الآخر"، حيث يرمز لفلسطين بالقنديل:

في ربوع الشرق في همس الأماسي الحالمات
ولدت أبهى القناديل و أحلى الكلمات

و يأسف من النظرة المعتمة التي حلت ببعض الشعراء، فيقول: «سورنا عال و لكن الهداة الشعراء/ و قفوا في غيمة الرؤيا و ضاعوا في السماء» و يريد أن يبعد اليأس عن النفوس، اليأس الذي نجده في قصيدة عبد الوهاب البياتي، التي رثى فيها خسارة فلسطين في عام 1967 بعنوان: "بكائية إلى شمس حزيران"، حيث أحس بطعنة في الصميم عقب الهزيمة المذلة التي لحقت بالجيوش العربية في ذلك العام:

«حاملين الوطن المصلوب في كف

و في الأخرى التراب

آه لا تطرد

عن الجرح الذباب

فجراحي قم أيوب

و آلامي انتظار»

و ظل محمد شرارة متفائلاً، يراوده أمل قوي من ان الأرض لا بد أن تعود، فكتب قصيدة عن فلسطين بعنوان، "لا تخافي"، يخاطب فيها الأرض التي اغتصبت، داعياً ألا تخاف، فستعود الأرض كما كانت عليه، و سيعود المرح، و تعود الصبايا ترتع في ظلال الطبيعة الضاحكة :

لا تخافي

فرواينا و إن ضاعنت، و ضاعنت، ستعود

⁵⁶² - "المتنبى بين البطولة و الاغتراب"، حياة شرارة، ص- 17، المؤسسة العربية للدراسات و النشر،

1981

⁵⁶³ - "محمد شرارة الأديب و الإنسان"، د. مصطفى بزي، إصدار هيئة إنماء المنطقة الحدودية، 1994،

ص - 111

و تغني في نواحيها، الصبايا و الورد

و الحنان

و الصبا و الحب و الشوق المندى

و الأمان

و شجيرات غنية

و ظلال حلوة النجوى و زهر و جداول

و مروج تضحك الأطيوار فيها و السنابل

لا تخافي⁵⁶⁴

ثم يشحب ذلك التفاؤل المهيمن في قصائده السابقة، عندما ينتقل إلى وصف "لاجئة جديدة"، فتتجلى عندئذ أمامه صورة النكبة التي حلت بالشعب الفلسطيني من خلال تلك الفتاة الرقيقة، التي يصف شحوب خديها بشحوب الشفق، و التي خسرت أرضها و كرامتها، بعد أن اضطرت إلى ترك دارها بين انفجار البارود و الحرائق التي حولت بلدها إلى سحابة من الدخان الكثيف، عندما "أطل منديل الوداع" و هي تجر قدميها المتعبتين نحو شاطئ الأمان.

شحوب الشفق الشفاف

في خديك .. يحملني

و يرميني

على أرض يموت بها

إله الورد و الكرز

ثم يقول:

شفاهك دمة الرايات

في مأساة ملحمة

تراجع تحتها التاريخ

إلى كهف تموت به

و تفني الشمس و الأفق

لكنه يعود لينهي القصيدة بالتفاؤل:

564 - " لا تخافي " محمد شرارة، مجلة الأقاليم - بغداد 1970

سنهدم كل ما بنت الطغاة على أراضينا

و نمسح كل ما زرعوا

و نزرعه رياحيناً⁵⁶⁵

كان محمد شرارة يعتبر اليأس نوعاً من الهزيمة، فلم يساوره اليأس يوماً و اهدأً، رغم خيبة الأمل التي تعرض لها مرات عديدة في حياته، لذا نجد هناك نوعاً من التفاؤل حتى في القصائد التي نظمها في فلسطين رغم الحزن و الألم على فقدانها، و كتب رسالة إلى صديق في 1969 / 2 / 5، يقول في هذا الصدد:

« يظن البعض إنني أغالي أحياناً و أبالغ (بالقيم) التي أراها، و ينتقدي على ذلك، و لكن أكثر هؤلاء مصابون باليأس من وراء صدمة صغيرة، أو حادثة تافهة. و اليأس نوع من الهزيمة الدليلة التي لا تشرف صاحبها، و لا تبقي له شيئاً من لذة الاكتشاف.

« في عقيدتي أن الوقوف أمام النفس البشرية، يجب أن يكون بمثابة الوقوف أمام الأماكن التي تتطوي على التراث الحضاري، فالذي يصاب باليأس بعد الضربات الأولى في تخوم الأرض، و لا يجد شيئاً من آثار الحضارة، غير جدير بلقب العالم... و هكذا ينبغي أن يكون الشاعر أو الكاتب في وقفته أمام الوجود بصورة مطلقة، أو أمام الوجود الإنساني».⁵⁶⁶

* * *

و لم يقتصر محمد شرارة على نظم القصائد في فلسطين، و إنما كتب عن بعض الشعراء الفلسطينيين. فقد كان من المعجبين بشاعرية محمود درويش، الذي اعتبره من أكبر شعراء العرب المعاصرين. و كتب عنه مقالاً بعنوان: "محمود درويش.. جرح يحارب". يدل لنا العنوان عن موقف الشاعر الصلب، الذي لم تهيم عليه خيبة الأمل أو الفشل كما هيمنت على بعض الشعراء العرب بعد هزيمة 1967. و قارنه بالشاعر عُمَر أبو ريشة الذي هيمنت عليه الخيبة و المرارة و الفشل، فكتب محمد شرارة:

565 - "لاجئة جديدة"، محمد شرارة، المتقف العربي، العراق، تموز 1969

566 - "محمد شرارة، الأديب و الإنسان"، د. مصطفى بزي، إصدار هيئة إنماء المنطقة الحدودية، 1994،

« عُمَر ينتقى أمته و طرفه مطرق خجلاً. و هذه الإطراقة على ما فيها من ثورة، استجابة لهدف من أهداف الاستعمار و خضوع له أو و قوع في شركه. »
و بين التخبط في لكمة الجراح التي أصيبت بها الأمة العربية بعد خسارتهم فلسطين، ظهر محمود درويش صوتاً جديداً، صوتاً يحمل روح التفاؤل و الأمل، فكتب عنه:

« و إذا لاحت الأراضي الفلسطينية، بعد احتلالها، لكثير من العيون عارية من الحياة، و إذا قدر لهذه النظرة أن تكون على شيء من الصواب، لاح محمود درويش في تلك الأرض و كأنه شجرة من غابة الغضا تشير إلى حيوية الأرض بالقدر الذي تشير إلى القدرة على المواجهة و تحدي الموت و كل ما في يده من عناصر التدمير... »

في أعقاب الهزيمة الأولى قال عمر أبو ريشة:

أمتي، هل لك بين الأمم منبر للسيف أو للقم
ألتقاك و طرفي مطرق خجلاً من أمسك المنصرم

و يتراءى المدى الكبير من الفرق إذا قورنت هذه النظرة بنظرة محمود درويش:
نعم عرب
و لا نخجل

و نعرف كيف نبني المصنع العصري
و المنزل

و مستشفى، و مدرسة، و قنبلة، و صاروخاً، و موسيقى

« هذه الوقفة و قفة إنسان شاعر بأهداف عدوه و على أمته و شعبه، و لذلك نرى فيها شيئاً كثيراً من معاني الأسوار، و أشياء من معاني الأوتار الراسخة و القلاع التي تعرف كيف تواجه كتائب الهجوم و تتصدى لكبرياتها و ما يرافقها من عجرفة... و محمود درويش و احد من الناس الذين عرفوا هذه المعاني و اشرفوا عليها إشرافاً دقيقاً حتى اتضحت لهم بكل ما فيها من أبعاد. و لذلك لم يخجل من الهزيمة. و لم يزعه هولها، بل بقي في منتهى الصحو، فلم ترغ عيناه و لا ارتجفت قدماه أمام الكارثة. »⁵⁶⁷

⁵⁶⁷ - "محمود درويش .. جرح يحارب"، محمد شرارة، مجلة الفكر الحديث - لبنان، آب 1968، من مخطوطة كتاب "الأدب و الشعر العربي الحديث".

و لم ينسَ أن يكتب عن الشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان. فكتب مقالاً عن ديوانها الذي صدر بعد خسارة الضفة الغربية، بعنوان: "فدوى طوقان - الليل و الفرسان"، و بحث فيه الهزيمة التي نزلت بالفلسطينيين بعد حرب عام 1967، و كيف قامت إسرائيل بعد انتصارها العسكري:

« تتابع ضرباتها، بحملة على الأعصاب تنسج حولها هالة من الجبروت في إطاراً من السخرية و التهكم اللاذع و سياجاً من الصور المضحكة ... و وقف الفكر العربي، و لما يفق بعد من و طأة الضربة، في أرجوحة تتطلق من اهتزازة إلى اهتزازة أعنف. و راح الشعر ينوح مع النائحات و النائحين ... و لكن كانت تند في بعض الأحيان أصوات متواضعة ترتفع بشيء من الأمل و التفاؤل ... و فدوى طوقان أحد هذه الأصوات لقد أخذها الانفعال، كما أخذ غيرها... و رأيت أن القضية الكبرى فوق كل شيء، أو يجب أن تكون كل شيء و راحت تحمل القيثارة على الشاطئ الجديد. و من هذا الانتقال كان قول محمود درويش لفدوى:

كان لابد من الأعداء كي نعرف أنا توأمان
كان لابد من الريح لكي نسكن جذع السنديان
و لو ان السيد المصلوب لم يكبر على عرش الصليب
ظل طفلاً ضائع الجرح.. جبان

« لقد و قفت فدوى على - الجسر - أمام شباك التصاريح - كما و قف غيرها من أبناء الضفة المحتلة و بناتها و شعرت انها - شحّادة - تستجدي العبور إلى الضفة الأخرى و رأيت الصلف الصهيوني ... فانفعلت و أخذها الانفعال إلى وادي الذكريات التاريخية، إلى تلك الفتاة التي صاحت:- و امعتصماه! و رأيت فدوى أن تعيد الذكرى الخالدة و تمننت معها أن تكون للبراق عين كما تمننت قبلها مثل هذه الأمنية ليلي بنت لكيز.

« بعد ذلك تمر الشاعرة بحيفا و تلتقي هناك ببعض الأحباب الذين ظلوا في تلك الديار فتتفعل فدوى و يحملها الانفعال على أجنحة فيها من الرقة و من الحزن و الأسى و الذكريات، دنيا مزدحمة بالصور و الحنين. في هذه القصيدة يلتقي الماضي بالحاضر، و يصبح للأطلال معنى مشحون بكل ما تستطيع أن تخفق به القلوب، و تتوس به الذكرى:

على أبواب يافا يا أحبائي

و في فوضى حطام الدور
بين الردم و الشوك
وقفت و قلت للعنين: يا عينين
قفا نيك!

« و الفرق كبير بين - قفا نيك - في ريشة فدوى و قلم امرئ القيس الذي كان أول
من وقف و استوقف، و بكى و استبكى... فامروء القيس بكى الدار و الأحباب
أيضاً كما تبكي فدوى. و لكن شتان بين أحباب امرئ القيس و أحباب الشاعرة
فأولئك رحلوا و تركوا الديار، و ما أكرهوا على الرحيل، أما أحباب فدوى فقد
شردوا و أبعدها قهراً. و يحاول التشريد أن يكون أبدياً، أن يمنع الأحباب حتى من
المرور، و أن يمحوا من ضلوعهم حتى ذكريات اللقاء و الحب و الطفولة، و كل
شيء يربط الإنسان بالأرض، و ما فيها من ماء و هواء و أشجار و لذلك كانت هذه
الكلمات قادرة على الإيحاء المدهش بحيث تكاد تكون في كل نبذة من نبراتها، و
في كل حرف من حروفها مأساة فاجعة. ثم تستمر الصور تحمل معها صوراً من
التداعي الذي يشد النفس إلى الأرض و البيوت و من كان فيها:

على أطلال من رحلوا و فاتوها

تتادي من بناها الدار

و تتعى من بناها الدار

و أن القلب منسحقاً

و قال القلب: ما فعلت

بك الأيام يا دار؟

و أين القاطنون هنا

و هل جاءت بعد الناي، هل

جاءت أخبار؟

هنا كانوا

هنا حلموا

هذه الصور المتلاحقة.. و هذا الحنان العميق على الدار و أهلها يخلق في النفس
حناناً مماثلاً، و يخلق في الوقت ذاته غضباً على أولئك الذين فصلوا بين الدار و

أهلها، و اغتصبوا كل ما فيها و محو كل ما في قلبها من مشاهد عاطفية و
روحية». 568.

* * *

568 - " فدوى طوقان ... الليل و الفرسان " محمد شرارة، جريدة النور- العراق، 1969/11/23، و مجلة
العرفان 1973، من مخطوطة كتاب " الأدب و الشعر العربي الحديث".

رغم ان محمد شرارة كان محاطاً بالأقارب و الأصدقاء، خلال إقامته في لبنان، إلا انه ظل يشعر بالحنين إلى عائلته المشتتة في عدد من البلدان، و تمنى دائماً «لو قدر لهذه العائلة المشتتة أن تجتمع». فمريم في لندن، و حياة في موسكو، و أولاده و زوجته في بغداد. ذلك الشوق و الشعور بلوعة الفراق، واضح في رسائله التي كتبها في تلك الفترة. فكتب إلى ابنته مريم بعد زيارتها القصيرة له في بيروت:

« لم يبق في عالمنا بعد سفرك سوى الفراغ؛ فقد كنت و جوداً حلواً يملأ البيت تاريخاً جميلاً و ذكريات تحمل من الصباح نسماته، و من النسمات عذوبتها، و من القصائد إيحاءها و ظللها البعيدة ... و هناك كلمة "لطاغور" فيها ظلال من المعاني التي أحس بها و أنا أكابد هذا الفراغ. فاسمعي ما يقول: لقد التقينا كما تلتقي طيور البحر، و اقتربنا كما تقترب الأمواج، و قد طارت الطيور، و تلاشت الأمواج. أما أنتم فقد رحلتم». ⁵⁶⁹

في منتصف عام 1968 بدأت إسرائيل في الاعتداء على بعض القرى في جنوب لبنان، و قتل على أثر ذلك طفل و امرأة، أدى ذلك الاعتداء إلى قيام مسيرات تطالب في تحصين الحدود، و بدأت حركة الفدائيين في تجميع قواها، للرد على عمليات إسرائيل في الجنوب، و كانت البداية للغارات و الحروب التي تلتها، و بوادر للحرب الأهلية التي التهمت لبنان فيما بعد.

و في رسالة يذكر من إن الغارات الإسرائيلية مستمرة على الحدود، إضافة إلى ذلك فان:

« الحشود الإسرائيلية قوية على حدود الأردن و في سينا، و يتوقع المراقبون قيامها بهجوم جديد على الأردن خاصة، و اعتدت البارحة على بور توفيق، فرد البور على النار بالمثل.

في لبنان أحرقت كنيسة بعد ما أطلقت قبلها النار على شمعون. و القصد بذلك إحداث فتنة طائفية ... و قد أحيل أحد المطارنة إلى المحاكم العسكرية بهذه المناسبة... إن الجو متوتر جداً، لاسيما على الحدود»⁵⁷⁰.

رغم انه مرّ بتجربة قاسية، خسر فيها عمله في الصين لدفاعه عن الاتحاد السوفيتي، و رغم الموقف السيئ منه عندما و صل موسكو، و عدم تقديم أية مساعدة له في إيجاد عمل له في موسكو، إلا أنه ظل مدافعاً عنيفاً عن الاتحاد السوفيتي عندما شعر أنه محاط بخطر. و ذلك و اضح في الرسالة التي أجاب بها ابنته "حياة"، عن أحداث تشيكوسلوفاكيا ضد الاتحاد السوفيتي في العام نفسه، و اعتبرها كارثة لو نجحت. فكتب لها:

« ما يتعلق بأحداث تشيكوسلوفاكيا لا نوافقك عليه. و المؤامرة لم تكن على تشيكوسلوفاكيا فقط، بل كانت علينا بالدرجة الأولى، و لو قدر لها أن تتجح، و لو نجاحاً جزئياً، لبدأ الهجوم على البلاد العربية بشكل صاعق. ... لقد كانت أيدينا على قلوبنا و نحن نسمع ما يجري... و مهما كانت المساوئ كثيرة في الاتحاد السوفيتي تبقى الدولة رجاى الشعوب. و لولاها لكان العرب بعد (5) حزيران أدل من الأوتاد، و إذا كانت الستالينية تحمي العالم من أمريكا و جرائمها، و من الصهيونية و آثامها فلا بأس بعودتها. و يستطيع الشعب بعد راحته من شراسة الامبريالية أن يقوم بالقضية.»⁵⁷¹.

لم يكن محمد شرارة متفرداً في هذا الموقف من الاتحاد السوفيتي، و إنما شمل عدداً كبيراً من متقفي العالم اليساريين، حيث نجد شعراء عالميين ظلوا مدافعين عن النظام السوفيتي و البلد الذي طبقت به. لأنهم يعتقدون أنها مرحلة تاريخية و ستمر، و لا بد من أن تتحسن الأوضاع لأن النظرية الماركسية لم تطبق تطبيقاً صحيحاً. و لم ينظر محمد شرارة إلى الاتحاد السوفيتي كدولة لها مصالحها، فالسوفيت كانوا مع العرب لأن مصالحهم كدولة تتطلب في أن يقفوا مع العرب و ليس محبة فيهم، و إن معركتها الرئيسية هي مع الامبريالية المتمثلة في الولايات المتحدة.

أما في العراق، فكان رئيس الجمهورية عبد الرحمن عارف جاهل في إدارة أمور الدولة، التي تتطلب المعرفة السياسية و حكمة التسويات و عقلانية القرار، و

570 - رسالة بعثها لأبنته مريم، بتاريخ 1968/2/21

571 - رسالة رد بها على ابنته حياة، عندما كانت في الخرطوم، بتاريخ 1968/10/2

مشورة جدية منظمة، فهو لا يختلف عن أخيه عبد السلام عارف أو عن عبد الكريم قاسم، أو من قبلهم بكر صدقي، جميعهم عسكري، يجهلون السياسة و إدارة الدولة الحديثة، التي يفترض فيها فصل و استقلال السلطات. أدت نتيجة و وصولهم إلى السلطة، و ممارسة إدارتها، سواء أكان ذلك في العهد الملكي الدستوري أو في العهد الجمهوري، أن انحدرت الدولة إلى الفوضى.

بدأ حزب البعث يخطط للعودة إلى الحكم كما خطط في عام 1963، بعد أن تراجعت الحملة عليه في عهد عبد الرحمن عارف، حيث تكاثرت الفصائل البعثية في الجيش، كما أفرج عن البعثيين الذين كان محكوماً عليهم في السجن في عهد أخيه عبد السلام عارف، و كان من بينهم صدام حسين، الذي نجح في انضمام عدد كبير من الأعضاء إلى منظمته، و كافأه أحمد حسن البكر بتعيينه نائباً للأمين العام لحزب البعث. و جد البعثيون ان عليهم أن يتحالفوا مع ضباط من الجيش ثانية، لكي ينجحوا في محاولة الانقلاب و تسلم مقاليد الحكم. و وجدوا ضالتهم في ضباط كانوا مستائين⁵⁷²، و شعروا بالخيبة بسبب سياسة عبد الرحمن عارف.

في 17 تموز 1968، استغل الضباط الثلاثة فرصة غياب العميد سعيد صليبي في الأردن، الذي كان الوند الذي اعتمد عليه رئيس الجمهورية عبد الرحمن عارف، في إدامة حكمه. و تحركوا بمساعدة البعثيين، و سيطروا على محطة الإذاعة و التلفزيون و وزارة الدفاع و مقر الحرس الجمهوري، و تم اعتقال رئيس الوزراء و معظم أعضاء حكومته. و سقر عبد الرحمن عارف رئيس الجمهورية بطائرة إلى تركيا.⁵⁷³

572 - الضباط هم: عبد الرزاق النايف (رئيس المخابرات العسكرية) و إبراهيم عبد الرحمن الداود (رئيس الحرس الجمهوري) و سعدون غيدان (قائد فوج الدبابات في الحرس الجمهوري).

573 - حديث مع إسماعيل محمد إسماعيل بتاريخ 6/ 5/ 2002

في فجر 17 تموز 1968، قام سعدون غيدان، بإدخال الضباط أحمد حسن البكر و صالح مهدي عماش، و حردان التكريتي بسيارته الخاصة إلى داخل القصر الجمهوري، ليقوموا بالسيطرة على كتيبة الدبابات، و أحاطوا القصر، و أطلقوا النار، فاستيقظ عبد الرحمن عارف من نومه مذعوراً، و أعلن استسلامه. «جلس بانتظار تسفيره إلى الخارج. و عندما دخل عليه احمد حسن البكر، كان عبد الرحمن عارف رئيس الجمهورية جالسا على كنبه/ قنفة، واضعاً رجلاً فوق رجل، فقال له احمد حسن البكر بعنف: أنا رئيس الجمهورية الآن، نزلت عليك بعد انت مو رئيس جمهورية!!».

كانت العلاقة بين البعثيين و غير البعثيين متوترة، لأن كلاً من الفريقين لم يشأ مشاركة الآخر في السلطة.⁵⁷⁴ و انكفاً حردان التكريتي على الفور في توطيد سلطته في القوات المسلحة. و لم يمرّ أسبوعان على الانقلاب، عندما سافر إبراهيم الداود إلى الأردن، حتى نفذ البعثيون ضربتهم. في 30 تموز. فاستولت فرقة مسلحة على المباني الحكومية المهمة في بغداد، و وضع عبد الرزاق النايف على متن طائرة إلى خارج العراق. و هكذا سيطر البعثيون على الحكم، و عادوا إلى السلطة ثانية. و كانت مراهنه النايف و الداود على العمل مع حزب البعث خاطئة تماماً، فقد اعتقدا أنهما يستطيعان أن يعيدا تجربة عبد السلام عارف مع البعث متى أُرادا، و لكن تجربة البعث السابقة في عام 1963، جعلته يعجل في تصفية الآخر كغيرهم من العسكر.

« في هكذا مناخ، و عندما تصبح الانقلابات و الانقلابات المضادة ممكنة، نرى رافعي رايات "الإنقاذ" يجدون أنفسهم دائماً في غمرة عملية إعادة إنتاج الأزمة، منتقلين بالعنف من طابعه الشعبي "الإنقاذي" إلى الطابع الرسمي، أي القمع المبرمج، و هذا ما يفسر أيضاً مقولة "الثورة تاكل أبناءها" ذلك أن العقلية الانقلابية تقترن دائماً بالتأمر، أي التنافس على مقاليد الأمور و مراكز القرار فيصبح المجتمع المراد إنقاذه من قبل هذه الجهات، ضحيتها الأولى.»⁵⁷⁵

و بذلك ظل الشعب العراقي محروماً من التمثيل البرلماني و من دولة دستورية، و لم يرَ الحكام العسكريون حاجة في إشراك الشعب، أو يخطر ببالهم الخضوع إلى المحاسبة عن أعمالهم، من خلال المؤسسات المدنية. و ظل تداول السلطة محصوراً في حلقة ضيقة، لا تتغير إلا من خلال المؤامرات و الانقلابات العسكرية، و الزعامات الشخصية.

لذا « جرى تحويل مؤسسة البعث بكاملها إلى مؤسسة عسكرية - استخبارية بثناب مدنية. ثم جرى بعد ذلك التخلص من العسكريين التقليديين البعثيين، و تحويل

⁵⁷⁴ - تألفت الوزارة من: عبد الرزاق النايف رئيساً للوزراء و إبراهيم الداود و زيرا للدفاع، و صالح مهدي عماش، (بعثي) و زيرا للدخلية. و حردان التكريتي (بعثي) رئيساً لأركان الجيش و قائدا للقوات الجوية، و سعدون غيدان، قائدا للحرس الجمهوري. كما وزعت حقائب لأتباع الانقلاب من غير البعثيين.

⁵⁷⁵ - الدولة غير المتقفة، كريم عبّ، المركز العربي للفنون و الآداب، بلجيكا - بروكسل، 1995، ص-

المجتمع بأسره إلى محارب. كمجتمع مؤسس على القوانين العسكرية: التعبئة العامة، قوات الاحتياط، الجيش الشعبي، الفدائيين الأشبال، إطالة فترة الخدمة العسكرية، شمول خريجي الكليات بالخدمة العسكرية... إنها عسكرة الحياة كمنهج لإدارة المجتمع. إنها محاولة نفسية و سلوكية للانتصار على خيبة 1963، الانتصار على مكر العسكر الذين غدروا بالحرس القومي و الانتصار على هشاشة تنظيم الحرس القومي، الذي لم يصمد أمام قوة الجيش و غضب الشعب»⁵⁷⁶

* * *

كان محمد شرارة في تلك الفترة، يعيش في قلق متواصل لعدم وجود عمل ثابت، إضافة إلى بعده عن عائلته و شعوره بالفراغ، و عدم تجديد عقده في المدرسة التي كان يدرّس فيها، بداية السنة الدراسية لعام 1968، و ذلك لكي تتخلص المدرسة من دفع تعويضات له عن الخدمة المتراكمة، مما جعله يفكر بجد في العودة إلى العراق. عين في تلك الفترة، الدكتور "ناصر الحاني"، الذي كان سفيراً في بيروت، و زيراً في وزارة عبد الرزاق النايف بعد انقلاب 17 تموز. كانت تربطه علاقة ود واحترام، فكتب في إحدى رسائله إلى ابنته مريم: « قبل مدة أرسل الدكتور "ناصر الحاني" دعوة لحضور الحفلة الوداعية التي أقامتها له السفارة بمناسبة تعيينه مستشاراً لرئيس الجمهورية، و سألني عن قضية الجنسية، و استغرب من عدم إعادتها لحد الآن. و وعد بالعمل السريع لإعادتها»⁵⁷⁷

إذ كانت قد أصدرت الحكومة الجديدة مرسوماً بإعادة جميع المفصولين من وظائفهم، كما أعفي عن جميع اليساريين و الشيوعيين الذين تركوا البلد و السماح لهم بالعودة إلى بلدهم. و عادت أبنته "حياة" بعد أن أكملت دراستها في جامعة موسكو، و حصلت على الدكتوراه في الأدب الروسي، كما عاد الوالد من لبنان بعد أن قضى سبعة أعوام متنقلاً بين الصين و الاتحاد السوفيتي و لبنان. و اجتمع بذلك شمل العائلة المشتتة لأول مرة منذ سنوات عديدة، إلا ابنته مريم التي ظلت بعيدة عن العائلة. و لم يكن محمد شرارة الوحيد المتفائل بالوضع الجديد في البداية، و إنما شمل التفاؤل عدداً من اليساريين، بما في ذلك أعضاء من الحزب الشيوعي، و

576 - "ثقافة العنف في العراق" سلام عبود، منشورات الجمل، الطبعة الأولى 2002، ص 151، 153
577 - رسالة لابنته مريم بتاريخ 1968/10/2، و كتب في حاشية الرسالة: "بعد الفراغ من كتابة هذه الرسالة جاعني خبر من السفارة العراقية بأن الجنسية أعيدت، و قد أصبح بإمكانني أن أسافر إلى العراق".

ذلك بعد أن أعيد المفصولون إلى وظائفهم، وسمح بالعودة إلى المنفيين خارج العراق. ولذا عرض أحمد حسن البكر رئيس الجمهورية، على الحزب الشيوعي عدداً من المناصب الوزارية، فرفضت قيادة الحزب هذا الطلب، إذ كان الحزب الشيوعي ما زال متخوفاً من النظام الجديد، الذي لم ينس القمع الذي تعرض له أعضاء الحزب من قبل حزب البعث في عام 1963.

وقد كتب عن عودته في رسالة إلى أحد أصدقائه يقول فيها:

« كانت الطائرة تمنع في الصعود، وكلما أمعنت فيه أحسست بأني ابتعد عن كثير من الأشياء العزيزة. ... ولم تمض سوى دقائق قليلة حتى أعلن المذيع أننا فوق دمشق. ... لم أعد أرى شيئاً من الأرض، وكل ما تحتنا غيوم مترام بعضها فوق بعض. وكانت الغيوم تشبه الجزر حيناً، وأحياناً تشبه الأشجار التي تفر من بين أغصانها المواعيد. ... وفي هذه اللحظات الغارقة في الصور المختلفة، أعلن المذيع مرة أخرى ان الطائرة تحوم في فضاء بغداد ... ولما عادت إلى الأرض لم أشعر إلا بغير هزة خفيفة لاحت معها رؤية الأهل والأحباب والأصدقاء ... لم يكن أحد في المطار، ولم أرَ وجهاً أعرفه في جميع الوجوه التي رأيتها، وكان واحد من المسافرين بجانبني يردد هذا البيت:

وأقفرت الدروب فلا حكايا تطرزها ولا لحن بديع

و كأنه قرأ ما في نفسي، أو كأن مشاعري وأحاسيسه كانتا على موعد ...»⁵⁷⁸

كانت عودته مفاجئة لعائلته، وكان الجميع يفضلون أن يبقى في لبنان خوفاً عليه، في الوقت الذي سيطر فيه حزب البعث على مقاليد الحكم. الحزب الذي تحذره ولا تأمنه أو تصدق بوعوده عائلة محمد شرارة، الحزب الذي أغرق العراق بالدماء في عام 1963، وزجوا بألاف الناس من الشيوعيين واليساريين في المعتقلات والسجون، ومارسوا التعذيب الجسدي والنفسي بحقهم، الحزب الذي كان له السبق في دفن الناس في مقابر جماعية، الحزب الذي فصل آلاف الناس من أعمالهم ووظائفهم و كلياتهم، انه الحزب الذي قام بتصفية معظم مكاسب ثورة 14 تموز، لذلك لم يكن في استقباله أحد من أفراد عائلته في المطار. وقد كتب رسالة إلى ابنته مريم في تاريخ 3/ 11/ 1968، ذكر فيها " كان وصولي مفاجأة غير مرتقبة".

578 - رسالة بتاريخ 12/ 11/ 1968، "محمد شرارة - الأديب والإنسان" د.مصطفى بزي، إصدار: هيئة

إنماء المنطقة الجنوبية 1994، ص 80 - 81

لكنه ارتاح في الدار التي كانت تقطنها عائلته في حي الكاظمين، فقد كانت من الدور الجديدة المحاطة بحديقة، بنيت في وسط غابة من النخيل التي كانت تحيط الحي، و ينطبق عليه قول شيشرون Cicero قبل أكثر من ألفي عام "إن كان عندك حديقة و مكتبة، فلا تحتاج إلى شيء"، و هذا ما أتاحتها الدار له من شعور بالراحة النفسية، فكتب رسالة إلى إبراهيم نعيم بزي يصف فيها الدار:

« بيتنا ريفي الوجه و الملامح، و من حوله تدور غابة صغيرة من النخيل الأخضر، و في ظل نخلة من شجيرات الغابة كانت تتساقط فُتاتُ أغنية شجية، و أكثر الأغاني هنا شجية، و لكنها كانت على شجاها تضيء، و كأنها ذبالة نجمة تائهة في بحر من اللازورد الأزرق الذي لا يعرف الحدود أو السواحل.

« و كنت أجلس في غرفة مطلة على الغابة، أصغي إلى النغمة الشجية، و أرافق اللحن الحزين، و أفكر بالقلب الذائب في هذه الألحان، عندما رن جرس الباب البعيد، فأفقت من الذهول الذي صبّه في وجودي النغم الحزين، و انحدرت بسرعة عن الدرج، و سرت نحو الباب، و كان على الباب ساعي البريد، و ألقاً ينتظر جواب الرنين.. دنوت لألتقط المجلة و إذا بداخلها رسالة، و أدركت حالاً أنها منك.»

ثم يتحدث في نفس الرسالة عن الجمال:

« يقول أفلاطون: "الجمال ذكرى حياة سالفة قضاها الإنسان بين الآلهة"، و في هذا القول هرب بالجمال من الأرض إلى السماء، أما أنا، و على احترامي لهذا الفيلسوف، فأخالف هذا الرأي، و أرى أن الجمال ذكرى حياة قضاها الإنسان بين الأعداء و العزيزات. و لو قدر لأفلاطون أن يعيش في هذه الواحة، لما هرب بالجمال مثل هذا الهرب الغريب!«⁵⁷⁹

* * *

و لكن لم تمرّ فترة قصيرة على استيلاء حزب البعث على السلطة، حتى بدأت غيوم الاضطهاد و التعسف تتكاثف في العراق، فقد ظهر بعد أشهر قليلة على المسرح وجه جديد، وجه لا يتوانى في استعمال العنف و القمع في جميع أشكاله البشعة، و هذا الوجه الجديد هو صدام حسين، الذي « قلب اللعبة رأساً على عقب، حينما و

579 - رسالة بتاريخ 12 / 12 / 1968، "محمد شرارة - الأديب و الإنسان"، مصطفى بزي، إصدار: هيئة إنماء المنطقة الجنوبية 1994، ص 82 - 83

ضع المشروع البعثي برمته، في خدمة ميوله الشخصية، التي هي مزيج غير قابل للفصل بين تكوينه و تجربة العنف البعثي، العراقي».⁵⁸⁰

لذا لم ينج وزير الخارجية السابق "ناصر الحاني" الذي استوزر في وزارة الانقلاب الأول، من المصير الذي كان مخططاً له. كما لم ينج أعضاء الحزب الشيوعي من الحملة المنظمة التي طالتهم من اعتقالات و تعذيب و سجن، بسبب رفضهم الاشتراك بالوزارة.

أما بالنسبة لناصر الحاني، فكانت الشائعة المعروفة و المتداولة بين الناس، أنه ساعد حزب البعث عندما كان سفيراً يمثل العراق في بيروت خلال عهد عبد الرحمن عارف، كما شاع بين الناس، انه الوسيط الذي كان بين السفارة الأمريكية و حزب البعث، و عن طريقه كانت تسلم الصكوك لغرض الانقلاب الذي حدث عام 1968⁵⁸¹. لكنها ظلت محض شائعات، من غير و ثقة تثبت ذلك.

580 - "من يصنع الدكتاتور؟ صدام حسين نموذجاً" سلام عبود، منشورات الجمل، كولون- ألمانيا 2008، ص- 134
581 - حديث مع "إسماعيل محمد إسماعيل" في 2002/5/6، الذي كان من أصدقاء ناصر الحاني المقربين، عن سبب التخلص منه:

« كان ناصر الحاني عصامياً، من عائلة فقيرة من قضاء عانة. درس في بغداد و حصل على شهادة الليسانس. ثم أكمل دراسته في الولايات المتحدة. تدرج في عدة مناصب و عين رائد الملك في العهد الملكي، و من ثم سفيراً العراق في بيروت في عهد عبد الرحمن عارف. و أصبح ناصر الحاني وزير الخارجية في انقلاب 17 تموز، لمدة أسبوعين في وزارة عبد الرزاق النايف. و في انقلاب 30 تموز، عين مستشاراً لرئيس الجمهورية.

« و اعتبر تعيينه مستشاراً نوعاً من التجميد. و كان يقول: "مستشار بلا استشارة". و ما أغضب السلطة تصريحه في المؤتمر الصحفي الذي عقده حالما تقلد منصب الوزارة، " ليس هنالك حزبية ضيقة بل سنبتدع عنها". بالطبع مثل هذا النوع من الكلام لا يمكن أن تهضمه السلطة و تغض النظر عنه. لذا لم يمر ثلاثة أشهر على تعيينه مستشاراً، عندما طرقت باب داره في الساعة الحادية و النصف ليلاً أربعة أشخاص، كان ناصر قد غير ملابسه، و ينظف أسنانه في الحمام. فتحت لهم الدار زوجته الايرلندية. استغربت عندما وجدت أربعة أشخاص أمامها في تلك الساعة المتأخرة، قائلين: إن ناصر مطلوب في القصر! سألتهم بحذر: هل يمكن أن يذهب غداً؟ إذ إن الوقت متأخر الآن. أجابوها: الأمر مستعجل جداً! و دخلوا حالاً إلى الدار، خرج عندئذ عليهم ناصر ببيجامته: قائلًا لهم: دعوني فقط أغير ملابسني، إذ لا أستطيع الذهاب إلى القصر في البيجامه. أجابوه: "ما كو داعي، بس خمس دقائق و ترجع".

« طلب عندئذ من زوجته أن تقدم لهم القهوة، فجلبت علبه من الشوكليت، و ذهبت إلى المطبخ لعمل القهوة، و إذا بأحدهم يتبعها إلى المطبخ، واضعاً مسدساً في ظهرها! أدركت عندئذ إن الوضع خطير جداً، و هو ليس استدعاء من القصر و إنما أكثر من ذلك!

وُجد ناصر الحاني مقتولاً في إحدى السواقي شمال قناة الجيش في بغداد. كان منكفئاً على وجهه، ببجامة التي غطاها الوحل و الطين. لم يقم بعمل إلا مساعدة الحزب عندما كان حزب البعث بحاجة إليه. و كان اغتياله بهذه الصورة البشعة، هو المكافأة التي حصل عليها!

فوجئ محمد شرارة بالطريقة المشينة التي قتل بها "ناصر الحاني"، و كان مستاء جداً من الأسلوب في التخلص من الذين يجروون على انتقاد الحزب. و اعتبرها بادرة خطيرة في التخلص من الناس المثقفين بالطريقة التي يتخلص فيها العصابات من أعدائهم. و بدأ التفاؤل الذي شعر به في البداية، عندما عاد إلى العراق، يتلاشى تدريجياً، و تغشاه غمامة من الشك!⁵⁸²

لم يجد حزب البعث أية مقاومة أو معارضة أو احتجاج من قبل الناس على الطريقة الوحشية التي قتل فيها "ناصر الحاني"، و لا حتى بين الطبقة الوسطى المتعلمة. بل عم الصمت بين جميع شرائح المجتمع بما في ذلك المثقفون.

« لم يكن أمام ناصر الحاني وسيلة أخرى غير الذهاب معهم، و اتجهت السيارة إلى منطقة خلف قناة الجيش، قرب "الكور" التي تقع بعد مدينة الثورة، "مدينة الصدر الآن". حيث أطلق كل من الذين رافقوه رصاصة، أردته قتيلاً. ثم رمي في إحدى السواقي، و عثر على جثته في اليوم التالي، حيث أقيم له مأتم في داره. و كان من بين الأشخاص الأربعة الذين طرقتوا باب داره في تلك الليلة، ناظم كزار مدير الشرطة، و عبد الوهاب كريم، الملقب "بالأعور". و الذي عرفته زوجة ناصر الحاني من الصور التي حملوها أثناء تشييعه بعدما قتل بحادث سيارة بفترة قصيرة.

« انتشرت الشائعات عن مقتل ناصر الحاني، فمنهم من قال إنه كان الواسطة بين حزب البعث و السفارة الأمريكية في بيروت، حيث كانت الصكوك، تسلم لهم عن طريقه للمساعدة في انقلاب 1968، لذا قضاوا عليه لكي لا يفشي بالسِر. و لم يعرف مدى صحة هذه الشائعات. و لكن السبب الحقيقي هو انه لم يكن راضياً عما كان يجري في البلاد، و بدأ بانتقاد السلطة، و يعتبر النقد من المحرمات في عهد أحكمت السلطة قبضتها الحديدية على الحكم.»

- إسماعيل محمد إسماعيل: ولد عام 1922-2008، درس في جامعة لافيرة- انكلترا، أول من شكل لجنة أولمبية عراقية مع الأستاذ أكرم فهمي عام 1948، و أول من شكل الاتحاد العراقي لكرة القدم. عمل سكرتيراً و رئيساً له، المعلق الأول على مباراة القدم للمؤسس العراقي، ملحق ثقافي في لندن 1960-1963، ملحق ثقافي في بيروت 1967-1970، وكيل وزارة الشباب 1970-1973، و هو شقيق إبراهيم محمد إسماعيل أمين العاصمة الأسبق.

⁵⁸² - في مساء اليوم الثاني كان رفعة مدعواً في إحدى السفارات في بغداد، و كان يتكلم مع السفير السعودي، حينما وقف بجانبهم المهندس محمد مخزومي و أخبرهم إن ناصر الحاني قتل، و وجد في ساقية خارج بغداد، فقال رفعة الجادرجي: « إن لم يخرج غداً احتجاجا عشرة آلاف متظاهر من الفئة المثقفة، لتوقف مثل هذا النوع من الأعمال الوحشية، سيستمر عندئذ الإرهاب و يشمل معظم الشعب العراقي.» و هذا ما حدث بعد ذلك، حتى بالنسبة للبعثتين المهمين في الحزب.

أدت عملية قتل ناصر الحاني بهذه الطريقة الوحشية في التخلص من الذين يتجرؤون على نقد السلطة، إلى خنق المثقف و تدجينه و تطويعه، و أصبح موقفه موقفاً ضعيفاً، فانعزل بعضهم بدل المجابهة، و استعمل البعض الآخر من قبل الحكومة كأداة إلى تبرير ما هو قائم، و تسويغه بين أوساط المجتمع و الإعلام. و بدأ منذ ذلك الحين مسلسل الرعب في العراق. فذب الخوف بين الناس بعد الحوادث المتفرقة من القتل و الاغتيال من قبل رجال أمن الدولة، و أصبحت هي الطريقة المتبعة في استئصال كل من يكون خطراً على الحزب، أو يفضح أسرارهِ. و تحول النقد العلني منذ ذلك الحين إلى همس و وشوشة بين الناس، و عمت الشائعات و انتشرت كالنار بالهشيم، و أصبحت الوساطة الوحيدة في نقل مثل هذه الأحداث التي بدأت تنتشر و تتكاثر بينهم. و بذلك بدأ حزب البعث بالتخلص مما يسميهم "بأعداء الحزب" بصورة منظّمة و من غير رحمة، و بدأت الرقابة الذاتية تسري بين الناس تدريجياً، حتى شملت أبسط الأمور. إن الرقابة الذاتية هي أفضع تردٍ أخلاقي و وجداني يمكن أن يلحق بالمجتمع، حينما تكون معبراتها خوفاً من السلطة، لأنها رقابة الواجدان على ذاته.

بعد مرور أكثر من شهرين على التخلص من ناصر الحاني، افتتح حزب البعث بداية عام 1969 بحملة من الإعدامات، بين العسكريين و المدنيين،⁵⁸³ كان من بينهم عدد من اليهود الذين لم يهاجروا إلى إسرائيل، و اتهموا بالخيانة العظمى بعد أن قدموا إلى محكمة صورية. و علقت جنثهم، متدلّية في ساحة التحرير، و هي من أهم ساحات بغداد، فقد شيد فيها نصب 14 تموز⁵⁸⁴، و أصبح مكان التجمع و اللقاءات بين عامة الناس.

لم ينقطع الناس عن التجمع في تلك الساحة ذلك اليوم، بل ازداد عددهم و ضجيجهم، و أظهروا فرحهم و اغتباطهم بالمحاكمات الاعتباطية، مؤيدين بذلك ما أقدمت عليه الحكومة! بل منهم من وجد الجلوس قرب الجنث المتدلّية في الهواء

583 - فقد اعدم في بداية عام 1969، (29) ضابطاً و ضابطاً صف رمية بالرصاص، كما أعدم (12) مدنياً شنعاً.

584 - قام في تصميم نصب 14 تموز، رفعة الجادرجي، الذي كلف النحات جواد سليم في عمل الجداريات البرونزية. و جاءت تفاصيل الأحداث في كتاب "الأخضر و القصر البلوري"، رفعة الجادرجي، دار الريس للنشر 1993

الطلق، فرصة نادرة لا يمكن أن يحظوا بها ثانية، فافترشوا الأرض، مجتمعين حول السماورات التي جلبوها معهم، مستمتعين بشرب الشاي، بين الأحاديث و الضحكات، و صمت الجثث التي أطلت عليهم بأجسادها المتدلية، و التي كانت شاهداً على احتفالهم بهذه المناسبة التي جعلوا منها رحلة ترفيحية! و نشرت صور تلك المناسبة في مجلة "التايم Time" الأمريكية ، بعنوان "العراقيون يشربون الشاي تحت المشانق!"

و بذلك طبق حزب البعث شعاره:

بعثٌ تشيده الجماجم و الدم تتهدم الدنيا و لا يتهدم

لم يكن افتتاح عام 1969 بالمشانق إلا نذيراً، لما ينتظره العراقيون من مأسٍ مقبلة، بعد أن و صلت العائلة التركيتية إلى الحكم!

و كتب سلام عبّود: « فقد نال فيه البعثيون شهادة كفاءة عالية في مجال القسوة المفرطة و الاستهانة المتطرفة بالإنسان. و لم تكن الاستهانة، في جوهرها، مجرد رسالة موجهة إلى اليهود، بل كانت موجهة بواسطةهم إلى أبناء الشعب العراقي كافة. فقد أفاد البعث من مشاعر نقبل القسوة التي تسود المجتمع، مستغلاً عواطف الناس، باسم المشاعر القومية، في فترة لم يبرد فيها عار هزيمة العرب الكبرى على يد إسرائيل». ⁵⁸⁵

* * *

قضى محمد شرارة و قته بين التدريس و الكتابة في تلك الفترة، و كان حذراً جداً، و شعر أن حزب البعث لم يتغير، فما زال أسلوب القتل و الاغتيال، من الأساليب السائدة التي عرف بها في عام 1963.

و استمر في كتابة المقالات التي تتخللها كتابة الرسائل إلى أصدقائه في لبنان، و اصفاً الطبيعية من خلال الدار الذي يعيش فيها في حي الكاظمين:

« في هذه اللحظة، و قد بدأت الشمس تلمّ خيوطها عن ذوائب النخيل، و الراعي تحت النافذة، يدق على الناي دقّة الغروب، و يجمع قطيعه المبعثر في المروج، و قطار المساء يعود من "الموصل" بزئيره، و يبعث هممة في الفضاء، و صفارة المعمل القريب تدوي في الجوّ مؤذنة للعمال بالعودة إلى بيوتهم، و إبراهيم يتهيأ

للذهاب إلى المعهد الألماني، و أمه ذهبت قبله إلى جارتها لتناول الشاي، و بقيت في هذا الجو وحدي أعيد قراءة الرسائل، و في طليعتها رسالتك المشرقة على رغم الغروب، و علي رغم الجو العابس.»⁵⁸⁶

كما كتب مقالاً في تلك الفترة عن الشاعر الرصافي بعنوان: "الرصافي و الإبداع الفني".⁵⁸⁷ لم يعتبر الرصافي من الشعراء الذين استطاعوا أن يصلوا إلى مستوى التصوير الإبداعي بل ظلت صورته على جراتها باهتة، و انتهى في مقاله إلى نتيجة أن الرصافي باهت حظه في عالم الإبداع و في دقة اختيار الصور الفنية. و بدأ بتعريف ما هو الإبداع الفني أولاً:

« إذا كان الإبداع الفني ومضة تضيء، أو إيماءة تشير، أو دقة في اختيار الألوان و ترتيبها و وضع كل لون في مكانه، فقد يكون حظ الرصافي من ذلك متواضعاً... فالإبداع الفني عالم تحمل الكلمة فيه عالماً، كل حرف فيه طيف من طيوف الشمس أو منظر من مناظر الرياض المتنوعة أو ما أشبه ذلك من الأكوان التي تصبح فيها الكلمة أو النغمة أو اللون نافذة مطلة على الدنيا... في هذا العالم تصبح الكلمة ذات نكهة خاصة، و رائحة خاصة لا يكفيها الفهم و حده، و لا معرفة المعنى القاموسي، و إنما تحتاج إلى ذوق خاص... الكلمة في عالم الإبداع الفني لها قدرة على أن تعطي بالإيماءة دنيا من المعاني يلد بعضها بعضاً. و إذا كانت للرصافي أنفاس في هذه العوالم فإنها أنفاس قصيرة...»⁵⁸⁸

* * *

لم يتمتع محمد شرارة بشمل عائلته، حتى فاجأه القدر بحادثة هزت كيانه، فقد أصيبت شقيقته خديجة فجأة بجلطة في الدماغ أدت إلى وفاتها. و ما زاد من الصدمة، هي المفاجأة التي فارقت بها الحياة، فقد شعرت بوجع في الرأس، و ذهبت

⁵⁸⁶ -رسالة بعثها محمد شرارة في 1969/2/5، "محمد شرارة - الأديب و الإنسان" د.مصطفى بزي،

إصدار:هيئة إيماء المنطقة الجنوبية 1994، ص- 82

⁵⁸⁷ -كتب محمد شرارة دراسة مستفيضة عن الشاعر معروف الرصافي، و نشرت له عدة مقالات بحث فيها شعر الرصافي من جوانب عديدة، مختلفة منها: "الرصافي في طليعة الأدب الشعبي" و "الرصافي جندي عنيد من جنود الحرية - 1951" و "الرصافي يتنبأ بسيادة السلام - 1954" و "الروح العاطفية في شعر الرصافي - 1958" و "الرصافي و المتاجرون في الدين - 1961" و "الرصافي و الإبداع الفني- 1969".(ب.ش)

⁵⁸⁸ - "الرصافي و الإبداع الفني" محمد شرارة، مجلة العرفان - لبنان، أيلول 1969

إلى غرفتها لترتاح، و إذا بها قد رحلت عن الوجود، و هي لم تصل بعد سن الخمسين من العمر.

كانت من أقرب الناس إليه، إذ كان هنالك انسجام تام بينهما، فلم تكن شقيقة فقط، و إنما قامت في توفير نوع من الاستقرار في حياته. فكانت ترعاه طيلة إقامته في لبنان، مسؤولة عن تنظيم شقته و توفير الطعام له، و الاهتمام بأمور البيت، إضافة إلى أنها كانت صحيفة من صحف التابلويد / tabloid، محملة بأخبار مجتمع "بنت جبيل" عند زيارتها له، و اذعة ذلك المجتمع النسائي القروي على المشرحة بسخريتها الجارحة، إذ لم تفقد يوماً روح الفكاهة التي كانت تتحلى بها.

كانت خديجة هي الأخت و الصديقة التي تضيء العتمة في الغربة و في الأزمات التي مرّ بها، لذا تحول موتها و فقدانها إلى جرح دفين. فقد عاش السنين البعيدة عن عائلته في لبنان بظلال عطفها و حنانها و رقتها، فعوضت تلك الألفة و الانسجام، عن فراقه الطويل و مشقة البعد عن عائلته في العراق.

ذهبت لزيارته عندما علمت بالخبر، ففاجأني و الدتي انه لازم الفراش و اعتكف في غرفته من شدة وقع الخبر، و لم يكن باستطاعته أن يرى أحداً. فقد كان وقع خبر موتها المفاجئ كارثة، و انهار من شدة الصدمة.

و أكدت شقيقتي "حياة" على هذه الصفة عندما كتبت عنه:

« و رغم صلابته في القضايا الوطنية، كان رقيقاً حساساً، شديد التأثير عندما يفجع بأحبائه. و يحضرنا مرة أخرى قول المتنبي في هذا الصدد:

إني لأجبن من فراق أحبتي و تحس نفسي بالحمام فأشجع
ويزيدني غضب الأعداي قسوة و يلم بي عتب الصديق فأجزع

أثرت هذه المصائب في مشاعره الفياضة، و أحاسيسه المرهفة، و ليس هذا بالشيء الغريب على امرئ ينطبق عليه ما قاله هو عن نفسه في قصيدة "المنديل الناطق":

بمدرسة العواطف رفّ قلبي و بين ضلوعها رفّت مهودي

فعواطفه تختلج و تهتز و تتحول أحياناً إلى عواصف تجتاح فؤاده، و تقطع أوتاره عندما تباغته نوائب الدهر و خطوبه و فواجع المنية و مآسيها و تترك جروحاً

عميقة في نفسه. أحدث فقدان أقرب الناس إليه فراغاً كبيراً في حياته و ألقى عليها ظلالاً قاتمة في تلك الفترة.»⁵⁸⁹

* * *

سافر في اليوم التالي لحضور مأتمها، كان شاحب اللون، عندما و دعت، و عكست عينه الكئيبتين عن نفس معذبة، صامتة. لقد هذه الأسي، و شعر بعتمة الوجود، و الفراغ الذي أحدثه موته المفاجئ، فالحزن له عيون حادة ثاقبة، و الحزن لا حدود له و لا يمكن قياسه بميزان. و لكنه عندما و صل بيروت، أحيط بأشقائه و أقربائه و أصدقائه الذين شاركوه في مأساة فقدانها المفاجئ. و نظم من و حي الفاجعة عدة قصائد، منها قصيدة "الواحة الراحلة" التي وصف حاله بعد فقدانها: "الشعر بعد رحيلك القاسي وشاح من دموع" و قصيدة "على قبرها الأخضر":

فيقول: « و مرة أخرى تجد النفس الحزينة، نفساً لها في الشعر، و مرة أخرى يستطيع الشعر أن يكون زورقا من زوارق الإنقاذ للقلب الذي هذه الأسي.» هذه بعض أبيات من قصيدة طويلة:

خريف العالم الأزلي في قلبي و في كبدي
و من حولي رماد الدهر طوفان بلا رصد
و قد راحت زوارقنا
تجوب غمام الأمواج
و تسري في عواصفهن تحت غمام الزبد
و ضاعت نجمة الميناء و انطفأت إلى الأبد
عاد محمد شرارة إلى بغداد بعد أسبوع، فوجد رجال الأمن في المطار في انتظاره، فاعتقل هذه المرة لوضع ساعات في مديرية الأمن، التي لم ترفع عنه المنع الذي شمل جميع اليساريين و الشيوعيين آنذاك!

بان التعب عليه في تلك الفترة، و عانى من فقدان شقيقته لمدة طويلة، و شعر بالوحدة حتى بين أفراد عائلته في بغداد، و ليس هنالك أفدح من هذا الشعور، إحساس المرء بالغرابة بين أقرب الناس إليه!! إذ لم تستطع أن تعوّض عائلته عن ذلك فقدان في حياته! فجميع أفرادها مشغولون في أعمالهم، يعودون مرهقين من

589 - مقدمة كتاب "المتنبي بين البطولة و الاغتراب" حياة شرارة، المؤسسة العربية للدراسات و النشر - بيروت 1981، ص- 31

العمل. فإبراهيم يعود متعباً من ساعات عمله الطويلة في وزارة الصناعة، و حياة تعود من الجامعة، لتتكب في تحضير المحاضرات لليوم التالي، و جهاد يعود من الثانوية برزمة من الدفاتر التي عليه أن يقوم في تدقيقها و تصحيحها و تقديمها في اليوم التالي، أما أنا فكنت أزوره عصرأ، بعد الدوام، لأقضي بعض الوقت معه. كنا نجلس أحياناً صامتين. يسحب نفساً عميقاً بين الفينة و الفينة، و كنت أحس بأضلاع صدره تنقطع من شدة الزفير. لم يندمل الجرح بعد عام على وفاتها، بل ظل عميقاً، و كان موتها "مأساة رهيبة"، فكتب في إحدى رسائله بعد رحيلها بخمسة أشهر:

« بعدما عدت من اللقاء الخاطف الحزين، كنت أشبه بالورقة التي تطاردها الرياح، و ما شعرت في يوم من الأيام بحاجة إلى إنسان يعينني على حمل المأساة الرهيبة، كما شعرت بها في ذلك الوقت.

لقد اختنقت في صدري الدموع ... و مرّت الذكرى كما يمرّ اللهب الذي يجتاح غابة القصب اليابس، و كاد يتحول إلى زفرات، و لكنني خنفته...»⁵⁹⁰

كما كتب في رسالة أخرى عنها:

« فمذ كانت المأساة المُرّة، رحلت تلك الأخت العظيمة، و أنا أشعر بغربة سوداء و فراغ يشبه فراغ الهاوية. ... لا أستطيع أن أنسى اللحظة الرهيبة التي تشعرنني بأن الدنيا خلت من تلك الإنسانية التي كانت كوناً قائماً بذاته ... و الذي أعرفه أي كنت و ما أزال أبحث عن (الصدق) في الإنسان، و في العلاقات الإنسانية، كما يبحث الأديب عن تعبير جديد، و عن صيغ مبتكرة لأفكاره و عواطفه، و لاشك أنني اكتشفت يومئذ هذا (الشيء) .. هذا (الشفق) الذي يبقى بعد انتقال الشمس من أفق إلى أفق .. هذا العطر الذي يبقى في الزهر مهما كان شكل الأوراق.»⁵⁹¹

كل شيء ذبل حتى قصائده، فيقول: "و قصائدي ذبلت على أثر الرحيل"، و استمر شعوره بالغربة في تلك الفترة، فعندما حل فصل الربيع نظم قصيدة بشقيقته خديجة، بعنوان: "أعراس الربيع" و « الربيع مهرجان الأرض، و أعراسها الضاحكة، و جاء هذه السنة بعد رحيلها فلم يكن سوى فراشة خامدة.»

590 - رسالة بعثها محمد شرارة بتاريخ 1970/4/23، المرجع: محمد شرارة الأديب و الإنسان" د.

مصطفى بزي، إصدار: هيئة إماء المنطقة الحدودية 1994، ص 89 - 90

591 - مسودة رسالة غير كاملة، و غير معنونة أو مؤرخة، بعثها بعد عودته من تأبين شقيقته خديجة في لبنان، وجدتها بين أوراقه.(ب.ش)

* * *

ثم يصف نفسه:

أنا الضوء الجريح.. أنا سياج
أواجه كيرياء الليل وحدي
وبت أطارد الظلمات حتى

هوت شرفاته بعد الصدوح
وقد ران الهدوء على الجميع
تمزق تحتها زرد الدروع

* * *

و في هذه الحالة النفسية العصبية التي كان يمرّ بها محمد شرارة بعد وفاة شقيقته، كان أهل العراق يمرون بحالة عصبية لا تقل بقسوتها عن معاناته. فلم يمض أقل من عام على انقلاب 17 تموز، حتى بدأت مطاردة الناس و زجهم في المعتقلات و السجون و أصبح روتيناً يومياً. حاول كل من أحمد حسن البكر و صدام حسين في تلك الفترة، التودّد إلى الحزب الشيوعي و اضطهاده بالتناوب، و كانت لهما عدد من الدوافع، منها الفوز برضا الاتحاد السوفيتي عن النظام الجديد، لكي يصبح الممّون الرئيس بالأسلحة، و ربما الأهم من ذلك زرع الشقاق بين أعضاء الحزب الشيوعي، و بذلك تتمكن السلطة من إخراج الحزب الشيوعي إلى العلن، و اكتشاف مدى قوته ليسهل عليها استئصاله. و قد نجح أحمد حسن البكر في خطته، و دمج الحزب الشيوعي العراقي في الجبهة الوطنية،⁵⁹² و انشق "عزيز الحاج" مع مجموعة من أعضاء الحزب، و كوّن حزباً جديداً، و قضى عليه و على حركته في نيسان من العام نفسه.

كما حصل حزب البعث على قائمة بالماسونيين في العراق، و بدأت حملة جديدة من الرعب بين الناس من التصفيات الجماعية. فألقي القبض على بعض الأعضاء، و سيقوا إلى معتقلات الأمن، و جرى التعذيب البشع بحق البعض من المسنين في العمر منهم، و ضربوا بالصوندات/ خراطيم المياه، و قضى بعضهم نحبه في تلك المعتقلات قبل أن يصدر الحكم بحقهم. كما حكم على بعضهم أحكاماً قاسية، حيث كانت جميع محاكمات الأشخاص الذين اتهموا بالماسونية، سرية و صورية، بعيدة

592 - و هو أشبه ما قام به من قبل جمال عبد الناصر، في دمج الحزب الشيوعي المصري في جبهة مع الحزب الاشتراكي. (ب.ش)

عن العدل و القانون. و هو المنحى الذي اتجهت إليه السلطة المتمثلة بحزب البعث، في محاكمة الناس. و أصبحت القاعدة في محاكمة جميع المتهمين منذ ذلك الحين. و من جملة من شملتهم تلك الأحكام، "درويش الحيدري"، الذي كان أول خبير زراعي عراقي، و الذي كان له الدور الأول في تأسيس المزارع النموذجية في العراق، و كان مديراً لمزرعة "الرستمية" لعدة أعوام. كما شمل الاعتقال المنلوجست الشعبي الشهير "عزيز علي"، الذي كانت تذاع أغانيه من الإذاعة العراقية خلال العهد الملكي. و انتشرت "منولوجاته" بين جميع طبقات المجتمع العراقي، الذي حفظها عن ظهر قلب. كان عزيز علي ناقداً لاذعاً للاستعمار، ساخرًا من تحكم السفارة البريطانية التي تمثل المصالح البريطانية في العراق، و من الحكومات الفاسدة التي تلبى مصالحهم.

لعبت "منولوجات" عزيز علي دوراً مهماً في إيقاظ و تنوير و توعية عامة الناس و خاصة البسطاء منهم، حيث كانت تذاع من محطة الإذاعة العراقية، فيحفظها الناس عن ظهر قلب. كان لتلك المنولوجات دور بين عامة الناس كاللحظة الذي لعبته الصحف السياسة بين المتعلمين، حيث كانت تسمع منولوجاته من قبل المارة في الشارع، من مذياع المقاهي المرتفع بأعلى صوته. و أصبحت منولوجات عزيز علي، أداة تنفيس و تخفيف من الضغط السياسي الذي كان يعاني منه المواطن العراقي آنذاك. لم تقتصر منولوجاته على نقد الأوضاع السياسية و إنما شملت عادات المجتمع المتخلفة، بأسلوب رشيق شائق متميز عن المغنين الآخرين، كما كان ينظم و يلحن و يغني ما يكتبه بلغة عامية يفهمها الشعب. كان محمد شرارة يستمع إلى كل منولوج جديد لعزيز علي، و كان يترنم أحياناً به بالرغم من انه لا يتقن اللهجة العراقية العامية. و كان أحب منولوج له هو "مختار ذلك الصوب، صلوا عا النبي"، الذي يقصد به السفارة البريطانية التي كانت تقع في الضفة الأخرى من بغداد. أو "اسكت لا تحجي تبثلي".⁵⁹³

593 - يتميز كل من عزيز علي، و نوري ثابت صاحب مجلة "حيزبوز"، و الشاعر الشعبي عيود الكرخي، من بين قادة المجتمع العراقي، في أنهم لم يقدموا هؤلاء على نقد الاستعمار و الفساد فحسب، إذ لم يكن هذا هدفهم الأول، و إنما كانوا جريئين في نقد المجتمع العراقي، من حيث عاداته و معتقداته، و التزامه في التخلف. و لم يجرؤ الساسة المعارضون على نقد المجتمع، بل ركزوا على نقد السلطة.

و لم ينجُ حتى بعض أعضاء حزب البعث المهمين من التصفيات، الذين كان يعتبرهم البكر و صدام متعاطفين مع بعض أفكار الحزب الشيوعي، و ميالين إلى التعاطف مع حزب البعث السوري. و قد شكل هؤلاء الأيديولوجيون خطراً على أحمد حسن البكر و صدام حسين، و شكّلت تحدياً لهيمنتها المتنامية في الحزب. لقد سيطر هذا الخطر في السنوات الأولى، و لم يختفِ إلا بعد أن ضمن صدام بأن الحزب لم يعد له و جود مستقل عن الاتجاه الذي و ضعه له هو نفسه. و ذلك بالتخلص تدريجياً من أعضاء الحزب الذين يكونون هذا الخطر. كما لم يسلم الجيش من التصفيات في تلك الفترة، فقد أقصي كل من صالح مهدي عماش و حردان التكريتي من مناصبهما الوزارية، و نفي عماش كسفير إلى فلندا، أما حردان التكريتي فقد قتل في الكويت في عام 1971.⁵⁹⁴

كما لم ينج رجال الدين أيضاً في عام 1969، فقد حاول أحمد حسن البكر أن يضغط على أية الله محسن الحكيم في إدانة الحكومة الإيرانية علناً في نزاعها حول شط العرب، و عندما رفض الحكيم ذلك، فما كان من أحمد حسن البكر، إلا أن اعتقل طلاب الدين الإيرانيين و طردهم، و أغلقت جامعة الكوفة في النجف، و صودرت أملاكها. فيما تعرض عشرين ألف ينحدرون من أصول إيرانية إلى

- أهدى رفعة الجادرجي كتابه "الأخضر و القصر البلوري" إلى الطليعيين الذين قدموا خدمة إلى العراق، و كان المغني عزيز علي أحدهم. و التقى رفعة الجادرجي بعزيز علي في سجن أبو غريب، و قد استمرت علاقتهما حتى وفاته. (ب.ش)

⁵⁹⁴ - و قد كتب السفير الأمريكي في الكويت إلى وزارة الخارجية في واشنطن في 1971/3/13، عن اغتيال حردان التكريتي: «اغتيال هنا في الكويت، صباح أمس، حردان التكريتي، نائب الرئيس العراقي السابق، على مسافة نصف ميل من سفارتنا. و هكذا شهدت الكويت أول اغتيال سياسي في تاريخها الحديث. و يعتقد الكويتيون، حكومة و شعباً، إن الاغتيال خطط في العراق و نفذ في الكويت بواسطة عملاء حكوميين عراقيين. و لا بد أن معاني و عواقب هذا ستظهر و تتطور خلال فترة من الزمن، و سيكون لها أبعاد كثيرة. وفق معلوماتنا، أحس حردان التكريتي بالألام في المعدة فتم تحديد ميعاد صباح أمس مع اختصاصي مشهور في المستشفى الأميري. ذهب مع حردان إلى المستشفى مدحت جمعة، سفير العراق في الكويت، و كانا في سيارة السفارة الرسمية، يقودها السائق الرسمي. عندما وصلت السيارة إلى مدخل المستشفى، تقدم نحوها شخص يرتدي بذلة غريبة جميلة، و فتح الباب الخلفي ليخرج حردان. و عندما بدا حردان يخرج و وضع رجله اليمنى على الأرض و انحنى برأسه، اخرج الرجل مسدساً، و أطلق النار مرتين مباشرة في رأس حردان و عندما وقع حردان أطلق الرجل طلقتين نحو قلبه و طلقة الخامسة نحو معدته... السفير مدحت جمعة، الذي كان يجلس إلى جوار حردان لم يصب بأذى. هرب القاتل و معه أربعة رجال يبدو أنهم كانوا جزءاً من المؤتمر، و يحمل بعضهم بنادق كلاشكوف.»

طردهم عبر الحدود العراقية. أدت هذه الحملة إلى استياء عام، و احتجاجات حادة، فخرج "الحكيم" في حزيران 1969 بمسيرة احتجاجية من النجف إلى بغداد، أخافت هذه المسيرة السلطة، أدت إلى اتهام ابنه "مهدي الحكيم" بالتآمر و التجسس لإسرائيل. و لم تنتهي تلك الاحتجاجات، إلا برد الحكومة باعتقال علماء الدين الذين تجرئوا على إبداء اعتراضهم، و إعدام عالم دين سني هو الشيخ "عبد العزيز البدري" الذي عبر عن تأييده للحكيم.⁵⁹⁵

و بذلك خلت الساحة السياسية من عناصر الاعتراض و الاحتجاج، و أصبحت الساحة مهياً للحكم بقبضة حديدية، ثبتت بها دكتاتورية السلطة، و شبكتها المؤلفة من القبيلة و المحسوبية. بقيادة مافيتين: الأولى بقيادة أحمد حسن البكر و الثانية بقيادة صدام حسين.

* * *

⁵⁹⁵ - "صفحات من تاريخ العراق المعاصر" تشارلز تريب، ترجمة: زينة جابر إدريس، الدار العربية للعلوم، بيروت - لبنان، 2006، ص 265-272

لم يمرّ عام على رحيل شقيقته خديجة، حتى أصيب بصدمة عنيفة أخرى، عندما توفيت زوجته. كانت زوجته صبوراً حتى في مرضها، الذي ظل مبهما عندما دخلت المستشفى، فقد شخصت من قبل عدد من كبار أطباء الكلية الطبية من أنها مصابة بمرض اليرقان /الجوندس، لاصفرار وجهها و بياض عينيها الواسعتين الغائرتين، و على أثر ذلك التشخيص وصف لها الدواء، و لم تتحسن صحتها، بل تردى وضعها الصحي، حتى اكتشف الأطباء فيما بعد أنها مصابة بمرض سرطان البنكرياس، الذي لا علاج له سوى المهدئات.

و بمرور الأيام ساءت حالتها، كانت تتلوى من الألم، و تنوب أمام أعيننا كالشمعة، ننظر إلى عينيها اللوزيتين الباهتتين، و جسدها المترهل، و جلدها الأبيض الذي تناثرت فيه بقع النمش. تنتفض كالطائر المذبوح، لا نسمع إلا آهاتها و صرير أسنانها من الآلام التي مزقت جسدها. كان مرض السرطان ينخر جسدها كما تنخر دودة "الأرضة" بيوت بغداد القديمة، جسدها أنقاض مدينة قديمة متعبة منهكة تأكلت مع الزمن، فاستشرى السرطان في جميع أعضاء جسمها. و انطلقت ذاكرتها تستعيد الماضي البعيد، أحلام الطفولة و أمانيتها، و تلتحم الصور في ذاكرتها فتصبح هذياناً، عادت إلى طفولتها في أيامها الأخيرة من حياتها، لا تنادي إلا والديها. كانت تحقن بجرعة المورفين كل ثلاث ساعات، و عندما يخف مفعولها، تنادي بصوت خافت والديها ثانية من تحت القبر. جلست مع والدي في ساعاتها الأخيرة، و أخذت أنفاسها تتلاشى، « و راح الموت يتراءى كما تترأى الغيمة السوداء في الجو الكئيب» نلقي «النظرات الأخيرة من خفقات الحياة في قلبها»⁵⁹⁶، تصطك أسنانها و تتمم بكلمات متلججة، لا نفقه شيئاً منها، حتى كفت عن المناداة.

596 - «إغراء و رفض» محمد شرارة، مجلة العرفان، أيلول 1967.

رحلت في صباح 1970/10/9، هيمن صمت الموت الرهيب على الدار، و نقل جثمانها في اليوم نفسه إلى مدينة النجف، و رافقها زوجها و صهرها الدكتور محمد صالح سميسم.

عاد متعباً، كئيباً بعد دفن الجنازة، أصبح كاليتيم بلا زوجته، رغم الهوة الفكرية التي كانت تفصل بينهما خلال أربعة عقود. و شعرت إن الكبار يصبحون أيتاماً أيضاً. فقد تراكمت المصائب عليه، و فقد أعز الناس إليه بأقل من عامين، و عبّر عن شعوره في هذا البيت الذي يختصر ما كان يعانيه من لوعة الفراق، و « سرت دوامة الموت كما يسري عويل الزوبعة». و كتب عن "المتنبي" في هذا الصدد الذي ينطبق عليه في تلك الفترة الصعبة التي مرت عليه: « الأوراق تتساقط و الطيور تهاجر و الموت يصطاد الحباب واحدة بعد واحدة». فبالأمس مانت والدته، ثم أخته، و اليوم زوجته، « و كبر الفراغ و ازداد امتداداً كما ازدادت الوحشة الخائفة ... و حاول أن ييلع آلامه و لكن الآلام كانت أكبر من الأفواه. و الجروح أوسع من أن تمتد لها الخيوط التي تحاول شداها في مواجهة النزيف».⁵⁹⁷

خلت الدار بموت زوجته و ابتلع الفراغ محتوياتها، كانت هي البيت، و الشمعة المضيئة فيه. هي الروح التي تدب فيه و تحركه، و مركز الجذب و نقطة التجمع. دخلنا غرفة نومها، و دارت عينه في الغرفة تفتش عنها، صورتها الحزينة ترفرف حولنا، سريرها الفارغ، ملابسها المعلقة في الخزانة، عبايتها المهجورة التي كانت ترتديها عند زيارتها حضرة الكاظمين يوم الخميس، سجادتها الملفوفة باعثناء الموضوععة فوق الدولاب، التي لا يمكن لأحد منا التقرب منها أو مسها، و إلا أصبحت مدنسة في نظرها و عليها تطهيرها! ملابس الصلاة البيضاء، التي تنتشج بها من رأسها إلى أخمص قدميها، كأنها ملاك متفجع بالبياض، و نشوة التأمل على قسماط وجهها أثناء الصلاة. كان الخشوع إلى الله هو أقصى درجات النشوة عندها. كانت مستبشرة، بيدها مفتاح الجنة، سيفتح بابها على مصراعيه و يستقبلها، طاهرة من جميع ذنوب الحياة، فقد أدت فريضة الحج و الزكاة و قامت بفرائض الصلاة و الصوم، و لم تبق فروض تحاسب عليها! لم يكن باستطاعتها أن تصلي في أيامها

597 - " الأهل و الحنين"، كتاب "المتنبي بين البطولة الاغتراب"، محمد شرارة، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت 1981، ص- 64

الأخيرة، كانت تقول لوالدي « كيف ما عما في صلي! » فيجيبها: «لقد صليت طيلة حياتك، و الله يغفر للمريض من التقصير بواجباته نحوه».

و مات المطبخ أيضا بموتها، كانت ذبالة الضوء التي تتجذب إليها العائلة حول مائدة الطعام، و التي تفوح منها رائحة طبخها اللذيذ، فيتجه الجميع نحو تلك الرائحة، كما ينجذب الحديد إلى المغناطيس. كانت حياتها سلسلة من التضحيات في سبيل أولادها و زوجها، لا أحد منا شعر بتضحيتها و نكران ذاتها إلا عندما اختفت من بيننا. أصبح والدي يتيماً بين أبنائه، و البيت حزيناً و خالياً، و أتسع الصمت على مساحاته بموتها، و انحسرت الابتسامة عن شفثيه، فنظم فيها قصيدة بعنوان "مسافرة"، و هذه بعض أبيات منها:

مسافرة

إلى أرض يموت الفجر، فوق صخورها السوداء
و ينتحب

على أطرافها الليمون و الرمان و العنب
و تبكي فوقها الأجراس و الرايات و الشهب
ثم يقول:

مسافرة

و نحن نواجه الظلمات في بيدٍ بلا واحة
و أحداق الذئاب تطوف فوق عرائش الساحة

* * *

ماتت زوجته و لم تتحقق أمنيتها في أن تملك أرضاً تشيد عليها حلمها، بيتها الحبيب لقلبها، و ظلت تلك الأمنية تثير الحزن في أعماقها حتى بعد أن استقر زوجها في بغداد!! بدأت حياة التنقل من مكان إلى آخر و راء الوظيفة و لقمة العيش منذ عام 1936. و كل دار تخلف وراءها ذكريات مبعثرة، ذكريات فرحة، ذكريات حزينة، و ذكريات خائفة، مكونة بذلك تاريخاً طويلاً تنتنفس في أرجائه.

فانتسعت الدور و ضاقت حسب الأزمات المالية التي كان يمرّ بها زوجها، بيوت مضيئة و بيوت معتمة، تتسع غرف الدار و حديقتها، تشعر العائلة بالراحة و الغبطة و بالسيولة و الوفرة المالية، و تضيق عليها بانحسار المال و شحته!! و

استمر التنقل من دار إلى دار و من حي إلى حي، في مدينة بغداد، شمالها و جنوبها، شرقها و غربها!⁵⁹⁸

بان الهرم على والدي، و شمل حتى أثاث الدار التي تعبت من الطواف و التنقل!! طاقم الكنبات/ القففات، الكحلي اللون، من قماش القטיפه يحكي القصة! حيث عكس في حي "سبع قصور"، حيوية الصبا و الجمال، و ظهر أكثر روعة في غرفته الواسعة، فاحتضن بحرارة الشعراء و الأدباء في الندوات الشعرية الأسبوعية التي كانت تقام في الدار. و انتقل مع العائلة في جميع الدور التي عاشت بها، و تشتت أحياناً في دور ضيقة، فوضع في غرفتين، ليجتمع شمله ثانية في دور واسعة! فقد النضارة التي كان يتحلى بها عندما كنا صبايا يافعات، فبهت اللون، من الجلوس عليه عبر السنين و بانت بقع التآكل كبقع جرب الجلد! و لكنه ودع والدتي قبل موتها في حي الكاظمين التي كانت آخر دار يؤجرها والدي. فقد قطن أولاده في دور بنوها في أحياء مختلفة من بغداد التي لم يكن لوالدتي نصيب في أن تمتع النظر بها!

كنت أزوره دائماً بعد وفاة والدي، أجلس معه في الحديقة التي كانت تعنتي بها كما تعنتني الأم بأطفالها. و لكن فقد الثيل/العشب لونه الأخضر الغامق، و أصبحت تتخلله البقع الصفراء، و تساقطت أوراق عريش العنب التي كانت تقطفها برقة و تضعها فوق بعضها البعض لطبخة "الدولمة" المفضلة لنا. أجول بعيني في الحديقة التي تغيرت بغيابها، و أنا أشرب شاي الوالد المشهور بنكهته الخاصة، أنصت لحديثه الشائق، و أتأمل العصافير في السماء التي شاركت حديثنا بزقزقتها، تقفز مرفرفة بأجنحتها من غصن لآخر، محاولة إيجاد الفسحة المناسبة لها لقضاء الليل. و لكن كان حديثاً يشوبه الحزن و الشعور بلوعة فقدان، و شعرت شعوره عندما رثى صديقاً عزيزاً عليه: « و الملاحظة التي اكتشفت الحزن، أو اكتشفت على الأصح دائرته الواسعة في ساعة الموت، و رأيت أنه يتجاوز بحجمه الكبير ذلك الفرحة في ساعة الميلاد.»⁵⁹⁹

598 - سكن محمد شرارة بغداد منذ عام 1944، و انتقلت العائلة خلال ربع قرن، أي حتى وفاة زوجته عام 1970 إلى اثنتي عشرة داراً. (ب.ش)
599 - "طيف مرّ من هنا"، محمد شرارة، في تأبين عبد المطلب الأمين، مجلة العرفان، كانون الأول 1975، لبنان.

نظم خمسة قصائد خلال تلك المدة بين و فاة شقيقته خديجة في 1969/12/20 - و وفاة زوجته في 1970/10/9، و هي "على الميناء" و "اللقاء الأخير" و "شوق المناديل" و "رمال بلا واحة" و "مسافرة".

* * *

كتب لأبنته مريم رسالة بعد أسبوعين من وفاة زوجته:

« لا أعرف كيف أحرك القلم على الورق، و لا أعرف كيف أسوق لك الأخبار؛ فقد شاعت الظروف أن تكون هذه السنة سنة فجاجع علينا. و بعد ما نكبنا بعمتك التي خطفها القدر. و بينما نحن في غمرات الجرح فُجعنا بوالدتك الطاهرة التي بدأ مرضها بسيطاً اعتيادياً، ثم تطور بسرعة هائلة إلى مرض لا يرجى له شفاء ... و قد كان فقدها مؤلماً جداً، و كان الفراغ الذي أحدثه موتها في حياتنا فراغاً هائلاً: رجعت و ساحتي الظلمات و الأحزان أجراسي

أفتش في ندى الأزهار

عن بسماتها..عني

فلم أعرثر على أحد.. و لا شيء سوى صوتي»⁶⁰⁰

كانت أبنته مريم تعيش مع زوجها في لندن، و كانت تتوق لزيارة بغداد لتلتقي بوالدتها، لكن الظروف لم تكن ملائمة لزيارة بغداد في تلك الفترة، لذا كان وقع خبر وفاة الوالدة، صدمة عانت منها لمدة، و كتب الوالد لها رسالة ثانية رداً على رسالتها، بعد شهر :

« قدرنا ان وقع الخبر عليك سيكون شديداً، و لذلك كنا حائرين في صياغته حتى نستطيع أن نخفف من وقعته على قدر الإمكان. مهما يكن فقد عادت أمك إلى عالم الأثير كما عادت قبلها أجيال من القوافل السائرة على الطريق نفسه، و العالم كله سائر إلى هذه النهاية ... إن الفراغ الذي تركته في حياتنا فراغ مخيف، و الأرض التي تركتها من حولنا أرض مجدبة، و محاولة الهزيمة من هذا الفراغ الرهيب تتحول إلى هزيمة أخرى تصبح الهزيمة دوامة من الهزائم المتوالية التي تشبه مغارة متصلة بمغارة، أو كهف موصولاً إلى كهف. و هكذا تسمي الحياة.

⁶⁰⁰ - رسالة بعثها لأبنته مريم بتاريخ 1970/10/25

« العزاء الوحيد لي خاصة أنها تركت بكم تراثاً حياً تنتفس في أرواحه أجمل العواطف و أحلى الأمانى، و ستبقى أمكم و جوداً متحركاً، و نفساً ناعماً ما دمتم أنتم ظلال حياتها الطيبة و روحاً كريمة، و الذي أرجوه أن تظلوا أبداً دائماً نجوماً هادية، و حناناً ناعماً يغطي هذه الحياة ... سأحول الذكرى إلى قصيدة من قصائد القلب الحزين، و لحن من ألحان الروح الكئيبة. و سأبعثها لك في الرسالة التالية»⁶⁰¹.

و القصيدة التي بعثها لها هي قصيدة "مسافرة". كتب إلى مريم بعد فترة على وفاة زوجته رسالة أخرى:

« حياتنا خالية من كل ما يوحى، و تكاد تكون شبيهة بأيام الخريف، فقد خلا البيت من والدتك، و خلا في الوقت نفسه من كل ما يبعث على التجديد، و الحياة فيه أشبه شيء بحركة الدولاب الذي يدور دوراته المتشابهة. و نحن نحاول أن نخرج من هذا القمقم، و نعيد شيئاً من الرونق إلى الحياة، و قد تتجح المحاولة و لكن نجاحها لا يتعدى اللحظة».⁶⁰²

* * *

كان الخبر المفرح في حياته زواج ابنه إبراهيم بعد عام من وفاة زوجته. كان مسروراً في استقرار ابنه في بيت يملكه، بعد أن ساعده في بنائه، و لكنه اضطرب أيضاً إلى أن ينتقل إلى دار في الحي نفسه مع ابنه جهاد. كنت أمر عليهما دائماً، و لكني لم أستطع أنا و أختي حياة أن نعوض عن الزوجة و الأم و الأخت. كنت أحس ان والدي فقد شيئاً مهماً في حياته، فقد استقرار و طمأنينة البيت الذي كان يشارك فيه والدي، و شعر كشجرة اقتلعت جذورها. أصبح يقضي وقته في التدريس ليملاً الفراغ الذي كان يشعر به. كان مرتاحاً من الطلبة العراقيين لأنهم حسبما يقول عنهم « مؤدبون جداً ... و كمية الدروس لا تساوي في تعبها درسا واحداً مما كنت أدرسه في لبنان.»

سافر ذلك الصيف إلى لبنان في الصيف، و قضى معظمه في ضيعته بنت جبيل، حيث شعر بالراحة النفسية، إذ أصبح الوضع في العراق لا يطاق، بعد مسلسل جديد من إلقاء القبض على الناس، فطال هذه المرة عدداً كبيراً من التجار في بغداد، و

601 - الرسالة لابنته مريم بتاريخ 14 / 11 / 1970

602 - الرسالة بعثها إلى ابنته مريم بتاريخ 23 / 3 / 1971

عرضوا على شاشة التلفزيون، بعد أن أذلوا و أهينوا و عذبوا، و قصت شعورهم، فكتب إلى ابنته مريم:

« و يكفي فيها التخلص من الجو الرهيب في العراق. أما الوضع في بغداد، فانك تعرفين عنه، على ما أظن الشيء الكثير. و كل الناس، ما عدا البعثيين، تترحم على عهد نوري السعيد، و إذا عرفت بأن الحزب الشيوعي يطالب بعودة المحاكم إلى ما كانت عليه في العهد السعدي، تعرفين إلى أي مدى بلغ الإرهاب الأسود. لقد و صلت حياة الإنسان في العراق إلى مستوى حياة الذبابة. و أكثر الناس تخشى على حياتها، و لا تعرف متى يصيبها رصاص الاغتيال»⁶⁰³.

* * *

كان حائراً، عندما صدر مرسوم مُنع فيه المتقاعدون عن العمل، و وجد نفسه فجأة بلا عمل. كما أخذ الوضع السياسي في التزدي تديجياً، و دبّ الخوف و الرعب بين الناس الذي هيمن على أجواء العراق. لكن قرفه من الوضع في لبنان، جعله يغير رأيه و يبقى في بغداد. شعر في تلك الفترة بإحساس عميق بجذب حياته، التي أصبحت كما يقول:

« و حديقتي ماتت و كل تراثها الباقي حجر

و طيورها رحلت و غابت عن ملاحظها اللواهي»⁶⁰⁴

كما كان متألماً من موقف الجيش اللبناني تجاه المقاومة، فكتب في شهر أيار من 1973: « و لم تكن إسرائيل هذه المرة وراء المأساة، بل كان وراءها الجيش اللبناني و قائده الذي استعمل طائراته لأول مرة في القتال! لا أعرف ماذا أقول... بالأمس كان النسيج الأرجواني تحت أصابع الأردن و ملكه صاحب الجلالة الهاشمية، و اليوم يوشيه بالدم مرة أخرى العماد اسكندر غانم، و إسرائيل تبني أقواس النصر، و تطلق أضواء الفرحة في سماء القدس بزي العناقيد... لقد عدلت عن السفر، و سألقي في بغداد هذا الصيف؛ فليس في لبنان ما يريح و إن كان هواؤه ناعماً، و ماؤه أحلى من هوائه. و لكن الماء و الهواء لا يكفيان»⁶⁰⁵.

603 - هذه الرسالة بعثها من بيروت بتاريخ 1971/6/29

604 - قصيدة "النوافذ الغائمة"، محمد شرارة، مجلة كردستان - العراق، آذار 1973

605 - رسالة إلى مريم بتاريخ 1972/5/17

و لكنها كانت فترة إنتاج رغم الأوضاع السيئة، إن كانت في العراق أو لبنان أو الأردن، فانهمك في الكتابة و التأليف. و كتب عدد من المقالات و الدراسات عن شعراء و كتّاب عرب، و هي من فترات إنتاجه الخصبة، رغم الفجيرة التي عانى منها بوفاة زوجته.

أنهى ثلاثة مؤلفات في تلك الفترة، كتاب بعنوان "بطولة و أخلاق" ألفه في بيروت. و آخر بعنوان "نساء و مواقف"، و "شفق الفجر - و هو ديوان شعر"، أما الكتاب الرابع فكان عن المتتبي الذي بدأ في كتابته، هذا بالإضافة إلى انشغاله في تلك الفترة في بناء دار لجهاد، أصغر أولاده.

* * *

و ظل الأدب العربي خلال العصور المختلفة هو المنهل الذي كان ينهل منه محمد شرارة اللحظات المضيئة و المواقف الصلبة، فتجسدت في المقالات التي كتبها في تلك الفترة. كتب مقال بعنوان "ثمن الصمود". و المقال عن موقف سجين اسمه أبو الحاضرة التقى به أبو العتاهية، و لولا التقاء أبي العتاهية به لما عُرف اسمه في التاريخ. و يختصر محمد شرارة تاريخ العرب في بداية المقال، الذي هو نسخة عن التاريخ المعاصر في العراق:

« سجن، و شاعر، و تائر من أولئك الثوار الذين يرون الموت لعبة أو عروسا تستحق العناق! ... أما السجن ففي بغداد القديمة، مدينة العلم و الأدب و الثقافة و الأساطير، و مدينة السجون أيضا. ففيها سجن أبو حنيفة، و عبد الحميد، و ابن المقفع، و الجاحظ، و غيرهم. و أما الشاعر فأبو العتاهية الداعية إلى الزهد في شعره، و إلى الحب أيضا. و أما التائر فأبو حاضرة من دعاة عيسى بن زيد و ابنه احمد.

« العصر عصر الرشيد، و هو من العصور الذهبية في تاريخ العرب و الإسلام. و لكن هذا العصر - على ذهبه - مبتلى كسائر عصور العرب القديمة، أو كسائر عصور البشرية بشيء من الحق الإلهي في طبيعة الحكم، و بشيء كبير من السلطة المطلقة، و بشيء اكبر من ثقة الحاكم بنفسه، و اعتقاده بأنه سواج أمن على الأرض، و إن كلمته مقدسة تتهاوى أمام أقداسها كل كلمة أخرى مهما كان شأنها، و مهما كانت الموازين التي صاغتها. ... مبتلى بهذه العقائد على صعيد الحكم، و

مبتلى في الوقت نفسه بشيء كثير من رهاقة الحس و الذكاء و الإيمان بخلود الحق على الصعيد العام.

« هذا الابتلاء المتناقض حفر هوة فاعرة الأفواه بين الجانبين، و خلى كل جانب ينظر للآخر تلك النظرة الجدية التي تصعب معها الهوادة إن لم تصل إلى حد الاستحالة. و لذلك كان السجن و ضرب الأعناق من جهة، كما كان التحدي و الاستخفاف به من الجهة الأخرى. و بين النظرتين تتهاوى ثروة عظيمة من الأرواح فيها غنى لتاريخ العرب و تاريخ البشرية كافة لو بقيت مصنونة من الموت.»⁶⁰⁶

* * *

كان الجمال يهزه في جميع أشكاله، إن كان في الطبيعة و أشجارها و أزهارها و طيورها، أو في المرأة، فكتب مقالا عن تأثير الجمال في نفس الإنسان بعنوان "الجمال و الجنس"، و بدأ المقال كعادته في تعريف الجمال و الجنس، برؤية فنية شاعرية، قبل أن ينغمس في تفاصيل الموضوع. و هو دلالة على رغبته في أن يكون عرضه و اضحا للموضوع:

« في نهاية الخط الممتد بين العالمين تلعب القيم المولودة من التجارب و الثقافة دورا كبيرا في بناء الإنسان الجديد، و في نظرته إلى الحياة و علاقته بغيره من الكائنات التي تؤلف المجتمع. و في هذه النهاية لا يبقى الإنسان "غريزة" جسدية تواقه إلى الارتواء المادي فقط، بل يضاف لها شيء آخر من متع الروح و العقل. و ما "التسامي" الذي أفتى به فرويد في إيداع الفنون سوى "اعتراف" بأن الغريزة قادرة على تجاوز نفسها إلى عالم قادر على إيداع أشياء تحول التيار، و تمسك عنان القيادة.

« فالجمال في الطبيعة و في الحياة يتعالى أحيانا، و يجر الأحاسيس إلى العالم الذي يهواه و المحطة التي يبتغيها. و في ذلك العالم السحري يتحول الإنسان إلى أجنحة بدون ريش، و طائر باحث عن الأسرار في تأملات حلوة سائغة لا تقل عن تأملات الصوفي الماضي إلى عروشه العليا في ما تسميه فلسفته التصوف بـ "قوس الصعود"!.

606 - "ثمن الصمود" محمد شرارة، مجلة العرفان - لبنان، أيار 1971

« هذه هي و وظيفة الجمال الأولى إذا كان للجمال و وظيفة ... وظيفته أن يقوم بعملية اكتشاف الجوهر الإنساني و إخراجة من التراب الأخرس، و إيداعه في غرفة العرض بكل ما فيه من صفاء و إضاءة. و وظيفة الجمال أن يخلق سلكا ذهبيا بينه و بين الإنسان، و بواسطة السلك تبدأ عملية التفاعل الرائع التي تنتهي إلى لوحة أو سيمفونية بيتهوفينية أو قصيدة إذا كان الإنسان فنانا، أو تنتهي إلى ذهول يشبه ذهول السكران إذا كان الإنسان عاجزاً عن التعبير الفني:

و إذا الحزين بكى و لم يك شاعرا
فالشعر ما نطقت به عبراته».⁶⁰⁷

* * *

كما كتب عن حياة البداوة و مقابيسها، فأعطانا صورة كاملة في مقالين كتبهما عن حياة البداوة و مفاهيمها المرتكزة على الحرب و الغزو و الثأر، قبل أن يخوض في تفاصيلها، أولهما بعنوان: "الخيال و الحرب و المرأة" و الثاني "الحرب.. و الحب.. و الموت و الشعر"، ففي المقال الأول كتب:

« مسرح الحوار في العالم البدوي مسرح زجاجي، و على الحركة التي تدور فوقه أن تعرف بأنها تتحرك على لوح من الزجاج الخفيف. و قلما تصل المعرفة في هذا العالم إلى هذا المستوى. و إذا و صلت و قدر لها أن تلتقي في نقطة صغيرة كانت نقطة الالتقاء من الثلج الذي تطوقه حرارة الصحراء.

« في أبسط الأمور تفارق السيوف أغمادها، و على أنفه القضايا تتشابك و يدق بعضها بعضها. و في تشابكها تتساقط الرؤوس و تسيل الدماء، ثم تتشق الأرض، و تبلع الدماء السائلة، و تضم الرؤوس الهاوية، و لكن الرؤوس التي هوت تبقى قادرة على النداء، و يبقى نداؤها "عطشا" إلى دماء جديدة. و إذا طال انتظار "الهامة" و طال فراغ الكؤوس تحول النداء إلى لحن موسيقي حزين يشبه دموع الوداع في ساعة الرحيل. و اللحن، على شجاءه، لا ينقطع بل يبقى مستمرا حتى يتم الثأر، و تمتلئ الكؤوس مرة أخرى. ثم تستمر الحياة على هذه الوتيرة ما دامت "الأسطورة" ورقة أزلية من أوراق كتاب مقدس.»⁶⁰⁸

و اختصر حياة البداوة في المقال الثاني:

607 - "الجمال و الجنس" محمد شرارة، مجلة العرفان - لبنان، تشرين الأول 1973
608 - "الخيال و الحرب و المرأة" محمد شرارة، مجلة العرفان - لبنان، كانون الأول 1973

« في تلك الأرض البخيلة المسرفة في الشح و انقباض اليد، كانت الحرب شريعة تقترب من الشرائع المقدسة، و كان الغزو قانوناً من القوانين التي تتخذ الظنون فيها لوناً من ألوان الأبدية التي لا تعرف التغيير أو الاهتزاز. و هذه الأرض لا تعرف أو لا تكاد تعرف سوى الواتر و الموتور، و المنتصر و المهزوم.»⁶⁰⁹

* * *

أصبحت إقامة المهرجانات الشعرية و الفنية في تلك الفترة، ظاهرة من الفعاليات التي تبنتها السلطة، و كتب محمد شرارة رسالة إلى إبراهيم نعيم بزي: « تقيم بغداد هذه الأيام مهرجاناً كبيراً لشاعر العرب أبي الطيب. و قد أقامت له مثل هذا المهرجان دمشق قبل عشرات السنين. و كانت للشرقي يومئذ قصيدة كان منها:

يستلهم الوحي من طوبى تغازله و يحسب الكون محتاجاً لإكمال
أما في بغداد، فقد كانت للجواهري قصيدة سمتها "طريق الشعب" "رائعة الجواهري"
من هذه "الرائعة":

تحدى الموت و اختزل الزمان فتى لوّى من الزمن العنانا
و القصيدة كلها من هذا النمط، و هي خالية من كل تعبير جديد و من جميع ما
يسمى "ومضة" أو "شعلة" أو "لفتة" غنية.

الجواهري انتهى على ما يظهر، إحساسه جف، و لم يبق فيه ما يرتفع إلى ضفاف الكأس، بله الفيضان، و يتضح ذلك من مقارنة هذه القصيدة بقصيدته بأبي العلاء. و المتنبّي أشعر من أبي العلاء، و المفروض في شاعريته أن توحى و أن تعطي أكثر، و لكنها لم تعط الجواهري شيئاً، لا لأنها عاجزة عن العطاء، بل لأن الجواهري عجز.⁶¹⁰

كما تغير رأيه في الشاعر بحر العلوم الذي ورد في مقال نشره عنه في جريدة النور العراقية عام 1969، إذ أصبح يرى شعره تقريراً تعوزه الصور الإبداعية.

⁶⁰⁹ - "الحرب.. و الحب.. و الموتُ و الشعر" محمد شرارة، نظرات في تراثنا القومي، المؤسسة العربية

للدراسات و النشر - بيروت، 1982، ص- 78

⁶¹⁰ - مسودة رسالة كتبها محمد شرارة في عام 1973 إلى إبراهيم نعيم بزي، الذي احترقت رسائله في

حرب 2006

و هذه مرحلة طبيعية لحالة تحصل عند كثير من الشعراء و المبدعين، حيث يشعرون بنضوب في القنوات التعبيرية، و ليس في إمكانهم المحافظة على مستوى التعبير خلال مسيرة الزمن، فيجف التدفق الإبداعي، و هذا ما يؤكد قول الشاعر بلند الحيدري في آخر سنوات حياته: "إن ما يأتيه لا يريد و ما يريده لا يأتيه"، و ليس بالغريب أن يغير محمد شرارة رأيه في شعراء مثل بحر العلوم أو الجواهري.

* * *

في الشهر العاشر من عام 1973، التصقت آذان الناس إلى المذيع، أو تسمروا أمام شاشة التلفزيون، فقد باغت الجيش المصري هجومه على إسرائيل، و بدأت بيانات النصر تتلى من الإذاعات العربية. كان الوالد متفائلاً هذه المرة، و كنا ننصت بكل جوارحنا و قلوبنا إلى المذيع، نبتهل في أن يكمل النصر جبين العرب هذه المرة بعد الهزائم التي منيت بها جيوشهم. حرباً بعد حرب و فشلاً بعد فشل! مرت الأيام و الأسابيع و احتل المصريون قناة السويس، و عادت المعنويات للجيش المصري، و خرجنا خلالها بإطار جديد، إطار النصر المحتم! لكن في الأسبوع الرابع بدأت الأمور تتقلب، و ظهرت صورة جديدة، عندما وفتت رئيسة الوزراء الإسرائيلية "كولدا ماير" في الكنيست و أخبرت نوابها إن الجيش قطع فلولاً من الجيش المصري الذي أصبح خلفه! نظروا إليها باستغراب، و لم يصدقوا ما نسبت به من كلمات، و لم نصدق نحن بدورنا ما قالتها أيضاً! و لكن بعد ساعات تبين صحة قولها، فقد ساعدت الإمدادات الأمريكية من الأسلحة المتطورة و اشتراك طيارين أمريكيين في قتال الجيش المصري إلى قلب المعركة، و بذلك استردوا ما استولى عليه الجيش المصري. و تحطم الإطار الجديد الذي بنينا عليه آمالنا، فقد عشنا بين مدّ و جزر، يرتفع بتقدم الجيش المصري و ينخفض بتراجع. عشنا التناوب بين الواقع و خداع الذات، بين الحقيقة و الأكاذيب، و شعرنا كواحة جفت بانحسار المياه عنها فجأة عندما بدأ تفهقر الجيش المصري، و وجد نفسه محصوراً في الضفة الأخرى من القناة!

و توقفت الحرب بمواجهة الجيش الإسرائيلي من جهة من القناة و الجيش المصري في الجهة الأخرى منها، و خابت الآمال ثانية في استرجاع الأرض! و سيطر الإحباط على الشعب و الجيش. و لم تدم أكثر من شهر، حتى بدأت المحادثات خلف

الكواليس، و التي انتهت بزيارة الرئيس " أنور السادات" إلى القدس، التي تكلفت بمعاهدة كمب ديفيد.

و لكن ظل محمد شرارة متفائلاً و مسروراً، فبالنسبة له قد تغيرت صورة إسرائيل أمام العالم:

« فلم تعد ذلك العملاق الخرافي، و لا القلعة السحرية التي لا يمكن الدنو منها... و لولا غفلة القيادة المصرية لما استطاع العابرون أن يجتازوا البحيرات المرة إلى الضفة الغربية من القناة. و كان بالإمكان أن يقضى على هذا العبور لولا التدخل الأمريكي الصارخ ... لقد علق ناطق عسكري بريطاني ان أمريكا نزلت إلى الساحة، و ان العرب أصبحوا في مواجهتها لا في مواجهة إسرائيل، و إن الأسلحة و العسكريين الأمريكيين لم يقدّم مثلها حتى لأقرب حلفاء أمريكا. و اتضح للعالم كله ان إسرائيل لم تكن سوى حارس للمصالح الأمريكية في المنطقة، و لكنها لم تعد ذلك الحارس الجبار.»⁶¹¹

بدأ يشكو في تلك الفترة من أوجاع في الرأس، و كانت الأوجاع تزداد عندما يكتب أو يطالع، و كنا نتوقع انه عندما يغير نظارته سيرتاح، و بالفعل ارتاح لفترة قصيرة، ثم عادت الأوجاع ثانية، فاقترح عليه الطبيب أن يترك المطالعة و الكتابة لفترة ما، و لكن كيف له أن يترك الكتابة و المطالعة و هما توأمان نشأ معهما! لذا تخللت رسائله شكوى من الفراغ الذي كان يعاني منه، و هو فراغ لم يعتد عليه في حياته.

و كتب إلى ابنته مريم في تلك الفترة، رسالة من أرق الرسائل التي بعثها لها، حيث و صف فيها حالته النفسية و الجو الذي يحيط به:

« كنت أتمنى، و أنا صغير، أن يكون لي بيت، و أن يكون ذلك البيت مأوى للعصافير، و غابة الأزهار و كان البيت، و كانت عصافيره من أحلى طيور الأرض، و أزهاره من أجمل ما عرف تاريخ الأزهار، و لكن العصافير تفرقت و راحت إلى بيوت جديدة، و عدت، كما كنت في أيام الطفولة، وحيداً في هذا العالم الذي تهجره الطيور، و تمضي إلى عوالم أخرى!

مرة أخرى يموت الحقل و الطير يهاجر

⁶¹¹ - رسالة كتبها لمريم بتاريخ 1973/11/1

و الأسي يمتد في الوادي و تمتد المقابر
مرة أخرى يعرّيه و ينداح الخريف
و يذوب الألقُ الشفاف فيه و الحفيف
و الأفاعي
و غيوم الصيف تمتص أزاهير الصباح
و تخليها حيارى

و يتيمات على الصحراء في وجه الرياح
« هذه بداية قصيدة من القصائد الكثيرة التي يوحىها هذا الجو الذي يحيط بي.. و
عندما تصل رسائلك الحلوة يتغير الجو، و أحس إن العصافير تعود إلى أعشاشها
القديمة، و إن الدنيا تعود إلى الغناء.
« في أكثر الأحيان تمر بي بلقيس و تمر بي حياة أيضاً، و كلتاهما رفيقتا فكر، و
رفيقتا ثقافة غنية، و عندما نلتقي يمتلئ العالم بالحب و المشاعر الرفيعة، و لكن
البيت يتحول إلى خيمة في الصحراء عندما يغادرانه و تمضيان إلى البيوت
الأخرى»⁶¹².

شعر في تلك الفترة بالوحدة، و الحقيقة انه كان يعاني من و حدة قاسية، و أحس ان
عالمه متجه نحو الزوال، و رأى أعز الناس إليه، « يتلاشون كما تتلاشى النجوم
في الدروب المظلمة»، و ليس هناك أصعب من هذا الشعور لإنسان مرهف الحس
كمحمد شرارة.

* * *

بعد حرب عام 1973 حيث استعمل لأول مرة النفط كسلاح، ارتفعت أسعار النفط
لتشكل رقماً خيالياً، و بدأت واردات النفط تنهال على العراق في منتصف
السبعينيات، أموال لم يشهدها تاريخ العراق منذ العصر العباسي عندما كانت بغداد
تزفل بعزها و جاهها. و لم يكن بعيداً على العراق في إعادة عصر ذهبي جديد، و
بنقلة جديدة، لو تم التأكيد على التعليم و الصحة و تشغيل المال بصورة صحيحة، و
على حرية الفرد في العمل. و لكن ظل التقدير يحيط الفرد العراقي، يطوقه من كل
جهة، و لم يشعر بما كانت تصب أنابيب النفط من أموال في بلده! و أصبح للأموال

612 - رسالة إلى ابنته مريم بتاريخ 14/11/1973

المتدفقة نتيجة عكسية، امتلأت خزينة الدولة بأموال النفط بل فاضت به، و لكن استمر النقص و التقنين و الحرمان في حياة الناس، و شملت جميع نواحي معيشة الفرد العراقي، بعد تأميم جميع المواد الغذائية، و منع التجار من استيراد السيارات و مواد البناء و شملت حتى المواد الغذائية من البصل و البطاطا و البيض و الفاكهة. و حل محل التجار المؤسسات الحكومية التي استحدثت بكادر كبير من الموظفين للقيام بهذا العمل.

أصبحت أحاديث الناس من الموظفين و حتى أساتذة الجامعة، مطرزة بأخبار البضائع المختلفة من الأجهزة الكهربائية التي وصلت ذلك اليوم الى الأسواق، فيتجه بعضهم لاغتنام الفرصة في زيارة الأسواق ليحصلوا على ما يحتاجون إليه. و بدل الحديث في الجامعات عن اكتشاف كوكب جديد أو إيجاد دواء لمرض مستعص، أو ظهور أطروحة في تركيب الإنسان أو تاريخ يفصح عن ناحية هذا العصر أو ذلك، انشغلوا بالحديث عن توزيع البيض أو السمك، في حي "الفضل" أو حي "الكرادة"، حيث كانت المواد تخفي من الأسواق بسرعة لا تتجاوز بضع ساعات. كان الموظف أو الموظفة لا يحصلون على المواد إن تأخروا في الذهاب إلى الأسواق. و لذا أصبحت الأجازات الصباحية من العمل الحكومي شيئاً طبيعياً و روتينياً. و بذلك نجح حزب البعث نجاحاً هائلاً في إشغال الناس في التفكير في بطونهم، و في كيفية الحصول على المواد الغذائية لعائلاتهم، و إبعادهم عن التفكير و المساعدة في القضايا المهمة في البلد.

أما السلطة فكانت تخطط في أن يصبح العراق قوة عسكرية له وزنه في العالم العربي، فضخت أموال النفط في المفاعيل النووية و شراء الأسلحة من الطائرات و الدبابات و المدرعات الحديثة.

* * *

في بداية عام 1974 بدأ محمد شرارة يفكر في السفر إلى لبنان و الإقامة الدائمة فيه، بعد أن تزوج ابنه جهاد، و أصبح مطمئناً إلى وضعه المالي و المعاشي، و لم يعد يجد حاجة في بقائه في بغداد. كما ازدادت أوجاع الرأس، التي أخذ يعاني منها، و أصبحت عائقاً بالنسبة إليه، ليس باستطاعته المطالعة أو الكتابة، و لذا كتب إلى ابنته مريم:

« فأنا كما تعلمين، فارغ من كل عمل، و وقتي يكاد يكون غارقاً في الضياع.. و كنت أرجو أن أستفيد من هذا الوقت في التأليف و الترجمة، و لكن و جع الرأس حال بيني و بين هذا الرجاء. الوجع المذكور يتولد بعد المطالعة فقط، أو بعد الاستمرار بها على الأصح، فإذا لم أطالع و لم أكتب فلا شيء.. أي لا وجع، و لا ألم و لا يحزنون.!»⁶¹³

رغم أوجاع الرأس التي كان يعاني منها، إلا انه استطاع أن يكتب مقالاً عن أبي العلاء بعنوان "أبو العلاء و الدروب الضائعة". و كان يفكر في انه ربما سيكون طليعة أبحاث تنتهي في كتاب. إذ كان من المعجبين بموقف أبي العلاء، و كتب عنه في تلك المقالة:

« الملامح الواضحة التي تركها هذا المفكر الكبير مؤلفة أو تكاد تكون مؤلفة من الرفض الشامل. و إذا كان الرفض الجزئي مدعاة إلى المتاعب الكثيرة التي لا تكاد تنتهي، فكيف يكون الرفض الشامل. و كيف تكون متاعبه في عالم لا يكاد يقيم أي وزن لحرية الفكر، أو لا يكاد يعترف بشيء، و لو ضئيلاً، من هذه الحرية؟! «... كان (أبو العلاء) ريحاً تحمل النار، و تحاول أن تحول المياه الراكدة بخاراً يستحيل إلى سحب متراكم. و لكن مأساة الوجود، أو مأساة الإنسان أكبر من أن يمحوها شاعر أو يهدمها فيلسوف. و إذا كانت أكبر من الهدم فإنها أكبر من أن يبني على أنقاضها عالم توشيه السعادة.»⁶¹⁴

* * *

كما أعطى الأفضلية في تلك الفترة إلى كتابة كتاب عن المتنبي، و قام بدراسة مكثفة عن شعره و شخصيته، و كتب الكتاب بعنوان "المتنبي رحلة العذاب".⁶¹⁵ و كتب عنه الأديب خضر عباس أالصالح: " لقد أحب المؤلف المتنبي بعد أن أولاه من الاهتمام و الدراسة بما هو جدير به، و كرس تفكيره و أحاسيسه و مخيلته للتعرف على ملامح شاعريته، و خصائص شعره الذي يتناغم مع النفس و

613 - رسالة بعثها إلى ابنته مريم في 1974/1/16

614 - "أبو العلاء و الدروب الضائعة" نظرات في تراثنا القومي، محمد شرارة، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، 1982، ص- 66

615 - و طبع هذا الكتاب بعد وفاته، بعنوان "المتنبي بين البطولة و الاغتراب" المؤسسة العربية للدراسات و النشر، 1981.

الوجدان، و هو بتمثله للأفكار و المعاني التي وردت فيه، و بما لديه من الحاسة الذوقية العالية، و ما يملكه من قدرة جيدة على التحليل و استخلاص المغزى استطاع تحديد السمات الأصيلة لشعره في دلالاته المختلفة و لاسيما في الجانب الفكري منه... لقد اعتمد المنهج التحليلي محوراً لدراسته المتأنيّة، و تقييم شاعرية المتنبّي في ضوء نتاجاته الشعرية ... إن عمق دراسته الجدية هذه كانت نتيجة لكونه طرح المضامين الفكرية، و ناقشها بعين فاحصة، و نفذ إلى هاجس الشاعر النفسي ببصيرته النافذة ... و من ثم أخضعها لمعايير النقد الفني و لأنماط من التفكير الشمولي بأسلوب تحليلي و توضيحي، و ظهر أن و جهات نظرهما قد تختلف، و قد تتفق في عمق الدلالة و المعنى ... لقد تمكن أن يعرفنا على موهبة المتنبّي الخلاقة، و إبداعه الشعري و ما فيه من الصور الإبداعية الموحية من الناحية الفنية و التعبيرية بكل إحياءاتها و أبعادها الفكرية و العاطفية. لقد تناول في هذه الدراسة، موضوعات مهمة و حساسة، تتعلق بعوالم المتنبّي الفكرية و الفلسفية و الصوفية و الملحمية و العاطفية و الفنية و الجمالية و الإبداعية و اللغوية فأجاد إجادة تامة في معالجة هذه المضامين، و برع كل البراعة في إلقاء الأضواء الساطعة عليها.»⁶¹⁶

و بدأ الكتاب في بحث موضوع "الإحساس بالغربة" ببيت شعر للمتنبّي:

و هكذا كنت في أهلي و في وطني
 إن "النفيس" غريب حيثما كانا

« و بهذه البساطة يطرح الشاعر فلسفة الغربة، و يخبر الأجيال، ما أتى منها و ما يأتي، إن الغريب في هذه الدنيا هو "النفيس"، إن الذهب في عالم كل ما فيه تراب. ... في ضوء هذه النظرة يتحول الأذى إلى سмир، و الظلام إلى مأوى ... إن حاولت أن تكون شيئاً "تفيساً" فعش على فوهة بركان فيزوف، و انتظر الرمال و الحجارة و الرماد، و كل ما يقذفه هذا البركان العاتي في لحظات الغضب، و عندئذ ستجد نفسك غريباً لثباً تبحث عن الظل في رمال الصحراء.»

كما بحث موضوع "الملحمة" و اعتبر إن الملحمة تمثل مرحلة الطفولة في الإنتاج الأدبي، و إن الشعر أتى بعد الملحمة. و لا يوافق الباحثين الذين رفعوا الملحمة لكي ينتقصوا من الشعر العربي، لكنه لم يوفق في هذا التحليل، لأنه لم يراع بمقارنته

⁶¹⁶ - تقييم لكتاب "المتنبّي بين البطولة و الاغتراب" بقلم الأديب الأستاذ خضر عباس الصالح، مجلة

العدل، عدد 17، بتاريخ 1982/4/14

العصر الذي ظهرت فيه الملاحم، و هو عصر متقدم بألف عام على العصر الذي ظهر فيه الشعر العربي، و كتب:

« بعض الباحثين يرفعون الملحمة إلى مستوى المعجزة، و يرون فيها ذروة من الذرى الفنية، لا لأن الملحمة تستحق كل هذه الإشادة، بل للإيحاء أو التصريح أحياناً، بتخلف الشعر العربي و عجزه عن الوصول إلى الذرى ما دام مضمونه لا يتعدى الغناء.

« نحن لا نحط من قيمة الملحمة و لا من جمالها الفني، و لكننا نرفض ذلك الإيحاء الخبيث المستمد من المذاهب العنصرية التي تميز بين الشعوب. ... إلياذة هوميير الشاعر اليوناني من أعظم الملاحم إن لم تكن أعظمها على الإطلاق و يقول عنها درينك و تر:

« لقد تركت صورة الحضارة الأولى للأجيال الأوربية، و هي تحتل مع رفيقتها الأوديسة مكاناً فريداً في الأدب العالمي. و من المخيف أن نفكر بالنتائج لو لم تكن الإلياذة و الأوديسة. إنهما يكونان توراة الإغريق في العصور التاريخية و بناء على ذلك فقد اقتبس الفلاسفة، و من بينهم أفلاطون سطوراً منهما ليضيئوا النقاط الأخلاقية، و أثبتوا الحوار الروحي، كما كانت، بالضبط عادة المسيحيين في استخدام المتون التوراتية».⁶¹⁷

« موضوع الملحمة غضب أخيل لا شجاعته. و هذا الغضب أو عداء الأبطال هي الموضوعات العامة في الأساطير الإغريقية. و على الرغم من جمال الأسلوب و عنوبته التي تمتد في ملامح الأسطورة، فإن المضمون لا يتجاوز الطفولة و لا يستطيع أن يتعدها. و بالقدر الذي تشير فيه الملحمة إلى طفولة الفكر اليوناني في عصرها تشير إلى هذا اللون الغريب من المعتقدات. و إذا و ضع هذا الفكر في الميزان و قورن بالفكر العربي في جاهليته الأخيرة و إسلامه كان الفرق كبيراً».⁶¹⁸

⁶¹⁷ - Drink Water – The Outline of Literature ، هامش لمحمد شرارة

⁶¹⁸ - حديث مع رفعة الجادرجي بتاريخ 4 / 2 / 2008، عن الملحمة:

« حينما ظهرت الملاحم في العصر الزراعي، و كانت حروب بين دول متخاصمة لا تنتهي، ظهر فكر يسائل من هو الإنسان و ما هو مصيره. أي فكر تجاوز السحر البدائي ما قبل الزراعة. أما الجزيرة العربية فلم تمر في هذه المرحلة لأنها لم تمتلك مجتمعاً زراعياً مركباً و لا دويلات زراعية متخاصمة متحاربة، في حروب لا تنتهي، بل ظهر عندهم، بسبب العوز و الفقر و خلاء الصحراء، قبائل صغيرة

ترك محمد شرارة بغداد في ربيع عام 1974، و قرر الإقامة في لبنان. سافر إلى جنوب لبنان، فالجنوب أصبح يحتضن البشر، بهدوء سمائه و سكون أرضه، بعد أن ترك بيروت بانفجاراتها و ألغامها. عاد إلى ضيعته بنت جبيل، إلى العيش في القرية التي تركتها عندما كان مراهقاً و عاد إليها كهلاً. حيث عادت الحياة إليها بعودة عدد كبير من شبابها، لاستقرار المنطقة النسبي و بعدها عن الحرب الأهلية الدائرة في بيروت و أنحاء أخرى من لبنان. إلا أنه شعر برتابة العيش. فقد خلت من الأحباء الذين كان يتغنى بهم و يحن إليهم، إلى الوجوه التي كانت تؤم الندوة الأدبية في دار والده، رغم الندوات التي كانت تعقد في داره حول سماور الشاي. و اختصر شعوره في القصيدة التي نظمها عن حياة القرية، بكل ما تجسّمه القرية من رتابة في جريانها البطيء، و كأنها صحراء غارقة بعتمة بعيدة عن الابتكار و الحيوية التي ينشدها الشاعر. فوصف فيها تفاهة الحياة و الشائعات التي تتغذى عليها القرية و شعر بأنه "قنديل غريب" فبدأها:

غير منظمة ابتكرت الغزو و طورته إلى الغزو القبلي ما قبل الزراعة. هذا الغزو القبلي تطلب دعماً سيكولوجياً فظهر كواسطة الشعر و المبالغة في المديح إلى قادة المعركة و أبطالها في ممارسة الغزو. لذا يختلف ظهور و ابتكار الشعر العربي جذرياً عن الملاحم التراجيدية التي ظهرت في اليونان. لأن التراجيدي ما هي إلا أناشيد دينية ظهرت في العصر الزراعي، و ظهر من ضمنها قادة هذه الأناشيد إضافة إلى رجال الدين قادة لهذه الطقوس، فظهر الممثل في المجتمع الإغريقي. و لذا نشاهد هناك اختلافاً جذرياً بين الشعر الذي جاء بعد التراجيدي في أوروبا أو في الجزيرة العربية.

« هنالك خطان متوازيان و ليست متساوية في الزمن. ما أقدم محمد شرارة على وصفه هو وصف لطيف لتقييم الشعر العربي في وقت ظهور النموذج الكلاسيكي في هذا الشعر العربي. و مجتمع الجزيرة مجتمع بدائي لا علاقة له بالإنتاج، و لم يكن عندهم إنتاج مركب، و تعدد الآلهة كانت بسيطة غير مركبة، و ليس كما كانت عليه في المجتمع الإغريقي القديم.

« إلا ان هناك ناحية أخرى يتعين الإشارة إليها، و لا تقل أهمية. جاءت الملحمة في الأدب الإغريقي، و قبلها في أدب الأساطير السومرية/البابلية، لتقوم بوظيفة التعبير عن هموم الجماعة، و عن طريق أناشود شفهية جماعية، التي تتطور و تعدل من خلال تكرار أدائها. و يحصل في وقت لاحق، أن يقوم شاعر أو قصاص بتدوينها.

« بينما الشعر العربي، هو تعبير بطولي، و غالباً مرتبط بكلجيرية culture بطولية الغزو و أحياناً بالغزل. فجاء هذا الشعر يعبر عن وجدانية و عاطفة و هموم الفرد الشاعر، الذي يعيش في كلجيرية البداوة، و كلجيرية عزل المرأة عن الرجل. و لكن خصوصية هذا الشعر و ذاتيته، تعبر في الوقت ذاته عن هموم كلجيرية القبلية، بما في ذلك الغزو و الغزل و البطولة و غيرها.

« و لذا يمكن اعتبار الشعر العربي أحدث من الملحمة في الزمن. و لكن لا يعني أن الشعر الذاتي العربي أقدر و أميز من الملحمة. لكل منهما وظيفته في التعبير عن وجدانية حالة تنفرد بها الجماعة، و ذلك في زمن و ظرف تاريخي و اجتماعي معين.»

تلك الدروب الشاحبات
تلك المداخن و البيوت
و الموت.. و العتمات.. و الوادي.
و قنديل غريب

ينسل ثم يذوب كالشفق الكئيب
في زحمة الظلمات
قنديل غريب

* * *

و متفقون! و يسخرون من الجريدة و الكتاب
يتأففون.. كأن كل الناس، إلا هم، نباب
و همومهم، في كل وقت، في الحذاء أو الثياب
و حديثهم عن كل فاتنة و ساحرة كعاب
هوى الشباب
ثم يقول:

و تزوجت "ليلى" و "هند" لا تزال بلا زواج
مسكينة ذهب الشباب و كاد ينطفئ السراج
بلا زواج

و ينهبها بهذا البيت:
لكنها الصحراء غارقة بعتمتها و قد
تعب الدليل

لكن رغم رتابة الحياة في الضيعة إلا انه شعر براحة غريبة، كتب عنها في رسالة
إلى ابنته مريم:

« إن منطقة الجنوب أصبحت أكثر أماناً من بيروت و من المناطق المحيطة بها. أنا
مرتاح جداً في حياتي، و ليس في نيتي أن أعود إلى العراق. و إذا عدت إليه عدت
زائراً فقط. و منذ أتيت اشعر براحة تامة، و ما عرفت لحظة واحدة من الأزمات.
إن علاقتي بالناس محدودة، و قد تكون أحياناً، في درجة الصفر، و قد وجدت في
ذلك كثيراً من الطمأنينة. أوقاتني تنقضي بين الكتب و قليل من الناس، و مع القلم و
الأوراق. و في بنت جبيل عدد لا بأس به من المثقفين و المثقفات نلتقي بهم أحياناً

و نتحدث في الأدب و التاريخ و الفلسفة و السياسة. و أحياناً تقام حفلات أدبية و اجتماعية ما يبعث في الحياة شيئاً من التتويح.⁶¹⁹

* * *

زارنا الوالد ذلك الصيف في ضيعة "حالات"، شمال بيروت، و قرر أن يزورنا ثانية، إلا إن اختطاف "ميشيل أبو جودة" محرر جريدة "النهار"، أدى إلى قطع الطرق المؤدية إلى دارنا. و كانت تلك بادرة من البوادر الخطيرة، التي تشير إلى بداية الحرب الأهلية في لبنان!

و لم يكن مرتاحاً حتى من أجواء الصحافة اللبنانية التي عكست الجو المتوتر في لبنان قبل الحرب الأهلية بسنة تقريباً، فكتب في رسالة إلى ابنته "حياة" يؤكد فيها على هذه النقطة:

« في كل بلد تضيق المسؤولية بكلمة (النقد) و تخشاها و تضع حولها القوانين الصارمة، و تحيطها بكثير من الأسلاك إلا في هذا البلد العجيب الذي تتراءى فيه الكلمة الناقدة كما تتراءى بقية الكلمات خالية من المعنى، فارغة من الإيحاء، ضائعة في الهواء العابر. بجانب ذلك تجددين هذه الطبيعة الحلوة الهادئة التي تتعم بالطيور الحائمة و الأغاني الحلوة الشفافة، و الصفاء الذي يكاد يكون قطعة من الجنة الموعودة.»⁶²⁰

و التقى في العام نفسه بالشاعرة "نازك الملائكة" في بجمدون، بعد غياب طويل، دام أكثر من ربع قرن، و كتب إلى ابنته مريم:

« و كان لقاء لطيف، استعرضنا فيه كثيراً من الذكريات. و حجزتني ذلك اليوم كله عندها. و قد سألتني عنك كثيراً و طلبت عنوانك. أول بنت جاءت لأخيها نزار سموها "مريم" إحياء للذكرى أو للعلاقة التي كانت بيننا و بينهم. و قد سررت كثيراً بلقائهما بعد هذه الغيبة الطويلة.

سأشرع في كتابة تاريخ حياتي بعد الفراغ من بلورة الكتب الأربعة التي انشغلت بها هذه المدة، و أعتقد أنها ستكون طريفة كما تقولين. طلب مني أكثر من و احد أن أبأشر بها»⁶²¹

619 - رسالة إلى ابنته مريم بتاريخ 1974/11/13

620 - رسالة محمد شرارة إلى ابنته حياة شرارة، بتاريخ 1974/5/2

621 - رسالته إلى ابنته مريم في تاريخ 1974/9/20

و اضطر أن يتأخر، لكي يجد ناشراً إلى كتبه، و أطلق على إنتاجه الأدبي في إحدى رسائله "بأولادي":

« و لكن الأولاد الجدد - أي الكتب - يفرضون عليّ البقاء لبينما أنفق على نشرها مع إحدى دور النشر. و المسألة تتطلب على ما يظهر إلى شيء من الوقت.»⁶²²

و لم تسمح له صحته، و وضعه النفسي في أن يبدأ بكتابة سيرة حياته، إذ كلما كنت أذكره بالموضوع، كان جوابه حاضراً دائماً: أوجاع الرأس لا تسمح لي في الكتابة، رغم انه لم يتوقف عن نظم القصائد و كتابة المقالات، بالرغم من أوجاع الرأس!! لكنه لم ينسَ بغداد العزيزة عليه، و نظم قصيدة حزينة فيها، إذ كلما كان يغيب عنها، يحس بحسرة على فراقها:

قلت اطمئني.. سوف تبتسم الغيوم

بغداد عاصمة النجوم

ستعود عاصمة النجوم

و نعود فوق جبينها ألماً و غار

و نزيح عنه كل ما نفث الزمان من الغبار⁶²³

* * *

اغتيال في تلك الفترة كمال جنبلاط في عام 1977، و حسم موته مرحلة في الحرب اللبنانية التي كانت دائرة آنذاك، و اعتبرها محمد شرارة انتكاسة للحركة الوطنية التي بدأت تكسب المعارك، إذ كان له دور بارز في جمع شتات الحركة الوطنية. و قد تألم كثيراً، و حزن على فقدانه في تلك الفترة التي كان لبنان في أمس الحاجة إليه.

فقد كان كمال جنبلاط قائداً سياسياً بارعاً، و صاحب مواقف تاريخية، إضافة إلى ثقافته الواسعة في الفن و الأدب و الفلسفة و الاجتماع و الموسيقى. و قد تحلى بالتسامح و المحبة، النادرة في عالمنا العربي، و ظهرت هاتان الصفتان متجليتين في مقتل شقيقته، عندما هاجمها مسلحون في منزلها، فرفض أي رد فعل مماثل من قبل أنصاره، و تقبل مصيرها بقوله: « إنها شهيدة مثل كل شهدائنا و علينا أن نتحلى

622 - رسالة بعثها محمد شرارة إلى علي العامري بتاريخ 1974/9/20

623 - قصيدة "وداع" محمد شرارة، من دون تاريخ، و لكنها نظمت في الفترة التي ترك فيها بغداد.

بالصبر و بعدم الإقدام على ردود أفعال عاطفية.⁶²⁴ و يتضح في هذا الموقف من الوجود، تأثير فلسفة المحبة التي آمن بها كمال جنبلاط.

و نظم قصيدة بكمال جنبلاط، الذي كان يحترم و يجل مواقفه الوطنية. بعنوان: "المساء الحزين" إلى روح الشهيد كمال جنبلاط، و هذا مقطع منها:

لمواكب الأيتام في لبنان بعد الراحلين عن الطفولة
لشواحب العذابات.. للأمل الذي ذبلت خمائله الجميلة
كانت ترفرف حول نعشك في كآبتها النجوم
و ينوح في أوراق أيكته و يرتعش النسيم
قتلوك و الأزهار تحلم بالغناء على رباها
و تدير أعينها و تبحث عن ظلالك في نداها.⁶²⁵

ترددت الأوضاع في لبنان بعد اغتيال كمال جنبلاط، و شملت حتى الجنوب الذي كان يتمتع بالهدوء النسبي، في تلك الفترة، و بدأت إسرائيل في قصفه. و لم يبق مكاناً آمناً يلجأ إليه فقرر العودة إلى بغداد.

624 - "جنبلاط تلك ثقافته و هذه أبوابها" زهير ماجد، جريدة الجمهورية، 1977/3/22

625 - "المساء الحزين"، محمد شرارة، طريق الشعب، 1977

أصبح هنالك منافسة واضحة بين رئيس الجمهورية و نائبه، كل يحاول أن يظهر سلطته بشكل يتفوق فيها على الآخر. لذا بدت القرارات التي تصدرها الدولة قرارات بعيدة عن التوافق المتطلب لإدارة مركزية، و هي أساساً بعيدة عن المنطق. فلم يعرف من أقترح حذف أسم العائلة الثلاثي و الاستعاضة عنه باسم الجد، هل هو اقتراح من صدام نائب الرئيس، أو من الرئيس؟

فان كان صدام هو المسؤول عن هذا القرار، فذلك واضح لأن هوية عائلته غير معروفة، فأراد بذلك طمس هوية العائلات و إلغائها، لكي يتساوى مع الناس. و هي عقدة الشعور بالدونية، فيلغي هوية الآخر ليتساوى معه، و من ثم يخضعه لسلطته. و قد ألغى بذلك الارتباط الاجتماعي، مما يجعل الفرد نكرة في المجتمع، من غير هوية، سوى انه تابع إلى السلطة. إن إلغاء ربط هوية الذات بنظام اجتماعي، يجعل الذات عارية من الحماية، و يصبح الفرد عارياً و عاطلاً من الدفاع عن نفسه أمام السلطة.

و لكن عم الصمت أو الهمس أحياناً، و الذي أدى بدوره إلى خلق بلبلة و مشاكل، جابهتها الجامعات و الوزارات و المديريات و البنوك، لتشابه الأسماء، التي كان أسم العائلة أو العشيرة يميزها عن بعضها. فكثير من الناس أسماؤهم الثلاثي، أما علي أو محمد، فأصبح الكثير في المجتمع العراقي كما لو انه عائلة و احدة، لا يميز بين جماعة و أخرى.

لكن صنع القرار في مثل هذه الأوضاع الشاذة البعيدة عن أبسط مفاهيم عقلانية إدارة الدولة، يأتي دائماً من الأعلى، و ليس هنالك تأثير لدور المجتمع أو أجهزة الدولة في صناعة القرار. بل أصبح تجاهل رأي المجتمع من قبل هذين القطبيين كما لو كان من ضرورات السلطة. فجاء هذا القرار بالرغم من ان هنالك أناساً

عرفوا بشهرة عائلتهم أو عشيرتهم، أو مهنتهم أو قريتهم و مدينتهم منذ عقود بل قرون.⁶²⁶

ثم تطور التنافس بينهما في مؤسسات الدولة، فرئيس الجمهورية أحمد حسن البكر بدأ زيارته الدورية المفاجئة إلى الدوائر الحكومية، فكانت تحوم عندئذ الأسئلة بين الناس و يعيشون في توقع دائم! من سيكون الضحية الجديدة التي سيعلن عنها بعد تلك الزيارة! فقد أصبح توقع تلك الزيارات كتوقع الصينيين رأس السنة الجديدة، عندما يعلن عنها إن كانت سنة تتين أو أفعى! و شملت فئات مختلفة من الناس الذين غضب عليهم رئيس الجمهورية و أصبحوا من الفئات غير مرغوب فيهم في ظل تلك الدولة الحارسة على مصالح الشعب كما كانت تدعي كلما تعدت و سحقت حقوقه! فقد افتتح عام 1970 بالتجار حيث أصبحوا ضحية تلك السياسات العجيبة، فاعتقلوا و نكل و شهر بهم كطبقة جشعة هدفها امتصاص دماء الناس!!

و تبعها اعتقال الناس المتهمين بالماسونية، و لكن و صل الاتهام الآن الطبقة المنتجة من الناس وهم المهندسون، فأطلق عليها العراقيون سنة المهندسين. و ذلك بعدما زار رئيس الجمهورية أحمد حسن البكر كلية الهندسة في جامعة بغداد، و هاجم بها المهندسين من غير أي سبب معقول و اعتبرهم فئة جشعة، مبتزة، أنانية، و من أهم مخربي البلد!! دهش الناس لهذا الهجوم، إذ إن المهندس بطبيعته ضد التخريب، فهو الذي يقع على عاتقه عادة بناء البلد! و كان الجميع يجهلون السبب الذي حدا برئيس الجمهورية إلى هذا الموقف العدائي من المهندسين، بما في ذلك المهندسون أنفسهم!! و لكن كان لكلمته صدى سيئ بين جميع المهندسين، مما أدى من قبل البعض منهم، في التفكير الجدي بالهجرة و ترك البلد!⁶²⁷

626 - و حسب هذا القرار يصبح مثلاً اسم محمد شرارة، "محمد علي أحمد" أو اسم ابنته حياة شرارة ،

"حياة محمد علي"!!

627 - و لكن كانت علاقة أحمد حسن البكر، رئيس الجمهورية، جيدة بالأطباء، ربما لأنه كان مصاباً بمرض السكر، فطلب من الدكتور فرحان باقر أثناء سفره لحضور مؤتمر في الولايات المتحدة، « جلب عدد من الزملاء العراقيين المتواجدين في أمريكا و إقناعهم بالعودة إلى العراق، و سألته بكل براءة: ماذا أقول لهم؟ فقال: كما شاهدتنا و عرفتنا و سنعطي كل ذي حق حقه و نمنح كلا منهم ما يستحقه من لقب مهني أو تدريسي و نسهل له أمور السفر... و كلفت بمقابلة الأطباء حسب ما سمي بقانون الكفاءات لاستقطاب أطباء من انكلترا و أمريكا... و اعتقد انه كان يجب الأطباء بصورة عامة و يجلبهم و يحترمهم، و قال في اجتماع كان وزير الصحة حاضرا فيه ما معناه: " إنني كرئيس للجمهورية أستطيع أن

أما صدام حسين نائب رئيس الجمهورية فاتخذ خطأ آخر، و كان أنكى من قريبه في كسب الناس إليه. فأخذ يجوب العراق من شماله إلى جنوبه، في زيارات عفوية في ظاهرها، و لكنها مرتبة، حسب منهج مسبق. فكانت تدوي الهتافات فجأة في أرجاء المكان الذي يصل إليه، و ترتفع الأيدي بالتصفيق، و الحناجر بالأناشيد و الأغاني التي تملأ الدنيا، في كل مكان تحط فيها الهليكوبتر، التي كان يتجول بها بمرافقة التلفزيون العراقي، حيث كانت تبث تفاصيل تجواله في النشرة المسائية كجزء من الأخبار.

كان صدام حسين كريماً في توزيع المال و المعدات الكهربائية التي لم تصل إلى المناطق النائية في شمال العراق و جنوبه. فكانت تشحن التلفزيونات و توزع بحضوره، كلما غادر بغداد إلى تلك المناطق. و أخذ يتفنن في ارتداء الأزياء المختلفة، حيث يرتدي الزي الذي يناسب تلك الزيارة، ليظهر أنه واحد من أبناء الشعب. و أصبح بذلك مقرباً من الطبقة العامة البسيطة و التي تخدع بسهولة بمثل هذه المظاهر. و أصبح تجواله يشغل حيزاً كبيراً من نشرة الأخبار، و تقلص حجم الحيز الذي كان يشغله رئيس الجمهورية في نشرة الأخبار المسائية!

لقد أخذنا على عاتقهما كل من البكر و صدام، إتمام ما بدأ به عبد الكريم قاسم، و من ثم عبد السلام عارف، و هو تعطيل جهاز الدولة. و بذلك بدأت الدولة تتآكل تدريجياً، حتى غابت نهائياً بعد بضع سنوات، عندما تسلم صدام حسين الحكم.

* * *

بالرغم من أموال النفط المتدفقة في خزينة الدولة، إلا ان التقنين شمل جميع مرافق الحياة اليومية، بما في ذلك شراء سيارة جديدة، فلم يكن يسمح للعراقي بشراء سيارة متى رغب في ذلك، و لكن كان عليه أن يسجل في مديرية استيراد السيارات، و يدفع ثمن السيارة مقدماً، و لا يحق له اختيار موديل السيارة أو نوع السيارة التي يرغب في اقتنائها، فالمديرية هي الوصي عليه في هذا المجال، فهي التي تحدد

أصدر أمرا لأي شريحة من المجتمع بأن يخرجوا حفاة إلى المطار - على سبيل المثال- لكن لا يمكنني عمل ذلك مع الأطباء، مما يشير إلى منزلتهم الخاصة عنده و احترامهم.»
"حكيم الحكام- من قاسم إلى صدام"، د. فرحان باقر، دار المدى- بيروت، الطبعة الأولى: 2008، ص

موديل السيارة و نوعها و لونها و سعرها، و ما عليه إلا أن ينتظر دوره، عندما ترأف المديرية بحاله و ترسل له كتاباً تخبره بتسلم السيارة.⁶²⁸ و كانت السيارات الرسمية المخصصة للوزراء و المدراء و أعضاء الحزب المهمين، مثل سيارات "المرسيدس و بي أم دبل يو BMW" محرماً استيرادها لعامة الناس.

ساعدت أموال النفط المتدفقة على البلد، إكرام من يستحق إكرامه من قبل نائب الرئيس صدام حسين. فارتأى صدام حسين استقطاب العقول العراقية المهاجرة بإغرائها في العودة إلى البلد و المحافظة في الوقت نفسه على العقول الموجودة فيه، بإعطائها قطعة أرض و سيارة مرسيديس ضخمة، فاخرة بلا ضريبة. فصدر مرسوم ما يسمى "بمرسوم الكفاءات" في منتصف السبعينيات، و أصبح بذلك أصحاب الكفاءات، أي حملة شهادات الماجستير و الدكتوراه، يتمتعون بامتيازات خاصة عن بقية الناس. فعاد رهط من العقول المهاجرة إلى الوطن الحنون! فما أرخص هذه الأوطان التي لا تساوي أكثر من سيارة مرسيديس و قطعة أرض صغيرة منه!

و تغيرت شوارع المدينة التي كانت تسير فيها السيارات الصغيرة، و التي اعتاد عليها أهل بغداد، عندما تهادت سيارات المرسيديس قاطعة شوارعها، بموديلها الجديد و ألوانها المختلفة، يقودها أصحاب "الكفاءات"! و حلت السيارات الجديدة شوارع المدينة، فتوقف المارة ناظرين "بعين الحسد"، و تناثرت الحسرات و الأمانى في أعماقهم. جلس الأستاذ الكفاء لأول مرة رافعا رأسه بفخر و اعتزاز خلف مقود السيارة، سيارته منزلته و كيانه! سيارته رمز العلم، ينظر شامخاً حوله، عندما تقع نظراته على سيارات صغيرة يقودها الناس بجانبه.

و احتلت سيارة المرسيديس الصدارة في أحاديث الأساتذة في جامعات بغداد، فهذا سيحتفظ بها و يبيع سيارته الصغيرة، و ذلك سبيبعها ليبنى بها داراً في قطعة

628 - دفعت مبلغ أربعة آلاف دينار عراقي، أي اثني عشر ألف دولار أمريكي في عام 1979، لشراء سيارة، و لم يكن لي الحق في أن اختار نوع السيارة التي أرغب في شرائها، و إنما كانت "يانصيب"، أي حسبما ترتتيه مديرية استيراد السيارات، و لم أتسلم السيارة إلا بعد مرور خمس سنوات من التسجيل، أي في عام 1984، و جاء دوري لتسلم السيارة بعد مرور سنتين من مغادرتي العراق، حيث كنت أظن في الولايات المتحدة! (ب.ش)

الأرض الجديدة التي منحت له، و الآخر سيبيعها ليدفع ديونه!! كما خصص يوم الجمعة لغسل سيارة المرسيديس. فكانت تغسل كما تغسل العروس قبل زفافها، برقة و حنان، تربت فرشاة المسح برفق عليها كما تربت يد الأب الحنون على كتف طفله. تغطي في قيظ الظهيرة المحرق في صيف بغداد، و يرفع البرقع عنها بعد غروب الشمس، قبل أن تتهادى في شوارع العاصمة بغداد! و بذلك حفظت من عبث الدهر و أحداث الزمان.

شمل "مرسوم الكفاءات" ابنة محمد شرارة الدكتورة حياة، و وجد بعودته إلى بغداد، في كراج دار ابنته سيارة مرسيديس ضخمة، ذات لون أحمر، مائة بحجمها مدخل الدار!

* * *

لكنه عاد هذه المرة إلى العراق، بعد أن احتلت "بنت جبيل" من قبل الجيش الإسرائيلي، الضيقة التي لجأ إليها خلال الحرب التي اندلعت في بيروت، فقرر أن يتركها في نهاية شهر آب عام 1976. و نظم قصيدة و صف فيها ما حل في ضيعته التي لم يكن يعرف أنه لن يراها ثانية، في قصيدة "رياح الجنوب":

و قنابل في الليل تكتشف الضلوع الحائيات على التمام
و تجوس ما شاعت و لا تجد الثغور سوى براعم
و الموت قافلة بلا صوت يخيم في التخوم
و تجوب ما تهوى و ما ترتاد من و طن النجوم

ثم يعود ثانية إلى كيف كانت الحياة في الضيقة قبل الاحتلال مليئة بالنشاط و الحيوية التي تهيمن على حياة أهلها، حيث تمتزج أغاني الحاصدات بأغنيات الأمهات "تهتز.. تخترق المهاد":

كانت أغاني الحاصدات تموج... تلعب في مواسمك الجميلة
تختال و هي تعانق الأغصان تخفق تحت هففة الخميطة
ثم يقارن ما يحدث الآن:

و على الحدود

هوت القناطر و الجسور و كل رابطة حبيبة

كانت معظم الطرق المؤدية إلى بيروت خطرة، و مغلقة بحواجز تسيطر عليها الميليشيات، كما كان المطار مغلقاً أيضاً، فقرر الذهاب إلى مدينة صيدا. كان رصيف الميناء مكتظاً بحشد من المغتربين المصريين الذين كانوا يعملون في لبنان. و عندما وصل ميناء الإسكندرية، كان في انتظاره رجال المباحث المصرية، حيث اقتادوه إلى جناح خاص للتحقيق معه. إذ أصبح اعتقال محمد شرارة في مطارات الدول العربية أمراً طبيعياً، فقد اعتقل في مطار دمشق من قبل المخابرات السورية، و ثم اعتقل في مطار بغداد من قبل المخابرات العراقية، و لم ينجُ من الاعتقال حتى في ميناء الإسكندرية!! و قد وصف محمد شرارة معاناة تلك السفارة في رسالة إلى احد أصدقائه:

« و كان الازدحام خانقاً (في ميناء صيدا). و قد رأينا أن نتخلص منه بأخذ زوارق خاصةً توصلنا إلى الباخرة، و تمّ ذلك. كان البحر هائجاً، و كان يتنفس غضباً، و كاد الزورق ينقلب أكثر من مرة. و لكن مهارة الربان كانت عالية. و قد رأينا فيها ما يجعل البحر صعلوكاً بالرغم من غضبه و هياجه الهائل. استطاعت المهارة الفنية أن توصلنا إلى الباخرة. و قد صرنا في قلبها و شعرنا ما ينتظرنا من متاعب. لم يكن معنا شيء نستعين به. و قضينا الليلة الأولى عذاباً متواصلًا، و كان النوم على الحديد البارد، و كان الناس من حولنا أجساداً متراكمة، و كان الرجال و النساء و الأطفال متداخلين و قد سقطت جميع القيم و الاعتبار الاجتماعية.

« في الصباح رأيت حسن الزين و كان يبحث عني، و لما وجدني أخبرني بأنه دفع خمسين دولار زائدة للربان و أخذ غرفة صغيرة محترمة نسبياً و أخذني معه. وجدت شيئاً من الراحة، و أخذني النوم الذي لم أعرفه في الليلة السابقة، و في اليوم الثاني تحركت الباخرة و لم تصل إلى الإسكندرية إلا بعد خمسين ساعة. و جدنا في استقبالنا عدداً من البوليس. و بعد متاعب كثيرة أخلتُ أنا خاصةً و عدد من الفلستينيين إلى المباحث.. و بعد الدخول إلى غرف متعددة، و صلنا إلى الرئيس. قال لي " عندك أعمال أخرى غير التقاعد" فقلت: ماذا؟ فقال: " أنت كاتب و شاعر؟"

⁶²⁹ - قصيدة "رياح الجنوب"، محمد شرارة، كتبها أثناء الحرب الأهلية، و اجتياح إسرائيل جنوب لبنان. أي في منتصف عقد السبعينات. (ب.ش)

فقلت: نعم، ثم قال: " أنت إنسان عظيم!" فأجبت: شكراً، و ظننت في البداية أنها مزحة، ثم تبين أن الرجل لم يكن مازحاً. سألت عن بعض مؤلفاتي، فأجبت: كانت على وشك الطبع و لكن الحريق ... و انقلب الحوار إلى ثناء عليّ و تقدير و أنا أريد أن أخلص من هذا الجو البوليسي، و أخيراً خلصنا.⁶³⁰

و لا ينكرنا هذا الحادث إلا بمسرح اللامعقول، الذي نعيشه يومياً في عالمنا، العالم العربي! حيث ينقلب الاعتقال إلى ثناء و إعجاب بما كتبه المعتقل، و يظهر ان اسمه قد وضع في القائمة السوداء منذ عهد جمال عبد الناصر، عندما هاجمه بعنف، في المقالات التي نشرها في جريدتي "الحضارة" و "اتحاد الشعب" عام 1959-

630 - مقابلة مع سكنة شرارة ، شقيقة محمد شرارة بتاريخ 2007/12/14

« منع محمد شرارة من زيارة سورية في منتصف الخمسينيات، و ذلك بسبب مقال كتبه في إحدى الصحف، انتقد فيه "هاشم الأتاسي"، رئيس الجمهورية آنذاك. و أعتبر المقال تجريحاً بشخص الأتاسي، و لذلك وضع اسمه في قائمة ممنوعين من دخول سورية.

« مرّت السنين و تغيرت الوجوه و الأسماء و تسلم حزب البعث السلطة برئاسة "حافظ الأسد، و لكن المنع استمر قابلاً في ملفات المباحث السورية، و لذا عندما كان محمد شرارة يعيش في لبنان في السبعينيات - أي بعد مرور عشرين سنة على المنع - اقترح عليه إبراهيم شرارة، زوج (سكنة شرارة)، مرافقته في السفر إلى دمشق لرفع المنع عنه. و سافرا إلى سوريا لهذا الغرض.

« و ما إن وصلا نقطة الحدود اللبنانية السورية، حتى جاء ضابط الأمن و قال لمحمد شرارة: "تفضل لتناول فنجان قهوة معنا!". و منع إبراهيم شرارة من مرافقته. و ظل في انتظاره يعد الساعات. كما وجد نفسه مراقباً من المخابرات السورية أينما اتجه أو تحرك، إن كان ذلك في المقهى أو في المطعم. و بعد انتظار دام أكثر من خمس ساعات، انتهى التحقيق مع محمد شرارة، و أطلق سراحه، و لكن لم يرفع المنع عنه!!

« و لا زال المنع جارياً عليه حتى الآن، أي بعد وفاته ما يقارب الثلاثة عقود، و يظهر إن ملفات المخابرات السورية لا تتجدد أو تدقق، بل يستمر رجال المخابرات بشطارتهم المعهودة في إضافة أسماء جديدة من الأحياء، و لكن لا تحذف أسماء الأموات!!

« و لذا فكل أسم يشبه أسم محمد شرارة يمنع حالاً من دخول سورية. و قد حدث ذلك مع شاب صغير من آل شرارة أسمه محمد شرارة. و اعتقل حال دخوله سورية، و لكن أفرج عنه بعد أن أثبت لهم انه شاب و إن للممنوع رجل توفي قبل أن يولد هو. فأطلقوا سراحه، و طلبوا منه أن يجلب شهادة وفاة "محمد شرارة" في المرة الثانية.

« و عندما سافر ذلك الشاب ثانية إلى دمشق، جلب معه أخراج قيد وفاة "محمد شرارة" التي تثبت أنه توفي في عام 1979، و لكن رغم ذلك فقد منع الشاب من دخول سورية، و لم يؤخذ بشهادة الوفاة. و بعد تكرار هذه الحادثة قرر الشاب محمد شرارة، ألا يسافر أو يمر بسورية ثانية. إذ لم يرفع المنع عن اسم الراحل محمد شرارة في المباحث السورية حتى يومنا هذا!!»

1960، و ذلك حول تدخله في شؤون العراق و تأمره على رئيس الوزراء عبد الكريم قاسم آنذاك. و قد مرّت ستة أعوام على و فاة عبد الناصر، و لازال اسمه لم يرفع من تلك القائمة!

* * *

عاد محمد شرارة إلى العراق، متألماً مما حل بלבنان، و هيمنت عليه خيبة الأمل في انزلاق بلده نحو هوة الحرب الأهلية، التي أخذت تقتات الناس من جميع فئات المجتمع. و رأى بأمر عينه كيف سحقت دوامة الحرب شبابه و هجرت عقوله. حرب طائفية بعيدة عن تفكيره! فهو الذي عاش حياته يعلم طلبته إن الناس متساوون في الحقوق على هذه الأرض، بعيد عن الفئوية، فكيف بأناس يقتتلون من أجل دين أو طائفة!!

كما كان متألماً من قصف القرى الجنوبية، فكتب إلى إبراهيم نعيم بزي رسالة: « أكتب لك هذه الكلمات، و أنا اسمع ما فعلته الطائرات بقرى الجنوب و مخيمات اللاجئين، و ما فعله الهدم بالأطفال و أمهاتهم و آبائهم. لقد أخفقت حروبهم في جنوب آسيا، فجاءوا إلى غربها، و صبّوا على الأطفال و أمهاتهم كل ما في حضارتهم من "تقدم" و رقي و إنسانية... و مع ذلك تتحدث هذه البربرية عن "حقوق الإنسان". ... إنني متألم جداً، و قد عهدتك رقيقاً بالأمي، بل إنني أحس بالأمك، و قديماً قيل: "و لا بد من شكوى إلى ذي مروءة"، و أنت في طليعة المروءات.»⁶³¹

631 - مقابلة مع إبراهيم نعيم بزي بتاريخ 2008/1/30، و هو صديق من أصدقاء محمد شرارة الحميمين، من مواليد 1918، بدأ يحضر منتدى الشيخ علي شرارة الأديبي، والد محمد شرارة في عام 1933، و لم يكن قد تجاوز الخامسة عشر من عمره. كانت مقابلة مليئة بالعاطفة الصادقة، قال لي: « والدك - يا بلقيس، من خلال التصاقي، بالصدق المتبادل و الثقة المتبادلة و الصراحة التي لا يشوبها غموض، كان عقلانياً في المنهج، علماني التفكير، إنساني الانتماء! كان يتململ و يدحر بجرأة الأكاذيب في التاريخ الإسلامي، و كان دائماً مع جلسائه يقول: نحن بحاجة لأكثر من مؤرخ يقص الشوائب الجمة عن التراث الإسلامي. و كان يضرب لنا الأمثال عن حكايات نصدقها و هي مختلفة و كاذبة نتيجة الاختلاف السياسي الحاد...!

« كان خلواً من أي شوفينة أو قومية، تجانس مع الطبيعة، كما آمن بإنسانية الإنسان. أحب شدو الطيور كما ناصر المرأة و أوجعته مشاكلها في عالمنا المتخلف. كان يقف أمام كل كلمة موشحة بمعنى أو بإيحاء، كان نفاذ الرؤى.

« لقد كان طليقاً كالهواء، جارفاً كالأنهار "قوياً كالحرير، ناعماً كالفلواز" - جورج أمادو- لا تأخذه في الحق لومة لائم. كان في كل جلسة من جلساتنا معه يحدثنا عن المعري، و طورا عن المتنبّي، و أبي تمام

كما هيمن الحنين في رسائله في تلك الفترة، إلى أصدقائه في لبنان، إلى الجلسات الأدبية التي أصبحت جزءاً من ذكريات، بل هنالك ظمأً إلى الأصدقاء، إلى اللذة و المتعة في جلساتهم و أحاديثهم، التي شعر بفقدها في أجواء بغداد، عطش، لن يرتوي برسالة و احدة. أراد أن يحيا معهم من خلال رسائلهم علها تعيد شيئاً من تلك المتعة التي تحولت إلى حنين و ذكريات، فكتب إلى إبراهيم نعيم بزي رسالة:

« يا أبا نعيم ... إذا كانت (الحياة) تاريخاً - كما يقال - فان التاريخ لم يكن و لن يكون سوى الأوراق، و العواطف و الخلجات التي تتلاقى فيها قصائد الحب.. الحب! لا كل الحب، و إنما الحب الذي يتحدث عنه لوركا:

فمن حبك يؤلمني الهواء/ و القلب و القعبة/ من يشتري مني خيط الحرير/ خيط الحزن الأبيض ... لكي يصنع منه المناديل! / آه كم يكلفني أن أحبك كما أحبك.

« هذا هو التاريخ أو الإنسان. أما الدماء، و التدمير، و ما أشبه فلن تكون تاريخاً! إلا بقدر ما تكون وسيلة لبزوغ فجر جديد نحو قصائد جديدة في حب جديد. و بهذا الحب، و بالحديث عنه كانت أماسينا تمتلئ، و تفيض كؤوسها بهذا النوع من العسل، و لذلك كانت و ستبقى ما دامت في القلب نبضة. و إذا كنتُ أنا أطل عليك من جميع الكوى فأنت تطل علىّ من جميع النجوم التي تتشع في ليالي بغداد ... و لا يعرف هذه النجوم سوى الذين ينامون تحتها في ليالي السحر. (الليل في بغداد كله سحر) كما يقول شاعر عراقي كبير.»⁶³²

و الجواهري و ذو النون أيوب و بحر العلوم و السياب و البياتي و لميعة عباس عمارة و طاغور و كفاك و الشهيد لوركا، و قيس و ليلى و عمر بن أبي ربيعة و غيرهم و غيرهم من أدباء أجانب و عرب. حدثنا عن كل هؤلاء بوضوح و طلاقة لسان مومسفة، بلهجة لا يحسنها سواه...

« آخ - يا بليقيس - هاجت شجوننا لها في القلوب منازل، كوكبة كنت أتبعها كالظلمة. محمد شرارة و حسين مروة و غيرهما. بيت جدك الشيخ علي شرارة كان معهداً، و كان منندي، و كان موثلاً لكل المتقنين، أدباء و شعراء، كالشيخ علي الزين و جعفر الأمين و عبد الحسين عبد الله و علي بزي و موسى الزين شرارة، فالقائمة طويلة كزحمة أمام قطع تذاكر السينما.

« قلت القليل و غاب عني الكثير، فهل تعذرني حين نخرس الكلمات إن ذكرت محمد شرارة، الأديب و الإنسان و من له الفضل الكبير عليّ بحكم متابعتي في مسيرته... التي لم تنته بعد ... قاسية لوعة الغياب - غياب العلاقات الحميمة مع من نحب و نهوى - .»

⁶³² - مسودة رسالة بعثها إلى إبراهيم نعيم بزي بعد عودته من لبنان بتاريخ 19/9/1977، و قد احترقت جميع رسائل محمد شرارة التي كان يحتفظ بها إبراهيم نعيم بزي في حرب 12 تموز 2006، حيث سقط صاروخ على داره في ضيعة بنت جبيل، فقتلت زوجته و دمّرت داره و احترقت مكتبته. (ب.ش)

و أصبح العتاب و اضحاً في رسائله التي كان يكتبها إلى أصدقائه، و كثيراً ما كان يحسب المدة التي أقامت فيها الرسالة في البريد، خاصة و إن بعض الرسائل لم تصله، بل كانت تفقد في البريد غير المنتظم بين البلدين. و أصبح حريصاً على إرسال رسائله مضمونة أي "في البريد المسجل" ليتأكد من وصولها، و يكتب الإجابة أحياناً في اليوم الذي يستلم فيه الرسالة، و يعتبر على الذين يتأخرون في الإجابة، لذا كتب رسالة إلى أحد أصدقائه:

«.. على إنني أردت أن تكون الرسائل (ديونا) خاضعة للوفاء، في الوقت المحدد و لكن الديون ممنوعة - على ما يظهر - و إن كان المدين معروفاً بالوفاء. لأنه ظل يعتبر "الكلمة الوفية" التي تخرج من القلب زادي الكبير في رحلة الحياة التي مضى أكثرها.»

كما كتب إلى شقيقته "سكنة" رسالة تتضمن هذا النوع من العتاب:

« منذ سنة تقريباً و أخباركم قابعة و راء "اللآءات"؛ فلا صوت و لا خبر و لا شيء على الإطلاق لولا بعض الكلمات التي تمرّ عبر السلك على شفتي الهام⁶³³، و تروي خبراً خاطفاً يشبه الصدى!

« نحن - أي أنا و حياة - نعيش أكثر الأوقات بين القلم و الأوراق. و أنا خاصة ما زلت، بالرغم من تجاوز السبعين، قادراً على سد الفراغ باكتشاف ما في الكلمة الفنية من دلالات و قد كتبت سلسلة أبحاث نقدية، كما نظمت عدداً من القصائد الجديدة.

إن الكلمة في هذه الفترة من العمر كنز، و هي لا تملأ الفراغ فحسب، بل تكتشف الأسرار التي تتجدد بتجدد الحياة. و هذا الاكتشاف يهب الحياة المعاني التي تتخلص بها من السأم.»⁶³⁴

و ينطبق عليه قول بلنيسكي و هو يغبط أولئك الذين يستطيعون الاحتفاظ بتلك الجذوة المتوقدة دائماً في أعماق أنفسهم:

« يوهب الإنسان الشباب مرة و احدة في حياته، و في الشباب يمتلك قابلية أكثر من أي فترة أخرى من العمر على فهم كل ما هو رائع و سام. طوبى لمن يستطيع

633 - الهام ابنة أخيه حسين شرارة التي كانت تقطن في بغداد في تلك الفترة.

634 - مسودة رسالة بعثها إلى شقيقته سكنة شرارة، في عام 1978، و الهام ابنة أخيه، و حياة ابنته.

الاحتفاظ بالشباب حتى كهولته و لا يسمح لروحه أن يعترها البرود و القسوة و التحجر.⁶³⁵»

سافر في صيف عام 1977 إلى انكلترا، و كتب رسالة إلى أخيه جواد شرارة و اصفاً انطباعاته عن تلك السفارة. و هي المرة الأولى التي يزور فيها بلداً غربياً "رأسالياً"، إذ زار من قبل بعض الدول الاشتراكية و منها الصين و الاتحاد السوفيتي، و قد كتب مقالاً مطولاً عن زيارته نشر في جريدة "طريق الشعب" في بغداد، و كانت انطباعات ايجابية. كان يحب أن يقضي وقتاً طويلاً في التجول بين الحدائق الواسعة في لندن، المحروم منها في بغداد، و كتب :

« كان بجانبني في الطائرة إلى لندن أحد قضاة الشرع في كربلاء - و هو صديق قديم - و لا يعرف كلمة واحدة من الانكليزية. فلما وصلنا إلى المطار، بقينا معاً حتى انتهينا من المعاملات. و لما خرجنا إلى قاعة الاستقبال، وجدنا بانتظاره بعض أقاربه، كما كانت بانتظاري مريم. و عندئذ سألني: "أفلا نلتقي؟" فقلت: "لا أدري"، زودني قريبه برقم التلفون، و بعد فترة خابرته و سألته: كيف رأيت لندن؟ فأجاب:

أتى الزمان بنوه في شببته
فسرّهم و أتيناها على الهرم

« ثم قال: "ما رأيك؟" قلت: "لقد كان زماننا كله هرماً، فلم تمرّ به طفولة و لا شبببة!" فقال: "رائع!" و الحقيقة إن العلاقات في الشرق كلها هرم. و من هنا كانت المآسي التي لا تعرف الحدود، فإذا كانت فيهم روحٌ مرحة كروحك كانت زهرة في الصحراء!.."⁶³⁶

كما كتب رسالة إلى صديقه أبو نعيم عن زيارته لندن:

« رأيت عالماً جديداً في تربيته و أخلاقه و حريته و بساطته أيضاً. إن الملابس الرسمية تكاد تكون غريبة، و الترف يكاد يكون أغرب، و أبسط معلمة في بنت

⁶³⁵ - ف.غ. بلينسكي / Vissarion Belinskii: الأعمال المختارة في ثلاثة أجزاء، موسكو 1948، ج 2، مقتبسة عن كتاب "المتنبي بين البطولة و الاغتراب" محمد شرارة، المؤسسة العربية للدراسات و النشر - بيروت، 1981، ص-46

⁶³⁶ - رسالة بعثها إلى شقيقه جواد شرارة بتاريخ 16/10/1977، "محمد شرارة- الأديب و الإنسان"، مصطفى بزي، إصدار: هيئة إنماء المنطقة الجنوبية 1994، ص-100

جبل مترفة أكثر من أليزابث ملكة بريطانيا العظمى! و الحرية لا حدود لها، و لا يتدخل أحد في شؤون أحد.»⁶³⁷

* * *

بعد أن عاد إلى بغداد، كتب عدداً من المقالات الطويلة التي تتسم بتحليل و دراسة لشعراء عرب، صدرت بعضها في كتاب "نظرات من تراثنا القومي"، و تناول فيه مواضيع مختلفة، فكتب عن الغربة و مأساة المصير، المتمثلة بالشاعر "مالك بن الريب" و يقول عنه:

« هو من أولئك الذين تتلاقى فيهم التناقضات الحدية بأعظم ما في الحدود من تناقض.. الرجل يحب الكرم إلى درجة الجنون لكنه عاجز عن القيام به، و فيّ إلى حد الهيام لكنه لا يقدر على الوفاء، فارس تعرفه الخيل كما تعرفه شهامة الفروسية، و قاطع طرق تعرفه القوافل التي يخيفها اسمه.»

و يرجع محمد شرارة تكوين شخصية الشاعر إلى الظروف المعقدة و قلة الوعي و العجز عن الرؤية التي تتحكم و تملي على هؤلاء الناس و أمثالهم سلوكاً خاطئاً. و لكن عندما و انتة الفرصة، أصبح فارساً من فرسان "سعيد بن عثمان بن عفان" الذي كان والياً على خراسان. عندئذ بدأ التحول في حياته، الذي أدى إلى نهايته في إحدى معارك خراسان.

فإن أنج من بابي خراسان لا أعد إليها و إن منيتموني الأمانيا
« و في قول شاعرنا "و إن منيتموني الأمانيا" ما يؤكد الطفولة و يشير إلى الحرص الشديد على حياة تتلاشى كما تتلاشى الأوراق في شجرة جفت تحتها الأرض، و اختفت من جذورها بقايا المياه.»

و يختصر محمد شرارة حياة الإنسان مهما كانت فان:
« الحياة حلوة، و لن يتخلى عنها أحد باختياره. و كل و احد يتمنى الخلود، و قد يعتقد أو يظن أنه خالد و لا يفكر بالموت، بل و لا يخطر بباله ما دامت الحياة سائرة في خطها الطبيعي. و كل واحد يعمل للعالم و كأنه باق إلى الأبد بدون حاجة إلى مواعظ. و إذا أحس بأن الحياة بدأت تتحدر من القمة إلى الوادي تنبّه إلى

637 - رسالة إلى إبراهيم نعيم بزي بتاريخ 19/9/1977، "محمد شرارة - الأديب و الإنسان"، مصطفى بزي، إصدار: هيئة إنماء المنطقة الجنوبية 1994، ص 74 - 75

المصير، و بدأت تراوده الأحلام المخيفة. و في اللحظة ذاتها، يبدأ الحرص على أن يمتلئ ما تبقى من اللحظات بكل ما في الدنيا من متع و لذائد.

و الجزء البطولي من حياة الشاعر الذي قدره محمد شرارة هو الصمود و الثبات، الذي استحق الكتابة عنه: « أما الصمود في لحظة الهزيمة فإنه الأمل الأكبر في ساعة اليأس، أو الباب المفتوح في الوقت الذي انسدت جميع الأبواب، و أغلقت حتى الكوى الصغيرة. و بطولة الشاعر من هذا النوع الفريد.»⁶³⁸

و مما يلفت النظر في تلك الفترة انه تناول البحث في الكتابة عن الحياة و الموت، و هو الإنسان الذي بدأ يشعر أنه جاوز السبعين من العمر، و إن اللحظات الحلوة تطير بسرعة. فكتب مقالاً بعنوان: "خاطر عن الموت و الحياة" و علاقتها بالشعر، و كيف اختلفت نظرة و مواقف الشعراء الذين بحثوا هذا الموضوع في الأدب العربي. فتناول أربعة شعراء عرب، و كتب عن نظرتهم تجاه الحياة و الموت و قارن بينهم، فوجد منهم من يستسلم للحياة، و منهم من يحاول إخضاع الحياة لتفكيره الخاص، و هنا يبدأ الصراع، فنهاية الحياة دائماً هي الموت:

« فقد اتصل أحدهما بالآخر اتصال الخاتمة بالفصول في الرواية؛ و لذلك كان الموت هو الطرف الثاني في حركة الفكر. و هكذا كان التفكير بالموت مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالتفكير في الحياة ... و قد اصطدم الشعر العربي بمظاهر الوجود و تأمل الحياة و الموت، و كانت له نظرات فيهما مستمدة من الظروف الخاصة المحيطة بالحياة و الموت. ... أربعة شعراء يمثلون ألواناً من التفكير في الموضوع: هم طرفه بن العبد في الجاهلية، و الفرزدق في العصر الأموي، و ابن الرومي في العهد العباسي و المنتبي في أواخر هذا العهد.»

فطرفة بن العبد الذي « ... استسلم إلى شبابه، و مضى يعب من الحياة بمقدار ما يستطيع ... و من خلال هذا الانغماس المسرف في لذائد الحياة ظهرت خاطره، و خلاصتها إن الحياة ماضية، و إن العمر فرصة يجب أن يغتتمها الإنسان في اللذائد ... و ما دامت الحياة تنتهي بنا إلى الموت فالحرمان موت قبل الأوان.

و ما زال تشرابي الخمر و لذتي و بيعي و إنفاقي طريقي و متلدي
فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي»

638 - "مالك بن الربيع" مجلة العرفان - لبنان، كانون الثاني 1978، و نظرات في تراثنا القومي، محمد شرارة، المؤسسة العربية للدراسات و النشر - بيروت 1982، ص - 10، 14

و بالنسبة لمحمد شرارة لا بد من إن هناك هدفاً سامياً في حياة الإنسان، و الحياة الخالية من هدف، المبنية على الم لذات "اللحمية" هي حياة تافهة، و هذا لا يعني أن محمد شرارة ضد التمتع بملذات الحياة، لكنه ضد موقف "الشاعر طرفة بن العبد"، الذي ربط الحياة بالملذات "اللحمية" و لخصها بشرب الخمرة و مجالسة امرأة جميلة و الحرب. و كانت حياته سلسلة من الترف و اللهو و التبذير.

ثم انتقل إلى المقارنة بين موقف الفرزدق من الحياة و الموت و طرفة بن العبد، الذي يختلف تماما عنه:

« و أما الفرزدق فالفرق بينه و بين طرفة كبير. فإن طرفة يتحدث عن الحياة، و عن مناهلها و هو شاعر بما فيها من لذائد، قادر على انتهالها بينما الفرزدق يسير إلى الغروب، و الحياة تهوي به هويماً إلى القبور. و لم يثر على إبليس إلا بعدما شاخ، و حطمته الأيام، و لم تبق منه إلا ما تبقى في الأوراق اليابسة. و سبعون سنة في الشهوات ليست بالمدة الوجيزة، و البلابل التي كانت تناغي في حياة طرفة تحولت إلى أغربة ناعبة في حياة الفرزدق. و حواراه مع إبليس يحوم حول فكرة واحدة و هي إعلان العصيان و التمرد عليه.

أطعتك يا إبليس سبعين حجة
فلما انتهى شيببي و تم تامي
فررت إلى ربي، و أيقنت أنني
ملاق لأيام المنون حمامي»
ثم ينتقل إلى موقف أبن الرومي المتشائم من الحياة و المستبشر بيوم الرحيل عن هذه الحياة، و الاختلاف الكبير بينه و بين الفرزدق و طرفة:

« و أما ابن الرومي فيختلف عن طرفة و الفرزدق اختلافاً كبيراً. و هذا الاختلاف يعود إلى التكوين الشخصي الذي عملت على بنائه عوامل متنوعة؛ فهذا الشاعر حساس إحساساً مفرطاً، و شاعر غني بالعاطفة. ... أما لون الأحاسيس عند الشاعر فنابع من معتقداته، و معتقداته قائمة على التساؤم... و ما هي الحياة عند الأحياء إذا فقدوا الشباب؟ و هل تكون الحياة أكثر من عذاب إذا تلاشت الفتوة، و ذهب الشباب. و ما دامت الحياة عذاباً بعد الشباب فلنقبل بنات الدهر، و تطلق سهامها؛ فلن تجد سوى الترحيب بهذه السهام القاتلة ... و ابن الرومي صورّ الخشية... صورّ الرعب الذي يرافقه و هو في قمة السعادة:

إذا طاب لي عيش تنغصت طيبه
بصدق يقيني أن سيذهب كالحلم
و من كان في عيشي يراعي زواله
فذلك في بؤس و إن كان في نعم

و يجد محمد شرارة الاختلاف و اضحاً عندما يقارن الشعراء الثلاثة بالمتنبي:
 « فالشعراء الثلاثة السابقون يرون الحياة كأساً أو امرأة ... يرونها حساً ثائراً، و شهوة مندفعة. و قد تألم ابن الرومي لحرمانه منها، و تاب الفرزدق بعد أن تحطم فيها، و حرم طرفة من حقوقه القبلية لعكوفه عليها، و انغمسه فيها. أما المتنبي فعالم آخر. إن الحياة عنده مجد، و في سبيل المجد تضرب أعناق الملوك، و يترك الدوي في الدنيا:

و لا تحسبنّ المجد زقاً و قينةً فما المجد إلا السيف و الفتنة البكر
 و تضريب أعناق الملوك و أن ترى لك الهبوات السود، و العسكر المجر
 و تركك في الدنيا دويماً كأنما تداول سمع المرء أنمله العشر
 « فليس المجد زقاً من الخمر، أو قينة تضرب على العود كما يرى طرفة، و إنما هو السيف، و الفتك الذي لا نظير له، و الغارة على أعناق الملوك، و الهبوات السود، و الجيش الكثيف، و تركك الذكر المدوي في نواحي الدنيا. ... و ذلك راجع إلى شخصية المتنبي من ناحية، و إلى ثقافته من ناحية أخرى. أما شخصيته فمن الشخصيات النادرة في تاريخ الأدب العربي.

غير أن الفتى يلاقي المنايا كالحات و لا يلاقي الهوانا
 « و كأنه أراد أن يقول: إن بعض الناس يقدسون رغباتهم، و ينظرون إلى إرادتهم نظرة استعلاء، و يرون من الواجب على غيرهم أن يرى هذه الرؤية، فإذا لم يتفق معهم و لم يخضع لرغباتهم أودى و ظلم، و عندئذ لا يجد بدأً من الرد على الظلم، و الدفاع عن كرامته؛ فيلاقي في سبيلها المنية و لو كانت عابسة شديدة العبوسة، و يأنف من الخضوع للهوان. يضاف لذلك ان الحياة ماضية، و لو كانت تبقى للأحياء لكان الشجاع أضل الناس. و ما دام الموت نهاية الحياة، فمن العجز أن يتحمل الكريم الذل و يعيش عيشة الجبان، و قد لخص الشاعر المعاني المذكورة في الأبيات الآتية:

و إذا لم يكن من الموت بدُّ فمن العجز أن تموت جباناً»⁶³⁹
 و هذا البيت يختصر رؤية محمد شرارة في الوجود، الذي كان يترنم به دائماً، فالجبن عن قول الحقيقة أو كشفها هو جبن لا يمكن أن يتحملة أو يعيش بظله.⁶⁴⁰

⁶³⁹ - "خواطر في الحياة و الموت" محمد شرارة، نظرات في تراثنا القومي، المؤسسة العربية للدراسات و النشر - بيروت، 1982، ص 148-160

كنت أزوره و أقضي ساعات طويلة بصحبته في دار شقيقتي حياة. كان من هواياته تخدير الشاي، و كان شاي الوالد مشهوراً بين ضيوفه، فله نكهة خاصة لذيدة الطعم. كان يتجه إلى المطبخ فيملاً الإبريق في الماء حالماً أصل الدار، يضعه على الموقد، و عندما يسمع صفيره، يسكب الماء المغلي في إبريق الشاي، و يتقدم حاملاً صينية صغيرة استقرت عليها ثلاثة أقداح من الشاي الأحمر الصافي. كنت ألتذ بشرب الشاي بصحبته في تلك الغرفة الملاصقة للحديقة، شاي صاف مخدر على الطريقة العراقية، تعلمها عندما كان صبيماً يدرس في النجف! أو كنا نجلس في الحديقة بين زقزقة العصافير في المساء التي كان يراقبها و يتأملها عن كثب، قبل أن تحط بين أغصان الأشجار، و تأوي إلى أوكارها، و التي أوحى له كتابة مقال بعنوان "طيور و شعراء". و وجد إن الطيور "أكثر الكائنات" التي استلهمت الشعراء، و لا يخلو شعر شاعر من التطرق إليها. فالطائر رمز الحرية التي ظل محمد شرارة يدافع عنها طيلة حياته، تلك الحرية التي كانت غريبة في العوالم التي عاش فيها. الطائر يمثل تلك الحرية إن كانت متمثلة في قبرة الشاعرين الرومنكيين و ليام وردسورث Wordsworth وبرسي بيش شللي Shelley أو حمامة أبي فراس الحمداني أو طائر أحمد شوقي أو بلبل علي الشرقي، فقد كان الطائر مصدر الإلهام الفني في الأدب و الشعر و السياسة، و كتب:

« و إذا استلهم الشاعر نشيداً من أكثر الكائنات فقد استلهم من الطيور أكثر من نشيد و أكثر من قصيدة، و قد رأى فيها أكثر من رمز إلى ما يعانیه، بل و أكثر من شريك في ساعات اليأس و الحزن و أكثر من صديق يستحق العتاب. و « حمامة أبي فراس لم تكن بحاجة إلى النياح، و لكنها كانت تتوح. و نياحها يثير عجا و دهشة و استعراباً يتحول في شفتي الشاعر إلى استنكار قائم على خلفية من الموازنة بين حر و أسير، و محزون و مسرور، و باك و ضاحك، ثم تنتهي إلى أولوية و اضحة لو كانت المقاييس عادلة.»

640 - مكالمة تلفونية مع بتول القشطيني بتاريخ 2008/5/14، ستيفنج - انكلترا

آخر مرة تحدث فيها محمد شرارة تلفونياً مع بتول القشطيني كان عن الموت، فقرأ لها بيتين من شعر المتنبّي في هذا الموضوع:

و تحس نفسي بالحمام فأشجع
و يلم بي عتب الصديق فاجزع
إني لأجبن من فراق أحبتي
و يزدني غضب الأعادي قسوة

و ينتقل إلى قبرة و رديسورث و يقارنها بقبرة شللي :
لأن أغنيته قوية/ فسيري معي إلى الغمام/ معي إلى الأعلى.. نغني و نغني/ معي
إلى الغيوم.

و وجد « قصيدة و رديسورث محدودة الخيال و الآفاق، و الفكرة الأساسية
فيها لا تتعدى الاستغاثة من الحياة، و الهرب من المستتقات إلى الأعلى
حيث تتجلى الآلهة و المرح و الجنون... أما قبرة شللي فعالم أكبر من ذلك
بكثير، و دنيا أرحب و أوسع... و قصيدته أعمق خيالا و أكثر تنوعا و إن
تلاقى الشاعران في عدد قليل من الرؤى و في الكلمة الواحدة أحيانا فالقبرة
"غناء" و "فن يضحك و يسخر" في رؤيا و رديسورث، و هي "فن عفوي
طبيعي" في رؤيا شللي، و لكن المكان الذي جعل فكرها أو نفسها أجزاسا
هو مكان سماوي في الأولى بينما كان أرضا في الرؤيا الثانية، و لكنها
الأرض التي استطاعت أن تحولها إلى "غمامة من نار".!

تحية لك أيها الروح السعيد

لم تكن طائرا في السماء أو بالقرب منها

تسكب قلبك كله في لحن متتابع غزير من الفن الطبيعي العفوي.

و أغانيك كانت و ما زالت تحلق أعلى و أعلى من أرض خرجت منها غمامة من
نار.»

ثم ينتقل محمد شرارة إلى شعراء حديثين في الأدب العربي، أحمد شوقي الذي نظم
قصيدة بالطائر بعد أن نفي إلى أسبانيا. فكتب:

« في أدبنا العربي على جميع مستوياته، غنائيا فولكلوريا كان أو غير غنائي تأخذ
الطيور دورها و تجد لها مسرحا كبيرا فيه... و شوقي لا ينكر على الطائر نياحه
كما ينكر الشاعر الحمداني على حمامته، بل يرى "العوادي" التي فرضت عليه
النوح مشتركة بين الاثنين. و من الوضع الروحي المشترك بينهما كان الأسى
مشتركا أيضا:

يا نائح الطلح أشباه عوادينا نأسى لواديك أم نشجا لوادينا

ماذا نقص علينا غير أن يدا قصت جناحك جالت في حواشينا

« أما بلبل الشرقي الشاعر العراقي، فروح مسرحية عجيبة لها في كل دور حركة
تتناسب مع الهدف المسرحي و غايته. و كما تلاقى شوقي و نائح الطلح في غناء

حزين فان الشرقي و بلبله يتلاقيان في وحدة الحال الحزينة أيضا و إن اختلفت
دوافع الحزن:

أيها البلبل المعلق في السجن سلام لعل حالك حالي
فجناحك مثل قلبي يا بلبل قد رفرفا لضيق المجال
لعب التافه الرخيص من الناس مع الدهر بالنفيس الغالي
و إذا الورد في الحوانيت و الطير و راء الأبواب و الأقفال

« فالأبيات صورة عن حالة اجتماعية رهيبة يقف الطير و الشاعر كلاهما فيها
وراء الأبواب المقفلة في زنزانة ضيقة. و رفرفة القلب محاولة للخروج من الضيق
إلى أرض أوسع من الزنزانة. و لكن هيهات! إنها الرفرفة التي لا تختلف كثيرا
عن رقصة الذبيح، و إذا انتهت هذه بالموت فتلك تنتهي على الأقل باضطراب
الدماء أو تكسير الجناح.»⁶⁴¹

* * *

كما كنت أتبع معه ما يجري في وطننا الثاني لبنان في سماع الإذاعات و مشاهدة
السيارات المفخخة التي تتفجر بين الناس الواقفين في طابور بانتظار رغيف خبز،
فتنتظير أشلاؤهم، بين الصراخ و الأنين و البكاء و صفارات سيارات الشرطة و
الصليب الأحمر. حولت تلك الأحداث التي كان يشاهدها على شاشة التلفاز، أيامه
إلى سلسلة من الإحباط و خيبة أمل، بعيدة عما كان يتمناه من تقدم حضاري
لل بشرية المعذبة. كان متألماً لما حل في بلده لبنان، أما الوضع في العراق الذي لجأ
إليه، فلم يكن أقل سوءاً من الوضع في لبنان، فقد حولته "العائلة" التكريتية المهيمنة
على السلطة إلى سجن كبير لشريحة كبيرة من أهله.

و لم يمض عام على إقامته في بغداد، حتى جاء "زوار الليل"، إلى دار ابنته "حياة"،
و القي القبض على زوجها الدكتور "محمد صالح سميسم"، الذي كثيراً ما لوحق و
هُدّد من قبل حزب البعث، لأنه رفض الرضوخ لطلباتهم، و هو الانتماء إلى حزب
البعث. اعتقل محمد صالح سميسم مرتين، كانت المرة الأولى لمدة أسبوعين في
مديرية الأمن العامة، و بعد أن خرج بمدة بُعث في وفد طبي إلى الهند، لمدة
أسبوعين، و بعد عودته، طلبوا منه مرة ثانية الانتماء لحزب البعث. كان هذا

641 - "طيور و شعراء" محمد شرارة، مجلة العرفان - لبنان، أيار 1978، من مخطوطة "تأملات في
الأدب و الحياة".

الأسلوب، أي أسلوب سياسة "الترغيب و الترهيب" الذي اتبعه حزب البعث أو بالأحرى السلطة المتمثلة في أحمد حسن البكر و صدام حسين، هو الأسلوب السائد الذي اتبع مع الشيوعيين المهمين، و المسؤولين عن سياسة الحزب الشيوعي،⁶⁴² فعندما رفض الدكتور محمد سميسم، اعتقل هذه المرة لمدة شهر في مديرية الأمن، و لاقى ضروباً من التعذيب النفسي و الجسدي،⁶⁴³ شمل استعمال الصدمات الكهربائية و حرمانه من النوم.⁶⁴⁴

⁶⁴² - مقابلة مع كريم مروة بتاريخ 2008/2/12، زار كريم مروة بغداد بصفته الحزبية في عام 1978، إذ كان نائب الأمين العام للحزب الشيوعي اللبناني:

« سافرت مع وفد الحركة الوطنية إلى بغداد، و التقيت بصدام حسين في عام 1978. ثم التقيت منيف الرزاز، و خلال الاجتماع معه، قلت له هناك مشكلة لها علاقة بالحزب الشيوعي العراقي. قال لي: "ابعد عني هذا الكأس". عند ذلك ذهبت إلى طارق عزيز، و قلت له: إنكم تقتلون الشيوعيين! أجاب طارق عزيز: "قل لهم أن يكفوا عن التآمر علينا، و قد كشفناهم واحداً، واحداً. و كشفناهم حتى في الجيش. فأما أن يمشوا بما نملي عليهم، أو ننتجهم دم و نبخ، و لا نستطيع أن نتعاون مع من يتآمر علينا!

« عدت إلى مقر الحزب الشيوعي و أخبرتهم أن يتركوا العراق، لأن جميعهم معرض للذبح! كان ذلك في بداية عام 1978. تركت بعدها قيادات الحزب العراقي. و لكن بقي بعضهم مثل "د.صفاء الحافظ" الذي اختفى في السجن، قبل حرب إيران، في 15 شباط عام 1979، و قد صفي جسدياً من قبلهم.

« ثم توقفنا عن أخذ المبالغ المالية منهم، التي كانوا يمولون الحزب الشيوعي اللبناني بها في تلك الفترة، كما قطعنا العلاقة مع الحكومة العراقية. و كان الوزراء الذين يمثلون الحزب الشيوعي العراقي في الوزارة، هما "عامر عبد الله و مكرم الطالبناني"، الذي كانت علاقته قوية بصدام حسين، كانا غير مرتاحين من الخطوات التي أقدمنا عليها.»

⁶⁴³ - مكالمة تلفونية مع الشاعرة لميعة عباس عمارة بتاريخ 2007 /12/17، سان ديغو - الولايات المتحدة.

« حاول حزب البعث جمع الأحزاب المكونة من الأحزاب الشيوعية و القومية و الديمقراطية، للتعاون معهم و تكوين جبهة، و وافق الحزب الشيوعي على هذا الاتفاق، و لكن الغرض البعيد لم يكن التعاون مع الأحزاب الأخرى و خاصة الحزب الشيوعي، و إنما كشف خلاياه للقضاء عليه!. مثل محمد صالح سيمس الأطباء في أول اجتماع عقد معهم، و تم الاتفاق على التعاون معهم، لأن مطالب الحزب الشيوعي لا تختلف عن مطالب حزب البعث، و هي المساواة و الحرية و الاشتراكية.

« و لكن في الاجتماع الثاني طلبوا منه أن ينتمي إلى حزب البعث، فأجابهم: انه حضر الاجتماع على أساس أنه يمثل الأطباء في الحزب الشيوعي. قالوا له: يجب أن تعمل معنا، و تصبح بعثياً! فعندما رفض، بدأت المضايقات، و طلبوا استجوابه مرتين، و في كل مرة كان يتعرض إلى أنواع من التعذيب النفسي و الجسدي، و قد وجهوا مرة عليه إشعاعاً لا يدري ما هو، و أعطي مرة ثانية عصيراً، أدى إلى إحساسه بتعرق، و تعب شديد، لكنه لم يعرف المواد التي وضعت في هذا العصير، و الذي كانت نتيجة لما حدث له بعد شربه. و عندما أطلق سراحه بعد شهر، وصل إلى الدار بحالة لا يستطيع فيها أن يأكل شيئاً. كانت زوجته "حياة"، تطبخ له الشوربة، و تطعمه بملقعة قذح الشاي، لأنه لا يستطيع استعمال ملقعة الشوربة

و اكفهرت الدنيا في عيني محمد شرارة بعد إلقاء القبض ثانية على صهره، مرت الساعات و الأيام مشحونة بالارتباك و القلق، فقد هرب من الحرب الأهلية في لبنان، لعله يجد نوعاً من راحة البال في بلده الثاني العراق! لكنه وجد نفسه في حالة من الإحباط و الخوف و القلق النفسي على ابنته و زوجها، و حاول تخفيف الهموم عنها، و كان و جوده عوناً لها في تلك المحنة! لكنه عاش في جو هيمن عليه الهلع و الرعب، و كان لا يجرؤ أن يفتح حتى نوافذ الدار، لأن الدار كانت تحت رقابة متواصلة من قبل المخابرات العراقية، التي كانت ترصد ما يجري في الشارع الذي يسكنه مع ابنته "حياة".⁶⁴⁵

فقد أصبح هنالك مقرات لحزب البعث في معظم شوارع بغداد، وظيفتهم رصد الناس و مراقبة تحركاتهم! و أصبحت الوشاية أكثر من مضايقة، و لم يكن هؤلاء المسؤولون يكتفون برفع التقارير و إنما يقومون بتهديد الناس الذين لا ينتمون إلى حزب البعث. فقد صدر قرار من قبل الحكومة في تلك الفترة، في جعل جميع الذين

للجروح التي أصيب بها. و ظل يعيش على الحليب و الشورية لمدة طويلة. ثم ألقى القبض عليه ثانية، و أعيد بحقه التعذيب الجسدي و السيكولوجي ثانية.»

644 - « إن التقارير تشير إلى أن التعذيب ما زال يتم على نطاق واسع، و هناك شبهات بأنه يتم بهدف دفع المعتقل لأن يعلن تخليه عن انتماءاته السياسية أو ليعلان انضمامه لحزب البعث... و قد أجمعت معظم التقارير سواء التي وردت لمنظمة العفو الدولية أو الشكاوى التي تلقتها المنظمة العربية لحقوق الإنسان على توصيف واحد لأساليب التعذيب المتبعة تتضمن: الضرب بواسطة الكرايبيج، أو استخدام الصدمات الكهربائية في مناطق مختلفة من جسم المعتقل و تعليق المتهم من سلاسل تربط من معصمه... هنالك شبهات حول استخدام السلطات المعنية في السجون العراقية للسموم كوسيلة للتخلص من المعارضين... و ألم بطيء عقب خروجهم من المعتقل مباشرة - كما أكدت ذلك بعض التقارير الطبية.»

"حقوق الإنسان في العراق، من تقارير المنظمة العربية لحقوق الإنسان"، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة - مصر، 1990، ص 25-26

645 - مقابلة مع الأستاذ حبيب صادق بتاريخ 2008/1/30، بيروت - لبنان
عندما زرت محمد شرارة في بغداد، في دار أبنته حياة، كان يعيش في هلع متواصل من الوضع المتردي العام و الخاص. و كانت الستائر تغطي جميع نوافذ الدار، فتحجب النور عن الغرف، و يعوض عن ذلك الكهرباء، فلا يجرؤ أحد على فتح نافذة خوفاً من العيون الرقابية المترصدة لهم.

« كان يستوقفني منه ما عدا الحضارة الشديدة في لغة الحديث التي عنده، شدة إيمانه في الرأي الذي يعرضه، من غير أن تؤثر على دماثة خلقه، و هو في اندفاع الحديث تأكيد على صواب وجهة نظره. و كان يعطفها دائماً بابتسام شغافة. كانت ذاكرته نضرة، و كان كل رأي يسنده إلى حديث أو بيت شعر ما. و يدل على سعة اطلاعه في الأدب العربي، و يستشهد بأقوال المؤلفين العرب أو أبيات شعرية. و كان من المعجبين بالمتنبي و كثيراً ما كان يستشهد به.»

يعملون في سلك الدولة أعضاء في حزب البعث، و في عدم الانصياع إلى هذا القرار، يكون مصيرهم أما الفصل أو السجن!

و دبّ الهلع بين الناس، و تكاثفت غيوم الخوف و انهالت أمطاره الغزيرة، فأصابت التبعية من أهالي البلد. بدأ تهجير الناس المنظم و رميهم على الحدود، و مصادرة حياتهم، و أموالهم و كل ما يملكون، و تحول الخوف إلى رعب يعيше الناس في كل لحظة من حياتهم، لا يعرفون متى يهجرون، و لماذا يهجرون؟!⁶⁴⁶

جهاز الأمن بخطاه الحثيثة و عيونه المفتوحة، يحث خطاه في الدوائر و الجامعات و المدارس، يؤخذ الطفل من مدرسته، و الأستاذ من جامعته و الموظف من دائرته، يكسسون فوق بعضهم كما تكس البضائع، تاركين خلفهم حتى ذكرياتهم، لا لسبب إلا لأنهم و لدوا بهوية غير عثمانية! ترك التهجير بقعة مثيرة دامية في تاريخ العراق! غرق الناس في صمت عميق، لا تسمع حتى الوشوشة، فقد خدّر الخوف أوصالهم! و قد وصفت حياة شرارة ذلك الشعور في رواية "إذا الأيام أغسقت":

« أطل الخوف أمام ناظري في البداية كبرق خاطف يسبي الأبصار ثم توارى. غير أنه لم يَغِب نهائياً، بل ظل يظهر بين آونة و أخرى بدرجات تختلف في قوتها و ارتفاعها و عمقها. كان يتخذ شكل دخان رمادي كثيف يلتف و يتصاعد في دوائر مرئية ثم ينتشر عرضاً و طولاً، و يتسلل إلى النفوس و ينبت في حناياها و يرقد فيها و يترك على نحو مزمن أثاره الرمادية الكابية... خوف يجمد الروح و يشل الأوصال و يميت الكلمات على الشفاه و يبعث الفرع في العيون و يظل المرء مسمراً في مكانه في تلك الزاوية التي حُصر فيها و لا يتحرك منها إلا بإرادة غيره.»⁶⁴⁷

و استعمل إسقاط الجنسية لأول مرة كسلاح في التخلص من فئة كبيرة من الناس الأبرياء، و هي سابقة لم تحدث في تاريخ العراق من قبل، إذ أسقطت الجنسية في

⁶⁴⁶ - « كون الدولة العراقية الحديثة ولدت على أنقاض إدارة الوالي العثماني، و ظلت لعقود طويلة حاملة الكثير من ثغرات هذه الإدارة و تقليديتها و رطانة و اليها، ... و منها قانون الأحوال المدنية الذي يقسم العراقيين إلى تبعيتين: عثمانية و إيرانية!!»

"الدولة غير المنقفة" كريم عبد، المركز العربي للفنون و الآداب، بلجيكا- بروكسل، الطبعة الأولى، 1995، ص 97-98

⁶⁴⁷ - "إذا الأيام أغسقت"، د. حياة شرارة، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، الطبعة الأولى 2000، ص- 68، 81

السابق عن أفراد فقط، بسبب الرأي الذي اعتبرته السلطة خطراً عليها، و ليس إسقاط الجنسية عن فئة من الناس، بسبب نوع التسجيل في دفاتر النفوس عندما و لدوا في العراق. 648

* * *

فوجئنا ذات يوم بسقوط قذيفة محرقة بيننا، فاقت آفاقنا و توقعاتنا، و صعقت العائلة من هول المباغثة، عندما اختفى "رفعة" من بيننا في مجاهل المخابرات المعتمة في صباح يوم من أيام كانون الأول في عام 1978، فهيمن قلق رهيب بين أعضاء العائلة. كبت قلقي، و خيم صمت غريب أقرب منه إلى الشلل، الكل في توقع سماع خبر ما! و استمر القلق الذي شل حركتنا لأشهر عديدة. أحيل رفعة خلالها إلى المحكمة و حكم عليه بالسجن المؤبد في 1979/5/23، بعد أن قضى أكثر من

648 - « القرار (666) و إسقاط الجنسية: واقع و خلفيات، بموجب قرار مجلس قيادة الثورة رقم 666 في 1980/5/7، شمل إجراء "إسقاط الجنسية عن كل عراقي من أصل أجنبي إذا تبين عدم ولائه للوطن و الشعب و الأهداف القومية و الاجتماعية العليا للثورة" و أكد القرار على إبعاد كل من أسقطت عنهم الجنسية العراقية ما لم يقتنع بناء على أسباب كافية بأن بقاءه في العراق أمر تستدعيه ضرورة قضائية أو قانونية.

« إن المعيار العراقي الأصلي عن العراقي غير الأصلي هو الجنسية العثمانية، فمن كان منحدرًا منها كان عراقياً أصيلاً و من كان منحدرًا من غيرها كان عراقياً من أصل أجنبي و هو منطبق غريب و لا مثيل له.

« لقد أدت هذه الإجراءات إلى نقص العدالة و انتهاك حقوق، الإنسان و تشتيت أفراد العائلة الواحدة، خصوصاً باحتجاز الشباب و تشجيع الأزواج تطليق زوجاتهم، و الزوجات على تطليق أزواجهن لقاء مكافآت مالية و على نحو غير إنساني.

« كما أدت إلى انتهاك الحقوق الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية بمصادرة الأموال المنقولة و غير المنقولة و ساهمت تلك الإجراءات في ضياع مستقبل عشرات الآلاف منهم، حيث اضطروا للعيش في مجتمع غير مجتمعهم و تعلم لغة غير لغتهم مما شكل عنصر توتر اجتماعي و نفسي و صحي للعديد منهم، بما فيها مشكلة الهوية و اندماج و تقليص فرص العمل و التعليم و الإبداع و الثقافة.

« و لا ريب إن تلك المحاولات استهدفت التأثير على التركيب السكاني مستهدفة المعارضة السياسية في بعض مقاصدها، التي كانت الفئات التي تم تهجيرها بؤرة لها إسلامياً و يسارياً، و لم تتورع السلطات من اندعام أي ضمانات قانونية و قضائية لإجراءاتها فضلاً عن مخالفتها الصريحة لقواعد القانون الدولي.»

" من هو العراقي؟ إشكالية الجنسية و اللاجنسية في القانونين العراقي و الدولي"، د. عبد الحسين شعبان، دار الكنوز الأدبية - بيروت 2002، ص 60-61

خمسة أشهر في زنانات المخابرات. و نقل إلى سجن "أبو غريب". و بين عشية و ضحاها وجدت حياتي قد انقلبت رأساً على عقب بقوى خارجة عن سيطرتي!⁶⁴⁹

زارني الوالد ذلك اليوم، و شعرت بنفس الإحساس الذي كان يعيشه، إحساس الغربية في الدار، في الشارع، في الزقاق، في كل مكان. قلت له في ذلك اليوم العصيب: لم أعد أحس ان هذا البلد بلدي! البلد الذي ولدت و ترعرعت فيه، بل أشعر أنني فقدت البلد الذي كنت أعرفه!! لم يجب بل ظل صامتاً من هول الصدمة، و بانث الحيرة عليه، و هو يهز رأسه، كانت عيناه دامعتين، يحدق بي، و قد اختنقت العبرات في صدره أمام انفعالي و انفجاري الهادر من الكلمات. لكنني أحسست بوخزة في أعماقي، و خزة ممزوجة بالحزن و الإحباط، إذ ظل صامتاً يهز رأسه من هول الفاجعة!!

ترقرقت الدموع في عينه ثانية عندما زار "رفعة" في السجن بعد شهر تقريباً، و رأى نخبة من مثقفي البلد، الذين صدرت بحقهم أحكام تتراوح بين السجن المؤبد و العشرة أعوام! قال لي متسانلاً: "هل ناضلنا و ضحينا في سبيل أن نصل إلى هذه الحال، حيث يسجن خيرة من في هذا البلد!؟"، و لأول مرة أسمعته يتكلم بلغة بعيدة عن التفاؤل، بل لغة يشوبها التشاؤم و الإحباط.

كنت أحس بالهموم التي طوقته و أتقلت كاهليه، فتجسمت خيبة الأمل بكل ما في الخيبة من إحباط، بعد زيارته السجن، لكنه لم ييأس و حاول أن يظل متفائلاً، رغم قسوة الأحداث و الظروف التي مرت عليه، لكنه تفاؤل باهت الضوء، تفاؤل بدأ يتآكل تدريجياً، و ينطفئ في أعماقه.

* * *

بعد أسبوع من تلك الزيارة، "زيارة السجن"، كسر كاحل قدمه، و نقل إلى المستشفى. رافقته في رحلة مرضه الأخيرة في المستشفى نهاراً و في الليل أحياناً، إذ كنا نتناوب فيما بيننا في الليل. كنت ألاحظ أنامله الرشيقة عندما يمسك القلم، يكتب بخط أنيق بدقة الخطاط، و هو في الفراش، إذ ظل مثابراً على كتابة المقالات حتى في أيامه الأخيرة التي قضاها في المستشفى، فقد كان "الروح التي لا تعرف

649 - الاعتقال و قصة الحكم بالسجن على رفعة، تم تدوينها في كتاب "جدار بين ظلمتين"، بلقيس شرارة و رفعة الجادرجي، دار الساقى، 2003

الوهن!" و لم يقبل العطف من أحد حتى من حفيدته زينب، التي كانت حزينة عليه بعدما كسر كاحل قدمه، تردد دائماً:

«خطية جدو" و لكنه زعل منها و قال لها: " لا تقولي عني خطية". فأجابته: "مسكين جدو!". فقال: "لا أرضى بكلمة مسكين تقال عني". فحارت زينب و أخذت تسميه "أبو المساكين"، فضحك و قال: "شيطانة تظل عندك كلمات مبتكرة".⁶⁵⁰

عدت يوم الجمعة بعد زيارتي زوجي "رفعة" في السجن، و ذهبت لزيارته في المستشفى، إذ كنا متفائلين أنه سيعود إلى البيت قريباً، و فوجئت عندما وجدته متعباً. كان جالساً في سريره، متكئاً على وسادة، بجانبه الأوراق التي لا تفارقه، لكنه كان زائغ العينين، شاحب الوجه، التفت إلي قائلاً: لم أتيت و أنت متعبة من زيارة السجن؟ كان لا يفكر إلا بالآخرين، فقد كان قلقاً علي في تلك الفترة العصبية التي كنت أمرّ بها! وجدته بطيء الكلام على غير عادته. لم أرتح لوضعه، و طلبت أن أقضي الليلة معه، و لكنه قال: اذهبي إلى البيت فأنت متعبة، و سيبقى معي هذه الليلة أخوك جهاد.⁶⁵¹ ساد الصمت فترة، ثم أضاف بعد لحظات: أحس بالتعب يا بلقيس، أحس بالتعب!! سأنام، و اذهبي لبيتك!! خرجت من الغرفة و تركت أخي جهاد بصحبته، و لم أكن أعلم ان هذه الكلمات ستكون آخر كلمات أسمعها منه، و انه سيكون نوماً طويلاً لن يفيق منه!!

لم تمض إلا ساعة على تركي المستشفى حتى رنّ جرس التلفون، و إذا بأخي جهاد يخبرني ان الوالد فقد الوعي، و نقل إلى غرفة الإنعاش!. لم استطع أن استوعب الصدمة في البداية، و اسودت الدنيا في عيني، لا أدري كيف وصلت إلى المستشفى، فوجدت أمامي الدكتور "محمد" و شقيقتي "حياة" قد وصلا قبلي. جلسنا جميعنا ننتظر، في أمل أن تتحسن حالته، و تمرّ الأزمة التي يعاني منها، و ظل الدكتور "محمد" مع أطباء المستشفى، في غرفة الإنعاش يراقب تطور حالته، و نحن في الانتظار!! مرت تلك الليلة و لم يفق من غيبوبته، و أصبنا بحالة من اليأس!

650 - رسالة بعثتها حياة شرارة إلى شقيقتها مريم شرارة في لندن بتاريخ 13/7/1979، وصفت فيها الأيام الأخيرة من حياة والدها في المستشفى. و كانت زينب طفلة لم تتجاوز السادسة من العمر.

651 - لكنه طلب من الدكتور محمد صالح سميسم أن يبقى معه، و لم يستطع أن يلبي طلبه لأنه كان مرتبطاً بموعد آخر، فترك المستشفى بصحبة زوجته حياة.

« قضيت الأيام الثلاثة الأخيرة من حياته في المستشفى. كان مسجى في غرفة الإنعاش، ببيجامته الكحلية اللون، و أنابيب وصل التغذية و الأوكسجين في أنفه و يديه. كنت اطل عليه عدة مرات في النهار، أقف بضع دقائق أتأمله، يتنفس ببطء. أقف أحيانا وقفة حزن و أسى عليه، فلم أكن أرغب أن أراه في وضعه الذي لا أمل فيه. و ددت لو تخلص من الحياة، على أن يصبح مقعداً على هامشها.»⁶⁵²

كنت أنتقل بين غرفة الإنعاش و قاعة المستشفى الكبيرة المطلة على نهر دجلة، خلف ستار من دخان السجائر المتعالي في القاعة. أتطلع إلى العيون الحزينة و لكنها عيون بلا دموع، عيون صامتة، تتطلع إلى نهر دجلة و سريانه البطيء، لتعود و تنكس النظر في محلها.

لم أكن أتوقع موت والدي المفاجئ، صعقت من هول المفاجأة، كنت أتوقع أنه سيخرج من المستشفى بعد عشرة أيام، و لكنه خرج جثة هامدة محمولاً في نعش! كان موته المباغت صدمة كبيرة لي و لأختي "حياة"، إذ كنا بأمس الحاجة إليه.

و كتبت حياة إلى شقيقتها مريم عندما عادت إلى دارها:

« و كانت الفجعية في كل ركن من أركان بيتنا، في استكان الشاي الذي أشربه معه صباحاً و مساءً، في أوراق أرقام التلفون المكتوبة بخط يده، في كتبه المبعثرة، في الحديقة التي نمت الأعشاب الضارة التي كان يتصيدا و يقطعها باستمرار، في الشارع الذي كنا نتمشى فيه جيئة و ذهاباً كل يوم، في أحاديثه، في كل شيء...»

كان يقول عندما ذهب إلى المستشفى بيت الشعر التالي و يبتسم:

تكاثرت الأطباء على خراش
فلا يدري خراش ما يصيد»⁶⁵³

* * *

ظل محمد شرارة صامداً في المصاعب التي مرّ بها، فقد لقي الاضطهاد اعتقالاً و سجنًا، و فصلاً من الوظيفة و تشريداً، لكن « لم تتراخ لهجته و لم يستول عليه الخور، و لم تتحدر إلى الضعف الذي انحدرت إليه نفوس الآخرين» عندما عانوا من اضطهاد السلطة لهم، لكن «المعاناة ذاتها ليست المسألة» كما كتب عنه حسين مروة:

⁶⁵² - "جدار بين ظلمتين" بلقيس شرارة و رفعة الجادرجي، الساقى 2003، ص - 212

⁶⁵³ - رسالة بعثتها حياة شرارة إلى شقيقتها مريم شرارة في لندن بتاريخ 1979/7/13، كتبت فيها عن الأيام الأخيرة من حياته في المستشفى.

«.. و إنما المسألة كيف يتعامل مع مثل هذا النمط من المعاناة.. كانت المسألة أن يقهر المعاناة، و أن ينتصر عليها، و أن يسخر بها دائماً، حتى في أشد حالات المعاناة قوة و شراسة.. لقد كانت المعاناة نفسها تكل و تعي في محاولتها تفتيت صبره و صموده و في محاولتها تتكيس كبريائه خصوصاً.. لكنه هو لم يكل أو يعي من ممارسته قهر المعاناة و الانتصار عليها، و السخرية منها.»⁶⁵⁴

ظل مخلصاً لمبادئه، صامتاً عن خيبة أمه، ممزقاً بين الأفكار المثالية و الآمال التي بنى عليها مفاهيمه و موقفه من الحياة و بين ما كان يحدث على الساحة السياسية في العراق! آمن بالإنسانية و الفكر الإنساني، اللذين أصبحا هويته، و ظل قلمه يضيء العتمة التي عمت في بلديه لبنان و العراق.

عرف العذاب عن كثب، و دافع عن الشعب المقهور في كتاباته على صفحات الجرائد و المجلات، و طورد و سجن من أجلها. قضى معظم حياته في سبيل الدفاع و الكفاح من أجل تحرير الإنسان من قيوده و فك أغلاله من الاستغلال! كان يحلم أن تلك الأغلال ستتقلب إلى أكاليل من الزهور، و لكنه ظل حتماً بعيد المنال، فقد أصبح الشعب يعيش في سجن محكم الأبواب، مفاتيحه بيد سجانیه!

كان مترفعاً طوال حياته عن ملذات الحياة الزائلة، يقاوم الشهوات و يضحى بمتع الحياة التي يتغنى بها الشباب، فقد كان حبه في صباه لقريبته مريم حياً أفلاطونياً، كحب دانتي إلى بياتريس. لكنه عاش في الفترة الأخيرة من حياته، يعاني من الإحباط الفكري، و خيبة الأمل فيما كان يصبو إليه من رخاء و رفاه للبشرية التي آمن بها.

خلت الدنيا من والدي و أصبحت معتمة كالحة، و أنا أسوق سيارتي متجهة إلى دار أختي حياة، أفكر في مصيره، أردد بحسرة، أهكذا ينتهي الإنسان؟ و يصبح ذاكرة في مخيلة أحبائه المقربين، و تتلاشى الذاكرة تدريجياً و تبهت و تزول في دهاليز الزمن، و تطفو ثانية عندما نمر بأحداث مشابهة؟ فما الحياة إلا محطة نتوقف فيها، منذ أن يولد الإنسان و يبدأ رحلته و هو في انتظار النهاية، ذرة من غبار هذا الكون الشاسع لا تستقر حتى تدرىها رياح الموت العاتية.

* * *

654 - "محمد شرارة كاتباً و إنساناً"، د.حسين مروة، وجوه ثقافية من الجنوب، دار بن خلدون 1982، ص

وضع النعش الخشبي البسيط على سطح سيارة تاكسي، ملتفة حوله الحبال البيضاء، بدل السيارة السوداء المخصصة لنقل الجنازة،⁶⁵⁵ يحيط بنعشه باقات الزهور، لكننا ما زلنا بدائيين في إقامة الطقوس على موتانا و ليس هنالك هالة من الاحترام حتى في الموت! تحرك التاكسي مع عدد قليل من السيارات التي رافقتها، عيني شاخصة بنعشه، تتابع الجنازة حتى غابت و اختفت عن ناظري، أتممت: بيتاً من قصيدة له نظمها قبل عقد بوفاة شقيقته خديجة: « ماذا أقول و النعش يحمل ما ادخرت من الحنان إلى التراب! »

اتخذ الدكتور "محمد"، زوج أختي حياة على عاتقه مسؤولية القيام بالطقوس التي تتعلق بدفن الجنازة، و هي طقوس سريعة. فقد قضى الوالد نحبه في المستشفى في التاسعة و الربع ليلاً، و نقلت جنازته من المستشفى إلى مئواه في مدينة النجف في صباح اليوم التالي. و صلى عليه في الجامع الذي اكتحلت عيناه به لأول مرة عندما حل في المدينة صبيلاً في الرابعة عشرة من عمره و جلس في حلقة ينصت إلى أستاذه عبد الكريم الجزائري، ثم رفع النعش على المناكب لمئواه الأخير في مقبرة وادي السلام.

أقيمت شعائر الوفاة في حسينية الكاظمية، و حضرها ولداه إبراهيم و جهاد و صهره محمد صالح لثلاثة أيام، و انتهت الشعائر في اليوم الثالث بوليمة عشاء! أما النساء من المعارف و الصديقات و الجيران فتجمعن في دار شقيقتي حياة، لسبعة أيام، و انتهت الطقوس بوليمة عشاء أيضاً! طقوس ينتهي بها الإنسان و يصبح نكراً من بين سلسلة من الذكريات!

و أقيم له في لبنان تأبين شارك فيه الشاعر ميشال سليمان، و الدكتور علي سعد، و وضاح شرارة، و أحمد الزين و غيرهم.⁶⁵⁶

655 - استوردت في تلك الفترة، أمانة العاصمة سيارات خاصة بنقل الجنائز، من حيث الشكل و اللون. غير إن العراقي اعتبر استعمال سقف التاكسي تقليد يتعين الالتزام به، بالرغم من ألوان و عتق التاكسي. بينما استعملت السيارات الخاصة بالجنائز من قبل الفقراء فقط. (ب.ش)

656 - بعض مقاطع من كلمة "أحمد الزين" في تأبين محمد شرارة عام 1979. و هو ابن أخ زوجته: « منذ أربعة أشهر، يوم التقيته آخر مرة في بغداد، كانت نفسه حزينة، و كان لهبُ إيمانه المتوقد قد بدأ يخبو. كان يتعذب، لا من داءٍ ولا لآلم في الجسد. كان يعيش بمرارة، و بصمت مقهور، مأساة نموذجية، عائلية في أشخاصها، عامة في أبعادها. من خلالها كان يجدد يومياً معاناته لمأساة الأنظمة العربية الراهنة، بكل ما في هذه المأساة - الملهاة من انهيارات و فواجع.

كان كثير من أمثالنا في العراق يدفنون موتاهم في تلك الفترة العصبية التي كان يمرّ بها أهل العراق من المآسي. ذهبنا - أختي حياة و أخي جهاد و أنا- إلى زيارة قبره في مقبرة دار السلام في مدينة النجف، بعد مرور أربعين يوماً على وفاته. كانت هي الزيارة الثانية لي بعد وفاة والدتي. دخلنا مقبرة وادي السلام في النجف، مقبرة مخيفة بحجمها الهائل، امتداد قبور متلاصقة و متشابكة أحياناً، لا يزيل ذلك التشابك و التداخل إلا الشوارع التي فتحت في قلبها. سرنا في شوارعها حتى وصلنا القبر. كان قبره بجانب قبر والدتي التي لحق بها بعد عقد من وفاتها. مقبرة عارية من الأشجار التي تزين مقابر العالم. مقبرة النجف، "مقبرة موحشة" كما كتبت عنها شقيقتي حياة، مقبرة إلا من حشجة بكاء الذين فقدوا أعباءهم، أصداء النحيب تصل أسماعنا خلال الفضاء الواسع. و كتب محمد شرارة:

« و الموت الذي يخطف الأحياء يتقاضى ثمناً باهظاً عن الفرحة التي قدمتها الحياة ساعة الميلاد، بل إن أفراح الدنيا كلها لا تساوي قطرة واحدة من أسى المحزون الذي يصبه عليه موت الأحباب و الأصدقاء. و إذا كان التقاضي بهذه الضخامة فأى فرق بين بكاء الحمامة و غنائها ما دام الغناء قطرة صغيرة من الابتسام في بحار بلا سواحل من الدموع؟!»⁶⁵⁷

« كانت مأساته الشخصية، تتغذى من المأساة العامة. كما كانت مأساته العامة، أعني معاناته للمأساة العامة، تأخذ أبعداً مباشرة و حية، من مأساته الشخصية. و قبل المأساة، و مع عذاباتها و أوجاعها، كانت تتوالى في وجدانه الحي، سلسلة من الخيبات و الصدمات: لأنه باستقامته و صدقه و إخلاصه، و من خلال تجاربه الشخصية الحافلة، كان يكتشف الزيف و الانحراف في مجرى أمور عامة كثيرة. و مع كل اكتشاف، كانت آفاق الأمل تضيق، و أبواب الفرج توصلد.

« لقد عمل "أبو إبراهيم" للغد المشرق، و ضحى و غنى له، و تغزل به. و إذا بهذا الغد، يكشر له، و هو على عتبة السبعين من عمره، عن أيام مقترسة فنكت بقضايا و نهشت أحباباً.

« يوم النقيته منذ أربعة أشهر، لم يستشهد، كعادته بيت شعر واحد؛ و لا روي من التراث العربي الإسلامي، كعادته في الحديث أيضاً، حادثة تكشف بعداً إنسانياً عميقاً، أو قلماً حضارياً ثرياً. «كان "أبو إبراهيم" قد صمت مكتوباً.

« بلى حدثني عن الاستبداد في التاريخ الإسلامي، و حدثني عن الديمقراطية و الحريات و كرامة الإنسان. ثم مات أبو إبراهيم ... مات قهراً ... و مات احتجاجاً.»

⁶⁵⁷ - " أبو العلاء و الدروب الضائعة" كتاب "نظرات في تاريخنا القومي" محمد شرارة، المؤسسة العربية للدراسات و النشر - بيروت، 1982، ص - 67

نظرت إلى المساحات الشاسعة في تلك المقبرة، و شعرت بتنافس الأموات الدائم مع الأحياء في تلك المدينة، مدينة الأموات، فهي تاريخ العصور التي مرت، و سجل لمدينة النجف. قبور ترتفع فوقها شواهد من الجبس الأبيض كأنها تماثيل تجريدية مخيفة، شاخصة فوق الأموات تعرفنا بأسمائهم و أعمارهم. تقطع رتابتها قبب صغيرة زرقاء و خضراء اللون لعائلات النجف المعروفة. قبور منسية نمت بينها نباتات من الأعشاب الصفراء التي ذوت من العطش، و انقلبت إلى أشواك، و أزهار ذابلة متناثرة بين القبور الجديدة، و قبور محاطة بقضبان حديدية غطتها قشرة الصدأ و تأكلت مع الزمن.

يغدق الأحياء عواطفهم على أمواتهم بقبور من الرخام الأبيض و الأسود و في بناء غرف ذات قبب مزججة و مزخرفة ذات سياج، تدل على منزلة و رتبة الميت و طبقتة. فالبشر غير متساوين حتى في الموت!

وقفت أمام قبره، أحدثه في أعماقي عن خسارتي و عن الفراغ الذي تركه في حياتي و حياة الآخرين من المحبين له، فقد ذابت حياته في صراع متواصل مع السلطة، صراع لا يعرف الوهن أو الضعف، بل ظل في قلب العاصفة. حدثته و كأن الأموات يسمعون و يصغون لحديثنا أو بكائنا، فنحن نحدث أنفسنا و نصغي إلى كلماتنا و نسمع حشجة بكائنا. لا زال تراب قبره هشاً، رفعت حفنة من التراب الذي ضم جسده، عصرتها بيدي، و تتأثرت ذراتها على وجهي و ملابسي.

أصبح والدي لائحة من الجبس محفور عليها اسمه و تاريخ ولادته و وفاته. سألت شقيقتي "حياة" أحد حراس المقبرة: متى ستوضع بلاطة الرخام المحفورة باسمه؟ أجابها بعد الانتهاء من بناء قبره. و سألت نفسي بصمت أمام قبره في المقبرة الشاسعة المخيفة بضخامتها، هل هذا القبر أو الحفرة التي رقد و استقر جثمانه فيها خاصة به؟ ألم يشارك الأموات الغرباء من قبله في هذه الحفرة؟ و كم من الأموات اشتركوا في القبر نفسه، خلال العصور التي مرت؟ و هل هنالك فارق؟ بعد أن أصبحت جميعها جنثاً هامدة و وليمة للديدان، التي التهمتتها و لم تبق منها إلا هيكل عظيمة!

و أصدق قول هو بيت أبي العلاء المعري الذي كتب عنه الوالد:

رب لحد قد صار لحداً مراراً
ضاحك من تراحم الأضداد

« الموت متحرك دائماً و في كل لحظة يقوم بعملية تصفية تحول الناس إلى تراب حتى فقد التراب أصوله الأولى و عاد بشراً في زي التراب، فكل لحد تكرر، أو تكرر، على الأصح، ما ألقى فيه من أجساد. و الأجساد بدورها تتحول حتى أصبحت كل ذرة ترابية مجموعة تحولات من مجموعة أجساد لا من جسد واحد. و قد تتلاقى الأضداد في الذرة الواحدة من حب و بغض و عشق و كره و ملك و صلعة إلى ما شاءت الأضداد و شاء لها التلاقي العجيب.

« فإذا انجلى هذا الواقع و اتضحت رؤيته فلا تبقى الأرض أرضاً ... بل كانت شيئاً آخر ... كانت آباءً و أجداداً و إخواناً و أخوات. أو خدوداً و عيوناً تضيء إضاءة شاحبة في ظلمة الأبدية.»⁶⁵⁸

هكذا أصبحت جثة و الذي وليمة جديدة للديدان في تلك الحفرة الباردة التي توارى جثمانه فيها. شارك و الذي عشرات الجثث من قبله في هذه القطعة من الأرض التي أطلق عليها قبره! و بكى و ندب قبلنا في هذا المكان عشرات الناس موتاهم الذين شاركهم الآن بهذه الحفرة التي سميت قبره! نام نومته الأبدية، و شعرت بحجم الخسارة و الذعر و الخوف عليه، و لكن الجثة الهامدة لا يهمها أين ترقد، فلن يبقى أثر لشيء، و الزمن يجرف بتياره كل شيء و يدفنه في هاوية النسيان.

عدت كئيبة بعد زيارتي مقبرة "دار السلام" في النجف، دخلت الدار، صمت رهيب يهيمن عليها كصمت القبر، شعرت بالفراغ يبتلعني، صور مضطربة في مخيلتي، مشحونة بالحزن و فقدان. رفعت يدي إلى و جهي أتحسسه، أتلمس ذرات التراب التي التصقت عليه، كنت أرغب في أن تبقى ملتصقة على و جهي. الهواء ثقيل كتقل الصمت الذي يحيطني، و رائحة الموت تطغى على كل ما فيه. و الحر الشديد و العرق المتصعب من وجنتي، دفعتني نحو الحمام. صعدت الدرج ببطء، لا اسمع إلا صدى خطواتي، و غسلت آخر ذرة من تراب قبر و الذي. و وجدت نفسي أتمتم بقصيدة نظمها و الذي عندما فارقت و الدتي الحياة:

« رجعت و ساحتي الظلمات و الأحزان أجراسي
أفتش في ندى الأزهار
عن (بسماته)..عني

فلم أعرّ على أحد.. و لا شيء سوى صوتي»⁶⁵⁹

كنت أمرّ في أزمة نفسية هدت كياني، بعد أن حكم على زوجي في السجن المؤبد، ولكن رغم تراكم الفواجع و تكاثف غيومها حولي، ظلت كلمات والدي تطن في أذني، فقد علمنا إن الحياة جبل شاهق، لا نفتأ في صعوده حتى تواجهنا العثرات التي علينا مجابعتها بعزم و صبر. إذ كانت حياته مثلاً لنا نحن أولاده و بناته، فقد علمنا الصبر و الصلابة في مواجهة مشاكل الحياة.

قطع رحلة الحياة الطويلة، و اتخذ الدرب الوعر و حاول عبوره و تخطي المصاعب و المطبات بصلابة و عناد، و لكن انتهت حياته و لم تتحقق أحلامه و آماله، و ظلت بعيدة المنال!! لذا أصيب بالخيبة و الإحباط في الوجود في آخر أيام حياته!

إن الحياة التي عاشها محمد شرارة هي أشبه ما تكون بالمأساة التي عاشها العراق - و لا يزال يعيشها - عراق الثورة و السجن و الغربة و الخيبة و الألم و الضياع!⁶⁶⁰

* * *

مرّ أكثر من عقد على وفاة محمد شرارة، عندما اندلعت حرب الخليج. عشت بعيدة عن الوطن في تلك المحنة، أشاهد المأساة التي خاضها أهل العراق من خلال شاشة

659 - في القصيدة (بسماتها) و قد حولتها إلى (بسماته)، كتب هذه القصيدة بتاريخ 1970/10/25 و بعثها في رسالة إلى أبنته مريم. (ب.ش)

660 - بعد وفاة محمد شرارة بخمسة أيام، أي في 1979 / 7/16، تولى صدام حسين السلطة بعد أن أجبر أحمد حسن البكر على التنحي عن رئاسة الجمهورية. و أقدم بهذه المناسبة و تخلص من معارضيهِ و خصومه بإقامة تراجيدية دموية، عرضت تلك التراجيدية المصورة بفيديو خاص على جميع أعضاء حزب البعث للاطلاع عليها، لتكون درساً قاسياً لكل من تسوّل له نفسه معارضته في المستقبل. (ب.ش)

« ففي شتاء 1978-1979، و أمام حشد من مندوبي وكالات الأنباء و الصحف و المجلات العالمية، قال الرئيس العراقي صدام حسين: "إن من يريد استلام السلطة في العراق سيستلم أرضاً بدون بشر»

"الدولة غير المثقفة"، كريم عبّ، المركز العربي للفنون الآداب، بلجيكا- بروكسل، الطبعة الأولى 1995، ص - 54

و قول صدام "إن من يريد استلام السلطة في العراق سيستلم أرضاً بدون بشر" هو شبيه بما قاله الدكتاتور فرنكو أثناء الحرب الأهلية في إسبانيا في الثلاثينيات: إنني مستعد للقضاء على نصف سكان إسبانيا، لكي أخلصها من الماركسية. هكذا يفكر الدكتاتور إن كان في العراق أو في أية بقعة أخرى من العالم، فالعقلية متشابهة سواء أكانت في إسبانيا أو في العراق. (ب.ش)

التلفزيون. أحس بألم دفين، و أنا في مدينة كمبرج الأمريكية، بعيدة عن شواطئ بلدي الذي ولدت و ترعرعت فيه، أحن إليه بالرغم من المأساة التي عاشها و يعيشها، و أشعر مقيدة لا استطع العودة إليه. فقد هاجرت مع الطيور المهاجرة، و شعرت أن العالم وطني، أبوابه مفتوحة أمامي إلا بوابة بلدي، فقد أوصدت بمزلاج ليست لي القدرة على اقتحامها. تركت وطني من أجل الحرية التي كنا نحلم بها - زوجي و أنا - و التي افتقدناها و حرمانا منها في أوطاننا.

بدأ عقد التسعينيات، بالهجوم على دولة الكويت و احتلالها من قبل الجيش العراقي، و بأمر شخصي من صدام. أصبح العراق الساحة الرئيسية، تتخذ المساحة المهمة من أخبار العالم يوماً. بدأت ساعة الصفر، و انهالت الصواريخ كالمطر بغزارتها على بغداد، و المدفعية المضادة ترد عليها بنفس الغزارة، سماؤها مضاءة بالنجوم المتلألئة أمامي لتتطفئ بعد لحظات، فندق الرشيد يرتج من هول قوة انفجار الصواريخ، و بينها يتراكم مراسلو المحطات الأجنبية في سطح الفندق ليتخذوا زاوية جيدة، ناديت بأعلى صوتي: رفعة! بدأت "قوات التحالف" في قصف بغداد! و عم صمت طويل بيننا!

هيمنت صور الدمار على بغداد، المدينة التي أحبها والدي، و نظم فيها و في نهرها القصائد، و كتب الرسائل الطافحة بالحنين عندما ابتعد عنها. فقد شلت المدينة، و قطعت شرايينها تدريجياً، و قصفت الجسور التي تربط ضفتيها، فبتر جسر باب الشرقي من بدايته، و بتر الجسر المعلق من وسطه، كما تبتر أذرع البدن، فتهاوت أحشاؤه في ماء دجلة، و اختفى معه تاريخه. الناس متجمهرون أمام الجسر، يحدقون بعيون الدهشة و الاستغراب، ينظرون إلى تاريخهم القريب كيف أنمحي أمام أعينهم.

لا نرى على شاشة التلفزيون إلا نقطاً تنفجر بدخانها الأسود المتصاعد في السماء السوداء، محاطة بخطوط بيضاء على شكل مربعات، صورت من قبل كاميرات الطائرات عن ارتفاع آلاف الأقدام، و أبعدت بذلك الحرب الحقيقية عنا، لا نرى من الدمار الحقيقي إلا جزءاً صغيراً عندما تسمح به الحكومة العراقية، و أصبحت الحرب لأول مرة "حرباً نظيفة" كما أطلقت عليها و سائل الإعلام في الولايات المتحدة! و شعر الشعب الأمريكي بالارتياح لهذا النوع من الحرب، فلم يشاهد معركة حقيقية على الأرض، و لا جثثاً أو أشلاء جنود أمريكيين، و لا الدم و الأنين

من سكان البلد، كما كانت هي الحال في حرب فيتنام، و إنما حرب أقرب منها إلى ألعاب الكمبيوتر.

و انتهت الحرب بعد ستة أسابيع، و فُرشت الإهانة بساطاً عريضاً، غطت به الشعب العراقي، عندما استسلم الجيش العراقي! حشود الآلاف من الجنود البائسين الجائعين المهانين، أُلْمَنَسِي الجباه، دفعهم اليأس إلى ركوع بعضهم في تقبيل يد جندي أمريكي، راكعين متوسلين تحت قدميه، و الجندي الأمريكي يسحب يديه، و قدميه، محاولاً التخلص منهم. ظلت صورة الذل و الضعة و الإهانة تعاد أمام أعيننا مرات و مرات، تخفي أحياناً لتعود ثانية، و تظهر على شاشات تلفزيونات جميع محطات العالم، فأشبح بوجهي كلما أعيدت تلك اللقطة، و أغمض عيني كي لا أرى صورة الذل المتجلية التي تعرض لها الجنود في حرب "أم المعارك"!

غطت السيارات و الدبابات المحروقة أراضي الكويت، الجنود و الناس محاولين الهرب، طابور من السيارات الهاربة من أرض الكويت، سيارات مكدسة بالأغراض و الأشياء التي حرموا منها في العراق!! شاهد "الحاكم المطلق" ما آلت إليه نتائج معركته من خسائر مادية و معنوية، فاننقم بكل قواه قبل تركه المعركة، و حول أرض الكويت إلى فرن كبير من المداخل الملتهبة، و حولت شعلتها الليل إلى نهار، و حول دخانها النهار إلى ليل، سألت الكتل الملتهبة في ماء الخليج، مدمرة كل ما هو حي، فقتلت الطيور و الأسماك و الحيوانات.

كان الأمريكيون يراقبون عن كثب ما يحدث في العراق، شاهدوا حشود الناس، إنها ثورة عارمة، ثورة الشعب على الحاكم المستبد. و لكن هدفهم كان انقلاباً عسكرياً و ليس ثورة شعبية! تغيرت الخطة حالاً، و سمح "للحاكم" في استعمال طائرات الهليكوبتر "الأبأشي". و انقلب الفأر إلى نمر، فالحاكم غاضب جائع إلى اللحوم البشرية التي ثارت عليه! و كأنما التاريخ يعيد نفسه في أرض العراق المطلخة بدماء المذابح، التي ارتكبت في حقه.

طارت طائرات "الأبأشي" بصواريخها المدمرة، فعبثت بأرواح الناس، و سألت الدماء داخل الحضرة، و دمرت الأسواق و البيوت المحاذية لمركدي العباس و

الحسين و أزيلت ملامح مدينة كربلاء التي حلتها عشرات القرون، و ساد الصمت على المساحات الواسعة، التي ضمت بقلبها قصص الموت و الدمار، و ظلت قصصاً بلا رواية، يتيمة خرساء بين أطلال المدينة.⁶⁶¹

و "الحاكم" يللم جراحه، بعد معركة "أم المعارك" و ينتقم من شعبه، أحياء و أموات. سارت البولدوزرات/ جرّافات لشق الطريق، في مقبرة "وادي السلام" في النجف، شيئاً فشيئاً تتقدم في عمق المقبرة، تجرف أمامها القبور التي بدأت تتلاشى من الوجود، ففُطعت المقبرة و جزئت كما تقطع أشلاء جثة الخروف. و فتحت الشوارع الواسعة في داخلها، و محيت قبور كثيرة، كان من بينها قبراً والدي و والدتي.

شعرت بوخز الألم الدفين في أعماقي، و انسابت الذكريات، و طفت صورتاهما في نفق الذاكرة، و وجدت نفسي أسألتها: ما ذنب الموتى، ليعاملوا بهذه القسوة! و تصب السلطة سموم غضبها على عظامهم؟

تلاشى الصمت المهيم على الأموات، فجو الحاكم مشحون بالضجيج و الانتقام، قتل "البولدوزر" السكون الذي سلطه في تدمير و تفتيت القبور، و محي تاريخها من الوجود!

و مثل أمام ناظري "البولدوزر" في مدينة النجف، و قفت أمامه أبحث عن لحد والدي، في صمت المقبرة الموحشة الواسعة التي طمست معالم قبriهما! أفتش عما تبقى من قبriهما. و قفت أمام كمامشة "البولدوزر"، و هي تجرف عظام الموتى الممزوجة بتراب الأرض. كومة من العظام الممزوجة بالتراب و ثلثة من الرخام، ترتفع و ترتمي أمام ناظري، كومة فوق كومة، و يبرز بقايا اسم، و بقايا قصيدة مكتوبة على الرخام الأبيض، تتلوى و تتكسر بين أنياب "البولدوزر". و قفت في

661 - « في أواخر نيسان لاحظ مراسلون غربيون خلال زيارة نظمتها لهم الحكومة العراقية إلى كربلاء، التي يوجد فيها مرقد الحسين و العباس، انه على امتداد 500 ياردة في كل اتجاه حول الضريحين كان الدمار يذكر بلندن في ذروة الحرائق التي أشعلها القصف الألماني فيها خلال الحرب العالمية الثانية ... لقد قررت الحكومة محو الكثير من كربلاء و إعادة بنائها. و رغم إن القسم الأعظم من الأضرار التي لحقت بالعتبات المقدسة قد أصلح بحلول أيار 1992 فان الأسواق الموجودة حولها لم تعمر. و من المحتم أن يسفر مشروع توسيع و تطوير المنطقة المحيطة بالعتبات المقدسة" عن تغيير الكثير من عمارة كربلاء.»

"شعبة العراق" أسحق نقاش، منشورات دار المدى للثقافة و النشر - دمشق 1996، ص- 510

صخب قبضته العنيفة التي أضاعت قبريهما! أفتش بين أشلاء القبور، تبحث عيني عن اسم والديّ بين التراب و بقايا الرخام المفتت!!⁶⁶²

في هذه الفترة التي دُرس فيها قبر محمد شرارة في مقبرة وادي السلام في مدينة النجف، و مُحي أثره من الوجود، انهار صرح مهم في العالم، و هو الاتحاد السوفيتي. انهار كدولة كانت تقارع الولايات المتحدة بجبروتها و عظمتها من الناحية العسكرية. و لو لم تُوفِّهِ المنية و كان حياً لتعرض إلى أكبر إحباط في حياته، فقد انهار الاتحاد السوفيتي الذي كان يمثل المعسكرين الشيوعي و الاشتراكي، و الذي بُنيت عليه آمال الأحزاب الشيوعية في العالم، في تخليص البشرية من الآفات التي ابتلت بها، من الظلم و التعسف و الفقر و الجهل، انهارت هذه الدولة بالسرعة التي ينهار فيها بيت من ورق.

و لو كان محمد شرارة على قيد الحياة، فلن يكون له إحباطاً و حسب، و إنما زوال رؤية متكاملة للوجود رافقته أربعين عاماً من عمره. إنه زوال البناء الذي كان يؤلف هذه الرؤية و الفكرة الإنسانية الرفيعة التي آمن بها، و ضحى من أجلها. لقد زالت هذه الرؤية مع زوال نظام الاتحاد السوفيتي. نعم لقد زال من الوجود ذلك البناء الفكري، الذي عاش من أجله و كتب عنه و وصفه و الذي منحه، متعة و حيوية و أملاً لحياة أفضل لكافة البشر.

« فالإنسان لا يمتلك في دماغه رؤية لوجود يتضمن الحاضر و إنما هي رؤية تكون دائماً إما لذاكرة الماضي و إما تخطيط لرؤية المستقبل. و يؤلف الإحباط حالة

662 - « و يمكن التعرف على تراجع موقع الإسلام الشيعي في النجف من تقرير قدمه إلى لجنة حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة ماكس فان دير ستويل Max van der Stoel، وزير خارجية هولندا السابق الذي زار النجف في كانون الثاني 1992. فقد لاحظ ستويل تهديم فدانان عديدة في مقبرة وادي السلام المقدسة الشهيرة و شق طريق خارجي فوق القبور، و هو عمل بدأ من أعمال التنديس المتعمدة من جانب الحكومة.»

شعبة العراق" أسحق نقاش، منشورات دار المدى للثقافة و النشر - دمشق 1996، ص 510 - 511

- و قد زارت شقيقتي مريم المقبرة في الشهر ذاته من سنة 1992، و كتبت لي:

« ذهبنا إلى مقبرة وادي السلام أولاً فوجدنا مكاتب الاستعلامات قد هدمت كلها، ثم وجدنا دفان والدتي و والدي في مكتب الاستعلامات الموقت، و أخذنا إلى ضريحيّ الوالدين، و لكن لم يبق لهما أثر كما حدث ذلك للآلاف من القبور. وجدنا أنهم شقوا شوارع فرعية في الشارع الرئيس في المقبرة، هنالك مكائن "البولدوزر" التي تعطلها قبل التبليط. و قد شاهدتها بعيني.»

رسالة بعثتها لي مريم شرارة بتاريخ 1992/1/12، عندما كنت أظن في بوسطن في الولايات المتحدة.

عرضية آنية بين الاثنين، الماضي و المستقبل، حيث يصبح المستقبل ليس كما يرغب الإنسان في رؤية الوجود، و هو ضياع لا يمكن التغلب عليه في واقع الوجود و إنما يبقى أملاً في تلك المخيلة التي تتضمن هيكل المستقبل.⁶⁶³»
و التي كتب عنها محمد شرارة في رسالة إلى أحد أصدقائه بأسلوبه الشعري:
« إذا تحولت الحياة إلى ماض غارق في أحشاء الأبدية، انقلب إلى نكري، أو لا يبقى منها سوى الذكرى، و إذا أطلت على الغد النائم في أحشاء الغيب كانت حملاً، و بين الحلم و الذكرى يمد الأحياء ذلك الشريط الذي يستمد ألوانه المختلفة من عناصر الحياة المختلفة.»

فقد مرت حياته في سلسلة من الإحباطات، الإحباط الذي واجهه محمد شرارة في خسارة ما تبقى من فلسطين في عام 1967، و التي نظم فيها سبع قصائد، و كتب عدداً من المقالات، و كان الإحباط الذي عاشه في بلده لبنان عندما اندلعت الحرب الأهلية، و اقتات أهلها بعضهم البعض في التدمير و القتل الذي حصد آلاف الضحايا، و الإحباط الذي أصابه عندما هيمنت سلطة العائلة التكريتية على مفاصل الحياة في بلده الثاني العراق، و سجن و عذبت و قتلت أعضاء الحزب الشيوعي باسم التعاون معهم في جبهة وطنية موحدة. كل هذا لا يمكن مقارنته - لو كان محمد شرارة على قيد الحياة - بإحباط فكر و أيولوجية تبناها و ضحى من أجلها طيلة حياته، أدت إلى انهيار تكوين ذلك المجتمع اليوطوبي، و زوال هيكل الوجود المستقبلي، إذ إن زوال البناء المستقبل هو زوال المستقبل نفسه، حينما انهار الاتحاد السوفيتي!

* * *

و هكذا بعد جولة مليئة بالحب و العاطفة، دامت نصف قرن مع محمد شرارة، تعرض خلالها إلى الإحباط و العوز المعيشي و معاناة قسوة السلطة، فلم يعجز يوماً عن مجابهة التحديات بموقف أخلاقي و عاطفة جياشة و لغة شعرية، و ما حمل هذه السيرورة و قادها في مختلف تعرجات الحياة هو العقل.

663 - حديث مع رفعة الجادجي بتاريخ 2008/3/2

- 1- صفحات من تاريخ العراق المعاصر، تشارلز تريب، بحث موثق في تاريخ العراق المعاصر منذ نشوء الدولة الحديثة حتى أواسط 2002، ترجمة: زينا جابر إدريس، الدار العربية للعلوم، 2006
- 2- العراق المعاصر، د. عبد الوهاب حميد رشيد، دار المدى، دمشق- سوريا، الطبعة الأولى 2002
- 3- نوري السعيد - رجل الدولة و الإنسان، د. عصمت السعيد، الناشر: مبرة عصام السعيد - لندن، 1992
- 4- الرسالة العراقية في السياسة و الدين و الاجتماع، معروف الرصافي، منشورات الجمل، الطبعة الأولى 2007
- 5- "العراق في عهد عبد الكريم قاسم، تاريخ سياسي 1958- 1963"، أوريل دان، ترجمة: جرجيس عبد الله، دار نبر للطباعة، السويد- 1989
- 6 - حقوق الإنسان في العراق، من تقارير المنظمة العربية لحقوق الإنسان، الزهراء للإعلام العربي، 1990
- 7 - تاريخ العنف الدموي في العراق، باقر ياسين، دار الكنوز الأدبية، بيروت- لبنان، 1999
- 8 - ملامح سياسية و حضارية في تاريخ العراق الحديث و المعاصر، د. طارق نافع الحمداني، الدار العربية للموسوعات، الطبعة الأولى 1989
- 9 - من هو العراقي؟ إشكالية الجنسية و اللانجسية في القانونين العراقي و الدولي، د. حسين شعبان، دار الكنوز الأدبية - بيروت 2002
- 10 - العراق - نشأة الدولة، د. غسان العطية، منشورات دار اللام - لندن 1988
- 11 - الدولة غير المتقفة، كريم عبّ، المركز العربي للفنون و الآداب، بلجيكا - بروكسل، الطبعة الأولى 1995
- 12 - "صراع المنابر الفكرية في العراق 1946-1947"، فاروق صالح العمر، الدار الجامعية للطباعة و النشر و الترجمة، فرع البصرة، 2002
- 13 - أعلام السياسة في العراق الحديث، مير بصري، رياض الريس للكتب و النشر - لندن، 1987
- 14 - شيعة العراق، اسحق نقاش، ترجمة: عبد الإله النعيمي، منشورات دار المدى للثقافة و النشر - دمشق، الطبعة الأولى 1996
- 15 - "عبد الكريم قاسم - رؤية بعد العشرين"، حسن العلوي، دار الزوراء- لندن 1983

- 16 - عراق 8 شباط، من حوار المفاهيم إلى حوار الدم: مراجعات في ذاكرة طالب شبيب، د. علي كريم سعيد، دار الكنوز الأدبية، بيروت، الطبعة الأولى 1999
- 17 - العراق: البيروية المسلحة، حركة حسن السريع و قطار الموت 1963، د. علي كريم سعيد، الفرات للنشر و التوزيع، بيروت- لبنان 2002
- 18 - من يصنع الديكتاتور؟ (صدام حسين نموذجاً)، سلام عبود، منشورات الجمل، كولون - المانيا، 2008
- 19 - ثقافة العنف في العراق، سلام عبود، منشورات الجمل 2002
- 20 - العراق شهادة سياسية 1908-1930، حسين جميل، دار اللام، لندن 1987
- 21 - تاريخ الحزب الوطني الديمقراطي، كامل الجادرجي، منشورات الجمل، الطبعة الثانية 2004
- 22- الأهالي- كامل الجادرجي في حق الممارسة السياسية و الديمقراطية، افتتاحيات جريدة "الأهالي" 1944-1954، و تنشئة النظام الديمقراطي و إحباطه في العراق، رفعة الجادرجي، منشورات الجمل 2003
- 23- من الذاكرة - سيرة حياة، صالح مهدي دكلة، دار المدى للثقافة و النشر، الطبعة الأولى 2000
- 24- مذكرات بهاء الدين نوري - سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي، دار الحكمة - لندن، الطبعة الأولى 2001
- 25- سلام عادل - سيرة مناضل، ثمينة ناجي يوسف و نزار خالد، دار المدى للثقافة و النشر، الطبعة الأولى 2001، مجلدين 1 و 2
- 26- أوكار الهزيمة، هاني الفكيكي، رياض الريس للكتب و النشر، 1993، لندن
- 27 - مذكرات فؤاد عارف، الجزء الأول، تقديم و تعليق د. كمال مظهر، الطبعة الأولى، مطبعة خه بات- دهوك 1999
- 28 - مذكرات نوري السعيد عن الحركات العسكرية للجيش العربي في الحجاز و سوريا 1916-1918، الدار العربية للموسوعات، بيروت - لبنان، 1987
- 29 - ديوان نازك الملائكة، المجلد الأول و الثاني، دار العودة - بيروت 1997
- 30- ديوان بدر شاكر السياب - الأعمال الشعرية الكاملة، المجلد الأول و الثاني، دار العودة - بيروت 2000
- 31- عودة الربيع و الزاوية الخالية، شعر: لميعة عباس عمارة، الناشر: عمارة الطبعة الثانية- بيروت 2001
- 32- ديوان الجواهري، بيسان للنشر و التوزيع و الإعلام - بيروت 2000، خمس مجلدات.

- 33- ديوان بلند الحيدري- الأعمال الكاملة للشاعر، دار سعاد الصباح - القاهرة، الطبعة الأولى 1992
- 34- بدر شاكر السياب- حياته و شعره، د. عيسى بُلّاطة، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، الطبعة السادسة 2007
- 35- صفحات من حياة نازك الملائكة، د. حياة شرارة، رياض الريس للكتب و النشر - بيروت الطبعة الأولى، 1994
- 36- الجواهري - جدل الشعر و الحياة، د. عبد الحسين شعبان، دار الكنوز الأدبية - بيروت، الطبعة الأولى 1997
- 37- المتنبّي بين البطولة و الاغتراب، محمد شرارة، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، الطبعة الأولى 1981
- 38- نظرات في تراثنا القومي، محمد شرارة، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، الطبعة الأولى 1982
- 39 - إذا الأيام أسعقت، د. حياة شرارة، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت - 2001
- 40 - كنت شيوخياً، بدر شاكر السياب، دار الجمل، ألمانيا 2007
- 10 - حسين مروة "ولدت شيخاً و أموت طفلاً- سيرة ذاتية" في حديث أجراه معه عباس بيضون، دار الفارابي- بيروت، الطبعة الأولى 1990
- 42- و جوه ثقافية من الجنوب، "محمد شرارة كاتباً و إنساناً" حسين مروة، دار أبين خلدون - بيروت، 1981
- 43- محمد شرارة - الأديب و الإنسان، د. مصطفى بزي، إصدار: هيئة إنماء المنطقة الحدودية، الطبعة الأولى 1994
- 44- موسى الزين شرارة، الشاعر النائر، إحسان شرارة، رسالة دبلوم في الأدب العربي من INALCO من باريس، 2002.
- 45- حسن الأمين - رحالة و أديباً و مؤرخاً، إحسان شرارة، دار المنهل اللبناني - بيروت، الطبعة الأولى 2006
- 46- سوسيولوجيا الغزل العربي "الشعر العذري نموذجاً" د. الطاهر لبيب، ترجمة: مصطفى المسناوي، دار الطليعة - بيروت، الطبعة الثانية 1988
- 47- مستدركات أعيان الشيعة، حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات - بيروت 1987، المجلد الأول.
- 48 - "دولة حزب الله : لبنان مجتمعاً إسلامياً" وضّاح شرارة، دار النهار، الطبعة الثانية، بيروت- لبنان 1997

- 49 - ماضٍ لا يمضي - ذكريات و مكونات عراقية (1)، السيد هاني فحص، دار المدى للثقافة و النشر، دمشق - سوريا 2008
- 50- شارع طه و همرسمث - بحث في جدلية العمارة، رفعة الجادرجي، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت- لبنان، 1985
- 51- الأخيضر و القصر البلوري، رفعة الجادرجي، دار رياض الريس للكتب و النشر، لندن - قبرص، 1991
- 52- جدار بين ظلمتين، بلقيس شرارة و رفعة الجادرجي، دار الساقى، بيروت- لبنان 2003
- 53 - "حكيم الحكّام- من قاسم إلى صدام"، د. فرحان باقر، دار المدى، الطبعة الأولى، بيروت 2008
- 54- A History of Cooks & Cooking, Michael Symons, Prospect Books, 2001, printed in Great Britain at the Cromwell press.

- 1 - "بلند الحيدري و إغواء الفلسفة"، حسين الهنداوي، مجلة النزوى، عدد 52، 2008
- 2 - "قصيدتان متماثلتان بين نازك الملائكة و سعيد عقل...تأثر فاضح أم افتتان مشترك بالموت؟" شوقي بزيع، جريدة الحياة 2007 /6/25
- 3 - " عبد الواحد لؤلؤة و الموصلية في هجرته: أقول المعنى في الشعر الجديد، ينفي عنه صفة الشعرية"، حاوره: محمد عبيد الله، مجلة النزوى عدد 38
- 4 - " مدارات - الطريق إلى بنت جبيل" أونيس، جريدة الحياة 2006/10/20
- 5 - " محاولة لتاريخ جديد في الشعر العراقي - حكايات من "الصالون" الأدبي الذي ولد فيه الشعر العربي الحديث"، زهير ماجد، مجلة "بيروت المساء"، الجمعة 21 حزيران 1974
- 6 - " في ذكرى الأولى لرحيل "عاشقة الليل"... نازك الملائكة الشاعرة المجددة التي و قعت في شرك التقليد"، ماجد السامرائي، جريدة الحياة 2008/6/30
- 7 - "تلك أيام خلت" د. حياة شرارة، مجلة الأقلام - العدد التاسع - أيلول 1989
- 8 - "مسيرة شاعر منفي داخل نفسه و خارجها" حسونة المصباحي، جريدة العرب، 2007/7/19
- 9 - " ذكريات مع نزار مروة: عن الكاظمية و السياب و مرحلة الأربعينيات" كريم مروة، جريدة السفير 1992/6/3
- 10 - "الشيخ عارف أحمد الزين مؤسساً" حسان الحلاق، جريدة النهار 2008/6/10
- 11 - محمد شرارة، عبد المحسن القصاب، مجلة الهاتف، عدد 135، 1938
- 12 - "صناعة الموت"، رشيد الخيون، جريدة الشرق الأوسط، تشرين الثاني، 2007
- 13 - "المعلمان"، البروفسور ساسون سوميخ، مجلة الجديد، العدد 11-12، المجلد 34، كانون الأول 1985،
- 14 - ساسون سوميخ، جريدة المؤتمر، العدد 304، 18-24 أيار 2002
- 15 - "جنبلاط تلك ثقافته و هذه أبوابها" زهير ماجد، جريدة الجمهورية، 1977/3/22
- 16 - "متى تأسس البلاط الملكي العراقي؟" جريدة المدى، الثقافة الشعبية، 2008/7/6
- 17 - "المنتبى بين البطولة و الاغتراب" تقييم: خضر عباس الصالحي، مجلة العدل، العدد 17، 1982/4/24
- 18 - "أطياف السياب العراقية... و أفعاً و أسطورة"، ماجد السامرائي، جريدة الحياة 2004/12/23

- 19 - " ندوة الشعر الحر في بغداد الأربعينات: لحظات من الألب و الحب المستحيل"،
د. حياة شرارة، جريدة النهار، الملحق 1997/11/29
- 20 - مجلة "ترجس" مجلة نسائية اجتماعية عامة، العدد (10) كانون الثاني 2009

عناوين مقالات و قصائد محمد شرارة حسبما وردت في الكتاب:

- 1 - "مالك بن الربيب" محمد شرارة، نظرات في تراثنا القومي، المؤسسة العربية للدراسات و النشر - بيروت 1982، ص- 15
- 2 - "الشرقي و الإمامة اللاذعة" محمد شرارة، مجلة العرفان - نيسان 1978
- 3 - "دموع و دموع" محمد شرارة، مجلة الهاتف - النجف، أيار. 1938.
- 4 - "الرحيل" محمد شرارة، من دون تاريخ. (قصيدة)
- 5 - "القديم و الجديد" محمد شرارة، جريدة الهاتف - النجف، 1936/5/22
- 6 - "الأمواج الناطقة" محمد شرارة، مجلة العرفان ص 896-898، الجزء الثامن، المجلد الخامس عشر، لبنان 1928، و هو أول مقال نشر له.
- 7 - "يا ليل"، نشرت في مجلة العرفان، لبنان 1928 (قصيدة)
- 8 - "شيء من الشعر و الحياة _ في رحيل الصافي النجفي" محمد شرارة، مجلة العرفان 1977
- 9 - "عامل و المدارس (1)" محمد شرارة، مجلة العرفان الجزء الرابع، المجلد 18، تشرين الثاني 1929 لبنان.
- 10 - "عامل و المدارس (2)" محمد شرارة، مجلة العرفان الجزء 5، المجلد 18، كانون الأول 1929، لبنان.
- 11 - "حياة الأمم بحياة هداياتها"، محمد شرارة، مجلة العرفان، المجلد 18، تشرين الأول 1929 لبنان.
- 12 - "الأمني الضائعة" محمد شرارة، مجلة العرفان - لبنان، حزيران 1931 (قصيدة)
- 13 - "حياتنا و اتجاهها" محمد شرارة، مجلة العرفان - لبنان 1931
- 14 - "لغة الكأس" من صور الحياة، محمد شرارة، مجلة الهاتف - النجف، 1939/2/17.
- 15 - "الأهل و الحنين" المتنبّي بين البطولة و الاغتراب، محمد شرارة، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت - 1981، ص- 68
- 16 - "بلادي عاملة" محمد شرارة، مجلة العرفان بتاريخ تشرين الأول 1928
- 17 - "حياة الحب" محمد شرارة، مجلة الهاتف - النجف، 1938/7/29
- 18 - "الأبناء و البنات" محمد شرارة، مجلة العرفان - لبنان، عام 1975.
- 19 - "سهيل أو خلاف أيضا" محمد شرارة، مجلة الهاتف، العدد 83، 1936

- 20- "هل تتحط اللغة العربية عن غيرها في المنطق؟" محمد شرارة، جريدة الراعي - النجف، 1934/8/10
- 21 - "ما وراء الظواهر" محمد شرارة، مجلة الحضارة - العراق، 1938/5/1
- 22 - "الشعر و دلالاته على نفسية الشعراء و معتقداتهم، أصحيح هذا؟" محمد شرارة، جريدة الراعي - النجف، 1935/1/18
- 23 - "في الشعر" محمد شرارة، جريدة الراعي - النجف، 1935./2/1
- 24 - "بين الشام و بغداد في الصحراء" محمد شرارة، مجلة الحضارة - النجف، 1937/11/15
- 25 - "ذخيرة إنسانية.. تتوارى" محمد شرارة، مجلة الحضارة - بغداد، كانون الأول 1945.
- 26 - "باقر الشبيبي، خسارة وطنية .. كبرى"، محمد شرارة، جريدة "الحضارة"، 1960/6/25
- 27 - من ذكريات لبنان "سجون الأحرار"، محمد شرارة، جريدة الهاتف، 1936/9/4
- 28 - "حرية النفس و الثقة بها" محمد شرارة، جريدة الهاتف - النجف، 1936./6/19
- 29 - "الدرس الأدبي" محمد شرارة، مجلة الهاتف، 1939/5/26
- 30 - "الأدب العربي بين الصحراء و الرياض" محمد شرارة، جريدة الهاتف - النجف، 1939/7/21
- 31 - "ساعة رهيبية" محمد شرارة، جريدة الهاتف - النجف، 1936
- 32 - "غريب" محمد شرارة، جريدة الهاتف - النجف، 1936/3/7/11
- 33 - "المساء الكئيب" محمد شرارة، جريدة الهاتف - النجف، 1936
- 34 - "البلبل الصريع" محمد شرارة، مجلة الحضارة - العراق، شباط 1938
- 35 - حول الإصلاح الديني: "الموقف يحتاج إلى قيادة حازمة .. فأين هي؟"، محمد شرارة، جريدة الهاتف عدد 62، 1936
- 36 - "الشعاع الروحي في أفق المدرسة الروحية! أين هو؟ و ما هو مداه؟"، محمد شرارة، مجلة الحضارة، 1938/4/1
- 37 - في الجو المدرسي "في الدين و التاريخ"، محمد شرارة، مجلة الحضارة، عدد 7، تاريخ 1938/1/15
- 38 - "الرصافي و المتاجرون بالدين" محمد شرارة، العرفان، نيسان 1961
- 39 - "الشرقي و الإمامة اللاذعة" محمد شرارة، مجلة العرفان - نيسان 1978
- 40 - "القلب المحطم"، محمد شرارة، مجلة الحضارة، 1937/12/1 (قصيدة)
- 41 - "الروح الثائرة"، محمد شرارة، مجلة الحضارة، 1937/12/15

- 42- "النفس المطمئنة"، مجلة الحضارة، 1938/1/1
- 43- "ماذا في الجو الفلسطيني- فجر عابس..." ، محمد شرارة، مجلة الهاتف، العدد 355، بتاريخ 1936/9/18
- 44- "ليلة في القطار" محمد شرارة، جريدة الهاتف - النجف، 1936
- 45- "جنون الفرات"، محمد شرارة، مجلة الهاتف - النجف، 1938/7/1
- 46- "عيد العروبة"، محمد شرارة، مجلة الهاتف، 1938/9/18
- 47- "تحية"، محمد شرارة، مجلة العرفان، أيار 1932 (قصيدة)
- 48- "شاعرة الخمائل" مجلة العرفان، كانون الثاني 1938
- 49- في الأدب و الاجتماع "رسالة المرأة"، محمد شرارة، جريدة الهاتف، العدد 175، 1939/7/14
- 50- "روح معذبة"، محمد شرارة، مجلة العرفان، آذار، 1938 (قصيدة)
- 51- "الذكرى"، محمد شرارة، مجلة العرفان، تموز 1938 (قصيدة)
- 52- "يا قلب" مجلة الحضارة، آب 1938 (قصيدة)
- 53- "أماسي بغداد"، محمد شرارة، مجلة العرفان، كانون الأول 1938 (قصيدة)
- 54- "و هذا زواج"، محمد شرارة، جريدة الهاتف - النجف 1940/11/22
- 55- "الأدب و الحياة" محمد شرارة، جريدة الهاتف، العدد 232، 1940/9/6
- 56- "فراغ!"، جريدة الهاتف - النجف 1940/7/5 (قصيدة)
- 57- "أين أنت!؟" محمد شرارة، جريدة الهاتف - النجف 1940/11/29 (قصيدة)
- 58- "ورديتي!؟"، محمد شرارة، جريدة الهاتف- النجف، 1940/12/13 (قصيدة)
- 59- "الشرقي في رباعياته - شخصية الشاعر " محمد شرارة، جريدة الهاتف - النجف، 1939/4/28
- 60- "الشرقي في رباعياته - الوحي الشعري 1" محمد شرارة، جريدة الهاتف - النجف، 26 تموز 1940
- 61- "الشرقي في رباعياته - شاعر مجدد" محمد شرارة، جريدة الهاتف 1940/8/30
- 62- "قمرية على ربا غرناطة" مخطوطة: "تأملات في الأدب و الحياة"، محمد شرارة، مجلة العرفان - لبنان، 1972/7/15
- 63- "الجاحظ و أسلوب السخرية"، "تظرات في تراثنا القومي"، محمد شرارة، المؤسسة العربية للدراسة و النشر 1982، ص- 98
- 64- "قدر يلهو!" محمد شرارة، جريدة الساعة - بغداد، 1945./4/6
- 65- "وحي الحب" محمد شرارة، العرفان، شباط 1938، م 27، ج9، ص- 782
- 66- "غارة جديدة على أنصار السلام"، محمد شرارة، مجلة الوادي 1954

- 67 - أدب الساعة "امرأة و خيال" جريدة الساعة، بتاريخ 1945/4/10
- 68 - أدب الساعة، "المرأة أيضا!!" جريدة الساعة بتاريخ 1945/4/20
- 69 - أدب الساعة، "الجولة الأخيرة..."، محمد شرارة، جريدة الساعة، عدد 176،
1945/4/24
- 70 - "عنان. و السوط. و الشعر..!" نظرات في تراثنا القومي، محمد شرارة، المؤسسة العربية للدراسات و النشر - بيروت، 1982، ص- 94
- 71 - " الحربُ.. و الحبُّ.. و الموتُ و الشعر"، "نظرات في تراثنا القومي" محمد شرارة، المؤسسة العربية للدراسات و النشر- بيروت، 1982، ص- 79
- 72 - " في الريف" محمد شرارة، جريدة الساعة، 1946
- 73 - " شهامة!" محمد شرارة، جريدة الساعة - بغداد، 1945 /2/1
- 74 - نهلات طائر، "أديب" محمد شرارة، مجلة الحضارة، 1945/8/27
- 75 - "الطفولة الضائعة" محمد شرارة، مجلة الحضارة - بغداد، تشرين الأول 1945
- 76 - "شاعر و أغنية" محمد شرارة، "طريق الشعب"، 1977 /3/3
- 77 - " الخلود الأدبي" محمد شرارة، مجلة الاعتدال - النجف، آذار 1946
- 78 - "عشرون قصيدة من برلين"، محمد شرارة، جريدة الحضارة - بغداد، 19 أيلول 1959
- 79 - "عاشقة الليل.. و هل في الليل ما يعشق؟" محمد شرارة، مجلة العرفان - 1948
- 80 - " أغنية وداع إلى أوديسا"، محمد شرارة. (قصيدة)
- 81 - السماوي و ديوان "أغاني القافلة" محمد شرارة بتاريخ 1951/1/1 (مقدمة الديوان)
- 82 - "الرصافي جندي عنيد من جنود الحرية"، محمد شرارة، جريدة الأوقات البغدادية،
1951/3/20
- 83 - "دموع"، محمد شرارة، جريدة الأهالي - بغداد 1954، (قصيدة)
- 84 - قصيدة "تذراك"، محمد شرارة، جريدة "صوت الأهالي" بغداد 21 نيسان 1954
- 85 - قصيدة "حبيبان في السجن" محمد شرارة، ص- 22، مجلة "الثقافة الوطنية" -
بيروت، العدد (1) السنة السادسة، كانون الثاني 1957.
- 86 - "حصان المتنبّي يدعو إلى السلام"، جريدة "الأهالي" 1954/1/29
- 87 - "الجمال و الجنس"، محمد شرارة، مجلة العرفان - لبنان 1973
- 88 - "الحارث اليشكري يدافع عن قومه..". محمد شرارة، مجلة الثقافة الوطنية، العدد التاسع، السنة الرابعة، أيلول 1955
- 89 - "القوافي البائسة"، محمد شرارة، طريق الشعب 1977/3/6

- 90 - "متمم بن نويرة و مأساة أخيه" محمد شرارة، مجلة الثقافة الوطنية، العدد 8، السنة السابعة، كانون الأول 1958
- 91 - "موازين الحرية في قصص جبران خليل جبران" محمد شرارة، الثقافة الوطنية، 1958
- 92 - قصيدة "الفجر فوق بغداد" نظمها محمد شرارة بعد عودته من لبنان، و قد نشرت في "جريدة 14 تموز". 1958.
- 93 - "ثورة العراق - أهي الثورة الأولى؟"، محمد شرارة، جريدة السياسة، عدد 505، 1958/7/31
- 94 - نهلات طائر "أعراس الشهداء"، محمد شرارة، جريدة الحضارة 1959/3/21
- 95 - نهلات الطائر "متمرون..!"، محمد شرارة، جريدة الحضارة، 1959/3/14
- 96 - نهلات طائر "تمزيق القرآن"، محمد شرارة، جريدة الحضارة 1959/3/28
- 97 - نهلات طائر "معركة الإشاعات" محمد شرارة، جريدة الحضارة، 1959/6/27
- 98 - نهلات طائر "وراء الأكاذيب"، محمد شرارة، جريدة الحضارة 1959/4/18
- 99 - نهلات طائر "معركة الإشاعات!" محمد شرارة، جريدة الحضارة، 1959/6/27
- 100 - نهلات طائر "إننا نتحداكم"، محمد شرارة، جريدة الحضارة/ 1959/5/16
- 101 - نهلات طائر "دولة الاغتيال" محمد شرارة، جريدة الحضارة 1960/1/2
- 102 - نهلات طائر "حزب البعث"، محمد شرارة، جريدة الحضارة، 1960/2/6
- 103 - "باقر الشبيبي خسارة وطنية و أدبية"، محمد شرارة، الحضارة- 1960/6/18
- 104 - نهلات طائر "قال لي - " محمد شرارة، جريدة الحضارة، 1960/2/27
- 105 - نهلات طائر " حلوى .. و أطفال!" محمد شرارة، جريدة الحضارة، 1960/7/9
- 106 - نهلات طائر "حفلات.. و ماتم" محمد شرارة، جريدة الحضارة، 1960/7/23
- 107 - نهلات طائر "حماية الشعب" محمد شرارة، جريدة الحضارة، 1960/8/6
- 108 - نهلات طائر "كرامة المعلمين" محمد شرارة، جريدة الحضارة 1960/9/24
- 109 - "حيث تتحول الكلمة إلى موقف"، نظرات في تراثنا القومي، محمد شرارة، المؤسسة العربية للدراسات و النشر - بيروت، 1982
- 110 - "في العيد" محمد شرارة، 1963 (قصيدة)
- 111 - "الإبداع و الإحساس بالخيبة" محمد شرارة، مجلة العرفان - لبنان، أيلول 1965
- 112 - "عروة الصعاليك" نظرات في تراثنا القومي، محمد شرارة، المؤسسة العربية للدراسات و النشر - بيروت 1982
- 113 - "عنتره و أسطورة اللون" محمد شرارة، مجلة العرفان - لبنان، كانون الأول 1965

114 - "يا بلاد الوحي"، جريدة الهاتف، النجف 1939/7/28 (قصيدة)

115 - لا تخافي" محمد شرارة، مجلة الأقلام - بغداد 1970 (قصيدة)

116 - "لاجئة جديدة"، محمد شرارة، المثقف العربي، العراق، تموز 1969 (قصيدة)

117 - "الرصافي و الإبداع الفني" محمد شرارة، مجلة العرفان - لبنان، أيلول 1969

118 - "إغراء و رفض" محمد شرارة، مجلة العرفان، أيلول 1967

119 - "طيف مرّ من هنا"، محمد شرارة، في تأبين عبد المطلب الأمين، مجلة العرفان،

كانون الأول 1975، لبنان.

120 - "النوافذ الغائمة"، محمد شرارة، مجلة كردستان - العراق، آذار 1973 (قصيدة)

121 - "ثمن الصمود" محمد شرارة، مجلة العرفان - لبنان، أيار 1971

122 - "وداع" محمد شرارة، من دون تاريخ (قصيدة)

123 - "المساء الحزين"، محمد شرارة، طريق الشعب، 1976 (قصيدة)

124 - "رياح الجنوب"، محمد شرارة، كتبها أثناء الحرب الأهلية، و اجتياح إسرائيل

جنوب لبنان (قصيدة)

125 - "خواطر في الحياة و الموت" محمد شرارة، نظرات في تراثنا القومي، المؤسسة

العربية للدراسات و النشر - بيروت، 1982

126 - "طيور و شعراء" محمد شرارة، مجلة العرفان - لبنان، أيار 1978

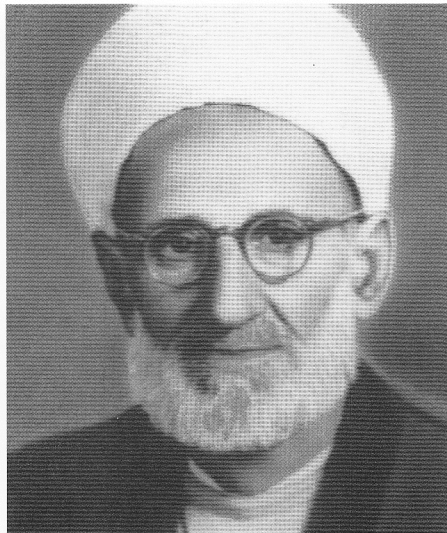
* * *

- 1 - رسالة بعثها محمد شرارة إلى جعفر الخليلي في عام 1934
- 2 - رسالة إلى جعفر الخليلي، صاحب جريدة الهاتف، بتاريخ 11/8 /1936
- 3 - رسالة بعثها محمد شرارة إلى جعفر الخليلي بحث فيها موضوع شقيقه عبد اللطيف شرارة بتاريخ 11/23 /1937
- 4 - رسالة كتبها إلى جعفر الخليلي، في بداية السنة الدراسية، عام 1936
- 5 - رسالة إلى جعفر الخليلي، بتاريخ 10/11 /1936
- 6 - رسالة إلى جعفر الخليلي 17/5/1937
- 7 - رسالة بعثها إلى جعفر الخليلي في 5/5 /1938
- 8 - رسالة من محمد شرارة إلى جعفر الخليلي بتاريخ 8/4/1939
- 9 - رسالة إلى جعفر الخليلي بتاريخ 12/2/1940
- 10 - رسالة إلى جعفر الخليلي بتاريخ 9/11/1940
- 11 - رسالة إلى جعفر الخليلي بتاريخ 8/1/1941
- 12 - رسالة بعثها إلى جعفر الخليلي بتاريخ 14/3/1941
- 13 - رسالة بعثها إلى جعفر الخليلي بتاريخ 24/4/1941
- 14 - رسالة بعثها إلى علي العامري عندما كان في لبنان 1974-1976
- 15 - رسالة بعثها إلى جعفر الخليلي بتاريخ 2/5/1941
- 16 - رسالة بعثها إلى جعفر الخليلي بتاريخ 4/6/1941
- 17 - رسالة بعثها محمد شرارة إلى جعفر الخليلي بتاريخ 19/1/1942
- 18 - رسالة بعثها إلى جعفر الخليلي بتاريخ 27/5/1942
- 19 - رسالة بعثها لأبنته مريم، بتاريخ 17/1/1968
- 20 - رسالة بعثها لأبنته مريم، بتاريخ 21/2/1968
- 21 - رسالة إلى ابنته حياة، عندما كانت في الخرطوم، بتاريخ 2/10/1968
- 22 - رسالة لابنته مريم بتاريخ 2/10/1968
- 23 - رسالة بعثها لأبنته مريم بتاريخ 25/10/1970
- 24 - الرسالة لابنته مريم بتاريخ 14 /11 /1970
- 25 - الرسالة التي بعثها إلى ابنته مريم بتاريخ 23 /3 /1971
- 26 - رسالة بعثها من بيروت إلى ابنته مريم، بتاريخ 29/6/1971
- 27 - رسالة إلى ابنته مريم بتاريخ 17/5/1972
- 28 - رسالة كتبها لأبنته مريم بتاريخ 1/11/1973

- 29 - رسالة إلى ابنته مريم بتاريخ 14/11/1973
- 30 - رسالة بعثها إلى ابنته مريم في 16/1/1974
- 31 - رسالة إلى ابنته مريم بتاريخ 13/11/1974
- 32 - رسالته إلى ابنته مريم في تاريخ 20/9/1974
- 33 - رسالة بعثها محمد شرارة إلى علي العامري بتاريخ 20/9/1974
- 34 - رسالة محمد شرارة إلى ابنته حياة شرارة، بتاريخ 2/5/1974
- 35 - رسالة بعثها إلى إبراهيم نعيم بزي بعد عودته من لبنان بتاريخ 19/9/1977
- 36 - رسالة بعثها إلى شقيقته سكرة شرارة، في عام 1978
- 37 - رسالة بعثها إلى شقيقه جواد شرارة بتاريخ 16/10/1977
- 38 - رسالة إلى إبراهيم نعيم بزي بتاريخ 19/9/1977
- 39 - رسالة بعثها لأبنته مريم بتاريخ 25/10/1977
- 40 - رسالة بعثها مريم شرارة لي، بتاريخ 12/1/1992



محمد شرارة مع بعض أعضاء الشبيبة النجفية العالمية،
النجف - ١٩٢٦



علي شرارة - والد محمد شرارة، لبنان



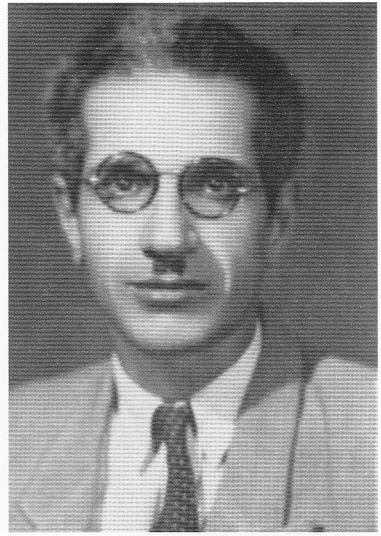
محمد شرارة أثناء التدريس في دار المعلمين الرياضية، سبع
قصون، بغداد - ١٩٤٧



محمد شرارة بالملايس الكردية في
السليمانية - ١٩٤١



مريم رضا، حبيبة محمد شرارة،
ديترويت- الولايات المتحدة



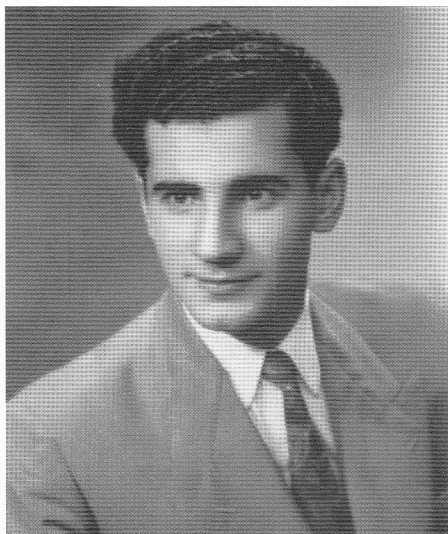
محمد شرارة، بغداد - ١٩٦٠



عبد اللطيف شرارة، شقيق محمد شرارة، بيروت - ١٩٥٢



زهرة الزين، زوجة محمد شرارة، بغداد - ١٩٥٩



مرتضى شرارة، شقيق محمد شرارة، بغداد - ١٩٥٠



خديجة شرارة، شقيقة محمد شرارة، لبنان - ١٩٥٦



مريم شرارة، ابنة محمد شرارة،
بغداد - ١٩٥١



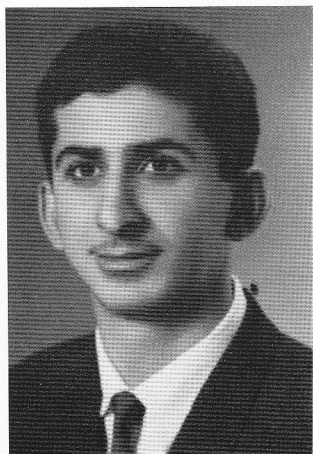
سكتة شرارة، شقيقة محمد شرارة
بغداد - ١٩٤٩



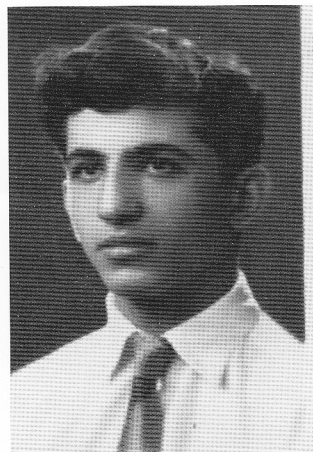
حياة شرارة، ابنة محمد شرارة، بغداد - ١٩٥١



بلقيس شرارة، ابنة محمد شرارة، بغداد - ١٩٥١



جهاد شرارة، ابن محمد شرارة، بغداد - ١٩٦٣



إبراهيم شرارة، ابن محمد شرارة، بغداد - ١٩٥٥